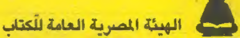
الأعمال الكاملة

خيري شلبي

المجلد الثالث

- أسباب للكى بالنار
- صاحب السعادة اللص
- المنحنى الخطر
- لحس العتب
- سارق الفرح
- موت عباءة



الأعمال الكاملة

خيري شلبي

المجلد الثالث

(قصص)

- أسباب للكي بالنار
- المنحنى الخطر
- سارق الفرح
- صاحب السعادة اللص
- لحس العتب



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٦

الاخراج الفنى : فاتن محمد القطامى

أسباب للكى بالنار

(قصص)

كــلوا باميــه

اللعبة من أساسها أن فريقا يجب أن يركب فوق فريق ، فأى الفريقين يركب الأول ؟ ذلك يقتضى لعبة أخرى .. ولكن كيف يصبح هناك فريقان ؟ . أولاد الحـارة والحوارى المتاخمة كلهم فى الجرن ساعة زهزهة القمر .. لابد أن يتوفر ولدان من الأشقيـاء مثل « محمود القرن » و « جنوم » ، تسـفر عنهما معارك طويلة بين هذه الحوارى كلهـا منذ الطفولة المبكرة . اذا اجتمعنا فى الجرن حقت اللعبة .. أى لعبة لابد لها من فريقين .. يقف الولدان فى الساحة كل منهمـا شاهر زنده متحدى .. يبدأ أحدهما بما يسمونه بالمطالقة :

ـ طالقنى ..

ـ طالقتك ..

ـ بزندى ..

ـ فلقتك ..

ـ اخترلك واحد ..

ـ اخترت فلانا . :

فعلى من يسمع اسمه من العيال ان ينسلت فى الحال وينضم الى رحاب من اختاره . ثم تبدأ المطالقة من جديد بين الشقيين الكبيرين . بذلك يصبح ثمة فريقان لكل منهما ولد متين يقوده فى مواجهة الفريق الآخر .

ثم تبدأ اللعبة بلعبة اسمها « كلوا بامية » . بأن يقف الفريقان فى صفين متقابلين ثم يرددون ، معا وفى نفس واحد عبارة « كلوا بامية » بلهجة غنائية ممطوطة مصحوبة ببسط الأكف فى مواجهة بعضهما البعض وجعلها تتماوج مع صوت الترديد ، بشرط أن تتوافق تموجات كل فريق . فاذا انقلبت الأكف فجأة على الوجه الآخر فانها لابد أن تنقلب كلها دفعة واحدة . فان شذت يد أو تأخرت فان فريقها يكون مطية حلالا للفريق الآخر ، يصطف الفريق المخطىء ويطاطىء عياله رءوسهم مع احناء ظهورهم والاستناد باكفهم على سيقانهم ليكونوا كالحمير سواء بسواء ، فى فرح يجىء الفريق الفائز ويتسلق الظهور ، كل راكب بمركوب غير أن الفريق الراكب قبل ان يمتطى الظهور يكون قد انزوى مع ولده ، الذى يعطى لكل منهم اسما مستعارا غير اسمه الحقيقى ، أى اسم يخطر على باله لحظتها ، ثم يتركهم يملأون حجورهم بالتراب ويركبون ، ليقوم هو بمهمته ، حيث يكون ولد الفريق المهزوم قد تقرفص فى مواجهة الصف الذى صار مكونا من راكب ومركوب . فيجىء ولد الفريق الراكب فيرفع ذيل جلبابه ويلف به راس ولد الفريق المركوب ، وفوق ذلك يضع كفيه على عينيه حتى لا يرى من خلال الجلباب ، ولد الفريق الراكب دائما خبيث ، يتلكا حتى يكف الصياح وليستمتع فريقه بركوب أطول ، اخيرا يصيح آمرا :

ـ لا ينزل ولا يتزلزل .. الا سفير جهنم .

على الفور يكون حامل هذا الاسم قد طوح ذراعه فى الهواء وقذف الشقى المعصوب العينين بحفنة من التراب فى وجهه . على الشقى المعصــوب العينين أن ينطق فى الحال بالاسم الحقيقى للشخص الذى قذفه بالتراب ، فان كشفه على حقيقته ينهزم الفريق الراكب وينهض الفريق المركوب ليركب .

حلو هذا الكلام ؟ حلو . أنا لم أزعل ابدا لأن قرعتى جعلتنى فى الفريق المركوب ، فأنت تركبنى وأنا أركبك ولكن بالأصول .. غير ان هذه الأصــول فى عرف العيال أمثالنا تصبح محتاجة لشىء من الزلزلة حين يبدو أن ركوب الراكبين بلا نهاية . ولقد انقصم ظهرى والولد المعصــوب العينين يتلقى ســفع التراب من كل ناحية ويعجز عن تحديد مصدرها ، أمطونى عقلكم ، لقد غلبنى النوم وأنا منحن بحملى ، فأخذتنى ســنة فرأيت ولد الفــريق الراكب وولد الفريق المركوب يتضاحكان فى سعادة ويحتضنان ويفعلان معا ــ فيما بدالى ــ قلة أدب ، فارتعشت ، وفتحت عينى من خوف ومن فزع ، فرأيتنى لا ازال منحنيا وراكبى يزداد ثقلا فوق ظهــرى .. والولد المعصــوب العينين يتلقى التراب دون ملل . فان هى الا برهة وجيزة ساهيتهم جميعا واندفعت من بين ساقى راكبى فوقع فانكسرت رقبته فواصلت الجرى حتى دارنا .. فهل انا غلطان ؟ .

الفرجـــــة

لست اذكر بالضبط متى جلست امام هـذه الخشبة في هذا المسرح . بل انني لم اكن اعرف اننا في مسرح واننا نتفرج الا منذ وقت قريب وبعد ان جلل الشيب فودى . ويخيل الى انني في جلستي هـذه على نفس هـذا الكرسي منذ ان جاءت بي امي ذات لحظـة بعيدة جـدا الى هـذا المكان واسـلمتني الى من اجلسني ، وربتت كتفي والقمتني حبة بونبون وزعمت انهـا عائدة لتاخذني بعد قليل ثم لم تات بعدها ابدا ــ الواقع انني غير واثق تماما من هـذا ولكن اذكر انني كنت اتسلل خارجا للحظـات اذهب فيها خلسة الى العمل او دورة المياه او لمقابلة فتاة ضـالة او للوفاء بموعد مع صديق غريب .

ولم اكن اعرف اذا ما كنت احب الفرجة على هؤلاء القوم او لا ــ كما لا اعرف ان كان الواقفون على الخشبة تحت دائرة الضوء ممثلين حقيقيين او ادعياء او مجرد دمى تحركها يد خفية غير منظورة .. لكنني كنت قـد بدأت اعرف ان في الأمر ثمـة مسرحية غامضة وان علينا جميعا ان نتابعها بدقة وانتباه حتى لو لم نكن نفهم منها شيئا على الاطلاق ! .

كذلك كنت أعرف اننى وهـذا الحشد الهائل من الجماهير نجلس فى هذا المكان بحكم الانتماء لا بموجب تذكرة أو بطاقـة دخول ، واننا لهذا نحبه حبا شديدا حتى ولو كانت جلستنا فيه غير مريحة ودورات مياهه تعج بالغائط النتن وتطفح ما فى جوفها على أرض الصـالة الممتدة بلا نهاية ثم بدا أن ظلالا من الكآبة تلقى بثقلها على صدورنا جميعا .

فلما ان اطلت لنا من عيوننا هـذه الأثقال فسرناها بفعل الشيخوخة التى نصفها دائما ـ تعزية لأنفسنا ـ بأنها على غير أوان ، ثم اذا بنا فجـأة نكتشف ـ بفعل ريح خرقاء ـ ان المسرح كان بلا سقف وان الزخرف الجميل الذى كان يغطينـا كان فى الأصل قماش خيم قبل ان تأكله يد البلى وتطير الريح بقاياه ، ثم اذا بالنوافذ والمنافذ والأبواب قد فسـدت أقفالها وانتزعت أبوابها فصـارت تيارات الهـواء تتلاقى وتصطك مرعدة وتكاد تبعثرنا جميعا فى صراعات ، واذا بكل المتابعين على خشبة المسرح قد بعثرت ثيابهم من أجسـادهم وظهر عريهم الغليظ وعوراتهم القبيحة حتى بات النظر اليهم فى حد ذاته شيئا مؤلمـا بل أشـد ايلاما من العار نفسه . وكان من الواضح أن جميع الجالسين ، برغمهم فى صالة الفرجة يحسون بالعار الأهم .

وكان الشعور بالخزى والتقزز قد دفع بعضنا الى محاولة الخروج من الصـالة الى الشارع . وكنا نعمل حسـابا للبوابين الذين لابد ان يأخذوا علما بخروجنا كى يسمحوا لنا بالدخـول عند العودة . وكنا نسخر منهم لأننا سـوف لن نعود ان نحن خرجنا هذه المرة لكننا لم نجد على البوابة ثمة من أحد ، فغرحنا فلما اندفعنا فى سبيل الخروج وجدنا ان عتبة باب المسرح تقف

بنا على ارتفاع شاهق وان الفراغ من تحتنا عميق عميق عميق..
وليس الى الأرض ثمة من سبيل . انهارت قلوبنا فى الفراغ القاتل
الا أن ثمة احساسا داعبنا بأن الأمر ربما كان مجرد رادع جهنمى
الهدف منه أن نعود الى أماكننا لنواصل الفرجة على نفس
الناس .. من فرط الرعب صرنا .. تملقا لهذا الاحساس
فحسب . نواصل التصفيق بأكف ملتهبة ! ..

أسـباب للكي بالنـار

توبخني أمي كلمـا اتسخت يدى .. وتقرصني فى خدي قرصا موجعا اذا اتسخت ثيابى ، أو قدمى بالوحل . ولا تكف عن تهديدى بالكي بالنار اذا أنا فعلتها على نفسى فى أثناء النوم ، ولهذا فانني أتجنب اللعب بالنار من قريب أو بعيد ، وانفر من شعلة عود الكبريت حين يشعل أبى سيجارته أمامى .

أما التوبيخ والقرص الموجع فهو يحدث كل يوم ، وأما الكى بالنار فانه قد حدث ذات يوم ، سخنت أمى يد الملعقة على لهب البوتاجاز ولسعتني بها فوق مؤخرتى ، ولايزال موضعها يوجعني كلما تقلبت فى أثناء النوم ، فأقوم فى الحـال أجرى الى دورة المياه.. وهكذا عوفيت من لسع النار كل يوم ولكن لم أعد أعرف كيف أنجو من الوسخ والقرص الموجع ..

المصيبة انني لا اذهب الى الوحل والوسخ ولكنه هو الذى يأتى الى ..

ففى الصباح أرتدى ثيابى وفوقها مريلة المدرسة نظيفة ذات رائحة حلوة ، وأعلق الحقيبـة الجلديـة فى كتفى فوق ظهرى ،

والبس الشراب الأبيض والحذاء الأسود واضع الشلن الفضى فى جيبى بحرص ، ثم تقرصنى أمى فى أذنى قائلة :

« شايف هدومك نضيفة ازاى ؟ .. اياك ترجع بيها روبة عشان أنيلك بستين نيلة » .. ثم تفتح باب الشقة وتدفعنى الى الخـلاء وتتركنى أواجه الخطر وحدى ، مكتفيـة بالوقوف على الباب عاقدة ذراعيها فوق صـدرها تتفرج على وتطلق الصياح المتواصـل .

اتخطى العتبة ، لافاجأ بحوش البيت كله وقد صـار بركة كبيرة من مياه المجارى يذوب فيها الغائط ، ارتفعت مياههـا وغطت ثلاث درجات من السلم الذى نهبط منه الى الشارع .

واذ اقف حـائرا مترددا موشـكا على البـكاء تنفجر امى صارخة فى ان انتبه لخطواتى ، ثم تندمج فى لعن ناس مجهولين ليس فى قلوبهم رحمـة أو ضمير ، فاعرف انها تقصد اصحاب البيت الذى نسكن فيه ، حيث انهم ابتنوا فوق شقتنا وامامهـا وخلفها اثنتى عشرة شقة دون ان يبتنوا لها خزانات للمجـارى ، اثنتا عشرة أسرة غير اسرتنا تدلق مياه غسيلها وغائطها لتتجمع كلها فى خزان شقتنا الكائن تحتها وفتحته أمام بابها .

وكان الحل الوحيد كما يقول أبى أن يتم كسحه بعربـة البلدية ثلاث مرات فى اليوم على الأقل ، ولمـا كان هذا أمرا صعبا فان الجميع استصعبوا مهمة الكسح من أساسها ، خاصـة أنهم اذا نجوا من مجاريهم الخاصـة لن ينجوا من المجارى العامة التى تنفتح هى الأخرى زاحفة علينا من كل ناحية . تغرق الشـارع كله وتصنع بركا ومستنقعات متجـاورة تطفح بالنتن ..

وثمة ناس يظنون انهم من أهل الله يتطوعون بجلب عربات كبيرة من التراب والرمل يدلقونها هنا وهناك لتصد غائلة الموج النتن عن مداخل بيوتهم ، ولكن السيارات تمر فتحفر لنفسها قنوات غائرة ، والناس يمرون فتصنع أقدامهم مدقات رفيعة لولبية ، والمياه النتنة لا يحتجزها حاجز ، فتلف حول الأكوام الهرمية ، حتى باب الشارع والمدينة كلها مجموعة من الأهرامات القزمية مزروعة كجذوع اشجار خرافية وسط بحر من الغائط النتن .

احاول فى وقفتى على العتبة تذكر الناس وكيف يسلكون طرقهم لكى افعل مثلهم ، فارى الواحد منهم أفنديا محترما نظيفا يمشى على مدق رفيع حول كومة هرمية ، ثم يقفز مثل الكلب متخطيا بركة عريضة ، ليصعد كومة هرمية اخرى ، حيث يهبط من حذائها ليتساند على حائط .

أحس اننى لن استطيع هذا .. ترتعش ساقى واهم بالبكاء لولا الخوف من فردة الشبشب التى يمكن أن تجتاحنى فجاة من وراء الباب .

استذكر مواضع القدم التى لابد ان اكون قد حفظت خطواتها بالترتيب اذ يجب على اولا ان اتقدم بحذر لأضع قدمى اليسرى فوق حجرة كبيرة مدببة مثبتة بجوار فتحة الخزان المختفية تحت عمق المياه الوسخة ، ثم استند على الحائط لأنقل قدمى اليمنى الى فردة كاوتش مثبتة بجوار الحائط تصنع لنفسها بركة صغيرة ، أدوس فوقها برفق ، اظل واقفا على قدم واحدة الى ان اتمكن من نقل الأخرى الى جوارها ثم أحود منكسرا مع الجدار ، سائرا بجواره فوق شجرة ممددة فى قلب المياه كجثة غريق يتيم بلا أهل ولا بلد ، سوف يبتل بوز الحذاء ولابد

ولكننى سأحـاول السير بخفة حتى لا تصعد الميـاه الى داخل الحـذاء .

وحين انتهى من السير فوق هذه الشجرة اميل لالقى بنفسى فوق كومة هرمية من الرمل الرطب ، مجتهدا أن تقع يدى فوق الراس الهرمى الذى لم يبتل بعد ، ثم اتسلق الربوة الهرميـة التى ان تجاوزتها صرت فى الشارع العمومى ، حيث توجد مدقات وقطع من الحجر وفرد الكاوتش يمشى فوقها الناس ، فأمشى وراءهم فى هـدوء .

ومهما نجحت فى التزام المدقات المتعرجة والتقافز فوق قطع الحجـارة فان الخوف يظل يدفعنى الى البـكاء ليس خوفا من السقوط فى بحر المجارى وانما خوفا من السيارات التى تقبل خلفى صاعدة هابطة زاحفة والمياه الوسخة تفر من بين عجـلاتها صارخة لتصفعنى على وجهى وتغرق ثيابى .

وقد تعودت على الشروع فى البكاء والانخراط فيه كلمـا أحسست بسـيارة مقبلـة ، الأمر الذى يدفع بعض المـارة الى احتضـانى حتى تمر السـيارة قائلين « متخـافش يا حبيبى متخافش » ، لكن ما أخاف منه يكون قد وقع .

أصل الى باب المدرسـة والعرق يتصبب منى . يتابعنى الأولاد والمدرسـون ضاحكين . أنتبه ، فاذا بمريلتى مبرقشـة بالغائط الأزرق وقدمى ملطخة حتى لا أعرف الشراب من الحذاء .

يشير مدرس الألعاب نحوى بالخيزرانة فأخرج من الطـابور ارتعش باكيا بصـوت عال .. يضع اصبعه فوق شفتيه هامسا فى فحيح مخيف :

« هس س .. س .. اقطع خنس » .

ثم يعاجلني بخيزرانته : « أيه اللى أنت عامله فى روحك ده ؟ »

فأجار بالصراخ والعواء ، فيكف من الضرب ليعود فيسالنى. لا اجد جوابا . يقفز بصرى المرتعب ، ينحط هناك عند الباب الحديدى المغلق ، أرى صورته تتموج فى مياه المستنقع الممتد امام باب المدرسة . اتعجب كيف وصلوا الى المدرسة وهم على هذه الحالة من النظافة بل كيف وصل بقية الأولاد .

وكنت اعرف ان بعضهم جاء المدرسة راكبا سيارة أبيه العائد من بلاد المال ، وان بعضهم الآخر خاض الوسخ مثلى ولكنه نجا من البرقشة التى تفضحنى .

اعود الى البيت وطعم الدموع فى حلقى جاف وبقايا البكاء فى عينى وعلى وجهى لكن امى لا ترى شيئا من ذلك ، انها لا ترى سوى شكلى وقد صار كما تقول كأننى ممسحة مسحوا بها أرض الشارع ، فتستقبلنى بعلقة يهترىء لها كل جسدى ، فيما هى تنزع عنى ثيابى وترميها فى حلة الغسالة وتلعن العيشة واللى عايشينها .. فادخل الغرفة ابحث عن منفذ للهرب قبل ان تغير رأيها وتعود وتضربنى ، فلا أجد سوى النوم طريقا مظلما أختبىء فيه .

وكنت مستغرقا فى النوم ذات ليلة فعاودنى الوجع فى موضع اللسع بالنار ، واخذ يلهبنى ، وكنت أعرف لحظتها اننى يجب أن أنهض فورا وأجرى الى دورة المياه ولكننى كنت أجد لذة خفية فى المراوغة والاستمرار فى النوم ، والمياه المحتبسة فى جوفى

تزار وتحاول الاندفاق وأنا أجاهد لمنعها بالقوة ، ثم بى أسمع صراخا عاتيا تبينت فيه صوت أمي ، تبعه هياج وريح لاسعة ، فانتفضت من الفراش واقفا على الأرض ، فاذا بقدمي تغوصان فى بركة من الغائط الأزرق النتن ، واذ بأمى تصرخ متنبهة اياى الا أتحرك ، فتسمرت فى مكانى أرتعش ، وكانت هى مشمرة ثيابها وكل اخوتى متكورين فوق السرير مثل الكتاكيت الفزعة ، وثمة رجال ونساء من الجيران ينتهكون حرمة بيتنا ويتحركون فيه على راحتهم ، يرفعون الكراسى والدولاب والترابيزات ويستخرجون من قلب المياه الزرقاء آكلمة وحضائر من البلاستيك تنثر منها المياه الزرقاء من أرض شقتنا التى تحولت الى بحر صاخب هائج تكتسحه مياه المجارى متسلقة السرير والدولاب وكل شىء ، كأن مستنقعات البلاد كلها اتصلت ببيتنا بوصلة سحرية .

وكانت الرائحة النتنة فوق ما يحتمله أى انسان ، وكان ابى قد عاد من الشغل فخلع بذلته الأنيقة ورباط عنقه وراح بالفانلة والسروال يساعد الناس فى كسح المياه ودفعها الى خارج الشقة ، حيث ترتد عائدة من جديد اذ لم يعد الشارع فى حاجة الى مزيد .

وكانوا جميعا يسبون ويسخطون فاعرف من سبهم وسخطهم ان مياه المجارى قد طفحت من عندنا — أى من داخل البيت — وأبى يرد مؤكدا انها اقتحمتنا من الشارع ، فيما تصيح أمى مؤكدة أنها نزلت علينا من فوق .

ويجىء من عند دورة المياه صوت رخو أعرف أنه صوت جارتنا اللعوب الحسناء ، التى يتهمها أهل الشارع بأن هذا المستنقع كله تخلف من استحمامها فى الرذيلة كل يوم ، كان صوتها

يقول فى ولولة طرية ممطوطة أن صنابير مياه الشرب تصب هى الأخرى ماء وسخا من مياه المجارى ، واضافت قائلة :

« لا من فوق ولا من تحت يا حبة عينى دى باينهـا من كل ناحيـة » .

وكنت مستمرا فى جلستى على حافة السرير اخشى السقوط، واحس اننا سنبقى هكذا مدة طويلة جدا ربما كانت بلا نهايـة . ثم تذكرت ان المياه المحتبسـة فى جوف تريد الاندفاق فى الحـال فشرعت أبكى منبها الى ذلك . وسط المحنـة ضحكت جارتنـا اللعوب ، وجاءت بالقصرية حيث وضعتها بين ساقى وسـاعدتنى فى تشليح ثيابى فاقشعر بدنى ولكنهـا بيديها عدلتنى فى الوضع الذى يجعل بولتى تسقط كلها فى قلب القصرية . وكنت أراهم غارقين فى الوحل والغائط ، وكان ذلك يحزننى ويرعبنى ، لكننى كنت أشعر بشىء غريب كأنه السعادة يتمشى فى مؤخرة راسى ، ولم أكن أعرف هل هو سعادة أم لا ، ولكننى كنت أتوقع أنى من غد ربما نجوت من التوبيخ والقرص والكى بالنار .

الســـــاعة

كنت أسير بشارع مزدحم وبراق ، أظنه شــارع سليمان أو ما اشبه . كنت أدفع جموعا هائلة من البشر فى كل خطوة حتى اخطو . وكانت نساء القاهرة كلهن عاريات تفوح منهن رائحــة الغاز . وهنــاك رجال يشبهون أنابيب الغاز يلعقون ظهور النساء ويضعون لهن النقود بين اثدائهن وبين افخاذهن . فجــأة رايت اخى الصغير بجلبابه البلدى وطاقيتــه البيضــاء ، تفصلنى عنه اكتاف وافخاذ واثداء .. فرحت برؤيته ، اخذت أشرئب بعنقى لكى يرانى .

كان هو الآخر يشرئب بعنقه ، حتى اذا تقاربنا بدا كان كلا منا سيمضى فى طريقه لكن كلا منا تهيــأ لكى يســلم على الآخر ، ولمــا مددت يدى مد هو الآخر يده من خلال الموانع الكثيرة وتلاقت يدانا فى لمسة سريعة تلقينا بسببها زجرا وشتما وتوبيخا واتهامات كثيرة .

ثم ذهب لا أدرى الى أين . فتذكرت فى الحال اننى لم اكن رايته منذ سنوات . وتذكرت أننى كنت اريد أن اســأله عن اشياء كثيرة جدا .

وانتصب سؤالى : الم تعرفوا بعد شيئا عن أخى الأصغر الذى لم يعد من الحرب ؟ ولكن السؤال لم ينطلق .

وفى الحال رايتنى اسير فى جنازة ، وسألت عن الميت فقيل لى أنه زوج شقيقتى الكبرى وانه مات فى الحرب وجاء خبره . وكان يخيل الى ان الذين يسيرون فى الجنازة حولى سيلوموننى اذا انفردوا بى ولكننى لم اكن اعرف بالضبط علام اللوم . ثم اننا وصلنا الى مكان أظنه المقابر ، شىء واحد أكد لى انها المقابر ، ذلك هو الجميزة العتيقة التى تتوسط مقابر قريتنا .

وبينما كنت أقف بعيدا عن الذين راحوا يقيمون الصلاة على الجسد رايت اخى الأصغر الذى لم يعد من الحرب حتى الآن والذى لم نتمكن من جمع أى معلومات عنه رغم اننا سألنا فى كل مكان . كان وجهه المستطيل ببشرته البيضاء مثلما عهدته ضاحكا على الدوام . كان يرتدى جلبابا ويتحزم فوقه بحزام الجند . احتضنته وبكيت .

ولما قلت له اننا دخنا فى السؤال عنه ابتسم كالعادة وقال اننا ما كان يجب أن نسأل . ثم سارت الجنازة من جديد لتدخل قلب المقابر وكان ثمة شىء من الاحترام يغلف الموكب رغم أننا من عائلة غير جديرة بالمجاملات ، وقلت لنفسى :

هكذا تكون جنازة الشهداء الأبرار . واحسست بالغيرة من المرحوم .

لكننى فجأة اكتشفت أن الدكتور هنرى كيسنجر والرئيس نيكسون والرئيس فورد يسيرون فى مقدمة الجنازة

وكانوا أيضا يتلقون العزاء ، وأهل قريتى يحضرون فى شـهامة ويسلمون عليهم ويبتسمون مثلهم . وفجأة لم يعد هنـاك أحد على الاطلاق ، ولم أكن أرى أمامى سـوى صحراء مترامية الأطراف تفح بالصهد ورائحة الغاز ، وكان ثمة صـوت لفقيه يرتل القرآن فى مكان ما ، وكانت الشمس المعلقة فى السـماء تتدلى فى الأفق البعيد مثل ساعة بلا عقارب وبلا ميناء .

قرافـة السـيارات

افقت من النوم فجاة مثلما كان قد دهمنى فجاة ، كان أول شيء لقى بصرى هو لمبـة « الدينامو » الحمراء وبجوارها لمبـة الزيت ذات اللون البرتقـالى ، وكان محرك السيارة قد توقف وكنت لا ازال جالسا على مقعد القيادة وحدى ، ولست افهم لمـاذا توجست فالقيت نظرة حذرة على المقعد الخلفى والمقعد المجاور لى . كان صف من السيارات يحاذينى لا يفصلنى عنه مقدار اصبع ، بحذائه على اليمين صفان آخران ويحذائى على اليسار ثلاثة صفوف ، بعد برهة تبين لى أن صفين منهما راكـنـان حيث لا تظهر من خلال زجاج السيارات رءوس سائقين ..

عربة نقل الموتى هى التى تقف أمامى مبـاشرة وتحجب عنى الرؤية تماما ، بصندوقهـا الرمادى الداكن الكئيب ، وعبـارة « تحت الطلب » تتلوى كالثعبان على جدران صندوقهـا الذى يشبه المقبرة . لم يكن ثمة صوت لمحرك اى سيارة من حولى ، قدامى او خلفى ، ولا اعرف ان كان سائقوها قد اوقفوا المحركات يأسا من الحركة أم انها توقفت من تلقاء نفسها بعد نومهم كمـا حدث معى ..

كذلك لا اعرف منذ متى توقفنا فى هذه المنطقـة ولمـاذا ..

بحثت عن اشارة مرور حمراء فلم أجد . فتحت باب السيارة ونزلت . رميت البصر امامى ، فتعثر فى أسقف صفيحية حديدية خشبية بعضهـا صدىء وبعضهـا مصقول ، لمركبـات متوقفة فى مكانها لا حد لنهايتها وعلى مدى ما يستطيعه البصر ليس ثمـة من دليل على وجود اشـارة من أى نوع ، فكان من المستحيل أن أعرف سبب توقفنا أو منذ متى توقفنا ..

الراجلون يتدفقون من أماكن مجهولة ، ينسربون من خلال السـيارات ، يتقافزون كالقرود المدربـة . استحليت مراقبتهم لمعرفة كيف يتسنى للمرء منهم أن ينفذ من بين سيارتين فى حين أن أوسع مسـافة بين سيارتين تكفى ـ بالكاد ـ لنفاذ عرسـة .. ثم أننى استحليت الأمر أكثر واكثر ، حيث تكشفت لى مواهب عظيمـة فى ابنـاء جلدتى المصرية ، هى قـدرة الواحد منهم على امتصاص نفســه الى داخله حتى ليصـير حجمه فى رقة حجم العرسة ، حتى ذوات المؤخرات القباب العاليات كانت القبة تعلو فجاة كالمطاط فيما تنضغط المؤخرة ويلفظ الجسد نفســه من بين سيارتين فى كل خطوة ..

تذكرت أننى كنت ذاهبا فى مشوار شديد الأهميـة قررت بالأمس ومن قبل الأمس بأمس أن أذهب اليه لانهيـه ، بحثت فى ذاكرتى عن المكانالذى كنت أقصـده والأمر الذى كنت أعنيـه من ورائه فلم أستطع وان كنت لا ازال اثق أنه مهم وضرورى ، بدليل أننى انقله كل يوم فى مفكرتى لليوم التالى بالقلم الرصاص الملحق بها ، كرة سـوداء فى اول السطر ، ثم كلمـة واحدة الخص بها المشوار أو ارمز بها اليه .

كان يجب أن أنوه بعض الشيء بكنه هذا المشوار أو طبيعته على الأقل .

لمـاذا لا يصرح الانسان فى مفكرته عن مشاويره ومواعيـده بدقة لكى ينفذها بدقة ؟ اهو مسايرة لطبيعة المفكرة التى تقتضى رمزا فحسب ؟ فلماذا لا يكون هذا الرمز صريحا معبرا ؟ ..

أم ان الانسـان يخشى ان تقع منه المفكرة فيلتقطها احد فيطلع على اسراره بالمجـان ؟ لست اعرف ولكننى ارتعد اذا ضـاعت مفكرتى ـ رغم أنها مبهمـة ـ او دليل تليفونى الصـغير ـ رغم اقتصاره على خيرة اصـدقائى ـ ولهذا اضعهما فى مكان دفين يعوقنى احيانا عن سهولة استخدامهما ، مثلما اضـع سلسلة المفاتيح بحرص شديد فى جيبى الداخلى الصغير حتى لا أنساها فى مكان ما فاتشرد يوما او بعض يوم او ربما الى ما لا نهاية ، رغم انهـا لم تعد تستخدم فى فتح شىء ذى بال ، كثيرا ما انتويت تخفيفها ، والابقاء على مفتـاح السيارة وحده ولكن وجوده بين مجموعـة من أبناء جنسـه بدا لى أكثر حفاظا عليـه .. اخذت يمناى تداعب سلسلة المفاتيح فى ثقب « المـارش » ويسراى تداعب جيوبى بحثا عن المفكرة فلم تصطدم هـذه ولا تلك بشىء ، ففزعت ، وصرت أمعن فى البحث بدقـة وأنا اتعجب كيف دارت السـيارة بدون مفتاح ، حاولت أتذكر متى ركبتها وادرتها فلم افلح لأن ذلك بدا لى منذ زمن بعيد بعيد بعيد ، كذلك حاولت تذكر آخر مرة اخرجت فيها مفكرتى فلم افلح .

احسـست بقلبى يغوص فى دوامة من الاضطراب والقـلق بردت له كل اطرافى حيث تذكرت فجـاة أن بطـاقتى العائليـة ورخصتى السيارة والقيادة كانت فى أحد جيوب المفكرة ، ثم ان حقيبتى نفسها ليست موجودة هى الأخرى مع اننى لم يحدث فى يوم من الأيام أن خرجت بدونها لأنها تنفعنى على الأقل فى حمل البطاقات التى بدونها لا وجود لى فى هذه المدينة :

البطاقة العائلية والبطاقة الفئوية والبطاقة التموينية وكارنيه النقابة وبطاقة التموين وكارنيه الأمن لدخول المصلحة التى لا أذكر آخر مرة دخلتها ، وجواز السفر الذى لم أعد استخدمه مطلقا ..

اخذت انفخ من الغيظ واقاوم الرغبة فى الصياح والبكاء بصوت عال . يطرأ على ذلك الخاطر التقليدى المتاح ينبهنى بتاجيل ذلك الآن حتى لا انشغل عن الطريق وقيادة السيارة . انظر حوالى واسام رؤية اشباه البشر ، ولا أحد يقول لى لماذا نحن متوقفون هكذا ومنذ متى . تبينت اننا فى شارع عمومى دائرى حول المدينة ، على اليمين ـ بعد صفوف السيارات بناء من الطوب الأحمر المنسق على شكل مهيب يقف أمامه ثلاثة جنود يشرعون بنادقهم فى وجوه المارة واقفيتهم وبطونهم ومؤخراتهم وتستدير البنادق خلف من يستدير ويمتط سلاحها ليمشى وراءه أينما اتجه ، فيما يظل الجندى واقفا بخوذته البيضاء وبذلته السوداء كالخفاش الأبله . وعلى اليسار ـ بعد صفوف السيارات كذلك ـ بناء قديم كالح غليظ الجدران يبدو انه موغل فى القدم ، سرعان ما تبينت أنه مصنع للثلج . ثم سرعان ما تبينت أن فى الجو أصواتا طغت على صوت الوشيش والطنين المتصاعد من مصنع الثلج ، محركات سيارات استانفت الحركة ، موسيقى أجنبية راقصة مصحوبة برطانة أجنبية وفحيح مجون ، صوت الدربكة على الواحدة الكبيرة لتتبعها شخاليل تتراقص معها أرداف وافخاذ تمشى بين السيارات كرقصة الحداة اصابتها فى السماء رصاصة مزقت جناحيها .

فوجئت بان صفوف السيارات المجاورة لى من الناحيتين تزحف ، فخيل لى أن سيارتي هي التي تتراجع الي الخلف

فداخلني رعب شديد أربكني ، ومن ورائي تندفع نوافير الصياح الآلي المقلق المتدفق .

تبينت أخيرا أن على أن أدير محرك السيارة فلم أجد المفتاح ومن حسن الحظ أن « الكونتاكت » كان مفتوحا . طلع لي من تحت الأرض من رأيتــه يدفع سيارتي بيديه قائلا لي : عشق . فوضعــت عصـاة الفتيس في خانة السرعة الثانيــة ثم أخذت ارفع قدمي اليسرى عن « الدبرياج » شيئا فشيئا فيما تدوس قدمي اليمني على البنزين حتى دارت السيارة كانت عربة نقل الموتى في انتظـارى بل كدت أصطدم فيها بعنف لولا سـتر الله وقوة « فراملي » ، ثم صارت أنهر السيارات تتدفق حوالي من كل ناحية ، لكنها جميعا توقفت من جديد .

لا ادرى كم مرة من الزمن ، لكنني حين سمعت مزمارا ينبح خلفي رفعت بصرى عن الجريدة التي كنت اتصفحها لأعرف منها عدد السلع التي سوف لن تساعدني الحكومة في ثمنها بعد اليوم ، وكنت قد اشتريت الجريدة من صبي يمر بالجرائد بين السيارات مناديا عن هذا النبأ .

وجدت الخلاء امامي متسعا ولا اثر فيه لسيارة نقل الموتى، فعشقت ودست بنزينا واندفعت وقد سرني أن الســيارة أخيرا سوف تمشي على السرعة الثانية والثالثة بعد طول شخير يعواء على السرعة الأولى ، لكنني في اللحظة التي سحبت فيها عصــا « الفتيس » الى خانة السرعة الثانيــة توقفت السيارة التي أمامي فجاة فدست « فرملة » الخطر واهتززت في جلستي ودق قلبي فاغمضت عيني متنفسا الصعــداء وقد توقعت أن ينزل ســائق اللورى ويوبخني على اندفاعي .

غير انى حين فتحت عينى وجدت اللورى لم يكن لوريا بل هو صندوق عال فى لون الدبابة الزرقــاء التى تعف على جثث الموتى له سلم حديدى وباب بدلفتين يجلس خلفهمــا شرطيــان ببذلتين سوداوين وخلفهما باب حديدى آخر مغلق بقفل كبير من الخارج ، سرعان ما فهمت ان هذه السيارة تنقل فى هذا الصندوق بعض المساجين او المعتقلين من سجن الى سجن أو الى محكمــة أو الى حيث لا يعلم الا الله .

كانت راسخة القدم فى وقفتها والشرطيــان يأكلان البطاطا المشوية الساخنة وبين فخذى كل منهما مدفع رشــاش . تذكرت « سمير » شقيق زوجتى و « شريف » ابن خالتها وقلت لنفسى ترى أيكون أحدهما أو كلاهما فى هــذه السيارة ؟ وتقت لرؤية سمير الذى احبه واعيره كتبى ، فخفق قلبى بشــدة حين تذكرت أن بعض هذه الكتب ربما كتبت عليه اسمى وهى عادة كففت عن ممارستها منذ زمن . .

حولت بصرى عن السيارة بحثا عن نسمة هواء . العربــة المجاورة لى على اليمين تقودها امرأة فاتنة ناهدة الصــدر ترتدى منظارا أسود ويتصــاعد من سيارتها صوت موسيقى أجنبيــة للديدة . خلف هذه السيارة مباشرة سيارة مرسيدس يركبهــا رجل يرتدى العقال والدشداشة ، منتفخ الأوداج ملظلظ الوجه ، يكاد بوز ســـيارته يصعد فوق مؤخرة سيارة الفاتنة . دققت فى الفاتنة فعرفت انها وجه مشهور . دققت فيها أكثر بحكم الغريزة الجماهيرية ازاء المشهورين حتى لو كانوا مجرمين عتــاة فتبينت انها تتحدث مع لابس الدشداشة والعقال فى السيارة المرسيــدس الخلفية وذلك عبر المرآة العاكســة ، وكانا يتبسمان فى نشــوة من ينجح فى استغفال الحشود ؛ الموسيقى الصــاعدة من سيارة

الفاتنة كانت ذات رائحة مفعمة بالدفء والفســوق ، فعاودت النظر اليها بامعان فلاحظت ان جسدها وان جمد على اطار الجلسة أمام عجلة القيادة فان كل بقعة فيه كانت تنتفض وتتراقص في لذة مثيرة للحيوان الذى فى داخلى .

ابدا لم يكن ذلك لمجرد اننى لا أتذكر اعضـــاء جســدها الا هكذا ، لاحظت أن شفتيها تتحركان على الدوام وكانتا تميلان نحو صدرها كأنها تصب الكلام فى ذلك المصحف الذهبى المتدلى من عنقها .

ركبنى الجنون فاستدرت ناظرا بكل انتبــاهى الى لابس العقال راكب المرسيدس فوجدته هو الآخر يلعب شفتيه ويضغط عليهما لدى كل جملة فيما يتململ فى حركة موسيقية لشــدة سرعتها بدت ثابتة ، ورأيت السلك الهوائى اللامع منتصبا فوق سيارته وفوق سيارتها فقلت لعلهما يمارســان اتصالا خاصــا وحديثا على الهواء ، ثم عدت وقلت لعلها احــلام دهمــاء سقيمة الخيــال .

لويت عنقى فى سأم الى الجهة الأخرى ، فرأيت جموعــا هائلة من البشر تقف على الرصيف متهالكة تتساند على الهواء ، يطل من عيونها موات وسأم وانتظار ميت الأعصــاب ، عرفت أنهم ينتظرون الأتوبيس ، ثم وجدتنى واقفا بينهم انفخ من غيظ ومن ألم ، ثم جاءت نفس الفتــاة التى كنت اقابلها كل يوم على مثل هذه المحطة ، ابتسـمت لى كالعادة ابتسامة تقاوم الكد والتعب والهموم والكذب على النفس ، وصرت أبرطم والعن كل الرءوس الشاهقة ، وهى لاتنى تهدىء فى أعصــابى وانا اندفع فى مزيد من العصبية والهياج رغم خوف كامن فى قعر البطن ينذرنى بالويل مما أفعل .

ثم رأيتنى منحشرا فى الأتوبيس والفتاة منحشرة بينى وبين الجدار الزجاجى الفاصـــل بين الدرجة الأولى والدرجة الثانيـــة وكنا نتكلم فى مشاكلى فى العمل ، ومشـاكلها مع أهلها حول انفرادها بمرتبها الذى هو فى الأصل ضئيل لا يكفى مواصـــلاتها ، ثم نعرج بابتسامة واهنة على موضـــوع الشقق السكنية التى لم يعد اليها ثمة من سبيل .

ثم رأيتنى نائما على السرير السفرى الصدىء البارد فى شقة حماتى الكائنـــة بأعماق حارة تسبح فى العفن والظلام والرطوبة . وصوت حماتى المرور يأتينى من الفسحة وينفذ الى اذنى عامدا من تحت المخدة وشرائح التعب الثقيلة ، وصـــوت الفتاة التى باتت زوجتى على سنة الله ورســـوله يأتينى هو الآخر من خـــلال صوت أمها ينتحب فى عذاب مكتوم قائلا :

« وانا حاعمل ايه بس يارب فى بختى .. دا غلب ومكتوب على حاروح منه فين واروح بيه فين ؟ » .

لم أغضب لقولها ولكننى عجبت من نفسى كيف تمكنت من معاشرة هـــذه السيدة التى هى عبارة عن حزمة من الأسى والغلب ملفوفة فى غلاف شكل انسانى ، والتى ان عبرت عن لذتها فى لحظة لذة جاء تعبيرها بنفس هـــذه النبرة الباكية الاسيانة وهـــذا الصوت الدامع الشقى .. تتلذذ مثلما تبكى وتبكى مثلما تتلذذ .

ثم تبين لى ان السرير لم يكن سريرا والشقة لم تكن شقة ، بل كان على التحديد الكبينة الخلفية فى سيارتى . ذلك اننى فوجئت باثنين من الأفندية يبدو أنهما من شرطة الآداب يطرقان شباك سيارتى بفلطة ويشيران الينا بالنزول ، فنزعت نفسى من زوجتى وفتحت باب السيارة ونزلت خجلا ، شخط فى أحدهما

وتفوه الآخر بألفاظ سباب فى حق زوجتى خيل الى أنه قالها ثم خيل الى أنه لم يقلها واسترحت الى هـذا الخاطر . اخرجت من حافظتى بعض الأوراق وتلعثمت قائلا أن هـذه زوجتى ، وأننا هربنا من ضجيج الحارة والمدنية ، ثم عدت فقلت بقليل من الغلظة والتحدى اننا فى الواقع ليس لنا شقة نسكن ونمارس فيها حياتنا الزوجية . واننا تبعا لذلك نسرق اللحظات .

فلما شخط فى بعنف رافضا هذا الكلام قلت بكثير من الضعف أن العمر فات من بين أصابعنا واننى بعد خمس سنوات من الشقاء فى بلاد الغربة عدت بهذه السيارة المتهالكة ومبلغ ضئيل لم يرق الى مستوى حجرة ، صرفته فى الدخلة على امل أن نسافر سويا من جديد من أجل البحث عن شقة تأوينا ، وها انتما تريان أن العمر قد انسلت من بين أيدينا فى شوارع المدينة فى انتظار شىء لم يحضر وفى سبيل شىء لم نفعله ولم يعد فى طوق اى منا أن يغترب من جديد فلا يسع المرء أن يظل يضرب فى بلاد الغربة طول عمره .

لكنهما لم يقتنعا بهـذه « الفلسفة » الفارغة واصرا على اقتيادنا الى مخفر الشرطة .

ثم اذا بنا ـ زوجتى وأنا ـ ننام جالسين متحاضنين فى خوف وهلع فوق دكة خشبية فى ليل كالح بارد صلب ، وبدأ من الصعب معرفة ما اذا كانت الدكة الخشبية هـذه فى مخفر الشرطة أم فى عيادة المستوصف الشعبى أم فى مبنى التلغراف والتليفون الذى انتظر فيه مكالمة اطلبها من البلد فلا تجىء أبداً ، أم لعلها دكة فى الأتوبيس .

وكنت اعرف منذ برهة أن زوجتى راغبة فى الذهاب الى

دورة المياه ، وكانت توحوح فأنهضتها ومشينا على حذر فى ضوء لمبة سهارى مجهولة المكان ، فاصطدمنا فى السرداب بشرطى بدا أنه غير عابىء بأمرنا ، فتحديناه وسألناه عن دورة للمياه فأشار لنا الى مكان بعيد ، ذهبنا اليه ونحن ننظر خلفنا فى كل خطوة . فاذا بنا فى شارع والقيامة قائمة ، عربات الخضر تحمل اكواما من الزبالة تبيعها بالميزان لنساء لا تتعبن من المساومة بخناقات حامية الوطيس ، وعربات رش ودراجات وموتوسيكلات وصناديق آلية تمضى خلال الزحام ترش الناس طينا وغائطا ..

وبدا اننى وزوجتى نقف فوق ربوة عالية قليلا اذ رأينا كل هذه الجموع وحشود الأشياء تلف حولها فى دوامة كقطع الدومينو تحركها كفان غليظان غير مرئيين . صرنا نهبط بين سيول الوحل والقاذورات قاصدين البناء المميز الذى أشار اليه الشرطى . فدخلت زوجتى من باب ودخلت انا من باب فى الناحية الأخرى وكان الظلام عظيما ونتنا ، أحسست بقدمى تغوصان فى عجين نتن . تحسست الجدران فى تأفف ولعنت الدنيا وكل شيء بحثا عن صنبور المياه الذى كنت أسمع خريره المتواصل فى قعر الكوب الصفيح المخروم لابد من كل ناحية ، ما ان اقتربت يسراى منه حتى اصطدمت يمناى فى جثة متقرفصة فى الظلام فصرخت وصرخت الجثة وانتفضت وانتفضت الجثة ، ووقعت أنا فى معجنة النتن وفر هو هالعا . تشقلبت فى اللزوجة التى بدا أنها لم تعد مقززة ، ثم انتفشت واقفا كبهلوان ، واندفع من داخلى مارد راح يتقافز فى فراغات ضيقة ويتصادم بجدران وأبواب خشبية فيدفعها بقوة فتصطك خرساء فيتجاوزها فيصطدم بصره ببروزات أكثر ظلمة على شكل خطوط مستقيمة فامسك بها فاذا هى شراعة باب حديدى أخذ ينزعه بعنف ، وكان مغلقا

من الخارج بجنزير وقفل كبير ، لكن القوة الشيطانية عوجت العمود الحديدى فوسعت المسافة بينه وبين الآخر .

وبدا لى اننى استطيع النفاذ من هذه الفرجة لو اننى تخلصت من كل ثيابى ، فبكل ترحيب خلعتها واحدة واحدة ثم حشرت نفسى موقنا أن قدرة الناس على امتصاص حجمهم الجسدى كما رايتهم حين ينسلتون من بين السيارات سوف تكون ـ لابد ـ موجودة فى انا الآخر ولسوف احسن استخدامها واذ تمكنت بشق النفس وطلوع الروح من النجاح فى تسريب منطقة المؤخرة من بين العمودين الحديدين ادركت كم هى تجربة قاسية وقدرة يحسد عليها الآخرون . وكان كل همى حين نهضت عن الأرض مثخنا بالجراح أن أتخطى الشعور بالألم لاستبين الطريق منتويا أن استنبت خريطته على التحقيق أن اختار الحوارى الجانبية والشوارع الخلفية التى يعم فيها الظلام حتى استر هذا العرى التام الذى صرت اليه لكننى ما أن وقفت على قدمى حتى صرت أضرب فى التيه كيفما اتفق سعيا الى اى منفذ او اى مختبر ، وكان ثمة رقعة فى الفضاء يخف عنها الظلام تلوح « كالوشم فى ظاهر اليد » .

صرت اركض خلف الليل وهو لاينى يغير عباءاته من الأسود الى الرمادى الى القرمزى الى البرتقالى الى البياض الناصع الى البياض المصقول تتصاعد من مراياه حشود من السنة الضوء الأصفر اللاهب تبدو كالسيوف والحراب تنذب فى أقوى ، العيون ، ولقوتها قد بدا انها اخترقت كل عين تدب على هذه الأرض ، اذ رايتنى اقف عاريا على جسر حديدى يمتد فوق نهر عات ، وكانت أمواج الناس والسيارات تزحف فى جميع الاتجاهات فى نفس الآن ، وموج الناس يزحف تحتنا حاملا فى

جوفـه قرص الشـمس الى ما لا نهايـة ، وكنت قد تجففت تماما فيما أنظر فى موج النهر فارانى وموجات الناس والسيارات فى قلب النهر ومن فوقنا عشرات الجسور ومن تحتنا عشرات الطبقات من الأمواج والناس وسـيارات تزحف متداخلة ، وعشرات الآلاف من السيارات ترتفع مع الموجه ثم تنكفىء بحدة لتغوص حيث لا يبين لها أثر وحيث تنكفىء فوقها عشرات الآلاف غيرها ..

وكنت لحظتها ارى جسدى ينكفىء هو الآخر تحت سنابك ارثال السيارات والراجلين فلا يبين له أثر ثم يعود فينحاد على ويظهر من جديد واقفا تحت سهام الشمس فوق الجسر مرتكنا بمرفقيه على الافريز ملقيـا ببصره عميقـا فى قلب رؤية لا قاع لها على الاطلاق ان هى الا منظر لمشهد بشع يتكرر بحذافيره تحت وفوق بعضه فى اعماق لا نهائية ..

لكننى اهتززت من الأعمـاق فى وقفتى حتى أشرفت على السقوط فى هاوية القاع الذى بلا نهايـة .. شهقت صارخا وتشبثت بحديد الافريز وحين فتحت عينى لاهثـا تتسـارع دقات قلبى رأيتنى جالسا امسك بعجلة القيادة فى قوة ، وعشرات المئات من آلات التنبيه تزأر وتعوى كسـياط الجـلادين تنهـال فـوق الجسد المنهوك . ولم أكن منتبها الى شىء قدر انتباهى الى أن عجلة القيادة كانت اطارا من الصقيع الثلجى رغم أن العرق كان يتصبب منى .

وكان على أن أزحف بسيارتى ربما بضع أمتـار لا أكثر كى يلحق بى من ورائى ، ولكننى ماكـدت ابدأ السـير حتى كانت المسافة التى تركتها السيارة التى كانت امامى قد شغلتها سيارات جديدة لا أدرى من أين جاءت ولا كيف فتعين على أن أواصـل

الوقوف كما كنت وان زحفت مقـدار نصف الخطوة ولم تكن الشمس طالعة ، لكنها كانت تحول كتل السحاب الكثيف الى ستائر من الدمور الغامق أو الدبلان أو الساتان فى بعض الأحيان ، لكننى لم أكن أعرف كم الساعة الآن ، اذ أننى فى العـادة لا احب حمل الساعات أو لبسها اذ هى مجرد حلية فى بلادنا يعلقها الناس فى المعاصم باعتبارها نقودا متجمدة لوقت عوزة ولمـاذا أحمـل ساعة ؟ الأقول لسـائلى عن الوقت ليضبط ، أن السـاعة كذا ونصف ودقيقة وأربع ثوان ؟

بنفس هذه الدقة ازدريها وأمقتها ، لا ارد بعنف عدوانى على كل من يسألنى كم الساعة : ممعيش ساعة « ـ كما لو كنت اصفعه بالقلم على وجهه . غير أننى فوجئت اللحظـة بأن فى معصمى ساعة تدور كانت تضغط على معصمى فتحسستها بيدى اليمنى لأتأكد من وجودها ، وعجبت من أن يوضـع فى معصمى شىء لم أحبه ولم أسـع اليه مطلقا ، ولست اذكر على التحديد ما اذا كنت قد تلقيتها على سبيل الهدية من أحد أو اشتريتها بحر مالى ، لكن حجمها فى يدى وصـوت تكتكتها المـألوف المميز أكد الى أنها ربما كانت ساعتى القديمـة التى كان ابى قد اشتراها لى بالتقسيط المريح بمناسـبة دخولى الجامعة لكى أضبط عليها مواعيد دروسى ومذكراتى ، غير اننى كان لدى مقيـاس آخر للوقت أكثر دقة وانضباط هو شـعورى الدائم القـائم بأننى اتعلم على حساب أخوتى والتحق بالجامعة بجوع ابى وأمى وأخوتى ، هذا المقياس الخطير الناجع قام بواجبه خير قيام ، فبفضله ما تخلفت عن حصـة درس أو قصرت فى بلوغ امتحان . .

وهأنذا قد حصلت على البكالوريوس وجاع فى مقـابل ذلك خمسة من اخوتى حرموا من التعليم وحـكم عليهم بالهوان طول

حياتهم مهما كسبوا ، كانوا جميعا يتضافرون فى الشغل وفى الشظف لتوفير نفقات تعليمى فى الجامعة فى العاصمة ، لتربية الأفندى ليصبح من دمهم أفنديا يرتدى البدلة والحذاء ويرطن كذاك الذى كان يسومهم سوء العذاب وعسف الهوان على مدى الأزمان .. فماذا أفادوا وماذا افدت ؟ كل ما طرأ على من تغيير اننى كرهت الزمن برمته وبات فى ذهنى معادلا للهوان ..

اغلب الظن اننا لحظتذاك كنا على وشك المغيب ، وكنت أحس بغضب بارد مكتوم أن انفاسى تحاول البحث لنفسها عن منفذ بين طبقات من الثقل المدعوم بقوى خفية خرافية ، لم يكن يريحنى سوى حالة اليأس التى لاتنى تتسرب الى دائما كلما اهتاجنى الغضب .

نظرت فى الحشود الحديدية الصماء المحدقة بى من كل صوب وكنت لحظتها أسأل نفسى عن السبب المباشر الذى يثير غضبى على التحديد .

قلت لنفسى لعلنى غاضب لأن الوقت فيما يبدو قد فات ولن أتمكن من اللحاق بموعد الطبيب حيث يتعين على الوصول الى البيت أولا واصطحاب ابنى عائدا به الى عيادة المستوصف ؟

ثم تذكرت أن هذا الموعد كان منذ شهور طويلة مضت وابتسمت فى مرارة ، وعدت فتذكرت أنه كان قد تحدد للكشف على الولد موعد جديد قريب وأن الاشارة الحمراء يومها قد احتجزتنى ومن يومها وأمه تعيرنى بأننى السبب فى العلة الصحية التى أصيب بها الولد من يومها .

ثم زحف فى رأسى خاطر ثقيل الوطء مجتاح ، احسست

فى زحفه أننى لم أر أولادى ولم يرونى منذ وقت بدا لى طويلا جدا كأنه الشهور أو الأعوام . وقلت لعل هـذا هو السبب الذى يغضبنى فى جلستى هذه أمام عجلة القيادة داخل سيارتى الواقفة منذ زمن موغل فى القدم لسبب أجهله تماما كما أجهل أى نوع من الأقدار هو ذلك القدر الذى يتحكم فى تسييرنا أو تثبيتنا . ثم اننى نسيت ذلك فجأة وتذكرت أن سبب الغضب ربما يكون احساسا بالجوع داخل السيارة ، لكننى تذكرت انى ــ حرصا أو عجزا ــ لا أمارس الأكل فى غيبة من الأولاد ، لحظتئذ احسست بالكآبة حين لم استطع تذكر آخر مرة أكلت فيها بين الأولاد ..

لا أدرى متى زحفت السيارة ، بل لا أدرى ان كانت قد زحفت أم أن الأرض هى التى زحفت من تحتها . لكننى حين رفعت بصرى فجأة بدوت كالعائد من أصقاع بعيدة كانت أمامى مباشرة احدى عربات الزبالة يجرها حماران ، تكاد تضيع فيها سيارة صغيرة كالعنزة تقودها فتـاة محجبة وثمة صـوت عال لواعظ منفعل يتصاعد من مكان مجهول لكنه يملأ الدنيا سبابا ونعوتا قبيحـة ويرفع لواء الجحيـم لكل من يدب على ظهـر الأرض .

ولم نكن فى شارع انما كنا فى طريق . على اليمين مجموعة هائلة من ناطحات السحاب المزركشة الملطلطة ، المهيأة للانهيـار بين لحظة وأخرى . وعلى اليسار كانت الشريحة الأخرى من الطريق ذات الاتجـاه العكسى وكانت محتشـدة بالعربات هى الأخرى ومتوقفة ومن بعيد أبنية متخفية فى زى حـدائق غامضـة مشبوهة ، فرغم الصمت المطبق حولها يتصاعد منها ــ فى الخفاء أيضا ــ لغط نشوان مخربش ، قوى مسيطر وذو نفوذ واضح

وحاسم وصفوف سيارتها تحتجز لنفسها نصف شريحة الطريق بكل اطمئنان ، وكثيرا ما يتضح ان السر فى طول كل هذا التوقف والثبات فى السير هو أن أحد رواد هذه الحدائق قد أوقف الزحف ريثما ينتهى من الرجوع خلفا والتقدم أماما وعدل نفسه ـ بكل راحته ـ فى ركن آمن ، أو أن سيارة أحدهم قد توقفت ها هنا او ها هنا كيفما اتفق ، أو أن فلان الفلانى سوف يمر من ها هنا اليوم فى ساعة صفر فما بالك حين يمر بالفعل أو أن الطريق الفلانى قد اعترضته صفوف العسكر للدب السيارات عنه بأى شكل لسبب غير معلن ولا يسأل عنه أحد ..

كان الراجلون يعبرون من الضفة الى الأخرى فى يسر وسهولة واطمئنان رجال يجرون أطفالا وصبية ، ونساء ويحملن أشياء ، يبدون كالبلهاء المسحوقين خيل الى اننى اعرف هذه المنطقة التى نتوقف الآن فيها وأرجح أن هؤلاء هم سكان العشش والعزب المتاخمة لهذه الضاحية الناطحية التى تم قيامها على الأرض فجاة فحولت كل ما حولها الى عشش بالمسلح ذات منظر كئيب لمحت بين الزحام صبيا مشردا يرتدى بيجامة قذرة ممزقة من عند الصدر والحقوين يحاول ايجاد منفذ لخطواته الواهنة بين السيارات فيمضى شوطا بالطول بين صفين لينزلق من فرجة أوسع بين سيارتين ليرتد عائدا نفس الشوط لينفذ بين أقرب فرجة مناسبة فى الاتجاه العكسى .

اخذ يقترب منى فاخذت أميز فى ملامح وجهه بؤسا عميقا ، كان يبدو كأنه بلا أهل على الاطلاق ، بل هكذا رجحت . لحظلتها جاءنى احساس بأن الأوبة الى الدار مسألة فى طى الكتمان لاتزال أن لم تكن شبه اسطورية ، وكان الصبى قد أمعن فى الاقتراب نحوى فقررت فى الحال أن استوقفه واعطيه كل النقود الفكة

التى فى جيبى ورغم اننى بحثت فى جيبى فلم اجد فكة أو متجمدة الا ان صــوتى كان قد سبقنى ونادى الصبى الذى راح يتقدم منى فى حذر وخشية يصـــدهما عن نفسه بابتسامة شاحبـة واهنة كانت عروق رقبته زرقاء بارزة والعناء على صفحة وجهه البرىء الحلو المسمسم الملامح بارزا هو الآخر بل كان هو الأبرز .

لكأن سكينا انغرست فى موضـــع القلب اذ فوجئت بشبه كبير جدا فى الملامح بينه وبين ملامح وجه أعرفه معرفة النفس فلما انحنى مقربا وجهه من نافذة السيارة ليكلمنى شممت رائحته وفاض بصرى على ملامحه فاذا هو ابنى بلحمه وشحمه ودمه . عصـــام ؟

هكذا صحت كالملدوغ واذا به يصيح فى مرح مشــوب بالرعب كالمجنون : بابا .. انت جيت من الشغل ؟

قلت وانا أطوق رأسه بيد حانيـــة واقبله فى شعره المجلد الخشـــن :

(انا لسه مارحتش الشغل يا حبيبى) .

فارتاع وجهه واشرف على البكاء لولا بقية فيه من حيـــاء أعرفه وبدا انه لم يفهم قولى لكنه قال بذكاء ممروض اننى اسير فى اتجاه العودة الى حيث يقيمون فكيف أزعم اننى ذاهب الى الشغل ما ازال ؟

فاخذت من فرحتى بذكائه وغضبى الموتور اهذى قائلا له ان صفوف السيارات التى افقدها الزحـــام والبطء الى حد الثبات رشــدها فبات كل هدفها ان تسير أن تتحرك ولو حـــركة دهماء مدمرة ، هـــذه الصفوف هى التى اقتادتنى بزحفهـــا

العشوائى فى سراديب محددة الى حيث لا أريد ، اعادتى حيث كان ، يجب أن اذهب واذهبتنى حيث كان يجب أن أعود فبدا انه قد وقع فى لغز عميق خطر فقال مقاوما سلطان البكاء :

(كل ليلة افضـل سـهران ومتجيش) مسحت دموعـه بيدى قـائلا :

(انت ايه اللى جابك هنا ؟) .

قال فى بسـاطة (أوصتنى أمى أن ألحق بها عند الجمعية الاستهلاكية لأقف بدلا منها فى الطابور) .

وكان يبدو عليه انه ينتظر منى فعل شىء ما ، أنه ينتظر أن اضع يدى فى جيبى واسحبها بشلن أو بريزة قائلا له :

(خد اصرف) على الأقل بمناسـبة التقائه بى صدفة فى هذا المكان البعيد بعد وحشة طويلة .

وكنت اتململ على جمرات ملتهبة بحثـا عن شىء افعـله أو كلمة اقولها يصلح أو تصلح بديلا لهذا الفعل العظيم الذى ينتظره ، فلم اجد وفجأة زارت آلات التنبيه خلفى بغلظة شديدة وانتبهت فاذا السيارات قد زحفت امامى وبجوارى والولد ابنى يقع فى لخمة شديدة ويسبب لى لخمة اشد ..

ربت على وجهه برفق ورسمت على وجهى أسخف ابتسامة تذوقتها فى حيـاتى وقلت له (بعد اذنك يا حبيبى .. خلى بالك حاجيلك بدرى) وكانت عصبيتى قد ارتفع أوارها بفعل زعيق آلات التنبيه ونظرات المستنكرين بعدوانيـة بالغة ، فمشقت عصا الفتيس بسرعة وتركت السيارة تزحف منسلخة برغمها عن جسد ابنى فكأنها تخوض فى لحمى . من المرآة العاكسـة رايته يقف

على الرصيف فى انتظار فرجة أوسع بين سيارتين ليندفع جاريا منها الى الضفة الأخرى حيث يوجد بناء الجمعية .

ثم اندفعت السيارة تجرى كأنما يقودها شخص سواى . وكان الطريق امامها قد امتد بخلاء مبهر ومفاجىء ، فى نفس اللحظة كان الليل قد نصب خيامه اللانهائية فوقنا وليس ثمة من ضوء على الطريق الذى بدا اننى لا اعرفه ولم اتعرف على شيء فيه مطلقا . وكان ضوء سيارتى شاحبا عليلا وكنت استدل بفوانيس السيارات المتقدمة امامى وأحاول تقريب المسافات بينى وبينها حتى لا أضل او اقع فى مطب او حفرة خطيرة .

وكان ذهنى سائرا غير ممسوك بشيء وكذلك لا اعرف الى اين انا ذاهب على التحديد ، لكننى كنت مفتونا باندفاع السيارة كأننى ولأول مرة فى التاريخ أرانى ممتطيا سيارة تجرى ، كأننى بلدة قصيرة النظر هوجاء انتقم من طول التوقف والزحف البطيء الممل القاتل وأعوض كل المسافات التى فاتنى أن اقطعها بلدة .

من حين الى آخر كانت تبدو فى الأفق بارقة ضوء ، اظل أجرى نحوه بأقصى سرعة كأنه الهدف المنشود حتى اذا ما اقتربت منه تجاوزته دون أن اشعر له بأى وجود . طال الاندفاع وطال ثم اذا باشارات ضوئية سريعة متعددة ملحاحة تلاحقنى من الخلف وتنذرنى بتوسيع الطريق لها ووقعت فى لخمة غير متوقعة اهتز لها مقود السيارة فى يدى لكننى نجحت فى الانعطاف يمينا ثم الى أقصى اليمين فاذا بى أرتفع بالسيارة فجأة بعد صدمة عنيفة فى اسفلها عرفت منها اننى اقتحمت الحاجز المرتفع الذى يحدد الطريق المرسوم عن فضاء مطبق مجهول ، والى أن تمكنت من السيطرة على المقود كنت قد تأكدت من وقوعى بالسيارة من

حالق فى مطب فسيح ، ارتطمت رأسى بالسقف حتى كادت تخترقه وانطرحت السيارة على جنبها عرجاء عاجزة .

بما تبقى فى من حلاوة الروح فتحت الباب ونزلت انظر حجم الخسائر فوجدت أن الأرض كلها قضبان حديدية بأسلاك شائكة تصل بينها واننى سقطت بينها فحمدا لله على السلامة وتمزق قلبى على ضياع السيارة وكان الحل الوحيد أمامى هو أن انام بداخل السيارة حتى يطلع الصباح وحين اغلقت المسوجر ومددت الكرسى عن آخره ثم اضطجعت كنت استدعى الى الذهن عشرات الليالى السابقة التى نمت فيها فى السيارة واتذكر الأفكار التى تتوارد على فى اثنائها واتآلف مع المخاوف التى يبعثها الليل البهيم والوحدة ثم أننى غفوت قليلا أو هكذا خيل الى .

على اننى فتحت عينى ففوجئت بقرص الشمس يخترق زجاج السيارة تتصاعد منه ألسنة اللهب انتفضت جالسا أتصبب عرقا وما كدت ارفع رأسى وانظر حولى حتى فوجئت بعشرات المئات من السيارات المختلفة الأنواع والأحجام لكنها تتفق جميعا فى انها هالكة غير صالحة للعمل بعضها معجون فى بعضه تتساقط من بين عجائنة رءوس وأعضاء آدمية لقيت حتفها فى حوادث بشعة أو ربما ضحية لحظة انطلاق كاذبة كالتى مررت بها منذ ساعات . سيارات أخرى لاتزال سليمة بعض الشىء وان كانت غير صالحة للاستعمال لدهشتى رايت فيها اناسا احياء تتدلى لحاهم وشواربهم ويتصاعد منهم عفن أقوى من رائحة الجيف .

حاولت فتح الباب والنزول لكننى لم أقو على الحركة ، ثم تبينت أن ساقى قد كسرتا فى اثناء الوقوع من حالق دون أن انتبه

كل هـذه الساعات ولست أذكر اذا كان الألم قد عاودني في اثناء غفوتي داخل السيارة أم لا ، لكنه الآن يسرى في كل عروقي ونخاعي يرعدني يزلزلني فأتأوه صارخا من فرط الوجع .

بصعوبة فتحت زجـاج النافـذة واخرجت رأسي صارخـا انادي رجلا يجلس في سيارة على مبعدة .

قال بكل هدوء (علام تصرخ هكذا يا جدع ؟)

قلت : (أغثني أرجوك) .

قـال : (لست اقوى على الحركة) .

قلت : (هل انت مصاب مثلي) .

قـال : (كنت سليما ولكن طول المكث ها هنا يبس مفاصلي وجمدهـا تماما واقتات على ما بقى على هـذه الأرض من نفايات تدلقها اللوريات والعربات الكارو كل بضعة شهور أو أعوام) .

قلت : (فأين نحن الآن ما اسـم هـذا المكان الذي نحن فيه الآن ؟) .

قـال في اسـتنكار عجـوز دامـع : (فكيف جئت الى هنا اذن ؟) .

قلت باكيا بحرقة : (لم اجيء ولكنني جئت لا أعلم كيف) .

قـال العجوز ساخرا : (ايليا ابو ماضي حضرتك) .

قلت وقد ادهشني ان يصـل هـذا الاسـم الى هنـا : (ارجوك فالأمر لا يحتمل التريقة) .

قـال كأنه يبكت طفلا مشاكسا : (نحن يا أخى فى قرافـة السيارات) .

قلت منزعجـا : (ولكن العـادة جرت الا يلقى فيهـا غير السيارات الميئوس منها) .

قـال : (اما هذه فقرافة .. تلقى فيها السيارات بمن فيها بدون لزوم لوجع الدماغ) .

اخذت انتحب والطم خدى .

قال العجوز دون أن تهزه حالتى : (غدا تتماسـك وتعتاد الأمر .. مثلما قدرت على امتصـاص حجمك الى حد التلاشي لتنفذ من بين كتل الحديد وجحافل القضبان .. ومثلما قدرت على انفاق سنى عمرك منتظرا داخل سـيارة فى وقفة ممتدة الى ما لانهاية .. ومثلما قدرت على السباحة فى بحور الوحل والمجارى تقدر على أن تتماسـك بقية عمرك ها هنا .. ولعلك علمت أن لا شيء هناك يستدعى العواء هكذا) .

ادخلت راسي واستويت نائمـا من جـديد على الكرسى ، تذكرت من خلال الألم القاتم التى لم يعد لدى مشـاوير مهمة اقلق بشأنهـا ، وان الولد زمانه قـد لحق بامـه فى طابور الجمعيـة الاستهلاكيـة ، وتذكرت زوجتى عائـدة تجره خلفها وتمشى ، مهانة تحمل على راسها قدرا من زيت وصابون وملح وشـاى ، فاخذت جيوش الألم تهاجمنى من جميع الأنحاء وانا ارسـل فى الفضاء صراخى الحيوانى المجنون . وليس ثمـة من أصـداء تجاوبنى على الاطلاق .

فك رقبة

كنت اجرى فى خلاء موحش ، يتصاعد من جوفى شعور بأن ثمة من يطاردنى غير أننى لم أكن أعرف علام المطاردة أو الام ٠ ؟ وحين نظرت الى الخلاء امامى وحوالى بدا لى أنه ـ رغم اتساعه الذى بلا حدود ـ ضيق غاية الضيق ، حيث لم تكن لى وجهة معينة على التحديد ، فقللت من اندفاعى ، وهبطت فروة راسى فاحسست كأنها كانت غائبة تماما منذ زمن بعيد . ثم بدا على كأننى أعرف أن ذلك الذى ربما كان يطاردنى يريد أن يظفر منى بشىء ، غير اننى لم أعرف هذا الشىء على وجه التحديد وما كنهه وما قيمته بالنسبة لى أو للآخرين أو حتى للشياطين ، انما أشعر بحقيقة واحدة لا جدال فيها ، هى ذلك الاحساس بالرعب الى درجة لا رحمة فيها .

اعترانى الاندفاع من جديد فاطلقت ساقى للريح وثمة شىء كاليقين يطوف تحت فروة راسى باننى بعد مسافة قصرت او طالت سوف اخر على الأرض راكعا أطلب الصفح ربما ، او الرحمة ـ وكنت واثقا بأن ثمة من سيهتز من ركوعى ولهذا لم أكن قادرا على التمييز بين العرق والدموع فكلاهما ينسال بدفق

مزعج مؤلم ولهذا أيضا قلت لنفسي أن العرق ربما كان دموع الجسد وأن الدموع ربما كانت عرق العينين ..

كنت محتاجا الى الركوع فاعتزمت التعجيل به ايقافا للتعب، وكنت تعبا مجهدا فخررت راكعا . فما ان لثمت جبهتي وجه الأرض حتى وجدتني فى قلب حفرة عميقة هائلة وجسدى كله مغمور بنشع عطن . خفت لحظتها ان يكون ذلك من عملى فى ماض لا اذكره الآن ولا أكاد أعرف عنه شيئا اى شيء .

وكان ثمة رجل معمم يجلس فوق كومة من التراب الطالع من هذه الحفرة ، وكان ظهره لي فيما أحاول تخليص ركبتي المنكسرتين فى قلب عجينة طينية لدنة ، وكنت أريد أن أصيح به منبها اياه لعله يقيلني ، لكنني حين شرعت أصيح لم أجد صوتي، وادركت أن السبب هو اجلال قديم توارثته يمنعني من الاجتراء على وحدته أو ازعاجه ، وأخذت أحاول رفع نفسي بكل نفس ذائقة الموت ، وفى اللحظة التي خيل الى أن صوتي قد عاد يهدر فى حلقي وأنني استطيع التأوه على الأقل كانت سحب الصمت قد انجابت فجاة فاذا هذا الرجل يتكلم واذا صوته يجلجل ويداه تهتزان وترسمان فى الفضاء أشكالا وتموجات ايقاعية ، وعرفت أن صوتي لن يصل ، لكنني مع ذلك تأوهت بصوت عال ثم جعرت ثم هتفت ثم هدني الاعياء من فرط هذا وحده فانكببت على وجهي ساخطا العق الطين العطن ، ذلك أن صوت هذا الرجل وصوت الهدير الخاشع المرتد اليه من حناجر خرافية كانا يعلوان على صوتي الذى لا يلبث أن يغوص معي هو الآخر فى الحفرة ، فمن للصارخ فى قلب حفرة بمن يسمعه ؟ ..

هي الرحمة بالتأكيد ، اذ وجدتني اطفو شيئا فشيئا نحو حافة الحفرة ، وكان من الواضح أن فيضانا مفاجئا قد حل

بالحفرة رفعني بقوة صعوده ، فعرفت أن الحفرة التي وقعت فيها تابعة لخريطة المجاري ، وقلت فليكن ما يكون السائل لكنه فيضان رفعني من القاع السحيق .

تشبثت يداي بحافة الحفرة ، أخذت أتسلق الساتر الترابي المرتفع ، وكنت ألهث وفي أعماقي رعب لذيذ يوحي لقدمي بفنون من التشبث فوق هشاشة التراب ، وكنت أرتدي أفرول الجندية واحمل فوق ظهري جربندية ، ويتعلق في كتفي مدفع كبير احسست كأنه صديقي الذي اعرفه من زمن بعيد وقد ابى الا ان يرافقني في هذه الرحلة الفاصلة التي ساعود منها ظافرا حتى ولو اكلني المجهول .

اخذت أواصل الصعود ومن خلفي هدير آخر مختلف تطلقه نفس الحناجر الخرافية التي احببتها هذه المرة لأنها كانت تشق صمت الفضاء فتضاعف تموجات الصوت من قوتي على الصعود بل كانت تقذفني الى أعلى قذفا ، وكانت القوة المطلوبة للصعود قد بدات تزيد على حاجتي فعرفت أن الأرض قد استوت تحت قدمي ، ولم يكن ثمة من خطر داهم يواجهني كما كنت اتوقع ، وكنت انظر عن يميني وعن يساري فلا اجد سوى صفوف متكررة لظلي بنفس الخوذة ونفس الخطوة المحسوبة المنتظمة وقد اعتراها نزق لعله من شدة الفرح باجتياز مانع سرمدي كان معششا في القلب .

وسرعان ما انبعث ازيز يشق أجواء الفضاء ، فلما نظرت للسماء وجدتها غاصة بأسراب من طير أبابيل تساقط حمما ، فمع مدفعي صوبت عشرات المئات من ظلال المدافع المجاورة لي فاذا بالطائرات الجهنمية تهوى نحو الأرض شيئا فشيئا واذا

هى مجرد عصـــافير ترفرف وتتوقف بكل براءة على فوهات المدافع لتلتقط الأنفاس وتنفض الأجنحة مما علق بها من ذعر بائد .

وكنت أحس أننى قد وصلت الى نقطة أمان عظيمـــة حقا ، لكننى توجست الخطر فيها ، وخفت أن تكون هى مجرد البرهة التى يستغرقها زمن القـــدر فى الوصـــول الى ذروة الانفجـــار الماحق ، فشرعت أنشر سيطرتى على القمة العريضـــة ، بأن رحت اجوبها مستطلعا منافذ الخطر الذى قد يكون . فما أن خطوت خطوات حتى وجدت درجا حجريا عريضا سميكا منحوتا بدقة ومهـــارة يأخذ فى الهبوط الى أسفل ، اطلقت فى مســـاره كثيرا من الطلقات النارية ولففت حوله لاطلق من كل ناحيـــة ، فلما استيقنت من غيـــاب الصـــدى شرعت أهبط الدرج فى حذر واستطلاع ، وكان الخوف قد شرع يعترينى من جديد لسبب غامض فنفيته بقوة ، ولحظتها تكشف لى أن الدرج لم يكن درجا ولم يكن حجريا بل كان اليافا ســـميكة منحوتة لشجرة عظيمـــة الحجم ، واننى لم اكن اهبط بل كنت أصعد الشجرة ، وكنت لحظتها ألبس الزرد وأواصـــل الصعود فى مهارة النمر وروح وخفة القط .

فلما استوت قدماى على أول فرع مونق اخذت أمشى فوقه الفرح يهدهـــد أعطـــافى ، ذلك اننى ألقيت بصرى على شـــبكة الفروع العريضة المونقة فوجدت عشرات من الأبقـــار الســـمان الحلوب تقف فوق الفروع تأكل وترسل عيونا فيلسوفة لا تمل من التحديق كما لا تمل أثداؤها المنتفخة من أدرار الحليب .

تذكرت أن أمى كانت تحلم بواحدة من هذه الأبقار ، وكانت لاتنى توصينى اذا ما لبست الزرد وطلعت هذه الشجرة أن أجىء

لها بواحدة . انبثق بداخلى فرح غامر ، ورأيت الخضرة حوالى تعانق الشمس فى قبلة عظيمة حارة من فرط حرارتها تبدو بلا نهاية .

ولم تكن الأبقار مربوطة وليس عليها ثمة من جرس ، وكنت احس كأن لى حقا ازليا فيها ، وها هى ذى احدى الأبقار تومىء لى صائحة بل أكاد اظنها تبتسم لى وتنادينى . اقتربت منها وأخذت اربت عليها بحنان وأفاضل بينها وبين الأخريات فتعجزنى المفاضلة .

ثم اننى سحبتها ومضيت فمضت ورائى تتبختر وتنقل الخطو على الأفرع المتشابكة فى رشاقة . ثم استطالت الأفرع تحت أقدامنا وما لبثت أن التحمت بالأرض فيما يشبه المرتفع الذى يكشف وراءه مباشرة عن منحدر . وبدأ صوت خطوات البقرة يقرع الأرض فى خبب واصطكاك ، فلما نظرت الى الأرض وجدت المرتفع مرصوفا وكذلك المنخفض ، فداخلنى الانزعاج الغامض .

وما أن شرعنا ننحدر فى المنخفض المرصوف حتى شرعنا نتأهب لصعود مرتفع آخر مرصوف أيضا . وكان على قمته زئيط هائل ورءوس رجال ونساء وأطفال بدوا لى كأنهم غرباء عن هذه المنطقة ، والكل يصوت بأنغام مختلفة الايقاعات ، وعجزت البقرة عن مواصلة الصعود فأخذت أصيح فى دفعها دون مجيب .

فكرت فى الارتداد والبحث عن طريق آخر لكننى فوجئت بأن المشكلة نفسها قائمة عند الارتداد لأن البقرة لن تتمكن من صعود المرتفع الذى انحدرنا منه ، المطلوب اذن أن تنجح البقرة فى صعود

احد المنحدرين . كدت أبكي ، الا أن البقرة وسعت ما بين ساقيها فعرفت انها تستعد لافراغ بطنها من الغائط ، لكن مؤخرتها صارت تساقط اطباقا من الصينى وملاعق ما تكاد تصل الى الأرض حتى تتكسر هشيما ، وكان نفس الهشيم يتساقط من قمة الزنيط البشرى فلما تفحصته تبينت أنه هشيم زجاج سيارات فقلت لابد أن الزنيط والتجمع بسبب حادثة بين سيارتين وطلبت الستر من الله .

وبدا أن الرءوس فوق قمة الزنيط قد لمحتنا فصارت تضحك وتشير الينا ثم تأخذ فى الهبوط نحونا كالقردة مما أخافنى، لكننى لما رأيتهم يتجهون تلقائيا نحو البقرة ويمسكون بمؤخرتها ويساعدونها على الصعود بدفعها بقوة عجيبة عرفت انهم من اهلنا وان كنت لا اعرفهم أو يعرفوننى .

اخذت أبادلهم حديث المجاملة فسألتهم عن سر هذا الزنيط فقالوا لى ان « حميدة » قد ولدت اليوم ولدا .

قلت رغم أنى لا اعرفها : طيبة وغلبانة حمدا لله أن رزقها ولدا ينفعها الهذا تفرحون ؟ .

قالت جوقة الأصوات الهمجية اللطيفة : نعم ولهذا نبكى ونصرخ من أجلها أيضا .

قلت : كيف ؟ لماذا ؟

قالوا : لان الحداة قد اختطفت راسه .

قلت : اى حداة ؟

قالوا : اى حداة ، اذ ان حميدة كانت تستعجل قيامه واستقامة عوده فجلست على الطريق فرحة تحاول تدريبه على

المشى والنهوض فما ذرت الا وجسده بين يديها بلا رأس والدم ينزف من عنقه المبتور .

قلت : يا حفيظ يارب ، ثم واصلت الصعود . ثم وقفنا جميعا وسط الزئيط نمسح عرقنا ونلتقط الأنفاس ، والبقرة المسكينة هى الأخرى تتصبب عرقا وتنظر فينا فيتصاعد من عينيها صبر عريق بارد محزون . وكنت مطمئنا الى أن مقودها فى يدى ، فأخذت كالموتور أبحث بلهفة وحيوية غريبتين عن شىء لعله جثة الطفل الذى اختطفت الحداة راسه وصيرت الأمل العزيز بين يدى الأم كتلة من اللحم الأعز .

وحين تمكنت من الغوص بين كتل الجماهير تكفلت البقرة من ورائى بشق طريق مريح لنا . وكنت اتوقع أن أكون موضع اسئلة كثيرة من الجمهور الذى ساعدنى على صعود المنحدر وتركنى أغوص فيه ببقرتى ، لكننى حين وجدتهم لا يفعلون بل يصبحون هم موضع اسئلة منى تيقنت من انهم رهط من بقايا عشيرتى وبلدتى البكر الطيبين ، كانوا يمشون فى فروغ بال وثمة شبه كبير جدا بين حالتهم تلك وبين ما يتصاعد من عينى بقرتى ، اذ تنضح وجوههم بصبر عريق بارد ومحزون وكان منهم من يتطوع بمساعدتى فى سياقة البقرة وذب الأطفال عنها ، وقلت لبعضهم بصبر نافد :

اين حميدة اذن ؟

فاشاحوا عنى بوجوههم كانهم يتهربون من سؤالى وهم فى نفس الوقت يشيرون لى باشاحة الوجوه نحو مكان بعينه .

نظرت الى حيث اتجهت وجوههم ، فرأيت جسرا حديثا من الحديد والأسمنت ذا افريز ودهاليز يمتد فيخترق العمائر

ويشطر الأبنية العتيقة الثمينة ويمتطى ظهر النهر ويتلوى ويتلوى وتتفرع منه قنوات وارجل ورعوس لا حصر لها كحيوان ديناصورى خرافى ، اسرابا لا حـدود لها من السـيارات مجهولة البدايـات والنهايات تزحف متداخلة متعارضـة متقابلة فى نفس الآن .

انبهرت حقا ، ولكننى حين رأيت كثافـة الزحف فوقـه احسست بالخطر الداهم يجتاحنى فجأة . ثم رأيتنى فى الحـال امشى فوق هـذا الجسر بين السيارات ساحبا بقرتى . ومع ذلك لم نصطدم بأحد ولم يصطدم بنا أحد ، بل كان يخيل الى اننى امشى فى تطامن وهدوء لا يزعجنى سـوى هبوب الرياح العاصفة الزائرة بأصوات المحركات وهى تنزلق حوالى مسرعة الى الأمام مثيرة عواصف الغبار ، وقد عجبت من شىء واحد هو اطمئنـان بقرتى الحبيبة التى لم تنزعج ولم يركبها الهياج فتكون الكارثة .

لكن بدأ اننى قد حسـدتها ، اذ بها فجأة تتوقف دفعـة واحدة وتحرن عن السـير وأنا أشـد المقود حتى تكاد رقبتهـا تختنق ، مما اضطـر السـيارات الى التلكؤ والتوقف والزار المتواصل بالاحتجاج المهول . وقلت لنفسى لابد انها فعلت ذلك لحكمة أو لسبب من الأسباب طرأ .

من فرط حيرتى وعجزى توقفت ناظرا فى الأرض انفخ غيظا وسخطا ، وكانت اطارات السيارات تتحرك امامى ببطء فعلقت بها نظراتى فاذا بى أرى قطعـا وفتافيت من اللحم البشرى عالقة بها مسحوقة بين أضلاع الكاوتشوك المتين الجديد ، وبقايا دم متجلط فأحسست بالارتياع ، ومع ذلك لم استطع اغماض عينى، فوقع بصرى على بقايا أصـابع طفل صغير محشـورة بين اضلاع الكاوتشوك ، فصرخت وظللت اصرخ عاليا مشيرا باصبعى نحو الاطارات الزاحفة فى بلادة ولا مبالاة وجبروت . ثم اذا برهط من

راكبي السيارات البكوات قد نزلوا من سياراتهم واقبلوا نحوى وسحبوا بقرتي بقوة ودفعوها دفعـا الى الأفريز وأوقفوها فوقـه واستأنفت السيارات هديرها وزحفهـا ، ووقفت جوار بقرتي وحيـدا .

وان هي الا برهة وجيزة حتى رأيت سـيارة كبيرة محملة برجال الشرطة مقبلة نحوى . ثم توقفت وهبط منها سبعة رجال غلاظ شداد ، تقدم نحوى أحدهم قائلا :

« بتعمل ايه هنا ياخويه .. ايه اللى جابك هنا ؟ ».

قلت له بصـدر مضطرب وصـوت ينضـح بالبكاء « لقد عثرت على جثتـه وكنت أصيح فى طلبكم منـذ برهـة لترونهـا بانفسـكم » .

نظروا الى بعضهم فى تشكك ممزوج بكثير من الهزل وقليـل من الجد : « جثة من يا أخانا ؟ » .

قلت : « جثة عبد الصمد » .

قال : « عبد الصمد من ؟ » .

قلت : « ابن حميدة . الذى قيل أن الحداة قد اختطفت رأسـه ورأيت أنا جسده مسحوقا وموزعا بين اطارات هـذه السيارات » .

قال : « أمعك بطاقة شخصية ؟ » .

تحسست جيوبي فلم أجد بها شيئا ، لكنني كنت لا ازال ألبس الزرد ، فقلت له : « هذه هي بطاقتي » وأشرت الى الزرد .

فمد يده فى صفاقة وربت بها على ظهرى فى حنان مصطنع وهو فى الواقع يدفعنى نحو السيارة بكل غلظة كأنه يدفع لصا .

فتوقفت محتجاً : « من فضلك .. معى بقرتى ولابد من تأمينها قبل الذهاب معك ».

نظروا جميعا نحوى فى استغراب شديد ثم نظروا حواليهم قائلين : « عن اى بقرة تتكلم يا .. ثور » .

صحت قائلا : « ها هى » ، واخذت اهز المقود فى يدى فاذا بيدى فارغة تماما وليس ثمة من بقرة على الاطلاق ، فأخذت استجمع ريقى وشجاعتى ناظرا فى كل اتجاه فلا أجد لها اثرا ، ولم يكن أمامى مفر من الركوب معهم فى الصندوق العلوى الكبير محفورا ببنادق يتدلى من ورائها اشباه رجال ، ولم تكن البنادق لتخيفنى بالطبع وانا لازلت البس الزرد ، لكننى كنت لا ازال اشعر بالوحدة والعزلة الراعبة .

وكانت السيارة تندفع بسرعة جنونية مخترقة صفوف السيارات متسربة من بينها فى حركة حلزونية ماهرة والريح تقلبنى بين البنادق التى انحنت هاماتها من فرط الشعور بالخواء . ثم رايتنى معلقا فى الريح واقفا ممدود الذراعين وراسى مائلة على كتفى فى استكانة وصبر عريق محزون ، ثم تدفعنى الريح وتدفعنى الى الوراء ليصطدم ظهرى بناطحة سحابة فوق شاطىء النهر واذا بى ملتصقا تماما على الجدار ، ونظرت فى الأرض السحيقة فرايتها حفرا حفرا وبركا بركا وخنادق خنادق واكواما من النفايات يجلس فوقها جمع غفير جدا منكس الرءوس فى خشوع وثمة من يجلس بينهم متكلما فيهم وهم يصعدون من حناجرهم هديرا يصعد نحو قدمى المعلقتين كريح سامة باردة ، ولحظتها شعرت بالغثيان فرفعت راسى قليلا لأرى فى مواجهتى ناطحات سحاب أخرى جدرانها من الزجاج والألمونيوم ، تمتلىء غرفها وشرفاتها بنساء عاريات تماما يمددن الموائد التى تحلقتها كروش ذات وجوه

غليظة يبدو عليها الطابع الحيوانى ، واياد اشد غلظة ملوثة بالشحوم والأحبار والدم الجاف .

ورأيت الأطباق والصوانى حافلة بقطع من الشواء السمين أدركت أنه من لحم بقرتى بدليل اننى احسست بأسنانهم تغوص فى لحمى انا ، فتذكرت حلم أمى وأخذت أزأر صائحا وجسدى كله يهتز من غضب عارم مفاجىء ، واذا بذراعى منفصلان عن الجدار وكذا ظهرى ، واذا بى استشعر الأرض تحت قدمى ، ففرحت جدا وحاولت التعرف على نفسى ، فبدا لى أن اسمى ربما كان عبد الصمد بن حميدة وحاولت أعرف منذ متى وقفت ها هنا فبدا لى أنه ربما كان من سنوات بعيدة جدا ، وحاولت ان اعرف لماذا انا واقف ها هنا فبدا لى أننى انتظر شيئا ربما كان الأتوبيس الذى بدا انه ربما لن يجىء ، والذى ان جاء فليقلنى الى حيث لا يرحب بى احد ولا يريدنى أحد . لكننى مع ذلك امتلأت تحفزا رغم كل العناء ، وشرعت أخطو من جديد فى كل اتجاه صادفنى ، ولم اكن اعرف الى اين اتجه او ماذا افعل ، ولكننى كنت مصرا ، وموقنا بأنى لابد أن أسترد بقرتى مهما كانت الأحوال .

سـرادق الألم

الصـوات بجميـع الوانه ودرجـاته امر مالوف جـدا فى مساكننا ، بل انه واقع يومى لا ينقطع ليل نهار مثلما لا ينقطع الليل او النهار . ولربما تزول الدهشـة اذا عرف أن مساكننا هذه هى مقابر المجاورين ، تلك المدينة الواسعة الكامنة وسط جبل المقطم فى السفح الأيمن لطريق صلاح سالم حيث تطل ـ شامخة ما تزال ـ بقايا سـور القاهرة القديمة والقلعـة فى حجرها ، وحيث تتلألأ الأضواء فى ميدان المشهد الحسينى العظيم بمآذنه الشاهقة . احواش احواش تفصـل بينها شوارع ومنعطفات وتتوسطها ميادين وزوايا صـلاة وقباب اضرحة . جدران تتحلى بالخشب المشغول الكالح والأبواب الحديدية التى لم تتمكن من حراسة شىء . الشواهد الحجرية كغابة من الرءوس تضاعفهـا ظلالها الملقاة على بعضها وعلى الأرض فى ضـوء القمر . الطرب المبنية بالطوب تتجاور كأفيال خرافية منحطة .

وكان صـوت الفرح يلعلع فى الميكرفونات العاليـة وينداح فى الأفق المسدود بأضـلاع الجبل ومسجد قايتباى ، ويتضـاعف حين يصطدم بالحجرات المفتوحة على الأحواش . وكنـا نتتبع خطوات صديقنا « بخيت » الطربى الذي هو فى الأصل ـ كمـا

ينطقها بلباقة ـ « موتوريست » ، اى انه خبير بميكانيكا السيارات وله شهرة فائقــة وصيت ذائع لولا أنه سافر الى بلاد العرب فمكث سـنوات عـاد بعدها بفلوس طائلة ولكن بلا سـمعة على الاطلاق تعينه على طلب الأجور المجزية ، فكان أن أراح نفســه واشتغل بمهنة ابيه طربيا ، كان محترما ونشيطا وامينا ، تستطيع أن تقصــده فى ميت مفاجىء لديك وانت بلا مدفن ، فبكل شهامة يجهز مدفنا مبنيا ويستقبل الجنــاز كأنه ابن الفقيد ، ولا يسأل عن المكافاة أبدا ، بل يتطوع بتقديم الشاى والسجائر فضــلا عن الكراسى للمرافقين ، ويعين لك خفيرا .

معتوه من يتصور ان حقه يمكن أن يضيع ، هكذا يقول « بخيت » عن أمثاله من فرسان الشجاعة ، ثم يستطرد معلقــا ان العمل الشهم هو فى حد ذاته أجر لا ينفد أبدا ، واللحم المدفون تحت هذه الأحواش هو حلقة الوصــل بين صديقنــا بخيت وبين ذويهم من الاحياء .

كل الطرق قد توصــل الى روما حقا الا الطرق الفاصــلة بين المقابر ، لكن صديقنا بخيت كان كالابرة ونحن الخيط ملضوم فى ثقبها ، وهو يلف بنا حول مقابر ليستدير بحذاء ضريح ثم يعرج على حوش ، فان سبقتنا الابرة وتعثرنا بدأ صديقنا « بخيت » لبعضنا كأنه دخل بقعة لا مسالك لها مطلقا . صوت المغنية الرخيم يرســل موالا بهيجا مجلجلا ويبدو كأنه ينبت من بطن الأرض من بين اقدامنــا ومن حولنا . كان صوتها شجيا كأنه البكاء الفطرى الجميــل .

داخلتنا البهجة حين تذكرنا ان صاحب الفرح الذى جئنا نلبى دعوته ـ وهو صهر صديقنــا بخيت ـ قد اكترى فرقــة

موسيقية فوق مستوى العوالم بدرجات عالية ، ويكفى أن معظمها من الاسماء اللامعة فى شوارع الفن ودروبه ، فصهر صديقنا له فضلة خيرك ثلاثة مهندسين من صلبه يعملون فى بلاد العرب وقد جاءوا لزفاف شقيقتهم ، « حسنية » التى تزف اليوم لابن عمها « بيومى » الطربى وصاحب عربات لنقل البضائع لاتنى على طرقات البلاد سائرة .

فجاة صرنا الى شارع عمومى تصطف على جانبيه الأحواش المبنية على طراز جهم مهيب ، كل حوش بيت متعدد الحجرات فى كل حجرة مدفن او اكثر ، لو توقفت امام احد الأبواب وقرات بعض اللافتات الرخام لداخلتك قشعريرة غامضة مصدرها اكتشاف انه فى هذه الحجرات تستريح جثث رجال ممن قرات أسماءهم فى كتب المطالعة او التاريخ او على لافتات زرقاء فى مداخل شوارع مدن الاحياء . فى كل حوش من هذه الأحواش اسر بكاملها واجيال عديدة مدفونة ، وفى كل منها اسرة من الاحياء تسكنها كانت فى الأصل خفيرا طرح على مضى الزمن افرعا من الأبناء والأحفاد اكتسبوا حق البقاء كامر واقع لا مماراة فيه ، ثمة اسر اخرى من اصحاب الأحواش انفسهم ضاقت بهم مدن الاحياء وارتفعت اسعار الخلوات فيها فجاءوا الى حيث لا ثمن للخلو فالرجل مخلية والحمد لله ، واقاموا من احواشهم مدافن ومساكن فى نفس الوقت .. وخشبة النعش تقف بجوار العربة البيجو فى حارة تحت شباك الحوش ، والتليفزيون الملون يرسل تصاوير الفيلم على شواهد المقابر المجاورة فى خلاء ليلة صيفية قمراء .

ثم أن الفرح بدا يهل علينا من شارع جانبى عريض . اقواس نصر مصنوعة من اللمبات الكهربائية فى ضفيرة يتشكل فى

وسطها ما يشبه التاج الملكى اللمبات الملونة يتشكل منهـا اسم العريس وسط اسم الجلالة والنبى العربى . ما ان حودنا الى الشارع الجـانبى تحفنا الأضـواء حتى صرنا فى سرادق ممتد وعريض يغص بالمدعوين فى دوائر تتناقل التحية والمساء الهنـاء فى صهللة وسبهللة صاخبين للديدين ، والمسرح فى نهاية السرادق حافل بالأطايب ، أربع اناث كالفهود فى ريع ثيابهن يبعثن العطر والهياج فى كل الأنحـاء ، راقصتان ومغنيتان طبال وضـارب رق وعواد وعازف أوكورديون وعازف قانون ونايانى وثلاثة من عازفى الكمـان ، وخلبوص يجمع النقطـة ويردد كالببغـاء كل ما ينطق به صاحب « النقطة » .

توقفنا برهة عند مدخل السرادق وقد بدا الجميـع لنا وهم يروحون ويجيئون شاحبين كالمصابين بالأنيميا . وكانت الأضواء تنداح شاحبة فى المدى المجاور للسرادق وظلال الشـواهد تمتد وتستطيل على الأرض لتلتحق بظـلال المحتفلين . رغم جـلال الموقف لم يكن ثمـة ما يدعـو الى الاستنكار بعد أن التحقت احاسيس الرهبـة باحاسيس البهجـة وامتزجت وصـار من المستحيل تميزها عن بعضها .

الدخـان الأزرق يتصـاعد فى سحب كثيفـة تضفى على البارزين فوق المسرح غلالة من السحر ، والطبلة العظيمـة لاتنى تعبر عن جنون مخترعها وعبقرية احساسـه يا حلاوتها والرق يزوقهـا بدندشته ، آه من ونس القـانون ومن صعلكة العود فى شرايين الجسد ، عينى على زفرة الناى ، انتعش تحت اللحـاف أيها القلب الموجود بالعشـق الأصيل فها هو ذا الأوكورديون يسحبك الى الاجهاش بالحياة ، ثم اصهل يا كمان وانقلنى الى المدى البعيـد أسرح فى ربوع الحب والشـجن والألم .. حتى

لو كنتم من عازفى الدرجة الثالثة أو العاشرة فان عزفكم فى هـذه اللحظة لأجمل عزف، حتى لو كان هـذا النشاط الحيوى المفاجىء لامتاع المحتفلين استدرارا لبذل « النقوط » فهو جميل بل وساحر .

وكنا قد اكتشفنا اننا صرنا جلوسا فى جمع قريب من خشبة المسرح ورددت اسماؤنا فردا فردا عشرات المرات فى الميكرفون ، مئات التحايا ارسلت الينا ونلب عنا غيرنا فى ردها اضعاف اضعاف . صحوة « نقوط » مفاجئة . صار من الواضح أن الجمع يرغب فى المغنية نجمة الحفل ويستفزها ويبعث على شرفها العشرات من هيف القدود .

تكفل صديقنا « بخيت » بجرها الى وصلة غنائية ساخنة ، فصعد الى خشبة المسرح وشبك الورقة أم عشرين فى صدر المغنية ثم تحزم وطلب الرقص ، فأرقصته الفرقة عشرين أو ثلاثين بلدى . كشف عن راقص ماهر يسيل جسده فى تشكيلات فطرية تهتز لها الاعطاف وتتراقص الأعناق فى السرادق ، حتى لقد انتصبت المغنية وانجلى صوتها باغنيات شعبية ذات سحر وعذوبة لا توصف .

وفى قمة الصهللة والوجد المشبوب بالموسيقى والرقص والغناء كان ثمة موجات من الصوات الملتاع تقترب لتطفى شيئا فشيئا على صوت الميكرفون والمحتفلين ، ثم اذا بها تقتحم السرادق نفسه : كوكبة من النساء لابسى الأسود حفاة كسرب من الغربان تقتحم مدخل السرادق لتعبره بالعرض ندبا وصواتا بدب الأكف فوق بعضها ، ثم يغيب سربهن فى شارع جانبى مواجه حيث يتضح لمن يقوم ويتمعن وجود كراسى مرصوصة . فى الحال كان الطربية المدعوون فى الفرح قد تذكروا أن ثمة ميتا لابد أن يدفن فى هـذه الليلة حيث جىء به من سفر بعيد ولا يمكن الانتظار . .

خيمت على الفرح لحظة صمت قصيرة ، احسسنا خلالها أن الاحاسيس قد انفصلت عن بعضها لتصبح الرهبة فى جانب والبهجة فى جانب . ثم اذا بالفجوة تتسع بينهما اتساعا مخيفا ، لحظتها ظهر موكب الرجال يحملون النعش ليمر من أمام سرادق الفرح فى بطء وتثاقل .. وكانت الأوتار لا تزال عاجزة عن لم رنينها من الأفق .

صاح صديقنا « بخيت » فى جدية وبنفس الشهامة : « سلام للميت يا جدع » . فتردد العازفون برهة لكنه صاح فيهم : « بنقول سلام للميت يا جدع » . فاندفعت الآلات كلها تعزف السلام للميت . رغم أنه نفس السلام الذى تعزفه لأى « نقطة » وبنفس الآلات ونفس الأصابع ، الا ان شحنة من الشجن الدفين الجليل كانت تنبعث من النغم ، ثم ان الموسيقى استأنفت فى الحال تقاسيمها فارشة للموال أرضا من البنفسج . ثم انساب صوت المغنية بالموال ، وكان يبدو ، أن صوتها ينبت من الأرض تحت اقدامنا ومن حولنا : « طبباك يا جرح ماتوا وأنت لسه حى . يا جرح عيب واختشى صفصف عليك الحى » .. فكان اجيال من طبقات الأرض بمن عليها وما فى باطنها تزعق هذه الآهة الحراقة وتطلق نفس الأنة الموجوعة وتذرف نفس الدمعة فى سرادق الفرح .

الاحتـــــراق

لم أكن قد رأيت نفسي وانا اقطعه ، لكنني فجـأة وجدته في يدي . كذلك لم أر دما يسيل منه ولا مني . غير انني رغم شعور كامن في اعمــاقي بفداحة الأمر ــ لم يكن يبدو على أي استياء أو ذعر . اذكر انني ربما أكون قد اندهشت ، ولعلني ابتسمت ، فقد كان ظريفا ان يقطع الانسان هــذا الشيء الذي هو ــ فيما يقولون ــ متعة الحيــاة الدنيــا ثم يبقيه في يديه وقتا . على أنني كنت أسلم نفسي للدهش البارد اللذيذ ، وفي الأعماق البعيدة نبوءة باحساس لابد وانه سيكون لذيذا غاية اللذة باعثا على النشوة أيضا .

لبرهة سريعة تساءلت ان كان من الممكن ــ طبيا ــ اعــادة لحمه من جديد . ولكن شيئا معتما بدأ يصعد من الأرض البعيدة وسخنت ماء الحمــام فجأة ثم سخنت ثم تحولت الى مــاء مغــلي ، وحينئــذ رميتــه في عنق المرحــاض وشــددت عليــه (السيفون) . ثم رأيتني فجأة في قلب الشارع الكبير ، وكنت لا ازال عاريا والمطر ينهمر بشدة .

التقيت بكثيرين من أصـــدقائي ومعارفي وزملاء طفولتي في كل البــلاد التي عشت فيها ولم اعرف لمــاذا هم الآن في هــذا

الشارع .. لكن كل واحد منهم كان ماضيا الى شيء ما ومع ذلك يرانى وينظر الى ويبتسم . كنت اركض عاريا واقبل على كل منهم مبتسما وادعوه مغنيا : (شتا ياشتا .. زمر ياسعيد) .

لكن احدا لم يتوقف ولم تفارقه ضحكته الودودة . كنت لا اعرف الى اين انا ذاهب بالضبط ، كذلك لم اكن فرحا بهـذا الركض ولا بالغنـاء الذى رحت أصيح به فى صوت عـال غير أننى كنت اشيح عن كل من لم يتوقف ، وانسلخ عنه . كانوا يحمون وجوههم من المطر بالأيدى والجرائد وجدران المنازل ، ويرفعون اذيال ثيابهم ويتعثرون ثم اشتد هطول المطر فتوقفوا جميعـا وانزووا فيما اخذت أقطع الشارع ذهابا وعودة . وقد راحوا جميعا ينظرون الى ولكن بشيء من الحسد . ولحظتها كنت أحاول منع نفسى من البكاء الجـارف . لكننى رحت اضحك بصـوت عال ، حتى لا اعترف بأن مياه المطر هى الأخرى كانت تغلى . وكنت أعجب : كيف لم يحترق جسدى ؟ .

العبور من البرزخ الهوائى

القرية التى كنت راحلا عنها كانت تبدو كأنها قريتى وكانت تبدو كأنها لم تكن قريتى ، كذلك كانت المدينـــة المتاخمة لها .. وكان آخر مشهد بقى فى ذاكرتى هو مشهد أبى يوبخنى بكلمات جارحة لم تترك عضــوا فى جسدى الا والهمته بشىء بذىء ، وكان ذلك يتم بصــوت عال وعلى ملأ من الجــيران والزمــلاء والسابلة . وكنت لحظتها قد بدات اطـأ ارض المدينـــة مع وفود الندى • وكنت قــد استنفدت كل عرقى لحظـة التوبيخ فصرت اشرب عرق الليل المنسحب بعد رحلة أجهدته واورثه من صنوف العهر والعناء ما شيبه بفجر رغم الكآبة ساطع وقوى ونافذ كالقدر كالحكم العدل •

اضواء المدينة التى كانت مبهرة منذ ساعات قليلة بدت أمام وفود الفجر الفيروزية كعين عمشاء تخبو ذبالتها شيئا فشيئا ، أبنيتها الميتة المسلحة وعمائرها ذات الشرفات والقباب والمـآذن والمداخن تبدو كأنها من فرط بروزاتها وتكوراتها البنائيــة كأنهــا تكتظ بالرقاد اللذيذ والمتعة المفرخــة ، وتبدو كأنهــا تتنفس بعمق كأنها البطون تعلو وتهبط ، والطرقات المرصــوفة تهل وتتفرع

وتتنابذ وتتماسك لتزور عن بعضها من جديد ثم فى طريق ، وبعض الطرقات حافلة بالأتربة وبقايا ادخنة اليوم الفائت .

وكانت تبدو كأننى أعرفها وتبدو كأننى لم أكن قد عرفتها من قبل أبدا ، ذلك اننى لم أكن أعرف لى وجهة معينة ، وليس ثمة من أحدأعرفه على الاطـلاق . ثم اننى وجدت أن لا مفر من التسليم باننى لست من أهل هـذه المدينة وليس لى ثمة من أهل فيها ، وكان ذلك يقتضينى أن أمشى مؤدبا غاية الأدب وفى حذر وعلى استحياء أثقل خطواتى أو أرسل البصر .. وكانت الوفود الفيروزية التى لاينى الفجر يرسلها قد راحت تتعثر فى شـوارع المدينة وحواريها ومنحنياتها وتضيع تحت ظلال تندات المحلات وفى اركان الشرفات ، وتتلوث بالوحـل على بلاطـات عريضـة متشققة سائبة يتحدر من بينها ماء قذر يحمل عطانة يستعذبها الأنف اكراما لخاطر ما كان وراءها من مواقعات فى مواقع دفء أسرى لذيذ .

لا ادرى كم حـارة قطعت وكم حوداية حودت وكم مزلقانا عبرت ومصاصات القصب وبقايا عيدانه تتناثر على الأرض ، وعشش واخصاص تنتمى الى اركان ومنعطفات وعربات الهريسة والبليلة والسندوتشات تزحف داخل عيون الصبح لتحتويهـا ، وناس تمشى ، عمال وافندية وتلاميذ ، وأطفال أنقاء يهرولون فى أيدى أبائهم أو أمهاتهم فى زهو كأنهم ذاهبون لتسـلم منصـب الرئاسة وان وصلوا اليه بعد أربعين عاما أو قليل أو كثير .

ثم فوجئت اننى فى خلاء قليل تحوطه المبانى من ثلاث جهات . فخيل الى اننى أعرف هـذه الفتحة الهوائية المرتسمة بين ضفتين من المبانى العالية على شكل صندوق آلة الكمنجة . وكنت أعرف اننى كلمـا دخلت فى فراغ هـذا الصندوق اكون قد اقتربت من

حارة على اليمين فى الضفـة اليمنى ، على ناصيتهـا مطعم فول وجزمجى وفى المقابلة على الناصية الأخرى حلاق . فان دخلت الحارة تعين على أن أهز راسي للحلاق الجالس دوما أمام دكانه ، وارمى يدى بالتحية لبائع الفول مع ابتسامة أتملقه بها مقدما حتى لا يصدنى بغلظة حينما يجيء الوقت واطلب منه فولا وطعمية على الحساب ريثما يجيئنى المصروف من البلد ، ثم اتجاوز الجزمجى الا اذا كان رافعا رأسه .

ثم امشى فى هـذه الحارة متوغلا ما يربو على نصف كيلو متر بين صفين متقابلين من البيوت العتيقـة لها شبابيك غائصـة فى الأرض وشرفات كالدمامل البارزة فى الحوائط الكالحة المخللة فى مياه الطرشى ومياه الحموم والغسيل والرطوبة ، حتى أصـل الى بيت ام عزت ، وهو بيت من دورين له باب على الشارع مغلق ليل نهار ، وعلى أن أقف تحت الشباك وانادى بصـوت ريفى احاول جاهدا ان ارققه ليبدو كصوت ابناء المدن :

« يا .. عزت .. ياسى عزت » .

فيرد صوت ام عزت من وراء الباب مباشرة حيث انها تفرش وتنام فى الفسحة لسبب لا ندريه ، ومع انها تكون قد عرفتنى من صوتى الا أنها تقول بجدية شديدة وذعر عاهر مصطنع :

« مين اللى بينادى ؟»

فاقول « أنا فلان » .

فيصطك ترباس الباب من الداخل ثم تنفتح الضلفة قليـلا لامرق منها الى الداخل ، حيث الحجرة المواجهـة لبئر السـلم التى نؤجرها أنا واثنان من بلدياتى من زملائى فى المدرسـة ، اندفع داخلا متجنبا النظر اليها خوفا من ان تكون فى نصف ثيابهـا

او لعله خوف من بطشها ، اذا أنا تطـاولت بنظراتى ، ولى بعد ذلك أن أعريها من كل ثيابها فى حجرتى وحدى وربما مع زملائى. ولكن دون أن تدرى هى . ونتناقل حضنها فى الصقيع كل ليلة فيما هى لاتزال تكح وتتوجع فى الفسحة ؛ باستثناء ليال قليلة تنام فيها فى الحجرة العلوية المواجهـة للباب حين يجىء زوجها عسكرى البوليس ليقضى معها اجازة . وكنا نرهب جانبها ونهتز من شخطتها حين تضـع يدها فى خصرها الرفيع الرشيق فتزداد عجيزتها بروزا وعرضـا ، وتؤنبنا كأننا خدم فى معيتها حيث يتراقص حاجبها فى دربة كبيرة ، وحيث نرى التهتـك والعهر فى كل عضلة وصوت وحركة .

وكان ذلك يطيب لنا فى الواقع اذ هو اباح لنا رؤية الثداء بارزة تهتز طليقة كفردتى الحمام من فوق عش الصـدر ، وخصر مستطيل رفيع يزداد رفعـا كلما هبط الى العجيزة ، ليبرز تحت الصـدر بمسافة طويلة مشروع عجيزة أخرى كأنها مجرد ظـل لغطاء حلة مقلوب تبرز منه دائرة صغير يمسك منها .

لكنها فى النهاية انتهكت حرمة أمهاتنا تماما ، وصرنا نرتعد كلما واجهنا أمهاتنا ونرتبك كأننا اخطأنا فى حقهن الى درجة الكفر والعياذ بالله ، وكل منا يلاحظ هـذه الظاهرة على الآخر كأنه براء منها وهو فى الواقع غائص فيها . وكنا نمتثل لأوامرها عن طيب خاطر ، ويشكو بعضنا البعض اليها لتنزل به العقاب الذى ربما امتد الى حرمانه من زوادته طوال المدة والاستيلاء على اى قرش يظهر بين يديه . وكان الواحد منا يهدد فى المساء تحت الفراش بأنه سـوف ينتقم منهـا شر انتقام ولكن شبح زوجها عسكرى البوليس يرعبه ، وشبح ابنهـا عزت ــ ذلك الذى لم نره أبدا ــ يرعبه أكثر .

وكنت قد غصت فى صندوق الكمان الهوائى حتى دخلت المنبعج النهائى وكان على اما ان احود بعد خطوات الى الحارة التى صار من المؤكد أنها هى التى كنت أسكن فيها فى هذه المدينة زمن التعليم ، أو أغوص أكثر فى قعر صندوق الكمان الهوائى حتى أصير داخل البروز النهائى فيه لاصير بعده فى خلاء لا نهائى تحفه الأراضى التى يحمل السحاب كثافة ظلها فى السماء الرمادية المخيفة تنطبق فى الأفق فى آخر المدى على المجهول الذى تبدأ منه آماد جديدة لا نهائية ايضا .

كان الحنين يسمرنى فى مكانى وكأنما الاشعاع الذى يصدر عن جسدى قد تعرف على نفسه تحت ركام اشعاعات الآخرين والأزمنة ثم سرعان ما اتصل وتلاحم ، والا فما سر هذه القوة الجاذبة التى تشدنى الآن بعد انقطاع موغل فى القدم الى أن أسير نفس الخطوات فى نفس الحارة لاذهب الى نفس البيت واطرقه نفس الطرقة واتلقى رد أم عزت او اى أم غيرها .

ثم ان قلبى ارتعد قليلا ، اذ مر اثنان من الصعايدة المعممين يمشيان فى مهابة ويتكلمان فى هدير غير مفهوم ، خيل الى أنهما سيتعرفان على ولكنهما تجاوزانى بعد نظرة حافلة بالسلام عليكم . وقد تيقنت أن أحدهما هو صاحب المبنى الذى كانت تؤجره مدرستنا اسمه المعلم عباس المراكبى والآخر هو صاحب محل عصير ، كنت أريد ان أسلم على المعلم عباس وأن أهرب من صاحب محل العصير ، فالأول كان قد حاش عنى أولاد المدينة حينما أحاطونى مرة بلا سبب وأشبعونى ضربا وزغدا وتهزيئا والثانى استلفت منه بريزة منذ عشرين عاما وزعمت له أننى سأردها يوم السبت حين عودتى من البلد ولكنه لم يرنى بعدها أبدا .

تذكرت انني ربما أكون مدينـا لصـاحب المطعم هو الآخر بأكلتين أو ثلاث لا أذكر ، ثم انني توجست من طول الوقوف ، فمضيت متجاوزا الحـارة على زعم خفي بأنني لن ابتعد عنهـا كثيرا لأعود اليها ، فاذا بي اراني ماشـيا في الخلاء المتاخم للمدرسة مرتديا بنطلوني وقميصي وبين رهط من التلاميذ نسعى الى مدخل المدرسة نوحوح من البرد ، وكلهم ينظرون الى ، حتى الذين يمشون خطوات دون انتباه لي يعودون فيلوون أعنـاقهم ناظرين الى من جديد ، فاعرف انهم يستنكرون بنطلوني المرقع ، ويتأففون من حذائي المفتوح الفم عن لحم عار بلا شراب . وكنت اعرف هـذا وأركز النظر في عيونهم متحديا فمنهم من ينكسف ويمشي خجلا ومنهم من يصطنع الاشـفاق ليمعن في الكيد ، ثم رأيتني في الفصل بين خمسة صفوف من التلاميذ والمدرس واقف ينصت في امعـان وأنا اقرأ في كتـاب المطالعة موضوعا عن دار الكتب المصرية التى انشاها على مبارك باشا ليحفظ فيها تراث العرب ، وكان المدرس معجبا بقراءتي وأنا منطلق في القراءة رغم أن شـياطين من الزمـلاء المجاورين يمدون أيديهم خلسة ويتحسـسون بها مواضـع الرقع في بنطلوني ، فيرتعش جسـدى كله وينتفض ، وما ان جلست حتى جمعت كل قوتي الغاضبة في لكمـة شيمتها خلسة للشيطان الذي أعرفه فاذا به ينتفض مذعورا صارخا واذا بالفصـل كله يفزع منبها والمدرس يقبل نحوى رافعا حاجبيه ينظر الى دهشـا كأنه ينظر الى وحش متنكر ، سألني فحكيت له السبب .

وقال الولد الذي لكمته بقسوة انه لم يكن صاحب اليد التي تحسست ، انما هي يد فلان ، فابتسـم المدرس وأمرني أن أعتذر لجاري فاعتذرت ، ومثل المدرس رأسه نحوى هامسا :

« وانت كمان ابقى غير البنطلون ده » .

وكنت ارتدى نفس البنطلون ونفس الحذاء حينما رايتنى اتجاوز بناء المدرســة وأنسلخ من أرض الحديقــة الملحقة بهــا وأعرف أننى قد خرجت من صندوق الكمــان الهوائى وصرت امشي على مدق رفيع بين مزارع وقنوات وسواق ، وأسراب من طيور أبى قردان صديقة الفلاح ، لابد أنها هى الأخرى تظننى حشرة من حشرات الأرض يجب ابتلاعها لولا حجمى ، اذ راحت تصافح الأرض أسرابا لتعود فتنطلق منها افرادا وجماعات تصنع فى الفضـــاء تشكيلات اين منها التشكيلات العســكرية ، وكنت اتأبط شــيئا سرعان ما تبينت انه صرة فيها ثيــابى الداخليــة والخارجية أى كل ما أملك من ثياب ، وسرعان ما تبينت أننى ذاهب لكى اغسلها حيث افعل ذلك يوم كل جمعة فى الخفاء .

ظللت أمشي وأمشي واعبر قنوات حتى تعبت . ولمــا نظرت خلفى ورأيت المدينــة قد ابتعدت وصندوق الكمان الهوائى قد انعجن فى كثافة من خلال المباني ، استرحت بعض الشيء واعتبرتنى فى مأمن . وكان أمامى ساقية كبيرة فوق ربوة عالية ، تستظل بثلاث فارهــات من شجر التوت والجميز والجزورين . وكانت الشمس قد ألقت بقرصها كاملا فوق سطح شريط بارز مصقول عرفت أنه ترعة كبيرة أغاب الظن انها ترعة المحمودية ، كالعــادة وضعت صرة ثيابى فى حوض الساقية الأسمنتى المستطيل ، ثم خلعت ما على من ثياب ، ثم فردتها كلها وشرعت اغسلها . اكتشفت كالعادة أن ليس معى صــابونة ولكن ذلك لم يثننى ، صرت اغمس الثوب فى بئر الساقية واخرجــه ثم اضعه على رأس الحوض وأروح أدعكه بين راحتى كما تفعل السيدات ، وأتذكر منظر أمى وهى تلم الثوب على الأرض فى كومة هرمية وتضغط فوقه بايقــاع موسيقى ، ثم تفرده وتغمسه فى المــاء هكذا ، لتفرك هكذا وتكوم

وتضغط هكذا والثوب يفرز موجات من الوسخ ذى رائحـة عطنة . المهمة ثقيلة مع ذلك لا يكرهنى فيهـا سوى غسل السراويل مع انها سراويلى وهـذه البقعة المتجلدة فى صـدر السروال ذات لون لا لون له هى افـرازاتى مع ذلك اتقزز من غسـلها ومع ذلك اغسـلها .

وكنت ماضيا فى غسل احد السراويل مكشرا وجهى اضغط بأسنانى على لسانى مثلما أضغط على السروال وأحكه فى ارض الحوض حين زحفت على الثوب مجموعة ظلال كثيفة تتمثل فى رءوس سـوداء متجـاورة صارت تدوس فوق الثوب وتستطيل وتستطيل ، أحسـست انها لناس ربما كانوا من أصحاب هـذه الأرض أو هذه السـاقيـة أو ليسوا أصحاب شىء ، فتعمدت عدم الالتفـات وطفقت أواصـل الغسـل واثقـا أنهم لابد سيعتبرون ويخشون ويمشـون . لكن صوتا ثقب أذنى عرفت أن صاحبـه هو ذلك الولد الشيطان الذى دأب على تهزيئى بسبب رقعـة فى بنطلونى وكان يخيل الى أن الضحكات الساخرة المستهجنة تخرج من كل مكان وتبقلل فى مياه البئر ولكننى مع ذلك لم انتبه .

وظللت أواصـل الغسل وهم يواصـلون الضحك الساخر والتجوال حول الساقية . وكنت كلما انتهيت من غسل قطعـة نشرتها على شعبة الساقية وعلى الطارة الحديدية ، فلما انهيت غسل الثياب كلّها نهضت مارا بالأولاد الشياطين ووقفت ونظرتى فى نظرتهم فلم يبد على اننى رايت أحدا ، ثم قفزت الطريق قفزة واحدة الى الترعة ، التى بدت عريضـة أكثر مما توقعت عميقـة أكثر مما ظننت ابن ريف أنا مدرب على خوض الترع كمـا هو مدرب على الخوف منها .

نزلت متحسسا أرض الشـاطىء وانحداراته الى الداخل ، ثم غطست غطسة سريعة وخرجت على مبعدة امتار قليلة ، ثم اخذت اسبح واسبح بدربة هائلة نشـوانة مع اننى لا اذكر انى تعلمت السباحة فى حيـاتى وان خضت الترع والمصارف . وكان يزيدنى نشوة أن الشمس صارت عمودية فوق ثيابى .

الكهــف

رأيتنى جالسا كالعــادة فى حجرة مكتبى منشــغلا فى أمر لا أدرى ما هو على وجه التحديد ، لكننى كنت اقلب أوراقا مطبوعة اغلب الظن أنها بعض المجـلات الأسبوعية أو الجرائد الملونة ، وكان ثمـة شـعور بأن التفاهــة والقرف يحاصرانني حصــارا لا فكاك منه .

وكان باب الحجرة مفتوحا على غير العادة والليل ــ كمــا كان واضحا ــ ينذر بفجر كئيب كفجر كل الأيام السالفة . وفجأة رأيتها ، مقبلة من احدى الغرف الداخليــة مجتازة الصــالة فى اتجاه باب الشــقة . كانت ترتدى جلبابا منزليا يشــبه جلباب الرجال الى حد كبير، لكنه ينســدل فوق مرتفعات جســدها بسخاء فتبدو أجمــل مما عرفت ، ويلتحق بمنخفضاته فيـبــدو كجاسوس خبيث .

لم اكن اعرف لمــاذا هى متجهة الى باب الشقة فى مثل هذه اللحظة المتاخرة من الليل ، ولم أكن سمعت طرقا على الباب ، لكنها ــ كالعادة ــ تممت على ترباس الباب ودفعته ثانيــة بقوة حتى تأكدت من اصطكاك لســان المزلاج بالثقب الذى يبيت فيه

واطفات المصباح المعلق على واجهة الباب من الخـارج .. ثم استدارت عائدة نحو حجرة مكتبى فتهيات لاستقبالها بابتسامة احاول جاهدا ان تبدو طبيعية حتى لا اتهم باننى افتعل الابتسام كلما انفردت بى لأخفى عدم سرورى ، باقتحامها عزلتى . وكانت متهندمة يفوح منهـا طيب وكانت أيضا تبتسم ، فكاد قلبى ينخلع، اذ تأكدت انها لابد ستحدثنى عن أشياء خطيرة مطلوبة منى تتعلق برهط من كائنـات صغيرة تنام فى الحجرة المجـاورة لا يهدأ لها ضجيج حتى فى عز نومها .

ولم اكن قد قررت بعد ماذا سأقول محاولا قدر الامكان تجنب الردود التقليدية التى اصبحت اخشى ترديدها كما اخشى الاقتراب من لغم . وكان جسـدها كله قد صـار فى مواجهتى مقبلا نحوى ، ولم يكن ثمة شك فى انها هى بلحمها ودمها ، لكنها كلما اقتربت اختفى وجهها فى ظلمـة الصـالة الخفيفة وجعل يتصاعد من جسدها تيار كهربى غير مرئى بعث الخوف والفزع فى جسدى كله صاعدا نحو السقف فى حين لم تستطع حنية زاوية الباب أن توقف زحفها نحوى فى هدوء رقيق ونعومة .

ارتفعت فروة راسى ، غصت فى كرسى المكتب وشرعت من فزع ومن رعب اطلق صراخا من الحلق يشبه الزئير ، زئير من يستنجد بقوى كونية خرافية تسعفه . لحظتها شـعرت بجسدى كله يهتز ، ويد ناعمة تربت على كتفى وصـوت يردد فيما يشبه المواء فى اذنى :

« مالك يا فلان .. أنا نايمة جنبك اهه فيه ايه ؟ » .

رفعت راسى عن الوسـادة قليلا والتقطت انفـاسى الضائعة بصعوبة ، ثم تمطعت واعتدلت فى نومتى محاولا الغطاس فى بحر

النوم ، لكن انفاسى لا تريد أن تنتظم . بربشت بعينى فى الظلام فلم أر شيئا لكننى احسستها ، فتذكرت أنها كانت قد جاءت منذ وقت ونامت جوارى . فظلت جفونى متباعدة كأنما اعتراها الخوف من الانغلاق ؛ وبدا ان النوم الثقيل عدو سخيف يحاول استدراجى الى المجهول .

وكانت يدها قد راحت تتحسس جسدى كأنها ترقينى بلا رقيا . وكنت ـ على سبيل رد المجاملة ـ قد تركت يدى هى الأخرى تفعل نفس الصنيع . ثم وجدتنى أستجيب شيئا فشيئا .. فأدخل كهفها المسحور .

فنتازيا الأطفال

لأمر ما دخل التليفزيون دارنا دون كل الدور فى العزبة التى أسكن بها ، ذلك أن ابنى الأكبر ، وهو مدرس معار الى بلد عربى، كافأنا بهذا الجهاز لنتفرج عليه ريثما يعود من رحلته ويتزوج ويستعيده لنفسه.

والعزبة التى أسكن بها ليست عزبة بالمعنى المفهوم للعزبة ، انما هى منشأة صغيرة كانت فى الأصل مسكنا لعمال وخفراء احدى ماكينات المياه ، قبل أن يفد عليها الوان من الناس لأسباب مختلفة ويتخذون منها موطنا ، فبينها وبين العاصمة بضعة أميال صغيرة كنا نقطعها سيرا على الأقدام كل يوم لنقضى سهرتنا أو نشترى حوائجنا ، الا أن العربات المنتشرة على السكك ، وزحف العمارات القادم من العاصمة ، والضجيج الهائل الذى أصبح يعم المنطقة ، كل ذلك جعلنا نفكر عشرات المرات قبل « السفر » الى العاصمة اذا لم يكن ثمة عربة توصلنا .

فجأة صارت « المندرة » فى دارنا أشبه بالمقهى . لم يكن ذلك يزعجنا ، بل كنا أحيانا نتطوع بتقديم كوب من الشاى أو أكثر لبعض كبار القوم الذين دابوا على زيارتنا للتفرج على فيلم السهرة أو تمثيلية الثامنة والربع . على أن أكثر ما كان يسعدنا

جميعا هو منظر الأطفال الملتفين حول الجهـاز ينظرون فى انبهار وصمت عميقين ، خاصـة حين الفرجة على برنامج (الأطفال) .

كنت أرقبهم وطفلى الصغير بينهم يتبادلون النظر والابتسام فى غبطة وسرور كلما جاء مشهد الحديقة على الشاشة ، اذ تنفتح الشاشة فجـاة على حديقة جميلة حافلة بالأشجار والأراجيح وآلات اللعب ، وكوكبة من الأطفال الملظلظين تتقافز ضاحكة لاعبـة وتتبادل الورود والزهور .

كانوا يحسبون لموعد البرنامج بكل دقة ويطرقون علينـا الباب دون حرج . وفى يوم تعطل الجهاز وصار حتما أن أقوم باصلاحه قبل حلول موعد برنامج الأطفال ، اى لابد من الذهاب الى العاصـمة . وهنـا تعلق طفلى بثيـابى وارتفع صراخـه ، فاصطحبته معى الى العاصمة . سلمنا الجهـاز لمحل التصليح وانطلقنا الى احدى الضـواحى نزور احد أقاربنا الذى املنـا فى عودته معنا حتى يختشى منه صاحب المحل فلا يغشنا .

فاذا بنا فى سفر جديد ، واذا بنا نهبط ونسير شـوارع لامعة وهادئة تحف بها الأشجار من كل ناحيـة فتختفى فى ظلالها البيوت . وكان طفلى ممسكا بثيابى يتلكأ فى السير حينما لمحنا على البعد القريب حديقـة جميلة حول سراية أجمـل ، حافلة بالأشجار والأراجيح وآلات اللعب ، وكوكبة من الأطفـال الملظلظين تتقافز ضاحكة لاعبة وتتبادل الورود والزهور .

حينئذ شدنى طفلى من ثوبى صائحا بكل انبهار وغبطة !

ـ « الأطفال » أهم يا بابا .

تبــاريح الـــريح

كنت انام فى حجرة جدرانها من الصفيح وسقفها من البوص والحصـــير هى حجرتى التى اسكنها فوق سطح بيت « أم عواطف » الكائن فى صـــــدر حـــارة ضيقـــة من حـــوارى حى محـــرم بك بالاسكندرية .. متمددأ كنت على شريحة حشـية فوق حصـــير متآكل هى مرتبـــة الكنبة البلدى التى استغنت عنها أمى وتركت الكنبة عارية فى مندرتنا فى البلد قائلة أن عرى الكنبة أفضـــل من عرى ولدها ثم ضحكت لتدارى فى عينيها شيئا ما . بطـــانية رثة من بطاطين الجيش منطرحة على جســـدى تلففه من اخمص القـــدمين حتى رموش العينين اشتراها أبى من سوق العصر وجاء بها سعيدا يتعثر فى الطريق من الفرح يفردها يقبلهـــا يتحسسها يرينى كيف أنها لا تزال محتفظة بوبرتها تفوح منها رائحة جدة صوفها .

فى عينى جمرة حمراء صغيرة كحلمة ثدى متكور فى جســـد الظلام هى ذبالة ما تبقى من شريط لمبـــة الغاز نمرة خمســـة بعد أن احترق فى رحلة الصعود بالضـــوء بلا غاز يجرى فى عروقـــه الشرقـــانة .

تحت راسى وسادة صفت من كتب دراستى . الحائط اخذ يزداد اقترابا من عينى شيئا فشيئا كانمـــا قد صار له كرش

من الظلام المتورم أو التورم المظلم . حلمة الثدى المتجمرة اخذت فى الاضمحلال انطمست ، بدا كأنما اختفاؤها مؤقت .

كنت اتنفس باعياء ، لأنفاسى صـوت عال كئيب ، مزعج ورتيب .. بدا كأننى جـائع لم اتناول طعاما منذ وقت طويل مضى . كنت اعرف اننى لو مددت يدى بجوار راسى مباشرة فسوف تصطدم بالقفة المملوءة بشقائق الأرغفـة الناشفة هى زوادتى التى أجىء بها من بلدتى كل شهر مرتين ، نصف كيلة من العيش المخبوز وخمسة وعشرين قرشـا مصروف يد ، سرعان ما تغتالها المدينة فى لمح البصر والأيام لمـا تجىء بعد والليالى ما تزال طوالا .

كنت اعرف اننى استطيع مد يدى فى القفة وسحب شقة عيش الوكها وورقة الملح المدخر من قراطيس الطعميـة المشتراة لا تزال طافحـة بزيتهـا ورائحتها موضـوعة بين كتابين تحت راسى .

اعرف اننى قانع بالمثل الشعبى الذى يزودنى به أبى كلمـا ودعته ساعة السفر : « ان حضر العيش يبقى الملح دلع » . غير اننى ـ ربما من سأم ـ لم اشـأ مد يدى الى القفة . نفذ البرد الى عظامى غير مرتهب من بطانية الجيش ولا من وبرها المعظم .

رحت أرتعش وأتثاءب اعتدلت على جنبى الأيمن انطرحت يدى عفوا على حافة القفة فكرت جديا فى أن أسرب أصابعى خلل الخبز الملامس لها غير اننى ـ ربما من تعب ـ لم افعل . طويت ساقى تقرفصت تفاديت لسع البرد قليلا . حلمة الثدى المتجمرة ساكنة تحت عينى لا تريم . أعرف ان الدنيا فى الخـلاء مكفنة بالضباب الأسود الكثيف . اخذ صوت الريح يطغى على صـوت أنفـاسى .

أخذت الريح تهبد رءوسها العاتية فى بابى وشباكى ، زعزعتها برعد عنيف شرس كأن أيدى قوية تمسك بنا جميعا فى قبضتها ملء فم الريح . الجدران صفائح زيت قديمة انفردت ثم دقت رقاعها فى بعضها البعض ، ومن أربع صفائح مفرودة على مربع خشبى يتكون الحائط ، ومن ثلاث بالطول يتكون الباب ، ومن صلع صفيحة يتكون الشباك . صفائح الجدران راحت تترجم خوفها على نفسها من ألم التفتت بصياح وزئير ونقرزان وطنين .

بدا كأن الريح نفسها تترجم هى الأخرى خوفها من كوارث كونية محيقة بها ، خيل الى أن الخوف أشد شراسة وتدميراً من أية قوة أخرى مدمرة . فى قلب معزوفة الأصوات الشرسة الشريرة الخائفة انشق بجوار قدمى صوت كطلقة الرصاص نفضنى من الأعماق نفضا ، فلما استعاد قلبى توازن دقاته تبينت رغم الظلام أن المصباح قد وقع من المسمار الذى كان معلقا فيه فصار الى هشيم ، ووثب ذهنى فى الحال يتأهب لاستقبال الظلام لليال طويلة أخرى قادمة ، فالله وحده يعلم متى يقدر لى أن أشترى مصباحا جديدا بعشرة قروش أو أكثر ، تذكرت أن زجاجة المصباح كانت مشطوفة الهامة ضائع نصف رقبتها وكنت استعيضه بقرطاس من الورق يتجدد كلما احترق . توقعت أننى لو نسيت خلال الاستغراق فى النوم ومددت ساقى فان شظايا الزجاج وهشيمه سوف تنغرز فيهما وتعلق بوبر البطانية .

بدت المنطقة المتاخمة لقدمى كحقل من الألغام محاط بأسلاك شائكة ، ازددت تصلبا ، لصقت وركى فى بطنى حتى لامست ذقنى ركبتاى ، عدلت من وضع يدى فطوقت بها ساقى كأنما ذلك سيمنعهما من مغادرة هذا الوضع فيما لو غفلت عنهما . استمرت الريح تعصف وازداد انكماشا أحاول ادخال أعضاء

جسمى فى بعضها كاننى دودة القز تسعى لصنع شرنقــة حــول نفسها بالخيوط الحرير فاخر الحرير وانا بخيوط الأنفاس ساخنة الأنفاس أنسج رقاعا تمتد تتمطى فوق لحمى الناشف الضئيل المكون من ردىء الخبز والملح والفول والأعشــاب والحشائش والنفايات الأجنبيــة ٠

بدا كأن بين الريح وبينى « ثارات » شخصــية غامضــــه مجهولة وعميقة راحت ترسل وفودا من صريخها وانغامها الجهنمية الى أذنى من منافذ لا حصر لها فى كل الجدران ، سرعان ما بدات أصواتها الحادة تزداد اتساعا وسطوة وازداد تيبســا ورغبــة فى الامحاء تماما .

بدا كأن الريح انطلقت من عقالها تضاعف صوتها وسطوها وثقلها راح يزحف فوق جســدى مباشرة يزغرد بوحشية بعشرات الأصوات . صرت ارتعد انتفض الى ان كفت الريح فجــاة عن الهبوب ثم أخذت أصوات أخرى تقرع أذنى وجسدى متضاعفة متتالية ، راح الايقاع ينثال بدفق يرجنى فتبين لى أن الجــدار الذى كان مواجها للريح قد تهاوى فوق جسدى مستريحا بعد طول نضـــال وهزهزة وكان الثقــل يتزايــد فوقى الا اننى استسلمت لسمفونية المطر وقد وقر فى أعمــاقى أن الشـــمس وشيكة الشروق .

رقـائق ثـلج أسـود

كنت أسير فيما بدا انه شـارع عمومى عريض الى حد افقدنى الاحساس بمبانيه المترامية على الجانبين ، فى مدينة تبدو اقليمية صغيرة ونائمة فى احضـان صمت ازلى طويل . وكنت متعبـا ومترددا ، قد بدا لى اننى اذهب الى مشـوار فى مكان ما من هذا الشارع .

وضح لى اننى نسيت هـذا المشوار مع اننى اسعى اليه بحماس يشوبه التردد ، فى تردد يشوبه الحماس بدا انه لا مفر امامى من الذهاب الى هـذا المشوار واستمرار السير من ثمـة فى نفس الشارع الذى وضح اننى اجهله تماما وانى ربما اتعرف عليه اذا عرفت طبيعة المشـوار ، وربما اذا تعرفت عليه عرفت طبيعة المشوار على وجه التحديد !!

اكفهر الشارع فجـأة احتشد الضباب الكثيف ، تعذرت الرؤية ثم انعدمت لبرهة وجيزة . بدا كأننى آلف هذا الضباب وإن كنت اشعر الآن تجاهه برعب دفين ، تتسارع دقات قلبى اسمع دبها يداخلنى يقين بانه اعلى صـوت فى الكون كله هذه اللحظـة ! . أشعر بالخطر ، أشـعر كذلك اننى موشـك على الدخول فى قلب ما يشبه الأمان !

خفت صوت الدب فى حنايا صدرى . رقت كثافة الضباب شيئا فشيئا ، بدا كأنها الثوب يتخلله البلى فى رقع كثيرة متحولة كثدى بلا لحم ولحم بلا ثدى . منذ برهة طويلة جدا وأنا اتوقع مدى الرهبة التى ستعترينى حينما ارانى قد بدأت أدخل فى صفحة هذا النسيج المتحول اذ خيل الى أنه سيطبع بصمته هذه فى دماغى .

فوجئت باننى ودعت خلفى عشرات من هذه الصفحة المتحولة ولا تزال نفس اللوحة تواجهنى بخيوط سوداء قاتمة تتخلل صفحة أقل سوادا عرضها عرض الأفق تتراجع قصادى الى ما لانهاية .

ينتفض الرعب فى قدمى ، ارتفعت فروة راسى اتسعت حدقتاى . ميزت أن رقائق السواد التى كانت تسد ملآء الأفق راحت تتساقط كرقائق ثلج أسود لتكشف عن مساحات مبيضة قليلا ، سرعان ما بدت كأنها نوافذ على أفق مجهول . سرعان ما راحت هذه النوافذ تتسع شيئا فشيئا تجور على مساحات الظلام تحولها الى كتل هرمية سوداء . سرعان ما راح اللون الأبيض يتخلل هذه الكتل الهرمية السوداء يصنع منها سلالا من الخيوط الرمادية المنسوجة على أوتار عالية . وضح لى اننى سائر بين صفين من أشجار الكافور والجزورين والحناء والصفصاف والزيتون ، وضح لى أن يد بستانى بداع قد أبدعت فى خرطها بهذه الدقة الهندسية البديعة .. فعرفت اننى سائر فى شارع اظنه الشارع الخامس على وجه التحديد ، فى ضاحية اظنها ضاحية المعادى فيما يشبه اليقين ! ..

وضح لى اننى أقطع فى ليل بهيم لا أذكر متى بدا ، واننى أخيرا قد بدأت انجح فى امتطائه والوصول الى هذه

اللحظة .. وعرفت أنه قد بقيت من الليل ساعات قائمة على أن الف الشوارع المحيطة لأدهنها بفرشاة اللون الأبيض ، ثم اتولاها بالدعك والصنفرة الى أن تتآكل جلدة الأفق الرمادية عن ثقوب تتسلل منها خيوط الشمس .. حينئذ يحل لى أن أدلف الى عتبة العمارة المهيبة الكائنة فى عمق الشارع ، وأطرق باب شقة رفيق صباى ، الوحيد الذى أعرفه فى هذه المدينة ، لأجده قد استيقظ وتناول فطوره وتهيأ للخروج الى عمله ، فيصير من حقى أن أستخدم سريره فى النوم بضع ساعات .

الأســنان الحجريــة

اضواء شاحبة كانت تبدو فى الأفق البعيد كثقوب فى جبهة الظلام الحالك . خيوطها حاملة الضــوء العليل أوحت الى أن كتل الظلام ممتدة فى العمق الى آماد بعيدة جدا . وبدا أن خيوط الضوء أسنة من سنان الشمس حادة اخترقت جبال العتمــة الصخرية صانعة لنفسها أنفاقا . أحسست ان المسافة بيننــا وبين الشمس نفسها خرافية وليس ثمة من سبيل اليها ما لم تحشــد الشمس اهبتها وتسلط كلما فى جعبتها من ســيوف تشق هذه الجبال فهى السلاح الوحيد الذى يمكنه النفاذ فيها .

بدا أن هذه أول مرة أرى فيها الضــوء بعد فترة طويلة لست أذكرهــا ولا اذكر تفاصيلها . انتابنى شــعور بالخطــر ، ربما لرؤيتى المفاجئــة للضــوء . انتفض قلبى ، اخذت أصيح بتلقائية صيحات مندفعة : طفى النور ! طفى النور ! وكنت أعرف ان صوتى قد لا يبلغ أحدا ، بل كنت أحس أنه يرتطم بجبل الظلام فيرتد الى ساخرا من أصله السريع المضحك . شعرت أن شــعر راسى واقف كالشوك الصلب فى انتظار فاجعــة لعلها طائرة من طائرات العدو تكون مختبئة فى ركن غائص من السماء المدلهمة تنتظر بشغف انبثاق لمعة ضوء لتحكم عليها النشان فتدمرنا .

بدأ اننى اعرف أن زمن الغارات علينا قد انصرم منذ سنوات وان هذا لم يغير من الأمر شيئا . صرت ارتجف خوفا من الضوء مع اننى منذ برهة كنت أرتجف خوفا من الظلام ، مع ذلك ظللت سائرا نحو الضوء فى حماس شديد وقد راحت فروة راسى تهبط بالأشواك على مهل كلما احتوانى نفق الضوء .

تزايدت سرعة الضوء نحوى بشكل افزعنى ، يرتفع له أزيز يعلو كلما اقترب ، وكان لابد أن أوسع له الطريق ، فما كدت أفعل حتى مرق بجوارى ما بدا انه سيارة مندفعة بأقصى سرعتها . . تابعتها فاذا هى تلتحق بالظلام ولا يبدو من خلفها سوى عيون مرمدة .

تعودت عينى على الظلام فاذا بى واقف منذ أمد بعيد جدا ، وكنت قلقا . بعد برهة جاء واحد فوقف بجوارى ، تبعه اثنان ، فواحد رابع ، فتيقنت اننا واقفون فى انتظار الأتوبيس ، ولم يكن أحد يتكلم مع أحد . انتبهت الى وجود دخان يتصاعد من جوف بناية كالحة فى مواجهتنا ، فتيقنت اننا لابد نكون فى انتظار المخبز حتى يفتح أبوابه ويبدأ البيع ، ثم بدا اننى متيقن من انها الجمعية التعاونية ، ثم فرحت قليلا لأن الجمهور لم يكثر بعد واننى ساستطيع الحصول على طعام للأولاد . وبدا اننى تعبت من الوقفة فجلست مكانى متقرفصا دافنا رأسى بين ركبتى .

رفعت وجهى قليلا وبربشت بعينى ، فوضح لى أن عن يمينى واحدا وعن يسارى آخر ، وان وراءنا ثلاثة مثلنا ، ووراءهم مثلهم ووراءهم مثلهم الى مدى بعيد . وكانت العصى الغليظة تنهال على ظهورنا بقسوة ووحشية من مجموعة الى أخرى ، والصراخ من خلفى ومن حولى يرتفع الى عنان السماء طالبا

الرحمـة ، فلمـا وصلت العصى الى ظهرى تبينت انها من فروع الشـجر وكانت تمزعنى وكنت أحـاول الصراخ دون ان أجد صـوتى .

ولم اكن أعرف لمـاذا يضربوننا لكنهم كانوا يرتدون الحلل السوداء ويبدو أن بينهم وبيننا عداء قديم متحكم لا أدرى له سببا ، وكانوا يطلبون من كل منـا فى صراخ وحشى ان يقول : « أنا امرأة » . وكنا نقولها بالفعل لكنهم مع ذلك لا يكفون عن ضربنـا .

ثم فوجئت باننا نجرى مذعورين فى رحبة واسعة والأشباح السوداء تلاحقنا بالعصى . وكنا نتعثر فى لحم بشرى تبينت انه جثث من سقطوا منـا ميتين ، فيقشعر بدنى ولكن الأشـباح السـوداء تدوس فوقها بالأحذية الغليظـة محـاولة تسـويتهـا بالأرض . ثم وقعت مغشيا على . وكنت اشعر خلال الغيبوبة اننى متمدد على وجهى فوق الأرض وثمة ايد تجرجرنى من يدى داخلة بى فى غيهب مجهول لا نهاية له .

ثم وجدتنى ممسكا ببلطة صغيرة فى حجم الكف اضرب بها فى اسفل جبل شاهق جبار وقد بدا أن هـذه هى مهمتى الرئيسية منذ عهد طويل ، ولاحظت اننى ارتدى بدلة ورباط عنق وحذاء لكن البدلة مصنوعة من قمـاش ازرق كالح . وكنت اتصبب عرقا وصـدرى يرتفع وينخفض من اللهاث . استرحت برهة مسحت فيها عرقى ثم استأنفت العمل فاذا بى اجد شقا فى قلب الجبل فاندهشت كيف لم اره من قبل .

أشرقت فى ذهنى فكرة رهيبة ارتعت منها لأول وهلة ، ثم رحت ألتفت حوالى فى تلصص ، فلما لم اجد شرطيا يحرسنى

ضربت بقدمى فى بطن الجبل ومضيت ماشـيا خلال الشق المتعرج ولاحظت ان البلطـة لم تعد معى . لاحظت أيضـا أن الشـق طازج وان مواضع الانشقاق فيه تبدو كأسنان حجرية بيضـاء طرية ذات رائحة لم تلوثها الريح بعد .

اصطدمت بجزء لم ينفصـل تماما فبدا كأسـنان متبـاعدة فى فكين مضمومين . وبدا اننى لو امسـكت كل فك بيد ووسعت بينهما ما يسمح بمرورى فسوف انجح لكن الأسـنان الحجرية كانت مدببة ومخيفة فبقيت واقفا مكانى لا أريم فى انتظار معجزة الهية تلهمنى الفعل المناسب . غير اننى بعد برهـة وجيزة شعرت أن الفراغ الذى اقف فيه بين الشقين يضيق شيئا فشيئا حتى لتكاد الأسنان الحجرية تغوص فى جسدى .

رحت انظر من خـلال الأسنان الحجرية المتلاقية من فكى الشقين فى الجزء الذى لم ينفصل تماما فرأيت شبكة من الظلمـة على أرض مضيئة بعض الشيء راحت تترى من خلالها منـاظر عجيبة : رجل انيق يلوط بطفلة صغيرة .. شاب نحيل يمسـك آلة موسيقية ويعرض للبيع فتيات عاريات .. قصاب جسده مرصع بالخناجر التى تقطر دمايمشى فى خيلاء وخلفه موكب كبير يزفه بالطبل والزغـاريد .. وكان واضحـا أنه يرانى ويقترب نحوى .. وقـد شرعت أصرخ طالبـا النجـدة لكننى لم أجد صـوتى .

وفــود الضــوء

كان الصمت قد ضرب اطنابــه بيتنــا لوقت طويل جدا . ولابد أن ثمة أصدقاء كانوا يسيرون معى فى الطريق بدليل ان طنين الكلام الذى لابد اننا كنا نتبادله لايزال يملأ أذنى بهدير راعش فلابد اذن انه كان كلاما خطيرا . امن طول الصمت او طول الطريق أو طول الزمن هذا الملل الذى يبدو انه هو الذى يكدرنى الآن ؟ ..

وكان قد وقر فى ذهنى ان من لابد انهم كانوا أصــدقائى قد ابتعدوا قليلا منفردين بالكلام أو الصمت ، وكان قد وقر فى ذهنى أيضا اننى أسرع الخطو للحاق بهم ، وكنت مشغولا بحبك نكتة ما ادخل عليهم بها لعلها تبدد جحيم هذا الصمت ..

لكن خطواتى المسرعة اللاهثة لم تلحق بشىء ، فاذا هى تزداد سرعة ، واذا انا اسير فى الطريق وحدى لاهثا وليس ثمة من بشر على الاطلاق . وكنت أسمع لخطواتى صوتا مدبدبا ، ما لبث أن صار زلزلة ذات وقع رهيب .. نظرت خلفى متوجســا ، فاذا بناس كثار من كل الأعمــار والألوان يجرون خلفى قادمين من حوارى جانبية وعن عمق الطريق الذى اتضح أنه شــارع مليء بالعمائر الحديثــة من زجــاج والومونيوم : ظننت أنهم يطاردوننى لكن لم افهم لمــاذا المطــاردة فاسرعت فى الجرى دون أن أتوقف لاسأل علام المطاردة . فلما أسرعت بدأوا يطــاردوننى بالفعل ..

وبدا اننى لابد قد ارتكبت جرما خطيرا ، وبدا اننى أبحث فى ذهنى عما اكون قد فعلته ضد كل هؤلاء . فى الحال تضاءل عدد المطاردين فآب الى ثلاثة شبان صغار يلهثون خلفى باصرار شديد ورأيتنى طفلا صغيرا يجرى بأقصى سرعة فى طريق زراعى تحاذيه حديقة طويلة وارفة ، وكان واضحا ان هؤلاء الشبان الثلاثة هم أبناء صاحب الحديقة واننى قد سرقت حشو جيوبى كلها بلحا وجوافة من اشجار الحديقة متوهما أن كون أبى هو الجناينى الذى يزرعها ويرويها ويشذبها سيشفع لى ذلك . لحظة أن أوشكوا على الامساك بى أطلقت صرخة فزعة واندفعت بآخر رمق كطائر فى فراغ رمادى .

وجدتنى فى حارة مبنية بالطوب الأسود ، تبينت بعد برهة انها حارة « الجفار » فى بلدتنا . وكنت أرى بقلب خافق ومخلاة المدرسة تنشال وتنحط على قلبى ممسكا بطربوشى القصير فى يدى . وكنت أعرف أن « أولاد بقوش » تاجر الحبوب والأقطان يتربصون بى دائما عند هذه الحوداية ليضربونى دون سبب ، ثم تذكرت اننى كنت نفرا فى حقولهم قبل أن أصير تلميذا معهم وانهم لهذا يضربوننى ..

صرت فى شارع القطاطنة الأكثر امنا .. مع ذلك لا أكف عن الجرى .. بدا لى أن السبب فى الجرى هو اقترابى من دار الخاصة المهجورة منذ زمن بعيد تسكنها العفاريت وقطاع الطرق . ابتعدت دار الخاصة وانا موزع بين جرى وهرولة . بدأ اننى لست احس بالوحشة رغم ان ثمة أمرا يبدو خطيرا قد حدث ! ..

لحظتها رايتنى مرتديا كامل ثيابى ومنظارى الطبى الأنيق واحمل حافظة أوراقى الجلدية وكان يبدو اننى قادم من الصحيفة التى اعمل محررا بها وكان يبدو أيضا اننى قد انشغلت فجأة

بمحتويات حقيبتي اذ رحت أحاول استعادتها فى ذهنى حتى توثقت من أنها بعض أوراق وبعض كتب فى الأدب أنوى عرضها لصحيفة عربية لها مراسل يحاسبنا من جيبه الخاص بعشرة جنيهات عن الموضوع وهو حر التصرف فيه بعد ذلك ونحن نقبل عشرة خالية من الضرائب ونظرات المن نرطب بها الجفاف الصلد ونبل ريقنا الناشف . ثم بدا اننى قد صرت متوجسا بعض الشيء من محتويات الكتب فيما لو صودرت ..

لحظتئذ انتبهت الى اننى واقف بين جمع هائل جدا فوق كوبرى المشاة فى ميدان بدا انه ميدان التحرير وكان بجوارى بعض الأصدقاء الأعزاء تفصلنا الجموع برهة لتلاقينا فى أخرى فيرتسم على وجوهنا طابع طفولى باسم فيه الكثير جدا من الغبطة والبهجة . كان المنظر جميلا بل جميلا جدا كقصيدة شعر كمنظر طبيعى حافل بالألوان فى لوحة خالدة بجميع ألوان الوجوه والثياب واشكالها وجميع الأعمار ونزقها ، والكوبرى كله ساير داير يعج بالخلق كالورود تتسلق الأسوار ، ومن فوقهم أدوار أخرى من أسوار البلكونات والسطوح طارحة بالورود البشرية تكاد رءوسها فى العلالى تتصل برءوس جموع هائلة مقبلة من جميع الشوارع المطلة على الميدان تحمل اللافتات تزأر بالهتافات الملتاعة الصاعدة كالنحيب الصادر من قلب موجوع بالم سرمدى : « احنا بنسكن عشرة فى أوضه وهو بيلبس آخر موضه » .. « عملتوا ايه فينا واليهود فى سينا » . والأصوات تاتى من كل فج عميق وتصب فى الموكب غضبة شرسة مخيفة ومبهجة معا . الحرائق هى الأخرى كانت ترسل ألسنة اللهب من كل صدر تتطاير فى الفضاء تسابقها الزغاريد ! ..

ثم وجدتنى والأصدقاء قد صرنا فى قلب الجموع الهادرة

فى الأرض واننا ننظر الى جموع المطلين فى سعادة وكان واضحا اننا سعداء بأن قد صرنا بدورنا فرجة لهم منذ التحقنا بموكب الفاعلين . على اننى لاحظت بعض تردد لايزال يبعدنا الى الأرصفة ويسحب صوتنا عن جماع الصوت الهاتف . وضح اننى كنت افكر فى نفس الخاطر الذى يفكر فيه بعض الأصدقاء المرافقين ، اذ همس احدهم فى اذنى بدون مناسبة : ساقول اننى صحفى وكنت أرافق الموكب بغرض مهنى ! .

ضحكت وضحك الآخرون لمداراة الخوف الدفين الذى ومض على وجوههم فجأة ، قال احدهم : زمانهم صورونا وانتهى الأمر .. فبدأ اننى قد استرحت لهذا الخاطر ..

فى الحال فوجئت باننى وهؤلاء الأصدقاء نجرى وحدنا فى شارع مظلم محاذ لجسر سكة حديدية اغلب الظن انها خاصة بالمترو ، وكان يجرى خلفنا ناس آخرون ، تلاحقنا طلقات الرصاص وتحف بنا الحرائق من كل ناحية وكانت ألسنتها وألسنة الرصاص المنفجر هى الشىء الوحيد الذى ينير لنا الطريق لبرهات خاطفة وثمة صيحات هازئة اظننى سمعت اننا محكوم علينا بالموت اذا خالفنا القانون وظهرنا ليلا فى الشوارع ، اظننى سمعت أن عربة أتوبيس تتأهب للقيام على مبعدة فاذا وسط جمع هائل نندفع فى الجرى بأقصى ما فى البشر من عزم وكان واضحا اننا نريد أن نعتصم بالعربة كأنها حصن الأمان أيا كانت وجهتها ..

أشرفنا على درجة صغيرة بين مبان كثيفة فاذا بدبابة من دبابات الجيش تصوب مدافعها نحونا . ارتدت بنا الجموع دفعة واحدة لتتصادم وتقع فوق بعضها صارخة . تدفقنا فى شارع جانبى ضيق ، جوبهنا بفوهات المدافع تستطيل نحونا

وتستطيل .. اختفت الأبنية تماما بل اختفت السماء وصرت ومن حوالى مدفونين بين كتل من الأجساد تزحف الى الأمام تارة لتستدير فجأة فترجنا ثم ما تلبث أن تشتد وترتد ثانية وظللنا هكذا امدا طويلا بدا كالدهر . ثم لانت حاشية الزحام شيئا فشيئا ثم انجاب الضغط عن الأجساد ثم انجاب الأفق ..

فاذا بنا جماعات جماعات طال بها الجرى واللهث وكان على كافة الوجوه حزن بهيج وفى العزائم حماس باهر وفى الجباه تطلع سامق نحو الأفق العالى . وكان واضحا ان شيئا خطيرا قد حدث وشيئا عظيما يحدث الآن فيجمع بيننا وأننا غير مطاردين بل مندفعين محض ارادة تلقائية فبدا لى أننا هرعنا ـ لابد ـ لاستطلاع الغد . الأجساد الزاحفة تتكاثر تتصادم فى عنف تعتذر لبعضها تقبل الاعتذار فى رقة وسماحة .

ثم صرنا الى اعصار رهيب يزحف ببطء لكنه بطء السرعة التى تبدو من فرط سرعتها كأنها ثبات . فوجئت باننا قد عدنا الى نفس الميدان من جديد لنجده يشغل بالبشر ولا مكان فى ارضه او سمائه لقدم أو متسع لبعوضة ، مئات الملايين من الرءوس والحناجر والأيادى يصدر عنها زئير خرافى كأنما الكرة الأرضية تزفر تصرصر تبث ما تراكم فى جوفها من ألم فيصعب على أن اعرف ان كان ما أسمعه غناء شجيا أم بكاء أم صلوات أم تراتيل ، لكن ثمة طائرات تئز فى السماء رائحة غادية الى أن ظهرت بينها طائرة هليوكبتر اخذت تتهادى فوق رءوسنا صانعة ما يشبه الفرح الكبير يتساقط منها ما يشبه حشرجة البكاء والنحيب .. فعرفت اننا فى ميدان التحرير حقا واننا نودع جثمان الزعيم عبد الناصر وان ملوك وزعماء الكرة الأرضية قاطبة جاءوا يشاركوننا الشرف ..

ثم رايتني واقفا وحدى فوق كوبرى المشـاة فى الميدان نفسه وكانت الدنيـا ظلاما حالكا والأرض من تحتى مليئة بالحفر وكان الصقيع ينفضنى وقد بدا لى أننى محتمل له ، ثم بدأ لى كأننى على موعد مهم جداً مع مجهول سوف يجيء ها هنا وانني فى شوق شديد اليه وعلى ثقة من مجيئه •

الموكب الذى رأيتــه فى بيتنا

كنت مقبلا نحو بيتى وثمة اعتقاد باننى قادم من سفر طويل مرهق . تذكرت ان عربة الأتوبيس قد القت بى عند محطــة بعيدة بعد أن جردتنى من آدميتى واننى قطعت المسافة من المحطــة الى هنا سيرا على قدمى ..

تأهبت لدخول البيت فاحتجزتنى بحيرة مطروحــة على أرض الشارع تمتد من عتبة باب بيتنا الى حيث أقف وتخترق لنفسها روافــد لا حصر لها تزحف نحوى فعرفت أنهــا مياه المجــارى الطافحة هــكذا منذ ما يزيد على ثلاثين عاما . وكان على أن أمد بوز حذائى بحذر أتحسس قطعا من الحجارة وقوالب الطوب وضعناها وسط محلول الغائط لنمشى فوقها بدربة وبهلوانيــة . تذكرت اننا كنا قد تحررنا من هــذه البحيرة القذرة منذ مدة قصيرة ، ثم تذكرت أن هذا يحدث كثيرا وأنها سريعا ما تعود كقدر لا مهرب منه ..

وقفت حائرا لا أدرى ماذا أفعل لكى أدخل بيتى . وكانت الدنيا ظلاما حالكا ومن المستحيل أن تتعرف القدم على أى نتوء تدوس فوقه . فكرت أن انادى على أولادى كى يضيئوا لى المصباح المعلق على الباب علنى أستطيع عبور هــذه البحيرة . لكن البيت

كان يسبح فى ظلام دامس فايقنت أن النور مقطوع عن المنطقة كلها. مع ذلك رحت أهتف باسم ابنى بصـــوت خافت بشىء من الحرج ثم بجرأة ثم أخذت أجـار بالنداء لكن بلا جدوى . وكانت حافظة الأوراق المعلقة فى كتفى قد بدات تثقل وينتابنى احساس باننى يجب أن اتخلص منها اذ بدت كأنها مصدر كل متاعبى ..

اخذت اروح واجىء فى انتظار معجزة طارئة . وكنت ألهث وليس فى ذهنى سوى طفلى الصغيرين يبكيان أمام باب الشقة بعد أن كلت يداهما الحلوة الطرية من الطرق على الباب ، ثم ارتددت مذعورا فى اتجـاه البيت وقد جاءنى يقين مفاجىء أن احدا من اولادى لا يوجد بالشـــقة ، فصرعنى الارتياع حتى اعجزنى عن الصراخ ، وتذكرت أن زوجتى كثيرا ما شمرت ثيابها وخوضت فى قلب الغائط حاملة الأولاد واحداً وراء الآخر ، وجاءنى احســاس بانه قد آن لى افعل ذلك انا الآخر ولو هــذه المرة فقط بغيــة الاطمئنان عليهم ..

أوشـــكت على الفعل لكننى تســـمرت فى وقفتى على البقعة الناشفة ربما لشـــعورى بان الثياب التى أرتديها هى الوحيــدة الصالحــة للخروج . تفرفصت محــاولا النظر فى مياه الغــائط الزرقاء كالنيلة لعلنى اتبين مواضع الأحجار الغارقة تحت الطفح الزائد ، فرأيت بقع النجوم وشرخة القمر الكئيب واسطح البيوت ورأيتنى نقف جميعا على رءوسنا فى محلول الغائط الذى بدا أنه لم يعد كريها ..

اذا بى قد تربعت مستريحا على شاطىء هــذا المستنقع الذى بدا لى أنه مصرف نمره تسعة فى قريتنا ، أمسك ببوصة السنارة لاهيا عن غمزها فى تلذذ حيث انى مشغول بتاليف اغنية حب سأبعثها اليوم الى البنت « رئيفة » التى احبها ..

ثم اذا بى متربع وسط رهط من أصدقاء صباى على مصطبة فى مواجهة شباك حبيبتى فى الطابق الثانى لبيتهم المبنى بالطين استمتع باستعادتهم لى مقاطع الأغنية التى الفتها استمتع أكثر بعدم اقتناعهم البادى فى عيونهم بأننى أستطيع تاليف هذا الكلام المسبوك ، عيناى معلقتان بشباك الطابق الثانى القريب جدا من الأرض والضوء العليل ينساب من خلل أعواده الحديد ليلقى بيننا شيئا من الونس ، صورة وجه الحبيب تنطبع على وجوهنا وصدورنا من حين الى حين كلما اطلت هى او مرت ببطء كأنما لتبلغنى أن صوت رسالتى قد وصل ..

وكنت أضرب فى عمق الليل متابطا كتابا مطويا اغلب الظن انها قصة مجدولين أو تحت ظلال الزيزيفون أو ربما كانت الشاعر للمنفلوطى ، أغلب اليقين انه ذلك الكشكول الذى جمعت فيه مقتطفات من اشعار الحب والغرام وحكم ابى الحسن البصرى وطرف احشرها حشرا فى مواضيع الانشاء ، وممسكا باليد الأخرى جرابا شبكيا به حفنة من أسماك جافة تحمل لون البرك لم تعد تصلح لشىء الا كدليل على اننى كنت اقضى كل هذا الوقت فى الصيد اذا ما عنفت من احد ..

بدا لى كأننى أعرف ان هذا محض افتراء اتذرع به واننى عدت من رحلة الصيد وراء الأصيل فقضيته ومعظم الليل مطوفا حول دار حبيبتى من صديق لآخر من مجلس لآخر حتى تنجح لعبتى فيرسوا المطاف بجلسة المساء تحت شباك حبيبتى . وبدا كأن معرفتى لهذا لن تغير من الأمر شيئا حيث قد اخترت درب الحبيب محتملا بل متناسيا كل ما عداه ، ثم وضح لى اننى آخذ سمتى نحو دارنا فى القرية ..

باب دارنا دائمـا بلا ترباس من الداخل وهـكذا وجدته .
.ممت الباب ودخلت . ابى مضطجع فى المندرة يقرأ على ضـوء
لمبة نمرة خمسة فى كتاب أثق أنه كتاب « دلائل الخيرات » أمى
.ممددة بجواره على الأريكة . لم يشعر أبى كالعادة .. تسللت
الى الغرفة التى ننام فيهـا كى استخفى بسرعة تحت البطانيـة
,اتصنع الاندماج فى النوم العميق ..

دفعت الباب برفق حتى لا يزيق فينتبه أبى وتصحو امى
بلا اخلص من تعنيفهما وكنت أخشى من عصلجة الباب وجموده
لفرط ما تراكم على مفصـلاته من صدأ . لدهشتى انفتح الباب
بسـهولة .. ففوجئت باننى قـد دخلت صـالة شـقتى التى
استاجرتها فى المدينة بعرق خمس سنوات قضيتها مغتربا فى بلاد
وازمنة قاحلة تضخ الفراغ والسأم والموت المبكر . رأيت زوجتى
منزوية فى عمق الصـالة ترضـع طفلنا الوليد ، وبقيـة الأولاد
يجلسون بدون مذاكرة فيما يشبه الاحتفال الصامت . اغلقت
الباب ورائى وتقدمت منهم قائلا :

سا الخير ياولاد .

وكانت زوجتى على غير العادة مبتسمة فأدركت انها مرتدية
وجهها الذى تقابل به الضيوف .

قلت : فيه ايه ؟ .

اتجهت أنظـارهم ورائى ، فاسـتدرت نظـرا .. فوجئت
بحبيبتى « وثيقة » تجلس على الكرسى المواجه لزوجتى . كانت
كعهدى بها صغيرة فاتنة . احسست بارتبـاك شديد . أخـذت
أنظر حوالى كلص انكشف امره أمام اولاده ، لكن بدا لى كاننى
متماسك وكأن الأمر طبيعى ..

تقدمت فى خماس لأسلم عليها . فلما اقتربت منها اختفى وجهها الحقيقى خلف طبقة من الأصباغ الملونة بشكل فاقع . كانت واقفة فى استقبالى تتقصع داخل فستان آخر موضــة محزق يكشف عن أسرار جسدها فبدت أكثر عريا من العرى . تذكرت انها كانت عنوانا على الأنوثــة فى بلدتنا وأنها كانت أكبر مستفزة لرجولة الرجال من فرط حيائها فما بالها الآن مبتذلة تتشــدق باللادن بشكل مثير ممجوج تقول كل عضــلة فى وجهها انها مومس حقيرة من بنات الليل مسفوعة بجمال خارق . اشتهيتها رغم ذلك لكننى سرعان ما شعرت بالتقزز بالغثيان بالحطة والحرج الشديد.

تقصعت هى مرسلة خــلال التشدق باللادن صــوتا طريا ممطوطا كعرق العسل حلوا لكنه لزج يعلق باليد والثياب . تذكرت اننا لم ندفع القسطين الأخيرين من ثمن الغسالة الكهربائية حيث تعارض دفعهما مع دفع أقساط المدارس . تذكرت أن آخر أخبار حبيبتى عندى .. منذ أوائل السبعينات تقريبا ــ كان خبر زواجها من ثرى ليبى .

تذكرت اننى وزوجتى كثيرا ما تحدثنــا عن حبيبتى هــذه باعتبارها واحدة من بلدتنا انشغلت البلدة طويلا بأخبــار الثراء الذى هبط عليها والأملــة التى اصبحت فيهــا فأحسست أن وجودها فى بيتنا الآن ليس جديدا بل ليس غريبــا ، الجديد هو ابنتها العروس التى تصطحبها وكانت نسخة منها قديما .

ثم رايتنى أجلس قبالتها مرهقــا مهموما أسبح فى عرق لا ادرى ان كان من التعب المؤلم أو من الحرج . وكنت فى دوار شديد وكنت أفكر فى ما اذا كان قد ظهر منى شىء ينبىء عن علاقتى القديمة بها خيل الى انها تحدثت كثيرا جدا وأحسست بالفجيعة حين انتبهت الى اننى وأولادى مندمجين فى الفرجة على غانيــة

مثيرة هبطت علينا من كوكب غريب ، وأن افواهنا جميعا مفتوحة من البلاهة والذهول ورايت الحيـاء يختنق فى عيون أولادى من هذه التى توشك ان تضاجعنى امامهم وامام ابنتها العروس .

لا أدرى ماذا قالت رغم طول حديثها ، لكن خيل الى انهـا ذكرت انها مقيمة فى المدينة منذ سنوات وانها تملك الستر ربنا يعطيك عددا من العتبات الحافلة بشـقق التمليـك تحت أمرك لو اردت لكن لنا عندك خدمة بسيطة أنت لها يا ابن بلدتى يا صاحب العشرة القديمة ـ وتتكىء على لفظ القديمـة بنت القديمـة ـ يروعنى اننى لم أعرف بعد نوع الخدمة التى جاءت تطلبها منى ، والتى تعبت فى سبيلها فى البحث عن عنوانى ، والتى من أجلهـا ترشونى مقدما بتلعيب الحواجب والأرداف وهز اتكفاءة البطن وغمز العيون الكحيلة القارحة الواسـعة تندب فيها رصاصة ، هـذه مقدمة الرشوة فما بالك بالرشوة نفسها ! يروعنى أكثر اكتشافى باننى يمكن أن أؤدى خدمة ما من اى نوع لأى بشر وأنا الذى انفقت العمر كله أسعى فى طلب الخدمات من الآخرين ! . .

ثم اذا بها تنهض واقفة دون أن أعرف ما اذا كانت قـد أوضحت لى نوع الخدمة أم لا . وبدا أننى رغم توترى من عـدم معرفـة ذلك غـير مرحب بالاستيثاق منه .. فنهضت ابنتهـا وسرعان ما نهضت أنا الآخر ونهضت زوجتى وقد بدا أننا جميعا مرحبين بتوديعها فيما يشبه الراحة بالخلاص منها رغم ما أثاره وجودها فينا من بهرجة .

سلمت علينا ثم مضت فى اتجـاه الباب . فمضينا جميعـا خلفها نودعها . فاذا بنا نودع موكبـا هائلا راح يقبل من أماكن مجهولة من داخل شقتنا ويقبلون علينا مسلمين واحدا وراء الآخر قبل اتجاههم الى الباب . ظننت لأول وهلة اننا نتلقى العزاء فى

غزيز لدينا ، لكن ألجمع كان مرحاً ومبتسما وكانت وجوههم كلها مالوفة لدى وكنت أتمعن فى ملامحهم فيما اقول مبتسما كالأهبل فى الزفة :

اهلا وسهلا شرفتوا .

وكانوا يتتابعون فى كثافـة لتتضـح وجوههم أكثر فاكثر فأتبين فيهم أنور السادات ، بيجين ، النبوى اسماعيل ، الملك الحسن الثانى ، جولدا مائير ، بطرس غالى ، كمال حسن على ، الخديو توفيق ، فؤاد محيى الدين ، المشـير عامر ، شـمس بدران ، صوفى أبو طالب ، حسن الامام ، نجيب محفوظ ، حمزة البسيونى ، حسن المصيلحى ، صلاح نصر ، الملك فيصـل ، الياس سركيس ، موسى صبرى ، سمير الاسكندرانى ، أنيس منصور ، صبرى أبو المجد ، توفيق الحكيم ، ابراهيم سعده ، ياسمين الخيام ، رشاد رشدى ، ومن هذا ؟ .. كمـال عمـار ؟ محمد المزبى ، محمود المليجى ، الرئيس نميرى ، شاه ايران ، كيسنجر ، فاروق الباز ، عبد الستار الطويلة ، عبد الرحمن الشرقاوى ، ابراهيم الوردانى ، ثروت أباظة ، محسن محمد ، ومئات أخرى من الفنانين والصحفيين والمعارف والملحقين والألاديش والمحاسيب ..

داخلنى زهو كبير وابتهاج لمجرد ان يعرفنى هؤلاء السادة النخب .. ثم اندهشت بالغ الدهشة من أن يتجمع كل هؤلاء معا فى وقت واحد فى شقتى على وجه خاص فى هـذه اللحظـة . اندهشـت أيضا كيف استوعبتهم شقتى وكيف استطعنـا أن نستضيفهم . ثم داخلنى وهم لذيذ حلو بأن خيرا وفيرا لاشـك قد حل بدارى فى غيبتى على نحو ما استعدادا لقيام هـذا الحفل المهيب الذى قـدر لى ان اشهد ختامـه . ثم اننى اخـذت أودع

فلولهم خارج باب الشقة مطلقا صيحات الوداع حتى يسمعنى كل الجيران ويتفرجوا على هذه الأملة التي وجدتنى فيها .

ثم استدرت عائدا لاجدنى وزوجتى واقفين فى مدخل البيت فى عراء وسط ريح صرصر عاتيـة وكل منا يضم فى حضنه يطوى جناحيه على طفلين ينتفضان . وكان يبدو أن الريح قد أدركتنا خارج الشقة فى أثناء استقبالنا لخبر استشهاد أخى فى حرب فاصلة فى برقيـة هبطت منتصف الليل تطلبنى لتسـلم جثـة أخى وان الريح الغادرة صفعت كل شىء فى شقتنا فدمرته ودفعت باب الشقة فأغلقته دوننا . وكنا نجـأر بالصراخ والعويل بأعلى صوت وأفظع ألم ، لكننا جميعا نضيع فى عويل الرياح .

من ماثورات عائلة شبراوى

« سعيد بن شموطه » يسمع طول عمره أن مصر أم الدنيا ، وانها بلد العجايب . وكان من عادته أن يصـدق كل ما يسمعه ، لكنه لم يكن مستعدا للتصـديق اذا قيل له : غدا تسافر الى مصر . مصر مصر ؟ . اى نعم مصر القاهرة هـكذا سـال : « سعيد بن شـموطه » وهـكذا تلقى الرد من عمه الشيخ على شخصـيا .

ـ تف من بقك يا عم الشيخ على ، دى مصر لو شافتنى تهرب ولايمكن تنهد .

لكن عمـه الشيخ على لم يكن يمزح بل لم يكن فى حـالة تسمح له بالمزاح . . فلكزه بعصـاه التى هى فرع من الرمان وقال فاتحا فمه الخرب عن آخره :

ـ مرات عمك متاخرة فى القصر حتروح تجيبها بدالى .

عرف سعيد بن شموطه ، أنه القصر العينى ، ذلك الذى يقع فى مصر القاهرة ، والذى نقلت اليه زوجة عمه الشيخ على منذ أكثر من شهر فى زفة واحتفال مهيب جعل أولاد الأسرة يتناسون مصيبـة المرض ويقولون متفاخرين فى كل مناسـبة : أدخلناها

القصر العينى . فهل يكون القدر اللطيف قد كتب لسعيد بن شعوطه أن يحظى بأكبر مفخرة ينالها فرد من أسرته هى أن يسافر الى مصر القاهرة ام الدنيا وبلد العجائب ؟ . وتقدم من عمه الشيخ على فأحتضنه مربتا عليه بحنان :

رقبتى يا عم الشيخ على .

وهكذا بعد ثلاث ساعات فى عربة أجرة وخمس فى قطار الدلتا وصل الى مصر مع مقدم المساء . وبعد بهدلة الأتوبيس وصل الى القصر العينى مع وفد من البلدة هو فيه ممثل العائلة . وما صدق ان اطمأن على زوجة عمه الا ونزل يحجل فى الشارع الملعلطالبراق ، وكانت الابتسامة تتهدل على شفتيه كلما اقترب من جماعة يسألها على شيء فتزور عنه وتمضى غير عابئة به ، أو يلقى السلام على أحد فلا يرد عليه أو يضحك لطفلة حلوة فتكشر فى وجهه بخوف .. حتى صار من فرط التعب والكمد يبدو كخيال المائة دبت فيه روح هزيلة تكفى بالكاد لتحريك ساقيه وذراعيه بخطوات يضيع صوتها فى الطريق الصاخب الحافل .

لكنه ظل يمشى ويمشى ، مبهورا تارة خائفا تارة أخرى ، الى أن توغل فى حارة أودت به الى حارات ، كان خلالها يحس بالراحة تتسلل الى نفسه شيئا فشيئا ، اذ كان شيئا فشيئا يلتقى بناس تشبهه فى السحنة والملامح وترتدى نفس ملابسه . وحين سأل أحدهم عن شيء رد عليه ببساطة ، بل أطال معه الوقوف بعض الشيء ، ورنت فى أذنه كلمة : انت فى سيدنا الحسين ، فداخلته البهجة العظيمة وانبرى يقرأ الفاتحة مثنى وثلاث ورباع لكل من وردوا على ذهنه من أحياء وأموات ، وبين الفاتحة والأخرى يرى ناسا أكثر شبها به ، لكنهم ماضون فى سبيلهم لا بعبأ أحدهم بالآخر ، حتى الذين يمشون متجاورين ، وحتى

الذين تتوحد ملامحهم بنفس الدم والشكل يمشون دون كلام .. فكان يغتاظ ويكبت فى نفسه أصواتا تشبه العراك ..

أول ابتسامة حقيقية رآها فى مصر أم الدنيا ، اقبلت عليه طائرة من وراء نصبة خشبية انيقة تتناثر فوقها اكواب ودوارق زجاجية مليئة بسائل ملون عرف انه نوع من الشربات ، وحولها من يشربون . ظلت الابتسامة تجذبه بقوة وحب الى أن حاذى النصبة ورأى نفسه يقف تجاه صاحب النصبة صاحب البسمة المشعة ، ويقول : بكام الواحد من دول ؟ واشار الى الأكواب .

فقالت الابتسامة : بقرش يا بلدينا .

ففى الحال دب « سعيد بن شعوطه » يده فى المحفظة ام جزلان واخرج قرشا عليه صورة الملك فاروق مشرشرا واحمر ، وقال كانه يخطب الود بصرف النظر عن الشراب :

ـ هات بقرش ..

بنفسه سلمه الرجل كوبا ، تناوله ، « سعيد بن شعوطه » ورشفه فاستحسن مذاقه وبرودته فشربه على جرعات بطيئة جدا فيما هو يواصل النظر فى وجه الرجل يستفزه للكلام معه . وظلت الابتسامة تتسع وتتسع ، بل وتتراقص فرحة : ومنين يا بلدينا .. م الحته الفلانية .. احسن ناس .. تعيش يا حاج .. أصل الحكاية .

وهكذا حكى « سعيد بن شعوطه » حكايته من طقطق لسلامو عليكم وعرف ان صاحب البسمة المرحابة اسمه شبراوى وابوه يوسف ابن ادريس من الشرقية بلد الكرم على سن ورمح .

ده من اصلك ..

وأن شبراوى كان مثله قد حلم بالسفر الى مصر أم الدنيا وجاءه ــ فجــاة ــ مشوار اليها ، فمنذ جاءها بقى فيها لا يبغى فكاكا ، وليس يدرى ان كانت هى التى ابتلعته فى جوفها أم انه غافلها وانساب فى امعائها ، لكنه جاور الحسين ومن جــاور الكريم لا يضــام .

معلوم والله يا حاج ..

وخليها على جناب الله .. ومع السلامة .

ومنذ عودة « سعيد بن شعوطه » من مصر وطوال عشرين عاما بالتمام والكمال وهو لا يكف عن ذكر هذه الحادثة بمناســة وبدون مناسبة ، فيكفى أن تجيء سيرة مصر فى كلام عابر لكى ينبرى « سعيد بن شعوطه » فيحكى قصة الابتسامة وصاحبها ، التى تعطيك فوق البيعة شربات تشربها مقابل قرش واحد يا بلاش، ويشفع قوله بيمين مغلظة انها شربات فيها بركة الحسين .

كانت هذه الحكاية هى الدليل الوحيد القاطع على انه ــ ذات يوم اخذ فى التباعد ــ ذهب الى مصر أم الدنيا ووطــاها بقدميه .. وكان يصنع لصاحب الابتسامة مقاما صغيرا مشرقا بجوار مقام الحســين ..

ولم يكن سعيد بن شعوطة يتصور ان القدر المراح سينيله المفخرة مرتين وان يقدر له بعد مضى عشرين عاما بالتمام والكمال ان يسافر مرة ثانية الى مصر أم الدنيا ، ومن جدارة بالمفخرة هذه المرة ، فغدا يصطحب ابنه الكبير الى مصر لكى يؤجر له مسكنا فيها ويقف بجواره اذ يلتحق بالجامعة .. والله عشت وشــفت يا سعيد يابن شعوطة ..

وهكذا ، وبعد ساعتين اثنتين هذه المرة فى سيارة الأسطى حمدى ابن حارتهم صار فى مصر يدب فوق ارضها ويراها رؤيــة

العين ، وقد حلا له أن يجاهر بتجاهل الناس عن عمد كانما ليقول لهم : طظ فيكم عرفت خصالكم ولكنكم لستم اهلا لى ، انما هناك من هو لى أهل وهاأنذا متوجه اليه . وابنه لم يفهم شدة اصراره على زيارة الحسين قبل أى شيء ، لكنه لم يكن يرى الابتسامة الضاوية المتربعة فى دماغ أبيه ..

اخذ « سعيد بن شعوطة » يخب فى جلبابه الصوف الجديد ذى الأكمام الواسعة ويعدل طاقيته وطوقه فى كل حين . يلف مع كل حودايةويستقيم مع كل ممر ويتوقف عند كل نصبة خشبية فى الشارع وابنه يتعجب ولا يعرف عم يبحث ..

رغم كثافة الزحام وارتفاع الصخب واشتداد سرعة كل شيء حوله ، فانه ـ اخيرا ـ وجدها .. الابتسامة العريضة المشعة .. غير انها كانت هذه المرة قد حملت على كاهلها عشرين عاما ضخاما ، انطفأت فيها لمبات كثيرة ، وباتت تكشف عن فراغ هائل بين الفكين النحيلين ، وكانت واهنة ، تحاول اصطياد المارة من خلال الظهور والأكتاف والأشياء المحمولة ..

توقف « سعيد بن شعوطة » دفعة واحدة وصار يجز على اضراسه كأنما ليضبط انفعاله قبل ان يرتمى فى أحضان الرجل دفعة واحدة كدفقة الشوق الذى انفك سراحه بعد طول احتجاز . راح ينظر فى عينى الرجل بامعان نظرات ذات معنى ، فلا يظهر فى عينى الرجل اىانفعال جديد ، حتى بردت أطراف « سعيد بن شعوطة » ، وكان القرش فى كفه لا يذكر متى جهزه ، فلما نظر له صاحب الابتسامة مستفهما تقدم منه أكثر ناظرا فى عينيه قائلا بلهجة ذات معنى :

ـ .. وهات كمان بقرش ..

سـقوط الظـل

جدار طويل يمتد على مساحـة سبعة أفدنة ويرتفع الى سبعة طوابق من طوابق زمان ، سبعة شبابيك مستطيلة تنزل تحت بعضـها من أعلى طابق حتى الأرض ، ثم تتكرر متجـاورة الى مسافة بعيدة جدا . فاذا انتهى الجدار المستطيل الحـافل بعدد لا حصر له من الشبابيك حودت معه فاذا بك امام بوابة القصر الحديدية التى باتت غائرة فى الأرض وقد علاها الصـدأ طبقات فوق طبقات . دعنا منها فلسنا نزمع دخولها ولا احد يجرؤ على ذلك ، رغم عدم وجود حراس عليها سوى أشباح الزمن والرطوبة والخـراب .

انما يكفى أن تعلم أن هـذه هى بوابة قصر الخاصـة ـ اى الخاصة الخديوية ـ الذى هو علم على بلدتنا حتى ليقولوا عنـا فى البلاد المجـاورة اننا من القصر ، ويقولون فى وصف بلادهم للأغراب عنهم أنهم من بلدة عن يمين القصر أو عن يسـاره أو فى جواره وهكذا .

أما الجدار فانه هو الذى يعنينا ، ليس فقط بالدرجـة الأولى بل بكل الدرجات ، فاى حديث فى البلدة انما يدور حول هذا الجدار ، واى خلاف يحدث بين الناس فبسبب هذا الجدار،

وكلّ رعب عشش فى قلوبنا فمن هــذا الجدار ، حتى الذين يهوون تأليف الأغانى والقصص يكون الجدار محور خيــالهم ومصــدر خصــوبته .

خراب هو منذ تاريخ لا يعلمه أحد ، حتى الأجيال الكبيرة من عجائز البلدة يطلعون عليه هكذا منذ مولدهم ، وقصص الرعب والخــوف والفزع هى العــامود الفقرى لتراث أهل البــلدة من الحكايات والنوادر السوداء والأغنيات والمواويل .

ومن عديد الأساطير التى توارثناها حول هــذا القصر أن الخاصة الخديوية قد ابتنته ذات يوم موغل فى القدم ليكون بمثابة قصر لموظفى الدائرة المشرفــة على ضيعة أفنديــنا ، وكان ناظر الضيعة شابا عشق ابنة أفندينا فتزوجها فاختاره أفنديــنا وابتنى له هذا القصر ، وكانت ليلة زفافه على العروس هى ليلة تسلمــه الضيعة هى ليلة افتتــاح القصر ، فامتلأ ليلتها بالسعادة وظل يسكر ويضحك ويرقص حتى انفجر بركان السعادة بداخله فوقع ميتا ، ومن يومها أغلق القصر حدادا على صاحبه ، ويبدو أن الزمن نفســه قد نسيه اذ لم يعد أحد يسأل عنه أبدا . وثمــة أسطورة أخرى تقول أنه قصر الفرعون اذ ان هــذا البناء الضخم المتين لا يقوم به ســوى الفراعنــة وهذه الأحجار السميكة وهذه الأخشاب العظيمة وهذه النقوش الدقيقة لا تتوافر الا لفراعنــة ، يؤكد ذلك مئــات من حكايات الثراء فى بلدنا عن ناس اقتحموه وخرجوا منه بتماثيل ذهبية وفضية وجمارين وحليات أخرى من الفيروز والمــاس ومن كافة التحف الثمينة .

وثمة أسطورة تقول ان بلدتنا هــذه كانت عاصــمة الحكم الرومانى القديم وأن هــذا القصر كان قصر الحــاكم ، والدليل

على ذلك بعض الرســوم المنقوشة على جدرانه الداخلية البارزة من خصاص البوابة الحديدية .

واسطورة تقول انه كان لأسرة اقطاعية من عهد نوح عليــه السلام هربت من الطوفان فأدركها المصير بعيدا .. الى آخر هذه الأساطير التى لا تنتهى . الطريف فى الأمر ان بلدتنا ـ يا لطيبــة أهلها وكرمهم الحضارى العريق ـ يتركون هــذا القصر فى حاله كأن أصحابه سيحملونهم مسئوليته ذات يوم قريب .

وهكذا لم يفكر أحد من بلدتنا فى أن يتعرض للقصر بسوء ، صحيح أن لصوصا من عشرات الأجيال اقتحمته وانتزعت منه خيرات كثيرة الا انه ظل قائما يلقى على الناحيــة كلها بظل كثيف من الغموض الكئيب والارستقراطية الفاخرة .

جداره فى النهار نعيم وفى الليل جحيم لا يطــاق . ولابد لكل شاب أو شيخ من بلدتنا يمر بجواره نهارا أن يشــعر بشىء من السموق يداعب طموحاته ورغبته فى الارتفــاع الى الأعــالى . وصوت المعارك وجعير الخناقات لا يكف عن بث الضجيج ووجع الدمــاغ طوال ساعات القيلولة لأن عشرات الفرق من الأنفــار والفلاحين والاجراء يسعون الى نيل شرف التمدد فى ظله ساعة أو ساعتين ، وثمة من يستخدم حديد شباكه فى فتل الحبال ، وثمة أطفال لا يحلو لهم اللعب الا تحت الجدار .

فالجدير بالذكر أن بلدتنا كلها تقع فى مواجهــة هذا الجدار تماما وتبدو للرائى من بعيد كأنها مرض جلدى كأنها ورم فى أقدام القصر . هــذا الجدار كان يقصر من عمر النهار فى بلدتنا ويطيل من عمر الليل اذ يحجب الشمس فى عز شبابها كأنها عورة لا يصح أن نراها صبية ، فما أن يصفر لونها خلف الجــدار حتي تكف

الأرجل تماما عن السير تحت الجدار ، ويقبع الجميع داخل الدور ؛ ويجتهد الفلاحون فى العودة مبكرا من الحقول أو يبيتون هنـاك ..

فلقد كانت الأسـاطير القديمة حول القصر تجعل من كل شائعـات الخوف حقـائق ، فكم خرجت النداهـة من بين حديد الشبابيك واستدرجت الرجال والنساء والأطفال الى داخل القصر لتخنقهم أو تورثهم الجنون ، وكل فرد من أفراد البلدة كبيرا كان او صغيرا له ذكرى بل ذكريات خاصـة به نفسه ولابد ان يكون له حكاية حدثت ليحكيها ، كان مارا من تحت الجدار يصلى الفجر فحدث له كيت وكيت ، حتى الذى لم تحدث له حكاية بعد يقشعر بدنه ويرتعد اذا ادركه الظـلام وهو ماض الى البيت ، ولم تكن ثمة طرق اخرى آمنة لأن كافة طرق البلدة كانت تبدأ وتنتهى عند الجدار المشئوم . البيوت نفسها لا تستطيع ان تحجب الخوف عن القلوب اذ ما يكاد المساء يهبط حتى ينتظم جو البلدة كلهـا بصوت فحيح يشبه صـوت حيوان خرافى يشفط نفسا مكتوما ، ذلك هو صـوت طائر البوم ـ أم قويق ـ الذى تتخذ اسرابـه من القصر مسكنا تأوى اليه عند المساء فهى كالخفافيش تحب أركان الظـلام والأماكن المهجورة وكانت العواصف الصـوتية ترج السماء صيفا وشتاء برعد لا ينتهى ، فتيارات الهواء المنبعثـة من الشبابيك المتقابلة تصفع الأبواب فيتهشـم زجـاج وتتكسر أشياء ، وحين يشـتد أوار العاصفة نعرف أن اسرابا من طيور مختلفـة جديدة دفعهـا حسن النية وسـوء البخت الى محـاولة احتلال القصر فيشب بينها وبين البوم والخفـافيش ذلك الصراع المدمر ، وتظل رفرفة الأجنحة تصـك فراغ الحجرات المتعددة بكل طوابقهـا ويتضـاعف صوتهـا فلا يرق الا عند الشروق .

ولما كنا قد تورثنا هذا الوضع أجيالا طويلة فأننا قد اكتسبنا قدرة على المقاومة والنوم مع ذلك ربما من شدة ما يصيبنا من تعب .

غير ان النوم قد استحال على جفوننا تماما منذ بضعة أشهر حينما لاحظ بعض المتأملين ممن ينامون تحت الجدار أن الجدار بدأ يسفسف التراب بل بدأ يميل قليلا منفصلا عن بقية القصر . وقد عارض الناس هذه الظاهرة فى البداية ولكنهم اضطروا لتصديقها حينما لمسوا بأنفسهم ازدياد المسافة الفاصلة بين الجدار وبقية القصر ، فلما قدرت بثلاثة سنتيمترات بدأ رجال البلد من ذوى الهيبة يمرون على البيوت ويطرحون على الناس اقتراحا بجمع تبرعات ينفقون منها على اكتراء عمال تقوم بتنكيس الجدار وهدمه .

وقد أبدوا جميعا تحمسهم ولكن حصيلة الدفع لم تزد على قروش قليلة دفعها الفقراء الملاصقون للجدار مباشرة ، أما غيرهم فكانوا يسلمون بضرورة الهدم على نفقتهم اى نعم ولكنهم يقولون : صبرك بالله شوية ، وكان ثمة اعتقاد راسخ فى أذهانهم بأن مثل هذا البناء الذى عاش فوق الأرض من قبل زمن الطوفان ربما يمكن أن ينهار هكذا من تلقاء نفسه ..

الى أن استيقظت البلدة كلها من هز النوم ذات صباح مر المذاق على صوات وصريخ ملتاع وصفير وهياج ، وكل من يهب فزعا يجرى تلقائيا فى اتجاه الجدار ، ليرى الناس تتجمع فى فريقين متزايدين أحدهما عند أول الجدار والآخر عند آخره . الفريقان يتبادلان الصراخ والصياح والصفير حتى لا يمر أحد من تحت الجدار ، وفى دقائق معدودة كان نصف سكان البلدة المتاخمين للجدار قد جمعوا حاجياتهم وعزالهم وهاجروا الى الخلاء .

ثم بدأ الجدار يميل شيئا فشيئا والناس تتباعد مهرولة فى رعب ، ثم دوى فى الفضـــاء انفجـار كونى اهتزت منه الأرض فقذفت بمن عليها الى اماكن بعيدة افقنا على ناس غيرنا فوق وجوهنا ، ناس كلهـا بوجه واحد مصبوغ بالتراب السـميك لا تعرف منه الذكر من الأنثى وكنا قد افقنا من ظلام دامس دام دهورا طويلة يغلف المنطقة برمتها ، رحمـة السماء وحدها هى التى ازالت الليل بزخات مطر متواصـل كانت تتساقط مياهه بطبقات من الطين حتى اغتسل النهار ووضـح ، ورايـنـا كيف اكتسح الجدار بيوت البلدة بالدمار الرهيب . وطال الوقت على المهاجرين خارج دورهم التى اختفت تحت الأنقاض . ولم يتذمروا، خاصـة بعد أن رأوا أن من نجت بيوتهم من الدمار يشرعون فى الرحيل الى بعيد ، ذلك ان المنظر قد بات مخيفا ، فيكفى ان تتخيل جدارا بطول سبعة افدنـة وارتفـاع سبعة طوابق وقد سقط ، فاذا بنا نواجه اخطبوطا من الحجرات المفتوحة على بعضها فوق بعضها يفح منها الظـلام والأشباح ، فوهات مستطيلة كعيون مدينة خرافية .

وكنت وعشرات من زملائى الشبان قد اصبحنا نكابد البؤس فى كل شىء ، طالت مدة الحياة المؤقتـة التى نحياها كلاجئين الى الفراغ من الفراغ . وكنا قد وجدنا لأنفسنا قضية نشغل بهـا انفسنا نبذل فيها طاقاتنا المبدعة ، حيث انطلقنا فى طول البـلاد وعرضها نستميل قلوب الناس ونحثهم على التبرع لبناء مسـاكن تأوى اهلنـا المشردين وتأوينا . وكانت حصيلة جهدنا طيبة : لم نعرف مقدارها ولكن انبسطت لها اسارير الكبار . ثم بتنـا نشارك بأيدينا فى رفع الأتربة وجمع الأنقاض ويتحول التعب الى عذوبة ساحرة .

غير أننا حين شرع العمال فى البناء فوجئنا بأن علينا ــ أولا وقبل كل شيء ــ اعادة بناء هــذا الجدار نفسه ، وأن علينــا أن تكون هذه قضيتنا . وكنت أوقن من أن ذلك سيستغرق عمرا آخر طويلا ، وأن ما جمعناه وما ســوف نجمعه طوال الأعمــار الباقية ــ لن يكفى بالكاد ــ لاقامة الجدار من جديد . وكنت موشكا على التفجر والتلاشى من الغضب ، لكننى داويت القهر بالعصيان فعالجنى العصيان بالعزلة فعدتنى العزلة بجبروت فردى يرفض الاذعان ، الا أنه كان بعصيانه وعزلته وجبروت فرديتــه كلما صافح الخلاء صار ظلا ممسوخا يتضــاءل ويضمحل فى ظل ارتفاع الجدار .

المنحنى الخطـر

مجموعــة قصــص

اهــــداء

الى أخى الحبيب « محمــد » .. الذى كان صــــبيا غض الاهـــاب •• وذهــب الى الحــرب .. فــلم ياتنــا خبره ! .. لعــله فى الغيب يعرف ما جرى !

اخــوك

« خـيرى »

١٩٧٦

الالتحـاق بالحيـاة

قال الرجل وهو يمسك يدى بيده فيما نستعد لعبور الشارع العمومى :

ـ فى هذه الحودة بالضبط .. مات أبوك .

اقشعر بدنى . وبدا على الرجل انه ندم ..

ولم تكن أمى قد خلعت ثوب الحداد بعد . كانت لا تزال تطوق وجهها بالطرحة السـوداء .. وكان وجهها لا يزال قمرا يطل من طاقة الدار ينير الليـالى المظلمة .. حين أخرجت من عبهـا منديلا أسـود فكت عقدته باسنانها . ثم قالت لى بينما تعطينى جنيها تهرأ من كثرة تطبيقه :

ـ هذا الرجل من اعز أصدقاء المرحوم .. اذهب اليه فى مصر .. وسـوف يجد لك شغلا . وكان نهر من العربات يتدفق فى الشارع العمومى ، ويملأ الدنيا أزيزا وزئيرا ووشيشا وخطرا..

ـ يا له من يوم ..

قال الرجل . ثم شدد على يدى :

ـ كان المرحوم قد يئس من الانتظار بجوار الراديو . وعرف

أن ابنــه ليس بين الأسرى ، وليس بين الشــهداء وليس بين الاحياء .. فقام وقال انه ذاهب لينام . واننا سنتقابل فى الوردية كنا دائما فى وردية واحدة . هو أمام الفرن يباشر الخبيز وانــا بجواره اباشر العجين . استغربت لمــاذا يقول لى هــذه الكلمــة فى هذه المرة ؟ .

.. وكانت أمى تجلس متقرفصة فى وسط الدار مطفــاة العينين ، وانا متقرفص بجوارها على الأرض أرقب سيل دموعها المتدفق . واعجب من أين تأتى هــذه الدموع . وكان عكاز جدتى المتقرفصة فوق المصطبة يروح ويجىء أمامنا ينكش الأرض . وصوتها يجىء دون أن تحرك شفتيها . مثل خرير الميــاه من عيون الساقية :

ـ وده قبر مين اللى البقر هده ؟

ده قبر الغريب اللى فاتوه أهله .

ـ وده قبر مين اللى البقر داسه ؟

ده قبر الغريب اللى فاتوه ناسه .

فصرخت امى فجاة ، كصريخ القاطرة على مشارف البلدة ، فظننت ان جثة ابى قد عادت مرة اخرى . فانتفضت واقفــا . اجعر . انظر حولى . اجرى الى الباب وانظر . فلا ارى سوى نهاية الحارة . وفى آخرها بقية بيوت البلدة . التى تتهالك فى ظل جدار السراى . الذى علقت عليه لافتة مكتوب عليها بخط كبير « الاتحاد الاشتراكى العربى » وكنت اتذكر اللافتة النحاسية الباهتة على باب هذه السراى وقد كتبت فوقها عبارة « استراحة الخاصة الخديوية »ولم اكن اعرف شيئا عن هذه السراى ولا عن اللافتتين ، ولا عن هــذه البلدة . وكل ما اعرفــه انها بلدتنا وان

هذه الدار دار أمى · وان هذه العجوز هى جدتى أم أمى · وانـنـا نجىء من مصر فى كل عيد لنزورها ، ونمكث عندها أياما . يعود بعدها أبى ويشحننا فى القطـار بعد أن نكون قد مشينا دهرا طويلا . لنعود الى دارنا فى حارة مشابهة ولكن فى مصر ..

ــ ابن المرحوم !

هكذا قال الرجل لصاحب كشك السجائر الذى وقفنـا بجواره . أحسست بسخونة فى اذنى ، وكانت الأرض تتزلزل تحت قدمى . ونهر العربات موج متلاطم لا حدود له وكلمـا نظرت فوق سطح عربة رأيت الشمس تختنق فيه مثلما يختنق وجه أمى فى الطوق الأسود . وكان صاحب كشك السجائر ينظر الى وعينه تهرب من عينى ..

ــ مرحوم من ؟

وهز رأســه ...

تناول الرجـل منه « خمسة بلمونت » دسـها فى جيبه بسرعـة :

ــ الأسطى عمران الفران .. الذى مات أمامك منذ ثلاثة أعـوام .

هب واقفا :

ــ أوه .. ه .. لابد انك محمود .. كان دائما يتحدث عنـك .

ثم خرج من الكشـك .. أقبل نحوى . فـاذا به يتـأبط عكازا . وكنت أريد ان أبكى . ولكن دموعى تسربت الى أنفى ..

ــ لقد كبرت . شد حيلك .. البركة فيك .

وصار يتســاند على العكاز فيما يســلم على بيد ويربت بالأخرى على كتفى . ثم استدار وجر دكة خشبية . سحبنى من أبطى بيد حنونة :

ـ اجلس .. اجلس يا محمود .. الست حقا محمود ؟

قلت : نعم .. ثم اضطررت للجلوس .

ـ اقعد يا اسطى .

تقدم الرجل وجلس بجوارى على الحافة مبتسما :

ـ ربنا يوفقنا ونجد له شغلة يتعيش منها .

امتدت يد صاحب الكشك نحوى بزجاجة كازوزة تقطر منها الميــاه :

ـ طبعا لابد أن نجد له شغلة .

احسست بشىء من الفرح بقوله : نجد .. اذ أن شــغلتى صارت مسئولة من اثنين . صــرت انظر فى وجهــه . ربت على كتفى .

ـ اشرب . كله من خير المرحوم .

رفعت الزجاجــة ورحت اشرب . كانت الميــاه مالحة . مالحة . ولكنها كانت ترويني .

ـ هل عاد اخوك الكبير ؟

بدا الاهتمام على وجه الرجل :

ـ صحيح الم يعد اخوك بعد ؟

قــلت : لا .

اكفهر صاحب الكشك :

ـ كيف .. ما عاد هناك أحد لم يعد .

ـ نعم .. الكل عاد ومن لم يعد عاد أيضا !

ـ ولكن الم يتصل بكم أحد ؟

ـ قلت : لا .

ـ وانتم .. الم تسالوا ؟

قلت : لم تعرف امي كيف تسال .

ـ وماذا فعلت ؟

ـ استعوضته عند الله .

ـ المعوض مخلف .

ـ عوضه كريم .

ـ لها الجنة .

ـ البركة فيك .

ولم اكن اتذكر اخى الكبير هذا . كل ما اذكره ان شابا اسمر الوجه مثلى . كان يطرق بابنا فى الليل فجأة .. فنهب كلنا . وتعانقه امى وتقبله . ويحملنى هو ويقبلنى . ويعطينى جوزة الهند والطوفى ثم يخلع حذاءه الكبير الغليظ ويدفعه تحت الكنبة . ويخلع ثيابه الصفراء . وتحضر له أمى جلبابا من الدولاب وتسحب وابور الغاز من تحت السرير وتشعله وتقلى بيضتين فياكل ويعطينى لقمة مغمسة ونظل ساهرين الى أن يجيء ابى أو يقول هو انه ذاهب اليه . فاذا استيقظت فى الصباح لا أجده ..

جاء ناس الى الكشك وانصرفوا يبرطمون . وعاد صاحب الكشك يتوكأ :

ـ « كان المرحوم يعرف ان هذه هي حودة الموت . اذ يجيء لها الخطر من كل هـذه الجهـات ، انظر انا نفسي فقدت ساقي فيها . من فضل الله وكرمه على لم أمت . وكانت العربة تابعة للقطاع العام وهـذا من حسن حظى . فأخذت تعويضا وافتتحت هذا الكشك وكان المرحوم قادما من عند هـذا الجراج أتراه ؟ خلفك بالضبط .. وكان عليه أن ينظر ليختار أوسـع مساحة بين عربتين » .

ثم تنهد . ظلت يده متوقفـة فى اتجـاه الرصيف الذى خلف ظهرى . اخذت الوى عنقى فى جزع محـاولا ان ارى بالضبط البقعة التى وقف فيها أبى ينتظر قدره . لكننى اعتدلت . فرأيت صاحب الكشـك يهز راسـه مكشرا وجهه كطفل لا يريد ان يأخذ الدواء .

اعتدل الرجل بجوارى :

ـ كنا على المقهى التى جئتنى فيها حينما انصرف المرحوم وسمعنا زمجرة الفرامل .

واعتدل صاحب الكشك :

« لم يستغرق الأمر أكثر من ثانية . لحظتها كان الزبون يقف حيث نقف الآن . وكنت اراه واقفا على الرصيف وكنت ارى فى هـذه المرآة عربـة قادمـة من خلف الكشـك من اعمـاق الشارع . شغلنى الزبون برهة واحدة . هى التى استغرقهـا المرحوم فى الموت . نعم . كنت أهم برفع ذراعى واخرجـه من النافذة لأنبه على المرحوم ان يتأنى فى العبور لكن القدر كان اسرع.

فما ادرى الا والرعد يزلزل الدنيـا والمرحوم محشور بين ثلاث عربات فى المرآة » .

« دفعت الترابيزة . جـريت . كل من كان على المقهى انطلق يجرى . لكن قلبى انقبض . ولمـا وصلت كان الزحـام قد انكفأ على الجثـة وكان لابد ان اعرف من هو . لم ادر ما سر هـذه القوة التى حطت على .. اذ دفعت كتفى بين الأجسـاد فالقيت على الأرض عشرات منها . نفذت براسى . رايت أربع عربات . داخلة فى بعضها كالصليب .. المعووج » .

« أف ف ف ف .. رايت وجهـه فى المرآة . ياه ... ه .. اننى لا استطيع نسيان المنظر . العربة التى كانت مقبلة فى المرآة بسرعة جعلتـه يرتد مذعورا من منتصف الشـارع . فدهمتـه من خلفه عربة كانت قد ظهرت فجـاة من خلف الزجاج وحودت فى نفس الشارع . وكانت العربة التى اخافته وتفاداها قد ارتبكت وفرملت فى الحال . لتلبس فى عربة قادمة خلفهـا بنفس السرعة وانعوج بوزها ليلبس فى بوز عربة قادمة من الشارع العمومى ق الاتجاه الطوالى . كلهـا عربات مسرعة . وكل سـائق يريد أن يسرق من الطريق منفذا له بسرعة . أف ف ف ف ... » .

ـ « انا عرفت المرحوم من يده . ولهذا ضربت الرجـل فى صدره بالبونية حين رأيت قدمه تدوس على اليد المنطرحة على الأرض . اخذت اربت على اليد . كانت الدبلة المعدنيـة الرفيعة تلتف حول اصبعه وكان الأسد الأخضر الممسـك سيفا بيمناه الأمامية ينكمش وقد هبطت به العروق » .

ـ « أف ف ف ف .. خرجت من الكشـك . قفزت الى قلب الشـارع . صرخت فى الواقفين ان يرفعوا العربة الأولى التى

كانت السبب . كنت قد رايت راس المرحوم تحت عجلتها الخلفية ، غارقة فى بحيرة من الدم الأسود المختلط بالزيت . كانت لحظة ـ الله لا يعيدها ـ وقعت من طولى بسببها فظللت راقدا فى الفراش جمعة بحالها » .

« لم يكن من عادته ان يقوم بسرعة ، ومرة واحدة . كان فى العادة يبدى الرغبة فى القيام ثم يشرب حمية . ويخبط ركبتيه بكفيه علامة على انه سينهض حالا . لكنه يبدأ فى السؤال عن بعض الأشياء فنجيبه . فيطلب حمية اخرى حتى ننتهى من الكلام . وفى الآخر يقف . يحكى نكتة أو نكتتين ولا يضحك ابدا . وبعد ان يودعنا ويمشى نظل نسمع صوته فى الشارع مدة طويلة . ففى الشارع ناس كثار عليه أن يعطيهم حقهم اليومى من الشتم او التحية . ولم نكن نستطيع التفريق بين شتائمه وتحياته .. لكن ضحكاته تظل تتباعد شيئا فشيئا الى ان تختفى نهائيا . فى تلك الليلة ، هب واقفا ولم يقل سواها : نتقابل فى الوردية . وخرج بسرعة ثم اختفى . ومرت برهة طويلة كنا خلالها نترقب صوته فى الشارع . ولكن الهدوء المؤقت انفجر مدويا . فانقبضت قلوبنا . واندفعنا نجرى » .

ـ « اف ف ف ف .. لست اعرف كيف جاءت قدمه من منتصف الشارع حتى باب الكشك . قدم بحالها واقفة فى الشبشب الكاوتشوك . قلت لمن جاء يحملها ويلمها بجوار الجثة . لو اخذتم بصماتها ستجدونها طيات فوق بعضها . فلهذه القدم حيز محفور فوق هذه الأرض ولكن العربات تدوسها ليل نهار » .

ـ « كنت اعرف انهم سيغطونه بالجرائد . فخلعت جلبابى وطرحته فوقه . وجمعت اطرافه المتناثرة لم يضع منها

ظفر واحد . وكنت أعرف ان فى محفظته ستين قرشا أخذها من صاحب الفرن ليلتها • وكنت أعرف ان محفظته فيها قسيمة الزواج والبطاقة العائلية وخاتمه الذى يوقع به على كشوف القبض . والذى كان يمده بالمحفظة كلها حيث هو مربوط فيها بفتلة دوبارة . كان صدره قد تهشم واختفى الصديرى بين الضلوع . وطرف المحفظة غائر فى الدماء والامعاء وحين امر الضابط اخراجها تذكرت ان المرحوم كان يريد ان يبعث احد صبيان الفرن الى البيت يحمل الستين قرشا . غير ان صاحب الفرن كان يجلس لنا مثل قرد قطع . واذكر اننى قلت له : استأذن لك صاحب الفرن . ففكر قليلا ثم قال : لا داعى للجمائل » .

ـ على فكرة لم تكن ستين قرشا .

ـ رايتها ؟

ـ اذا كانت ستين قرشا ، فقد نقصت بريزة • هى بريزتى . وقد وصلت الى . كان المرحوم قبلها بيوم اخذ منى ورقة دخان معسل وشلنا يركب به . وكان وهو واقف على الرصيف الآخر قد اخرج محفظته وسحب منها بريزة فضية ابقاها فى يده . نعم تذكرت هذا . حين رايت البريزة تكر على الأرض ويوقفها الرصيف أمام الكشك . وهذه هى البريزة . حلفت بالطلاق الا اسلمها للبوليس أو اصرفها . فرحت بأنها معضوضة فابقيتها •• وكلما لمستها تاكدت ان فى الدنيا ناسا تدفع الدين وهى جثة مبعثرة تحت العجلات .

ـ يا اخى لا اعرف ما السر فى هذا . قبل ذلك لم اكن اطيق المرور من هذه الناحية ولا زلت انقبض كلما مررت فيها .

ومع كل فان قدمى تجيء كل يوم الى هنا ، ولو جئت فى اليوم الواحد عشرين مرة فاننى فى كل مرة لابد ان أرتعش واعبر الشارع متلويا فى مشيتى . كأن الجثة لا تزال فى مكانها ..

ــ كان الله فى عونى . لقد ظلت سجادة الدماء مفروشة على الأرض شهورا طويلة . وكل يوم تهبط الشمس فوقها وتصلى ركعتين لله . ثم تغيب حاملة على جبينها مسحة حمراء ..

ــ خمسة بلمونت لو سمحت .

وانتصب العكاز ودق الأرض حاملا صاحب الكشك الذى توقف مستديرا لرجل قصير ذى شوارب تتدلى حول شدقيه :

ــ جراجكم يجلب لنا المصائب . يقف كالخازوق فى المنطقة . فيلخبط المرور ويزحم الدنيا .

ــ أحمد ربنا . لولا وجودنا ما بعت شيئا يا اعرج الكلب .

ــ يفور البيع من وجوهكم .

ــ كل ذى عاهة جبار يا أعرج يا مفترى .

وكانت العربات المسرعة . تطارد المارة وتكنسهم من امامها . والشارع ممتلىء بالجزع وكنت احس انها تمشى فوق جثتى .

ــ اسمع يا أبا الشوارب .

ــ سمعان .

ــ اتعرف هذا الوجه ؟ انظر اليه جيدا .

صار الرجل القصير ذو الشوارب يبحلق فى وجهى ويكشر ، ويفكر ..

ـ أليس يذكرك بأحد ؟

ازدادت بحلقته فى . راح يهرش فى قفاه .

ـ انه محمود .

ـ محمود من ؟

ـ ابن المرحوم .

ـ مرحوم من ؟

ـ الذى مات هنا منذ ثلاثة أعوام ..

ـ الأسطى عمران ؟ يا هو .. و ..و .. و .. ه .. . البقية فى حياتك يا محمود .. البركة فيك يا ابنى تزاحمت العربات فوق جثتى . ولم أكن أقوى على الصراخ ..

ـ نبحث له عن شغلة .. الا تساعدنا ينوبك ثواب ؟

قالها صاحب الكشك وهو يغمزه بالسجائر .. وصار الرجل القصير ذو الشوارب يحملق فى مفكرا وقد اتسعت عيناه :

ـ خلاص .. لا شأن لكما به .

صاحب الكشك يبتسم لأول مرة :

ـ لا نريد فك مجالس .

ـ أبو شوارب . رجل جدع وفيه الخير .. وله معارف .

وجه صاحب الكشك ينبض بالفرح :

ـ طبعا .. أهى عشرة أيام ؟ انها عشرة عمر .

ـ قم يا محمود معى :

هكذا صاح الرجل القصير ذو الشوارب . وكانت العربات لا تزال تنبح فوق جثتى فلم أقم .

ـ قم يا أبا حنفى .

ومد يده .. ليوقفنى .

ـ الى أين ستذهب به .. الا تقل لنا ؟

ـ الى الشغل طبعا . محمود خلاص أمسك الشغل من الآن ! .. الحكاية وما فيها ان محمود جاء فى وقته . صاحب الجراج منذ شهور يبحث لى عن صبى يعاوننى فى غسل العربات ومسحها . ولأن محمود ابن حلال فقد جاء لوحده من غير ما نبعث له ..

ـ يا سلام . شفت النصيب .. !

ـ انها روح المرحوم .

ـ انه عمله الطيب .

ـ ربنا يجعلك عمار يا مصر .

يد على ذراعى . ارتعدت كانت يد الرجل القصير ذى الشوارب :

ـ ستأخذ فى الجمعة ثلاثة جنيهات . وستبيت معى فى الجراج . وسوف تكون مبسوطا فقم معى لتسلم الشغل . وسأعلمك كيف تغسل العربات وتنظفها جيدا .

ولم اكن استطيع القيام ..

قم معه يا محمود . انت ابن حـلال وربنـا بعت لك الشغل لحد عندك .

وكنت انتظر من يلم اطراف جثتى ويضمهـا .

ـ وسوف تكون معك .

ـ وتجيء الكشك فى أى وقت وتطلب منه ما تشاء .

ـ انه لا يزال مكسوفا . فخل بالك منه .

ـ قلت لا شأن لكما به . . لقد صرت من الآن مسئولا عنه .

ورحت أرقب ظلا صغيرا يزحف على الأرض بجوار ظل آخر عريض طويل .

الفـــــرح

صرخت لحظتها . انزعج الوجه العجوز وارتد عنى مكسوفا. كـذلك انزعجت امى وتلقفتنى فى صــــدرها وراحت تربت على ظهرى قائلة بصوت يشبه مواء القطط :

ـ متخافش يا حبيبى .. ده ابوك !

ولمـا كنت احب كلمة ابى فاننى هدات ورحت انظر للرجل خلال دموعى . وبربورى المنساب على شفتى ، احاول أن افهم منه ما معنى كلمـة ابى . كان وجهه عجوزا تملؤه التجاعيد كأرض محروثة . راســه كزلطة كبيرة ناعمة لا ينبت فوقها عشب ، عيناه واسعتان تبرقان ولا تكفان عن الحركة ، كأنه كان يشتغل قاطع طريق .

التجاعيد المستطيلة المتجـاورة انضغطت فى بعضها كطيات الثياب ، صار الوجه كله ابتسامة كبيرة تكشف عن فم بلا أسنان. كانت نظراته الى هى الأخرى تبتسم . قرصتنى امى قرصـة خفيفة حنونة وهمست فى اذنى :

ـ مش عيب يا واد .. حد يخاف من ابوه .. داهيـة تكســفك .

لحظتها كانت مكسوفة بالفعل غاية الكسوف . وكانت دائما تكلمنى بهذه القرصة حتى صرت أفهم مغزاها وصرت لا أبكى من ألمها بل أبكى مما أفهمه منها .

جرؤت فتقدمت خطوة من الرجل العجوز وكنت أنكس وجهى فى الأرض واهرش باحدى يدى فى رأسى ، وبالأخرى أدعك عينى .. ذلك أننى كنت قد صحوت من النوم فجأة فوجدت ثمة انقلابا رهيبا قد حدث . آخر ما أذكره قبل هذه اللحظة أننى حين وضعت رأسي على فخذاى واستسلمت للنوم كانت هى جالسة فى قاعة جدتى التى أقول لها ــ مثلما تقول أمى : يا أمى . وكانت جدتى هذه تجلس أمامها متكورة وقد راحت تمرر يدها على جسدى بورقة فيما تتمتم بكلام منمق موزون . ورائحة البخور تتصاعد ، ونحن فوق المصطبة الكبيرة التى تبتلع القاعة كلها ، نضع المخدة الكبيرة بجوار رصيف الحمام ، الذى هو عبارة عن حوض مربع من أرض المصطبة نفسها مبنى بالأسمنت ، له فى مواجهة الباب جدار يحجب قامة الانسان ، تنحدر منه ماسورة موصلة الى البلاص المركون تحتها لابتلاع ماء الاستحمام ..

آخر شىء رأيته فى العهد البائد كان خيال جدتى وهو يتلوى على الحائط مختلطا بخيال الدخان . بعدها استغرقت فى النوم ، فاذا بى افتح عينى فجأة فأرانى فى هذه الحجرة المزخرفة بالألوان الزاهية ، ذات الشبابيك الزرقاء الطويلة والدرف الزجاج، وحيث يوجد سرير من النحاس بعمدان ، وبه ناموسية منصوبة ، حولها داير حريرى مرسوم عليه أطفال بأجنحة ، واثداء وقلوب ، كما يوجد « بوريه » كبير من الخشب بنى اللون لامع ، عبارة عن ادراج عريضة فوق بعضها لها أيد صفراء لامعة ، على الحوائط

خطوط مشـــدودة بينها دوائر حمراء وزرقاء وخضراء من كل لون ، على الأرض سجادة تغوص فيها قدمى . .

الرجل العجوز ـ الذى قيل انه أبى ـ يجلس على كرسى كبير ذى مسندين وظهر مرتفع ، يضـــع رجلا على رجل يلم العباءة حول ساقيه كل لحظـــة فتشخلل المسبحة فى يده . امى جالسة على الأرض بجوار قدميه ، ثمة شىء فيها قد تغير . . ألم أقل بأنه انقلاب رهيب ؟ . . ان جسدى ليرتعد كلما تذكرتنى لحظتهـــا : فهذه السيدة التى صفرت فوق صفرها وانزاح المنديل الأســـود عن رأسها فانفرد شعرها على كتفيها وتغير لون وجهها فاتضحت معالمه واتضحت عيناها واتضحت فيها أشياء كثيرة حتى صرت أشك انها أمى التى اعرفها . . وهـــذه النقلة التى لم أفهم لها معنى ، كل ذلك عاد فارعدنى ، فارتددت من جديد قاصدا صدر أمى لارتمى فيه . وأغرق فى النوم من جديد فلربما انزاح هـــذا الكابوس المزعج ، لكننى احسست كأن شـــوكا قد نبت فى صدر أمى ، فلأول وهلة سقطت عينى عليه ففوجئت بأنه ليس هو ذلك المترهل الذى كان من حقى ان اعبث به منذ وقت قريب ، وبدا لى جذعها ــ حتى وهى جالسة ــ اطول مما عهدت وخصرها أرفع مما عرفت . .

وقفت حائرا برهة . حزقت لاستدر البكاء وكان عصيا فى تلك اللحظة ، اذ أن عقلى كان قد انشغل وانفتحت فيه أعين ، لكنى من كثرة الحزن سقطت من مؤخرتى أصوات متتالية انفجر لها الضحك كالرعد ، فانتفضت أنا وهلعت صارخا محـــاولا الارتماء على صدرها ولكنها جذبتنى برفق الى جوارها وهى لا تزال تضحك وتمسح لى وجهى وأنفى بيدها ثم تعود فتمسحها بذيل جلبابها ، فخيل الى ان فى الأمر مؤامرة خطيرة تحاك حولى .

انصعت ليد أمي فاسلمت رأسي لفخذها وهي تواصل مسح أنفي بيدها . سرحت عيني نحو الرجل العجوز ، وجدته ينظر الى أمي باحتقار شديد ، لاويا شفتيه ، ثم تعلقت نظرته في الهواء وبدأ عليه هم شديد .

صار بدني يقشعر وصرت أتكور ، وكانت السجادة تحت جسدي مثل شبكة من حنان دافىء تستكن بي ، الا ان منظر الرجل العجوز كان يرعبني . أخذ رأسي يتململ رائحا غاديا كالكرة على ورك أمي ، حيث كانت قد أحنت جذعها الى الأمام وأخذت تدعك في قدم الرجل العجوز ، وتضغط وتطرقع له أصابعه . أخذت أكرهها وأكره هذا الرجل وهذه السجادة وهذه الحجرة المزخرفة بالألوان الزاهية .

قالت امي بينما تشير الى جبهتي العريضة :

ـ شبهك الخالق الناطق .. حتى الحسنة اللي ...

هز راسه موافقا وقد لمعت عيناه بتحذير ما ، فامسكت امي عن الكلام وعلى وجهها ابتسامة مرتعشة .

بعد صمت طويل قال الرجل العجوز ـ أبي ـ :

ـ قومي نامي .

تمطعت أمي وتثاءبت ، ربتت على كتفي ، هزت رأسي ، تضايقت منها ونهضت واقفا . سحبتني ماضية بي في اتجاه الباب . انه لا يشبه باب جدتي « نفيسة » فهذا محندق وله يد من النحاس المشغول ، مالت في يد أمي فانفتح .. وكانت أمي حرية بأن تتعلق بالضبة وتشد بكل قوتها اذا ما كانت تفتح باب قاعة جدتي ، الذي يصدر صريرا يشبه خوار الثور الهائج .

انغلق الباب وراءنا من تلقــاء نفسه . فصرنا فى طرقة طويلة ضيقة مفروشــة بالسجاد الخفيف ، تتدلى من سقفها لمبة كبيرة ذات قبعة عريضــة تلقى على الأرض اعمدة متداخلة من الظــلال المتراقصة ٠٠ أخذت أرتعش ٠٠ عن اليمين باب آخر يقابله باب ثالث وفى مواجهتنا باب رابع ، التفت ورائى ، رأيت مجموعة من الأشباح تشبه العرائس الســوداء متجاورة ومتشابكة . مسحت العماص عن عينى ، عصلجت فى الأرض مدققا النظر فى هــذه الأشباح فيما أرتعد . قالت أمى :

ــ انت خــايف كده ليه يا واد .. تعال هنا انت عــايز تنزل ليه ؟ .

انت خايف من درابزين السلم ؟

ثم ضحكت ، احسست انها ضحكة صافية خلت ــ لأول مرة ــ من الأنين ، جذبتنى فدخلت الباب المواجه ، فاذا بنا فى حجرة كبيرة ملآنة بالكراسى القطيفة والكتب والسجاجيد ، على حوائطها الواح من الزجــاج فيهــا صــور وتصــاوير ، وبراويز مذهبة . اشارت أمى الى الصورة الكبيرة التى فى الواجهــة وقالت فى فرح : « جدك أهه يا واد » فرحت التهم صورته ، وأرى فيه أمارات كثيرة من ابى . قالت أمى كأنها طفلة تلعب معى فى الحارة : « تعرف يا طلعت » ٠ كان فى وظيفة كبيرة قوى ٠٠ كان معاشر الملك فاقشــعر بدنى اذ رأيت نفسى بجلبــابى الممزق وقــدمى الحافية اظهر فجأة فى برواز الصورة واقترب من نفسى .

ــ بص يا طلعت .. عمك متصور مع الملك ازاى ؟

نظرت الى حيث اشارت ، فرأيت رجلين لم أعرف أيهمــا عمى وايهمــا الملك ، لكننى انبسطت من الشرائط التى يلفهــا أحدهمــا حول كتفــه وصــدره واعجبني منظرها فقلت لابد انه

عمي . ثم انني تسمرت فى مكانى انتفض ، ثمة امراة كهرم صغير تجلس على شلتة كبيرة عالية تنظر الى باســمة ، ذقنها مستطيل يمتد أمام وجهها فوق لغدها السمين ، بيضاء شاهقة لها عينان تشبه عينى الرجل العجوز تماما ، ولكن شيئا ما فى عينيها ذكرنى بأننى رايت كل هــذه الملامح على وجهى من قبل حين نظرت ذات يوم فى مرآة امي المكسورة .

تقدمت منها دون خوف . مدت ذراعين مفتوحين . تذكرت انها كانت تجىء فى بعض الليــالى وتجلس معنــا فى قاعة جدلى فتضحك مرة وتبكى مرة ، وفى كل مرة كانت تدس فى يد امى شيئا او تنصرف تاركة شيئا كانت تحمله عند قدومها .

ـ على حضن عمتك ياواد ..

هكذا هتفت امى . فاندفعت اجرى نحو من سميت بعمتى ، القيت نفسى فى لحمها الكثير الطرى . وغبت فيه برهــة طويلة . على انها كانت تتبرأ منى وتنفض ثيابها وتضربنى بلطف على قدمى الوسختين وتنفض السجاد من اثرهمــا . حينئذ خرجت امى من الحجرة تتمايل فى مرح ،وعجبت كيف انها تعرف طرق ومداخل هذا القصر . عادت بعد برهة ، تحمل صينية عليها كنكة القهوة والفنجان الصغير ، وضعتها على ترابيزة تلمع فيها ازرار الصدف، امام من سميت بعمتى ، ملأت لها الفنجان ، جلست ، وراحت سقيفة الضــوء تروح وتجىء فكأن الجدران تهتز معها . احسست بلحم من سميت عمتى يتململ ويطردنى فانسلخت عنه وتربعت بجوارها مبهورا ..

رشفت من القهوة رشفة ، قالت :

ـ قرات الفاتحة على روح المرحومة ؟

قالت امي بحماس وجد :

ـ يا خبر يا عمة ؟ .. دانا بكيت عليها لما انقهرت ! ..

ـ مش قصدى ...

ـ دانا لسه ما قلعتش الأسود غير النهاردة .. هو الدم يبقى مية ؟ .. دى مهما كان اخت جوزى .. يعنى عمتى !

ـ يعنى سامحتيها ؟ ..

ـ مسامحاها ..

ـ على كل حال .. الحمد لله رجعت الميه لمجاريها ..

امتدت يد امي نحو رأسي فخلعت عنها الطاقية القديمة المزينة التى بكيت فى طلبها حتى اعطانيها رجل قيل انه خالى ثم عادوا فقالوا انه احد اقارب امي . احسست بالعرى حال رفعت عن رأسى ، هممت بالجعير لكن شيئا ما حلوا كان يفور فى عروقى بالفرح ، وقالت امي باسمة لما شعرت برغبتى فى البكاء : « عيب .. انت ابن راجل محترم ما تلبسش الطاقية العرة دى » . ونظرت نحو من تسمى بعمتى ، وتفتفت بلسانها وقالت بما يشبه الخجل : « كنا بنبعت له هدوم راحت فين يا ترى ؟ » . قالت امي مشوحة : « اهو بيقطعها من شقاوته طول النهار فى الحارة » . فتفتفت من تسمى بعمتى وقالت : « ابن كامل بيه يلعب فى .. قصدى .. ابن الاكابر يلعب فى التراب ! » . ثم تنهدت فاصفر وجه امي وخفق قلبى ، وقالت من تسمى بعمتى : « نصيب .. كل شىء نصيب » . وزمت شفتيها وخرجت عيناها كلوزتى القطن الكبيرتين كليمونتين اطلتا من شباكين وراحتا تعتصران .

تناولت امي ذيل جلبابها الأسود ومسحت دموعها المتدفقة

بفزارة ، ثم تمخطت ، ووضعت خدها على يدها وتركت دموعها تسح منذ وعيت وانا اضبطها فى عز الليل جالسة وحدها فى القاعة نفس هذه الجلسة ، ورك على الأرض نائم والآخر منتصب والكوع مستند فوق الركبة والخد مستريح فوق كف اليد والدموع بلا نهاية ، وشريط اللمبة نمرة خمسة المعلقة على رفها الخشبى يتساقط الى القاع كلما رفعناه ، ومن فرط الجفاف صار طرفه أحمر قانيا بغير ضوء ، كنت أراه مضاعفا فى عينى أمى ، وكنت أغمض عينى بعد برهة وادفن نفسى فى الظلام ، لكننى كنت ابكى اذا ما طلع النهار وبلا سبب .

كنت متربعا على السجادة لحظتها أحملق فى عينى أمى ، وكنت ويا للغرابة اشعر بكثير من الراحة لا أعرف لها سببا . اذا بيد أمى تمتد وتربت على ظهرى وتقول بين دموعها بصوت أخنف :

ــ ما تعيطش يا حبيبى .. وانت لك حق تفرح وتزاطط .. عشان رجعنا لأبوك .. ابوك خلاص ما عادلوش حد فى الدنيا غيرك . أصل عمتك الله يرحمها ماتت وعشان كده بنعيط .. عمتك اللى كانت مقوياه علينا ومقسية قلبه .. ماتت ربنا يرحمها ويحسن اليها .. بس أوعى تزعل منها يا طلعت .. عمتك حبيبتك ياخوية .. ان شاء الله .. ربنا يدينى طولة العمر لما أشوفك كبير كده وبتروح تقرا لها الفاتحة ..

شعر راسى كان يتحرك واقفا ، من تسمى بعمتى رمتنى بنظرة لم افهم لها معنى لكننى خفت منها ، وتذكرت « القردة » ــ اقصد عمتى ــ اقصد المرحومة التى جئنا بسيرتها ، كانت جدتى « نفيسة » تسميها « القردة » لأنها ــ المرحومة ــ غير هذه الجالسة معنا وان كانت تشبهها ، فهى على العكس رفيعة كالزعزوع ، وحمراء الوجه والشعر كمؤخرة القرد تماما ، ولسانها

لا يكف عن الشتائم ، نسمعها فى دار جدتى « نفيسة » وفى الحارة، يتلقاها كل سائر فى حاله وكل سارح ببهيمته وكل طفل يلعب تحت شباك قصرها وكل نسمة هواء لا تعجبها ، تقول جدتى « نفيسة » ان هذه « القردة » ـ أقصد المرحومة ـ هى الوحيدة من بين أخوتها التى يتصلب فيها العرق التركى اذ هى بنت من يسمى بناظر أفندينا ، تظل طول النهار والليل ترسل صوتها المشابه لصوت الرجال حاشرة باسم أفندينا فى كل كلام ، ومن الطابق الثالث ـ حيث تنام هى وتستقبل ضيوفها كان اسم أفندينا يتخطى السطوح وأقزام الجدران ويصل الينا فى قاعة جدتى « نفيسة » فيما تكون جدتى « نفيسة » أقامت صلاة الفجر وشاركت مؤذن المسجد فى غناء الاستغاثة بكل دقة ، نفس كلمات المؤذن وعباراته بل ونغماته بالحرف الواحد ولكنها ويا للعجب ترن على صوت جدتى « نفيسة » باصداء مختلفة ومعان أكاد ألمسها ملمس اليد ، وكان ـ لا صوت المؤذن ـ هو الذى يبارى صوت « القردة » عمتى المرحومة ، وكنا نستيقظ جميعا وتستيقظ الديكة وتستيقظ كذلك أعواد الحطب وقش الأرز فوق السطوح ، حينئذ ينفتح الباب والناروزة وينتشر الصباح فى القاعة وتسحب جدتى « نفيسة » منقد النار فتشعل جمرات القوالح وتضع فوقها براض الشاى ، عادة ـ فيما تكرر دائما ـ منذ تزوجت المرحوم مجدى ـ أم أمى ـ شيخ خفراء البلد ..

لم تكن عمتى « القردة » فى حاجة الى المجيء الينا فى قاعة جدتى « نفيسة » لكى تشتمنا وتلعن أبانا وأباء الذين خلفونا ، كان باستطاعتها أن تفتح شباك غرفتها فى الطابق الثالث وترسل الينا شتائمها على رءوس الاشهاد ، ويجيء اهل الحارة كلهم

ويشربون مع جدتي « نفيسة » ويبدون اعجابهم بعقلها وعدم اعارة القردة التفاتا ، وكانت تشفط الشاى كالرجال ويحمر خداها وتقول كل واحد بعمل باصله .. « أصلك فعلك صحيح » .. وكنت قد عجزت عن معرفة السبب الذى من اجله تضطهدنا « القردة » وتفرج علينا خلق الله ليل نهار ..

تأوهت من تسمى بعمتى وانهت تأوهها بصوت يشبه صوت عواء الكلب الملول ، ثم مدت ساقيها فطرقعت أصوات كثيرة ، فاعتدلت امى فى جلستها وتلقفت الساقين الغليظتين فاراحتهما فى حجرها وصارت تدعكهما بكفيها الصغيرتين الجميلتين ، وتلوى الأصابع بقوة ومن تسمى بعمتى تعوى فى لذة غريبة . وكان قلبى قد انشرح فجأة ولعلنى اكتشفت لحظتها اننى انحدر من أب له وجود حقيقى ، وها هو ذا ينام أو يجلس فى غرفة مجاورة من هذا القصر ، وها هى ذى عمتى تجلس بجوارى وها أنا ذا اجلس على سجاد يملكه ابى فى قصر يملكه ابى ، واستطيع ان اطل من شباك على الحارة ، وغدا سوف افعل ، سوف أصعد الى كل الشبابيك فى كل الطوابق ، وابص من وراء زجاجها ومن بين حديدها ، ومثل « القردة » سوف أشتم كل الأولاد الذين ضربونى وعيرونى بأشياء غامضة ، وغدا سوف اخلع هذا الجلباب والبس آخر جديدا ، وسوف البس الحذاء ذا الأزرار الملونة ، واذهب الى المدرسة واحمل الحقيبة ، وامشى فى شوارع البلدة ممسكا بيد ابى سعادة البيك المحترم مثلى .

تثاءبت من تسمى بعمتى .. قالت :

ــ شوفى يابنتى .. كان لازم نلم لحمنا ..

قالت امى :

ـ الحمد لله .. أصله عارف ان أنا وليه وغلبانه .

قالت من تسمى بعمتى :

ـ بس أنا .. متآخذنيش .. شايله امانة .. غصب عنى يا بنتى !

امى تبلع ريقها :

ـ خير يا عمة ؟

ـ المرحومة .. قبل ما تموت بدقائق .. وصتنى وصية !

شفة امي تشققت :

ـ ايه يا ترى ؟

شددت ساقيها من تسمى بعمتى :

ـ عشان تقابل ربنا مستريحة .. وافقت على اننا نلم لحمنا .. انى أروح أجيبك يعنى و .. وتعيشى معانا انتى وابنك .

بللت امي شفتها بلسانها :

ـ كتر خيرها .. الهى ربنا ما يوريهاش ضيقة أبدا .

امتطت الجفون محاولة اخفاء العينين البارزتين :

ـ اختى طول عمرها مخها ناشف .. ابوها كان يحبها عشان كده .. طول عمرها تخاف على أملاكه ، على امواله ، وكانت يا حبة عين أختها تقول ان اللى غابت عمرها تخاف منه حصل ! ..

ـ اللهم اجعله خير .. هو ايه ؟

ــ ما انتى عارفة ..

ــ انشك فى لسانى ان كنت اعرف !

ــ كانت تخاف ان « اخوها » .. وبسلامته طول عمره عينه فارغة .. يتجوز واحدة فلاحة .. وتخلف له ولد خايب عبيط يشارك عيالها فى الورث ..

أمى تبحث عن ريقها :

ــ هو .. يا عمة .. لا سمح .. الله يعنى .. متآخذنيش.. ابنه حيطلع لمين ؟

ــ الأم !! ..

ــ هو أنا مش بنت ناس برضـــه ؟ .. وابويـــا شيخ غفر البـــلد ؟

ــ على كل حال .. انتى بنت ناس طيبين .. وعشـــان كده .. وعشان اللحم ده (أشـــارت الى) وعشـــان أبوه يعرف يربيه .. حنمسك العصايا من وسطها .. ومش احنـــا بس اللى بنمسك العصايا من وسطها .. الأمم بحالها مسكت العصـــايا من وسطها .. الحرب خلصت وخلصت عشان الشرط ده لوحده : تقسم البلد نصين .. وحياتك وقسموهـــا نصـــين ، نص يتبع الشرق ونص يتبع الغرب ..

ــ ايوه بيقولوا شوف ازاى حكمتك يارب !

ــ تعالى بقى نمسك العصايا من وسطها .. ونقسم البلد نصين .. عينا أمى الجميلتان كادتا تبرزان من فرط الارتياع :

ــ يعنى ايه متآخذنيش ؟

تفتفت من تسمى بعمتى وعوجت راسها ناحية الباب :

ـ الراجل العجوز ابو عين زايغة لما فل عقله متآخذنيش واتجوزك .. اقصد وانتى قد عيال عياله .. ما كانش فى وعيه ساعتها .. والمرحومة اثبتت كده عند الدكتور !

انطفأ البريق تماما فى عينى أمى .. خفضت جبهتها فى الأرض كأنها ستقع من الطابق الأخير . ثم أنها رفعت راسها وتنهدت . وواصلت من تسمى بعمتى :

ـ و .. المأذون كان جاهز على الطلاق .. راح وجه تلتميت مرة !

ـ كل شيء نصيب .

ـ انا ما وافقتش .. بس كان لى شرط .. وجبتك دلوقت عشان أقول لك عليه .. ان قبلتيه يا بنت الحلال .. أهلا وسهلا عيشى فى البيت وربى ابنك .. اذا ما وافقتيش .. يبقى المأذون جاهز .

فى عينى أمى فحمتان محترقتان :

ـ انا موافقة على كل حاجة .. ما دام حاعيش مع ابنى وأبوه .. حتى لو أكون خدامة !

العينان اللوزيتان تدخلان وتخرجان :

ـ يا دار ما دخلك شر .. اتفقنا .. بس يكون فى علمك .. وهزت اصبعها وانتبهت أمى :

ـ الراجل العجوز اللى اتجوزك .. مالوش أى حاجة هنا .. البيت ده بتاع ناظر افندينا .. والعفش عفشه .. ومكتوب باسمى انا والمرحومة بس .

ـ وماله .. ان ماشالتوش الأرض تشيله دماغي .

ـ والأرض روخره .. مالوش فيها ولا شبر .. المرحوم كتبها باسمنا قبل ما يموت .. أصله كان عارف ان ابنه طول عمره عينه زايغة ، وكان يخاف منه هو راخر خوف المجنون ، وكان دايما يعلم ان ابنه ده هو السبب فى تمريغ اسم العيلة فى التراب .. واللى حسبه لاقاه .. متآخذنيش .. اصله عمل حاجات قبل كده وربنا ستر وصلحناها وراه .. وماكانش المرحوم يتصور ان ابنه حيكيده وينتقم منه ويروح متجوز اللى على مزاجه فى السر من غير ما يقول لنا ..

صدر امى يعلو ويهبط . ذابت ملامحها . صارت صفحة وجهها مثل جلد الطبلة . قالت : لا أدرى من اى صوت .

ـ ع العموم معاه ربنا ومعانا .

تفتفت من تسمى بعمتى براحة :

ـ وطول ما انا على وش الدنيا اديكم بتاكلوا وتشربوا وتباتوا وتتكسوا اربعة وعشرين قيراط .

ـ الهى ما نتحرمش منك .. الهى يقعد لك فى أولادك .

دبت يدها فى صدرها الذى يملأ قفة :

ـ محدش ضامن الموت من الحياة .. واللى أوله شرط .. آخره نور واخرجت ورقة مطوية فردتها فسقط منها قطعة فى حجم عقلة الأصبع من قلم كوبيا :

ـ متآخذنيش يابنتى .. احنا اتفقنا انى ابلغ الأمانة مش كده ؟

ـ طبعا الأمانة تكسر رقبة اللى يخونها ..

ونظرت الى الووقة فى توجس :

ـ حلو ..

قالت من تسمى بعمتى ، ثم هزت الورقة :

ـ خدى بقى .. نفذى وصية المرحومة .. ما هى دى الوصية .. وهى الأمانة ؟

ـ يعنى اعمل ايه ؟

ـ اختمى بصباعك على الورقة دى .. فين صباعك .

فمدته فى الحال . ولكنها حين امسكت به من تسمى بعمتى وبللته بريقها وراحت تمرر سن القلم الكوبيا فوقه ، قالت :

ـ عشان ايه ده يا عمة ؟

ـ ده يا حبيبتى عشان مفيش واحد فلحوس من قرايبك يطلعها فى دماغك تشتكينا وتقولى عايزة كذا وكذا ..

وكان جسدها كله على ضخامته يهتز وهى تلفمط اصبع أمى بالكوبيا ، ثم تبلل اسفل الورقة وتمسك باصبع امى وتلصقه بالورقة فوق البلل وتظل تضغط عليه وتبططه ، فلما اطلقته نظرت فيه أمى ثم بللته ومسحته فى ذيل جلبابها وقالت :

ـ أنا مستعدية اعمل كل حاجة عشان دهه (واشارت الى) .. يتربى فى ضل أبوه .

ـ الحمد لله .. قومى بقى اعملى اللى عايزة تعمليه .. شوفيه ليكون بسلامته عايزك .

عادت الدمــاء الى وجه امى وهى تنهض كأنمــا ترمى عن ظهرها حملا ثقيلا ، فكان ذلك ايذانا لى بأن أستبيح البيت واجرى بكل فرح ؛ لكننى ما كدت افعل حتى جمدتنى امى بنظرة ، ثم قرصتنى ، وقالت لى بصوت فيه مرح :

ــ مش كده حتنام فى حضن عمتك ؟ ..

ففوجئت بذلك وكدت أبكى . لكنها همست فى اذنى بفرح :

ــ الصبح تبقى تجرى زى ما انت عايز وتلعب زى ما انت عايز .. وتأخذ قرش تضيعه .

وتهيأت للانصراف بدونى . فقالت من تسمى بعمتى :

ــ خديه يمسى على ابوه الأول قبل ما ينام .. ويقول له تصبح على خير .. عشان يبقى يتعود على كده .

رقص الفرح لأول مرة على صوت أمى :

ــ ياختى انشا الله يارب .. تعالى يا واد ..

وسحبتنى فمضيت أتعثر واحمل هم بربورى المنســاب فأحاول شده الى الوراء بصوت تغتاظ منه أمى دائما وتقول : « ماتشنشش » . ولقد قرصتنى فيما ننطلق فى البهو الكبير الملىء بالسجاد والأثاث لتحذرنى من هذه « الشنة » . فلما صرنا امام ستارة بنية تنساب الى الأرض أمرتنى بالتوقف ثم ازاحت الستارة وغابت خلفها ففعلت مثلها وشممت فى الستارة رائحة حلوة كرائحة الهدوم الجديدة ثم انها طرقت على الباب طرقة خفيفة وفتحته ، وأطلقت سراحى مشيرة لى نحو السرير الأصفر اللامع واصبعها امام شفتيها حذرتنى من الضجيج ..

كانت الناموسية مفتوحة مثل فتحة الخيمــة ، وكان أبى

مضجعا على السرير مسندا رأسه على مخدة اضافية واقفة ، ووجهه العجوز منبسط كوجه الطفل الصغير . توقفت مسمرا . همست امى فى غيظ : « قول له تصبح على خير .. يلا » .

جمعت شجاعتى كلها ونطقتها دفعة واحدة :

ـ تصبح على خير يا آبا ..

ولكن أمى انزعجت انزعاجا مبتهجا ، وغمزت بعينيها هامسة : « قول له يا بابا ما تبقاش حمار » . فقلت بسرعة وصوتى يرتعش كأننى أقرأ الفاتحة :

ـ تصبح على خير يا بابا ..

فغمزت امى بشفتيها وهمست : « بوسه » ..

فجمعت شجاعتى مرة أخرى وتسلقت السرير وهجمت عليه وقبلته فى جبينه . وكان باردا . ثم ان راسه اختل فانحدر فتهاوى على صدره ، فارتعدت وتقدمت أمى لتعدله ، لكنه تهاوى مرة ثانية ، فاصفر وجهها ، وتلقفت راسه على ذراعها وردفه بيدها الأخرى وظلت مسمرة فى مكانها برهة طويلة كالتمثال ، ثم أطلقت صرخة واحدة كفت بعدها عن الكلام . ومن بعيد جدا جاء صوت من تسمى بعمتى : « فيه ايه يا بنت حصل ايه » . وكررت السؤال مرات عديدة ، فلم نستطع ـ امى وانا ـ أن ننطق بما قد حدث !

الحنـــــين

لو كان للمبنى قبة لقلت ان تحتهـا رفات ولى من أولياء الله الصالحين الذين تحفـل بهم أرض الكنانة ، ولكن لا شيء يوحى بشيء من هـذا على الاطلاق ، فالمبنى مجرد صندوق طويل من الأسمنت واقف يشبه واحدا من تلك الاسبلة المنتشرة فى الريف غير أنه مغلق بباب حديدى ازرق ، وملتصق بعمارة هائلة من عشرة طوابق على الطراز الفرنسى المهيب .

لم يكن ليلفت نظرى هـذا المبنى باعتبـاره كونا منحوتا وبارزا من الضلع الأيسر للعمارة وانت داخل من بوابتها العريضة ذات الأرض الرخاميـة اللامعة وصـناديق البريد المنتشرة على الجانبين . كما وانني لم اكن من ساكنى العمـارة ولا حتى من أهل حيها ، انما أنا شاب قدمت الى العاصمة حديثا سعيا وراء حلم ساحر غامض خيل لى أن ضـوء العاصمة سيكشف عن أسراره ويحققه ، وقد اخترت من العاصمة هـذا المكان بعينه ليكون ـ تقريبا ـ محل اقامتى مع أنه لم يكن هنـاك محل بذاته يمـكن الزعم بأنه محلى المختار ، فان لم أكن أبيت فى احدى لوكاندات الحى الرخيصـة فالمقهى مفتوحة حتى الصباح وواحد شـاى يشفع لمن اقام جسور الود ، وانعدام ثمنه عند المصريين اكثر

شفاعة ، ولقد تراني عند الخباز لحظة واخرى احتسى الشاى مع المكوجى ، ويمكن للحلاق أن يدلك على انني منذ لحظات كنت هنا وبعد لحظات قد تجدنى مدعوا فى فرح سالم الجرسون ؛ واذا حلفت لى أنك ذهبت الى الفرح فلم تجدنى فسوف اقول لك : كم كانت الساعة لحظتها ؟ فتقول كذا ، فاقول لك فيما الوى شفتى آسفا واعتذارا : آه .. كنت لحظتها اعطى درسا فى الرياضة لابن ساعى البريد الذى يسكن فى نفس بيت الفرح .

لكثرة الأسباب لم أعد اعرف لأى منها يرجع الفضل فى ارتباطى بهذا الحى دون بقية أحياء العاصمة على الرغم من انه ليس موطنا لأحد اقاربى أو حتى بلدياتى ؛ ولكن ربما كان السبب هو اننى ـ شأن كل المصريين على وجه اخص ـ عندى ولع شديد بالمكان ، وربما لأن هذا الحى هو موطن اهل مهنتى وموطن مواقفهم العذبة ومعاناتهم ومآسيهم الشخصية كما انه منطلق احلامهم العريضة المشتعلة . الا أنه من المؤكد اننى أحببت اهل الحى مثلما أحبونى ، بل أضعاف ما أحبونى ، ويكفى انهم لم يتطفلوا على همومى الخاصة وقدموا الى الخير والمحبة دون محاولة لمعرفة من انا أو ما أكون .

وازعم اننى قد فهمت المدينة من خلالهم كما أزعم اننى فهمتهم على حقيقتهم واستطيع تفسير الكثير من تصرفاتهم وسلوكهم المتسم دائما بالغموض الساحر الكثيف . الا أن الكثير الكثير مما يفعلون ويسلكون لا استطيع أن اقدم له تفسيرا على الاطلاق ، من ذلك مثلا هذا المبنى الصغير الملتصق بصدر هذه العمارة الهائلة ، وما كان يدور حوله فى ذلك الزمان .

فى البداية ضحكت حتى استلقيت ـ بالفعل ـ على قفاى . فقد كنت مارا من امام هذه العمارات ذات يوم بعيد فلفت نظرى

ان ثمة من يقف امام هـذا المبنى الصغير خافض الراس ، عاقد الجبين فى شعور بالأهمية ، فيما اخذ يتمتم بكلام مبهم لم افهمه . الصورة التى اقتحمت دماغى لحظتها صـورة رجل ريفى مثلى يقرا الفاتحـة لتمثال محمد على أو لمبنى الترماى مثلا ، فهـذا بالقطع اقل من ريفى عبيط ، على اننى حين اشتريت « سـاندوتش » الفول وعدت وجدت رجلا آخر يقف نفس الوقفة بنفس الخشوع ويلعب شفتيه بنفس التمتمة . حينئذ كففت عن الضحك ونظرت فى الأمر بشىء من الأسف والتعـالى . الا اننى فى اليوم التالى ـ ولا ادرى كيف اصبحت افضـل المرور من هذا الشارع الجانبى ـ رايت سيدة ، ليست فقط من النوع الافرنجى بل يبدو عليهـا الاحترام والمعرفة ـ بدليل أن فى يدها مجـلات وجرائد وكتبـا ، وكانت تقف نفس الوقفة بنفس الخشوع وتلعب شفتيها بنفس التمتمة ، وتضيف الى ذلك انخراطها فى البكاء الشـديد بدون صوت ، مجرد سيل من الدمع الغزير لا ينقطع . وقفت اتاملهـا لبرهة طويلة واخيرا انطلقت ابتسم فيما لا اعرف ان كان اسفا أم اشـفاقا .

وجدت ان الاهتمـام بمثل هذا الأمر يصيب عقلى بالاختلال خاصة واننى كريفى اخشى ان يكون فى سـلوك المدينـة شىء مفيد ومهم يضـيع منى لتراخى فى تقليـدهم . ورغم أننى فى الظـاهر لم اعد اهتم بامر هـذه الظاهرة الا اننى كثيرا ما ضبطت نفسى متلبسا بالاهتمام الشديد ، حتى اننى فى اللحظـات القليلة التى كانت تجمعنى ببعض ذوى الشأن من أهل مهنتى ـ تلك اللحظات التى كنت أرجوها دائمـا أدبر لحدوثها ـ كنت ارانى مهموما بسؤالهم ، فى غير صراحـة ، عن امر هـذا المبنى وهؤلاء الذين يطوفون من حوله يتمتمون ، فكان الواحد منهم ينظر الى مبتسما

ويقول شيئا منغما لا يقل غموضا عن تمتمة الناس حول ذلك المبنى ، وكان يبدو على الواحد منهم بعض الحرج اذا ما استشف انني سائح فى السؤال ، الأمر الذى منعنى من طرق هـذا الباب ثانية مع أهل مهنتى أو اهل الحى الذين يعرفوننى . .

على أن الظاهرة لم تكن مجرد ظاهرة أبدا ، واذا كانت تبدو لي بانها حديثة فما ذلك الا لكوني عرفتها متأخرا بينما هي ـ كما هو واضح أيضا ـ عريقة فى القدم ، ففى كل يوم أرى صنوفا من البشر يحلو لى مراقبتهم من بعيد لاضبط ما سيطرأ على حالهم عند محاذاتهم لهذا المبنى ، فهذا شاب يلبس عفريتة ويمشى مسرعا جدا كالمطارد ، ثم يهدىء من خطوه شيئا فشيئا ليضع يده أخيرا على ذلك المبنى ويتمتم ثم يمضى ، وهـذا كهل يجر خلفه هموم المعاش واضح من خطوه أنه يقصد ذلك المبنى مباشرة وفى محياه ابتهاج شديد . ذلك كله كوم وما فاجأتنى به الأيام كوم آخر ، ذلك أننى فوجئت بناس لعلهم من أهل قريتى يلبسون العباءات والجلابيب ويركبون الركائب يقبلون فى شغف فيترجلون قبل المبنى بمسافة حيث يظهر فى الحال ابن حلال يتكفل بامساك ركائبهم ريثما ينتهون من وقفتهم نفس الوقفة بنفس الخشوع ويلعبون شفاههم بنفس التمتمة !

لم تعد الظاهرة فى حد ذاتها تحظى باهتمامى ، انما الذى شغلنى حقا وملك على تفكيرى هو : ما الذى يتمتمون به اتراهم يقراون الفاتحة ؟ اتراهم يقراون أورادا ؟ أو أحزابا ؟ أو اى صيغة من الصيغ التى يمكن أن يتناقلها كل هؤلاء كانها العهد يوفون به ؟. عبثا ضاعت كل محاولاتى ، فلقد اندسست بين بعضهم ورحت افعل مثلهم : اقف خاشعا والعب شفتى بلا شيء وانا فى الواقع اصيخ السمع فلا تبلغنى الأذن شيئا اى شيء ، فلا أحد يرفع

صوته ابدا ، ولا أحد ينظر الى من بجانبـه ، ولا احد يطيل حبل الحديث مع أى مقتحم .

اذا كانت العادة تخلق واقعـا فاننى أقول أن العـادة هى الواقع ، أو هكذا صارت بالنسبة لى أنا على الأقل .. فالذى حدث أننى بين عشية وضحاها أصبحت عضـوا رئيسيا بين زوار ذلك المبنى ،أقف نفس الوقفة بنفس الخشـوع والعب شفتى بنفس التمتمة التى حفظت شـفتاى حركتهـا وان لم يحفظ لها العقل منطوقا ولو مغلوطا .وصرت ارسم على وجهى فوهـات المدافع المضادة لأى مقتحم أو لأى نظرة يشتم منها رائحة التريقة على ما أفعل ـ فمن ورائى جماهير عريضـة تفعل نفس ما افعله . حتى أولئك الشبان المتساوون معى فى السن والذين هم اشـبال أهل مهنتى كنت أرى العديد منهم ينخرطون فى نفس الطقوس بدرجات متفاوتة من الحرص والجدية ، ورغم أننـا كنـا نشبع كافة الأمور نقاشـا نصـدع به رءوس الكون ،الا اننا فى هـذا الأمر بالذات لم تكن نتناقش ابدا بل كنا حين نلتقى فجـأة فى حفل التمتمة لا يتوجه بعضنا البعض بالتحية بل ننصرف كأن أحدا لم يقابل الآخر فى هذه اللحظة .

الأكثر مدعاة للدهشـة والغرابة اننى منذ ان واظبت على تلك الزيارات انفتحت أمامى سبل للرزق لم تكن متوقعـة على الاطلاق ، والعجيب العجيب انها من غير طريق مهنتى أو ما تمنيت ان تصبح مهنتى . هيأت لى الظروف رجالا يحسون أنهم رأونى من قبل ، او أحس أننى رأيتهم من قبل ، لهذا يكلفوننى ببعض المهام الثانوية أقضيها بكل شهامة على أساس أنها ليست من مهنتى ومن ثم فهى خدمة ، فاذا بى أكافأ عليها بيد مبسوطة . حتى اذا ما تقدمت بى السنون وتهيأت للزواج اكتشفت ان كل

مدخراتى وما سأنفقه فى الزواج وفتح البيت جاء كله من هـذه المهام الثانوية ، واذا بهذه المهام الثانوية هى مهنتى الحقيقية التى قامت عليها حياتى ، فلما صرت مسئولا عن بيت وأولاد كنت قد توصلت الى ما يشبه التقنين لهذه المهنة وافتتحت لها ولى مكتبا صار به موظفون يعملون تحت امرتى وينطلقون هنا وهناك لتخليص اشياء واعمال واقوال واوراق من اماكن متعددة ..

استغرقتنى بسمة الحياة وانسبت فى ركابها الى احيام أخرى تضاءل أمام اسمها وحده حى مهنتى بكل تاريخه بل وكل تاريخ أهل المهنة انفسهم . صرت ـ بكل بساطة ـ واحدا من ذوى الدخول الكبيرة . والمال كالنهر اذا فاض يمكن أن يعزلك أو يطفو عليك فتكون من المغرقين ، هـذه حقيقة أعلمها ولكن من حسن الحظ أن مهنتى الجديدة ـ تلك التى لم أصبحها ـ كانت لا تزال تسرى فى دروب الذاكرة تحت الركام كجمرة من جمرات الضمير انطفأ عنها الوهج وغطاها التراب ، فكانت تستعيد بصيصها وتسخن وتتوهج كلما نفخت فيها روح صديق عزيز قديم أو ذكرى فعل خير او عطر لحظة حميمة ، ولكن يبدو ان النفس خداعة حقا ، فالنفس التى يجيئها الكسب من غير ما أحبت وما تهيأت وتأهبت ، تعمد الى تحصين نفسها ضد القديم وان أحبته ، وان كان بعض طفولتها وصباها وشبابها .. والا فلماذا رغم حبى واشتياقى لم أحاول زيارة الحى القديم رغم انه على قيد خطوات بسيارتى ! ؟ مع ان السيارة فتحت لى ولأولادى طرقا جديدة وخلقت زيارات لأحياء كثيرة ، الا هـذا الحى لم تطأه قدمى منذ أن غادرته آخر مرة قبل سنوات طويلة بل طويلة جدا !! ..

يكون الانسان عرضة لهبوب الرياح حقا اذا ما بقيت فى

النفس جمرة ملتهبة ، فلقد تزيل الرياح المتواصلة ركام التراب فتلتحم بالجذوة فيشتعل الانسان من جديد ولكن بمشاعر سابقة واحلام غابرة . وهــذا ما قد حدث معى ، فبعد أن تحققت كل مطالبى الجسدية والمــادية ، وبعد ان تهيأ لى ولأولادى من بعدى مستقبل ملىء بالعيش الرغد فوجئت بأننى لم أفعل شيئا واحدا مما أحببت ، لم أصعد قمة واحــدة مما حلمت ، لم ابلغ ذروة واحدة مما أملت . ثم بدأ يعاودنى حنين عظيم الى الحى القديم ، وانبثق ذلك المبنى فى خيالى كشعاع من الضــوء المبهر ، واحسست برعدة اذ وجدت شفتى تتمتمان بشىء مضغم لا افهمه ، لكن هذا الشىء المضغم سرعان ما صار معنى شديد الوضوح ، فايا كان الأمل فى ذلك المبنى فهو ينطوى على سر خطير دون شك ، بدليل اننى ارتبطت به دون أن أعلم علم اليقين هل توجد تحته رفات انسان أم رفات ذكرى ، خاصــة أنه ليس يحمل أيا من تلك العــلامات الطقســية أو المعماريــة التى توحى بانه ولى بالمعنى المفهوم .. أيا ما كان الأمر فانه يمثل نقطــة ثابتة التقت عندها جمــاهير عريضة ، صحيح انها تردد تعاويذ مجهولة ولكنها .. ها هنا .. تلتقى !

كل هذا قد يمكن تفسيره لكننى لا استطيع تفسير ذلك الحنين الدافىء الذى انتــابنى فجــأة نحو ذلك المبنى فى ذلك الحى ، ولست أعرف ان كان الحنين مدفوعا بحب المبنى نفسه حتى وان جهل العقل محتواه على التحديد ، أم بحب الحى نفسه أم بحب اهله ام بحب هوايتى الأصلية التى اقتادتنى اليه من الأساس ؟!.. المهم أننى قررت ــ وقد صرت فى نعمة غامرة ــ أن أذهب لزيارة هذا المبنى على وجه الخصوص ، فواجب رد الجميل يقتضينى ــ على الأقل ــ أن ازوره واشكره ، الم تكن النعمة التى أنا فيها من

خير رحابه ومن فيض اهله وزواره ؟ . ربما كان هذا محض خيال وغيبيات لا يقبلها العقل ، ولكن الانسان يظل يفعلها طالما أن ثمة رباطا وثيقا بينها وبين ما قد حدث فى حياتنا بشكل شخصى . فوجئت بأننى ادور بعربتى فى منطقة شبه مجهولة تماما بالنسبة لى حتى ايقنت اننى فى بلدة اخرى . سألت هل هذا هو الحى الفلانى ؟ قالوا نعم . فركنت سيارتى ونزلت أستقرىء الشوارع والمبانى ابحث فى صفحاتها عن بصمتى الضئيلة . فما وجدت شيئا واحدا مما عرفته من شوارع أو مبانى أو طرقات ، فلقد تغير كل شيء ، وحفلت المنطقة بالعمائر الجديدة والخرابات الواسعة والأكشاك المتفرنجة ، تعبت من التجوال والدهشة ، وحصرنى البول فانحرت الى حارة أوصلتنى الى سور طويل حول خرابة امامها جدار صغير من الأسمنت مثل ما يقام امام العمارات زمن الحروب ، ولم يكن ثمة احد فداريت نفسى فى ظل الجدار الصغير وارسلت حاجتى اليه وتأوهت بلذة حيوانية ومضيت الى شارع شبه عمومى . انجذبت الى مقهى نظيف جدا مفروش بالنشارة يجلس عليه رهط من مدخنى الشيشة منكسى الرءوس على المباسم كالمقهورين . جلست وفعلت مثلهم . برهة صغيرة وتعرفت فى شخصية الجرسون النظيف على الولد الذى كنت اعطيه الدرس فى الزمن الغابر ، واحتفى بى احتفاء لا نظير له ، ثم اتضح انه صاحب المقهى ، انه فى سوق المال عظمة كبيرة تزرى بأمثالى .

سألته عن كثير من الأشخاص والأماكن تمهيدا لسؤاله عن ذلك المبنى وتلك العمارة . وكان يجيبنى بكل دقة . حتى اذا ما هممت بنطق السؤال تبسم الجرسون وأشار لى بيد بضة مليئة بخواتم الذهب ، صاح فى ابتهاج حقيقى :

« و .. و .. ه .. والله زمان .. تعال أوريه لك » .. ومر بى فدخلنا الحـارة واقتربنا من الخرابة وتوقف فاقشعر بدنى .. وكان ثمة من يبول على الجدار الصغير فى نفس البقعة التى سبق أن تبولت فيهـا . وكانت رائحة الصنان قوية .

وقال الجرسون بكثير من الأسف :

ـ آدى اللى انت بتدور عليه .. العمـارة كان عليها قضايا وحجوزات وانهدت وابتاعت وطلعت لها قضايا جديدة ومن يومها وهى كده ! ..

كادت الدموع تطفر من عينى وكاد الغيظ يفجر صـدرى .. ونظرت بحقـد شـديد الى ذلك الذى كان يبول ، وزجرتـه بعنف شديد :

ـ عيب يا افندى يا قليل الأدب .. ما بتعرفش عملتها على مين ؟ !

فنظر الى ببلادة وسخرية :

ـ حاكون عملتهـا على مين يعنى .. عليك طبعا زى ما هو يا مين .

فاندفعت نحوه منتفضا ، وبدون وعى شيعت له قلمـا على صدغه فشيع لى خمس بونيات حاقدات وركبتين وروسية كل ذلك فى لمح البصر ، ثم اندفع يجرى وأنا أصيح خلفه : « حلق .. حوش .. امسك » ولكنه اختفى قبل اختفـاء صوتى . وكان الجرسون لا نزال مذهولا مما حدث .. فصار يطيب جروحى ويسندنى وأنا أدارى الخجل والعار قائلا :

ـ لازم ابلغ البوليس .. لازم !

فقال الجرسون ساخرا :

ـ وكان لازمـة ده كله ايه ؟ .. ليه انفعلت كـده مرة واحـدة ؟

ـ قليل الأدب .. يتبول على مكان محترم ؟ مش عيب ؟

واحسست ان البكاء سيغلبنى فاستأذنت من الجرسون وانصرفت . ركبت سيارتى وانا اشعر بمهانة لم أشعر بمثلها فى حياتى . ولكن حين اندفعت بى السيارة فى الخلاء وجدتنى ابتسم ساخرا من سخفى وسخف كل شىء .

(★) فبراير سنة ١٩٧٩ .

يوم خميس لعين

فى كل يوم يبدأ مدرس الفصل بأن « يأخذ الغياب » من سطور القائمة التى أصبح يحفظها جيدا أو يستطيع ترديدها واحدا وراء الآخر دون أن ينظر فيها ومع ذلك ينظر فيها . ينادى كل واحد منا « فلان الفلانى » ثم ينظر برهة تكفى لأن يرد فلان قائلا : « أفندى » ، فان طالت الوقفة رفع حاجبيه قليلا وبعث نظرة تخترق الصفوف لتستقر على درج فلان الغائب ليؤشر أمام اسمه بعلامة الغياب ..

كلنا فصل مشهور بالغياب لأسباب غريبة ، ربما لانه ضم عتاة العيال من الحفاة الخشنين الغلابة والأذكياء ذكاء يغطى فيهم كل عرى جسدى . وربما لاننا جميعا كنا « فاقدين » أى تجمعنا أسباب متعددة للغياب وللضياع ، ولقد يغيب الواحد منا لأن جلبابه لم ينشف بعد ، أو لانه ذهب يوصل أباه الى محطة القطار بالركوبة ، أو ليشارك فى عمل يقتات منه هو وأهله وكانت الغيبة تنتهى بمجرد ان يقابل أحد الحاضرين أحد الغائبين قائلا : « اتاخدت غياب » ، فيهز الغائب للذى حضر رأسه فى غير مبالاة .

الا الغياب فى يوم الخميس ، وفى يوم الخميس بالذات ..

ففصلنا الذى جمع كل الأشقياء وحقق نتائج تفخر بها المدرسة ويخجل منها الأعيان والتجار وأبناؤهم الذين كانوا ـ ولا أحد يدرى لماذا ـ يتوقعون لنا مستقبلا غير باسم فى المدارس ، وكانما المدارس خلقت لهم وحدهم هم وآباؤهم . فصلنا هذا جمع بين ابن العمدة الذى يعيش فى بيت ذى فراندة وشرفة وبين « عبد الفتاح » ابن الفقى « خميس الجميعى » .

ولم تكن الحكاية من الأصل لتستوقف انتباهنا أو تجعلنا نقيم لها وزنا ، بل أن تصبح شغلنا الشاغل ومكمن سقوط الكبرياء . فى البداية نادى المدرس فى صيحة آمرة : « عبد الفتاح خميس الجميعى » فلم يرد أحد ، وكان من الممكن أن يكتفى بالتأشير امام اسمه بالغياب ويستمر فى مناداة غيره ، لولا انه بحركة غير معهودة ، اذ برم اصابعه حول رأسه عدة مرات وملامح وجهه تتراقص تراقصات جهنمية فيما يقول : « الولد عبد الفتاح ده ايه حكايته .. هو دايما يغيب يوم الخميس ليه ؟ .. أنا ملاحظ الحكاية دى .. انا بدأت اشك فى الحكاية دى .. كل يوم خميس فى أول حصة آخذ الغياب يطلع هو بالذات اللى غايب ! » .

حركة غير طبيعية صدرت عن الدرج الملاصق لدرج عبد الفتاح ، جعلت المدرس بعد ما أسدل حاجبيه على الورقة يعود فيستفهم ناظرا نحو الولدين « سبعاوى » و « قرموط » وكانا لتوهما قد رد كل منهما على زغده الآخر بقرصة وبسمة شقية بين شفاههما ، سرعان ما تنتقل عدواها الى شفاه كثيرين من الصفوف المتاخمة مما كشف عن أن الكثيرين يفهمون طبيعة الموقف بل وها هم ينفجرون ضاحكين فكأن فى الأمر نكتة غامضة تستدعى هذه الورطة . قال المدرس : « فيه ايه » . قال ولد من

الصفوف المتاخمة كز عليه الضحك فاعتذر عن ضحكه مشيرا الى الولدين « سبعاوى » و « قرموط » فيما يردد : « اصل يا أفندى . . الحكاية « سبعاوى » و « قرموط » جيران عبد الفتاح الحيط فى الحيط » ثم أخذ يصارع الضحك والفصل كله يجدها فرصة هائلة للانفجار الضاحك ، والمدرس فى غضب ضاحك أيضا يصيح : « مش فاهم ايه الموضوع بالضبط » . قال الولد الذى ضحك : « هما اللى عارفين .. أصلهم جيرانه » . الحرج الذى فى الدنيا كلها يتجمع على وجهيهما وينظران الى بعضهما كأنهما قد أرشدا عن تهمة خطيرة تقطع لها الرقاب وكل منهما يحمل الآخر مسئولية اذاعة النبأ . صاح المدرس فى قوة : « فيه ايه يا سبعاوى انت ، وقرموط ؟ » . فتح كل منهما فمه ثم اغلقه . صرخ المدرس : « قول أنت الأول يا سبعاوى » . قال سبعاوى : « قرموط هو اللى جاره » . قال المدرس : « فيه ايه يا قرموط ؟ » . وقف قرموط دفعة واحدة كالصاروخ ، وكالقذيفة انطلقت منه الجملة مصكوكة مسرسعة : « عبد الفتاح بيطلع الطرب مع أبوه يوم الخميس هه » ثم انحط جالسا كأنه ينكر أن هذا الصوت . صوته . .

ضج الفصل بالضحك وقال المدرس وكان مهزارا كبيرا يتنكر فى وجه جاد الملامح قاسيها : « يعنى ايه بيطلع الطرب مع أبوه هه » . وهنا تطوع أكثر من ولد من الصفوف المتاخمة فشرح ما يقصده قرموط ، حتى عرفنا وتأكدنا ان زميلنا فى الفصل « عبد الفتاح خميس الجميعى » يتخلف عن الدراسة يوم الخميس من كل أسبوع لانه يزور القرافة مع أبيه الفقى حيث يقرأ أبوه آيات القرآن على أرواح الموتى . يتنقل من طربة الى أخرى فيجلس امام زوار الطربة من تلقاء نفسه متقرفصا فيستعيذ بالله من

الشيطان الرجيم ويبدأ القراءة . فان استعذب زوار الطربة صوته تركوه يقرأ الربع وأعطوه من الأسبتة الملحقة بهم بضع أرغفة وصحن قراقيش وقرص ، وربما كانوا من المبسوطين فمنحوه فوق ذلك حفنات من التمر والخروب والسودانى والفاوس ، فان لم يستعذب الزوار صوته امتدت احدى العجائز الى السبت ودفعتها اليه برغيف وبعض قراقيش مصنوعة بالزيت لا بالسمن .

هنا تناثرت التعليقات بشكل ادهشنى . فمن قائل ان الفقى خميس لا يتمتع بحب زائرات القرافة والعجائز أبدا ، فهو دائما لا يقرأ سوى الآيات التى فيها جهنم الحمراء خالدين فيها ابدا ، وخذوه فغلوه ، حتى ان احدى العجائز صرخت فيه مرة : « صلى على النبى ، صلى على النبى .. انت معندكش غير جهنم جهنم .. قال الله ولا قالك يا شيخ .. خذ يللا مع السلامة » ، واعطته شقتين من العيش المقدد نظر فيهما مدققا بعينه السليمة ثم وضعها فى جواله ونهض قائلا : « بقى كنتى عايزة جنات تجرى من تحتها الأنهار بدول ؟ ! » ، ثم انتقل الى طربة أخرى ليبدأ نفس الآية ، وقال الولد سبعاوى انه سمع اباه يقول ان الفقى خميس لا يحفظ من القرآن غير هذه الآية وبعض قصار السور . زغده الولد قرموط فى جنبه صائحا : « لا يا عبيط .. ان الفقى خميس يبدأ بجهنم ، فاذا لقى ان الرحمة فيها قراقيش وقرص بالسمن انتقل الى جنات تجرى من تحتها الأنهار » . انشال الفصل كله من الضحك وعجز المدرس عن الاحتفاظ بوقاره ، الا انه خبط بقدمه فى الأرض مثلنا وانشد جلد وجهه فجأة ودمعت عيناه واحمرتا ، ولولا انه استأنف الضحك لقلنا انه البكاء الحار .

ابدا لم يكن ككل الأحداث التى مرت وتمر كل يوم بل كل دقيقة . ثمة أحداث أو وقائع متغيرة عابرة تترك بصمات وعلامات

لا يزيلها حتى أن يذوب الجسد نفسه . أبدا لم يكن « عبد الفتاح خميس الجميعى » ابن الفقى هو نفسه الذى عرفناه قبل ذلك الحادث العابر رغم ما يحدث فى فصلنا من أحداث . فى الحصة التالية تصادف ان كان نفس المدرس « أبو المكارم أفندى » هو الذى سيعطيها لنا بدلا من جابر أفندى . ما ان بدات الحصة حتى انبثقت من عيون الشياطين نظرات تخطب ود المدرس ليستانف الكلام فى موضوع القرافة ولم الرحمة بقراءة القرآن . اشهد ان المدرس شرع اكثر من مرة فى الانسياق والاستجابة لاستفزازهم لكنه كان بالابتسام الخبيث يأمرنا بفتح الكتب مستخدما اسلوب النقر بالعصا ، انسابت الحصة وقتا طويلا والمدرس مستغرق فى شرح مسالة الحساب .. والشياطين يتابعونه فى يقظة تجب الغضب لكن تلك اليقظة التى تخفى توترا مسرحيا كانما هناك اتفاق على موضوع مؤجل مؤقتا لحين العودة اليه . فجاة زحفت على أرض الفصل ظلال كثيفة عبرت الشباك المطل على الممر ثم استدارت وامعنت فى الزحف . انتفض المدرس فى الحال ورمى بالطباشيرة فى الأرض صائحا : « قيام » . فاندفعنا واقفين فى دربة واحترام فاذا به حضرة الناظر شخصيا ومعه شيخ المدرسين ريشة افندى وافندى آخر مهيب عرفنا فى التو انه المفتش . صاح المدرس بعد برهة : « جلوس » ، فجلسنا فى صمت متوتر متحفز .

ثم ان المفتش اتجه مباشرة الى مكتب المدرس فجلس اليه وتناول دفتر التحضير وراح يفره ويؤشر بقلم أحمر فيما كان المدرس يسالنا سؤالا من الشرق وآخر من الغرب كأنه يقلبنا امام المفتش ، الذى اعتدل فى جلسته ناظرا الينا فى تأمل عميق مخيف سالنا المدرس امام المفتش واحدا واحدا وفى كل مرة ينظر

للمفتش كأنه ينتظر منه أن يقف قائلا : « كفاية » ثم ينصرف ؛ لكن المفتش ظل فى جلسته والناظر فى وقفته المتابعة ، لعله أراد أن يساعد على افشاء سر ما قد يكون فى الفصل من ضعف ، فأشار الى « عبد الفتاح خميس الجميعى » قائلا :

— انت .. قوم كمل الجواب .

لكن « عبد الفتاح » لم يكن هنا . كان شاردا كالعادة لا ينم وجهه الغليظ الأملس على انه يفكر اصلا ولذا فقد ظل جالسا كأن الحديث لغيره فبدا كأنه يتجاهل حضرة الناظر . اغتاظ المدرس وصاح : « انت يا جدع يا اسمك ايه » وكانت فى صوته نبرة احتقار . قال ولد مجاور : « أنا ؟ » قال المدرس : « لا . واشار ناحية عبد الفتاح فلم يتحرك » فصاح المدرس فى غيظ : « انت يا جدع يا .. طربى » . وهنا انفجرت القنبلة داوية لبرهة سريعة لدهشتنا لم يحدث اى شىء مخيف مما توقعنا حتى المفتش نفسه ابتسم وعوج شفتيه فى قرف ثم وقف قائلا : « ايه طربى دى ؟ » فتطوع المدرس وشرح للمفتش كيف ان عبد الفتاح يساعد اباه فى قراءته فى القرافة .. الخ . وكان يهز يديه عند انتهاء الكلام كأنه يتبرأ من أمثال هذه التلاميذ القذرة .

الحق لم يعلق المفتش بشىء . ولكن حضرة الناظر تقدم دون مناسبة وشرح لنا درسا مهما ، هو أن المدرسة يجب أن تكون مدرسة والتعليم تعليما ، اى ان التلميذ لابد أن يتفرغ للدراسة حتى يكون صاحيا عند الامتحان ، ثم راح يشتم أولئك الفقهاء المزيفين الذين يتاجرون بالقرآن ويلحنون فيه وكيف أن جهنم هى مثواهم وبئس المصير ، ونصحنا الا نتعلم منهم القراءة ان استمعنا اليهم ، فهم مجرد طربية لم يجودوا حفظ القرآن على الوجه السليم بل لم يحفظونه جيدا ، ثم انهى نصائحه بأن طلب من

عبد ألفتاح أن يقف ليجيب على السؤال الذى كان محل اجابة من قليل . فوقف عبد الفتاح كالغريق يتصبب عرقا وتختفى كل ملامحه من وجهه . وكان قد نسى كل شيء أو لعله لم يكن قد عرف شيئا ليتذكره فوقف كاللوح لا ينطق . اشار له حضرة الناظر ـ وكان قصير القامة ممتلىء الجسد ، ضيق العينين ، قاسى النظرة ، يرتدى جبة وقفطانا وطربوشا بلدى ـ وقال : « تعال .. أخرج » . انزاح عبد الفتاح من التختة قليلا يظهر جلبابه الممزق المترهل وقدمه الحافية الغليظة ووشم العصافير الأخضر المرسوم على جانبى راسه . وكان المفتش ينظر اليه فى اشمئزاز وقرف ، وكل من الناظر والمدرس ناقم عليه لانه أثار قرف المفتش . غير أن المفتش اشار له أن يعود الى درجه ، ثم عاد فاشار للناظر وللمدرس اشارة معناها : « ايه البلاوى دى ؟ ! » .. فاعتذر المدرس قائلا ان هذا الولد وامثاله حصيلة لف الخفراء على البيوت والحقول لجمع الأولاد بالقوة كى يتعلموا التعليم الالزامى . وقال أيضا ان المدارس خلاص عليه العوض قد انفتحت على وسعها ليدخلها الحفاة والشحاذون والطربية !..

سمع المفتش هذه الكلمات وارسل للمدرس نظرات غامضة ثم أشر فى دفتر التحضير تأشيرة أخيرة ثم نهض وانصرف كأنه قد زعل .

ولا يعرف حتى الآن ان كان قد زعل حقا أم لا ولكن « عبد الفتاح خميس الجميعى » لم يعد الى المدرسة مرة ثانية أبدا .

لا احد فى فصلنا ينسى هذا الموقف . أنا بالذات لم اكن استطيع نسيانه ، اذ ان ابى كان قد اصر على تحفيظى القرآن على يدى واحد من نفس ماركة خميس الجميعى اى الذين يقرأون فى

القرافة نظير الرحمـة التي يجمعونها . والحظ الأسود وحده هو الذى اوقعنى فى المحظور . وفى يوم خميس ، العن يوم فى حياتى كلهـا ، شاء الحظ العاثر أن يسافر أبى الى مدينـة دسوق لأمر ما . وجميـع أمور أبى عاجلة ومهمـة وسفره الى دسـوق لا يكون الا لمهمة ، أن يعرض نفسه على الحكيم ، أو يشترى فانلات بكم ، او يحضر جلسة القضية ، يومها كان النوم عظيمـا حين تكاثروا على وانهضـونى عن الفراش بالعافية ، وقالوا فى زغد وتلطيش مغيظ : « قوم وصل أبوك للمحطة بالركوبة » . فقمت ادعك فى عينى ، وذلك ان مهمة توصيل ابى بالركوبة الى المحطـة وانتظاره عندها عصرا هى المهمة الوحيدة التى وزعوها على من شغل الدار والحقل احتراما لكونى تلميذا فى المدرسـة ، مهمـة كانها الفسحة حيث ساركب الحمار ذا السرج خلف أبى واعـود به وحدى فأخترق بكارة الندى على الطريق والحق بموعد دخول المدرسة . لكن ابى استيقظ متأخرا واشعل فى الدار حريقـا من الغيظ والغضب وكلنا أصبحنا نداريه السكات .

غير اننى ما كـدت ادلف الى الزريبـة حتى ارتددت الى القاعة صائحا فى ولولة صبيانية .

ــ بس ده النهاردة الخميس !

وكنت على وشك البكاء . فصـاحوا جميعـا فى نفس واحد سـاخر :

ــ طيب وايه يعنى .. عارفين ..

قلت وقد استبوخت نفسى :

ــ لازم أروح النهاردة اول واحد .

قال ابى وهو على حافة الانفجار :

ــ ليه بقى ياخويا .. دا حتى النهــاردة الخميس يعنى نص يوم .. يا سيدى بلاش منه خالص !

صحت وانا على وشك الجعير !

ــ كله كوم والنهاردة كوم .. ممكن اغيب عن المدرســة فى اى يوم ممــكن اغيب عنهــا خــالص الا يــوم الخميس بالذات لازم اروح !

شرار الغضب يتطاير من عينى ابى .. أسرعت أمى لتلقف الخيط :

ــ ليه يا ابنى اخواتــك كلهم متوكلون على الله حيشــقوا طول النهار ..

ظللت واقفا مكانى والرعشة والتردد فى اوصــالى . ثم اذا بالجحيم ينفتح على من كل ناحية ، الشلاليت والبونيات تريد أن تسحقنى فى الأرض بقســوة ، ما أكاد اتماســك للنهــوض حتى تجيئنى لطمة تلصقنى بالزير فيكسر وتتطــاير أمواجه وقطعه ، وانا لا اكف عن الصراخ والبحث عن ملاذ ، حتى اذا ما التحقت بالزريبة صاغرا تعقبنى ابى بقحف من الجريد الخشبى راح ينهال به فوق جسدى حتى أدركت أنه يزمع قتلى دون شــك فلما انهكه ضربى رمى بالقحف ولهث قائلا : « والمدرســة دى ما عنتش رايحها تانى .. من بكره تسرح فى الغيط .. يللا فك الحمــار » . لم يكفه ذلك العقاب الرادع بل ركب الحمار وحده وتركنى أجرى وراءه طوال خمسة أو ستة كيلو مترات الى المحطة ..

...

فى طريق عودتى كنت انخس الحمار فيبرطع بأقصى سرعته . فما أن وصلت الى أول حارتنــا حتى نزلت عن الحمار وتركته

يأخذ طريقه كالعـادة الى الزريبـة ، ثم اندفعت أجرى لالحق بالمدرسة واريهم نفسى على الأقل ، وصحت فى شقيقتى الصغيرة منبها عليها ان تسوق الحمار الى الدار .

وكانت الحصة الثالثة قد بدات والشمس لا تزال خضراء فى حديقـة المدرسـة ، تسللت جريا فى الممر حتى فصلنـا .. لدهشتى وجدته عالى الصخب . وحين دخلت هبت فى وجهى عاصفة من الضحك المندهش واشارت الأصابع نحوى قائلة : « اهو طلع براءة » . كانت الدموع الجافـة لا تزال متصلبة فى عينى وفوق خدى ، وآثار الضرب واضحة فى كل جسـدى .. وحالة من الاعياء الشديد تضع فوق صدرى وظهرى أجولة من الظلط ، العجيب أن أحدا منهم لم يلحظ اى تغيير مما طرأ . فلابد انهم فى أمر جلل .. اتخذت طريقى الى درجى صائحـا : « فيه ايه يا عيال ؟ » قال الولد رمضـان : « تعلمش أبو المكارم افندى غاب النهاردة ! » . قلت وقد غاب عن بالى كل شىء : « طب وفيهـا ايه يعنى ؟ » قال الولد طلبـة : : اللى يغيب يوم الخميس يبقى ايـه ؟ . قلت على الفـور : « يبقى طـربى » . فاذا بالفصـل كله يرتج من الضحك . ثم اذا بالناظر نفسـه يقف فى قلب الفصل فنتسمر فى اماكننا . خرج صـوته الرفيع يزيق مثل مواء القطط :« ايه الهيصة دى .. انتوا فين .. فى الغيط ؟ .. انتوا ايه ؟ .. غجر ؟ .. حوش ؟ مواشى ؟ . شىء بارد » ، ثم استدار خارجا فى عصبية فاصطدم بالفراش فاهتزا طربوشـه ووقع لولا ان تلقفه بيديه على صـدره . لا نعرف ان كنا نحن الذين ضحكنـا أم غيرنا ، انما الذى أدريه ان حضرة الناظر استدار نحونا بنظرة حاقدة ثم شيع الى وجوهنـا بصقة تناثرت على الصفوف الأمامية كلها ، ثم خرج لاعنا اباء الزمن الأغبر الذى رخص لنا المدارس ! ..

على أنه ارتد فجاة ساحبا الفراش من خناقه ثم دفعه فى فراغ الفصل بغيظ صائحا : « مدهم لى واحد واحد » . فبدون تردد تقدم الفراش وسحب اول واحد صادفه ثم طوقه وقلبه على الأرض . كانت مناحة . عشرون عصاة اشعلت النار فى قدمى ، وكنت من فرط اللهب انتفض فتصطك راسي بالأرض وعندما دق الجرس الأخير تساندت على ولدين من حارتنا وقد تعففت عن البكاء حيث لم اجد صوتى وكففت عن التـأوه حيث يخرج من ضلوع مهشمه .

دخلت دارنا ذليـلا شـقيا لأفاجأ بصـوت أمى المشـحون بالولولة . فما أن وقع بصرها على وجهى حتى صاحت فى ضاربة صدرها بيديها فى عنف : « وديت الحمار فين يا وش الخراب .. وديته فين ؟ ! » . انهارت أنفاسي : « دانا سايبه للبنت على أول الحارة » . صارت تلطم خديها وتشد صـدر الثوب صائحـة : « اهو ماجاش .. نهارنا اسود . اجرى دور عليه » . اسـتدرت خارجا وقد دبت فى حماسـة غريبة . هل يكون قد سرح الى الحقل الذى تعود أن ياكل فيه البرسيم منذ اشتريناه ؟ بسيطة . ذهبت الى « الحوض الجديد » ، مسحت الطريق بعينى فلم أر أثرا سـوى الشـمس كتـلة لهب والأرض فرنـا وجسـدى هو الرغيف . ايكون قد عثر عليه احد أخوتى فاصطحبه الى حوض « أم ملوخية » حيث يعزقون ؟ . بعد نصف سـاعة كنت هنـاك . فلما علم اخوتى بالخبر صـاروا يولولون كلهم وانـا أبعث بكاء كالزئير المكتوم . حتى جاء على صـوتنا رجل أستطيبه دائما هو عم فرحات الجناينى ، جناينى هو لكنـه يعرف الحى كله وملم بأخبار تجـاره واعيانه واشقيائه ، ويبيع الفاكهة فى الأسـواق على نطـاق واسع . انفتحت أبواب السماء حين استوقفه حالنا ،

فلما علم بالتفاصيل قال بكل بساطة : « ع العموم انا عارف اللى باع لكم الحمار .. وانا دلوقت رايح بلدهم اشترى بردعة .. حد منكم ييجى معاية يسأله ليكون الحمار رجع له تانى » . صاح أخى الأكبر : « اركب وراه ياد بسرعة » . ثم ساعدنى على الركوب خلف عم فرحات .

بعد مسيرة طويلة دخلنا القرية الصغيرة . ثم أننى رأيته فجأة فارتعدت مفاصلى ودفنت راسى فى ظهر الجناينى . وقلت : « مش معقول » . قال الجناينى : « مالك » . قلت : « اصل شفته » . ضاح وهو يهم بالنزول : « الحمار ؟ » . كتمت ضحكي صائحا : « المدرس بتاعنا .. أبو المكارم أفندى » . قال الجناينى : « ما هو من هنا .. دى بلدهم » . وكان المفروض ان أنزل واضرب له تعظيم سلام .. كما نفعل كلما صادفنا فى الشارع أحد مدرسينا لكننى لم أكن فى حال تصلح لأى شيء فاخفيت راسى فى ظهر الجناينى .

تملكنى الرعب حين رأيته يحود فى نفس الحارة التى نتهيأ لدخولها غير انه اختفى فى أول بيت فى الحارة ، وتوقفنا أمام البيت المجاور حيث خرج لنا صاحبه مرحبا بنا .. ودلفنا الى وسط الدار فاتتعدنا مصطبة رفيعة .. سألنى الرجل عن صحة أبى وعن حال الحمار ، فاندفعت أبكى ، تطوع الجناينى بحكاية القصة ، فزام الرجل فى اسف حقيقى وأكد انه لم ير الحمار منذ باعه . نهض الجناينى واقفا وطلب أن يتركنى وديعة حتى يذهب الى مشواره ويعود ليأخذنى. فرحب الرجل بذلك وقال أنها فرصة لعل الحمار يجيء خلالها . ولما خرج الجناينى نصحنى الرجل بأن إتمدد قليلا لاريح جسدي المتعب . كانت المصطبة

ممتدة فى الدهليز بجوار حائط قزم يفصل بين بيت الرجل وبيت « أبو المكارم أفندى » ، فقلت للرجل : « انتوا قرايب أبو المكارم أفندى ؟ » فقال الرجل ان أبا المكارم أفندى اشترى من أخته نصيبه فى الدار وجاء ليشاركهم فيها فأقام هذا الجدار الفاصل مؤقتا . واذا بصياح يرتفع أواره من دار « أبو المكارم أفندى » الذى ميزت صوته يصيح : « يا راجل اتكسف » .. يا راجل عيب عليك .. انت السبب فى الفضايح دى كلها » .. واذا بالجدران تهتز فى عنف ويعلو الصياح والصراخ ، فخرج الرجل يجرى قائلا « عن اذنك أصالح الفجر دول واجى » . وكان قد بدأ يفد من دار « أبو المكارم أفندى » صوت مشروخ مخذول يقول : « يستعر منى .. اعمل ايه أروح فين .. دى شغلتى اللى اتربيت عليها وربيته منها أبطلها ازاى وأبطلها ليه ؟؟ » . واندمج فى بكاء ظل يتباعد حتى اختفى .

طال بى الوقت وحدى فسقطت فى بئر النعاس ، فرأيتنى اضرب فى طرقات تفضى من جميع اتجاهاتها الى خلاء موحل موحش يكتنفه ضباب ورعد . وكنت لا ازال أرتعش حين ايقظنى الرجل فى لطف الأجد منظرا بهيجا : الحصيرة مفروشة تتوسطها طبلية كبيرة حافلة بالطعام و .. من هذا ؟ .. دعكت عينى وصحيتها وتأكدت من انه أخى الأكبر . قلت فى نفسى أن أمى أرسلته ليلحق بى قبل ان أفكر فى الطفشان ، ثم نزلت أتغدى .. وقلت للرجل : « هو ايه اللى حصل فى بيت ابو المكارم أفندى ؟ » . قال : « الحكاية وما فيها انه عايز ابوه يغير شغلته .. أصله لامؤاخذة طربى » . سقطت الملعقة من يدى وصحت : « .. طربى ! .. أبو المكارم أفندى .. أبوه بيشتغل طربى ؟ .. لا اله الا الله » .

ثم اتصدت نفسى عن الأكل تماما وصرت امسح يدى وفمى . صاح الرجل دهشا : « ايه ده .. كل » قلت انني شبعت والله ، ابتعدت عن الطبلية . فمال اخى الأكبر على اذنى هامسا انهم عثروا على الحمار سارحا فى خرابة العكايشة !

(★) ٨ ديسمبر سنة ١٩٨٠ .

قلب خساية

كان وجهه ـ بكل طفولته الشقية البلهاء ـ أول حاجز سقط بيني وبين خطيبتي كجدار من الهم الأسود . لم يكن ابنها بالطبع والا ما تزوجتها أصلا ، لكنه كان أخاها الذي ولد وهي فتاة في سن تجتذبها الأمومة ، فعنيت به وليدا ثم طفلا فنشأ لا يعرف سواها أما ، ولا يستغيث الا بها عند الحاجة . ويوم خطبتها لم أعن بكل هذه التفاصيل ويوم خطبتي كنت قد صرفت كل مدخراتي الا أقلها دون أن يرمش لي جفن اذ انا قد وصلت اخيرا الى بلوغ اللحظة التي تمنيتها وجئت أصنعها في قريتي : أن آخذ خطيبتي الريفية البريئة نصف المتعلمة هذه وأسافر الى المدينة المتاخمة يوما أو بعض يوم أداوي فيه كل جراحاتي القديمة وأمارس الحياة محبا لا تطارده المشاكل والمقلقات ، وأتعرف على شخصية خطيبتي من تكون وما هي الحلاوة التي تعدنا بها الأيام والسنون المقبلة ، فهي اللحظة التي تفصل بين عهدين حاسمين في حياتي ، ولسوف أعيشها صافيا لها وحدها ، لأول مرة سوف أمنح نفسي بكليتي للحظة ، لحسابها أنفق واعطي كافة الحواس ، لأكون ـ اللحظة ـ أنا نفسي ، أنا قلب الخساية بعد أن تزال عنها كافة الأوراق والأغلفة التيلية وتصير مقشرة تنضح بالندى ، وبل الصدى . الثقة في نزاهتي وشرفي

معروفة مسبقا ومؤكدة لدى أصهارى ، ولهذا فهم لا يفعلون حركات قرعاء كلما انفردت بها . وليس ثمة من رقابة متطفلة على الاطلاق، بل حين عرضت فكرة السفر الى المدينة كتتويج لحفل الخطبة والخروج منه الى شرنقة المحبة والتآلف رحبوا كل الترحيب وتطوعوا بتقديم الخدمات وتسهيل مهمة السفر قدر الامكان ، حتى سائق السيارة الملاكى سوف ينزلنا فى المدينة وينصرف الى شأنه ليعود فى الوقت الذى نحدده فى المكان الذى نحدده ..

وكانت خطيبتى قد سبقت الى السيارة فجلست وحدها فى المقعد الخلفى ودعيت انا للحاق بها ، فالقيت نظرة اخيرة على المرآة تعرفت فيها على بعض ملامحى الحقيقية وسط ما صنعته فى نفسى من مظاهر احتفالية عالية المزاج . وخرجت أربط زرار البدلة وأهرب من نظرات المجاميع التى وقفت بلا حصر هنا وها هنا لتشييعنا بزغرودة او اكثر . وكان كل شىء مبهجا الى اقصى حد . فلما فتحت باب السيارة مثل البيك الصحيح ، أعدت اغلاقه بعد دخولى مثل البيك الأصح ، زحفت فى رصانة حتى التصق كتفى بكتف خطيبتى ؛ رحت اهرب مرة اخرى من نظرات العشرات من الصبية والولدان والرجال والنساء الواقفين ينظرون الينا كأننا نصور مشهداً فى فيلم . تقع عينى على ظهر السائق من عرض كتفيه وانسياب الكتفين من العنق حيث تنفصل الرقبة عن الجسد بدائرة جميلة من الأقطنة ، والطاقية الصوف كزهرة اللوتس مقلوبة على راسه ، استشف نبالة أصيلة وافخر بينى وبين نفسى ان هذا الرجل الشهم ينتمى الى أسرتى ولو من بعيد . وكان هو يقوم بتسخين السيارة غير ملق باله الينا . واذا بعويل حاد يصك مسمع الكون كله بلوعة مشروخة قائلة : « أختى آه .. سيبونى .. عايز اختى » ، وعشرون رجلا وسيدة وصبيا يتكاثرون عليه ويمنعونه برفق تارة وبعنف تارة أخرى ،

ولكن اى قوة فى هـذا الكيان الضئيل ؟ فى الثالثة أو الرابعـة من عمره ولكن قدرته فى مقاومة القوم والخـلاص منهم كانت أعتى من قوتهم جميعا . كانت كجمرة من لهب يأبى الا الاندفـاع نحو سيارتنا حتى لو دهستها العجلات ! .

وكان لابد ان يهتز قلبى وينكسر . لقد بذلت طاقـة كبيرة لازعم لنفسى انه مجرد طفل سخيف من اطفـال الجيران ، وكدت انزل وأداعبـه واراضيـه حتى يهـدأ . ولكننى فوجئت بانه « أشرف » ، اى شقيق خطيبتى الأثير . فنظرت فى وجهها فوجدته جمرة لهب تريد ان تلتحم به فى الحـال ، وصارت تضرب صدرها قائلة فى شفقة ملتاعة : « يا حبيبى ياخوية ! » . فخيل الى من عظم لهجتها وخفوت صـوتها أنه مات . لكنهـا بسرعة فتحت الباب المجاور لها قائلة فى صوت كمأماة المـاعز : « تعالى ياخوية .. تعالى يا أشرف » . وكان هو قد افلت من ذراعى أبيه المفرهدين واندفع الى حجرها يكمل عواءه النكير .. نظرت فى وجهـه بقليل من الحقد ، وصفـان من الدموع الغزيرة ، ينهمـلان على خديـه ويلتقيان مع ما تفحه أنفه من غثاء . وحقدت عليه أكثر حين رأيت نفس الصفين من الدموع ينهملان على خدى خطيبتى ويفسـدان زينتها تماما . وتضـاعف حقدى عليه حين رايتها تربت عليه فى حنان وتأخذه فى صـدرها قائلة له انها خلاص قد عادت اليه ولن تتركه ثانيـة ، ثم تخرج منديلها ـ واحدا من الدستة التى أهديتها لها ـ تمسح كل وجهه ، فكأنما دهنت وجهه باللزوجة فأطبقت المنديل واعادت تنظيفه جيدا . وكان الأحرى بها أن تلقى المنديل من النافذة الى الشـارع مبـاشرة لكنها دون تردد أعادتـه الى حقيبتها . ثم اذ بها تفعل ما اذهلنى ودمر كل قواى ، اذ بكل بسـاطة أمرت السائق قائلة : « اطلع يا عباس » .

اطلع يا عباس ؟ ! لكننى لم انطق ، وتركت عباس يعطى الأولانى للسيارة ويدوس البنزين وتتحرك السيارة ، فظننت ان فى الأمر ثمة خدعة تناور بها على أشرف وسرعان ما تنفرد بعدها . وظل السائق يتلكأ فى الشارع العمومى لحظات طويلة ولكنه لما وجد الصمت مطبقا داس على البنزين وانعطف الى الطريق الزراعى فى اتجاه المدينة . فما أن استقلت السيارة بالطريق حتى رايت خطيبتى تفعل ما احالنى الى خرقة بالية ، اذ وضعت أشرف بينى وبينها فاضطررت صاغرا وأنا فى غاية الانكسار ان انزاح موسعا لجسد أشرف ، وتكرمت عليه فاعطيته بعض الراحة ، وخفت أن تبدو أبوتى المنتظرة محل شك فربت على ظهره ومسحت شعره فى ود مفتقد ، ثم اشعلت سيجارة وبقيت صامتا طوال الطريق . وكان الطريق طويلا ومحاطا بالأشجار والمزارع والنباتات وهو طريق بعيد جدا غير مطروق ، ولكن قريبى السائق المجامل فضل ان يسافر بنا منه لاعطائنا فرصة للابتهاج والهدوء مدة اطول كنوع من النزهة وهى بالفعل تستحق أن تكون هكذا ، لكننى فجأة وجدتنى أفكر فى مسائل عويصة جدا تجلب الهم . بدأت اتذكر ما سادفعه وأرده وانفق منه حينما أعود منفردا الى المدينة ، ماذا سيترتب على كذا وماذا سيحدث لو لم ، وماذا ينتج اذا ما .. الخ .. وحين اطفات السيجارة فى أرض السيارة بقدمى فوجئت بكومة من الأعقاب خلفها ، فوسعت ما بين ساقى ، وبلدة عجيبة اشعلت سيجارة أخرى واسلمت نفسى من جديد لمقعد السيارة يحركنى كما يهوى ، دماغى يسابق الأشجار واعمدة التليفونات فى السعى وراء حلول لمشاكل مادية وسكنية وعملية ووظيفية ، هى نفس المشاكل التى تستغرقنى فى المدينة كل يوم بل كل برهة عند اليقظة وفى المنام ، لكننى

فوجئت بها تنهال على كأنها دماء كل هذه المشاكل وقد تم تكريرها وها هى تتدفق الآن فى كل عروقي وشراييني •

ثم ان خطيبتى غمغمت كمأماة الماعز قائلة : « ايه ده مش تقول له ازيك يا أشرف حمد الله على السلامة يا أشرف ! ؟ » . فهززت رأسى قائلا فى بسمة بلهاء : « آ .. آ .. ليه خير .. هو كان فين ؟ » . قالت : « بالسلامة على وصولنا .. مش خلاص بقينا فى المدينة » . ونظرت فوجدتنا قد دخلنا المدينة بالفعل . وفوجئت باننا مطالبون بالنزول من السيارة فنزلت • ونزلت هى ساحبة أشرف من الآخر . ورجع عباس وعدل السيارة نحو الرجوع قائلا فى ابتسامة نصف سعيدة : « طيب .. يوم سعيد على كل حال .. ان شاء الله امتى وفين ؟ » فنظرت الى خطيبتى كأنها المنوطة بالأمر . فنظرت هى بدورها الى متسائلة . فقلت بقليل من الحرج أننا سوف نلف بعض الوقت ونتغدى وان على عباس ان يقابلنا على هذه المقهى عند أذان العصر مثلا • فلوح لنا بيده وانطلق ومضيت بجوار خطيبتى صامتا . الشارع هنا ليس للمشى أبدا ، ولهذا فان اجسادا وسيارات وموتوسيكلات قد فصلت بيننا ، وصارت خطيبتى تطلق الصوات فى الشارع خوفا على اشرف ! . وكنت أتوقف عائدا اليها فى كل مرة مرتعبا تتدفق الدماء فى وجهى خاصة بعد أن يتدخل بعض السابلة فى احتواء خطيبتى وفرض العناية عليها ..

ولم يكن قد بقى فى ذهنى ثمة برنامج . وكانت البدلة السوداء الأنيقة قد تغيرت والقى عليها بتراب الشارع كله ، وتعبت خطيبتى من قرص الحذاء لكعبها . جلسنا على المقهى ثم اشترينا هريسة لأشرف وشاركناه فى اكلها ، ثم شربنا « حاجة ساقعة » ثم قهوة لى ثم اخلدت الى الصمت تفرجت خلاله على

الناس والباعة المتدافعين ، ثم قالت خطيبتى : « حنروح فين بعد كده ؟ » قلت : « هو احنا كنا عايزين نعمل ايه هنا ؟ ! » . قالت : « أنا عارفة ؟ مش انت اللى قلت السفر السفر ؟ » . قلت فى سأم : « آه صحيح مش عارف » ثم تذكرت فافتعلت بعض الابتهاج صائحا : « آه .. المصوراتى .. اهم شيء .. المصوراتى ياللا بينا نتصور » . وقمنا . القينا بانفسنا فى نهر الشارع من جديد نرفع رءوسنا هنا وها هنا لالتقاط اللافتات التى تنبىء عن مصور . وتذكرت ان اسم مصور بعينه كان فى مفكرتى اقترحه أحد اصدقائى لكننى تكاسلت عن اخراج المذكرة من جيبى ، وما ان رايت لافتة مصور حتى صحت قائلا : « آه .. يلا » وعرجنا عليه فاذا هو أحقر مصور فى البندر ــ لكننى مع ذلك تغاضيت وجلست معها واشرف فى غرفته المظلمة القميئة ، وحين دعينا للتصوير كان أشرف يتشبث بذيل شقيقته فى ذعر وهى لاتنى تطمئنه وتداعبه . وقال المصور : « انتو لتنين مع بعض ؟ » . فقلت : « أيوه » . فصاح آمرا : « تعالى هنا يا شاطر » فانفتحت ماسورة البكاء الجارف المغيظ تغرق قاعة التصوير فانقلبنا جميعا نساكته ونعالجه ونسترضيه بكافة الأساليب دون جدوى . ولم يكن ثمة من مفر ، اذ جلست خطيبتى على مقعد التصوير واضعة أشرف على حجرها . فجلست بجوارها ، وبدون ارادة منى جعلت فاصلا قليلا بيننا توقعا لمثول أشرف ، وبالفعل أنزلته أخته وحشرته فيما بيننا فانزحت عنه كاننى أتحاشى وباء .. والتقط المصور ما شاء من صور ! ..

وخرجنا من محل المصور . وطلب أشرف بالونا فاشتريته ، وشخشيخة فاشتريتها ، وفانوسا فاشتريته . فتجرأ وطلب تفاحا فاشتريت كيلو . وقالت خطيبتى : اين نذهب بعد ذلك ؟ . فقلت : الى الحاتى لنتغدى . قالت : « ماليش نفس دلوقت » .

قلت : « ولا انا .. لكن نروح يمكن يطلع زحمة نحجز مكان » . بالفعل كان زحاما . وأكلنا ، وكان أشرف يترك طبقه ويأكل من طبق أخته . ثم خرجنا من عند الحاتي وقد فككت آخر عشرة جنيهات فى حوزتى ، رد لى منها حوالى ستة جنيهات، وقالت خطيبتى : « أين نذهب بعد الآن ؟ » . قلت : « لا أعرف » ثم وجدنا انفسنا تلقائيا نتخذ طريقنا الى المقهى الذى ينتظر فيهما عباس . فلما وصلنا كان قد بقى على أذان العصر ساعات . قلت لخطيبتى : « بعد أن نستريح قليلا نفكر فى نزهة قصيرة نعود بعدها لملاقاة السائق » . فقالت : « نعم » ثم جلسنا نشرب الشاى . وفوجئت بأن خطيبتى كانت قد لفت بقايا الكباب المتبقى من أكلنا عند الحاتى فى ورقة وحشرته فى جيب أشرف خوفا من الجوع فى الطريق ، فنزع اللفة وفردها واستأنف الأكل من جديد وصارت هى تساعده وتعنى به . أحسست بالضيق والملل ، فاستأذنت لأشترى سجائر وخرجت انتفس فى الشارع . رحت وجئت على الرصيف عدة مرات فى بطء شديد . وكانت مشكلتى مع زملاء الجمعية التى قبضتها مقدما استعانة بها على خطوبتى قد راحت تعاودنى من جديد وتلح على : كيف سألتزم بدفع هذا المبلغ الكبير كل شهر أنا الذى يتوزع راتبه الشهرى قبل رجوعى الى البيت . وحتى وصل عباس لم أكن قد عثرت على دليل واحد يقنعنى بالقدرة على دفع المبلغ ..

كل هذا كوم ، ويوم الدخلة كوم آخر . فالذى حدث اننى عدت الى مدينتى البعيدة ومكثت بها سنوات خمس أدبر مسكنا ، ثم أعاننى الله بشكل ما ووجدت الى الدخلة سبيلا ميسرا فدخلت ، وكان أعجب زفاف . كنت قد نسيت أمر أشرف طول السنين الفائتة رغم أن خطيبتى كانت دائما تبعث لى سلامه

فى خطاباتها التى لم تكن تدور كلها الا حول اشــياء بعينها لا تخرج عنها بحرف واحد : ماذا فعلت فى كذا وماذا تم فى الأمر الفلانى وهكذا حين تجمعت خطاباتها صدفة أمام عينى ابان التجهيز للدخلة نظرت فى محتواياتها فتيقنت اننى عثرت ، ليس على من يرافقنى ويشاركنى عبء الحيــاة بل على من يشارك الحيــاة فى عبثها على ! . لكنى قلت ان الانســان دائما يبحث عمن يقوم بخدمته فيعثر دائما على من يقوم هو بخدمته وهذه هى سنة الزواج فى بلادنا .. وذهبت لاقيم « الفرح » وتم كل شىء فى شكل طبيعى مثل أى دخلة فى أى « فرح » . العريس فى القريــة يتلقى دعوة من أحد أقاربه المتناثرين فى أنحــاء القرية لكى يستحم فى داره ، حيث يوزع على شرفه الشربات وحيث يخرج من الحمــام الى الزفــة مباشرة ، اذ تكون فرقة المزيكة البلدى بقيــادة الريس « صاوى » قد اقامت أمام الدار سامرا مؤقتا تجمع على أصواته كل المحبين فراحوا يرقصون ويلعبون الحطب ، ويخرج العريس مرتديا كامل ثيابه وحليه وعطوره ، وخلفه اثنان أو ثلاثة من أصــدقائه الخلص أحدهم يمسك بكرسى صغير ليجلس عليه العريس فى الطريق ، واذ يخرج تنتعش المزيكة فجاة بانغــام راقصة مزغردة مصحوبة بهياج وصياح من المحتفلين . ثم تخرج صــوانى الشربات المزركشة وعليهــا الأكواب حول الدورق ، حيث تلحق بها صينية أخرى ودوارق منفردة كثيرة تعود فارغة فى لحظات ، وتتطــاير الزغاريد من اسطح الجيران على سبيل التحية العابرة . ثم يبدأ الموكب سيره . عادة يختــار طريقا يدلف بهم الى شارع داير الناحية لكى يتاح لكل عائلة فى القرية أن تعبر عن موقفها تجــاه صاحب الفرح أو مدى صلتها به . وصاحب الفرح يعرف مقدما عند اى بيت من كل هذه البيوت يقف متأنيا ، والركب على صفين متقابلين والعريس بينهما فى الصــدارة ، وأمام الموكب فرقة المزيكة ؛

والصفان يرددان معا بالتناوب على أنغام المزيكة : « اللهم صلى على محمد يارب صلى عليه وسلم » ، وصوت المزيكة يلعلع بينهما فى ابتهاج . صاحب البيت تخرج طلائعه بصوانى الشربات، ثم يوسعون لأنفسهم مكانا ويتحزمون ويرقصون وحتى يصل العريس الى دار العروس يكون الليل قد صعد الى المنتصف وتكون العروسة قد خرجت من تحت يد الماشطة مجلوة مع مقدم المساء حيث ترتدى فستان الزفاف وتصعد الى كرسى وضع لها فى صالة الدار ، حيث تكون المغنية قد راحت تدق على طبلتها مغنية وسط جمع من أهل العروس وصويحباتها . واذ يصل الموكب يدخل العريس مخترقا التجمع النسائى الى عروسه مباشرة ليكون فى انتظاره كرسى بجوار العروس ، يجلس عليه لمدة نصف الساعة أو أكثر ، ثم ينهض متابطا ذراع عروسه ويمضى بموكب المغنية ودفوفها الى منزله اذ يدخل بعروسه وينفض الحفل .

كونى موظفا فى المدينة الكبيرة لا يعطينى حق التعالى على هذه الزفة مهما كانت وجاهة الأسباب . وقد أديت كل الطقوس بكل راحة واطمئنان وبساطة ، ولقيت فى الزفة ما أطربنى وهزنى وجعلنى أوقن اننى بالفعل مقبل على لحظة تاريخية نادرة فى حياتى ، فتهيأت لكى أعطيها كامل نفسى وأعيشها بقدر ما اكتشف فى نفسى من صفاء ..

وهكذا ودعتنى المزيكة بالزغاريد واستقبلتنى طبلة المغنية المائجة وأغنياتها المشجعة المستفزة لرجولتى وجيبى أيضا . فلما استويت جالسا بجوار عروسى لم يكن صوت المزمار قد اندلع بعد ولا صوت المغنية قد هدأ ، لكن صوت النكير كان هو الأعلى لا يمكن أبدا أن يكون هذا الصوت الجهير المريع من حنجرة طفل فى السابعة من عمره . صوته قادم من الحجرة الداخلية كأنه ثور

يتعرض للذبح عنوة .. كان صياحا ملتاعا مقبضا يتأوه « تعاليلى يا أووختى .. آآه .. ه .. » وعبثا حاولوا تجاهله ، اذ انقلب الى رعد يهز الجدران ويغطى على اى غنـاء واى طبل .. وكانت العروس ـ شقيقته تعتصر عيناهـا دمعـا متواصـلا وتضغط على أعصابها بكل قوتهـا فى توتر حتى خيـل الى ان شرايين دمهـا ستنفجر . وعلمت من النسوة الملتمات خلف جلستنا انهم كانوا قد أعطوا الولد قرصا منوما وحبسوه فى الحجرة الى ان تتم الدخلة ، وانه قد افاق واكتشف الخديعـة ففزع صائحا هكذا وصار يضرب الباب بقبضته .. ففتحوا له . فاندفع يجرى نحو اللمة يضرب كل من يصادفه بالبونية والرجل ، ويشتم بألفاظ قبيحة .. فأفقت باننى قد صرت أكرهـه جدا .. وكان اهـله يضحكون لأفعاله فى محـاولة لتغطية شعورهم بالحرج والحيرة ..

ثم اذا به يقفز جالسا على حجر العروس ، ومن توتره وهياجه يتشقلب فتجىء احدى قدميه فى وجهى واخرى تلوث شياكتى .. فاحتضنته العروس فى صـدرها بقوة ثم وضعت راسـها فوق راسه ثم طلبت كرسيا صغيرا فجىء به فحشرته فيما بيننا قائلة : « اقعد ياخويه » . فجلس يمسح دموعه بكم جلبابه . واستأنفت المغنية غناءها كأن شيئا لم يكن . واستأنفوا الهيـاج والرقص والغناء لمدة ربع الساعة . ثم نهضت المغنية فنهضنا فاذا بالعروس تمسك بيد أشرف وتنظر نحوى فى غيظ قائلة : « امسك ايد أشرف الثانية » . فامتثلت صاغرا وفعلت ، وشـاركنا المغنية فزفتنا وأشرف بين يدينا من منزل العروس الى منزلى ، حيث تعين على ان انفرد بعروسى فى غرفة واحدة وينفض الحفل . والذى حدث ان الحفـل قـد انفض بالفعل ولكن اشرف لم ينفض ولم يرد الانفضاض . وكان قد دخل معنا حجرة النوم وجلس بجوار أختـه

فى مواجهتى يشاركنا الأكل من برام « الاتفاق » ويبعثر الأرز على الأرض والفراش بغزارة . ثم شرب الشاى معى ، ودخلت العروس لتبدل ثيابها فدخل وراءها ، ثم عاد وراءها ممسكا بطرف قميص نومها ، ثم جلس من جديد فى مواجهتى ، فصرت أتأمل جبهتــه ووجهه المستطيل الابله الغليظ الشفتين ، واعض على نواجزى ويكاد يعترينى هيــاج عصبى حاد ومدمر ، لولا اننى كنت أتماسك فى آخر لحظــة واحتمل . وقمت فخلعت ثيابى وألقيت بنفسى على السرير متهالكا قرفانا وانا أقول لعروسى : « تصبحى على خير » ودخلت حماتى على الفور وانقضت عليه ولكنه أطلق جعيره مقدما حتى سحق قلبى من الرجفــة والاضطراب ، وصحت فى حماتى بغيظ : « سيبوه محدش يكلمه » ، ثم اعتذرت عن لهجتى قائلا فى هدوء يتشبث بابتسامة : « سيبوه ينام معانا مش مشكلة » . وكأن العروس كانت فى انتظــار كلمتى اذ ابتسمت فى ســعادة قائلة : « صحيح .. طب خلاص يا ماما روحى أنت » . وهكذا نام أشرف بينى وبينها فى الفراش فى ليلة الدخلة . وما كدت أضع رأسى على المخدة حتى غرقت فى قرار النوم الى قاعه البعيد .

قالوا انهم جاءوا بالطبل البلدى لكى أصحو ، وصــارت « مثلة » فى البلد يوم الصباحية ووقع بصرى أول ما وقع على أشرف وهو على حجر عروسى يأكل الكحك والتبور من أطبــاق الصباحية فى صــورة مقززة . وسلم الجميع على يدى بطرائق ذات معنى واحد هو حسدى على أننى فطسان هكذا . وقال بعض الأهل فى احتجاج : « خير يا راجل .. مفيش حد يقابلنا ؟ » . نظرت الى أشرف وقلت : « ألم يكن أشرف فى استقبالكم ؟ » . ففرحت لانهم لم يكتشفوا نبرة الحقد الشــديد التى اكتشفتها أنا نفسى فى صوتى بعد برهة ..

مكثنا فى ضيافة اخى حوالى أسبوع كان اشرف خلاله قد تسلط علينا تسلطا دموى المزاج حقا . لعب بأعصابنا كأنها الكرة الشراب بين قدميه ، ما أن نتوهم اننا صرنا متوحدين وما ان تبداالقنطرة فى القيام بينى وبينها حتى يندفع الباب مرة واحدة فيصك الحائط فى دوى مفزع ، واذا بأشرف يرتمى على الأرض داخلا ، ثم يغلق الباب خلفه ويتجه مباشرة الى حضن أخته التى تتهيأ لاستقباله فى الحال ، فاحس بوجهها قد تورد توردها الحقيقى وبصوتها قد نبر نبرته الحقيقية وبمشاعرها قد عبرت التعبير الصحيح عن نفسها ، وهى تحتضنه وتكلله وتهننه وتهدهده وهو سابح بعينيه فى شرود حالم مستمع أبله ، ثم انه يسمع صوتا فى الشارع أو يتذكر قرشا نساه لدى بائع الفرارير فيندفع خارجا ملقيا فى روعنا انه سيغيب وقتا فى البحث عن بائع الفرارير ، اذا باخته تلقائيا ودون أن تدرى تهتف به قائلة : « ما تغيبش يا أشرف أوعك تتوه ما تروحش بعيد » . فيضحك فى عبط سمج ، ويمضى ، فتغلق الباب هذه المرة بالترباس ، لكن الزهق يكون قد أصابنا ، فنخدع أنفسنا لبرهة طويلة بالحديث فى أشياء عامة ونمعن فى استبعاد اى اتصال للمشاعر خوف انقطاعها بعد برهة ، وغيبة أشرف تطول بالفعل حتى يلعب الفار فى عب شقيقته فتفتح الباب وتبعث فى طلب السؤال عنه ! .

ويوم عودتى بها الى المدينة كنت قد ايقنت من أن « أشرف » ليس هو الحاجز الوحيد بينى وبين زوجتى ، بل ثمة حواجز اخرى كثيرة ، وكلها حواجز من نوع غريب ، انها حواجز لا تحيط الا بالمناطق التى ارغبها فيها على التحديد لتمنعنى من الاقتراب منها : لقد كنت أحتاج منها ـ فحسب ـ هذه الحالة التى تمتريها عندما يكون أخوها أشرف « بين ذراعيها » لقد

احببتها وخطبتها دون تردد لاننى ذات يوم بعيد كنت فى زيارة للبلدة فرايت زوجتى هـذه تحتضن أخاها هذا ويتورد وجهها كانه لهب عظيم يتكلم ، وتصب فى اذنيه هديلا جميلا يرعش البدن من فرط ما فيه من حنان دافق واحتواء .. ولم اكن اظن أن هذه الميزة وقفـا على اخيها أشرف وحده ، وان محـاولة انتزاعهـا منه مسالة محفوفة بالمخـاطر . وكان الأمر قد تضخم فى نظرى ، ربما بسبب الاتصـال الذى لم يتم بينى وبين اى شيء أو أى احد ها هنا ، وربما بسبب من شـعورى باننى قد عدت الى هـذه القرية وحيدا بلا رفيق ، وهانذا بعد رحلة الخطوبة والكدح فى سبيل الدخلة اخرج منها وحيدا كما كنت وان صار لى رفيق اتحمل مسئوليته . مع ذلك كنت أحاول أن اسخر من الموضـوع برمته ومن الحياة ، وخشيت ان اصنع من « أشرف » غريمـا لى فاكون قد صفرت فوق خسران ، فقررت الا أقيم لأشرف أى وزن فى الأمر وان يكون وجوده فى حيـاتى امرا معترفا به الى أن تعالجه الأيام وتعالجنا فيكبر ونشيخ . ولذلك حينما ذهبت الى السيارة لأركبها عائدا بزوجتى الى المدينـة الكبيرة محل عملى فوجئت باشرف يجلس بجوارها ذليلا من فرط ما بذله من جهد خارق فى البكاء والعويل ، يبدو كاليتيم اللطيم لا صـلاح عنده سوى البكاء بصوت نكير . فاعتبرت الأمر طبيعيا وجلست بجواره. لكن أم حماتى ـ وهى عجوز متينة البنيان ـ جاءت تلف نفسها فى الملس الأسود مهرولة نحو السيـارة ، ثم فتحت الباب المجـاورة لى وحشرت نفسها بجوارى فحشرت نفسى بلوری فى اشرف الذى بكى وصار يضرب بيديه ورجليـه فحملتـه أخته ونيمتـه على صدرها ومع ذلك لم افكر فى استغلال المسافة التى تركهـا ! .. وقالت العجوز انها جاءت لتتفرغ للعناية باشرف والهائه عن أخته قليلا ، فرحبت بها قائلا اهلا وسهلا .

ثم اننا سافرنا .. وبالطبع لم تستطع العجوز الهاء أشرف او انتزاعه من حضن اخته فى الليل أو النهار ـ فادركت انه لا العجوز ولا انا ولا اى قوة تستطيع أن تنزعه ، الا اذا انتزع شيء ما فى قلب زوجتى فى صدرها فى كل عروقها يجرى ، الا اذا انتزع من جوفها الكبير هذا الشيء الصغير الذى يشبه قلب الخسابة ، وهذا مستحيل . وكانت زوجتى تحس بمدى معاناتى ، وتحس كم انا بعيد عنها وكم هى بعيدة عنى كأننا بعض اقارب نسكن فى شقة واحدة فحسب ولكنها كانت تبدو عاجزة تماما عن فعل ما يرضينى ، وقد اظهرت رغبتها وحاولت أن تعطى نفسها لى بصفاء واهتمام من وراء ظهر أشرف ، الا انها كانت تبدو كعروس محشوة بالقطن الرطب لا أكثر فكانت تبكى حين ترانى مهموما وتتمنى أن تجلب لى السعادة ، لكنها لا تعرف وانا بدورى عاجز عن التعبير عن دواخلى . ولهذا التمست لها الاعذار ولم اكرهها ولكننى ابدا لم انج من كره اشرف . ويبدو انها كانت تشعر بشعورى ذاك فتتعمد فضحه قائلة فى كثير من الأحيان . « مش تقول له صباح الخير يا أشرف ؟ » فأعلق على وجهى ابتسامة لزجة واغمغم بكلام مبهم . وكانت تضبطنى متلبسا بالنظر فى وجهه بكثير من الغيظ الدفين كأننى أستقبح كل شيء فيه . انفه الذى يشبه الجزرة ، وجهه المستطيل الشاحب الذى يخلو من التعبير على الدوام كأنه وجه مصمت ، أما ان تهيأ للبكاء أو بكى بالفعل فيا حفيظ وياسبحان الله على خلقته ، التى تتكرمش فجأة ويتعوج الفم وينفتح كماسورة المجارى بدفق مزعج رهيب، فتملق وهى ـ اى زوجتى ـ من اشمئناطى قائلة فى ذكاء : « ايه .. مش عاجبك شكل أشرف ! » ، ثم تمصمص بشفتيها فى تعجب وتحسر ، وتضيف بمواء : « مش عاجبك الجمالات دى كلها والسماسم دى كلها ؟ ! » . فأسد اذنى تماما عن كل ما قالت واغلق عينى عن كل ما فعلت .

والزواج فى محيط امثالنـا شيء يحـدث فى العمر مـرة واحدة .. وأمثالنا طبعا هم طبقة الموظفين الغلابة من خيول الميرى غير المطهمة . انني ممنوع بقوة كونيـة مجهولة من التفـكير ـ التملص أو فى بناء عش آخر مع طائر أكثر حرية وانطلاقا ، ليس لانني صرت مكسور الجنـاح بعدم وجود أية امكانات مادية تتيح اى شيء ، بل لانني سـوف اظل نصف السنوات القادمة من عمرى المفترض أسـدد فى كمبيالات وشيكات واقسـاط ثمن اثاث وخلو رجل وجمعيات وما الى ذلك .

سلمت أمرى لله وفعلت ما كانت توصيني به امى كلمـا ارغمتني على تجرع الدواء ، والدواء دائما مر ــ خاصـة شربة الملح ــ اذ كانت امى تأمـرنى بعنف قائـلة : « غمض عينيـك واشرب » . نعم اغمضت عيني وصرت أشرب الترياق اليومى . وكجزء من معالجة المر بالمر فانني قد اصبحت انا الآخر مرا علقما، وصارت المرارة تلذ مذاقى .. فكنا أنا وزوجتى نستغفل اشرف ونلتقى من خلف ظهره خلسة ودون اى استمتاع . وكان ذلك قد خلق فينا اللذه الخاصـة ، فنشأت فينا قدرة على انهـاء اللقاء سرعة وعلى نحو ما قبل أن ينشق السـكون عن هادم اللذات ومفرق الجماعات وهو ربما يكون نائما بجوارنا على نفس السرير ، وتكونت لكل منا حصيلة من الحركات والكلمـات يفعلها ويقولها كطقس غير مفهوم ولكنـه يرفع اللقاء الى ذروة عاجلة لتهبط متخاذلة الى خفض عاجل ، وكان الخيال يتضح انه دائما احلى من الواقع بما لا يقاس .. ولقد اتيحت لنا بمضى الأيام فرص كثيرة نستغفل فيها اشرف ونتلاقى خلسة . حتى بعد أن سافر اشرف الى بلدته بشهور طويلة فوجئنا بأننا قد أصبنا بعقدة اشرف واننا لا زلنا نتصرف بنفس المشاعر كانه رقيب قائم فوق ظهرانينا ، وحقيقة الأمر اننا كنا قد امعنا فى استغفال انفسنا ،

فلم نحس بأى فرق بين الزواج والعزوبيــة . لكنها كانت قد حملت وانتفخ بطنهــا . وكان ذلك سببا كافيا لاقامة الابتهــاج داخل النفس . وقد احتفلنا بذلك قدر الامكان ، واستدنت فى سبيل أن تلد هى فى مستشفى تحفها بالرعاية الواجبة . وتم كل شيء بعون الله على ما يرام ، وجاءت الممرضــة وابلغتنى النبــأ التقليدى السعيد قائلة : « مبروك جالك ولد » . فعبرت عن سعادتى ببقشيش سخى ودخلت أجرى الى ابنى الحبيب واحمله واقبله . ورفعت أمه الغطــاء الرقيق عن وجهــه وقدمته لى .. فاذا به .. صــورة طبق الأصــل من اخيهــا أشرف بلا زيادة ولا نقصان ! . انقبض قلبى .. واحسست اننى اكرهه فاحسست برعدة وهزة . ثم أفقت فى الحــال وقربته من فمى وقبلتــه فى شفتيه فشممت رائحتى فيه واجتذبتنى حرارته فصرت أقبله فى كل وجهه ويديه ..

ثم اننى صرت من شهر الى شهر اتأكد من الشبه العميق بين طفلى وبين خاله أشرف الكريه لدى حتى لكأنه صورة منه . وكان يصيبنى الدوار ثم أنسى . ثم بدأت الاحظ أننى كلمــا رأيت أشرف شقيق زوجتى قلت له بابتسامة بشوشة : « أهــلا .. ازيك .. يا أشرف » .

. . . .

(*) ١٩٧٠ .

المنحنــى الخطــر

القت بى عربة « الكافورى » عند كوبرى السماكين وتركتنى أواصل الطريق وحدى فى الظلام .

رغم اننى لا أسافر الى بلدنا كثيرا الا اننى أحمل هم هــذه الوصلة كاننى أسكن فيها ، سنين طويلة وانا أؤجل السفر حتى تحين الفرصــة المناسبة فاسافر لاخوتى بكثير من الهدايا ولأمى بكثير من دواعى الفخر والابتهاج . لكن آه من هذه الدنيــا : تحكم على ان اســافر خاوى الوفــاض الا من الشوق وفى سر الليــل .

ان لم تكن برقيتــك صادقــة يا أمى فسأعتب عليك عتابا شديدا . ان ما احدثته فى نفسى لرهيب . تقولين انك تلفظين النفس الأخير ، هكذا ببساطة الا تدرين ما الذى تفعله بى هــذه الكلمة ؟ هذا أبسط ما فعلته بى : جرجرتنى على وجهى فى عز الليل فى طريق خطر صرفت فيه ثمن دبلة الزواج ومع ذلك لم اتفاد أخطر وصلة فيه .

استيقظت العفاريت فى راسى . كلها لناس أعرفهم . كلهم غرقوا فى هذا المصرف او قــذف بهم اليه . أسرعت الخطى .

صوت خطواتى يرن فى أذنى . أتخيل أن هنــاك أقداما تسير خلفى مسرعة . أخشى ان انظر ورائى . لغط هامس لا معنى له يقبل من بطن الأفق . الليل اشباح مجسدة . أعواد الذرة تتمــايل فتصدر خرخشة مرعدة . لهاث يقترب . يقترب . هل هو لهاثى أم لهاث أحد غيرى ؟ فجــاة وقف امامى . اكبر واخطر ذئب فى الناحية اختار هــذا الطريق ليقطعه . ان كان هو نفســه الذى اعرفه منذ طفولتى فلا شك انه ذئب عجوز .

ــ ان قابلك الذئب لا تجر . بل أمضى ثابتا واشخط فيه .

لا اتذكر من قائل هذه الكلمــة . اخيرا طاوعتنى قدماى ومضيت خطوة . خطوتين .. ثلاثا .. خمسا .. تماســكت قدماى . هل اجرى اذن ؟ . آه يا ابن الأبالسة . تسير بجانبى كأنك صــديق . فلأسرع فى سيرى . يسرع هو الآخر . فلأبطىء يبطىء هو الآخر . يتمسح فى .

ــ تصوروا يا رجال . قبل هــذا اللقــاء الأسود كان الرجل لا يخشى الذئاب .. وبعد أصبح يخاف من ذيل الكلب .

لابد ان قائل هذا الكلام لا يزال يحيا فى البلد . كان مرجعا حقيقيا فى طبائع الذئاب .. الوغد يتمسح فى بنعومة خطيرة ..

راح الذئاب يحاوروه ويداوروه حتى أفقده عقله .

مصيبة . القرية كلها وقعت فى قبضته ، اما بالمواجهــة الشخصية واما بمعايشة الرعب فى كل مكان يذهبون اليه ..

ــ الغريب يا أولادى انه ذئب لئيم ابن حرام . لا يخدشك الا بعد ان يتأكد أنك فقدت القدرة على المقاومة تماما .. الا بعد

ان تستسلم له .. ولهذا فالجنون هو النهاية التى منى بهـا الكثيرون .

هل ترانى ساجن ؟ .. ايها الوغد لن تفلح فى تعتعة عقلى شعرة واحدة . آه لو كان معى سلاح .

يقول ذلك المشـــهود له بالفهم فى امور الذئاب ان الذئب يجبن امام احقر بندقية غير ان جبنه يتحول الى جنون شرس ، يستفزك حتى تستنفد كل ذخـيرتك فى الهواء الطـلق ولن تصيبه مطلقا . الطريق امامى يبدو بلا نهايــة . ساقية المعلم عبده هى نقطة الأمان الوحيدة فى هذه الوصلة . دائما كنا نشعر بالأمان عندما نبلغها ربما لأنها أول علامة على ان البلدة قد اقتربت وربما لانها اول حدود البلد . الأنفار السارحون لا يعتبرون أنفسهم فى الغربة ما داموا لم يتجاوزوا ساقية المعلم عبده . أما ان تجاوزوها ولو بخطوة واحــدة فان لهم الحق فى طلب زيــادة الأجور بدل اغتراب .. وتنطلق المواويل الشاكية الحزينـة تندد بالغربة ، وبطول الطريق وبعد المزار .

ابعد عنى أيها القذر . ابعد أقول لك . أين ساقيــة المعلم عبده ؟ ابعد يا حقير . اذا انا وصلت الى الساقية وانا بكامل قواى العقلية اكون تقريبا قد نجوت . ساقيم ليلة لأهل الله آه ان نجوت . ساقول لأمى ان الذئب قابلنى . ســوف تشهق من أعماق صــدرها . ويستحيل وجهها الى اصفرار الموت ولن تصدق اننى ما زلت حيا . قلت لك ابعد والا ضربتك ببوز الحذاء فى اسنانك . ستضرب امى بيدها على صدرها وتقول « دا بس ربنا بيحبنى مارضاش يحرق قلبى عليك » يا ابن اللئام هل تريد اقناعى بانك صــديق : دع ساقى لا تتمسح فى صحبتى . هل تشم رائحة الجورب ام رائحة اللحم البشرى يا ك يا ك . يا كلب

يا ابن الكلب رح فى داهيه . رائحة الدخــان فى أنفى . الحمد لله ان علبة سجائرى معى . فلأشعل واحدة هكذا .. حقا . الآن فقط اقتنعت أن الذئب يفزع من رؤية النار المشتعلة بدليل انه ارتد مذعورا وتراجع الى الوراء .

لست ادرى كيف علم سيادة المدير اننى ابديت تذمرى من بعض الأشياء السائدة فى الهيئة . لابد ان الوغد « شوربجى » هو الذى نقل اليه الخبر . هــذا الولد الحقير لا ينتظرك حتى تخطىء فى حق أحد لكى يجد ما يبلغه ، انما هو يدفعك الى هذا دفعا . انه موهوب فى استثارة سخطك على كل شيء وســواء جاريتــه أم لم تجــاره فى سخطه فثق انك مدرج ـ بعد اللقاء مباشرة ـ فى كشوف المنقولين ، وتصبح فى نظر المدير ـ دون أن تدرى ـ مشاغبا ساخطا . قال الشوربجى : « كيف حالك هذه الأيام » قلت ضائقا « لست على ما يرام » . وفى نفس اليوم قال لى ســيادة المدير دون مناسبة « الواضح انك لست على ما يرام فهل هذا بسبب العمل ؟ » ايها الكلب الحقير هل عدت ثانية ؟ . يبدو انك ستنتصر على وتفقدنى عقلى . لمــاذا أتعب والكبريت معى ؟ هــه . رح فى داهية . أزمتى الحقيقية هى بساطتى .

لا أستطيع اخفاء مشــاعرى الحقيقية . الوغد يصر على مطاردتى . الكبريت . قال لى سيادة المدير فى احدى المرات : شاهدتك بالأمس تسير فى شارع الذى كفر » ولمع فى عينيه بريق أفزعنى بغموضــه ، لعله يريد أن يقول لى « اننى اتعقبك » الوغد يتجرأ شيئا فشيئا ومن الواضح انه استضعفنى .. الكبريت . يلعق بلسانه حذائى . ارجع يا جبان . سأقول لأمى أن ســيادة المدير هو السبب فى ابعادى عنها . نعم هو السبب فى الواقــع أليس يقتر على فى الرزق ويخصــم من قوت أولادى بعض أكياس

الفاكهة جزاء ذنوب وهميــة نسجها خيــال المنتفعين . اليس يحجب عنى فرص النمو على كافة المستويات ؟ . ساقول لأمى ايضا انها أخطأت خطـأ شديدا حينما نسيت أن تعلمنى فروض الطاعة والولاء وفن الانحناء ، وفن تقبيل الأيدى والأحذية .. اية صدفة سعيدة جعلتنى اضع الكبريت فى جيبى .

لو كان العود طويلا بعض الشيء . لم يبق فى العلبــة غير بضعة أعواد . يجب الاستعانة بشيء يساعد الأعواد ويطيل عمر النار فى يدى . بس . وجدتها كومة الأوراق فى جيبى ، من المؤكد أنها أوراق لا قيمة لها ، الآن فقط أصبح لها قيمة . فلأنتزع واحدة وأبرمها بيدى واشعلها . نعم هكذا آه . لم يبق ســوى عود واحد . الوغد يتلمظ . الم يعد فى الجيب ورق اى ورق ؟ . من أدرانى ان ساقية المعلم عبده لا تزال موجودة . اليس من المحتمل أن تكون قد ازيلت خاصة بعد ان انتشرت ماكينات الرى فى البلدة ؟ . لا اذكر انها كانت بعيدة هكذا . هــذه هى ترعــة المشروع . آه . احترقت يدى . الترعة هى هى مثلما تركتهــا لم تتغير لعلها ضاقت بعض الشيء لكن منسوب المياه فيها لم يكن أبدا ضعيفا هكذا .

ـ على فكرة .. يستطيع الذئب أن يطاردك فى كل مكان الا فى المياه .. فهو لا يستطيع الخوض فى المــاء مطلقا ..

مياه الترعة قليلة ولكنهــا مياه على اية حال . ابعد يا وغد يا حقير .. آه . آه . يا .. يا .. يا خلق هوووه .. يا خلق هووووه . مصيبة . لا صوت يرد على سوى صوتى نفســه .. ماذا انتظر . المــاء بجــانبى والعدو أمامى . رميت نفسى فى قلب الترعة . رحت أمشى خلال المــاء فأحدث ذلك ضجيجا هائلا . رجلا بنطلونى مملوءتان بالمــاء وهذا يعطلنى . قدمى تصطدم بكثير من الصخور والطوب والزلط . انك لا تنزل النهر مرتين . ليست

هذه هي الميـاه التي كنت استحم فيها وانا صغير .. كنت مثل الأطفال أدهن جسدى كله بالطين أيضـا ، ثم أقذف نفسي فى المـاء واحرج فى التو نظيف الجسـد . لعل طين المدينـة العالق بى لا تغسله مياه كل الأنهار . ما أصعب دفع القدم . البالطو مشكلة. الذئب الحقير ما زال يمشي على الشاطىء فكرة . فلأصعد الى البر الآخر .

دفعت نفسى نحو البر الآخر . هبطت قدمي اليمنى فى حفرة عميقة . وقعت على وجهى . وجدتنى جالسا فى قـاع الترعـة والمـاء يتسلق كتفى . نزعت نفسى من الحفرة ورحت أتساند على الهواء حتى قذفت ذراعى على البر ونفضت جسـدى متسلقا الحافة وكان الذئب قد استدار عائدا الى الخلف يجرى بأقصى سرعة . وقفت وحاولت السير لكن جسدى ثقيل كأننى جوال من الزلط .

خطواتى ثقيلة لها خب ودوى والمـاء يتساقط منى . شيء ما يخمش الأرض خلفى فى زحف سريع لاهث . آه . الوغد يندفع واقفا أمامى وفى تحد يهز ذيله يمنة ويسرة صرخت . لم يهتز . رعت البالطو وفردته بيد منتفضـة . رميته فوقه . قفز فى الهواء ببهلوانيـة غريبة ثم اندفع نحوى يتلمظ . قذفت نفسى فى المـاء صارخا .

تدحرجت فى قاع الترعة نائما على ظهرى وشربت طينا . ماسـكت حتى اعتدلت واقفـا ثم رحت أخب فى المـاء ببطء ،اتل .. الى أن يطلع الصباح .

يناير ١٩٧٣

روز اليوسف العدد ٢٣/٢٣٥٤ يولية ١٩٧٣ .

مشهد فى منحدر النخيل

برز قرص الشمس من بين سعف النخيل .. شواشى النخيل تنكفىء عليها السماء فى الأفق البعيد .. فيفقد السعف لونه ويصبح رماديا تمتد السنة كسيوف حادة تخترق القرص الذهبى أخذت أقترب من النخيل .. وكلما اقتربت منه رايته يغطس فى الأرض بين المقابر الكثيفة التى فوق ربوة عالية .. رحت أصعد التل الهش .. أتجنب الأشواك الحادة المتناثرة على الأرض فى حزم خشنة كالحة ..

مثل أبى قلت : « السلام عليكم »

رأيت شواهد المقابر تنحنى وترد السلام فى صمت بليغ . المقابر شوارع ، ومنحنيات ومنعطفات بعضها منتصب فى حيوية وبعضها منكفىء على نفسه . وهنا وهناك مقابر تحاول أن تتطاول وسط عشرات المقابر العالية اللامعة .. كدت أبتسم لكنى تذكرت اننى لا أعرف أين تقع مقبرة العائلة .. ثم رأيتنى طفلا . فصبيا . وجاء العيد بحاله وجاءت النساء يحملن قفف « الرحمة » ليوزعنها على مقبرة المرحوم .. أيامها .. نعم كنت أيامها امر بأربعة شوارع جانبية ثم انحرف الى الخامس على اليسار . خطوة او خطوتين ثم أجدنى أمام مقبرة العائلة .. كنت

اضع عليها علامة معينة . تلك هى شجرة الجميز العتيقة التى ترتفع داخلها . حيث ان المقبرة تشبه الحجرة الكبيرة .

لا اعرف الآن ان كانت المقبرة على اليمين أو على اليسار . أنا الآن وسط المقابر تقريبا . هذه الحفر العريضة أتذكرها . يقولون انها بفعل الذئاب . لقد تذكرت . ان القادم نحو هذه الحفرة من عند طلمبة المياه فى جنينة « العبد شتا » يمكن أن يرى مقبرة العائلة فى مواجهته تماما لكن بعد عدة صفوف . قطرات الندى تلمع فوق أعواد الحلفاء ، وفحوف التين الشوكى. أشعة تختبىء فى حفر كثيرة . ثعبان مفتول العضلات يستعرض طوله فى الشمس اصابع قدمى تتقلص داخل الحذاء . رحت أمشى فوق مشط القدم والرعب يتمشى فى ساقى . استدرت على الفور ورحت اجرى . دخلت الشارع الدائرى الممهد . اخذ الشارع الدائرى الممهد يشدنى فى تلقائية ويقودنى . حتى أوقفنى . لا ادرى كيف . امام مقبرة يشع منها ضوء احسست به ينفذ الى اعماقى . أمامها رمل طرى قريب العهد بظهر الأرض. ها هى ذى المقبرة الحجرة وها هى ذى جميزتها ..

اذن ففى هذا المكان تنام أمى ..

انكفأت فوق المقبرة . انتفضت أمى جالسة . راحت تعدل الطرحة البيضاء حول رأسها ورقبتها ، وعلى شفتيها ابتسامة كبيرة ، مغموسة بفرح يشوبه طعم المرارة . قالت تتلقفنى فى صدرها :

ـ آه منك .. يا .. ياذا الـ .. قلب المتحجر .

القيت نفسى بجانبها . كان أخى « مرعى » كالعادة . قد حكى لى كل شىء . وهو يقابلنى بالركوبة عند محطة السكة الحديد . ولم ينس أن يؤكد لى أنها نامت والحزن يفريها بسبب غيابى الطويل . وضعت رأسى فوق كتفها . ظللت اقبلها حتى

تملصت منى وهى تدفعنى عنها محـاولة اخفاء فرحتها . قائلة فى لهجة عتاب جاد :

ــ ابعد عنى .. لا انت ابنى .. ولا اعرفك .

آخـذت انظر اليهـا مبتسما ، ابحث فى عينيهـا عن شىء ما تعودت ان أراه وحين أراه أفقد الثقة فى غضبها منى . حاولت ان تبدو بالفعل غاضبة . لكنها حين بالغت أبتسمت ، فرحت ، اقهقه بصوت عال . فاستردت ابتسامتها وقالت :

ــ يا اخى .. ضع فى عينيك حصـوة ملح . اترانا خلفناكم لكى تهجرونا ؟ .. اذا لم تكن تريد الاطمئنان علينا فنحن نريد ان نطمئن عليكم جميعا .

انسالت دموعى . ساءنى أن يحدث ذلك فقد كانت تكره الدموع وكان يفزعها أن ترى الطفل يبكى ان شب على الأرض وان بكى فعلامة شؤم تنبىء بأن « الولد » لن يفلح فى حياته . فالدموع ليست تعرف عيون الرجال . لكننى بكيت بحرقة . قالت فى فجيعة « اتبكى أيها الرجل . لقد علمناك ووظفناك وصرت أفنديا محترما . ثم تبكى ؟ لمـاذا تبكى ؟ .. هه .. لمـاذا .. قل لى .. » ولكننى لم أقل لها شيئا . فلو حكيت لها عما يبكينى لمـا انتهيت ولضاع معنى زيارتى ثم لمـاذا ازيدها حزنا بأشـياء ان ذكرتها فربما لن تصدقها . كما ان زيارتى قصيرة وبعد قليل سوف اتركها وأرحل .

قـلت لها :

ــ كيف حالك ؟

بسطت كفها فى حجرها وتثاءبت ثم قالت فى بساطة :

ـ نحمده يا ولدى .. كل ما يبتلينا به الله خير وبركة .

قلت لها :

ـ لم استطع المجيء فى الوقت المناسب .. هنــاك ظروف قوية منعتنى .

قالت وهى تهز راسها :

ـ اعرف يا ولدى .. كان الله فى عونك واعــانك على رزق عيــالك ..

المهم أن تكونوا جميعا بخير .. انت واخواتك ..

طعم الصبر يندلق حارقا فى صــدرى .. قلت وانــا اعرف انه لا معنى لسؤالى :

ـ لكن ماذا فعلت فى هذه الأزمة ؟

فكت الطرحة البيضاء . واعادت لفها حول راسها وعنقها . وسطع فوق جبينها ضوء خافت :

ـ التمست لكم الاعذار يا ولدى . كان الله فى عونكم .

رغم اننى اعرف الجواب سالتها :

ـ الم يحضر أحد من اخوتى ؟

تنهدت . وبسطت ذراعيها حواليها كانها ترينى خلو المكان منهم . ثم قالت :

ـ لابد ان هناك شيئا منعهم . ليس من المعقول يا ولدى ان تمنعوا بمزاجكم .

قلت وانا اتالم . كاننى ابرر خستى :

ـ لكن ماذا فعلت وحدك ؟

مرة أخرى بسطت كفها فى حجرها . ونظرت الى السماء نظرة خاطفة ثم عادت فاطرقت . وقالت كأنها تحدث نفسها :

ـ ظللت طول اليوم أنتظر . كلما دخل الليل افقد الأمل فى عودة احدكم قالوا لى : اريحى نفسك فلن يجىء احد .. غير اننى اعطيت أذنى لكل خطوة تدب فى الحارة فلم أميز فى الاقدام وقع خطاكم التى اعرفها جيدا من بين مئات الخطوات . كانت بى رغبة جامدة فى رؤيتكم فى تلك الليلة . ولما وافانى الوعد اغمضت عينى . تركت لكم السلام واسبلتهما بنفسى .. وودعتهم وانصرفت .. لكننى ارسلت بصيرتى من ورائى لترى كيف سيميل الحال من بعدى .. رايت اخاك مرعى يلطم خديه ويمزق جلبابه .. كان هو الوحيد الباقى . وكان عليه ان يتلقى اللطم كله وحده . رأيت الحيرة فى أعقابه . على ان الله ستر .. رأيت مرعى يجرى الى الحاج مسعود ويوقع له على كمبيالة بيضاء ثم يأخذ منه بضعة جنيهات . ورايته يعود الى الدكان لاهثا فيشترى منه الكفن . ثم يجىء لاهثا وقد اعتدلت فوق راسه طاقيته واتسق فى الحال جلبابه .. وان هى الا ثوان حتى كانت الحاجة « غلوشة » قد غسلتنى والبستنى ثوبى الأخير . وأنامتنى فى مكان مريح . ثم اقتحم الحجرة أولاد عمك فحملونى ووضعونى فى النعش وساروا به . ونظرت حولى من خلال الكسوة الخضراء فرأيت « المشهد » لا باس به . وعند المسجد « الغربى » أوقفونى . وأقاموا الصلاة على روحى . ومن حسن الحظ ان اخاك الكبير كان قد اعاد ترميم المقبرة وتعميرها اثر وعكة المت به . وها انت ذا ترانى الآن جالسة فى راحة تامة . فعلام الحزن والبكاء ؟ لا تشغل بالك يا ولدى . فالحى أبقى من الميت ثم اننى بخير بل لم اكن بخير فى حياتى مثلما انا الآن .

كنت قد ارخيت راسى على صـدرها . واحسست بأصابعها تتخلل شعرى . ويدها تتحسس ظهرى .. ثم راحت ترقينى . وتتثاءب . تطرد انفـاس الحسود من جسدى .. كالعـادة قمت من جانبها متسللا .. ربما لكى انام قليلا . ربما لكى أسـتمع الى نوادر اخى « مرعى » عن تصرفاته هو وأولاد عمه الفلاحين فى اثناء قدومهم المدينة فى المرة الفلانيـة .. او .. ربما لأبحث عن ركوبة تعيدنى الى المدينة قبل حلول المسـاء . ثم اكتشفت ان خدى جامدتان كالعصا . واخذت اخفى معالم البكاء فيما اجوس بين شوارع المقابر الملتوية . حتى وصلت الى منحدر النخيل . ورأيتنى اهبط فى اندفاع تلقائى ..

ديسمبر سنة ١٩٧٣

ما ليس لأحـد

احاطنى الطبيب بنظرة فاحصة احسست انه يتحسس بها كل جيوبى ولمـا أكدت له اننى ـ بالفعل ـ خالى الوفاض حتى من اجرة الأتوبيس ابتسم فى اشفاق وقال :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ، اسمع ...

ـ نعـم .

ـ أرى من واجبى ان أساعدك لوجه الله الكريم .

ـ اشـكرك .

ـ سادلك على رجل يأخذ بيدك ويحل لك مشكلتك الكبرى.

ـ أنا فى عرضك ؟

ـ انزل من هنا على ميدان المحطة . حود على اليمين . فى اعلى بيت فى اعلى طابق على ناصية الميدان . ستجد لافتة مكتوب عليها . الهيئة العامة للشئون الخاصة « جميل » .

ـ جميـل .

ـ ادخلها دون ان تهيب . قد تكون دخلتها من قبل ولكن لابد انك كنت متهيبا .

ـ اذكر انني اتهيب وهذا دليل على انني دخلتها بالفعل :

ـ ولذلك فشلت .

ـ نعم ـ الفشل دليل آخر يثبت انني دخلتها من قبل .

ـ لا يهم . ادخلهـا من جديد .. والجديد هـذه المرة أنك لا تتهيب .

ـ وعندما ادخل ؟ .. اقصد .. عندما لا اتهيب .

ـ اسأل عن مديرها انه صديقي جدا قل له انك من طرفي .

ـ نعـم ..

ـ .. لا تكلف نفسك مشقة سرد الحـكاية لانه بالضرورة سوف يعرفها فمجرد قدومك اليه يحمل مضمون الزيارة . وثق انك ستحصل على نتيجة مهولة للغاية .

ـ جميل .. ما اسم مديرها ؟

مال على اذني وهمس :

ـ اسمه فلان الفلاني .

داعبتني الرغبة في ممارسة تجربة « عدم التهيب » ومن ثم السعي الى مقابلة فلان الفلاني هـذا . استدرت عائدا الى الطبيب من جديد وسألته :

ـ هل انت متأكد ان عدم التهيب سيحل مشكلتي ؟

لم يرد رغم انه لم يكن مشغولا بشيء ذي بال .. اعدت عليه السـؤال :

ـ تقول سيادتك وان فلان الفلانى هـذا يستطيع حل مشكلتى الخطيرة ؟

فمال برأسه مكملا :

ـ بشرط الا تتهيب .

ـ لكن هل فلان الفلانى هو المسئول حقا .

رفع راسه عن الجريدة ينظر الى باستنكار .. ثم اضاف :

ـ وجودى فى هـذه العيادة . ضمان استمرار العمل فيها يعنى نجاحى كطبيب .

قدومك الى هنـا وحتى علاجك أيضـا . لا يمكن أن ينجح دون ارادته .

قررت بينى وبين نفسى ان اذهب الى فلان الفلانى ، وقررت ايضا .. الا اتهيب .

استعدت هـذا اللقاء عشرات المرات وناقشته بينى وبين نفسى مئات الليالى بصحبة الأرق ضيفى المسائى المثابر . مأساتى اننى أعرف . فثمة ـ فى نظرى ـ قانون معقد يطبق على الوجود فى قبضـة حديدية . أليس من المحتمل أن يكون فلان الفـلانى مدير الهيئة العامة للفنون الخاصة لديه تفاسير لكثير من الأسرار الغامضة التى تحفل بها الحيـاة فى نظرى ؟ بالضرورة عنده هكذا أكد لى الطبيب وليس له بالطبـع مصلحـة فى خـداعى يجب أن اذهب من أجل ان اعرف فقط .. فبوسعه أن يحل أعقد مشاكلك وأعظمها شأنا لمجرد انه يحيطك معرفة ببعض الأسرار .

ـ نعم . هذا هو العلاج الناجح لأشد الامراض سرية .

صارت مبانى حينا الريفى البعيد تتسلخ عنى متقهقرة فى

بطء شديد ، وحينما صافحت قدمى طريق الأسفلت الممتد الى محطة الأتوبيس كنت ما أزال مترددا فى الذهاب الى فلان الفلانى بل والى المدينة عموما ولما رايت على البعد غابة هائلة من البشر واقفة فى انتظار الأتوبيس احلو البيت فى نظرى وتضاءلت مشكلتى الكبرى بعض الشيء .

مع ذلك أسير وحافظة اوراقى تهتز فى يدى بلا مبالاة . عربة فارغة ذات اجنحة تعمد الى معاكستى . صداقتى لم تصل بعد الى هذا المستوى الفخم من المعاكسات فمن هذا يا ترى ؟ كل الحقد الذى فى اعماقى يتجمع فى بصقة اود الآن أن أقذفها فى وجه الفخامة الموجودة فى دنيانا بكاملها . توقفت العربة . توقفت البصقة على لسانى انفتح الباب واطل منه وجه يبدو انه يعرفنى ويبدو ان شكله ليس غريبا على لكن من يكون بالضبط فهذا ما يبدو مستحيلا تذكره الآن . قال الوجه فى لهجة ودية أخافتنى، خاصة انها مصحوبة ببساطة لا تقبل الجدل .

ـ تفضل يا كابتن :

ثم انزاح الى الداخل موسعا مكانا بجانبه ترددت كثيرا ما الذى يجب أن افعله بالضبط ؟ لابد من العثور على مبررات سريعة أرفض بها هذه الدعوة المفاجئة رفضا مهذبا مثل عرضها .

امتدت يد الرجل وسلمت على بحرارة ادهشتنى كثيرا وشدتنى الى الداخل . لم أدر الا وانا غارق هكذا فى هذا الكرسى المريح .

قال الرجل للسائق الذى تنبهت اليه فجاة وتصورته ـ لابد ـ موظفا درجة رابعة مثلا .

ـ حود يا اسطى .

ثم مال على بينما العربة تميل فى أثناء تحويدها .

ـ اظن سعادتك ذاهبا الى الهيئة العامة .

تفرست فى ملامحه بتمعن مذهول لمع فى عينيه بريق سريع اقنعنى انه يعرف كل التفاصيل السرية الدقيقة لحياتى كلها . الجلوس فى العربـة يضايقنى . سحب الرجل علبـة سجائره الجلدية وقدمها نحوى : الواضح انك اقتنعت بضرورة الذهاب اليه . رفضت السيجارة لكننى لم اتمكن من رفض تدخله السافر فى خصوصياتى دون ادنى معرفة مسبقة أو مراعاة لحرمة الأسرار الخاصـة :

ـ تقصد من ؟

ـ فلان الفلانى .

رغم ضيقى الشديد بهذه الظروف الخرقاء التى وضعت هذا الشخص فى طريقى ، بدات اتشمم خيرا ، أتشمم خيرا فى بقعة ضوء مجهولة تبرق بعيدا جدا وقد ينحسر عنها غموض هـذا الموقف فتضيف شيئا جديدا الى معلوماتى ، يجب اذن ان اقف موقفا وسطا ، لا أجزم بشىء كأننى افاجأ بهذا الاسـم لأول مرة :

ـ حضرتك تعرف فلانا الفلانى هذا ؟

ضحك الرجل كما ضحك السائق أيضا ضحكة موحدة فى دفعة واحدة وذات مضمون واحد فهمت منه اننى سـاذج وغبى استشعرت نوعا من الحرج عدت اسأل :

ـ اقصد الحضرتك صلة به ؟ ثم لا ادرى لمـاذا اسـتدركت مستطردا فى ارتباك خائب .

ـ لابد أن بينكما صلة وثيقة .. على ما يبدو . وضحكت ضحكة خافتة لا معنى لها ، نظر الى الرجل نظرته الى طفل ماكر مكابر . سقطت فى قاع بطنى كركبة من خشية غامضة أحاول الانشغال بأشياء أعرف مقدما انها تافهة . نظرت الى الطريق وفتحت الحافظة ثم استخرجت المفكرة وفتحتها أيضا ثم أعدتها ثم أغلقت الحافظة من جديد .. تكت الولاعة الرونسون فى أذنى فأيقظتنى الى الرجل الذى استأنف النظر الى لكن فى اشفاق هذه المرة . غلف وجهى بسحب الدخان وقال فى بساطة :

ـ أتهدف الى النقود أم العلاج ؟

يا خبر اسود ! العلاج ؟ انه يتحدث عن العلاج .. أتراه يعرف أيضا أننى اننى .. أتراه يعرف الحقيقة كاملة وبكل حذافيرها . لابد اذن انه ينام معى فى فراش واحد . ما أسهل الانتحار وما افظع المحاولة . هذا شىء بشع وقاتل . اننى لايمكن أن اطيق هذا العرى . لابد كذلك من مغادرة الحى كله . كيف يحدث هذا وأنا لم أغادر كهفى الا فى لحظات قليلة جدا وكيف يتسنى لهذا الرجل أن يتسرب هكذا الى ما تحت الجلد .

زجاج نظارتى يسبح فى كتلة ضبابية . خيوط العرق تسيل فوق ظهرى كشلالات هادرة تفيض على جبهتى وتلمع فوق مسام يدى أكاد أختنق ، فتحت زجاج العربة ، اندفع الهواء يصفق ويرعد ، امتدت يد الرجل خلف ظهرى وأغلقت الزجاج ثم علق بأن « هذا » شىء خطير بالنسبة لصحتى ويأتى حينما أتعرض للرياح يجب أن أغلق النوافذ جيدا خاصة اذا كنت مشوه البدن من الداخل ثم أضاف بأنه نظرا لسخونة الضيق الذى أنا فيه لا بأس من فتح برزخ ضيق يسمح بالتنفس ولا يكون سببا لاشتداد العواصف .

وافقته بهزة من راسى .. قال بعد هنيهة :

ـ أين تريد النزول ؟

تحيرت انسدت كل الطرق فى ذهنى . وجهتى الأساسية صارت فى نظرى مكشوفة ولا أدرى لماذا أود التمويه وابعاد النظر عنها . اى مكان اذن ترانى أنزل فيه سألته :

ـ طريق حضرتك فى اى اتجاه ؟

ـ لا شأن لك بطريقى .. قل لى فقط اين تريد النزول وانا تحت أمرك ؟

ـ اشكرك لا داعى للتعب لكن لا باس من ان تنزلنى عند أقرب مكان ستحود منه . حول بصره عنى بلا اهتمام . ارتفع صوت موتور العربة . عاد ونظر الى فقلت على الفور مع ابتسامة مرتبكة : اهلا وسهلا .

ـ فرصة سعيدة : اى خدمة .

ـ شكرا ! ..

وعزم على بسيجارة قبلتها . سارعت باشعال الكبريت وقربته منه متوددا : لكن كيف عرفت سيادتك اننى ذاهب لمقابلة فلان الفلانى .

قلتها كانى اضرب أحد الأصدقاء الاعزاء على كتفه بحب قائلا له « آه يا عفريت » الا انه سحب الجرائد وراح يتصفحها . أحسست بشىء كالمهانة . اعدت عليه السؤال مرة أخرى بشكل جاد هذه المرة محاولا الايحاء اليه باننى استطيع بالفعل مقابلة هذا الفلان الفلانى ببساطة لو ان مقابلته تعنينى فى شىء . ثم أضفت .

ـ شيء غريب حقا انك تعرف كل من يستطيعون مقابلته .
فعلق بذكاء وهو مازال منشغلا بالجرائد تتصــد كل من يحاولون مقابلته جف ريقي . استتفهت نفسي . أحسست بتعاسة لا حد لها خيل الى انني أتضاءل وأتلاشى ـ كل شيء يهتف في نظرى نتمايل فوق الأرض .

ـ لكنك لم تقل لي .. سيادتك تبغى نقودا أم علاجا ؟

قاطعته بحدة تعدت حدود الصفاقــة بكثير من حــركات الاستنكار والنظرات الموحية بالاحتقــار وبلهجــة مليئة بالعنف والكبرياء :

ـ اى علاج واى نقود يا هذا : من اين تاتي بهذا الكلام :

ـ اى كلام ؟

يجب أن أبالغ في اهانته :

ـ قل لي يا هذا . الا تلاحظ انك بجراة تحسد عليهــا تقتحم على أسوارى ؟

ـ ولمــاذا تضع نفسك بين اسوار ؟ !

سؤال وجيــه في الواقع ولكن كل انسان له حدود سريــة معينة لا يحب أن يتخطاها الآخرون مهما كان صاحبها مفتوحــا على الآخرين . قلت هذا للرجل واضفت :

ـ ثم ان هــذه مسائل خاصــة ولا اعتقد أنها تهمك لحد الالحــاح .

ـ معك حق .. عموما انت حر .

ارتفع صوت الموتور دفعة واحدة . زيقت الفرامل بحــدة كأنها تسلخ جلد الأرض ، كدنا ننكفىء على وجوهنا . نظر السائق

الى العربة التى كادت تصطدم به وبصق فى اتجاهها . اندفع من جديد .

قال بابتسامته الدبلوماسية :

ــ اما زلت تجهل مكان نزولك ؟ ..

قاطعته بسرعة :

ــ أنا ذاهب الى مكان ما غير الذى فى ذهنك .

اشار للسائق فتوقفت العربة . صافحته وهممت بالنزول . ثم استطع منع نفسى من السؤال :

ــ لكن بصراحة ما حكاية العلاج هذه ؟

ــ اى علاج ؟ ..

ــ علاجى ـ اقصد كيف علمت اننى فى حاجة الى علاج ! ؟ ..

قال بابتسامته الدبلوماسية :

ــ هدفك اذن هو العلاج .

صرخت ضائقا :

ــ ليس هدفى لكن اقصد كيف توهمت اننى ..

ــ لانك ذاهب الى مقابلته ! ..

ــ ما العلاقة بين فلان الفلانى وبين العلاج ..

ــ الذاهب الى فلان الفلانى لا يكون الا بهدف من اثنين العلاج أو المال .

زار الشارع فجاة باصوات كلاكسات اخذت تنبح بلا هوادة قال الرجل وهو يتاهب لاغلاق العربة :

ــ الله معك على كل حال .

لم يمنعنى الزحام من السؤال :

ـ اليس من الجائز ان تكون هناك مشكلة اخطر ؟

ـ ليس هناك اخطر من مصيبتى المرض والافلاس .

ـ آه .. لكن كيف علمت او توهمت اننى أنوى الذهاب الى .. لكنه اغلق الباب بعنف ومال براسه مودعا اياى ـ اخذت اصوات الكلاكسات تطاردنى من رصيف الى رصيف كالكلاب المسعورة . مع ذلك يراودنى احساس بالارتياح . اذن فكلام الطبيب معى صحيح .. وفلان الفلانى هذا يعتبر ملاذا خطيرا لابد من مقابلته . فلأبحث أولا عن اتوبيس يوصلنى الى ميدان المحطة .

ـ من فضلك يا سيد الا تعرف الهيئة العامة للشئون الخاصة .

ـ هيئة ماذا ؟ ..

ـ الهيئة العامة .. للشئون الخاصة .

ومط شفتيه ورقبته بل وهز كتفيه ايضا .

ـ ايه .. ألم تسمع بها من قبل ؟

ـ الحقيقة لم أسمع ! ..

ـ عجيب . .اذن الا تعرف فلان الفلانى ؟ ..

ـ اعرفه طبعا . أهناك أحد لا يعرف فلان الفلانى ! ؟ ..

ـ أين مكانة اذن ؟ ..

ـ ! ...

وهرش رأسه ثم تهيأ للوصف : شوف يا سيدى ..

ثم عاد وخبط جبهته متذاكرا ثم ..

ـ الأفضل أن تسأل عسكرى المرور هذا !! ..

ـ شكرته ومضيت . ارتفع فى ذهنى خاطر : كيف سأقابله هكذا دون ترتيب للموضـوع ؟ ينبغى أن اجلس قليلا مع نفسى لأدرس كيف اعرض موضوعى . نعم اهم ما فى الموضوع ان أجيد عرضه والا اصبحت زيارتى غير ذات موضوع . يقول الطبيب انه لا داعى للشرح لأن مجرد قدومى اليه يحمل مضمون الزيارة ويقول أيضا اننى يجب الا اتهيب . الواجب اذن ان يكون التفكير منحصرا فى كيفية عدم التهيب ، الغريب انه أكد لى ان عنوانها فى هـذا المكان .. والعمارة التى وصفها ليست موجودة ها هنا ، على اى حال لابد انها تائهة . وسط هـذا الزحام القاتل لابد أيضـا ان عسكرى المرور يعرف مكانها الحقيقى .

ـ صباح الخير يا شاويش .

اغلق الطريق على الراجلين وفتحه للعربات :

ـ اى خدمه ..

ـ حضرتك تعرف الهيئة العامة للشئون الخاصة ؟ .

ـ طبعا .. اهناك أحد لا يعرفها ؟ ! ..

ـ دلنى على مكانها ارجوك ..

ـ ياه أدلك بيننا وبينها سفر طويل ! ..

ـ قالوا لى أنها هنا فى الميدان !

ـ كاذبون انها .. شوف يا سيدى اركب هذا الاتوبيس الواقف على الرصيف الرابع وقل للكمسارى ينزلك عندها .

ـ أمتأكد انت انها .. ؟

ـ نعم واوصيك الا تقلق من طول المسافة ! ..

ـ أهى بعيدة جدا ! ..

ـ عليك بالصبر اذا كنت تريد الوصول .. ربنا معك بالسلامة . مضيت وثمة شك فى كلام عسكرى المرور يتماشى فى خطوات . لا امل فى وجودها بهذا الميدان اذن فلا مفر من تصديق العسكرى .

كتل من اللحم البشرى تتشعلق فى الهواء . بعد عناء شديد تمكنت من الوقوف هكذا بقدم واحدة على درجة السلم الثانية وفقد قميصى ثلاثة ازرار . الكتل البشرية تهدر فى اذنى تلغدنى والأرجل والمناكب والرواوس والأفقية والسباب تهيب بى أن أدخل . انا ابحث عن انفاس ، تلوى الاتوبيس يمينا ويسارا وحود عدة مرات ثم استوى فى شارع طويل ومضى يئن ويتوجع بدا الركاب فيما يبدو يتواءمون مع الوضع وراحت ارواح تلفظ نفسها من الصدر على مهل . صرخ المحصل فى الواقفين مطالبا اياهم ان يوسعوا له مع انه يغوص بينهم ويتسلق الكراسى عبر رءوسهم حتى لا يفلت منه ثمن تذكرة . تذمر بعضهم وصرخ فيهم لاعنا اباءهم جميعا (واللى مش عجبه ينزل ياخد تاكسى) . أريد ان اسال احدا فلا اتمكن ، احدث مرور المحصل موجة انتهازية قلبت الأوضاع واستبدلت خلالها الأماكن وارتفعت الصرخات من جديد . توقف الأوتوبيس عند محطة . اندفع خلفه قطيع

أعنى من البشر يتشعبط البعض فى البعض فهرولوا جميعـا الى الأرض ولم يحفل بهم احد . حدثت موجة اخرى داخل العربة رفعتنى الى الدرجة العليا مضغوطا بين الأجساد ولا أثر للأرض تحتى ثم مزقت كم قميصى فانكشف لحمى بصـورة مقززة . ربت كتفى الواقف أمامى .

ـ يا عم : يا عم :

انتفض الكتف بفزع ، كاد يعض يدى .

قـال بغلظة :

ـ اسـكت .

ضحك البعض وعلق آخرون :

ـ العبا سـويا .

ضحكت بدورى منافقا الذى علق ثم سألته :

ـ من فضـلك يا اخى . اتمر هـذه العربـة بالهيئـة العامة للتـ . .

ـ اسأل الكمسارى .

ـ يا كمسـارى .

رد من آخر العربة بلهجة عدوانية :

ـ نعم يا زبون .

ـ اتمر هذه العربة بالهيئة العامة .

ـ لا اعرف !

ت قالوا لى أنك تعرف !

ــ قلت لك لا اعرف . فدعك منى أرجوك !

اكاد ابكى تلفت حولى فى يأس :

ــ أيعرف أحدكم مكان الهيئة الهامة يا أسيادنا ؟

تناثرت التعليقات والتساؤلات هنا وهناك :

ــ هم قالوا لك أين ؟

ــ فى اى شارع ؟

ــ هذا الاسم ليس غريبا على !

ــ انها جنب وزارة المعاشات .

ــ لا : انها على شاطىء النيل : فى ماسبيرو !

ــ أتعرف أين هى بالضبط : أنها عند البرج ؟

ــ لا يا جماعة انها فى حدائق القبة !

ــ لقد نقلوها الى عابدين من زمان !

ــ من قبل كانت فى عابدين .

ــ آه .. عرفتها عرفتها .. شوف يا أخ انت تنزل من هنا تركب أى حاجة توصلك مصر الجديدة وهنــاك تسأل انــا متأكد انها هناك .

ــ لكن عند اى محطة وفى اى شارع وماذا يعملون فيهــا ولمــاذا يقصدونها ..

ــ لا أدرى !

ــ على فكرة لى صديق كان فيها بالأمس وقال انه انتخب عضوا بهــا ! ..

* * *

سمعت صوتا مبحوحا مختنقا بالبكاء اغلب الظن انه صوتى :

ــ من فضلك يا كمسارى باشا . هل اغضبك فى شىء ؟ . اننى اسأل سؤالا حسنا فلماذا لا تجيبنى اليس هـذا واجبنا عليـك ؟

ــ يا افندى يا محترم . لم يعد ينقصنى سوى اصطحاب الركاب الى دورة المياه !

ــ يا سيدى كلمنى مثلما اكلمك .

ــ ماذا تريد سيادتك منى بالضبط ؟

ــ أتمر هذه العربة بال ...

ــ انا لا اعرف اكثر من أن الخط يبدأ بمحطة كذا وينتهى بمحطة كذا ، اكثر من هذا لا اعرف !

ــ يعنى الهيئة العامة ...

ــ ديك الهيئـة العامـة .. وسنينها السودة .. مليون بنى آدم سألنى اليوم عنها .

ــ سألوك بالتحديد عن الهيئة العامة ؟ ! ..

ــ سألونى عن (الزفتة) العامة للبلاوى الخاصة .

ــ لا اعرفها قسما برحمة أمى لو رجعت بيتى الآن فقد لا اعرفك !

ارتفعت الضحكات والتعليقات ثانيـة . لم يعد أحد يتذكر شـيئا .

ــ الواحد ينسى ماذا اكل فى الصباح !

ـ هذا اذا أكل أصلا !

ـ الناس هذه الأيام يسألون عن هـذه الهيئة كثيرا .. لماذا ؟

ـ انهم يسألون فقط . لكنهم لم يذهبوا اليها .

ـ ربما ذهبوا ؟

ـ ربما لم يذهبوا !

ـ او شافوها لما ذهبوا اليها !

ـ لو ذهبوا اليها لما سألوا عنها !

ـ اتراهم يسألون عنها لكي لا يذهبون اليها ؟ !

ـ ربما ليذهبوا ؟

ـ لماذا يذهبون ؟

ـ أيعرف احد ؟ انه ملك نظمه صاحبه ؟ !

ـ أؤكد لكم أن صاحبه لم يعد يعرف عنه شيئا .

ـ ها ها ها .. يا ... لكن .

ـ لكن قل لى يا أخ . أمن الضرورة هذه الهيئة بالذات ؟

ـ لابد ان الكمسارى يعرف .

ـ دعوا الكمسارى فى حاله .. ما انا قلت لكم .

ـ اسمع يا كمسارى انزلوه فى اى هيئة وارح نفسك .

ـ على رأيك من هيئة لهيئة لا فرق يذكر ..

ـ من هيئة لهيئة يا قلبى لا تحزن .

ـ ها ها ها .. يا .

ـ لكن يا كمسارى كيف تكون رجلا مكلفا ثم لا تعرف الهيئة ! ؟

ـ لا تؤاخذه يا سيدنا .. اعتبروه راسبا فى كشف الهيئة !

ـ ها ها ها ... يا ...

ـ اخرس يا فندى يا وقح انت وهو .

ـ هش . زمر وانت ساكت .

ـ أو اتكلم وانت ساكت !

زمر الكمسارى بصوت عصبى حاسم . توقف الأتوبيس . نزل السائق وهبد الباب خلفه .

استدار وفتح غطاء الماتور . عكرش فى العدة قليلا ثم عاد فأغلق الغطاء ثم ترك العربة وجلس على الرصيف واشعل سيجارة وبعد أن نفس دخانها فى هدوء ولذة قال ببساطة :

ـ العربة لن تقوم يا أفندية سوف تذهب الى الجراج !

تبادلت الأجساد المنضغطة نظرات لا معنى لها . سيطر على الجميع نوع من التمرد الصبيانى .. ظلوا هكذا برهة قليلة .. صرخ السائق :

ـ قلنا ان العربة معطلة !

عادت الأجساد المنضغطة تتبادل النظر بلا معنى . فجاة انقلب الوضع . اخذوا يتهربون من نظرات بعضهم .. وربما لأن النظرات كانت قد بدأت يكون لها معنى . شىء غاية فى

الغرابة .. حينما تبدأ العيون تحمل معنى تتهرب النظرات وتتغافل . ذلك ان ثمة تساؤلات أيضا عما يجب أن يحدث بزغت فى النظرات . للمحات خاطفة راح الكل يهرب من المسئولية تاركا لغيره مهمة البدء والبت فى هذا الشأن ، شعور عام بانعدام الشعور كذلك راح يهبط على الجباه يخيم على الأقفية يبرر كثيرا من التصرفات الشاذة ، ويصب فى كثيرا من الحقد على هؤلاء الذين تشبثوا بمقاعدهم فى استبسال رخيص .

صرخ السائق من جديد وهو يصفع العربة بكف مغيظة :

ـ يا بنى آدم انت وهو قلنا ان العربة لن توصلكم !

حدثت موجة خفيفة من الحركة بدأ الاقتناع بعدم قيام العربة يوشك أن يصير واقعا محققا . برطم الجالسون فى درجة أولى بكلمات مضغوطة لا تحتج ولا تتذمر بقدر ما تشير الى اهميتهم فى الهيئة الاجتماعية .

وانسحب الواقفون فى درجة ثانية من لسانهم ثم شتموا الكمسارى . تلفت الجالسون فى درجة أولى وتهربت عيونهم من مقابلة الذين شتموا كانهم يتبرءون من الشاتمين ويرفضون الانتماء اليهم .. حفاظا على مكانتهم لدى الكمسارى كنوع من التفضل على بقية الركاب اذ هم يحتملون مائة فى المائة ان الكمسارى احتراما لهم فقط وتقديرا لوقارهم ـ سيأمر بتسيير العربة ، وسيكتفى بالهوهوه عددا من المحطات فى وجه الصاعدين والهابطين والمستغربين حتى نهاية الخط اما الجالسون فى درجة ثانية فراحوا يهددون بكلمات يتوارى فيها التهديد خلف جبن الترجى .. لكن الكمسارى حسم الأمر بأن شرح لهم قائلا :

ـ انتم احرار .. الى الجراج يا اسطى !

ثم حشر العهدة فى جيبه ـ وتبعه السائق فأدار العربة ثم مال واستدار ليحود عائدا الى الجراج . وهنـا هب الجميـع واقفين وبدات النظرات تتلاقى بلا حرج . وبدأ وجهـاء الدرجـة الأولى يتبادلون التعليقات مع بسطاء الدرجـة الثانيـة . وبدأ الجميع يقولون كلمـة تكاد تكون واحدة تتناثر الى شتائم غليظة . وليس مهما اننا بدانا نتآلف ونندمج ، انما المهم اننا رجعنـا نتساقط من العربة كقطع الحجارة فى اندفاعها .. راحت العربـة تقذفنا بالمشرات وكان فى مؤخرة العربة ماسـورة صداة أخذت تنفث فى الهواء دخانا عادما لكنه شديد السواد .

يوليـو سنة ١٩٦٤

الافـــــول

دفعت اللحاف وقفزت عن السرير فزعا أجرى بداخل الشقة حيث تبين لى وجه زوجتى الصارخة وهى تنهـال عليه لطمـا وتملأ الدنيـا ولولة وحشرجـة بكاء .. وكان باب البوفيه فى الصالة ، الذى نستخدمه فى تخزين اشيائها الثمينة..مكسورا.. كذلك شباك الصـالة المطل على الشارع العمومى كان هو الآخر مكسورا بطريقة فنية . مع ذلك قلت : « ما بك يا ولية ! ؟ » . فقالت : « ضـاع كل شـقاء عمرنا راح .. مستقبـل الأولاد ضاع ! » . ثم وجهت كلامها نحو الأولاد المذهولين صائحة بكل عزم : « ضاع مستقبلكم يا اولاد التعاسـة .. ابنـاء التعاسـة والتعساء لابد ان يظلوا هم أيضا تعساء فيا للحكمة السوداء » . ثم تبين لى ــ بكل انفاسى اللاهثـة ــ ان مجهولا كسر باب الشباك وكسر باب البوفيه فيما نحن نيام فى حلم سعيد ، وسرق مظروفا به كل حصـاد عمرنا ، المبلغ المدخر الذى سحبناه من البنك صباح اليوم لندفعه غدا ثمنا لشقة نسكنها ..

هبطت جالسـا فوق الأرض ممسكا دماغى بيدى قبل ان ينفجر .. وطوحت الرياح بدماغى فلم تتوقف خواطرى الا عند واحد بعينه : ابن صاحب البيت الذى نستأجر فيه ــ مؤقتا ــ

شـقة من غرفتين وصـالة غير صالحـة للسكنى الا فى ظروف كظروفنا وبلد كبلدنا وعصر كعصرنا ، ويكفى أن مياه المجـارى تشاركنا سكناها وتتحدى كل قدرتنا على التنظيف والمقاومة . كارثة . فابن صاحب البيت ولد صايع هارب من عشرات الاحكام والتهم ، لا يظهر الا كل بضـع سنوات ولا يختفى الا بعد ضربة قاضية يقصسم بها ظهر واحد من أهله أو من الجيران ، ويقولون انه يظهر ويختفى فى معظم الجرائم والسرقات التى تحدث فى هذه المنطقة التى نسكنها ، وهى منطقة تنسلت من بطن زحـام قاتل وتطل على المدى الفسيح اللانهائى ، وحواليها بعض العزب والبيوت ذات الدور الواحد المتكفئة على نفسها ..

لطمت وجهى أنا الآخر كالنساء . قلت : « كيف تم هـذا ونحن نيام ؟ » قالت زوجتى وهى أتعس خلق الله طرا : « كدت أمسك به لكنه دفعنى بعنف فكدت أنكسر وقفز هو من الشباك ». قلت : « متى ؟ » . قالت : « زمانه الآن يجرى فى الطريق » . قلت لها : « أهو ابن صاحب البيت ؟ » . قالت : « لا لقد لمحت وجهه ، ليس هو بالمرة ، يخيل الى انى رايته من قبل ! » . هنا صاح طفلى الصغير « هشام »قائـلا : « أنا اعرفه يا بابا » . قلنا جميعـا : « تعرفـه يا هشام ؟ » . قال رافعـا حاجبيـه الكثيفين : « نعم أعرفه يا بابا .. رأيته وهو يخطو نحو البوفيه » صاحت زوجتى : « أهو يسـكن فى حينا يا هشـام ؟ » قـال هشام : « نعم » وهز راسه . قلت : « أتعرفه وتعرف بيته ؟ » قال بهزة رأس : « نعم » .

ولم يكن للابتسام مجال فاعتقلنـاه وان حق لحظتهـا .. فهشام لا يبلغ من العمر سـوى اربع سنوات ، صحيح انه مشدود الحيل باسم الله ما شاء الله وشقى ولمض ويفعل حركات العجائز ،

الا اننا لا يجب أن نأخذ بكلامه . لكن أمه نظرت اليه والى بلهفة الغريق الذى يتعلق بقشة . هب هشـام واقفـا يشوح بذراعيه الصغيرتين ويلوح بأصابع دقيقـة لطيفة منغمزة ، يشرح لنا مكانا ها هنا عند الفحت الجديد . ولم نكن نفهم من وصفه شيئا ، لكنه كرجل كبير شـدنى صائحا بسرسعة حبيبه : « تعـال أوريه لك » . نظرت لى زوجتى فى ضراعة . قلت فى نفسى : لم لا ؟ خذوا فألكم من عيالكم ! من يدرى فلربما يصـدق هشام ! . ثم اننى بحثت عن المسـدس غير المرخص الذى أحتفظ به لمثل هـذه الحـالة فلم أجده ، اذ كان هو الآخر مدخرا مع النقود فى درج البوفيـه فسرقه اللص من بين ما سرق . فقالت زوجتى : « بركة ، لعـله خير » ثم اننى خرجت بجلبـاب النوم والشبشب الزنوبة وهشام يسحبنى من ذيل الجلباب .

شعرت انه يمضى بى الى اتجـاه معلوم ويدخل فى حـارة معينة ليخرج عند ناصية معينة فيستدير الى حارة يقصـدها ، حتى لقد ابتهجت رغم المحنـة ، وعجبت كيف أن طفلى هشـام وهو بعد لم يتجـاوز الرابعة يعرف التجوال فى كل هذه الحوارى بكل هذه الخبرة والثقة . ثم قلت لنفسى انه ابن الشقاء ، لقد ولدته أمه وأنا فى الغربة فى بلاد العرب أربع سنوات قضيتهـا على جنب واحـد لم أنم دقيقة اذ كلمـا أغمضت عينى رأيت أولادى فى مهب الريح لا مسكن ولا مهد ولا سند فى مدينة مفترسة لا ترحم ولا تدع رحمة السماء تحل ، ادخرت القرش فوق أخيه وان حضر الخبز يكون الملح رفاهية الغموس كما أوصـانى أبى عامل السخرة القديم ، كان لابد أن أجمع مبلغـا يوازى ما جمعته زوجتى ، فقد انفقت المسكينة سبع سنوات من عمرها فى الغربة تعمل مثلى هي الأخرى مدرسـة فى بلاد العرب سبع سـنوات

هي عمر ولدى « لمياء » و « غادة » كانت المسكينة تعرف أنها تشقى فوق ما يحتمل البشر وكنت انا ايضا اعرف لكننا قسمنا الشقاء فيما بيننا بالتساوى ، حتى الأولاد حصلوا ربما على أكبر نصيب منه ، هى فى الغربة وانا هنا قائم بالبنتين ، وأنا فى الغربة وهى هنا قائمة بالثلاث ، شاركنا الأولاد أيضا فى الحلم ، وصارت الشقة الجديدة هى مدينة المستقبل التى يرتعون فيها ويطلون من شرفاتها على الحياة ..

انسالت الدموع على خدى غزيرة ساخنة .. وكان طفلى البديع هشام يتقافز أمامى تحت ضوء القمر منطلقا كرجل صغير لا يلوى على شىء .. انتبهت فاذا بنا قد أشرفنا على جسر من الردم الأسود ، ثم انحرفت وراء هشام بحذاء الجسر فاذا على اليمين حفر عميق وعلى اليسار بيوت متناثرة وسط مستنقعات جافة فى كل خطوة كنت أتوقع أن تنغرس أقدامى فى الوحل ، لكن الكلاب الضالة كانت تمشى فنهتدى بها .. وكان السكون يكفن جثة الصمت ويكفننا .. فلما دب الخوف فى أوصالى سرت القشعريرة فى جسدى وانفجرت فى بكاء حاد متقطع متفجع ، فوقف هشام ينظر فى وقد اكفهر القمر فى وجهه الصغير الشفيف ، وصارت نظراته القلقة المهمومة تتطلع الى وتنكسر لتعود فتتطلع الى .. جففت دمعى ، وبصعوبة أوقفت التشنج ، وبصعوبة اخرى قلت : « أمال فين بيت الحرامى يا هشام ؟ » قال هشام فى صوت حزين برىء : « ما اعرفش » صحت فى غضب أرعشه : « قلت انك تعرفه » . صاح موضحا باصابعه الدقيقة المنخرة : « لا .. ما أعرفوش .. بس فيه راجل هنا بيبيع حلاوة ! » .

سبتمبر سنة ١٩٨٠

الاضمحلال

لم أكن أنوى المجىء الى وسط البلد فى هذه اللحظة ، لكن سائق العربة الأجرة هو الذى عاقبنى على طولة لسانى ومراجعتى اياه فى التعريفة التى يفرضها على كل فرد من الراكبين حتى ولو كانوا عائلة ، فدلقنى فى الشارع ومضى يلعن سنسفيل المدارس التى علمتنى قلة الأدب ! ..

ولم يكن بى ميل الى البقاء فى وسط البلد دقيقة واحدة . ولكن السيارات بمختلف أنواعها كنست الطريق على وجهى فيما أنا واقف . وكنت قد أمضيت ساعات طويلة أمارس الدلة بدون أن أدرى ، أفقت على نفسى رافعا أصبعى فى الهواء تجاه الفراغ والألم المصطنع رغم مبرراته القوية ـ يرتسم على وجهى ، وصوت أغلب اليقين انه صوتى يصيح فى متتالية متكررة : « مصر الجديدة والنبى ؟ .. الهى يعمر بيتك .. من فضلك والنبى يا أسطى باشا » . فما ان رأيت المقهى ورائى حتى ارتميت على كرسيها جسدا بلا كيان بلا نفس .

ولم أكن أريد أن أشرب الشاى أو القهوة ولكن الجرسون البلطجى نبه على فى غلظة أن ليس عندهم سوى الشاى

أو القهوة ، فتأسفت له وطلبت شايا أعرف مقدما أنه لن يروق لى شربه ..

ولم أكن أريد سجائر ولا حلوى ولكننى اشتريت قطعة شيكولاتة حقيرة غير انها أجنبية بنصف جنيه لكى يقبل البائع أن يفك لى ورقة بعشر جنيهات هى كل ما تبقى من مرتبى ولم يصل الشهر الى منتصفه بعد . ولم يكن فى نيتى دفع بقشيش للجرسون البلطجى خاصة بعد ان جرح لى نصف الجنيه الآخر بثمن الشاى ، الا اننى لم أجد معه قروشا فكة فسلمت أمرى لله واستعوضته فى البريزة ..

ولم اكن اريد الانصراف من فوق الكرسى قبل أن يحل بى الهدوء ، ولكن كثرة المنهارين على الكراسى دفعت الجرسون البلطجى الى طردى بوسائل مصطنعة بدات برش الماء فوق ثيابى وانتهت بالصياح فى طلب الحى ! ..

ولم اكن اريد السير فى هذا الشارع الجانبى ولكننى حودت اليه مدفوعا بكتل من الزحام الخانق ، والجو كان مشبعا بضباب رمادى داكن ، وفى راسى صورة لصدر المدينة المتحشرج وقد أصابه مرض الربو ، وكل هذه الجموع الهائلة ليست سوى طبقات فوق طبقات من البلغم المتكلس ! ..

ولم يكن بى رغبة فى الطعام ولكننى فجأة وجدتنى أمام رغيف ، بل عشرات من الأرغفة البلدية الساخنة تصطف على الجريد فى لون النحاس المتورد ، فخيل الى اننى لم ار هذا الرغيف من عشرات السنين وانه كان يختفى من ديارنا ليظهر هنا ، فأحسست بالجوع المفاجىء ، فانسقت وراء الرغيف ،

فاذا بى قد جلست فى محل شبه فاخر ولامع ، واذا به يبيع الكبدة والمخ ، ضربت الحسبة فى راسى فوجدت أن نصف ربع كيلو من الكبدة يرضينى ويعيد الى يدى بقية من أشلاء الجنيه أشرب بها شايا ودخانا ! ..

الترابيزات كلها مشغولة بمجاميع ياكلون فى صمت . ولم اكن احب مراقبتهم ولكن جرسونا ما لم يجىء ليرى ماذا أطلب .. فوجدت لذة فائقة اذ اكتشف بلمحات سريعة خاطفة أن هــذه المجموعة على هذه الترابيزات جاءت مع بعضها كمجموعة تعرف بعضها وأن هذه الترابيزة عليهــا اثنان متلازمان واثنان غرباء . ولم أكن أحب الشعور بالاغتراب ، ولكن وجدت ان المجاميع التى تعرف بعضها يبدو أعضاؤها وكأنهم يحــاولون اخفاء ما بينهم من صــلات ! ..

وكنت أتوقع جرســونا فجاءنى ولد صايع لا يزيد عمره على عشر سنوات ، قيل انه ابن صاحب المحل وقد تركه بدلا منه وذهب لبعض شانه . ولد يحــاول بكل صفاقة ، لا أن يكون رجلا فحسب بل رجلا وفتوة . وكنت قد سمعته يملأ الدنيا ضجيجا وصياحا وشتما فى الصنايعية الواقفين أمام الفرن ، يخــاطب الزبائن بغلظــة قائلا : « فلوســك يا باشــا وانت ياخويا يا أبو بدلة .. اقعد ياسى بتاع اللى هنــاك .. احنا كده .. مزاجنا .. ... الخ الخ » ولم أكن أحب التعــامل معه ولكننى لمــا رأيته مقبلا نحوى نافقته قائلا : « أهلا يا معلم » فرد كأنه المعلم بالفعل « اهلا يا اخ » . « طلبت نصف ربع من الكبدة » فقال كأنه يخاطب شحاذا : « معندناش .. فيه مخ .. تاكل ولا متاكلش ؟ ! » فطلبت مخا بطبيعة الحال ..

جـاءنى المخ متهرئا فى طبق تفوح منه رائحـة الزفـارة ، فتأففت ، ولم يكن فى رغبـة فى أكـله لكننى رايت الجميـع من حولى يلتهمونه فى شراهـة فائقة ، فتأففت اكثر ، ومع ذلك رحت أجرع لقيمات مغمسة بالطحينة المزيفة بالدقيق والمـاء . اخـذت الوك اللقيمات فى ملل حتى وقفت لقمة فى زورى واردات جرعة ماء خلفها ، فوجدت ان الولد لم يحضر كوب ماء . فكرت فى طلب المـاء بصيحة غاضبة لكننى نظرت حوالى فلم أجد ولا كوب مـاء على الترابيزات ، فى حين تجمعت عشرات الأكواب فوق رخامة الحوض والحنفية مفتوحة على الفراغ . صحت فى كثير من الرقة ناظرا حوالى كأننى اشرك الآخرين فى الاحساس بالأمر : « هو مفيش مية ولا ايه ؟ » . فلم يلتفت أحد الى ، وبدت بعض الوجوه كأنها تتحـاشى رؤية وجهى الكريه . صحت من جديد فى مسكنة كأننى استدر عطف الولد : « شوية مية والنبى يا ابنى » . لكن الولد لم يسمعنى ، حيث كان واقفـا يمزح مع الفاكهى المجـاور وسط الزحام ، يتثنى ويتعوج ويخرج لسانه ويصـدر أصـواتا قبيحة من انفه متفاخرا بسوقيته العظيمة ! ..

وكنت أردد صيحتى للمرة العاشرة واللقمة واقفة فى زورى حين تنازلت بعض الوجوه ونظرت الى باسمة واخرى الى الولد ضاحـكة ، فـلم ادر ان كانت تسـخر منى أم تحيى صفاقـة الولـد ! ..

لكننى حاولت نسيان المـاء مؤقتا . وصرت أشرب مـاء السـلاطة الحـارق اللاهب واجرع اللقيمـات . افقت على أن الترابيزة المجـاورة لى مباشرة قد احتلتهـا مجموعة من الأفنديـة وضح انهم شـلة واحدة ، وكانوا يأكلون ويعلقون على أشـياء خاصة بهم . كان منظرهم يوحى بأنهم جميعا مستريحون بشـكل ما ، بعضهم يتحدث بلهجة المثقفين ، وآخر يتحدث بلغة البواكى ـ

أى الآلاف ـ وثالث يتحدث عن مزايا الرحيل . ثم أنهم صمتوا فجاة وابت فخامتهم الى حديث هامس ذليل ، لم أكن احب معرفته لكن الهمس هو الذى ارتفع قليلا ، فاذا بأحدهم يقول للآخر فى مواجهة وضيعة : « أنا مالى يا عم ما تقول له انت ! » ، واذا بهم جميعا يرددون نفس القول أحدهم للآخر فى غطاء من الضحك الخسيس المفتعل ، ثم أبو الى صمت عميق لبرهة ، ثم اذا بمن يتخذ فيهم مظهر الحكيم يغمغم : « يعنى ماحدش قادر يقول له هات شوية مية يا ولد ؟ ! » . فهزوا جميع أكتافهم فاذا به ينهض فى حركة مسرحية ويتجه الى حوض الماء حيث الأكواب ، فيملأ لنفسه كوبا ثم يجرعها ويتجشأ كالحيوان الأليف ..

احسست بالقرف ، وكان الزبائن يتابعونه فيما لا اعرف ان كان اعجابا او استنكارا ، لكن صفا من الزبائن بدأ ينشأ فى اتجاه الحنفية والأكواب . وكان الولد يتابعهم وقد التمعت فى عينيه نظرة شيطانية . ثم انه انتظر هنيهة . وحين تكاثف صف الزبائن فى اتجاه الحنفية والأكواب استدار الولد فى عياقة لزجة ، ثم اعتلى المنصة التى يجلس فوقها ابوه . وضع ساقا على ساق كما يفعل أبوه من قبل ، ثم صاح فى غطرسة : « اللى عاوز يطفح يقوم يخدم نفسه ! » .

المستنقع

.. رايتنى فى عز الليل واقفا فى شرفة بيتنا وكانت الأضواء فيها باهرة كان يخيل الى ان صديقا ـ لا اعرفه ـ يقف بجوارى، لاننا لحظتها كنا نتحدث ضاحكين عن اشياء لابد أنها كانت مضحكة ، فيما ننظر باستهزاء الى الشارع الذى لم يكتمل بناؤه بعد ، والمستنقع الذى على يمين بيتنا ، والجامع الذى يبنيه الأهالى منذ سنوات مطلا على هذا المستنقع ، والبيت الدور الواحد ـ مثل بيتنا ـ الذى قد اكتمل فجاة وانتشرت على حباله قطع الغسيل رغم اننا كنا قد تعاقدنا مع صاحبه على تأجير احدى شققه . على بابه كانت لمبة مضساءة ، وعلى بابنا واحدة أخرى . وكنا ـ انا ومن لابد انه كان صديقى ـ نرى هذا البيت وبيتنا والجامع ونرى ايضا انفسنا نقف جميعا على رءوسنا فى مياه المستنقع . كنت انتظر قدوم زوجتى بفارغ الصبر ، وكنت مستعدا لها ، وكنت اعرف انها غير موجودة بالبيت فى تلك اللحظة ، ثم رايتها مقبلة فى الشارع ، بنفس فستان البيت ، تجر خلفها ابنتى الصغيرة . ابتهجت عندما رايتها ـ وعرفت فى الحال انها خارجة من البيت اياه ، فلم يقلل ذلك من بهجتى ولابد اننى كنت اعرف انها كانت فى هذا البيت ثم أيقنت فى الحال انها كانت تزور أبى قبل أن ينام فلعله يحتاج شيئا .

كنت أعرف أن أبى قد مات منذ بضع سنين ـ ولم أكن أعرف لمــاذا هو يزورنا الآن ولمــاذا نستقبله فى هــذا البيت ـ لا اذكر ان كنــا قد استقبلناه أم لا ، انما أذكر فقط صــورته فى هــذا البيت ـ وهو متمدد على السرير داخل الحجرة ، والحجرة التى فى هــذا البيت هى نفس الحجرة التى كان ينام فيها فى بيتنا فى البلد والسرير هو نفس السرير الذى انجبنا جميعــا عليه ومات فوقه وقــالوا لى يوم سافرت بعد ان دفنوه « وكان الفقيه ساعتها يقرأ القرآن على نفس السرير » انه ظل وقتا طويلا يؤجل للموت لحين وصــولى • من الشرفــة ناديت اسم ابنتى • وبعد برهــة وجدتنى فى الشارع أداعب طفلتى فى شعرها ـ وكانت تثائىء بصوتها المسرسع وتقول ان جدها لا زال صاحيا . اما امهــا فاستمرت تسير . لحقت بها عند مدخل البيت وكنت مشفقا عليها من الارهــاق لكننى لا ازال أريدها . فاذا بها تتربع على ســلم المدخل لاهثة ، وينفرط جسدها . انحنيت على راســها . اذكر انني ابتسمت ، ولعلنى كنت احاول مداعبتها « فى اللحظة الحبيبة جدا اراني اداعبها بكلمــات خارجة كيما أظفر بانهيار جانب كبير من وقارها » . كان ارهاقها من نوع يثير التشكك ـ ارهــاق من النوع الذى يثير الغيرة . قلت لها ـ لا أدرى لم : « هل فعلهــا الرجل معك ؟ » . وكنت لا ازال ابتسم فلما نكست راســها رحت اتحسس جسدها وأراقب وجهها على الضــوء العليل المتسرب من خــلال تعريشة الســور . كان وجهها جامدا جمود الموت ، وكان يبدو ان هنــاك شيئا عزيزا سلب من عينيها ، وقالت : « نعم فعلهــا معى » ثم اندفعت شــلالات الدمــوع ، قــلت : « لمــاذا .. ماذا ؟ » .

واخذت اتحسس جسدها فى ذعر . قالت خلال دموعهــا وبكل طهر وبراءة : (الرجل مريض جدا) ورايتها ترتفع بين ذراعى

كحمامة مذعورة ، وتنحط من بين ذراعى كعجينة بلا ملامح ثم انني رحت اكتم صراخي حتى لا يشعر الصديق الذى فى الشرفة ، لكننى اندفعت اعدو ذاهبــا الى ذلك البيت أصرخ وابكى واجز على أنيابى وأهدر : « سأدمره .. هــذا العجوز الداعر ســوف أكتم نفسه بالحذاء » . داست قدمى بعنف شديد فوق صرختى الأخيرة وانا ازرعها فى عتبة البيت فيما أنا مندفع لاقتحامه . تعثرت فى الدرج ثم اعترضتنى عتمة ثقيلة فأدركت أننى ســوف اعتدى على حرمة الجيران ، فاعتقلت خطواتى . وكنت مدركا ان قدمى لابد ستنزلق فى بئر ، ولكننى رحت اتحسس الظلام ، وكانت قد تعلقت بذهنى صورة أبى وهو ممدد فوق نفس السرير فى نفس الحجرة .

سنة ١٩٧٤م .

الكشـــكول

.. كنت قد دخلت الى الحانوت بالفعل . ولاحظت اننى ارتدى البيجامة والخف المنزلى ــ واحسست بحرج كبير رغم اننى موقن من ان اهل الضاحية التى اسكن بها يتقبلوننى على اى شكل . لكن سرعان ما اتضح لى ان الحــانوت الذى دخلته هو فى الواقع حانوت حماتى الذى تملكه وتديره فى البلد .. ثم ادركت اننى كنت بالفعل أريد هــذا الحــانوت . اظن أننى ابتســمت للجالسين فى الحانوت لحظتها ــ فأنا لابد وان أبتسم لمن يجلسون فى حانوت حماتى . لم تعلق نظرتى باحد ، لاننى فى الواقــع لم ار احدا واضحا بشكل محدد الا « حسنين » زميلى فى الشركة التى اعمل بها موظفا فنيا . اندهشت طبعا أن يتواجد زميــلى « حسنين » حتى فى دكان حماتى فى هــذا البلد البعيد ــ وقلت لنفسى لابد انها تعرفه او هو يعرفها ثم عدت وقلت ان هــذا ليس مهما فاى واحد يمكن أن يتواجد فى اى مكان لأى سبب . كنت حريصــا على أن يلحظ دهشتى ويحس بهــا ، كى تظل ابتسامته العجوزة تتردد مثل بندول الســاعة على شفتيه . ولمــا كنت أريد شراء شىء ما لا أذكره بالضبط ــ فاننى أعطيت النقود لحمــاتى واستدرت لاســلم على « حسنين » كما ينبغى

وأجاول الاختلاء به ــ فى هذا المكان المأمون ــ ولو لبرهة تكون صافية من اى محاذير . وحينما كانت يدانا متعانقتين فيما نتضاحك بصوت عال بزغ شخص بجوار « حسنين » بقميصه وبنطلونه وشعره المعقد بدا لى انه من سواقط الاعدادية . سلم على باحترام خبيث محاولا اعطائى فوق ما استحق من التبجيل. وحين ابديت عجبى انعوجت ابتسامة « حسنين » ناحية الشخص اياه ثم قدمه لى قائلا انه من اخواننا . فاستدرت اليه ورحت اتدله فى تبجيله محاولا ــ لا ادرى ــ افهامه اننى لا يهمنى منه ولا من اى أحد ، ليس بالعافية ولكن بالحق . لا اذكر أن الكلام استمر كثيرا ، لاننى استدرت واخذت الشىء الذى كنت أريد شراءه وخطوت مستئذنا فى الانصراف . ودعنى « حسنين » بابتسامة ، أما الشخص فقد عاد يحترمنى ويقول أنه يتعشم أن يرانى مرة اخرى . ثم وجدتنى فى بيتى ، ولحظتها كنت قادما من دورة المياه وكنت أحس اننى لست على ما يرام ، وان شيئا ما فى هذا البيت يضايقنى وانه الآن موجود وجودا حادا . على باب حجرة مكتبى كانت زوجتى واقفة ترتجف بينما تنظر داخل الحجرة . وبدا انها كانت فى انتظارى . وبدا أيضا اننى كنت أعرف ان شيئا ما يدور فى حجرة مكتبى . ثم بدا اننى كنت اعرف ان « حسنين » هو واثنين لم اعرفهما من قبل ولا أذكر شيئا من ملامحهما ــ موجودون ثلاثتهم فى حجرة مكتبى . كانوا جالسين يتحلقون كشكولا كبيرا تعودت ان أدون فيه مذكراتى الشخصية ولحظات صدقى مع نفسى . وحينما دخلت نظروا الى. لم أعرف ان كانوا مشفقين او آسفين ، كما وأن أحدا منهم لم يتبادل معى كلمة . ولكن بدا لى أننى كنت أعرف انهم جاءوا الى بيتى يفتشون وانهم قد انتهوا من التفتيش . ثم نهضوا . وبدا اننى كنت اعرف انى لابد وان أخرج معهم . وكنت أفكر فى

تغيير ملابسي ربما لهـذا الغرض . لكنني حين تابعت الكشكول وجدته قد انتقل الى يد أحد الشخصين ، فنظرت اليه فنظر الى يستعجلني في النهوض معه . وقلت : « لمـاذا تأخذ هذا ؟ » فلم يرد علي . فرحت انظر الى « حسنين » وأتوقع أن يفعل شيئا أي شيء وكنت أتوقع ان يكون هـذا الشيء في صالحي لكن « حسنين » كان يبتسم ابتسامة العجوز الغامضـة ولا يتكلم . فاذا بي انخرط في البـكاء ، وأقول انني على استعداد للذهـاب معهم ولكن لمـاذا يأخذون هـذا الكشـكول ؟ ثم قلت أنني لن أتحرك من مكاني الا اذا تركوا الكشكول . ضحك « حسنين » بصـوت عال وأحسست انه بهذه الضحكة يتهمني ويهينني . ولا أذكر ان كانوا قد أخذوني معهم أم لا ، ولكن ضحكة « حسنين » لا تزال ترن في أذني .

سنة ١٩٧٤

الجرى وراء الريح

كانت دارنا منهارة بشكل مثير للفزع ، خيل الى اننى كنت اتوقع ذلك منذ مدة طويلة .. ثم خيل الى اننى لم اكن رأيتها أبدا الا هكذا : شرائح من جدران تقف فى العراء بلا سقف كل جدار يكاد لا ينتمى الى الآخر بأى اتصـال بل أن الجدران نفسـها مشقوقة بالطول وبالعرض شقوقا نافذة . كان ثمـة غرباء يجلسون بين الانقـاض . كان يبدو على اننى اخاف ان تنهـار الجدران السائبة على الجميع .. وكان يبدو على اننى لا احب هؤلاء على الرغم من اننى أحاول ان اظهر حبهم على وجهى كما نفعل دائما عندما نجد ناسا غرباء فى بيتنا ..

لا اعرف لمـاذا جئت الآن ولا اين كنت قبل هـذه اللحظة انما اشعر اننى وهى قد خلقنا منذ زمن طويل بلا شك .. لم اعرف ما الذى يعمله هؤلاء هنـا بالضبط وما شـأنهم بدارنا ؟ وما مدى صلة القرابة بيننا وبينهم . لكن خيل الى اننى أعرفهم جيدا وانهم ليسـوا غرباء على .. مع اننى لا أعرف من هم بالضبط ولا اذكر اى اسم من أسمائهم . كان ثمة رجل يخطب وسـط الانقـاض ، وكانت الجـدران تهتز ، تئز ، تتمـايل ، رغم ان

صوتا أظنه صوت تصفيق حاد ـ كان يراوغ ويغطي على ازيز الجدران ـ السائبة ..

وفجاة لم يعد للجدران وجود . لم يعد هناك سوى اكوام الأتربة . خيل الى انني او فحت فيها فربما عثرت على اشياء كثيرة وكنوز دفينة لكن رؤية الخراب ارعدتني أرهبتني . ثم انه لم يكن هناك أحد على الاطلاق سواى وكان الجو موحشا والرياح تصفر فى اذنى .. لم يكن يشغلني من الأمر لحظة ذاك سوى الشباك الشرقي الذى كنت اغازل منه حبيبتي ابنة الجيران والباب السحرى الذى كان يربط دارنا بدار العائلة الكبيرة والسرير الذى تنام عليه أمي المريضة فى انتظار ان يدخل اخي الغائب كيما تريه كيف رد الروح فيها ، والكرسى العتيق الذى كان يتوضأ عليه أبي ودولاب الحائط الذى كان محشوا بالكتب الصفراء التي ورثناها عن جدنا الكبير .. لكن شيئا من هذا كله لم يكن له وجود .. رايتني اصعد فوق أكوام الأتربة ربما لأتشبث بها . كانت صلبة صلابة حادة وساخنة ثم رايتني ممتطيا سيارة اندفع بها محلقا فى الفضاء وامامى طريق مرصوف لامع رغم الظلام الداكن لكنه ملتو ومتعرج ولا اعرف كيف كنت اسير بهذه الدربة رغم انني لا اذكر اني سقت عربة قبلها . كان ثمة اعتقاد بأنني سائر فوق جبال لبنان وثمة اعتقاد بانني ذاهب الى موعد وثمة اعتقاد ان الموعد فى مكان ما فى عمق الجبل . حتى ان العربة من تلقائها صارت تهبط وتهبط وكانت فروة راسى ترتفع فجأة فأعرف انني هبطت فى حفرة لم تكن فى الحسبان . ثم طلع القمر خجولا فاذا بي اسير راجلا على شاطىء نهر خيل الى انه نهر بردى . ثم انتبهت الى انني اسير حافيا .. ثم اتضح لى ان الأرض موحلة وانني انزع قدمى منها بصعوبة شديدة . وكان

القمر الخجول قد سقط فى الأرض وانزوى مكتئبا فى قلب النهر وكلما نظرت اليه توارى بين السحب وغاص فى الأمواج . رايت صيادا يخرج من القاع ويتعقبنى بنظرة فعرفت انه يتشكك فى وجودى ؛ حيـانى كأنه يستطلع هويتى فلمـا حاولت الاقتراب منه لاريه ملامحى على حقيقتها اذا بالاوحـال تتراكم بين قدمى حتى منعتنى من السير . خيل الى اننى ابتسمت لكن لا اعرف لـماذا الابتسـام .. صاح الصياد تجاهى صيحة لم أعرف لها منطوقا ، لكننى فهمت منها اننى متطفل وشحاذ واننى يجب أن أفر من هنا فى الحـال . تذكرت ـ بقليل من الراحة ـ بطاقتى العائلية حيث يمكن أن تثبت اننى شخص ذو بال فى وطنى ، ثم رحت ابحث عنهـا حتى وجدتهـا فرفعتها فى يدى مثل منـديل الأمان ، فطلبها باشـارة من اصبعه ، فرميتها فى الهواء تجاهه بأمل أن يتلقفها لكنها انفردت فى الهواء وصارت الريح تعصف بها ذات اليمين وذات الشمال حتى صارت كالملاءة وكانت ترفرف على رأسى ففرحت وقلت لنفسى : هـذه مـلاءة تنفع السريـر العارى لكننى حين تأملتها عن قرب وجدتها رقعة عريضـة من أوراق الصحف ، وكان عليهـا كتابه ، وأبى يعلمنى أن الدوس بالحذاء على سجادة الصلاة جريمة وأن رمى الكلام المكتوب فى الأرض جريمة ايضا لأن كليهما على اسم الله مقدس وجليل ، بدا على اننى كنت اعرف انها مجرد ورق وان ما عليها مجرد سطور مطبوعة ، لكننى مع ذلك طويتها فى احترام ورحت امرر بصرى على سطرها فيما انظر بين الفينة والأخرى الى الصياد مبتسما ، ربما لأجامله . على اننى نظرت فلم أجد للصياد اثرا ثم اتضح لى ان النهر لم يكن نهرا ، وكانت ثمة خطوات لشبح مقبل من بعيد قد اخذت ترن وتئز ثم اتضح ان الفضـاء العريض مرصوف ولامع وانه لهذا يعكس القمر . لم يكن ثمة أوحال .. لكننى كنت ما ازال

حافيا . أحسست انه يجب على ان اتقدم لملاقاة الشبح فى الطريق بوضوح حتى لا يتشكك فى وجودى .. ما ان خطوت حتى غاصت قدمى فى الأرض فاحدثت صوتا حبيسا وانسكبت مياه فوقها فعرفت ان الأرض محروثة كلها وانها مروية حديثا ولذا فهى مغطاة بصفحة الماء وانها لذلك تعكس القمر .

حين خلعت قدمى وارجعتها كان الشبح قد اختفى .. صحت من الخوف وخيل الى اننى ناديت أحدا .. وخيل الى ان من ناديته قد رد على فناديته من جديد فرد على باسمى ، وكان الصوت يخرج من الحفرة التى فقأتها قدمى وعرفت من صوته انه يعرفنى جيدا وانه من بلدتنا بدليل انه يسألنى عن الصحة والأحوال والأهل والجيران فردا فردا باسمائهم . وكان يبالغ فى الترحيب بى والفرح بقدومى . مما جعلنى أوقن اننى لابد قادم من مكان الى مكان ما . خجلت ان أساله من هو . انما رحت أساله عن الصحة والأحوال . فضحك حتى بقللت المياه فى الفجوة الصغيرة وقال فيما اظن ـ انه جارنا القديم . « عبد السلام » الذى مات فى مكان ما فى مناسبة ما لا اعرفها ، ولكن اذكر ان الحزن على موته كان كبيرا . سألته عما جاء به الى هنا ، طالما انه يعتبرنى قادما . فقال لا أدرى فقلت له : اذن فاين نحن الآن ؟ فقال : لا أدرى ولكننا بالتأكيد لسنا حيث دفنت منذ زمن قديم . قلت له : لعل الأرض زحفت بك الى هنا ؟ فقال : أو زحفت بالآخرين فوقى . فلم افهم من كلامه شيئا . وفى الحال جف ريقى كأن سكينا انغرزت فى حلقى . ارتأيت أن اشرب من ماء الحفرة . كان على ان انبطح أرضا لأتمكن من عب الماء وشفطه على مهل . فلما انبطحت رأيت النهر يجرى فى السفح عريضا هائلا عملاقا ولكن بينى وبين

الماء أميال وأسلاك شائكة . فاعتدلت واقفا . فاذا بنهر آخر يلمع من بعيد ، كالسيف وبدا انه من الصعوبة تمييز الأرض عن السماء . خيل الى ان قامتى تطول وتطول ، ثم وجدتنى اقف فيما بين النهرين ، وثمة مدينة كبيرة ترتفع قبابها وابراجها فجعلت اقترب منها فى فرح ونشوة وكان ثمة اصوات راقصة ، مغنية ضاحكة ، نشوانة ، رنانة ، تتفلق من المدينة الساحرة الساهرة . وكان صدرى عريضا مثل جلجامش . وقامتى مستقيمة ورشيقة واثقة مثل رمسيس لكن شيئا ما ، لا ادريه بالضبط ، جعلنى أتسمر فى مكانى وافقد قدرتى على الحركة والنطق ثم رايتنى واقفا فى باب الحديد وتحت ابطى كتاب أظنه ملحمة ايزيس وأوزوريس وكنت لتوى قد اشتريتها من على سور الأزبكية ولم أكن أعرف لماذا أنا موجود فى باب الحديد ، ولكن الظلام لحظتها كان قد بدا يتكاثف ويتراكم والسماء ترعد وثمة صراخ وعويل وحناجر تهدر وكلاكسات تسبح بايقاع الهدير . وأمواج من البشر تتدافع وتطالب المنسحب أن يرجع فى قرار الانسحاب فسألت عن الأمر فقالوا لى : لا نعرف ولكنه قرار اتخذ الليلة . ونحن لا نحب الانسحاب نحن ضد الانسحاب.

فيما كانت الأمواج تتدافع وتتصادم كنت انسحب دون ان اعرف فى اى اتجاه اسير ، ذلك ان كتل البشر كانت تسير فى كل الاتجاهات بلا تمييز واضح . ولم يكن لى مزاج لأى شيء . فجاة رأيت اثنين يتبعاننى . فتوقفت عن السير . فتوقفا . ولما استانفت السير استانفا . اسرعت فاسرعا فتوقفت فى الحال ، واستدرت اليهما وقد تجمعت قبضة يمناى وتشنجت اطرافى فتوقفا . فذهبت اليهما وكان يخيل الى اننى انتوى شرا . وفى الحال رايتنى اقف على رصيف المحطة انظر فى الناس

وأتفرس فى وجوههم بما لا أعـرف ان كان ودا أم ارتياباً . كان الرصيف طويلا وعريضا كساحة مسرح رومانى . ثم اتضح اننا فى معبد الكرنك ، الذى رأيته فى كتـاب المطالعة .. بدا اننى أعرفه طوبة طوبة ، ومن المؤكد اننى كنت اختبىء فى هـذه العواميد أثناء الطفولة عند اللعب . لم يكن ثمة صـوت . لكن ثمة افواج من الرجال كانت تتدافع مقبلة من بقعة ما لا اراها . منكسـة الرءوس فى ذلة . وكان من الواضـح انهم جميعـا يحسـون بالعار . وانهم مهانون حتى النخـاع وكان بينهم بعض اخوتى واصدقائى وزملائى وكان يخيل الى ان الأرض هى التى تتحرك بهم فى زحف أسـيف . وكانت البوابات والجـدران والعواميـد تختفى شيئا فشيئا . ثم رأيت الجموع تصطف وسط الصحراء وكانوا عراة الا من ورق التوت . الذى يستر عوراتهم . وكنت واثقا ان ليس فى الأمر قتـالا . وكنت واثقا ان ليس فى الأمر من سلام . ثم اننى تعجبت من وقوفنا هكذا . ثم تنبهت الى ان ثمة رجـلا يرتدى حلة ممن يجلس على مكتب أمـام صفوفنـا المتراصة . وأمامه زجاجة أظنها مياها غازية . فى يده سيجار غليظ . يضع ساقا على ساق . سألت رجلا يقف بجـانبى عن الأمر فنظر الى ساخرا محتقرا . قال بعد برهة اننى لابد أن أكون على علم باننـا ذاهبون الى الحجـاز . فلم أصـدقه . وانتويت ان أعنفه على طريقته فى الكلام فوجـدتنى واقفا خلف الرجل ذى الحلة الثمينة ، حاملا صينية عليها كوب من المـاء وفنجان قهوة وعلى ان أميل لوضعها على المكتب أمام السيد . وكنت لا أزال مشغولا بأمر هذه الجموع الحاشدة ثم اتضح ان هناك من يضربهم بالشلوت وبالعصى فظلت جموعهم تتضاءل حتى أبت الى طابور هزيل متهالك وكانت زوجتى تقف فيه حاملة بطاقة التموين وكانت فى نهاية الطابور بوابة تفضى الى الخـلاء ويتدلى

من سقفها حبل معلق فيه رجل مشنوق . وكان يهتز كبندول الســاعة فاستدرت عائدا وكنت قد تذكرت ان أولادى يحلمون بعودتى مبكرا .. ثم اننى وجدتنى أمشى على طريق زراعى وكان يبدو على اننى أسير منذ وقت طويل طويل وكان يبدو على اننى متلهف على قدوم شجرة الصفصاف التى ان رايتها أحسست اننى صرت فى زمـام بلدتى وعلى أبوابها . كانت الشــمس كسبيكة منصهرة من الذهب . ثم سمعت صــوتا لوقع حوافر اخذ يقترب خلفى ويتضخم ، فلم أعبأ به ، وقلت لابد انه واحد من عليــة القوم كان الخــدم ينتظرونه بالركوبة على المحطــة . ثم اقترب موكب صغير لرجل يلبس حلة أنيقة ونظارة طبية ويركب فوق حمار بسرج ولجام مذهب ، ويضع أمامه حقيبة جلدية أنيقــة ، وعلى الجانبين رجلان يلهثان بجوار الركوبة . عرفتهما على الفور. انهما سعيد باشا وسمير بك من أبناء بلدتنا القدامى .

ابتسمت ولمــا كنت اعرف أنهما غائبــان منذ زمن بعيد رأيت من الواجب ان اسلم عليهما باعتبارهما يعودان بعد غيبة كهذه .. وباعتبارى اعود بعد غربة طالت ولا اذكر بدايتها .. كان منظرهما يشى بانهما لم يفقدا شيئا من مظهرهما القديم وانهمــا لم يخسرا شيئا بموتهما . تهيأت لاستقبالهما .. لكن الركوبة ظلت تسير دون ان تعبأ فيما يلهثان بجوارهما أحدهما يحنن الركوبة بكفه والآخر يستحثها بعصــا قصيرة رفيعة .. لمــا حاذتنى الركوبة وجاوزتنى كنت قد تأكدت ان الأفندى الراكب عليها هو واحد من الغرباء خيل الى اننى ارى صــوره كثيرا فى الصحف فوجدتها فرصة لأراه رؤية العين ، فجعلت اجرى خلف الركوبة لكنهــا فاصت ثم اختفت فى الأفق البعيد ...

وكنت لا ازال الهث وانصبب عرقا حين رأيت أخى وأبناء عمومتى وخلفهم رهط كبير من الفــلاحين يهرولون قادمين من

البلد . سألتهم ما الخبر فزغدنى أخى وقال لى : أما ترى يا أعمى ؟ .. فنظرت ورائى فرأيت حريقا هائلا لابد انها كانت جهنم الحمراء حيث كانت أمواج اللهب العاتية تزحف فى حقول القمح المستوية .. رحت أصرخ مع الصارخين وأجرى معهم فى اتجاه ترعة المياه رغم انهم يحملون أوعية بينما أنا لا أحمل الا اننى كنت أجرى بجنون فى اتجاه الماء حتى اننى سبقتهم جميعا . وظللت أجرى وأجرى حتى اذا ما وصلت شاطيء الترعة وجدتنى وحدى ونظرت فلم أجد للنار وجودا ولم يكن فى الترعة من ماء وانما كانت تنتشر على شاطئيها أكوام من الردم الرمادى .. وكنت أحب العبث بقطع الردم فى صغرى كأنها فتافيت السكر وكان أشد ما يفرحنى ان أفرك القطع بأصابعى فتنفرك بسهولة وتنساب من بين أصابعى ناعمة كمياه جففتها الشمس الى حين .. رأيتنى أرتمى على كومة الردم ويحلو لى التمرغ مثلما كنت أفعل .. لكننى أحسست بعظمى يتكسر فوقها فكذبت نفسى ولم أصدق . ثم اننى أخذت أخمس فيها بأظافرى .. فأرى أصابعى تغوص فيها بسهولة .. لكننى حين أخرجتها وجدتها ملوثة بالدم .. وكان دما ساخنا .. فانتفضت صارخا وحاولت الوقوف فلم أستطع ، فرحت أتمرغ وأكوام الردم تتمرغ فوقى .. وكنت احس باننى على وشك الاختناق ، لكن رائحة الطمى سرعان ما كانت تفيقنى . على ان يدا امتدت ورفعتنى معتدلا . زغدتنى ثم أشارت بأصابعها فعرفت انها تطلب بطاقتى ففتشت عنها فلم أجدها . فاعتقلنى ولم أكن قد رأيته بعد . ورغم انه أمرنى بالتوقف فى مكانى ثم اختفى يدا وصوتا الا اننى لم أكن قادرا على تحريك يدى أو صوتى ، كانت عينى فقط هى التى تتحرك فوق أكوام الردم التى كانت تصدر أنينا مكتوما وكانت ثمة أقدام لناس غير مرئيين تدوس فوقها بأحذية ذات أشكال

وألوان غريبة فتنطلق انة أو تندفع نافورة من الدم . فلما رفعت بصرى محاولا رؤية الأجساد صاحبة الأقدام لم أجد سوى الجدران السائبة ، تقف فى العراء بلا سقف ، كل جدار يكاد لا ينتمى الى الأخرى بأى اتصال ، بل ان الجدران نفسها مشقوقة بالطول وبالعرض شقوقا نافذة ، وكان الغرباء يصرون على البقاء بين الانقاض وكان يبدو على اننى أخاف أن تنهار الجدران السائبة على الجميع ، وكان يبدو على اننى أعرف هؤلاء أعرفهم جيدا ، وكان ثمة رجل يخطب ولم أفهم من كلامه شيئا .. ثم انتبهت الى أن حولى وخلفى جموعا هائلة ممن يبدو أنهم أصدقاء وكانوا مثلى مسمرين فى وقفتهم ينظرون الى الاطلال فى بلاهة وشرود ، وكانت الصلة الوحيدة التى تربطنا جميعا بالغرباء هى الشقوق النافذة فى الجدران السائبة ، اذ كنا نراهم ويروننا من خلالها فقط . كان صوت الخطيب لا يزال يدوى دون أن نفهم من كلامه شيئا ، لكننا كنا نعرف أنه يشتم فى عباد الله الفاسقين . ثم ان الوقفة طالت ولم نعد نعرف ان كان الخطيب لا يزال يخطب أم أن الاطلال تردد أصداء صوت قادم من زمن سحيق لكنا كنا بالكاد نستطيع النظر الى بعضنا البعض بدون أن نتحرك أو نفعل شيئا فقلت لنفسى .. لعله الذهول يطول . فاذا بالشقة تتسع بين جدارين واذا بمركبة تخرج من بينهما تبينت فيها انها ربما ـ كانت السرير الذى تنام عليه أمى المريضة فى انتظار أن يدخل أخى القادم من الغربة كيما تريه كيف رد الروح فيها . ندقق . كان ثمة جسد ميت لعملاق يتمدد ملفوفا بالكفن تلاحقه قافلة من الغلمان تنهال عليه بالكرابيج فى عنف وشراسة لا مثيل لهما فى الجحيم . وكان الجسد الميت ينتفض داخل الكفن مثل سمكة تتقلب فوق اللهب وخيل الى انه يبتسم فى مرارة ابتسامة فهمت منها انه غير عابىء

بشيء وأنه كان واثقا أن شيئا من هـذا سيحدث له .. قلت لنفسي أين نحن واقفون ؟ ثم نظرت امامي فلم أجد أرضـا ، ونظرت خلفي فلم اجد ارضـا فعجبت كيف نقف هكذا معلقين في الفضاء ثم قلت لنفسي لا اننا الآن فوق الصراط المستقيم الذى كان فقيه الكتاب يحكي لنا من وجوده يوم تقوم القيامة ، فعرفت ان الجحيم فى القاع ينتظر من يسقطون عن الصراط وان الجنـة الموعودة فى نهاية الأفق تنتظر من يعبر الصراط اليها . ولكننى رأيتنى بين الاطلال والجدران السائبة تتحرك لتطبق على ثم تعود فتنفرج ، فأجرى من بينها مذعورا ولم يكن هناك بشر فليس ثمة صـوت إلا صوت الريح العاتية التى راحت تهب من جميع الجهـات الى جميع الجهات ووجدته ــ السرير . أندفعت اليه ــ كانت الريح قد طيرت عنه أوراق الصحف وكانت تنام عليه أمي وكانت عارية لكن ذراعيهـا الممـدودتين بجوارهـا كانتا تنتهيـان بكفين مبسوطتين على فرجها .. كفتاة تحمى عفافهـا فاشتدت الريح واشتدت .. ثم انها أخذت تشتد ..

سـنة ١٩٧٤

حجـران بالمصفـاة

اشتقت أنا وصديقى الى شرب حجرين بالمصفاة ، فمنذ ان ارتفع ثمن الحشيش انخفضت شهيتنا للشرب ثم عادت وتزايدت برغبة مسعورة كأنما لنتحدى بها القوانين التى لاتنى تنهـال على رءوسنا من كل حدب وصـوب خاصة فيما يتعلق بأمزجتنا لكن ضيق ذات اليد جعل الواحد منا يدخر القطعـة الصغيرة ليدوش نفسه بسيجارة أو اثنتين منها على الأكثر كل ليلة ، يستطيع بموجبها ان يتقبل سخف الليـالى ، ويجلس أمام التليفزيون ، وينصت الى شكاوى زوجته وامنيات أولاده التى تبدو بلا حصر وتبدو أيضا مجرد امنيات غير مؤهلة للتحقيق أبدا ...

لكن الحشاش منا يتوق الى ضرب الجوزة والاستماع الى نغمها ، والى تطويع المصفاة بالنار حتى تتوهج ، ويشـتاق الى حشو فمه وطاقتى انفه بنفس دخان الجوزة الكثيف ليكتمه فى طاقتى الأنف حتى يصعد الى المخ مباشرة محدثا أزيزا كأزيز صوت فرملة الخطر ..

كنا فى أوائل الشهر وكان صديقى المثقف يحلم بالسـفر الى بلاد الغربة ، ليس ليجمع قدرا من المـال يقيله من عثرته فى وهدة العذاب والشـقاء ، وليس من أجل شقة يلتقى فيها بزوجتـه

المغتربة فى بيت أمها المغتربة بدورها فى بيت أخيها ، بل ليكتب رواية عن حياة المصريين المغتربين ، وكيف يتصارعون هناك ويدس بعضهم لبعض ويصغرون انفسهم فى أنظار مخدميهم ، وكيف ـ مع ذلك ـ يقيمون هناك صروح حياة ويؤسسون للعمران، هى ملحمة بلا شك ، ولم يكن يحلو له هذا الحديث فى هذا المشروع الا ونحن نشرب حجرين بالمصفاة على يد ولد غرزجى شاطر . ولم أكن آمل من الاستماع الى مشروعه طالما اننى ان اتكفل وحدى بدفع نفقات المعسل والحريق فضلا عن اننى صاحب القطعة التى سنرص منها . ومن طول عشرتنا للموضوع لم نعد نترك الأمر للتلميح بل صرنا كلما التقينا يخرج كل منا بضم جنيهات ونذهب لنشترى ربع قرش بثمانى جنيهات من مصطفى زقزوق فى حى الجمالية ، ونجتهد فى الا يزيد حساب المعسل والحريق عن جنيهين آخرين حتى يتكفل كل منا بخمس ، تعودنا أن ندفعها وفى عيوننا وايدينا رعشة غريبة تقول ان هذه الورقة النقدية دون أوراق النقد على الإطلاق غفلت فى هذه اللحظة عن ذكر الله فانسربت وضاعت بددا ، ونظل وقتا طويلا مهما يصل الى عشرين حجرا نتذكرها ونجرى بشأنها حسابات نحاول جاهدين أن نجعلها تتوازن بدونها . لكننا فى العشرة الثالثة أو الرابعة نكون قد نسيناها ونسينا كل شيء ، اذ ينساب صديقى فى حكى صور ومشاهد مما يسمعها عن المصريين فى بلاد النقود والنفوذ ، وانماط غريبة ، وكيف سيسلكها فى الاطار الفلانى ويربطها بالوضع العلانى ، ولم أكن ادرى اهو متحمس هكذا بفعل الرغبة فى السفر او بفعل النشوة من مشروعه ؟ كما لم اكن ادرى اذا ما كنت استمع اليه بكل هذا الحماس لبراعته فى الحديث أم لاهتمامى أنا الآخر بالمشروع أم لرغبتى الدفينة فى السفر واللحاق بسنة مالية أو أكثر ؟ .. الشيء الوحيد

الذى اثق فى وضوحه هو حبى للاستماع اليه قدر حبه للحكى من مشروع السفر .

قعدتنا المفضلة هى شبه مقهى صغير فى حارة سد فى حى عتيق جداً من احياء القاهرة الجبرتية ، حيث تتكاتف البيوت وتتقارب لتمنع نفسها من السقوط وتتهامس بكثير من عواطف تصلب عود الزمن ، وحيث الرطوبة المحببة تشيع فى المكان ، وحيث يحلو للانسان ان ينفض ذهنه من كل المشاغبات ، ويتفرج على غزلان بشرية تخطر فى الحارة رائحة غادية تسكب على المكان عبقا يبل الريق ، وحيث ينشط الولد الأسمر الطويل فيسيخ لنا الجوزة ويسلك الحجارة ويدشدش النار فى المصفاة وينقيها من الهباب حتى تصبح كحفنة من حب الرمان ينثرها بقدر على الحجر ويمسى علينا بالخير والقشدة ، يلاغينا ، يحدثنا بلغة المثقفين تارة ، وأولاد البلد تارة اخرى ، ويطجن اذا لزم الأمر ويحزن اذا أكثرنا من الملاحظات عليه ، ويعطينا ظهره و « يطفشنا » فى المرة القادمة اذا لم يملأ البقشيش عينيه .

حين وصلنا كانت حالته آخر تمام ، وجهه يضحك وجسده فى دوامة نشطة يشوبها قليل من الارتباك العميق والعصبية المغطاة بالابتسامة ، قلنا : بشرة خير . ثم جاءتنا الحجارة ومضى صديقى يتأهب للحديث ومضيت أعانى من شعور الكآبة الذى بدا يثقل على صدرى من أول ما فككت السلوفان عن التعميرة ، فقد اكتشفت انها « سكة » اى مغشوشة وسوف تصدع رأسنا دون سطل حقيقية . لم اشأ تعكير صفو صديقى فتركته ينساب فى الحديث الى ان كف عنه فجاة وامسك برأسه واشتكى من الصداع ، فطلبنا شايا تنادى به الولد الأسمر فى عجلة ، ثم لاحظنا انه ادار بصره من جديد نحو بلكونة قريبة من الأرض فى

منزل على مقربة منا ، وكان يتابع ما يجرى فى البلكونة بكثير جدا من الاهتمام والعصبية . أخذنا ننظر بدورنا فادهشنا وجود فتاة فى نضج الصبا ينساب شعرها الفاحم الغزير على كتفيها فى تناسق بديع مع وجهها الصبوح الطـازج الجميل ، ترتدى فستانا ثمينا جدا وتفوح منهـا عطور ثمينـة ، يتحلقهـا رهط من النسـوة والصبيان يرتدون كلهم ملابس جديدة ويمسك الأطفـال بلعب كهربائية تبدو غالية الثمن ، وثمة تليفزيون ملون فى حجم حقيبـة اليد مفتوح ومتروك وحده خلف ظهورهم .

تلاقت نظرتى بنظرة صديقى على معنى أصبح واضحـا لنا ، أيده الولد الأسمر تأييدا قاطعا بان أطلق من صـدره زفرة حرى مليئة باللوعة ، فنظرنا الى بعضنا من جديد كأنمـا لنختم على صحة ما توقعنا ، اذ أن الولد الأسمر ـ لابد ـ قد وقع فى غرام هذه الفتاة الساحرة . ضحكنا من هذه القفشـة المكررة غير المثيرة ، وصرنا ندبر للهزء بصاحبنـا فى نكات نمازحه بها ، فنظر صديقى اليه والى الفتاة قائلا بغمزة خبيثة : « لا فل ياد. حتة تستاهل » . حينئذ هب الولد الأسمر ضاحكا من دباديب أظافر قدميه : « اوعدنا يارب .. امتى بس .. امتى » . وقلت أنا سـاخرا : « شـد حيـلك يلا وتقل جيبك » . فانبرى يصيح بقلب ملكوم من اللذة والألم : « امتى بس امتى » . وعلق صديقى: « مش فيه تفاهم بينكم ؟ » . قال الولد الأسمر : « البنت دى يا سعادة البيه سافرت الدول العربيـة سنة واحدة بس زى اليومين دول .. يا سلام على يوم رجعتها .. وعلى اللى جابته .. كسـوة ليهم كلهم .. فساتين ايه دى وبدل ايه دى وتليفزيونات وتسجيـلات . والنهـاردة ابوها كان بيدور على شـقة جديدة يشتريها .. غير التاكسى اللى هى تبعت اقساطه كل شهر » .

صور مكررة ايضا هكذا قالت نظراتنا . صحت قائلا : « وطبعا كانت بتحبك قبل السفر ودى الوقت بقيت بالنسبة لها فرزجى » . انخرط الولد فى رفع رأسه الى السماء وهو يردد : « اعمل معروف يارب .. امتى اشوف اليوم ده ؟ » . وقال صديقى ساخرا : « امتى ايه بقى ما خلاص يا حلو راحت عليك » . قال الولد الأسمر : لا يا بيه ما خلاصش ولا حاجة .. على العموم هانت .. ديتها سنتين تلاتة » . وبدا كأنه ليس ذلك الولد الذى كنا نعرفه ، بدا كأنه يهذى ، ثم انه استطرد بعد برهة : « امتى الواحد يشوف اليوم ده » . قال صديقى : « أنهو يوم يا اسمر ؟ » . قال الولد : « حيبقى أسعد يوم » . قلنا بعصبية : « ليه .. حيحصل فيه ايه ؟ » . قال الولد الأسمر : « بنتى حتكبر يا سعاد البيه .. وتبقى عروسة .. وتسافر .. وترجع زى رجعتها » . ففى الحال ابتعدت نظرة كل منا عن نظرة الآخر واخذت تتوارى الى بعيد كأنها تبحث فى خجل عن شىء ابتلعته الأرض ، وحط علينا صمت امتد بيننا جلسات طويلة بعد ذلك ، لاحظت خلالها ان صديقى لم يعد يحدثنى عن مشروعه مطلقا .

جعفر والقضـــية

سوف أعتذر عن الحكم فى هذه القضية . سوف أعتذر عن العمل فى سلك القضاء برمته ، ولسوف أعتذر عن كل شىء . انها قضية معقدة وغريبة هذه التى قدر لى أن اكون فيها قاضيا ثم اتضح لى اننى جزء لا يتجزأ منها .. فكيف سأنسلخ منهـا لأحكم فيهـا وأنا لم أعد أحس بذلك الاحســاس الفريـد المفعم بالاشراق ، الذى كان يعاودني كلما تذكرت أيام كنت أجلس فى مندرة أبى فى قريتنـا واستحضر منصـة الحـكم بكامل هيأتهـا واستحضر قاعة الجلسة ، أما القضية فلم يكن هناك سواها : قضـية مصر .. فمن يعطينى القـدرة اليـوم على الحـكم على « عيسوى » بالطرد من أرض مالكها ؟ ..

نعم ، فلعله مما يثير ضحكى الآن اننى كنت أحلم ذلك الحلم الساذج فى صباى فيما كنت طالبا بمدرســة الحقوق .. هـل ترانى لم أنجح فى ميدان السياسة لانى بطبيعتى حالم ؟ .. من يدرى ؟ لعل الحلم حين يبدأ ساذجا اخرق يتخذ بعد ذلك مسارا انتهازيا كالذى بدأت أسلكه قبل تخرجى بسنوات قليلة ..

هل كان سلوكى هذا من قبيل التعجل فى « الوصول » أم

انحرافا عاطفيا أم هو بدافع انتهازى محض ؟ .. فلأمض معك بهدوء خطوة خطوة . انت فى مدرسة الحقوق كنت طالبا لامعا بلا شك ، لا تقل لى ان لهجتك الريفية الطريفة بخشونة ألفاظها وسط النواعم من أبناء الذوات ، كذلك سلوكك الريفى المحض كان له دخل فى شهرتك فى المدرسة من أقصاها الى أقصاها . لاننى حينئذ سأقول لك انك كنت تتمتع باحترام خاص من كل الأطراف الشيوعيين والسعديين والدستوريين والاخوان فضلا من أقرانك الوفديين ، وانت لا تنسى انك شاركت فى حلّ مشاكلهم الشخصية ويا طالما جاءتك الدعوات للحوار فى جلسات خاصة ، وكان الجميع يحترمون فيك ما يتلاقون معك جميعهم عليه : القضية .. قضية مصر .. تحريرها ممن هم من غير أهلها .. تطهيرها من الدخلاء .. من العدو الأجنبى .. أما اختلاف الأساليب والأدوات فهو تنويع على لحن واحد . كانت الشعارات كثيرة وحين يتعمق الحوار تتساقط الأقنعة ولا يبقى سوى الملامح الحقيقية للوجوه وللشخوص وللغد المنشود ..

غير انك ــ يا حلو ــ سقطت ، سقطت وانتهى الأمر تماما . انت الآن تتنفس من حلاوة الروح ليس أكثر . ضحكت عليك البنت البلهاء التافهة لا تدرى كيف ! كيف احكمت سيطرتها عليك ؟ كيف جعلتك تصمد امام نكات الزملاء وتجريحهم لمبادئك ؟ وكيف احتمل قفاك لحس ألسنتهم الساخنة الحارقة ؟ وكيف رحت تبرأ لنفسك تصرفك هذا بانه عين الحكمة ؟ .. أية حكمة فى هذا وانت ببساطة ارتميت فى أحضان البلهاء حيا ..

. . . .

بدأت العلاقة بينكما عادية جدا مثلما تبدأ مع الجميع : لقاء فابتسام ، فاستخفاف دم ، كأس ، رقصة ، موعد ، لقاء ،

خطبة ، عقد قران نجاح فى الدراســـة .. هكذا دون مذاكرة او وجع دماغ ..

كان معظم أبناء الجيل يفعلون مثلما فعل آباؤهم واشقاؤهم : يتزوجون أو يسعون للزواج .. من فتاة تركية الأصل قريبة من سلم السلطة .. اما انت فقد اخترتها مصرية .. نعم كانت هـــذه الحجة الواهية الحقيرة هى الوحيدة التى لا تفتأ تتشدق بهـــا أمام الزملاء والأصدقاء بمناسبة وبلا مناسبة :

« ان زوجتى من اصل مصرى وهذا يكفينى شرفا .. كونها من أسرة ثرية وذات املاك شاســـعة وابنة باشـــا عريق فهـــذا لا يعيبها .. وما دامت هى طوع امرى انا فالأمر اذا منته » ..

مـــاذا كنت أقصـــد بقولى هـــذا ؟ هل كنت امنى النفس باستخدام هذه الزيجة فى تحقيق اغراض وطنية مثلا ؟ أم ترانى كنت أبرر بها سقطتى ؟ ..

الواقع اننى ادركت عمق الهاوية منذ اللحظات الأولى . كان مما يزيد عمق الهاوية اننى لم اترك فرصـــة للرجوع مرة واحدة انتقلت حياتى نقلة شاهقة ، فلقد سلكت الى القضـــاء ماشيا فوق السحاب ، ولو ترك الأمر لكفاءتى الخاصة أو على الأقل لظروف الترقى الطبيعية لمـــا تحقق لى شىء من هذا وربما كنت الآن مجرد موظف بوزارة الأوقاف او ما أشبه .. غير أننى دفعت فى مقابل هـــذا ثمنا باهظا ، ليس فقط سمعتى فى الأجواء السياســية والصحفية والطلابيـــة بل دفعت عمرى كله . لا اكون كاذبا اذا قلت اننى حاولت الفكاك ، لكننى تقريبـــا كنت قد عجزت عن اتخاذ اى موقف . والحق اننى لا اعرف : هل عجزت عن

اتخاذ موقف أم اننى أساسا لا أملك القدرة على اتخاذ موقف ، خاصة اذا كان موقفا حاسما يتعلق بمصيرى ؟ .. اذا كان ذلك كذلك فكيف اتخذت موقفا بالزواج من ابنة الباشا ؟ .. هل الزواج من ابنة الباشا يعتبر موقفا ؟ يخيل الى ذلك ، اذ المفروض اننى ضد أبيها وضد طبقته وضد كل من يرتمون فى أحضان الأسرة المالكة بحثا عن الثراء أو السلطة أو الحماية وان انسلاخى من طبقتى ومن جماعتى وانتمائى الى هذه الطبقة التى هى أصلا بلا مبادىء يعتبر ليس فقط موقفا بل موقفا منحطا .. فاننى حين تزوجت من ابنة الباشا خلعت شخصيتى ورميت بها من نافذة الفندق فى باريس فى شهر العسل ولم يعد لى رأى فى ثراء الأثرياء لأننى نسيت فقر الفقراء . كانت حجرة الفندق المضمخة برائحة العز والفخفخة قد انستنى حتى لحظات العناء حين كان أبى يرهن الأرض قيراطا وراء قيراط لكى يسدد لى مصاريفى ولكى انفقه على مظهرى بين أولاد الذوات ، بل لعلنى كنت لا أتذكر مثل هذا العناء بدافع الحنين اليه وانما ليبرر لى الانخراط فى العز .. وكانت المبالغ الرهيبة التى كان أبى يعجز عن دفعها كرسوم لسنوات الدراسة تصيبنى بمتعة خارقة حين أنفقها فى سهرة فى احدى دور الملاهى الباريسية ..

ولكن أشهد ان هذا لم يدم طويلا .. فـ .. فجأة صارت كل الأشياء بلا معنى ، وصارت أحضان العطر والفرش الوردية عجفاء قاحلة تماما ..

ثم بدأ العذاب المر . نعم ، لم يكن شهر العسل عسلا كله ، ولم يكن شهرا . قالوا لابد من العودة الى الوطن ، ولم يكن ثمة ما يشدنى الى الوطن ، ولا ثمة ما يغرينى على البقاء ، لم يعد هناك طعم للأشياء ولم يعد لدى احساس بالزمان أو المكان . مع

ذلك عدت معهم الى أرض الوطن . وعدت ولم تنته اجازتى ، بل الحق اننى لا اذكر ان كانت قد انتهت أم لا ؟ فالواقع اننى لم أكتب ورقة اطلب فيها اجازة ولم أتحدث فى هـذا الشأن مع اى أحد .. فهناك دائما من يقوم عنى بكل هذه الأشياء التافهة ..

***

مضيت فى شوارع المدينة أمرق بالعربة الفورد هنا وهناك . تذكرت اننا فى بداية شهر جديد فطاب لى أن ازور مقر عملى واقبض مرتبى . كان على ضخامته بالنسبة لى عاطلا من أى شىء يبعث على الفرح والبهجة . وحين أمسكته لم تجرؤ يدى على وضعه فى المحفظة بل وضعته مكورا فى جيب الصديرى بلا اهتمام شأنه شأن « مصروف اليد » الذى تعودت على صرفه منذ أن تزوجت خزينة الباشا . قفزت الى العربة وأمرت السائق أن يعاود السير بى حول المدينة . كنت دائخا ، مظلم المزاج ، مقهورا، لا أعرف بالضبط ما الذى أفكر فيه أو أحس به ، لعل الأزمة الحقيقية هى ان ثمة احساسا أو فكرا لم يعد باقيا فى نفسى لكن ثمة شيئا غامضا وعميقا كان يؤرقنى ويزيد من رغبتى فى البكاء بصوت عال محموم تسمعه المدينة كلها ..

كانت شوارع المدينة ساكنة سكونا خادعا والمشاة يتسكعون على الأرصفة كأنهم بقايا طين عادم أو طحالب ألقت بها أمواج العربات على الشاطئين ..

كان منظرهم يثير فى الفزع بقدر ما يثير الرثاء . ولا أدرى لماذا فى هـذه اللحظة تلقى الظروف بأحد أصدقائى القدامى فى الطريق ، اذ ما كاد يعبر الشارع الى الضفة الأخرى حتى عرفت

وتأكدت انه « جعفر » الشاب الوطني العظيم ، الذي كان من المع طلاب مصر في ذلك الحين وكانت لديه قدرة باهرة على تهييج المشاعر وجعل المدارس كلها تدلق بطونها في الشـوارع في لحظـات . نعم ، كان باشارة بسيطة يحرك الشارع المصري ويجعله كمـا يقولون « يضرب يقلب » فيشق الزلزال قلب جنود الاحتـلال وجـدران القصر الملكي ويستحيل « قصر الدوبارة » الى كوخ متهالك في مهب ريح عاتية ففي الحال تتغير صيغة المثل السائر القائل ان مصر تحكم من قصر الدوبارة ، فتصير في الأفواه المبتهجة « مصر تحكم بفتلة دوبارة » وهـذه الفتلة يمكن قطعها في لمح البصر اذا ما تململ الشعب ..

اتذكر الآن ما كنت اؤمن به وأورده : مصيبة هـذا الشعب انه لا يتحرك الا اذا تقدم من يشـعل الفتيل .. بغيره ينخفض منسوب الثورة في النفوس كما ينخفض منسوب المياه في النيل .. غير انها نفوس لا تفقد الخصـوبة ابدا . تراها فيخيل اليك انها جفت ولم يعد فيهـا رمق .. فاذا بها فجـأة وقد فاض بهـا الكيـل تصبح طوفانا مخيفـا . وقد علمونـا في المدرسـة قول « هيرودوت » ان مصر هبة النيل فاذا كان يقصد أن خيرات مصر كلها أينعها النيل فقد فاته أن يصرح به تصريحا كاملا بأن مصر ابنة النيل ورثت عنه الغضب حين يفيض ويغرق البـلاد بالطوفان كماورثت عنه الهدوء والاستكانة في مجرى الشعور ريثما تتفتح الورود وينضج الثمر .

الواقع انني لا أعرف ان كانت هذه هي آرائي النابعة من ذاتي أم انها أصـداء لآراء « جعفر » وبقايا تعاليمـه القديمـة . تابعت « جعفر » فاذا به يسير على الرصيف وسط عشرات من لابسي العفاريت والقمصـان والجلاليب . لكنـه هـذه المرة كان

الشارع هو الذى يحركه وبلا هدف كما كان يبدو . أين شبابه ووسامته وفتوته ؟ أين تفتحه وتفاؤله · انه يمشى كثوب عصرتـه يد قوية .. يتطوح دائخـا ، وتحت أبطه جريدة مطوية على كتاب افرنجى لعـله رواية لجوركى او مسرحية لابسن ولعله كتـاب « روح الثورات » لجوستاف لوبون ولعله القاموس الذى لم يكن يفارقه يمده بألفاظ انجليزيـة وحادة تصلح لاقـلاق بالهم عند استخدامها فى الهتافات .. الملعون كان موهوبا فى توفيق الفاظ انجليزية عريقة مع الفاظ عربيـة شائعة فى أبيات شعرية وتغرى بالحفظ والترديد وتشكل ايقاعا حماسيا ثائرا . الى أين يذهب هذا الولد العظيم ؟ وما هى أخباره ؟ أيكون قد آل به الحـال الى وظيفة بسيطة فى الميرى ؟ ..

رجوت السائق ان يتمهل قليلا ويحاذى الرصيف . كنت أريد أن انادى « جعفر » واسلم عليه واساله عن أخباره . لكنه كان قد ابتعد . فأمرت بايقاف العربة ونزلت واخبرت السائق اننى سوف اشترى طلبا واعود ..

***

مضيت وراء جعفر ثم تذكرت فجـاة انـه امضى بالسـجن شهورا طويلة ، وانه حضر الامتحـان النهـائى مخفورا بالحديد وبالحرس . تذكرت أيضـا ان مخبرى السراى ومبـاحث قصر الدوبـارة يلاحقونه فى كل مكان . تعلقت بقـدمى صخرة حقيرة منعتنى عن السير . رحت اتفرج على الفتارين ولا تعلق نظرتى بشىء مما يعرض فيهـا ذلك ان عينى كانت لا تود أن يهرب منهـا « جعفر » فكانت تلاحقه وتنزعج كلما غاص فى مجموعة متكاثفة . ثم اذا بى امشى من جديد · رأيته يميل نحو مقهى كبير بشـارع

فؤاد ثم يرمى جريدته وكتابه على ترابيزة مطلة على الشـــارع ثم يتهاوى جالسا . حياه أكثر من واحد . ولم يكن أمامه فرصة ليبدأ بالتحية أحدا . هبط عليه الجرسون بالشيشة وفنجـان القهوة وموكب من التهليل والترحيب الحلو .. كنت لحظة ذاك أحاول اعتقال عينى وسجنهما فى الفترينة المجـاورة . لحظتهـا خجلت من رائحة العطر التى تتصـاعد من منديل فى جيب سترتى فوق الصــدر بل كرهت المنديل نفسه ثم كرهت السترة نفسها وفى الحال عاودنى ذلك الاكلان فى احساسى واحسست به كالعادة يختنق بخـاتم الزواج الضيق .. ثم صعد الاختناق الى صدرى ثم كان لابد أن أجلس .

حين انحرفت الى نفس المقهى كانت النظارة السوداء على عينى قد امتلأت بضباب كثيف . كدت اتعثر ، ذلك اننى اتجهت مباشرة الى ترابيزة « جعفر » ثم غيرت رايى فى الحـال فسرت الى بعيد قبل أن تتحرك قدماى معى . ثم تكرر ذلك أمام عدة ترابيزات مجـاورة ..

وحين وقـع اختيـارى على ترابيزة منزوية فى ركن قصى جاءنى احساس أخضر ذو رائحة نفاذة كنت احســه وانا طالب صغير عندما تضعنى الصدفة فجاة فى مواجهـة النحاس باشـا أو سعد زغلول أو طه حسين أو حافظ ابراهيم أو أحد الزعماء المرموقين . واحسست بالغيرة من « جعفر » على الرغم من سوء حالته . كذلك احسست بضيق لا حد له حين انحنى الجرسون أمامى وخيل لى انه يبالغ فى احترامى فاخذت أبرطم بكلمـات لا أفهم لها معنى . ولمـا وضـع فنجان القهوة واستدار لينصرف اعتذرت له عما يكون قد بدر منى من شخط أو نطر أو تكشير . فكاننى اعطيته الاذن بأن يمعن فى تبجيلى حتى يفور دمى . الا اننى

تعلمت تعليق الابتسامة على الشفتين وفوق الوجه لفترات طويلة دون أن تفقد بريقها • وقد تكفلت هـذه الابتسامة مع السيجارة الافرنجية التي أشعلتها له بألا يغادر الجرسون رحابى ..

سألته عن اسم هذا الشخص الذى يجلس هناك اذ أننى أتشابه عليه ، فانبرى يحكى كما يحكى شاعر الربابة عن الزناتى خليفة وابى زيد الهلالى والخضر عليه السلام ، كأنه هو الذى قام بتأليف هذه الشخصية وخلق حياتها واحداثها ولذا يعلم كل صغيرة وكبيرة عنها ..

***

قال الجرسون :

ـ الا تعرفه يا بك ؟ انه الأستاذ « جعفر » الذى يعاديه الانجليز ويضطهده الملك . رجل يا بك ما انجبته ولادة .. سجنوه وعذبوه ثم فصلوه من المدرسة فى سنة التخرج .. واخذوا أخوته الفلاحين الى السخرة واحدا واحدا .. حتى أبوه العجوز الذى بقى وحيدا فى البلد يبكى حاله ، ظلوا يأخذونه ويتركونه حتى لم يعد فيه نفس .. وماتت زوجته حزنا على ما اصابها واصاب البلاد من حزن . اما هو فقد صرف كل مدخراته على الأطباء والاجزاخنجية . وقد سافر الى بلدتهم فلم يجد هناك سنبلة توحد الله ، ظل حتى دفن اباه ، وكان بوده لو يدفن نفسه هربا من لحظات اللوم . فالغريب يا سعادة البيك انه لم يسلم من الناس هناك بل ان فيهم من اعتبره مجرما فى حق أبيه . الناس كما لا يخفاك لا ينقمون على شىء قدر نقمتهم على الابن الخائب . اما الابن الذى يكلف أباه دم قلبه ثم يتسبب فى ترحيل اخوته الى حيث لا يعود المرتحلون ثم يودى بحياة أمه وأبيه فانه

ملعون فى الدارين .. ولولا بقية من حياة الأستاذ وادبه وحلاوة طبعه ولسانه لرجموه بالطوب حتى يموت ..

سالت الجرسون وكأننى لم أعرف جعفرا فى يوم من الأيام :

ـ واين يعمل هذا الأستاذ ؟

قال الجرسون فى حماس :

ـ انه يعمل الآن كاتبا فى مطحن غلال . ولا يجلس فى اى مكان سوى هنا . ولكنه يا سعادة البك تحدث له ، اللهم احفظنا ، حالات غريبة لا ندرى متى يشفيه الله منها .. ولا يريد ان يسمع نصيحتى .. والله يا سعادة البك لقد دفعت من جيبى نقودا لأحد أولياء الله وجئت به هنا شخصيا ليعرف علاج حالته . لكن الأستاذ يربت على كتفه ويطلب له القهوة ثم يودعه مبتسما وينصرف الى الجريدة أو الكتاب ..

لكن ما هى الحالة التى قلت انها تعتريه ؟ ..

قال بالم :

ـ انه فجاة يرى ببصره على واحد من السائرين فى الشارع يكون عادة فلاحا ثم ينهض واقفا محملقا بعينيه فى فرح طفولى ، ثم ينادى بصوت عال : يا مصطفى أو . يا سعد . أو يا نحاس .. وكثيرا ما يعاود النداء بصوت أعلى ، وبالاسم الكامل قائلا : يا مصطفى كامل .. يا سعد زغلول .. يا نحاس .. حينئذ يتصعب الجالسون .. يمصمصون الشفاة . أما الزبائن الجدد من الشباب حاملى الجرائد والكتب فيهمسون قائلين فى عبارة لا ادرى ماذا يقصدون بها ، هوس سياسى .. هوس سياسى ؟ .. فيشيح عنهم زبائن المقهى ويرمقونهم بغضب وقد يشتبك الجميع فى عراك . اما هو فتراه منشغلا عن هذا كله .. ويروح يكرر

النداء ثم ينسلخ عن الترابيزة ويهرول فى الشارع خلف الشخص .
وبعد برهة طويلة يعود وهو يبتسم للجميع فى مرح يدلق فى صدرى أباريق المرارة ويردد قائلا للجالسين كأنهم افراد عائلته « ليس هو .. اتضح انه ليس هو .. اتضح انه ليس هو .. ولكنه يبدو انه هو » وسواء كان الجالسون من أصدقائه أم من الزوار الجدد فانهم عادة يرددون فى نفس واحد : « هو من ؟ » فيقول لهم ببساطة شديدة ، فيما يعود لجلسته دون أن تختفى ابتسامته:
« ليس مصطفى كامل .. ليس سعد زغلول .. ليس النحاس »
وهنا تتوارى الابتسامات الساخرة خلف الجرائد او الأكف المشرعة بالسجائر ولا يخلو الموقف من واحد سليط اللسان تحرقه نكتة سمجة . غير ان الأستاذ يبتسم له فى حب كما تفرح بطفلك حين يشتمك لأول مرة ويعيد ما سبق ان أعاده مرات ومرات :
« الانسان يجب ان يتعرف على اخوته .. ان أخى مصطفى كامل واخى سعد زغلول واخى النحاس أخذتهم السلطة منذ سنوات ولم يرجعوا .. واننى أراهم فى السائرين فيخيل الى انهم هم .. فأناديهم .. فلا أجد الا ناسا غرباء وان كانوا يشبهونهم فى كل شىء » وحينئذ يا سعادة البك يدرك الجالسون انه مجنون بالزعماء . وهم لا يعرفون مصطفى كامل وسعد زغلول والنحاس .. أبوهم أسماهم هكذا فى دفاتر الحكومة منذ أن ولدوا ، فهذه عادة المصريين يا سعادة البك كما تعرف ..

* * *

على الرغم من شلالات الألم التى راحت تتدفق فى صدرى أحسست بشىء كالبهجة يشرق فى نفسى .. زين لى أن أنتقل الى ترابيزة « جعفر » واكشف له عن نفسى شيئا فشيئا ، اذكره بأيام « المعاهدة » ففى الحال سيهتف باسمى من تلقاء نفسه

وربما يعلن على الملأ اننى كنت أحد أثنين متخصصين فى حمله على الأكتاف فى كل مظاهرة ..

حاسبت الجرسون وقمت لهذا الغرض احاول السيطرة على خطواتى . لكننى ما ان وقفت امامه حتى شعرت بالعرى واشمئزاز انفى من رائحة عطرى .. أما هو فقد نظر الى نظرة سريعة ثم دفن عينيه فى الجريدة وكان واضحا انه يتحاشانى ليس لأنه عرف شخصى وانما لانه ينفر من رائحة عطرى ومن البدلة والمنشة ذات اليد العاج ، ودبوس الكرافت الذهبى . ودارت بى الأرض وغرقت فى أمواج متلاطمة من الصقيع . قلت كما يهتف الغريق بطيف بعيد يتهادى على صفحة الموج :

ـ ازيك يا جعفر .. مساء الخير ..

فرفع راسه عن الجريدة واوما فى ابتسامة مهذبة وأدب شديد :

ـ مساء النور يا سعادة البيه .. أهلا يا أفندم ...

ثم دفن راسه فى الجريدة .. فاشتعلت النار فى أذنى واستدرت عائدا والمطارق تنهال على راسى وانفى يساقط فى حلقى قطرات مالحة ومنشتى تلب الهواء فى غضب وحنين . واحسست أن ملف القضية يهبط من عل فوق راسى وينفرط ويتبعثر وتطويه العجلات والأقدام . ولم أكن فكرت فيمن انتدبه للحكم فيها .. ولم أكن قد فكرت فى كيفية الاعتذار .. ثم اننى ضللت الطريق الى العربة ..

الحــــذاء

ـ ١ ـ

ضرب ماسح الأحذيــة ظهر الصـــندوق بظهر الفرشـــاة ، وانتظر . ظل الأســتاذ « ميشو » مستمرا فى تصفح الجريدة ، منهمكا ، عاقدا ما بين حاجبيه ، يتغضن وجهه المستطيل الشاحب، يمط شفتيه ويفتحهما عن أسنان صفراء لا تليق بافندى محترم مثله ، يشد الأنفاس من السيجارة التى بلا « فلتر » يبحلق فى سطور ما ، بيمصمص شفتيه ، يشد النفس ، بعصبية شــديدة يزيح الصفحة ثم يطويها الى غيرها ..

تذكر ماسح الأحذية انه لو طاوع نفسه على الفرجة فلن ينتهى فضرب الصندوق مرة ثانية أعلى من الأولى ، ثم ثالثة أعلى ، فأعلى . ازاح الأستاذ « ميشو » صفحة الجريدة عن وجهه ونظر الى ماسح الأحذية فى غضب مكتوم ، وظل برهة يسلقه بنظراته النارية ..

احمر وجه ماسح الأحذيــة وارتبك ، أشــار الى القــدم الطليقة ، تمتم :

ــ عدم المؤاخذة يا سعادة البيه .

لكن الأستاذ « ميشو » لم يعطه القدم الأخرى ، بل ظل يسلقه بنفس النظرة ، ثم لوى شفتيه فى اشمئزاز وهو يضرب الصندوق ببوز الحذاء . على أنه كظم غيظه وأنزل قدمه عن الصندوق ووضع الأخرى مكانها واستأنف قراءة الجريدة .

اندفع ماسح الأحذية يشبع الحذاء صبغا وتفريشا بعد أن تعب تعبا شديدا فى تنظيفه أولا من الأوحال المتكدسة فوقه . وكان يتلفت حواليه محمر الأذنين تكاد العمامة المملوكية البيضاء تتطاير عن دماغه .

— ب —

كان الصبح لحظتها قد شب عن الطوق ودخل فى الضحى المتعجل ، و « مقهى وبار الميدان » تعج بالزبائن من مختلف الأشكال والألوان والأعمار ..

لوى ماسح الأحذية شفتيه فى قرف ، ضرب الصندوق بظهر الفرشاة ولكن فى رقة شديدة ، ضربة لا تكاد تسمع ، ثم انتظر . الأستاذ « ميشو » كان يضع جريدة ويتناول أخرى مطلقا زفرة ، فرد هذه الأخرى واشعل سيجارة ، رمى بعينيه فوق الصحيفة فى جولة سريعة . نظر الى ماسح الأحذية فى استنكار ..

مد ماسح الأحذية رأسه ناحية القدم الأخرى طالبا اياها . انتظر الأستاذ « ميشو » حتى انتهى من طوى الجريدة على الصفحة الثانية ، ثم بهدوء شديد أنزل قدمه عن الصندوق ، ببطء أشد وضع القدم الأخرى وراح يقرأ ..

كانت أعجب قراءة شاهدها ماسح الأحذية فى حياته ، فالأستاذ « ميشو » يقرأ سطرا وربما كلمة ثم يتطلع حواليه متفرسا فى وجوه الحضور كأنما يستكمل القراءة على وجوههم ،

الا ان القرف الذى يرتفــع به وجهــه عن الجريدة يرتد اليهــا مضاعفا .

ـ جـ ـ

على الناصية كان صاحب المقهى يجلس مع ولديه ، ينظر فى بلاهة الى الجالسين وتبدو على وجهه السعادة من فرط ما يثيره الجالسون من ضجيج . وكان يتابع حركة ماسح الأحذية بدون تركيز ، ولكن ربما لفت نظره أن ماســح الأحذيــة كان يسرح فى شرود طويل تروح يده وتجىء عشرات المرات . الخاطر برق فى ذهنه فجــاة : لهذا السبب تتقطع الثياب دائما من تحت الابط ، وهى ثياب تدفع المقهى ثمنهــا ، لا لشىء الا من اجل هذه اللافتة المنسوجة على الصــدر باسم المقهى ، ماذا يفعله هو حتى يحصل منهم على ثمن هــذه الثياب ، صحيح انهم يقومون بتنظيف المقهى وقضاء حاجاته دون مقابل ولكنهم يحصلون على البقشيشات من الزبائن وما اكثرها ، ثم قرر أن يرجىء التفــكير فى هــذا الأمر لوقت آخر . .

ـ د ـ

ضرب ماسح الأحذية ظهر الصندوق بظهر الفرشاة ، رفع الأستاذ « ميشو » قدمه ووضع الأخرى ، واطلق نظراته فى ساحة المقهى وقد تعلقت الجريدة بين يديه ، فبدا كأنه يرى المقهى لأول مرة ، وبدا أيضا كأنه يصحو لتوه من نوم ثقيل طويل .

تأمل ماسح الأحذية عينى « ميشو » فوجدهما حمراوين بارزتين يشع منهما بريق غاضب لافح . كانت نظرة الأســتاذ « ميشو » قد وقعت على شابين دخلا من الباب الجانبى الى

الساحة الخارجية ، وبعد تلكؤ مريب اتخذا مجلسهما على ترابيزة قريبة من ترابيزة « ميشو » فكاد « ميشو » يترك ترابيزته ويبتعد الى ترابيزة اخرى ، ثم تمتم :

ـ مقهى نجس ... مليء بالمخبرين واللصوص والادعياء !

وقال ماسح الأحذية :

ـ نعم ؟

قال « ميشو » بغضب :

ـ هش .

اطلقها مع حركة من يده كانما يغلق بها فم ماسح الأحذية ، الذى ابتلع غصته وقال لنفسه مبرطما :

ـ « ليتنى ما طاوعت ولد عمى .. انها مليئة بالمجانين » .

وضرب ظهر الصندوق بظهر الفرشاة . بسرعة انزل « ميشو » قدمه ووضع الأخرى .

قال ماسح الأحذية :

ـ خلاص يابيه .

قال « ميشو » وهو ينظر فى الحذاء باسترابة :

ـ طيب .. خلاص خلاص .

جمع ماسح الأحذية أشياءه وحمل صندوقه ووقف منتظرا . نظر اليه « ميشو » بغضب وهتف مشوحا :

ـ مفيش فكة .. بعدين بعدين .. يلا غور بقى .

انصرف ماسح الأحذية وهو يوقف رعشة شفته السفلى بأسنانه .

ـ هـ ـ

كاد صاحب المقهى يقول : « فيه ايه » لولا أن ماسح الأحذية انصرف فى هدوء ، و « ميشو » عاد الى صحيفته كأن شيئا لم يكن . لمتم صاحب المقهى « لا ينقصنا وجع الدماغ » .

قال ابنه الأكبر :

ـ ماذا فعل الولد بالأستاذ ؟

قال صاحب المقهى :

ـ كلاهما ناقص عقل !

صاح الابن الأصغر باسما :

ـ كيف ؟

ـ لوح من « اللطزانة » يمسح الأحذية .. فمن أين له بالعقل ؟ !

قال الابن الأكبر :

ـ والأستاذ « ميشو » ؟

شوح صاحب المقهى فى قرف :

ـ كاتب « مرسحى » .. رجل تياترو (وبرم أصابعه حول راسه) فمن أين له بالعقل هو الآخر ؟ !

قال الابن الأكبر :

ـ أنا لم أر له أى مسرحية .

قال الأصغر :

ـ أنا رأيته مرة فى التليفزيون .

قال صاحب المقهى :

ـ انا لم اره فى اى داهية .

ثم اضاف مشوحا بعد برهة :

ـ داهية تلمهم جميعا .

ومسح المقهى بنظرات قلقة ..

كانت المقهى تشغى كعش الزنابير ، مجموعات تتكلم وتتعارك وتتضاحك وتغنى وتسكر وتتهامس فى نفس الآن . باستثناء قلة من الزبائن ليس هناك أحد غير معروف لديه ، لكل منهم عنده تاريخ حى لا يمحى من الذاكرة ، فعمر المقهى يجاوز نصف قرن ، وكان هو شابا صغيرا من أصل أرمنى حين تنازل له صاحب المقهى الأصلى عنها ، وكانت فى ذاك الزمن مجرد بار يؤمه التجار والأجانب والسماسرة والقوادون وبضاعتهم .. فلما أصبح هو صاحبها وسع دائرة الرواد واضاف الى البار مقهى واسعا ملأها بالكراسى الخيرزان ، وقد تعلم من أولاد العرب ان الرزق يحب الخفية واللباقة والحركة ، فما ان رأى أحد الكتاب المشهورين يجلس ذات يوم على مقهاه حتى بالغ فى الترحيب به وأعلن ان كل ما يتناوله « الأستاذ » من مشروب طوال حياته ها هنا يقيد على حساب صاحب المقهى ، تقديرا منه لأهل القلم وأصحاب الرأى الحر الشريف الخ الخ مع انه لم يكن قد قرأ لهذا الكاتب اى حرف . ثم صارت المقهى تستقبل كل يوم اعدادا هائلة من أهل القلم ، ثم تبعهم أهل الفن ، ثم جاء أهل السياسة ، وشيئا فشيئا أصبحت المقهى اشبه بـ « حلة التورلى » ، تضم مجاميع مختلفة متناقضة ، من سياسيين قدامى بعضهم كان ناجحا والبعض الآخر لم يكن ، ومن أدباء وصحفيين لامعين وآخرين محبطين ، وناشئين ويائسين ، وحزبيين وعقائديين وسياح صعاليك سذج وابناء ريف متطلعين ..

ابدا لم يكن هذا ما يحلم به صاحب المقهى . لو علم ان

الأمور ستصل الى هـذا الحد من الفوضى لمـا توسـع هـذا التوسع الذى لا يأتى بمصـاريفه ، فكل هؤلاء يجلسـون بالساعات نظير مشروب واحد بملاليم ، يطلبون معه خدمة ويتآمرون ، وكل مجموعة تمادى الأخرى عداء سـافرا حادا وبلا سبب مفهوم ، الأوسخ من هذا ـ يقول لنفسه ـ ان العداء داخل المجموعـة الواحدة أكثر حدة وسفورا . نصف الرواد يتهم النصف الآخر بأنه عميـل للمباحث ، وكل يوم والثـانى ترتفع الأصـوات والكراسى ، وتشج الرءوس وتنقلب المقهى الى حارة يسـكنهـا الفتوات ، صـدق أحد قدماء السياسة المتقاعدين على المقهى حين قال بأن الحياة قد فسدت الى الأبد وأن ما يحدث هو نتيجـة طبيعية لمـا سبق حدوثه ، حيث لم يعد الأدب ولا السياسـة ولا الفن ولا الرياضة أنشـطة يقوم بها أولاد النـاس من عليـة القوم ، انما دخلها الدهماء الذين لا يعرفون لهم رأسا من قدم ..

ولقد تعود صاحب المقهى الا يقيم لهـذه المعارك وزنا فهو يعرف أنهـا كلهـا تنبعث من منطـلق شخصى ، وأن الأطـراف المتعاركة ـ شأنها شأن أى عراك مصرى ـ سرعان ما تعود الى وضعها السابق بل انها قد تتصـافى وتتصادق ويتضح انها اقارب وبلديات كل ذلك فى لحظـة واحدة . ما يصيبه بالغم حقـا هى الخسائر التى كانت تصيبه من جراء مثل هذه المعارك الخرقـاء ، لكنه كان يجد لذة خفية وغامضـة فى ترك الكراسى والترابيزات عرجاء ومقلقة وفى حاجة اصـلاح كثير ، ومن يعجبه الجلوس عليها هكذا فأهلا وسهلا ، ومن لا يعجبه فليرنا عرض أكتافـه . فلم يره احدهم هـذا الأمل ، فراح يتمادى فى تقليص الخدمة حتى لم يبق سـوى خطوة واحدة بعدها يقوم الزبون ليحضر شايه بنفسه من الداخل وأن أحضره من بيته يكون أفضل . لم يعد يفرق بين مناضل قديم له تاريخ وبين مدع فسل من مدعى هذه الأيام ،

مع ذلك لم يكف عن عادته القديمة كلما تصادف وجود احدهم أمام الأولاد اذ يندفع قائلا ان فلانا بك من أعظم الشخصيات المصرية ، وان علانا أفندى له تاريخ مجيد فاقتدوا به يا أولاد ، وان سعادة الباشا فعل فى الاستعمار كذا وكيت ، اما الأستاذ فلان فلعلكم تعرفون انه أثار قضية كذا وكذا فى صحافتنا أيام ان كانت صحافة . لعله بمرور الزمن واتصال العشرة أدرك أن المسألة كلها كلام فى كلام ، وان الدنيا تنقلب من حولهم راسا على عقب وهم بكل هدوء وبرود يتقارعون الحجة بالحجة ويطلبون مكعبات الثلج باستمرار مع أن الثلج فى داخلهم جبال فوق جبال، لهذا كان يندفع فجأة مبرطما لدى أى انفعال : « والله لأبيعنها لاحدى الشركات واقطع دابركم من وسط البلد » . وكان ابنه الأكبر ـ الميال للبيع ـ يشوح فى وجهه صائحا : « جاءتك المائة باكو فلم توافق » ، فيحس الرجل بالخجل ويمسح المقهى بنظرات حانية .

واليوم كان يبدو عليه الهدوء ولذا كان مستعدا لمحاورة ولديه بمختلف الأساليب الملفوفة والمباشرة حتى يقنعهم بضرورة الرجوع عن البيع والابقاء على المقهى باعتبارها الوحيدة فى المنطقة ، مع تغيير طابعها ورفع تكاليفها الى مستويات تليق بأصحاب المكسب وتبعد عنهم هؤلاء المتكلمين الذين يقطعون النهار والليل بالمجان ، وكانت مخايل الحوار تلمع فى عينيه حين شد انتباهه ذلك الصياح المفاجىء ..

ـ و ـ

يقول الأستاذ « ميشو » :

ـ ساعة عشان انتظر سعادتك .. قلت لك شوية وارجع .. فيها ايه ..

ويقول ماسح الأحذية :

ـ لامؤاخذة يابيه فيه ايه ؟

ـ مش انت اللى ماسح الجزمة ؟

ـ أنا ؟ ! .. انا من غير مؤاخذة ماشفتكش خالص يابيه !

ـ باقول لك انت اللى مسحتها .

ـ والله والله العظيم يابيه ما مسحتها .

دقق صاحب المقهى في ماسح الأحذية ، فلم يتيقن مما اذا كان هو الذى مسح أم غيره ؟ ! ذلك أن الذين يمسحون الأحذية فى مقهاه قد وصل عددهم مؤخرا الى عشرة رجال ، كلهم متشابهون يلبسون الجلباب الأزرق والعمامة الملوكية وعلى صدورهم لافتة باسم المقهى ، لكنه قال مبتسما :

ـ خلاص يا أستاذ ميشو .. ما دام قال مش انا يبقى مش هو .

ـ طيب .. مع السلامة .

وشوح بيده فى غيظ ولكن عينه حفلت بنظرة وعيد صارمة ، الأمر الذى شد انتباه معظم الجماعات المتناثرة حواليه كما شد انتباه صاحب المقهى فظل على جلسته كأنه يعلن انتماءه للموقف حتى ينتهى على خير ..

ما كاد ماسح الأحذية ينصرف حتى ظهر ماسح أحذية آخر من الخارج انتبه اليه « ميشو » فسحبه نحوه باشارة أصبع حاسمة ، فجاء الولد مرتعبا وهو ينظر فى نفسه وفى الأرض :

ـ خير يا سعادة البيه ؟

وكانت الفكة موجودة فى كف « ميشو » أستعدادا لدفعها اليه اذا قال نعم أنا الذى مسحتها . لكن ماسح الأحذية نظر فى الحذاء فوجده لامعا جدا ، فوقف حائرا :

ـ خير يا سعادة البيه ؟

استشاط « ميشو » غضبا ، رمى بالفكة على الترابيزة :

ـ مش انت اللى ماسح الجزمة دى ؟

ـ انا ؟ .. على الطلاق بالتلاتة ما شفتها !

هكذا نطق ماسح الأحذية كأنه يدافع عن نفسه ضد جريمة واضحة وضوح الشمس . فبلم الجميع وان ضحكوا فى نفس واحد مما أثار حرج اثنين : الأستاذ « ميشو » وصاحب المقهى ، الذى اعتدل احتراما وقال فى هدوء :

ـ فيه ايه بالظبط يا استاذ ميشو ؟ .. عايز اللى مسح الجزمة ليه ؟

تبسم الأستاذ « ميشو » بأسف :

ـ عايز اديله حسابه .

ـ بسيطة .. زمانه جاى .. واذا كنت مستعجل سيب لنا الفلوس أو ماتسيبهاش واحنا ندفعها له ..

لسبب ما لا يدريه « ميشو » بالضبط اغتاظ كأن ثعبانا لدغه فقال :

ـ لا تدفع لى ولا ادفع لك .. متشكر قوى .

وأشاح بوجهه عن صاحب المقهى فى احتقار . راحت

الابتسامة الخجلى تترأقص على شفتى صاحب المقهى . وهنا ارتفع صياح الأستاذ « ميشو » دفعة واحدة :

ـ تعال يا جدع انت .

كان ماسح الأحذية قد اتى ، فاقترب من « ميشو » وهو يرتجف :

ـ نعم يا سعادة البيه ؟

ـ نعمة ترفصك .. باشتغل عندك انا ؟ .. بتبقشش على ؟ ..

هذا الولد أكثر السابقين جراة واخشنهم صوتا :

ـ ايه فيه ايه بتزعق ليه ؟

ـ مش انت اللى ماسح الجزمة دى ؟

ـ ولا مسحت لك ولا شفتك .. انت حترمى بلاك على ؟ !

ـ طب امشى يا قليل الأدب يا سافل .

ـ باقول لك ايه .. أوعى تزيد عن حدك .

ـ عيب يا ولد .. ادخل جوه يللا .

هكذا صاح صاحب المقهى كما يصيح الانسان فى كلبه ، فانسحب ماسح الأحذية وغاب فى المقهى . و .. اعتدلت كل الجماعات فصوبت وجوهها تجاه الأستاذ « ميشو » وقد بدا عليها تحفز شرير ..

أحس « ميشو » بالعيون تتقافز عليه وتكاد تثقب صدره لتنزل الى داخله . تدرع بصلابة فرعونية ، صمم على الا يعيرهم

جميعاً أدنى التفات ، وان يثبت لهم أنه ليس مجنونا ، وان هناك فى هؤلاء الأوغاد من مسح له حذاءه ، وانه لا يقصد سوى تهزىء الولد الماسح واعطائه حسابه مع درس فى الأخلاق يمنعه من هذا السلوك مع الناس المحترمين مرة اخرى .

ها هو ذا يرفع ذراعه بهدوء هذه المرة صائحا برقة :

ـ من فضلك .. من فضلك .

فاقبل ماسح الأحذية العجوز نحوه يبتسم ويتهيا للجلوس والمسح . وما كاد يصل الى « ميشو » حتى وضع الصندوق وجلس واخرج الفرشاة وتناول قدم الأستاذ « ميشو » فارتفعت عاصفة من الضحك زلزلت الأرض لكن الأستاذ « ميشو » لم يتزلزل ، انما سحب قدمه من يد ماسح الأحذية العجوز برفق قائلا مع محاولة ابتسامة :

ـ قال يعنى مش انت اللى ماسحها من دقايق !

اختفت الابتسامة الأزلية عن وجه الرجل . بكل جد صاح :

ـ أنا يابيه ؟ .. استغفر الله .. استغفر الله ! ..

وراح ينظر الى الحذاء فى تشكك واضح ، ويلوى شفتيه ، ويلم أشياءه بسرعة ويبتعد :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .. يا جايين يكفيكم شر القاعدين.

ارتفعت عاصفة الضحك من جديد أعلى مما كانت مصحوبة بحركات دبدبة بالأقدام فى الأرض وخبط للجباه بالأكف ، انتعشت المقهى فجاة انتعاشة لم تشهدها من عشرات السنين ، راح العمال وجاءوا .. بالأكواب والكئوس والأطباق فى زاطة وبشاشة ،

تصبب العرق من جبين « ميشو » حتى خيل لمن يراه أنه سوف يذوب بعد دقائق ..

لكنه بصلابة وقوة وقف هذه المرة فبدا طويلا كعامود من الدخان ، وصاح مثل أولاد الليل المخربشين فى أفلام الفتوات :

ـ تعا .. لا .. نهارك فل .. انت فين من زمان ؟

اقترب منه ماسح الأحذية يتعثر فى خوف وفى وجل كحيوان اليف مدهوش . وقف أمام « ميشو » صامتا وصدره يعلو ويهبط كأنه يقول : « خير يارب » . أمسكه « ميشو » من أذنه فقرصها بعنف ، فصاح الولد متألما ودمعت عيناه . قال « ميشو » بحزم :

ـ اعترف يا كلب !

فبكى الولد من شدة الألم ، ونظر حواليه مرتعبا ، فرأى الجميع لدهشته يضحكون ويغمزون له بشفاههم غمزات طمأنه ، فقال ماسح الأحذية :

ـ فيه حاجة يابيه ؟

تراجع ذقن « ميشو » والتصق بعنقه :

ـ آه .. يا ولد .. على الكلام ده ؟

ـ وطربة اللى مالوا لى ما اعرف حاجة .

ـ يعنى انت ما مسحتش الجزمة دى ؟

ـ الهى انطس فى نظرى ما شفتك .. دانا لسه جاى من دارنا دلوقت اهه حالا .. لا عملت حسنة ولا سيئة .. خير يارب .

لأول مرة يتأثر صاحب المقهى ويدب الى نفسه الشك فى هذه المسألة من اساسها . فأبدا لا يمكن ان تكون المسألة مجرد رغبة « ميشو » فى دفع الحساب ، لابد أن فى الأمر شيئا آخر لا يريد أن يتضح

نهض ومضى فدخل المقهى . اصدر اوامره بجمع كل الأولاد الذين يلبسون ثياب المقهى ويعملون فى مسح احذيتها ، ثم عاد فامر كل من تحت امرته بالدخول . ثم جلس ينظر فى المجاميع التى بدأ يكثر تقارب رءوسها ويعلو همسها . خيم هدوء مزيف تحس وراءه دوى العواصف . ان هى الا برهة حتى جاء ماسح الأحذية العجوز وخلفه طابور مكون من ثمان رجال كلهم يلبسون ثياب المقهى ويحملون على صدورهم لافتاتها ، لما اقترب من صاحب المقهى اشار لهم فارتصوا بجوار بعضهم . بنظرة واحدة عدهم صاحب المقهى وصاح :

ـ ناقصين واحد .

هز العجوز راسه :

ـ ايوه .. الجدع المستجد .. كان هنا وجاى .

صاح وقد « تزربن » :

ـ مفيش جاى !

ـ بعت اربعة رجاله يجيبوه من تحت الأرض !

وكانت الضحكات قد استأنفت الدوى حين راح « ميشو » يرقب وجوه ماسحى الأحذية عاقدا ما بين حاجبيه فى اهتمام عظيم ، بل انه وقف واقترب منهم وأخذ يتفرس فى وجوههم واحدا بعد واحد . ثم صفق كفا على كف واتجه الى ترابيزته يكاد

ينفجر من الغيظ والخيرة ، تهالك جالسا . لم يكن صاحب المقهى أقل منه غيظا او حيرة ، صاح فى عصبية قائلة :

ــ لقيته فيهم يا سعادة البيه ؟

مط « ميشو » شفتيه فى اسف وغموض ، ولم ينطق . فصرخ صاحب المقهى :

ــ هاتوا الولد المستجد حالا .

ثم نفخ وظهر عليه التوتر العظيم . ثم خيم الهدوء برهة وجيزة كانما هو الهدوء الذى يقولون أنه يسبق العاصفة . وكانت ايما عاصفة : جعير وصياح ملتاع يتصاعد من أعماق الشارع الخلفى ، رجل يبكى باعلى صوت ويصيح بالفاظ غامضة . ما لبث الصياح الباكى ان اقترب أكثر فاكثر ثم اندفعت سحابة قاتمة ، قوامها ثلاثة رجال يمسكون ماسح الأحذية بكل قسوة ، وكان يصيح باكيا من أعماق اعماقه :

ــ وكتاب الله ما مسحت له .. وكتاب الله ما شفته .. احلف على المصحف يا خلق هوه .. أحلف على البخارى .. دانا راجل أبو عيال وغلبان ! .. اهىء اهىء .. اهىء !!

تراجعت الضحكات تماما ولمعت بعض الدموع فى بعض العيون ، حتى عين « ميشو » نفسها لمعت فيها الدموع بل وتساقطت على خديه ، بصوت متحشرج بالبكاء :

ــ مش انت يا ابنى اللى مسحت لى الجزمة دى ! ؟

ــ وكتاب الله ما شفتك ! .. اهىء .

ــ يا ابنى دانا ..

وسحب « ربع جنيه » ولوح به :

ـ عايز اديك حسابك .. خد .. خده كله .

ورماه له فى عدم اهتمام .

تبرأ الولد منه وهز يديه لكيلا يلمسه ، فسقط ربع الجنيه على الأرض ، فابتعد الولد عنه صائحا :

ـ ماليش دعوة .. آخد فلوس عشان حاجة ماعملتهاش ! ؟

ـ يا ابنى بأمارة ما ...

ـ وكتاب الله .. ما شفتك .. أنا بينى وبينك أيه .. عملت فيك ايه ! ؟

ـ تحلف على المصحف ؟

هكذا صاح صاحب المقهى وهو يسدد الى عينيه مصحفا صغيرا كأنه المسدس ..

ـ أحلف !! ..

بحلق فيه صاحب المقهى وصفق كفا على كف وراح يتلفت حواليه :

ـ تبقى المسألة فيها سر ! .. لا انت مسحت له .. ولا انت مسحت له .. ولا انت مسحت له .. أمال مين اللى مسح له ؟ .. يا ناس .. يا هوه ياللى قاعدين كلكم .. فيه حد فيكم شاف الأستاذ ميشو وهو بيمسح جزمته ؟ .. أنا شخصيا شفته .. بعينى شفته ..

ارتفعت بعض الأصوات :

ـ وأنا كمان ..

ـ وانا كمان ..

ـ وانا كمان !

ـ طيب حد شاف مين اللى كان بيمسح له ؟

فلم ينطق أحد .

ـ يبقى لازم عفريت !

هكذا قال صاحب المقهى .

فرد أحد الباشوات القدامى :

ـ نعم .. وعفريت من الدهماء لابد !

فاندفعت الضحكات لكن الموقف لم يفقد توتره . وقف « منيشو » رافعا يده صائحا :

ـ خلاص انا تأكدت انه هو .. هو ده اللى مسح لى الجزمة .. عرفته . ثم امسك الولد الأخير من خناقه وهزه بعنف ودفعه فانكفأ على الأرض :

ـ بس مش قادر أفهم عمل كده ليه .. انكر ليه ؟ .. يبقى لازم فيه سر .. تبقى مؤامرة .. أنا مش غبى .. أنا فاهم كويس قوى شغل التآمر العصرى يبقى شكله ايه .. وبناء عليه : الجزمة دى هى أرض المؤامرة .. فيها حاجة تستدعى الانكار وبهذا الاصرار العنيف .. اذن .. الجزمة دى لا تلزمنى.. آهـه .

وخلع فردة رماها فى اتجاه صاحب المقهى وطابوره ..

فاندفعت عاصفة من الرجال متقهقرة مدمرة فى طريقهـا اكوابا وترابيزات .

وخلع « ميشو » الفردة الثانية ورماها فى اتجاه المجـاميع الأخرى ، فكانما كانوا على أهبة ، اندفعت عشرات الأجسـاد متقهقرة ، فوقـع ناس وديس فوقهم بالأقـدام وارتفع الصراخ الوحشى الخائف المجنون . انزووا جميعهم فى ركنين بعيدين مثل كتاكيت فاجاهم ثعبان خرافى . أما « ميشو » ـ لدهشة الجميع ـ فقد اندفع يهرول ـ حافيـا ـ في اتجـاه الشـارع العمومى صائحـا :

ـ تاكسى .. تاكسى ..

ثم اختفى فى الزحام .

ـ ز ـ

كانما انهارت عمارة كبيرة الى كومتين كل منها تقبع فى ركن قصى يرتعب ، وبينهما مساحة تمتلىء بترابيزات مائلة وكراسى منقلبة وهشيم اكواب ـ وحذاء .

بعد برهة رفع صاحب المقهى وجهـه فلم يجد احـدا على الاطلاق سواه فاخذ يجر سـاقيه حتى دخل المقهى .. وامسـك بسماعة التليفون .

(*) أغسطس سنة ١٩٧٧ م

التحرر من الثوب القديم

فى البروفة الأولى اعطيت الترزى ثلاثة جنيهات • وداخلنى قليل من الندم لاننى اخترت هذه التفصيلة المودرن جدا . وفى البروفة الثانيــة جنيهين .. وابديت كثيرا من الملاحظات التى لم أكن أعرف لها معنى . ولكن الترزى ابتسم وافهمنى ان العبرة بالنتيجة النهائية واننى يجب أن أكون مطمئنا . ويوم الاســتلام وقعت له على كمبيالات عشر قيمة كل منها جنيهان على عشرة أشهر . ثم عدت بها الى البيت مسرعا . وكان فى نيتى أن أؤجل ارتداءها حتى أشترى لها قميصا وحزاما . وكرافت وحذاء . ولكننى حينما نمت على أذنى فى الليل بدا لى أن ذلك مستحيل واننى لن أســتطيع شراء شىء الا بعد أن انتهى من دفــع هــذه الأقســاط .

وفى الصــباح ارتديتهــا . كان فى نيتى أن أجربهــا فقط (ولا أعرف لمــاذا قلت ذلك لنفسى بصوت عال) لكننى حينمــا انتصبت واقفــا امــام المرآة لم أر الحــذاء ولا ياقــة القميص ولا الكرافت لم أر الا بدلة أنيقة ومودرن بشكل زاعق . ورحت وجئت واســتدرت امام المرآة عشرات المرات. وجــاءت زوجتى وتفرجت ولوت شفتها السفلى وابتسمت .. وسألتها عن رأيهــا

فهزت كتفيها ولم تقل شيئا : أعدت عليهـا السؤال فقالت اننى صرت « ولا بتوع السيمـا » ــ فلم أعرف ان كان ذلك اعجابـا أو سخرية ثم اننى لم أحاول معرفة ذلك . انما اصطحبت حقيبتى وتهيأت للخروج . ولأمر ما بدا لى ان البذلة واسـعة على واننى ابدو كأننى استعرتها لأقضى بها مهمـة ، أخذت انظر الى نفسى خلسـة . سقطت نظراتى على فتحة البنطلون « الشارلستون » فاستسخفتها واسـتغربت كيف كانت تبـدو لى على أجسـاد الآخرين ــ أنيقة وغير مستهجنة .

جاء طفلى واعترض طريقى . وكان لابد أن أحمله واحتضنه واقبله مثلما أفعل كل يوم قبل خروجى . ولكننى فى هذه اللحظة اكتشفت انه لم يكن فى يوم من الأيام نظيفا مثل الأطفال الذين كنت اتخيلهم أثناء حمل زوجتى . مع ذلك فقد حملتـه . وأجتهدت ان أبعده عن صدرى قدر الامكان لاتفادى وساخة ثيابه وقدميه . ثم خرجت . الا اننى سرعان ما عدت واغلقت البـاب ووقفت شاردا كما لو اننى نسيت شيئا هاما . والحقيقة اننى كنت خجلا من الظهور فى الشارع وهو شعور ينتابنى دائما كلمـا ارتديت ثوبا جديدا . وقلت لنفسى . لابد من التغلب على هـذا الشعور . ولا اعـرف لمـاذا فتحت الدولاب من جديد . لعلى فـكرت فى خلعها . لكن زميلى « كارم » خرج من بين ملابسى قائلا فى مزاح لزج « ربنا يطول جاكتتك » . وكنت ساعة ذاك أميل على مكتب رئيس مجلس الادارة أستمع منه الى بعض الملحوظات وكان هو يجلس على كرسى فوتى لصق المكتب . فضـاق صدرى رغم اننى ابتسمت يومها كما ابتسم رئيس مجلس الادارة وأكمل المزحـة السخيفة بأننى رجل لا اعتنى بمظهرى لأن كل الصياع الآن يعتنون بمظهرهم ويصرفون عليه اموالا ثقيلة لا تدرى من أين حصـلوا

عليها . اما انا فقد اكملت فى سرى ان مظهرى ليس اهم من الخبز والايجار والمواصلات والأولاد . فى غضب اغلقت الدولاب وقلت لنفسى ان رئيس مجلس الادارة كان يشتمنى لحظة ذاك بالتاكيد ولكن فى صورة مدح . فهو يقصد أن ينبهنى الى اهمية الاعتناء بمظهرى . واننى من هذه الناحية يجب ان اكون على الأقل مثل الصياع المعتنين بمظهرهم .

صاح طفلى من خلفى لكننى تغافلت عن صيحته . وسعيت الى باب الشقة ففتحته بسرعة وقلت : « باى » ثم اندفعت خارجا .. ولكن شيئا من الاستفهام المندهش وقف على ملامح زوجتى فوقفت متلفتا . وقلت لها « ماذا هل تطلبين شيئا » فضحكت وهزت راسها بالنفى وقالت « ابدا » فمشيت حتى بسطة السلم وانا التفت ورائى فى كل خطوة وارى الضحك يفرقع فى صالة شقتى . وما كدت أهبط اول الدرج حتى زحف خيال زوجتى واستند على درابزين السلم . وقالت فى رقة شديدة ، وبلهجة الأفلام والمسرحيات : هل تتأخر اليوم يا حبيبى ؟ واندفعت أضحك وأواصل الهبوط . ثم غامت الدنيا فى عينى . لم أر شيئا لكننى اعتذرت لكثير من المارة . وتأسفت لكثير من الأطفال يبدو اننى اصطدمت بهم . وكنت خائرا واستغرقتنى مشكلة عويصة لم اعرف كيف كنت احلها من قبل . تلك هى يدى . هل اطوحها ؟ هل اضعها فى جيبى ؟ هل اتركها لتتفرغ لتحية الناس ؟ هل . هل . وخيل الى ان الشارع كله يترقبنى .

قابلت أحد الذين اقابلهم كل يوم على محطة الأتوبيس . اعرف انه موظف فى الحكومة ويعرف اننى موظف فى القطاع العام . كنت أخجل من مظهرى كلما رايته لانه متأنق كما لو كان مرسوما

بالفرجار والمسطرة . ما أن رآني حتى صفر بفمه وصاح « اش » وراح يتفحصني مبديا اعجابه بالترزى ويطلب عنوانه . عزمت عليه بسيجارة رغم علمى بانه لا يدخن فاخذها ، بمناسبة بدلتى الجديدة . ثم نفث الدخان وقال فجاة :

ـ « ما رايك فى القطاع العام ؟ » .

ثم حكم باننى لا اقرا الجرائد . ولا ادرى بما يدور حولى ولما قلت له اننى اقرا الجرائد واعرف ان الكلام كثير حول القطاع العام والسد العالى ومشكلة كذا وكيت . قال ان القطاع العام ثبت فشله وقال ايضا انه تنبأ بهذه النتيجة من زمان . ثم قال كذلك ان هذا الكلام لا ينبغى أن يحزننى فانا لست القطاع العام . لكننى رايت ناظر المحطة يتمشى خارج الكشك فانتهزت الفرصة وذهبت اليه . سالته عن الأتوبيس فشوح بيده فى فروغ بال ولم يرد . أعطيته سيجارة . وأشعلتها له فقال ان جميع العربات الشغالة فى الخط سحبت لنقل المتفرجين الى الاستاد . وطلب منى الا اذيع هذا الخبر .

وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حينما وصلت الى مقر عملى . احسست بعين الساعى تنغرس فى ظهرى . ولما نظرت اليه قال لى وهو يبتسم : « ربنا يكرمك يا سعادة البيك .. ويوسعها عليك . اللهم لك ألف حمد والف شكر » . ثم وسع لى الطريق . ولم يعجبنى أدبه وكان الزميل محمود هو أول من قابلنى . صاح بأعلى صوته وهو يعظنى منحنيا فى سماحة « يا أرض احفظى ما عليكى » . وراح يفرز البدلة بعينيه . هز راسه قائلا فى اعجاب .

ـ حلوة يبنى ..

ولوى شفتيه اشمئزازا :

ــ « القميص ليس هو .. لابد من خلعه » .

شوحت بيدى وسكت . قال :

ــ « انت وقعت على كنز . أم ماذا ؟ » .

وفتحت درج مكتبى وقلت له :

« البركة فى التقسيط المريح » .

قــال :

ــ « ليس معقولا » ..

ولمــا اندفع الضيق من وجهى رسم الجد على وجهه وطلب منى عنوان الترزى .

وجاء الزميل حامد . وهو مشهور بالأناقة فى شركتنا . وطلب منى أن اقف . وكان جادا ومهتما بالأمر الى حد ارغمنى على الوقوف بل والاستجابة ليده التى ادارتنى ثم قال ان الترزى حمــار فحردة الياقة من الخلف تحتــاج الى غرزتين لضبطهــا . وغرزة الياقة فوق الصــدر كان يجب أن تكون باليد لا بالمــاكينة . ثم ان البنطلون يجب أن يطول ثلاثة سنتيمترات . ثم اننى يجب أن أخلع هــذا الحذاء فورا والقى به فى البالوعــة . ثم اننى . وفى النهايــة . يجب أن اقول . وبصراحــة كيف وقعت على هــذه القماشة الثمينة ؟ حكيت قصــة الترزى ومدحت انسانيته . وكانت الحجرة قد بدأت تكتظ بكثير من الزملاء وعندما تكلمت عن التقسيط المريح راح بعضهم يتبادل النظر فى خبث .

فجــاة انتبهت الى وجود الزميــل ابراهيم كعادته تشبث بمكتبه كأنه بدونه لن يساوى شــيئا . راقبت وجهــه الطويل

المصوص فرأيت الدم فى وجهه يأخذ لون الفحم المحترق . وكان يفتح الدرج ويغلقه فى عصبية ، ثم ينكب على الأوراق ، وينهمك فى الكتابة . ثم يصفق ويطلب قهوة ويشعل السيجارة من الأخرى. بدأت أستخرج الاستمارات من درج مكتبى لارتبها فراحت نظراته تتسلل بين أوراقى وتربكنى . تذكرت اننى كنت أنوى نقل مكتبى من هذه الحجرة اكراما لخـاطره فلم اعد أطيق نظراته الصفراوية التى تحرق دمى ولا أعرف سر العداء الذى فيها وتذكرت أيضـا ان هذه الاستمارات ليست هى السبب . افكل الزمـلاء يعرفون ويثقون اننى قد ابتليت بهـا وكانت من قبل فى حوزته . وكنت انا مستريحا من دوشتها وكثرة مشاكلها . لكنه لسانى الذى يستاهل القطع . كنت ما أفتأ أردد باستمرار ان الموظف الذى تناط به مسئولية عمل فيه اتصـال مباشر بالجمهور عليه أن يكون حذرا ولبقا وخبيرا بنفسيات الجمـاهير . ويعلم الله اننى كنت اقول ذلك لاخفف على الزميل ابراهيم وقع الشكاوى التى ترف على رأسه من الناس الى رئيس مجلس الادارة . فاذا بسـيادة رئيس مجلس الادارة يستدعينى ذات يوم قريب ويرمى على ظهرى مسئولية هذه الاستمارات .

بعد برهة طلبنى المدير العام . كان منشغلا فى أوراق . ودون ان يرفع رأسـه او يرانى قال : « مبروك » فعرفت أن خبر البدلة قد وصـل اليه . ثم رفع رأسه وقد تهدلت على وجهه ابتسامة عريضـة وصفراء . وراح يردد :

ــ « ما شـاء الله ما شـاء الله . اين كان يختبىء هـذا العـز ؟ » .

حكيت له حكاية الترزى . والتقسيط المريح . والكمبيالات فراح ينظر الى فى ارتياب ويهز رأسه . قلت :

ـ « إنا تحت أمرك » .

قــال :

ـ « تأخرت اليوم » .

شرعت أحكي عن الأتوبيس . لكنه لوى شفتيه . وقال انه قد وصلته انباء تفيد بأن معاملتي للجمهور ليست كمـا ينبغي . ضحكت فنظر الى باستغراب . قلت :

ـ « متى جاءتك هذه الأنباء ؟ » .

قــال :

ـ « اليوم آخرها » .

قلت له انني اكون شــاكرا له حسن صنيعه لو تفضــل بسحب هذه الاستمارات واعادتها الى صاحبها الأصلي . فصمت برهة ثم أمرني بالانصراف .

واشرأب ابراهيم براسه وراح يستطلع وجهي بنظرات قلقة . ثم جاء الساعي يطلبني لمقــابلة رئيس مجلس الادارة . صــاح سيادته مبتسما .

ـ « اش » .

وأمرني بالجلوس . مالت راسه ناحيتي وقال :

ـ أهذه آخرة ثقتي فيك .

قلت :

ـ « ماذا حدث ؟ » .

قــال :

ـ « انها مجرد اخبـار . وأنت تعرف انني ممن يحبون التأكد بانفسهم » .

قلت :

ــ « وما هي الأخبار التي وصلت سيادتكم عني ؟ » .

قــال :

ــ « لا تقلق هكذا .. » .

بحثت عن ريقي . قلت :

ــ « ها هي ذي الاتهامات تحاصرني أنا الآخر » .

سحب ذقنه الغليظة فوق صــدره . ولمع دبوس ذهبي في الكرافت .

ــ « لم نتهمك . أقول فقط . لقد بلغني » .

ضاق صدري . قلت :

ــ « ماذا بلغك عني ؟ » .

قــال :

ــ « قل لي بصراحة . لمــاذا أنت مهزوز هكذا ؟ » .

وكان لابد ان افك ربطة عنقي وزرار القميص أيضــا لعل الهواء يدخل صدري . ضحك وقال اننا الآن كأصدقاء . قلت :

ــ طبعا اننا الآن أصدقاء ما في ذلك شك ؟ » .

قال بهدوء :

ــ « قل لي اذن ، أرى أنك لست على ما يرام » .

قلت :

ــ « حقا . أنا الآن لست على ما يرام » .

أعتدل . أشعل البايب . قال :

ـ « اذا صارحتني فربما اساعدك . هل هو أمر خطير ؟ » .

اندفعت حبيبات العرق تبلل وجهي . قلت :

ـ « اى أمر ؟ » .

رمى البايب . قال :

ـ « انك لست صريحا . وأنا آسف لتدخلي في شئونك . من الآن نحن لسنا اصدقاء » .

رحت اضغط على ركبتي بكوعي لاوقف ارتعاش ساقي . واحسست بانني لابد وان اخلع الجاكت لعل ظهري يتخفف من حمله الثقيل .

قـال :

ـ هـذه قماشة ثقيلة . من نوع جيـد جدا . يبدو انه مستورد . لابد أنها جاءتك هدية . أليس كذلك ؟

نظرت اليه ولم أتكلم . قال :

ـ « هي بالفعل قماشة تهدى . اذا كنت قد اشتريتها فعلا فلابد أنك دفعت فيهـا سعرا باهظا .. كم دفعت في تفصيلهـا يا أستاذ راشد ؟ » .

شرعت أحكي قصـة الترزي . والكمبيـالات . لكنني لم أفعـل .

قـال :

ـ « هل العمل يمشي على ما يرام ؟ » .

قلت :

ــ « الى حد ما » .

قــال :

ــ « وانت .. بخير ؟ » .

قلت :

ــ « الحمد لله » .

قــال :

ــ « تستطيع أن تراجــع نفسـك . فان وثقت فى معاونتى فسوف اكون مصغيا لك . رغم كل شىء » .

قلت :

ــ « ربنا لا يحرمنى منك » .

قــال :

ــ اذا كانت المشكلة من قبيل المحــاكم .. قضية مثلا .. أو ...

صحت فزعــا :

ــ « قضية ؟ محاكم . يا للمصيبة » ..

ثم عالجت انفعالى بابتسامة ذات صوت :

ــ « يا ســعادة البك .. لقــد ضخمتم المســألة جــدا وبلا سبب » ..

اشعل البايب فى هدوء :

ـ « هى اذن صغيرة .. لا بأس من النظر فيها ايضاً » .

قلت :

ـ « ما هى ؟ » .

قـال :

ـ « المسـألة . لقد اعترفت ان هنـاك مسألة ولكنها ليست كبيرة » .

قلت :

ـ « أقسم انه لا شىء هناك على الاطلاق » .

رمى البايب فى غضب وقال اننى كاذب . ثم قال :

ـ الم يحكم عليـك بالسجن ستة اشهر مع الشـغل فى يوم ما .

كان الأرض خففت دورانها السريع . فاخذت دوائرها تلف ببطء . وكل معـالم الأشياء تتحول الى مجرد لون يخطف البصر فى الدوائر المتهـالكة . المتداخلة . واحسست بالصقيع يدب فى احشـائى . فأغلقت زرار القميص واحكمت ربطـة الكرافت . وارتديت جاكتتى وأغلقت زرارها العلوى وقلت :

ـ « نعم هـذا حدث » .

اعجبتنى لهجتى فأضفت :

ـ « ومن المؤكد انكم تعرفون الحقيقة .. » .

وقلت له اننى كنت تلميذا وعيرنى احدهم باننى ارتدى بنطلونه الذى اهدته امه لأمى جزاء أعمال تقوم بها أمى فى بيتهم . ولم أكن أعرف انه بنطلونه أو بنطلون غيره . لكننى شرخت رأسه بالمسطرة الحديد ! . وقطعت رجله عن المدرسـة أياما . وبعد

سنوات فوجئت بالخفير النظـامى يطلبنى لاننى متهرب من حكم السجن . وقالوا لى :

ـ عارض . فعارضت . والغى الحكم كأن لم يكن ..

هز راسه وابتسم . وهزها مرة أخرى لانصرف . لكنــه استوقفنى عند الباب . وأمرنى بتسليم العهدة الى صاحبهــا الأول .

وكنت أعتزم تسليمها من تلقاء نفسى . وكنت أيضــا قــد كرهت البذلة كره العمى وقررت الا ارتديها بعد ذلك مطلقــا لكننى فى اليوم التــالى رايتنى ارتديها . وأجاهــد قدر الامكان ان أتلافى عيوب القميص والحذاء . والكرافت . ورأيتنى انحرف الى الطرقة اليمنى وأقتحم حجرة رئيس مجلس الادارة فبــادرنى قــائلا :

ـ « هيه . سلمت العهدة ؟ » .

فقلت :

ـ لا . اننى لن أسلمها .

فارتكن بذقنه على كتفيه وراح ينظر الى .

قــال :

ـ « كيف ؟ » .

قلت :

ـ « هى عهدتى . ولن أفرط فيها » .

ازدادت نظرته اتساعا . فظللت واقفا . ولمــا راح يتفحصنى رفضت أن أزرر جاكتتى .

(★) سنة ١٩٧٥ .

سـارق الفـرح

ســـمبو

العزومة جـاءت على المرام . لم يتخلف أحد من مشـايخ العرب المدعوين ، الذين ذهبت الركائب بالرجـال لعزومتهم فى بلدان بعيدة ، من البحيرة والغربية ، ومن النجوع والبرارى ، حتى امتلأت زريبـة العمـاروةبعشرات الركائب المزدانـة السروج ، المزركشة البرادع ، ما بين حمير وبغال وجيـاد ، حتى طائفـة الأفندية الذين لم يكن من المتوقع حضـورهم جميعا حضروا وفى صحبتهم ناس مدعوون من قبلهم . وازدانت دار العماروة بالبياض الجديد ورسـوم السباع على واجهتها منقسـمة على أكثر من بقعة تلتف حول فتحة الباب ، وهى كتابة قديمة تتجدد كل عـام عند عودة أحد العماروة من الحجاز .

وفى قاعة الطبيخ وفى الفناء وفى المندرة تتصـادم الأجسـاد ببعضها من فرط اللخمة والحماسة والطهمة ، وليس على الوجوه سـوى الابتسامة العماروية البلهاء الطيبة التى تضاعف ألغادهم تحت أذقانهم فتضىء وجوههم المحمرة المليئـة بالدماء والملامح المنتفخة فى وسامة طريفة محببة ، وليس على الألسن سـوى كلمات : « كل سنة وانت طيب .. مبروك . عقبال عيالك ... يارب نولها للجميـع » . ذلك أن هـذه العزومة التى تقيمهـا

العماروة اليوم ليست ككل العزومات انها عزومة مزدوجة ، فثلاثة من العائلة عادوا من اداء فريضة الحج ، واثنان من شبانها قد نجحا فى كليتى الحقوق والطب ، وبنت من العائلة ستعلن خطوبتها اليوم ، واربعة اطفال من ابناء العائلة سيتم ختانهم على حجر العروس بعد ساعات قليلة .

وقد تم كل ذلك على خير وجه ، كما رسم له الحاج محمود عمرو وتمناه . وزعت الشربات وأكياس الحلوى ، ووزعت الزغاريد فى كل سماوات البلدة ، ووزعت التهانى والابتسامات والأحضان على كل الحاضرين .

ثم جاء دور الطعام ، فامتدت عشرات الطبالى وفوقها عشرات الصوانى النحاسية الكبيرة . وامتدت أناجر الفتة ، ترتص فوقها هبر اللحم المسلوق ، بجوار سلطانيات الشوربة الكهرمانية المزدانة بفصوص التقلية ، وأطباق عليها أكوام اللحم المشوى ، فأكلوا جميعا حتى التخمة .

وكانت البقعة التى يجلس فيها الحاج محمود عمرو الكبير تضم نخبة خطيرة من علية القوم : مشايخ عربان باشوات ، ومأمور المركز ، ومهندس الرى ، ومفتش الرى ، وشكرى زعلوك أشهر محام فى البندر وصهر الحاج محمود ، والحاج سالم المسلمانى شيخ البلد الذى تمت اليوم خطوبة ابنه على بنت محمود عمرو الصغير ابن أخ الحاج محمود عمرو الكبير .

وكان من الواضح أن الحاج محمود عمرو الكبير ينتظر شيئا ما ، اذ راح يتطلع بناظريه نحو الفناء كأنما يستعجل حضور الشىء ، ولم يهدأ الا بعد أن ظهر الولد سمبو ، وهو من عبيد

العماروة أبا عن جد ، عمره فوق الأربعين بقليل ، لكنــه رفيع ، سنار ، طفلى الملامح ، حاد النظرات ، فى عينيه بريق دائم يشرح كل اعماله وأقواله ، فيجعلك تحار ان كان هو صادقا فيما يفعل او يقول ، ام انه يمزح ؟ رغم انه لا يمكن أن يمزح فى بعض الأفعال والأقوال والا طارت رقبتــه فان اسياده لابد أن يستوضحوه كلما تكلم قائلين : « بذمتك ودينــك ؟ جد ؟ » · وهو قد بات يعرف هذا ، فصـــار يتبع قوله على الفور : « وحق دى الليلة ومساها حصــل ! » .

اقترب سمبو يحمل صينية عليها بطيخة نمس كبيرة مشقوقة نصفين بالطول · وضعهــا أمام الحــاج محمود عمرو ورفاقــه ، واستدار مسرعا ليحضر صينية غيرها . نظر الحاج محمود عمرو فى الصينية وصاح :

ــ ســكينة يا ولد .

ــ حاضر يا ســيدى .

وبعد قليل عــاد سمبو مهرولا يحمل صينيتين ، على كل منهما بطيخة كبيرة مشقوقة ، وضعهما فى مكانين متجــاورين ثم انطلق مهرولا . فلحق به صوت الحاج محمود عمرو صائحا :

ــ سكينة يا ولد .

فرد من بعيد فيما يهرول :

ــ حاضر يا سيدى .

وفى الطريق التقى به فى الفناء من سلمه صينيتين ، فانطلق عائدا بهما الى المندرة ليضعهما فى مكانين أمام بقية الضيــوف ، ثم انطلق مسرعا ، فلحق به صوت الحاج محمود عمرو بعصبية :

ـ سكينة يا حمار بسرعة .

صاح سمبو فى ارتباك وخوف :

ـ حاضر يا سيدى .

ثم وسع من هرولته فاندفع يجرى . وبعد بضع دقائق عاد يحمل مقصا كبيرا ، تقطر منه مياه الغسيل التى لم تستطع ازالة ما تراكم عليه من صدأ وغلظة . مقبضاه ملفوفان بخيوط من صوف الغنم لتريح يد من يمسك به لفترة طويلة . من الواضح أنه المقص الذى يستخدمة العماروة فى جز فراء الغنم ، بكل بساطة وهدوء تقدم سمبو مادا يده بالمقص .

بهت الحاج محمود عمرو وغاضت الدماء فى وجهه وتفصد العرق من جميع أنحاء جسده . ودب الحرج فى جميع الجالسين فكتموا الضحك لدقائق ، لكنهم عجزوا عن الكتمان ، فانفلتت القهقهات منطلقة صافية تهز الأبدان بشدة ، فيما هم ينظرون الى سمبو باستنكار مضاعف لتغطية شعورهم بالحرج . كل ذلك وسمبو واقف فى مكانه لا يريم ، ممسكا بالمقص فى انتظار أن يمد الحاج محمود يده ويأخذه . فى حين بقى الحاج مسمرا فى جلسته فى ذهول ، تنطلق من عينيه طلقات رصاص مكتومة الصوت ، ولولا بقية من هدوء لقام الآن ونفضه فى الأرض حتى يزهق روحه . ما اثار ثائرة الحاج محمود عمرو وبلله بعرق الغضب أن سمبو لم يكن فى يوم من الأيام غبيا هكذا . . فما الذى حل به اليوم ؟ أهى ربكة العزومة باعتبارها أكبر عزومة أقاموها فى حياتهم ؟ ربما .

. . . .

وكان الأمر على وشك الانتهاء حينما سارع أحد غلمان الدار وجاء بسكينة كبيرة نظيفة انيقة بمقبض من الفضة ، سلمها

لواحد ممن فى حضرة الحاج محمود عمرو . وجاء غيره بمثيلات لها ، ينضح منظرها بالثراء الفاحش ، وزعها على باقى المجاميع، الذين تناولوها ، سموا وشرعوا فى الحال فى تشريح البطيخ وهم يكتمون الضحك بقوة الحرج فلا يقدرون . واستدار الغلام فسحب سمبو من كتفه ، لكن الحاج محمودبآخر ما فى أعصابه من هدوء زار فيه :

ـ استنى هنا يا ولد .

فتسمر سمبو فى مكانه قائلا من ريق ناشف :

ـ نعم يا سيدى .

قال الحاج محمود فى رصانة تنذر بالخطر :

ـ أنا يا ولد قلت لك هات سكينة ولا هات مقص ؟

قال سمبو والبريق المعهود فى عينيه يزداد تألقا وغموضا :

ـ السكينة يا سيدى .

ـ أمال جبت المقص ليـ . . يـ . . يـ . . يه ؟ !

هكذا قال الحاج محمود عمرو وهو يحدجه بنظرات متوعدة فقال سمبو :

ـ عشان البطيخ يا سيدى !

شاطت كل أعصاب الحاج محمود عمرو ، فتذرع بسخرية مفتعلة وساله باسما :

ـ احنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟ !

ـ بالمقص يا سيدى !

هكذا اجاب سمبو فى بساطة منقطعة النظير ، وكانه قذف الحاج محمود عمرو بجردل من الخراء فى وجهــه ، حتى ان الرجل تأفف ولوى ملامحه وميل راســه بعيدا ، وظهر عليه الألم . هو الذى لم يستطع مخلوق فى البلدة كلهــا ان يستفز غضبه صــار الآن فى قمة الغضب ، وفى قمة الشعور بضرورة التمسك بالهدوء. ظهر على وجهه كأنه قد اصيب بمرض السكر فجــأة ، وكبر فى السن عشرين عاما ، وخرج صــوته من جراب صدىء :

ـ احنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

ـ بالمقص يا سيدى .

وهنا تفجرت المندرة كلها بضحكات صاعقة داوية ، فكأنها كلها وقع أحدية وبراطيش وصرم قديمــة تنهال على رأس الحاج محمود عمرو ووجهه ، فما ازداد الا تشبثا بالهدوء فعاد يسأل من جديد :

ـ احنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

ـ بالمقص يا سيدى .

ـ طب امشى انجر من قدامى !

وكانت هذه العبارة هى ما ينتظره الجميع من أول المبتدا . وكان من الممكن أن ينتهى الأمر هــكذا بالفعل ، ولكن الحــاج محمود عمرو بعد هذه الواقعة البسيطة العابرة صار غيره قبلها . انزوى طوال القعدة وقد تعكر دمه ، وضــؤل جسده ، وتدلت شواربه وبدا كأنه انحط الى مخلوق من الدرجة العاشرة . راح يتميز غيظا وكمدا وقهرا ، ويحــاول اخفاء ذلك فيكشف عنه ، الجميع قد احسوا بذلك فراحوا يداعبونه ، ويسخرون من غباء

سمبو ، ويجرجرون الحاج محمود عمرو للفرفشة والاندماج معهم ، وكل ذلك لا يزيده سوى غيظ على غيظ ، وقهر فوق قهر ، ودماغه شاتت ، يودى ويجيب : هذا المخلوق الغبى الحمار كيف يصر على حكاية المقص أمام هذا الجمع الحاشد فيسبب له هذه الفضيحة الشنعاء ؟ ! وطاف بذهنه أن أحدهم أو معظمهم ربما اضطر فى بعض الأحيان أو فى معظم الأحيان الى تشقيق البطيخة بالمقص ولكن هذا الولد الغبى كيف يقول هذا أمام الناس ؟ وهكذا ركبه النكد وأحس أن العزومة كانت شؤما على مزاجه . وانفضت العزومة وهو لا يدرى كيف تمكن من توديع الضيوف .

وكان الفجر قد أوشك على الأذان حينما عاد الحاج محمود عمرو وحده الى الدار . فجلس فى مكانه المعتاد فى المندرة ، وطلب الولد سمبو فجاءوا به وهو ينتفض مذعورا من الخوف ، ولسانه يلعق شفتيه فى كل برهة . وقف أمام الحاج محمود عمرو خافض الجبين يتوجس حائرا ، حتى لقد أشفق عليه الحاج وقرر أن يعفو عنه بعد أن يوبخه بكلمتين قاسيتين وينبهه الى حموريته حتى لا يقع فيها مرة أخرى . فظل برهة طويلة ينظر الى سمبو لا يدرى كيف يبدأ كلامه ، لكنه بكل هدوء الأب حين يعاتب طفلة بلهجة يطمئنه من خلالها قال :

ـ احنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

ـ بالمقص يا سيدى !!

طارت الشومة فى الهواء كلمح البصر ، ثم هوت على كتف سمبو فدكته . فصرخ صرخة فزعة مفزعة كقرع الهاون . وشعر الحاج محمود عمرو بأن الضربة كانت أقوى من اللازم وأنها ضربة موت لولا أن الله ستر . فهدأ نفسه وقال :

ــ احنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

ــ بالمقص يا سيدى !!

وهنا فقدت الهراوة السيطرة على نفسها ، فصارت تنشال وتنحط على كتف سمبو فى غيظ شديد . وسمبو يتلقى الضربات ينتفض تحتها ، يتلوى من الألم ويطلق الصراخ الملتاع المستغيث. فى حين وقف رهط كبير من رجال الدار على مبعدة يبسملون ويحوقلون يطلبون من الله الستر وتعدية الليلة على خير قبل ان يموت الولد فى موضوع هايف كهذا ، صار الكبار منهم يتشفعون للولد ، يطلبون من الحاج أن يصلى على النبى ويفضها سيرة . والحاج لا يعرف كيف يمنع نفسه من الاستمرار فى الضرب ، الى ان تعب هو ، ولهث ، فأوقف الهراوة واسند جسده عليها وقال للولد من خلال لهاثه :

ــ احنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

ــ بالمقص يا سيدى !!

فما كان من الحاج محمود عمرو الا أن عدل ثيابه حول جسده ، واحكم لف الشال على كتفيه ، وخلع الزعبوط ولبسه ، ثم تقدم نحو باب المندرة صائحا فيمن حوله :

ــ هاتوه وتعالوا ورايا .

كانت الكلمة امرا لا يجرؤ احدهم على مخالفته . فسحبه بعضهم ومضوا خلف الحاج محمود عمرو ، الذى فتح الباب وخرج الى الحارة ، ثم الى شارع داير الناحية ، فعبر الجرن الكبير ، وانتقل الى الأرض المزروعة ، ومضى على شواطىء القنوات ومن خلفه رجال يمسكون بالولد سمبو ، لا يعرفون الى

أى مكان هم ذاهبون ، ولا ماذا يقصد الحاج من وراء ذلك ، لكنهم لا يملكون الا المضى خلفه .

اشرفوا جميعا على مصرف نمرة تسعة ، أكبر مصرف فى العب كله ، متصل بفرع رشيد مباشرة ، لا حد لعمقه ، ملىء بالمياه على الدوام اما من الصرف أو من الفيضان ، ويتبارى شبان البلدان الواقعة عليه فى عبوره ، وفى كل عام لابد أن يغرق فيه نفر أو نفران ، والقصص المخيفة تترى على شطآنه ليل نهار عن الجنيات التى تسكنه ، وعن أرواح الغرقى .

على شاطىء هذا المصرف وقف الحاج محمود عمرو ، فجاء الرجال وتوقفوا بجواره وقد شلت أذهانهم عن التفكير . تقدم الحاج محمود عمرو من سمبو وقال له فى انذار أخير مغلف بشىء من الهدوء :

ـ احنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

ـ بالمقص يا سيدى !!

ـ غرقوه .

هكذا صاح الحاج محمود عمرو آمرا ، رافعا ذراعه لتأكيد الأمـر :

ـ غرقـوه !!

فانتفضوا جميعا . وتقدم شابان فامسكا سمبو من ابطيه ، وبدلا من رميه فى قلب المصرف نزلوا به شيئا فشيئا على الشاطىء فى انتظار ان يغير الحـاج رأيه فيأمر باعادته . فلما بقى الحـاج

على رأيه توغلوا شيئا فشيئا حتى صاروا قاب قوسين أو أدنى من منطقة العمق السحيق . وكانت الميـاه قد وصلت الى قرب صـدورهم وهنا صاح الحاج محمود عمرو من فوق الشاطىء :

ـ احنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكين ولا بالمقص ؟

ـ بالمقص يا سيدى !!

ـ غرقوا ديك امه !

هـكذا جعر الحـاج محمود عمرو بعصبية وجنون . وكان الشبان قد صاروا ميالين الى اغراقه بالفعل والخلاص من هـذه المحنة التي لم تكن تدور لهم فى بال . فدفعوا سمبو نحو العمق السحيق فصارت جثته تختفى تحت المـاء شيئا فشيئا الى أن غابت رأســه تماما . وهنا جعر الحاج جعرة أخيرة كأنمـا ليخلص بها ضميره :

احنا يا ولد بنشقق البطيخ بالسكينة ولا بالمقص ؟

لم يسمعوا صوتا ، لكنهم رأوا ذراع سمبو مرفوعة تطفو على سطح المـاء فاردا اصبعيه يحركهما بعلامة المقص . فنشـن الحاج بالهراوة على ذراعه وقذفه بها لتصنع فى المـاء ضجة كبرى دون أن تصيب ذراع سمبو ، التى كانت قد تهدلت واختفت تحت المـاء . فاشـار الحاج الى رجاله ان اخرجوا ، فخرجوا . ومضى بهم عائـدا الى الدار ، وهو طوال الطريق لا يكف عن البصـق والشتم والهذيان .

طبــق الأرض

كل زملائى الأنفار يحبون العمل فى أرض عائلة الجوابر ، هذا ما بان لى ، من يوم ما اشتد عودى فكبرت على نقاوة اللطع من اشجار القطن وعلى الجرى وراء حمــار السباخ ، وصرت استطيع الشغل فى العزيق وشتل الأرز وتطهير المصــارف وجمع القطن وحش البرســيم .. وكل هــذه أعمــال تحتاجها أراضى الجوابر . النفر بسبعة قروش فى اليوم ، ومواسم الشغل تهجم مرة واحدة قبل البذار وعند الحصــاد . نفر كثيرون يأخذونها من قصيره ويلبدون لمقــاول الأنفار كى يضمهم فى ترحيله لثلاثة اشهر او اكثر او اقل ، يضمنون الموسم كله ، ولا الحوجة للعمــل يوما والانتظار يومين ، يقبضــون عربونا مجمدا ينفع فى مصلحــة كبيرة . ونفر اكثر لا يحبون الترحيــلة ، قطعت الغربــة حتى ولو لســـاعة واحــدة ، وما دام الزمن النــذل رخص للخسيس ، ان يتحكم فى الأصيل ، فتحكم بتحكم وخسيس بخسيس ونبقى فى بلدتنا احسن ، خسيس تعرفه أحسن من نصف خسيس لم تعرفه بعد . هؤلاء ربنا يكرمهم أيضــا ، لأن الكل لابد أن يبيت متعشيا فى النهاية ، وشغل البلدة كثير ، ليس عند العــائلات وحدهم ، بل وعند ناس من ذوى الفدان والفدانين .

الترحيلة تأخذ الوأغش وتمضى به الى بلاد بعيدة ، الباقون يمزمزون فى الشغل عند اهالى البلد . كل عائلة عندها شغل لابد أن تبيت على الأنفار قبل دخول الليل . المحظوظ من يبيت عليه مرسال من عائلة الجوابر ــ ليس ببعيد أن يستندل النفر فيرجع فى كلامه اذا بيت عليه مرسال من عائلة اخرى ثم فوجىء بمرسال الجوابر يجىء ليبيت عليه قائلا : عندنا عزيق بكره يا فلان ، فى الحال سيرد قائلا : احنا خدامينك يابا الحاج ، ثم يتسلل قبل اذان العشاء متوجها الى دار من بيت عليه من قبل : عدم المؤاخذة يا حاج فلان ! وحق دى الليلة ومساها الولية امى كانت اتفقت مع الجوابر من غير ما اعرف ! سامحنى بكره بس ! ..

وكنت فرحا بفاسى التى اشتريتها من مولد سيدى ابراهيم الدسوقى جديدة وصنع لها النجار يدا طويلة سرحة خشنة كى لا تتزحلق فى يدى اذا عزقت . اضعها على كتفى وأمشى مختالا بين الرجال ، معجبا بشراشيب دكة السروال أبو حجر الطويل ، والصديرى فوق الفانلة أم كم طويل ، ومنديل محلاوى مربوط حول رأسى فوق الطاقية اتقاء لحرارة الشمس ، وآخر معقود على رغيفين وخيارتين من بلاص المش نسميه حمام البلاص ، وعقدته مدخولة فى يد الفاس ، ذلك هو غذائى الذى سآكله عندما يمر قطار الظهر البعيد .

فرحتى فى ذلك اليوم لا تقدر بمال ، لأننى صرت رجلا بين الرجال ، ولأننى سارح للشغل فى غيطان الجوابر . قال الولد حموده الجرف فى غبطة وهو يعض على نواجذه :

ــ « ابسط يا عم ! يومك نادى باذن الله ! » .

وكان الحاج محمد جابر يشخط فى الأنفار المتخلفين فن الركب ، ويهدد بضرب الشلوت فى القلب اذا لم يكن للواحد همة. طرف نبوته راح يزغد أجناب من يطولهم . قلت للولد حموده الجرف :

ـ « الحاج يأخذنا بالشدة من أولها ! » .

قـال :

ـ « ولن يترك الواحد منا يرفع قامته دقيقة واحدة ! » .

قلت :

ـ « ربنا يستر فى هـذا اليوم ! » .

قـال :

ـ « واذا لم يعجبه عزيق أحد يخطف الفأس منه ويريـه الشغل على أصـوله ! وعندما يرد الفأس يضرب صاحبه بيد الفأس على دماغه ! » .

ـ « يعنى أوسخ من شغل الوسية ! » .

ـ « الوسية أرحم ! » .

ـ « فلماذا تحبون الشغل عندهم ؟ ! » .

ـ « لأنهم يقدمون للأنفار فطورا ! هذا كل ما فى الأمر ! » .

ـ « يا سلام ! .. سيفطروننا اليوم ! » .

ـ « قبل نزولنا الخطوط نفطر ! » .

ـ « كتر خيرهم والله ! يتآمروا على كيفهم بقى ! » .

ومشينا فى اتجاه قرص الشمس الأحمر حتى وصلنا الى حوض البقمة بعد نصف ساعة سيرا على الأقدام بين الحقول ، الحـاج محمد جابر امامنا راكب حماره ، والحاج سالم جابر ـ ابنه الكبير ـ وراءنا راكب حمـاره ، ومن ورائه أم حنفى التمليـة ، الملاية ، تحمل على رأسها حلة الغسيل الكبيرة ، وبجوارها ابنتها سعدية تحمل قفة مغطاة بحزمة من البرسيم . وكان موكبنـا يستطيل كلما حودنا فى طريق ضيق . واذ توقف حمار الحـاج محمد جابر توقفنا عند سـاقية على شاطىء قناة رفيعة تفصـل بين حوضين من الأراضى .

وقال الحاج محمد جابر :

ـ « كل واحد يقعد فى مطرحه ! » .

فتقرفصنا جالسـين فى صف طويل على الجـرف الطرى للقناة . نزل هو فربط حماره فى وتد على مدار الساقية . وجـاء نحونا بقدمين حافيتين مفرطحتين ، تختمان الأرض الطرية ببصمات غائرة ، اذ تترك قدمه فى الأرض ختمـا كاملا ، بأصـابع خمسـة متلاصقة وكعب مستديرة . صرت أتأمل فى اقدامه المطبوعة على الأرض فأتذكر ما يشاع فى البلدة من أن العتقى لم يفلح فى تفصيل بلغة على مقاس هاتين القدمين ، وأنهم نجحوا فى تفصيل بلغة له عند عتقى فى بندر دسوق لكنه لم يطق لبسها فرمى بها ولم يلبسها الا عند صـلاة الجمعـة . وكنت اعجب من الشـقوق الغـائرة فى كعبيه كشقوق الأرض الشراقى ، وكانت ناشفة صلبة لدرجـة أنه كان يستعين بكعبه فى دق مسمار فى خشب أو غرز وتد فى الأرض .. صرخ الحاج محمد فى أم حنفى :

ـ « مدى يا مرة واعملى لك همة شوية ! » .

فأسرعت تتمايل تحت ثقل الحلة الكبيرة . فلما صارت أمامه ساعدها على انزال الحلة على الأرض . ثم وصلت البنت سعدية فانزلت القفة ، فازاح عنها حزمة البرسيم فاذا هى مليئة بالأرغفة الطرية . صار يوزع على كل واحد رغيفا . ثم جاء الحاج سالم ورفع غطاء الحلة فاذا هى مليئة بشربة العدس . صار يقلبها بمغرفة كبيرة من الخشب ، فيتصاعد منها الدخان حاملا رائحة العدس الفواحة . صاح الحاج سالم وهو يقلب العدس بالمغرفة :

ـ « طبعا ما عندناش صحون تكفيكم ! » .

صاح فيه الحاج محمد :

ـ « صحون ايه يا جدع ؟ نعمل سفرة ؟ ! انا ساعمل لك صحونا ربانية ! » .

ثم غرز كعب قدمه فى الأرض الطرية ، وبرمه ، فصنع حفرة تشبه الطبق ، ثم نزع كعبه صائحا فى الحاج سالم :

ـ « اغرف هنا ! »

ونقل كعبه الى بقعة مجاورة فضغط به الأرض وبرمه صانعا حفرة أخرى كالطبق الغويط . وهكذا مضى يصنع بكعب رجله حفرا فى الأرض كالأطباق ، والحاج سالم من خلفه بالحلة يضع فى كل حفرة مغرفة من العدس . انحنى الأنفار على الحفر يقتطعون اللقم ويغمسونها فى الحفر ثم يطوحون بها فى افواههم . نقرتنى نظرة الحاج محمد من بعيد ، فاقتطعت اللقمة بسرعة ، وانحنيت على الطبق .

العـــــروس

الفرحــة دوت فى صــدرى أول ما وقعت عيناى عليهــا بين يدى الصياد ، سمكة بنية كالعروس المجلوة المزوقــة باطيــاف حمراء وزرقاء وخضراء ، فى حجم وليد صغير ، تنتفض بالحيــاة وبالفزع ، كأن شبكة الصياد الجهنمية قد انتزعتها من مخــدع الفرح ليلة عرســها عارية من الفراش . استبشرت خيرا بمنظرها، وطار قلبى من الفرح لمــا رأيت الصياد يحملها بين يديه ويضعها ضمن البيعة التى سأبتاعها منه لأسرح بها فى شــوارع أسيوط او فى حلقة السمك بسوقها الكبير .

وحدها وزنت اربعة كيلو جرامات وربعــا ، ازداد الصــياد فوقها بقية الخمسين كيلو التى أبتاعها فى العادة كل يوم . ثم اشار الى السمكة البنية الكبيرة قائلا :

ـ « عندك زبون لها ؟ » .

قلت بحماسة كبيرة كأننى أدفع عنها عين حسود مجهول :

ـ وماذا تكون هذه ؟

ثم اننى أحكمت « الجنبة » ، لممت أطرافها حول الســمك ، قربت أذنيها من بعضهمــا ، أدخلت الشــومة فيهما ، وحملت

الشومة على كتفى ، والجنبة نائمة على ظهرى ، ومضيت مشمرا ذيل جلبابى اصعد السلم الطينى لمسطاح النيل ، حتى صرت على ربوة الشارع العمومى وتأهبت للصياح معلنا عن السمك الطازج الصابح • وكانت البنية تنتفض داخل الجنبة انتقاضات عنيفة تكاد تدفعنى للانكفاء على وجهى ، حيث كانت عفية مليئة بطبقات من اللحم المشفى المستنير •

ما أن خطوت بعض الخطوات حتى حاذانى رجل كالدرفيل يركب دراجة . كان متقمطا كالأفندية الخواجات ، ويضع فوق راسه برنيطة من الخوص ، وكان نظيف الثياب والمظهر الا من بعض الغبار الذى رماه عليه الطريق . أوقف الدراجة وواجهنى حتى كادت العجلة الأمامية تدخل بين ساقى لتشنكلنى • فى اللحظة التى شرعت فيها فى الصياح محتجا ، تبسم هو عن أسنان ذهبية وشارب حليق الأطراف مما جعله يبدو كرجل مهم من الحكام أو موظفى الميرى . قال فى شيء من الود :

ـ « أرنى يا عم ما معك من سمك ! » .

أنزلت العصا عن كتفى ، وفتحت الجنبة ، فانتفضت البنية تكاد ترمى بنفسها الى الشارع : وكانت تفتح فمها وتغلقه كبندول الساعة ، وترمش بعينيها ناظرة الينا فى استرابة كأنها تقول : استذوق أنت وهو ! عودا بى الى مخدعى تحت ستر الماء ! ..

نظر الرجل اليها ولمعت فى عينيه بوارق غامضة ، قال :

ـ « أرينيها ! » •

رفعتها الى صدرى فى رفق أبغى تهدئة روعها ، كطفلى

الذى سأسلمه لشخص آخر ليداعبه . أمسك بها الرجل فى قسوة ، لدهشتى رفعها الى انفه وجعل يشمها :

ركبتنى العفاريت ، أوشكت أن انتزعها من بين يديه بل ان ابصق فى وجهه الكالح الشبيه بقفا غليظ ، لكننى استمسكت بطول البال من اجل خاطر عيون الاستفتاح ، اكتفيت بالشخط فى وجه الرجل مشوحا بذراعى فى غضب أكاد أخزق عينيه :

ــ « تشم كيف يابو العم ؟ ! تشم ماذا ؟ ! تشمها وهى ترتعش بين يديك وتفتح فمها ؟ ! » .

ظهر على وجهه شىء يسير من الخجل ، قال :

ــ « بكم تبيعها ؟ ! » .

ساعة استفتاح وساعة صبحية ، لابد ان أبدأها بالصدق والنية الخالصة حتى لا يعاكسنى الله بقية اليوم ، قلت :

ــ « تعطينى عرقى ريالا وتأخذها ؟ » .

قال :

ــ « عشرون قرشا بحالها ؟ لا مانع على كل حال ! » .

قلت :

ــ « ثمنها ثمانون قرشا ! وفيها ربع كيلو زيادة بدون حساب ! هات مائة قرش ! » .

عادت الكلاحة الى وجهه ، قال :

ــ « ثمانون قرشا فقط ! » .

هنـــا لم اتمــالك أعصــابى ، نسيت الاستفتاح وســاعة الصبحية ، بكل نفس ضايقها الموت نزعت السمكة من يديه بعنف، فرميت بها فى الجنبة وانا ابرطم بشتائم مضغمة ، ملوحا بالشومة فى توتر قبل ان اشكها فى اذنى الجنبة واحملها لأمضى تاركا اياه وراء ظهرى ، وقد حلفت بالطلاق ثلاثا الا ياكلها او حتى يشمها حتى لو نادانى بالموافقــة غير أن الملعون لم ينادنى ، فنسيت أمره وانغمرت فى حلقة الأســماك اروح واجىء ، أتقرفص عند التعب على اية ناصية . كان السوق ماشــيا ، والسمكات تتناقص فى قعر الجنبة شيئا فشيئا حتى نفدت كلها ما عدا البنية التى كفت عن الانتفاض تماما حيث قد هدها التعب . لكننى كلما لامستها باطراف أصابعى ارتعشت قليلا ، فعدت بها الى دارى حزينــا كاسف البال ، بيتها فى صفيحة المياه على أمل أن تمتد بها الحياة حتى الصباح .

فى اليوم الثانى وجدتها قد ماتت ، حملتها فاذا هى متهدلة اللحم مترنحة ، وضعتها فى الجنبة بين السمكات الجديدة التى ابتعتها لرزق اليوم : اتخذت طريقى الى السوق . ســاعة زمن واحدة كنت بعدها قد انتهيت من بيع كل الســمكات وجبرنى الله، لكن البنية بقيت راقدة فى قعر الجنبة كالحظ العاثر ، ينظر اليها المــارة فلا يتوقفون . ووالله لو كانت ابنتى من لحمى ودمى قد عنست وبارت وفاتها قطــار الزواج ما حزنت عليهــا كل هــذا الحزن الذى راح يشق قلبى شقا . قلت : فلأغير نحس المكان ، وحملت الجنبة ومضيت أجوب حوارى أسيوط مناديا عليهــا طالبا لها العدل ، معزيا نفسى على التعب بأننى متوجه الى دارى فى الأصل . وكانت الصفيحة فى انتظارها بمياه الأمس ، فدلقتها فيها مفوضــا أمرها وأمري الى الله . ارتطمت بقاع الصفيحــة كقطعة من الحجر الثقيل ، رفعتها ثانيــة ، كانت منتصبة متصلبة

لا فرق بينها وبين الشومة ، رغم الأسى عابثتها بأن أوقفتها على راسها فوق اصبعى كما يفعل البهلوان الأونطجى بالعصا ، صرت أحرك يدى لتحتفظ بتوازنها ، امتزجت حركة يدى بخـاطر طارىء مؤداه انهـا لو بقيت متوازنة على أصابعى فسـوف يكون ذلك ايذانا برواحها ، وان اختلت ووقعت فهى اذن لواقعة فى فرابيزى. ظللت افعل هذه اللعبة حتى كلت يدى ، فتركت البنية تقع فى الصفيحة مرتطمة بها فى ضجة متفجرة بالرذاذ .

فى صباح اليوم الثالث رفعتها فاذا هى قـد ماتت الموتـة الأخيرة ، التى لا نفع بعدها . كانت صلابتها قد انهارت ، صارت هى كالكرباج ، صار لحمها طريا هشا ، تظهر عليـه بصـمات أصابعى غائصة . وضعتها بين السمكات الجديدة التى ابتعتهـا لرزق اليوم ، وقرات الفاتحة وآية الكرسى ، وانتويت ان غازلها زبون ان أوافق بأى « سعر يشاء » ، لكن أحدا لم ينظر اليها ، لم يقترب منها .

عندما انتهت السمكات كلها قلت : ما من بد ، وحملتها لكى أبيعها للفسخانى ولو بعشرين قرشـا ، اذ هى لم تعد تصـلح للبيع ولا تصلح للأكل ، وليس لها من مصير سـوى صفيحـة القمامة أو صفيحة الفسخانى يأخذها متعفنة جاهزة ليضعهـا مباشرة تحت الملح بين طبقات العفن .

فى الطريق الى دكان الفسخانى اصطدمت بالدراجـة مرة أخرى ، نظرت فاذا بى أمام نفس الرجل ذى البرنيطة الخوص والشـارب الحليـق الأطراف والوجـه الغليظ كالقفـا واللبس الخوجاتى . ما أن تعرفت عليه حتى صحت فى وجهـه بازورار مشـوحا :

ـ « اه ! اهو انت ؟ دعنى فى حالى الله لا يسيئك ! » .
اعترضنى قائلا فى ابتسامة متملقة :
ـ « ساشترى منك ! » .
ـ شوحت فى وجهه شاخطا :
ـ « انت لا تشترى ! الله يسهل لنا ولك ! » .
قال بجدية وهو يستوقفنى بيده :
ـ « ساشترى هذه المرة ! اقسم اننى ساشترى ! » .
قلت صادقا :
ـ « لم يعد معى سمك للبيع ! » .
قال بالحاح وهو يزغدنى بمزاح :
ـ « قلت لك ساشترى هذه المرة بكل صدق ! » .
قلت :
ـ « لا تقليب عندى ولا شم ولا بحلقة ! » .
قال فى امتثال :
ـ « ماشى كلامك ! » .

ففتحت الجنبة ، وبسرعة تناولت ورقة من ورق اكياس الأسمنت ، لففت فيها البنية المتعفنة وسلمتها له قائلا :

ـ « هات مائة وخمسة وثلاثين قرشا ! » .

لم يرد ، انما دب يده فى جيب سرواله الخلفى ، فأخرج محفظته ، وعد لى مائة وخمسة وثلاثين قرشا ، واحتضن اللفة ومضى يترنح كالنشـوان ممسكا الدراجة بيد واحدة ، وقفلت عائدا الى الدار متخفيا بالحوارى الجانبية ، فيما أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

المعادى ـ فى ١٥ مايو سنة ١٩٨٩

طـق الليـل

كنت ساهرا عند المسقى أحرس المياه حتى لا يقطعها احد من زمام ارضنا ليوصلها الى زمام ارض اخرى . ومن اجـدر منى بهـذا العمل ؟ لا احد فى العائلة بل فى ليل المنطقة كلهـا من هو أشقى منى . الليل نفسـه يخشـانى ويدارينى السكات . فان تنحنحت ، جاءنى صـوتى نفسه مؤكدا لى أن ليس راكبـا على ظهر الليل سواى . وان صرخت فى شبح من اشباح الليل ، خبطت صرختى فى جبهة الظـلام مثل الحجر المسمى « طق الليل » فيطق الشرر من صرختى ، ليتبدد الشـبح ، أو امسـكه بيـدى كخرقة بالية ، ناهيك عن طخ النار الذى قد اضطر اليه ، اسـهل شىء بالنسبة لى وفى نفس الوقت آخر شىء افعله . أما أن امتدت اصابعى على الزناد ، فقل يا رحمن يا رحيم على من تقع نارى عليه . لو بلدة برمتها احصـدها فى لمح البصر ، مع أننى سأتوقف عدة مرات لملء الخزنة بالرصـاص والتنشين مرة أخرى . اذا امتدت يدى على الزناد فانها لا تعرف التراجع حتى لو اتضح لى أننى اضرب فى أهلى وناسى .

الجميع يعرفون هذا . وبندقيتى الميزر هى أول من يعرف، ولذا فهى وأنا روحان فى دبشـك واحد بماسورة تتمشى فيهـا

روحى فى كل آن . بندقيتى هـذه تعرف طبعى واعرف طبعها . تظل معلقة فى كتفى مثل ريشة لا اشعر بوجودها حتى تجىء لحظة الغضب الفاصلة فحينئذ تجىء هى فى بالى ، ثم تختفى فاعرف انني قد صرت فى بالها . وحين تشتد لحظة الغضب أشعر بها ثقيلة فوق كتفى . وحين تلحقنى المهانة ولو من بعيد أراهـا قد قفزت من تلقاء نفسها وصارت بين كفى فى وضع التنشين الذى لا يذكر التاريخ فى بلدتنا أنه قد خاب مرة واحدة أو أدى الى جرس فقط . كل طلقة برأس تقع يعنى تقع ، وقعة أبدية لا قيام منها الا يوم القيامة وعليك وعلينا خير .

السر ليس فى الطلقة ولا فى بندقيتى الميزر الأصيلة انما هو فى عينى بالصلاة على النبى . أحيانا لا يكون بى ثمة حاجة لاحكام النشان حتى وان تكن فى العتمة . وما حاجتى أصلا للنشان ؟ ان عينى تنتظر انقذاف الطلقة من الماسورة لتأخذها من يدها طيرانا لتضعها فى جسد الأبعد .

الكل يظهر احترامه الشديد لى ، ولا يؤخر لى طلبا . وأعرف انهم مع ذلك يشتموننى من وراء ظهرى بتهمة أننى مدب ، والحقيقة أنهم يضيقون بصراحتى التى تشبه سرعة طلقتى من بندقيتى وتشبه كذلك اصابتها للهدف . اقول للأعور انت اعور ، فى عينيه وليس من ورائه ، ولقد علمنى جدى الكبير ابو هميلة اننى لا أقيم وزنا لكل من يزعل من الحق أو يلوى بوزه ، وأن احتقر كل خنيس يظهر أنه يحبنى وهو فى الواقع يخشانى . وهؤلاء كثر ، وهم الذين تعلمت من أجلهم عشرة البندقية حتى تزوجتها على سنة الله ورسوله برخصة استصدرتها من الحكومة بواسطة عمى سلمان بك ابو هميلة عضو مجلس الشيوخ الشهير على سن ورمح لابد انكم تعرفونه .

عشقت البندقية وعشقتني البندقية درءا لغدر الجبناء الذين يأكلون على طبالينا فى المواسم والأفراح ، ويربضون لنا فى حقول القصب والذرة يبتغون ظهورنا . فالبلاد ملآنة بالظلم أى نعم ، ولكن لسنا نحن بالظالمين ، انما الظلم الآتى من فوق يجعل السماء مكفنة بسحب من القطران تنفثها طاسات صدور محترقة من نيران تحتها . الظلم يتبعه ظلام ، هكذا رأينا بأعيننا. والظلم قرين الظلمة هكذا قال عمى الكبير الشيخ حمدان أبو هميلة وهو يجلس على عتبة دارنا القديمة فوق المصطبة زاهدا فى الدار الجديدة ذات التراسينات والجدران الملونة .

فى الظلمة لابد أن يطمح كل انسان فى خطف زاد لنفسه ، وفى الظلمة لابد أن يدافع كل انسان عن نفسه ، ولا تنسى العداوانة بعضها لله فى لله . بعضهم يهمهم أن يرفعك عن مقعدك ليجلس بدلا منك . بعضهم يستخسر فيك النعمة . بعضهم يريد أن يشاركك ، يزاملك ، ينافسك ، يضايقك ، يزحزحك يسرق الكحل من عينى زوجك ، والنضارة من وجه أولادك ، يسرق دمك والعياذ بالله .

كان لابد أن يطلع من عائلتنا ولد ابن ليل يأتمر الليل بأمره يخضع لاشارته . وكان هذا الولد هو .. أعوذ بالله من قولة أنا . وكان لابد ان يجىء فى عائلتنا ولد يبرع فى اللعب بنيران البنادق يصنع منها أفراحا وأتراحا وشموسا فى حالات غروب وأخرى فى بواكير شروق . وكان هذا الولد هو .. أعوذ بالله من قولة أنا .

وفى تلك الليلة البعيدة الليلاء ، كنت مبسوطا ومنسجما أربعا وعشرين قيراطا . الحشيش وحششت . الشاى وخرطت

ثلاث زردات . السجائر وبرمت ربع أوقية دخان عفرتها فى لذة واستمتاع . النشاط فى جسمى على سنجة عشرة . أروح وأجىء أمام الخص تحت شجرة التوت بجوار الساقيـــة ، وليس من صوت سوى نعيرها الونيس . شرائح المياه تنساب من عينى بئر الساقية مندفقة فى القناة الساعية بأعمـــاق أراضينا تزغرد فى صمت . والقمر ينزل ضيفـــا على شجرة التوت ، فيبعث الأنس على آماد لا يحدها البصر .

فجـأة ظهر الأشـــباح الثـــلاثة قادمين من بعيـــد من اتجـــاه البلدة يمشون فى جراة مدهشة ، كأنهم لا يرون القمر . فان كانوا عميانا فكيف لم يشعروا بى ، لم يشموا رائحـــة رهبتى ، حتى لتواتيهم الجرأة فى الاقتراب منى هـــكذا بلا احم أو دســـتور . ثم ان ثلاثتهم لا يمشون على السكة بل يخوضـــون فى قلب زرعنا كأنهم فى « يغمة » فى وكالة من غير بواب . يا أولاد الوسخة ! .. هكذا قلت فى نفسى من شـــدة الغيظ . من هنـــاك ؟ تكلم انت وهو .. هكذا صحت فيهم . فلم يردوا ، بل ظلوا يقتربون منى فى بجاسة وجسارة حتى كدت أخاف لأول مرة فى حياتى .

ايقنت أنهم من أشقياء الليل الملثمين جاءوا يغتصبون الميـــاه لأرض واحد من الأعيان الكبار . ولم يكن ليتم هـــذا الا على جثتى قبل اغتصاب نقطة مياه واحدة . واذا بالبندقية بين كفى فى وضع التنشين الذى لا يخيب : طاخ طاخ افرغت فيهم الخزنة كلها . عمرتها من جديد وتهيأت للطخ ، لكننى لم اسمع صرخـــة أحد ولا صـــوت سقوط جثة . فتحت عينى عن آخرهما ومسحت بهما الفضاء كله فلم اجد اى اثر لأى أحد على الاطلاق خدعت نفسى وقلت لابد انهم تمكنوا من الهرب ، لكننى واثق من أننى نشنت

على أجســادهم مباشرة . فمـاذا يكون هـذا ياربى بحق نبيك محمد ؟ ! . .

الحقيقة لم آخذ ولم أعط فى الأمر . نسيته ، أنســانى الفجر الوافد من عشرات المـآذن البعيدة التى بدت فى هـذه اللحظة قريبة بجوار القمر مبـاشرة . انتهت الليلة على خير ؛ كما أن الأرض شربت حتى شبعت وفاض منها . مضيت الى الدار فنمت نوما عميقـا لم أصح منه الا على ضجيج الأولاد يصحوننى للغداء ثانى يوم من رقدتى . وقد عقدت المفاجأة لساننا جميعا ، اذ اننى صحوت مدموراً ، ذراعاى منكسرتان فوق صــدرى فى وضع مسكة البندقية والتنشين . حاولت وحاولوا عدلها فلم نستطع ، حاولت أن أتكلم ، فوجدت لسانى ثقيلا يفسر الكـلام بصعوبة . قلنا : لعلها عين حسود ما تلبث حتى تزول قرصتها بعد رقية بالبخور من عمتى الحاجة هنومة . لكن عمتى هنومــة أحرقت زكيبة بخور ، وقالت تعازيم تفلق الحجر ، فلم ينعدل لى ذراع ، ولم ينفك لسانى .

لأجل خاطر عمتى هنومة فك الله لسانى قليــلا بعد مدة قصــيرة .

داخوا بى على الحكماء ، وكل حكيم يرانى يسب جهل من سبقه ، ويفتى بأدوية جديدة واكل جديد وكهن جديد لا نفهمه . وكل ذلك مصــاريف فى الهواء كالطلقات الفشنك تصنع دوشــة ورعبا دون أن تصيب ، فلما بدا الصرف يحتــاج لبيع أشــياء نملكها قلت : لا . . الطبيب هو الله والمداوى هو الله .

أولاد الحلال كثار . أحدهم رآنى ذات يوم وهم عائدون بى

من عند الحكيم . سألنى ما الأمر ؟ حكيت له ما حدث بالتفصيل مثلما احكى لكل من يرانى . قال الرجل : بس ! واضاف :

ـ « انت اخطأت يا حاج رشاد ! انت

ضربت الجن بالنار ! » ..

اقشعر بدنى ربك والحق . مع ان هذا لم يحدث لى ابدا .. قلت :

ـ « وما العمل الآن يابا الحاج ؟ » ..

قال :

ـ « كله على الله ! عندى طبيبك ؟ » ..

ذهبت بصحبته ووفد من عائلتى الى بلدة بعيدة تحملنا الركايب ، وتحمل معنا هدية تملأ العين لذلك الذى يصاحب الجن . طرقنا باب دار متواضعة لكن شكلها نظيف لطيف .

تلقانا رجل ابيض الوجه ملتح بلحية بيضاء ملونة بالحناء ومدببة الشكل ، بعينين كلوزتى القطن بارزتين حين يرفع عنهما الجفنين ، تبدو نظرته كدودة حمراء ينبعث منها بريق جاد ، يرتدى جلبابا أبيض تتصاعد منه رائحة المسك زاعقة تصدع الراس ، وبيده مسبحة طويلة ، جرجرت وراءه الى قاعة داخلية مستطيلة فى وسطها باب يفصل بينها وبين قاعة ملحقة بها . جلسنا فوق حصير ملون ومساند . دفعنا بالهدية للرجل . وقدم لنا الشاى والقرفة . واستمع لحكايتى من جديد ، حيث حكيتها هذه المرة فى حذر ودقة فلم اترك صغيرة ولا كبيرة الا وصفتها واثبتها . وكان الرجل قد أشعل بخوره ، وبدات القاعة تغرق فى دخان كثيف الرائحة .

بعد مجهود كبير بذله الرجل وتصبب فيه عرقه تهلل وجهه ولهج بالصلاة على الحبيب النبى ، وقال انه تمكن من معرفة الجان الذين بادرتهم أنا بالعدوان وطخختهم بالنار دون سبب . وقال انهم رجلان وامرأة ، أما المرأة فهى زوجة أحد الرجلين والآخر شقيقه ، وأنهم من الجان الطيبين المسالمين ، فلا يستحقون منى هذه الفعلة الشنعاء التى كانت لابد أن تودى بحياتى لولا طيبتهم هم .

استراح قلبى بعض الشىء ، وتعشمت خيرا ، وقلت : على بركة الله . ففاجانى الرجل قائلا انه سوف يستحضرهم الآن أمامى لنعقد مجلس صلح بيننا ، وأن على ـ بالطبع ـ أن أكون غاية فى الرقة واللطف معهم .

قلت :

ـ « طبعا طبعا يا رجل نحن على الأقل لابد أن نرعى حرمة الدار التى نحن فى ضيافتها ! فانت تطمئن من هذه الناحية من جانبى ! » .

فتبسم عن فم يبدوكعش العصافير ، وقال انه يتعشم فى جعلهم يصفحون عنى .

قلت :

ـ « على بركة الله فليحضروا ! أهلا وسهلا مرحبا ! على عينى وراسى ما دمنا فى مجلس صلح ! » .

فجأة ارتعش الرجل وظهر عليه الهلع . واذا بشىء فى سقف الغرفة يضىء كالقنديل ، ثم يأخذ فى الهبوط من السقف محدثا صريرا حادا ، ثم يستقر متربعا أمامنا بجوار منقد النار . وقد

اظلمت القاعة مرة واحدة فصرنا فى عتمة ، ثم لمع فى جوف العتمة لسان من الضوء كلسان عصفور . وتبينت على ضوئه منقد النار ، وشكل القنديل المنبعث منه لسان الضوء . كان يشبه الفانوس وليس بفانوس ، ويشبه جسم القرد وليس بقرد ، ووجه العفريت وليس بعفريت .

اعتدل الرجل فى قعدته ، وقال فى تبجيل شديد كأنه فى حضرة الله شخصيا :

ــ « أهلا وسهلا .. أنتم شرفتم ! » ..

فاذا بأصوات ثلاثة من بينها صوت امرأة يقولون :

ــ « أهلا بك وبضيفك ! » .

اعتدلت أنا الآخر . صرت أنظر حوالى فى العتمة باحثا عن فروة رأسى التى خيل لى أنها ترتفع بالطاقية وتسبح طائرة فى العتمة الحافلة بالأنفاس . خيل لى أن رأسى قد صار بلا سقف يحميه من صواعق الريح وجحافل الظلام . انتبهت الى أن الرجل يتكلم . أصغيت جيدا . تبينت أنه يتكلم فى حقى كلاما لا بأس به ، من قبيل أننى ابن حلال ، وأننى ولد جدع ورجل والرجال قليل ، غير أنها الدفعة والعصبية . وقال لهم أنه يستحلفهم بالله أن يصفحوا عنى ويسامحونى . ثم أضاف أننى مستعد لدفع الحق الذى يطلبونه حتى يكونوا مرضيين .

قالت المرأة الجن :

ــ « أطلب قرطا ومشخلعة من الذهب وخاتمين وخلخالا وعشرة فساتين ! » ..

وقال زوجها الرجل الجن :

ـ « أطلب جلبابا وعباءة من الصـوف وساعة جيب ماركة الترماى وحذاء بأستك ! » ..

وقال شقيقه :

ـ « أطلب أردبا من القمح وحمارين وبقرة ! » .

وقال من يبدو انه كبيرهم : ان هذه الهدايا ليست لهم ، وانمـا هم سيوزعونها بمعرفتهم على من يستحقونها من ابنـاء الانس الغلابة .

ظهر على وجـه من معى ـ الذين مالت ظهورهم وزحفت وجوههم نحو منقد النار ـ أنهم راضون بهذا الحكم ، حيث عدلوا رءوسهم فى راحة كانهم عثروا أخيرا على شـفائى بابخس الأثمان. قال احدهم فى فرح : يا بلاش . وقال آخر : عداكم العيب . وقال ثالث : ليس كثيرا والله على صحة ابننا ، اما انا فقد غلت الدماء فى عروقى . واما الرجل فقد مال نحوى بنظرة يسـألنى بها من رأيى فيما سمعت . فنظرت فى الاتجاه الذى تجىء منه الأصوات وقلت لهم :

ـ « اسمعوا ما أقوله لكم ! أنا رجل دغرى !

اذا كان يعجبكم أن تصطلحوا معى من غير شروط فاهـلا وسـهلا ! أنا خادمكم ومحسوبكم ! انمـا أن تشترطوا على لكى نصطلح يفتح الله وأهلا وسهلا بكم أيضـا ! ولكن يبقى كل واحد فى حاله ، لا تؤاخـذونى يا أسيادى الجن ! فانا رجل مسـالم مثلكم ! اما صلحكم هـذا المشروط فالله الغنى عنه ! لست أرضى به ! وعندى أن أظل مكتوف اليدين عثير اللسان خير من أن اقبل شروطكم ! فماذا قلتم ؟ ! » ..

فاذا بحركة كالزوبعة تحدث . القنديل ينتفض ثم يرتفع الى أعلى فى صريره الحاد ، الى أن يلتصق بالسقف ويختفى . واذا الرجل قد صار فى حالة هياج وذعر :

ــ « خربت بيتى الله يجازيك ! هل هذا ما اتفقنا عليه ؟ ! البشرى لك ولى بالدمار التام ! ها انت ذا قطعت حبل الود معهم الى الأبد ! » ..

قلت :

ــ « براحتهم يا عم ! صلح للصلح اهلا به وسهلا أنا خدام ! صلح بشروط من اجل مصلحة يفتح الله ! أنت نفسك لا ترضاها ! » ..

انفتح شباك ، فاقبل ضوء الشارع . فرايت الرجل ينظر نحوى فى غباوة شديدة ، والذين معى يرمقوننى فى غيظ اشد . الا أننى هببت فيهم صائحا : بنا يا رجال . وتقدمتهم خارجا الى الخلاء وقد خيل لى كما لو أن براميل من الدم الساخن الجديد قد أفرغت كلها فى عروقى . وخيل لى أننى أريد ان أخرج من هدومى بل من جسدى كله ، وكان يبدو اننى أتكلم مع مرافقى فى غضب جنونى وأننى أشوح بيدى وذراعى كأنهما حران طليقان . وكانوا يحاولون تهدئتى ولكنى لم اكن افهم من كلامهم شيئا . يقولون صحتى ؟ ! ليست صحتى هى ما كان يغضبنى ، انما غضبى كان من ذلك الرجل صديق الجن : كيف يعترف بلسانه أننى رجل جدع وشجاع ثم يطلب منى أن أوافق على صلح مشروط .

شق الثعبان

البطرانة الفسخانية مجرد امرأة عجوز كحيانة ، مصفوفة الوجه مجعدة الملامح بيضاء البشرة محمرة الخدود والجبهة ، حمراء الشعر ، استدارة القمر فى وجهها ، وفيه أيضا بريقه . عمشاء العينين قليلا ، ولكن بصورة مثيرة للخيال . ترتدى على الدوام جلبابا من الشيت الأسود المبرقش بكرات بيضاء كحبات الحمص ، وأحيانا بنى اللون بنفس النقشة . تلف رأسها بشال من القطيفة يتماوج بكل الألوان . هذا هو لبسها فى الدار . أما ان ذهبت للعزاء فى ميت مهم ، أو للمطالبة بحق لها عند أحد ، فانها ترتدى الجلباب الأسود القطيفة ، من فوقه شال هابط من رأسها ، منطرح على كتفيها ، وفى قدميها « الشكربين » الأسود . لا يظهر منها سوى وجهها الذى يزداد تألقا ونضارة وهو يطل من الحاشية السوداء ، وكذلك يداها الدقيقتان الحمراوان ، اللتان تغريان بالتقبيل . وجهها كذلك يغرى بالتقبيل، خاصة أن خصلة متشردة على الدوام من شعرها تعجز هى دائما عن اخفائها فتتهدل فوق الجبين ، واشية بأن ذلك الوجه كان ذات يوم قريب جدا ثغرا عظيما تستريح فوقه اللثمات .

وهكذا تمضى فى البلدة كالرجال لا تلوى على شىء ، واثقة

من أن الجميع من حولها لا يزال يشتهيها رغم سنى عمرهاالتى لا هى ولا نحن نعرف لها عدا ، لكنها تكون واثقة أيضا من أن العيون ترمقها فى حذر وخشية ولا تستطيع أن تستقيم فيها .. فخيرها على الجميع ، واحترامها واجب على الجميع ، ثم ان بطشها لشديد .

هى فى الأصل فسخانية ، تبيع الفسيخ من صفيحة كبيرة ، تضع على فوهتها نصف غطاء من الخشب ، لتفرز عليه الفسيخ عند البيع . وكلما فرغت الصفيحة تملأها من برميل فى مخزن دارها الفسيحة الواسعة ذات الغرف العديدة المتداخلة فى بعضها ، والتى تطل على شارع داير الناحية فى راس كومة يبدأ بها ممتدا لمسافة طويلة . وباب الدار على الشارع باب دكان . ما ان تدلف منه حتى ترى نفسك فى حجرة عادية كنصف مندرة . تفاجئك رائحة الفسيخ ، بجوارها قفص طماطم ، ومشنة فيها باذنجان ، وطشت فيه عنب فرط ، وقفة فيها بلح اسمر ، وصفيحة سمن اصطناعى وصفيحة زيت للبيع بالقطاعى ، وقثاء وخيار مكوم على رقعة من حصير بال . وفى موسم البطيخ والشمام تمتد إكوامهما بامتداد جدار دارها فى الشارع صانعة مهرجانا كبيرا من الناس ينتقون كبير البطيخ وينقرون عليه باصابعهم ويطلبون شقه بالسكين .

وعند خروج المصلين من صلاة الجمعة يكتمل المهرجان ويعلو الصخب ، ترتفع عشرات الأيدى والأصوات صائحة فى نفس الوقت : يا خاله بطرانة ! يا خالة بطرانة ! .. والكل يتصور انها تفرغ له وحده ، ولكنها تفرغ للجميع ولا أحد يستطيع مغالطتها فى مليم .. فاذا ما هبط الليل قامت فغطت بطيخها بالمشمع

وحبشت عليه جيدا ، لتغفو بجواره فى الشارع أمام باب دكانها حتى الصباح .

نطلع على الحياة فنجدها كذلك . وناس كثيرون يقولون أنهم طلعوا على الدنيا فوجدوا البطرانة هذه كما هى الآن جزءا لا يتجزأ من البلدة ، لا تكبر ولا تصغر أبدا . وبعض رجال عجائز يتوكاون على عصى يقولون أنهم طوهروا على حجرها فى ليلة فرحها . وبعضهم رقص فى فرحها . وقد لاحظت أن أبى ورجالا فى مثل عمره يعاملون البطرانه معاملة خاصة ، وينادونها فى ود عميق دون لقب يا خالة . وهى كذلك . وكم يبدو منظرهم جميلا كأنهم أطفال صغار ، حين يتجمعون صدفة ، فيقذفون بعضهم بعضا بطوب الذكريات المؤلمة ، باعتبارها باتت شيئا مضحكا . ودائما يزفرون فى النهاية وهم ينصرفون قائلين لبعضهم البعض : « احنا شفنا البطرانة دى فى عز مجدها ! فين أيامك يا دنيا » .

مثلما احتار الجميع فى تقدير سنها احتاروا فى أصلها ، خاصة أنها ليس لها أقارب فى البلدة أو فى أى مكان قريب ، وليس معروفا أنها من العائلة الفلانية أو العائلة العلانية . ومن طريف الذكريات التى ينثرونها معها كثيرا ، أتذكر أنهم كانوا أحيانا يقولون لها : يا حلبية ، أى أنها كانت تلقب ذات يوم باسم الحلبية . وسمعت عمى عبد الرشيد ذات ليلة فى مندرتنا يحكى أنها من أصل حلبى جاءت بلدتنا منذ زمن بعيد طفلة تحبو وراء أمها الغجرية ضاربة الودع ، وأن أمها استحلت المرعى فى بلدتنا فصارت تجىء كل بضعة أعوام لتمكث شهورا ترجع بعدها محملة بخيرات كثيرة ، وأنها مكثت حين وجدت بيتا تسكنه بلا ثمن ، وأن شابا اسمه موسى البطران جاء يسأل عنها ليردها الى أهلها : فأغرته هى بالبقاء وزوجته من ابنتها هذه

البطرانة ، لتموت هى بعد قليل ، فيتسبب موسى البطران للرزق ببيع الفسيخ ، لتمضى بها الحياة فى بلدتنا سمنا على عسل .

تيقنت أن أحدا لا يعرف اسمها الحقيقى ، وأن شبانا كثيرين لا يخطر على بالهم انها يمكن أن تكون تزوجت أو انجبت او ان يكون لها أهل من الأساس ، كأنما هى نفسها أهل لنفسها، كأنها شىء أكبر واعرق من أن تلده امراة أو يضع بذرتها رجل . وهى دائما أبدا وحدها ليل نهار . نمر على دكانها ونحن ذاهبون الى المدرسة صباحا أو عائدون منها عصرا ، فيحلو لنا دائما أن نعرج رءوسنا لننظر فى دكانها ، لنراها متربعة فى حلق الباب من الداخل ، ووابور الجاز مشتعل امامها وفوقه براد الشاى أو حلة الطبيخ . ودائما وجهها للشارع ، ومن وراء ظهرها باب صغير ضيق يفضى الى بقية انحاء الدار ، مما يؤكد أن هذه الدكانة اقتطعت من الدار بعد بنائها .

هذه الدار قد هاجمها اللصوص كثيرا فى سابق الأيام ، ونقبوها عدة مرات من عدة جهات ، فلم يتمكنوا من النفاذ الى القاعة التى تنام فيها وتضع نقودها وجواهرها . ومن طريف ما يحكى أن اللصوص الذين هاجموا دارها ذات يوم وقعوا كلهم فى أيدى الناس وسيقوا الى المركز مخفورين . ذلك أنهم كانوا ينسون أن رجال وشبان البلدة كلهم يتطوعون ، فيجعلون من أنفسهم حراسا سريين عليها .. فالجميع يعرف أن فيها الطمعة ، ولذا فالجميع يتربص بالجميع . وربما كانت حقيقة الأمر ـ فيما يقول ابى احيانا ـ انهم جميعا فكروا فى التهجم عليها ، وقد حسبها الأذكياء فوجدوا أنهم مراقبون من بعضهم البعض ، ففضلوا أن يكونوا حراسا بدلا من أن يكونوا لصوصا ، على الأقل الى أن يحين حين ملائم يبلغ أحدهم الخبر بدون سرقة أو تهجم ، ثم انهم

نسوا جميعا هـذا الأمل البعيد التحقيق وبقوا مجرد حراس متطوعين .

فى الليل تسهر الدكاكين فى ضوء الكلوبات التى تملأ الدنيا وشيشا وناموسـا وحصائر ضوء مفروشة على أرض الشوارع . لكن الونس الحقيقى لا يبدأ الا عند دكان البطرانة ، حيث يرسم بابه على الأرض شباكا من الضـوء الخمرى اللون لا صوت له ، يخفف قليلا من صبغة الليل ، فيغرى الشبان والصبيان بالانطراح على الأرض فى مجموعات على طول الشارع فى الليل الصيفى بين أكوام الردم والسباخ وفوق أحمال القش المعدة لامتلاء السطوح. كل مجموعة يسرح بخيالها واحد ، عن أمور الجماع وفنونه يحكى، عن العز وأصـوله يخترع ، عن وقف الحـال يرسـل النكت والمسخرة ، والضحكات تترى هنا وهناك . ولابد أن تكون البطرانة داخلة فى كل هذه الحكايات بشكل أو بآخر . انها هى المنقذ الوحيد الذى يميل عليه كل خرمان مفلس ، وهى الأمل المدخر لكل واقع فى محنة أو مشروع زواج . وكل انسان فى البلدة يدخرها لوقت عوزة . وكل واحد يعتقد بينه وبين نفسـه أنه سيحتاجها ذات يوم . ولهذا فان صوتها ـ الذى تخمد فيه رنة الأنوثـة بنبرة رجولية مستعارة وزاعقة ـ لا يكف ابدا عن ارسـال الردود عبر الباب : يسعد مساك يا خويه ! يعافيكى بالعافية يا اختى ! سا النور يا حاج أهلا وسـهلا ! .. خيط من الردود والتحايا لا ينقطع .

مندرتنا هى الأخرى كانت تسهر فى سيرة البطرانة ، شأن كل المنادر فى بلدتنا ، لكن دخولها دائرة اهتمامى الشـديد بدأ ذات ليلة ليلاء .

فمرة خطر لأخي عيسوى أن يشرب السجائر مثل الرجال ظنا منه أن مرواحه لمدرسة البندر الثانوية يعطيه حرية التحلل من قيود أبى ولو فى الخفاء . لكن أنى له أن ينعتق من رقابته ؟ حظه التعيس قاده فى صحبة من اخوانه الذين يتعلمون فى البندر معه ، الى نزهة على ترعة السلمونية فى ضوء القمر الشاحب ؛ حيث يتحدثون عن همومهم الشخصية لبعضهم البعض فى حرية ، ويمارسون عادة التدخين مثل الأفندية بالسيجارة المكن ، التى يمكن ان يفرطها أبى على أربع سجائر باليد كما نراه يفعل اذا ما عزم أحدهم عليه بواحدة مثلها . على أنه التباهى على غيرهم من شبان البلدة الذين لم يتعلموا ، ومشاغبة عيون الفتيات المتسللات لملء البلاليص فى ضوء القمر .

حظه التعس، أو لعلها نشوة السهر ، انسته أن أباه مغرم بنفس الغرام الليلى ، ومن أهل الخطوة ، يقطع الطرق ويعبر المصارف والترع والقناطر دون أن يبتل ، فى عز الليل دون وجل ودون اعتبار لوحش أو لجن أو عفريت أزرق . كان ليلتها ماضيا فى طريق ترعة السلمونية قادما من سهرة لدى شيخه العتريس فى عزبة مجاورة ، واضعا ذراعيه بالمسبحة خلف ظهره ، وفمه لا يكف عن البسبسة والهمهمة والسخط على ما لا يعجبه ، من الزرع الذى تركه أصحابه يجف ، والردم الذى كومه شيطان ليسد به طريق القوم . كان حديد البصر ، يرى أشباح العيال قادمة نحوه من بعيد والسجائر تبرق بين شفاههم وتتباعد ، لكنه لم يميز منهم أحدا .. فجعل يقترب منهم وقد دفعه الشعور بالخرم الى رغبة فى تدخين سيجارة أخرج علبته الصفيح من جيب الصديرى ولف سيجارة ثم بحث عن الكبريت فلم يجده ، فأبقى السيجارة بين يديه لحين محاذاته القادمين فيشعل منهم .

وكانوا قد جلسوا على قنطرة مبنية بالأسمنت والحديد على ترعة السلمونية وراحوا يدخنون ويضحكون بصوت عال ماجن على نكت قبيحة الألفاظ . اقترب أبى من أحدهم وقال فى رجاء :

ـ « والنبى يا أفندى تولع لى ! » .

فأعطاه الشاب سيجارته . وحتى هذه اللحظة لم يكن احدهما قد عرف الآخر ، لكن ابى حين لحم السيجارة المشتعلة بسيجارته وجذب النفس ، توهجت السيجارتان معا فانكشف وجه أبى تماما لأخى عيسوى ، فاذا به يترك سيجارته فى يد أبى ويطلق ساقيه للريح . واذا ببقية الشبان يتفرقون فى خجل وهم يكتمون ضحكاتهم ويخبئون جثثهم خلف الأشجار والدور المتطرفة خارج البلدة . أما ابى فانه ابقى السيجارة بين أصبعيه ومضى موسعا الخطى صائحا :

ـ « تعال يا أفندى خذ سيجارتك ! يا افندى

عيب ! تعال خذ سيجارتك ! » .

وهكذا بطريقته الهبطانة الساخرة التى تعرفها البلدة كلها وتقلدها فى شغف . حتى اختفى أخى عيسوى فى حوارى البلدة .

لم يذهب بالطبع الى دارنا ، بل انحرف الى وسط البلد ، وكانت مندرة السنهورى هى الوحيدة التى يمكن أن يسهر فيها ، تلك التى يفتحها صاحبها كمقهى يسهر فيه الناس لشرب الشاى والمعسل ومص القصب والتحدث فى امور ونوادر ومسخرة ضاحكة . ولم يكن أحد يتوقع مطلقا أن ابى يمكن أن يجىء الى هذه المندرة المقهى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ولكن أخى عيسوى ما كاد يجلس على الدكة الخشبية متربعا ويجيئه واحد

القرفة على صينية فى يد السنهورى ، حتى دخل ممسكا ببقية السيجارة متقدما نحوه قائلا فى جدية واحترام مبالغ فيهما :

ـ « يا أفندى خد سيجارتك ! مش عيب تسيب السيجارة وتجرى ؟ ! ايجرى الأفندى ؟ ! » .

وقف الولد مبلولا مذهولا ، وانزوى كل الموجودين فى المندرة متوجسين . ولكن ابى صار يترك أخى عيسوى ويذهب الى الباب، ثم يعود فى حركة مسرحية ويقول :

ـ « يا أفندى خد سيجارتك ! » .

فى حين أن السيجارة انتهت وارتمت على الأرض وبقى ابى ضاما أصبعيه على الفراغ . واخى غارق فى الخجل فى العرق ؛ نصف هدومه . وابى يطلق بين الحين والحين زفرة حارة تترنم بالمرارة والخطورة ، ويمثل بين يدى أخى متصنعا انه العبد الفقير يقف بباب سيده :

ـ « عدم المؤاخذة يا سيدنا لفندى ! دفعت ثمن هـذه السجائر المكن من جيبك أم تشربها سفلقة من غير مؤاخذة ؟ ! هذه عادة الأفندية ولن يشتروها ! أقصـد العادة لا السجائر يا سيدنا لفندى !! » .

ويستدير ماضيا حواليه ، ناظرا فى كوب القرفة بجواره ، مرددا فيما يشبه الفرح الذى يخفى الشعور بالمـأساة :

ـ « ما شاء الله ! ما شاء الله ! طبعا ! طبعا ! لمـاذا لا تدخن وتشرب القرفة فى أوكار الليل طالمـا أن عضـوك فى مؤخرة غيرك ؟! أتغرم شيئا ؟ ! مدرسـة البلدة وعلمناك فيها مع احتياجنا لك

فى شغل الدار والغيط ! مدارس البندر والحقنـاك بها مع شـدة احتياجنا لمصروفاتك الحراقة ! وقلنـا لا بأس حتى يترقى.لنا ولد ! يصبح افنديا ! محترما ! لم نبخل عليك بالبذلة التفصيل والطربوش الجديد والحذاء الجديد كل عام ! الدور والباقى على شرب الدخان ! هـذا آخر ما كنا نفكر فيه ! فاعذرنا يا سـيدنا لفندى ! وان كنت تطافست على بعض صحابك من أجل سيجارة فما الذى عساك تفعله لهم فى مقابل ذلك ذات يوم ؟ ! أم تراك تكون نصابا يفرط فى شرفه من أجل هـذه المدعوقة ؟ ! اللوم يقع عليك يا سيدى لفندى ! كان يجب عليك أن تنبهنا من الأول حتى نضيف لمصروفك ميزانية الدخان ! أما ان كنت سرقت شـيئا من الدار وبعته ! أو اختلست شيئا من مصروف أمك فلا بأس ! فى بيتها على كل حال ! المهم الا تكون طولت يدك على مال الغير أو دنات نفسـك على أحد ! هـذا كل ما فى الأمر يا هذا !! » .

ثم راح وجاء فى المندرة المقهى عدة مرات وهو منكس الرأس فى تفكير عميق ، والهم باد عليـه لدرجة مخيفة جدا . لكنـه عند هـذا الحـد المخيف من التجهم يذهب الى أخى عيسـوى فيواجهه ، يرمقه كأنه يراه لأول مرة :

ــ « سـعادة البيـه اليس يعرف انه هـو الآخـر مدين للبطرانة ؟ ! » ..

ظنها القوم نكتة ، حتى أخى عيسوى هو الآخر اضطر الى الابتسام رغما عنه مشاركا القوم فى ضحكتهم الكبيرة التى انفلتت عنهم برغم تحفظهم . فآخر ما يتصـوره أخى ، وآخر ما يخطر على بال أحد من الحـاضرين ، أن يكون أخى عيسوى هو الآخر مدين للبطرانة الفسخانية ، صحيح أن كل واحد من هؤلاء القوم مدين للبطرانة بشكل أو بآخر ، وليس فى بلدتنـا أحد غير مدين

لها ولو بأكلة فسيخ على الحساب . لكن ان يكون أخى عيسوى الطالب فى الثانوية مدين هو الآخر لها فهذا هو المضحك فى الأمر حقا .. فديون البطرانة اكبر وأشد من ان يحتملها طالب كأخى عيسوى . ولهذا فقد ضحكوا من خيال ابى الساخر فى اختياره لأنواع السباب التى يوجهها لأخى فى محاولة لتهزيئه ولسوعته بالعذاب القارص .

الا أنه استدار نحوهم ، معلقا على ضحكتهم بنظرة أشمئزاز ، لاويا معها شفتيه ، قائلا :

ـ « اعجبتكم هذه الكلمة ؟ ! أنتم جميعا مدينون للبطرانة ! كل طفل من أطفالكم ! حتى الذى لم يولد بعد قد أصبح مدينا للبطرانة !! » ..

ولوح بذراعيه داخل كميه الواسعين وهو يمضى نحو الباب للخروج النهائى الغاضب . غير انه توقف على عتبة الباب ناظرا فيهم نظرة ملآنة بالأسف ، قائلا فى لهجة يشوبها نبرة اعتذار :

ـ « كلنا والله يا اخوان ! لم يعد أحد فى البلدة كبيرا على دين البطرانة !! » ..

ثم دفع بقدمه عبر العتبة فى تؤدة ورزانة ..

منذ ذلك اليوم شغفت بالبطرانة وبدأت أندس وسط المجموعات المتسامرة اتشرب كل حديث تأتى فيه سيرة البطرانة ، حتى عرفت الكثير والكثير مما يقف له شعر رأسى وترتعد منه فرائصى .

فلقد علمت ـ ويا للعجب ـ أن لها من زوجها البطران ست بنـات يقلن للقمر : قم لنقعـد مطرحـك . كما علمت أن عمى عبد الرشيد ـ الذى يعمل خفيرا للرى فى الاصلاح الزراعى ـ كان احد عشاق ابنتها الصغرى « ملكة » وأنه باع كل ما يملك واشترى بثمنه هدايا للبنت حتى تحن عليـه وتقبل الزواج منه فلم تقبل. وكنت أظن انه سيغضب لو نكأت جراحه القديمـة وسألته عن عشقه ، فاذا به ينتفض واقفا كصـارى العلم تهزه الضحكات المتفجرة ، واذا به يفرك أذنى بكفيـه الكبوتين الخشـنتين ، ثم يغمض عينيه مترنما بيا ليل يا عين ، ثم يصـدح بموال : أيام بنلبس حرير وأيام بنلبس فل !! وأيام ننام ع الحرير وأيام ننام فى الطل .. وأيام بتيجى على ابن الأصـول ينذل !! وفى تلك الليلة حكى لى عن عشرات الجدعان الذين ماتوا عشقا فى دباديب أظافر بنات البطرانة . منهم من سرق ليدبر مهرا كبيرا لاحداهن ، فدخل السجن ولم يخرج منه . ومنهم من دخل عراكا مع غرماء بسبب احداهن ، فحرم على نفسه الأكل والشرب والنوم حتى هزل ومات ومنهم ومنهم .. حتى خيل لى أنه يحكى سيرة الهلالية. وكان شيء من الكآبة يعترى وجهه وهو يحكى ، وأحيانا تلمع فى عينيه البهجة ، الى أن جاءت استغاثة الفجر فنهض يطلب الصلاة قـائلا :

ـ « ضاعت عليـك الليلة يا ست أبوها يا امرائى ! فأنا لا يمكن أن أضاجع اثنتين فى ليلة واحدة ! أنت السبب أيها الولد العكروت ! فكرتنا بالذى مضى ! » .

وكنت كلما ارتفع منسوب الدهشة انطلقت من فورى الى دكان البطرانة لأشترى أى شيء ، ولأختلس النظر متمعنا فى ملامح وجهها وحركاتها علنى أكتشف وراءها شيئا يميزها عن البشر

ويؤهلها للسيطرة على الجميع كبيرا وصغيرا ، فلا أجد مدعاة للدهشة أكثر من بساطتها : مجرد بائعة فسيخ شقيانة تستأهل عطف من يراها .

ظلت هى مصدر الدهشة الوحيد فى بلدتنا ، ومحور كل حديث الى أن ظهر الراديو فى دكان « مهيا » البقال ، الذى أخلى له مكانا على رف بجوار ركنه الذى يجلس فيه الى منصة أنيقة ، موضوع فوقها نوت الحساب الشكك ودفاتر التموين وطفاية سجائر ودواة حبر وقلم كوبيا مربوط فى درجها بفتلة دوبارة .. وبين تلال من علب السجائر المرصوصة المستفة بدقة كأنها الجواهر الغالية ، وعلب السلمون والسردين والصلصة ، وباكوات الدخان الفرط ، وعلب السمن الهولندى .. بين كل هذا كان الراديو هو أبرز شىء ، بصندوقه المستطيل الناعم اللامع ذى اللون الكريمى ، لوحة المحطات مزدانة بالخطوط والأرقام المتداخلة ومن خلفها مؤشر كعود الكبريت فى وسطه ضوء براق ، وفى أسفل الصندوق صف من الأزرار الأنيقة ، ومن خلف الصندوق يمتد سلك تخين مكسو ، ينتهى بكماشة تقبض على أصبع البطارية الثقيلة الموضوعة فوق رف سفلى . كانوا يسمونه الفيليبس . وقد ظل مبعث دهشة لنا لا ينتهى لها حديث ولا يفرغ منها العجب . جىء بالبنت أم السعد الملاية فى دار « مهيا » لكى تملأ البطارية من ماكينة الطحين بواسطة وابورها الذى تركب فيه بسلك ليشحنها . أم السعد رفعت البطارية بيديها وكانت تظنها خفيفة فاذا هى راسخة كالحديد ، فصاحت البنت من هولها : « ياحو ..و .. ومتى .. هى تقيلة كدة ليه ؟ ! ايشحال اما تتملى ؟ ! » . وكانت هذه النكتة هى المنافس الوحيد لحديث الراديو .

صاحب الدكان هو دار « مهيا » ، يعني عائلة « مهيا » ، المكونة من اربعة رجال : محمود مهيا وطاهر مهيا وخليفة مهيا وعبد الوهاب مهيا . غير أن العارفين بحقائق الأمور فى شرقى البلد يؤكدون أن صاحب الدكان هو عبد الوهاب مهيا وحده . هو يعمل مدرسا الزاميا فى مدرسة البلدة ، يرتدى الطربوش فقط كرمز للأفندية ، والجلباب الصوف وفوقه البالطو او العباءة فى الشتاء . وهو أول من تجاسر ودخل علينا الفصل بالجلباب والطربوش دون البدلة الافرنجي . وجهه أحمر أشقر كالبرتقالة ، وحنكه أعوج ، لكنه لبق ذرب اللسان ، يعرف كيف يفحمك بالآية البينة وبالحديث الشريف وأمثال العرب . انه المتعلم الوحيد فى دار مهيا ، وبقيتهم لا يعرفون أكثر من فك الخط . كلهم يقفون فى الدكان للبيع واحدابعد الآخر ، وربما مجتمعين عند تفريق التموين .

لم يكن غريبا ان يكون دكانهم أكبر دكان فى البلدة ، بل فى العب كله ، يبيع بالجملة والقطاعى فهم طول عمرهم فى هذه المهنة ، ولهم فوق ذلك أرض يفلحونها ويكترون الأنفار لمساعدتهم فى الحرث والبذر والرى والحصاد . لهم كذلك أبقار وماشية يعلفونها . يعيشون جميعا فى دار واحدة كبيرة فى أعماق شارع ضيق يشق وسط البلد ، ولها دوار يطل على الشارع ، وزريبة كبيرة فى الداخل ، وقامات بالطوب الأحمر ذات شرفات .

ولكن الغريب حقا انهم طلعوا فيها مرة واحدة . فجأة تركوا الدكان الملاصق للدار . وابتنوا واحدا جديدا بحجم اربعة دكاكين على واجهة شارع داير الناحية ، مواجها للمدرسة ولبيت العمدة ولمجلس القرية وسوق اللحمة والخضار . من خلفه مخازن كبيرة عميقة ممتدة حوت ما لا عين رأت ولا أذن

سمعت : اطنان غريبة من ملبوسات ومفروشات وادوات زينة وادوات منزلية ولعب أطفال . عربات النقل الكميون والكارو لا يبطل لها وقوف أمام هذه المخازن للتعتيق او للشحن . . وخليفة مهيا بجلبابه البوبلين الشفاف يسوق كرشه أمامه ، رائحا جائيا كطاووس مهيض ، حاملا نوتة صغيرة كالكف ، والقلم الكوبيا خلف أذنه . وجهه كجوزة الهند ، بشعره المتلبد ، وعينيه الزرقاوين ، والطاقية الشبيكة البيضاء منحدرة على جبهته المنبعجة فى نظاكة وعياقة لا مكان لهما فى وجهه . الشبشب فى قدميه الموردتى الكعبين ، لا يكف عن الطرقعة ، محددا للفواصل الزمنية بين الفصال والمناكفة ، والعراك والتراضى ، حول أمور النقل والنولون وسلامة البضاعة فضلا عن جودتها .

هذا مهرجان وحده ، جعل البلدة تحبه وتحب دار مهيا ، لأنه يجدد المناظر فى البلدة بالناقلات والحافلات والبضائع التى تغرى بالسرقة لاقتنائها . . لقد جعل بلدتنا قريبة الشبه بالمدينة. أما الدكان حيث يلعلع الراديو فمهرجان آخر وسامر لا ينفض ، من صبيحة ربنا حتى قرب الفجر بقليل ، حيث يتوافد الناس ، يفترشون الأرض أمام الدكان وعلى رصيفه العالى . وابورات الجاز مشتعلة على الدوام وسط كل مجموعة واخرى . براريد الشاى من فوقها تغلى فيها مياه الشاى ماركة أبو قفلين والجرس والبنت الفلاحة وشاى زوزو والشيخ الشريب . رائحته النفاذة تسكر القادمين من على بعد فى الحوارى الجانبية ، فيدركهم الخرم المفاجىء مهما كانوا شاربين فى دورهم . وانت ترى أن شمس الصباح الخضراء قد سبقتك الى رصيف الدكان المرتفع عن الأرض عدة درجات ، واقامت سرادقها فى الحارة الجانبية ، حيث يطل باب آخر للدكان لا ينفتح ، كما احتفظت للحائط

المواجه بحدوده الآمنة من شريحة ظل رطيبة تتصاعد منها رائحة الردم وروث البهائم المارة . هى رائحة حميمة ، ربما اكثر حميمية من رائحة الفطير الذرة ، المتصاعد من أبواب الدور محملة بدخان الأفران السكران بنكهة الزبد والقشدة المحمرة على وجه الفطير . انت لابد قد افطرت فطيرا ، او عيشا طريا بالجبن القريش واللبن الرائب . وحتى ان لم تكن افطرت فالرائحة من حولك تشبعك تماما بل تجعلك تتجشأ بصوت عال كالآكل لتوه . انت تبعا لهذا ترى أن الهضم بالشاى قد وجب . ثم ان القعدة نفسها على الرصيف جميلة ، والأجمل منها أن ينضم اليك آخر ، والأجمل أن ينضم اليكما ثالث فرابع ، فما أحلى منظر الرجال وهم مجتمعون ولو حول وابور الشاى على رصيف دكان « مهيا » .

يعنى انك لابد ان تجلس . فان كان وراءك عمل سريع مستعجل فيكفيك كوبة من الدور الأول وربما اخرى من الدور الثانى ولا داعى لانتظار الدور الثالث ، لكنك فى الأغلب لن تتنازل عن كوبة الدور الثالث ، ليس لحلاوتها أو لطفاستك ، انما لأن الراديو سوف يشجيك بصوت صباح وشادية وفريد الأطرش وكارم محمود وعبد العزيز محمود وعبد الوهاب والآنسة ام كلثوم ، وبصوت الشيخ محمد رفعت والدكتور طه حسين والعقاد وفكرى اباظه ، كأنهم جميعا يجلسون فى هذا الصندوق السحرى ينتظرون دورهم . ابو ستة الصياد جاء بغزله وخيوطه واتخذ لنفسه مجلسا ثابتا على الرصيف الجانبى وبات أول من يجىء وآخر من ينصرف ، يقضى النهار وشطرا من الليل منكبا على غزله يعقد الشبك ويشرب الشاى ويستمع الى الراديو.

* * *

الناس فى بلدتنا يحبون دائما معرفة كل شىء عن أى شىء يصير واقعا امامهم ، أصله وفصله . فقد تعودوا على أنه لا سر هناك البتة ، فالأرض لا تخونهم أبدا ، وكل شىء يجىء فى ميعاده المنضبط ، ولا شىء يختشى من أوانه ، لا القمر يكذب فى بريقه ولا الشمس تدعى الحرارة . كل شىء معروف ومحسوب لفصول وربما لسنوات قادمة ، والتى تحبل فى مكة يجىء باخبارها المجاورون . فاما ان طرأ عليهم ظاهر جديد فانهم لابد أن يسألوا ويطقسوا ، ويظل دماغهم بالأمر الشاغل حتى يجىء بداغه ، كاشفا حقيقة أمره . وان لم يكن للشىء ماض يستندون عليه لمعرفة ظاهره الطارىء فما أسهل أن يؤلفوا له ماضيا ، والعجيب انه يجىء دائما مطابقا للواقع .

ابتهج الناس قدر ما ابتهجوا ، وتسامروا حول الراديو والشاى قدر ما تسامروا . ثم بدأت مسامراتهم تعرج فى الهمس ظاهرة دكان « مهيا » ، حتى فى اثناء قعدتهم فى رحاب دكان « مهيا » نفسه . التساؤل الحتمى أطل برأسه وجعل يظهر شيئا فشيئا ليستغرق الحديث كله : عما يكون قد جرى فى الدنيا حتى تحط بثقلها الذهبى كله ـ هكذا فجأة ـ على دار « مهيا » خبط لزق ؟ ! سؤال كان مدخرا غير أنه ليس يصلح للادخار أبدا ، اذ لابد أن يغادر خزائن الصدور مهما تلهت عنه النفوس .

مع رشفات الشاى المنتشية ، فوق الردم فى الحارة الجانبية لدكان « مهيا » ، تسامر الهمس راصدا كلّ كبيرة وصغيرة فى الأمر .. واشرف الهمس على قناعات : لو أن دار « مهيا » رهنوا كل ارضهم عند البنك أو حتى باعوها فان ثمنها لا يساوى ربع هذه الثروة من البضائع والمبانى والتجهيزات

فضلا عن عربة النقل الكميون الخاصـــة بهم ، فى حين أنهم لم يرهنوا شيئا ولم يبيعوا شيئا . فهل كان عنـــدهم كنز مدفون كشفوا عنه فجأة ؟ ! . .

فى قعدة شاى كهذه بعد بضعة ايام سمعت أن البطرانة هى صاحبة كل هـــذه الأموال اعطتها لدار « مهيا » كى يجددوا بهـا شغلهم ويقيموا هـــذه التجارة الكبيرة ، وحقيقة الأمر أنها قـد حولتهم ـ يقولون فى غمز واجف ـ الى مجرد عاملين عندها بعد أن كانوا أصحاب عمل . وقيل انهم قدموا لها قطعة الأرض فقط وأنها تكفلت بالبنـاء وبالضـائع ، اوهمتهم انهم شركاء وهى فى الحقيقة تستنفع بشطارتهم وخبرتهم فى البيع والشراء وتعطيهم مقابل ذلك نسبة من الربح وفى قعدة أخرى سمعت أن البطرانة ليست هى صاحبة هذه الأموال الطائلة ، انما هى تعرف أصحاب رءوس الأموال وتمت بصلة قرب أو نسب لبعضهم ، وأنهـا قد توسطت لديهم لكى يقرضوا دار « مهيا » هذه الأموال فاقرضوهم وقيدوهم بالعهود والمواثيق والضمانات .

وفى قعدة ثالثـة انفردت بنفسى وسرحت مفـكرا : أتكون البطرانة هذه هى البنك الكبير الذى يقترض منه الناس على مختلف أوضـاعهم ؟ ! . . فهكذا تفعل البطرانة بالفعل . انت مزنوق فى قرشين ؟ اذهب الى خالتك البطرانة . كل ما عليك أن تبيعهـا قمحا أو فولا أو برسيما أو أرزا من محصـــولك القادم ، الذى ربما لم تزرعه بعد . هى تعطيك ثمن نصف أردب مثلا بسعره الحالى وقت ندرته ، وتكتب عليك كمبيالة بأردب كامل ، تأخذه بالفعل عند الحصـاد . هى تعطيك من جنيه لألف ، شرطهـا الوحيد أن تكتب لها أوراق بيع وشراء . والا فلترهن عندهـا ذهبا أو نحاسا أو عقد ملكيـة . والثورة منذ جاءت ندرت الفلوس

فى ايدى الفلاحين ، وكثرت فى أيدى التجار والسماسرة والمرابين . والثورة فتحت المدارس لكل الحفاة ، الذين نفعوا فيها بالفعل ، وبات على آبائهم الفلاحين والعمال الفلابة والأنفار والتملية أن يصرفوا عليهم فى مدارس البندر ، وقد شعروا أن الدور أخيرا قد جاء عليهم ليصبح أبناؤهم افندية وحكاما بعد طول قحط وبهدلة . ومن كانوا أعيانا قبل الثورة أصبحوا بعدها على فيض الكريم ، وهم أولى بالصرف على أولادهم فى البندر . وأصحاب الثروات الكبرى الذين هربوا كل ثروتهم الى بنوك ومتاجر السعودية والخليج وعاشوا فى صورة على الله بات عليهم أن يقترضوا للصرف على أولادهم حتى يصدق المخبرون انهم فقراء بالفعل . الفلوس كلها ــ لكلهم ــ مع البطرانة ، والبطرانة تطلب ورقة . وورقتها نافذة أينعم ، ولكن بعد حين على كل حال ، فلربما يكون قد حلها الحلال الذى لا يغفل ولا ينام .

انت فى حاجة الى وظيفة فى أى مكان ؟ اذن فاذهب الى خالتك البطرانة . انها تعرف ناسا كبارا جدا من علية القوم فى البنادر وفى كل مكان . لا مانع لديها ــ ان كنت رجلا مهما ــ أن تلبس ثيابها وتذهب معك الى واحد منهم ، بشرط أن تنقلها على حسابك بركوبة حتى القطار . لكنها فى الأغلب الأعم سترسلك بأمارة الى واحد معين فى البلد الفلانية تقول له انك من طرف البطرانة وانها تسلم عليك وتقول لك بأمارة كذا وكذا أنا وضعى كذا وكذا وأرغب فى عونك . ولقد حدث ، فبواسطتها عين خفراء نظاميون ، وتومرجية ، وملاحظون فى الاصلاح الزراعى ، وتم نقل مدرسين من بلاد بعيدة الى بلدهم ، وقبلت المدارس تلاميذا اكبر من سنهم بشهور ، واطلق سراح بعض المحتجزين ــ ظلما أو عدلا ــ فى تخشيبة نقطة البوليس ، واعفى شبان من الجندية لعيوب خلقية غير ظاهرة فيهم !! ..

ورايتنى بعد سرحتى هذه أبتسم فى مرارة قائلا لنفسى : وهكذا يمكن أن يكون ابى صادقا فى تأنيبه لأخى عيسوى وربما لم يكن يكذب حين زعم أنه مدين هو الآخر للبطرانة .. وهكذا ـ أيضا ـ أن يكون دين البطرانة ممتدا فى الزمن القادم .

لكن الأمر الذى شغلنى حقا هو مصير هـذه الديون كلها اذا ما نفقت البطرانة فجـأة وعاجلها الموت وهى وحيدة ؟ ! من يا ترى سيعرف كل ما لها فى ذمم الآخرين ؟ ومن سـيتولى جمعـه ؟ وكيف ؟ ! غير أننى لم أجد لذلك جوابا ، مثلما لم أجد تصـورا للموضع الحقيقى الذى تخفى فيه اموالها ورهوناتها .

***

وذات يوم كنت عائدا من المدرسـة بعد الظهر بقليل ، فوجدت موكبا هائلا من البشر قرب دكان البطرانة ، يمتد حتى قرب حارتنا . فلما اقتربت منه ودخلت فيه ، رأيت خيولا تقف على مقربة من البـاب ، فى حراسـة عسكر بالبدلة الصـفراء والطرابيش والقلشين الملفوف على الساقين . كانوا يزعون الناس المتفرجين ويهوشونهم بالكرابيج كى يبتعدوا . وكان ثمة افندى معتبر يلبس البدلة الصفراء هو الآخـر ، لكنهـا من الجـوخ الثمين ، وعلى كتفيه وصـدره نجوم وضبابير وشرائط كثيرة تربك العين . جىء له بكرسى فى مدخل الدكان ، فجلس يبتسم وينصت الى البطرانة ، المختفية كعادتها داخل الدكان ، ويصيح فى عسكره بلطف : « ما تضربوش حد ! » ..

ظننت أن رجال المباحث وحكومة التموين فاجاوا البطرانة كما يحدث للبقالين الغلابة من حين لحين . تلكأت على مقربة من الأفنـدى ذى النجـوم والضبابير اتفرج عليه مبهورا بكل هـذه

الأعاجيب النحاسية والشرائط والتعاليق . كانت رائحة عطرة تملأ الشارع كله وتكاد تطغى على رائحة الفسيخ المعتقة . وكانت البطرانة متربعة فى نفس مكانها المعتاد تبتسم فى سعادة وود كبيرين ، وتتكلم مع الأفندى فى رقة ، تسأله عن أسماء وعن أشياء . هو يتباطأ فى الاجابة ، يبتسم ، يفكر قليلا . هى تسبقه الى الضحك فى كمها جذلا واغتباطا . يشخط فيها على سبيل المزاح صائحا :

ـ « بتضحكى على ايه ياوليه انتى ؟ ! خلى بالك ان دى آخر مرة حد مننا يجيلك ! شوفى لك صرفه فى نفسك بقى ! اللى نوحشه بعد كده يبقى يزورنا ! » .

يبدو على البطرانة كأنها فهمت الاشارة ، تكتم ضحكتها تشوح فى هشم قائلة :

ـ « اياكم فاكرينى فاضية لكم ! أنا وورايا موسم البطيخ داخل ! وورايا هم ما يتلم ! » .

يتأملها الأفندى لبرهة طويلة كأنه ينظر فى لغز مبهم ، يضرب بكفيه على ركبتيه ، يشرع فى النهوض . ترفع البطرانة ذراعها فى وجهه صائحة :

ـ « على الطلاق بالتلاتة من دراعى ما حد يمشى غير بعد الغدا ! خلاص ! الغدا جهزناه ! يلا يا بنت ! » .

كانت جادة غير مازحة ، نهضت كشابة فى العشرين ، وضعت رأسها فى الباب الصغير صائحة : « يلا يا بنت » ..

لم تكن هذه البنت سوى صفية بنت العريض ، التى كان زوجها حفنى يشتغل عند البطرانة قبل أن يموت بعد زوجها

بسنوات قليلة ، مخلفا ثلاثة أولاد ، رأت البطرانة أن تضمهم الى رعايتها ، وان تنقل أمهم صفية لخدمتها . وحين كبر الأولاد ، لم تدعهم يشتغلون عندها ، خافت أن ينهبوها أو يتآمروا عليها .. هكذا يقول بعض الخبثاء من بلدتنا . أما الحقيقة ـ كما يقول الآخرون ـ فهى أنها ليست تريد لنفسها مهرجانا من العاملين الرجال ، ربما لأنها لم تعد تطيق عشرة الرجال ، وانها لهذا سفرت أولاد صفية للعمل فى الكويت والسعودية وليبيا ، لدى زوج ابنتها فهيمة المقاول الكبير الذى له شغل فى كل البلاد . وهذا صحيح وقد شفته بعينى ، اذ تكلفت البطرانة بتسفير عدد لا يحصى من الرجال والشبان والبنات من جميع البلدان المجاورة حتى لم يبق فيها من أهلها سوى العجائز والعجزة والغيلان المترسخين . وهم فى كل عام يهلون من السفر محملين بالدولارات والدينارات والريالات والحقائب الضخمة المنبعجة بالهدايا ، فيشترون قراريط الأرض الزراعية المتاخمة البلدة ، يبنون لأنفسهم فوقها الفيلات والعمارات كالمدينة العاصمة سواء بسواء .

نصف أولاد البلدة كرهوا التعليم وأحبوا السفر بتشجيع من البطرانة أو بتخويف من ديونها . وفى ظرف سنوات قليلة من سفرهم بات الفلاحون وقد باعوا لمقاولى البناء طمى أراضيهم ؛ فتخربت الأرض وباتت بركا ومستنقعات ، فباعها أصحابها للبناء واستراحوا ، واتجهوا الى فتح الدكاكين والبازارات والمقاهى لعرض أفلام الفيديو ، وباتوا جميعا يجأرون بالشكوى فى طلب الدجاج المجمد والبيض واللبن المجفف وبولوبيف الكلاب وأفخاذ الطيور الجارحة ، ويتنطعون على أبواب الجمعية الاستهلاكية .

صفية بنت العريض أشطر من مدينة ، فلقد راعنى منظر

العزومة حين نظرتها من بعيد ، حيث افترشت فناء الدار بحصير ومساند ، وامتدت الطبلية الكبيرة على الأرض ، وطرحت فو صينية العشاء ، وامتدت أطباق اللحوم والطيور وأناجر الف وأطباق الخضار والحلوى . وخرجت طبلية مماثلة لجدعان الحي الذين تكفلوا بحراسة الخيل حتى ينتهى الضيوف من طعامهم .

***

فى الحق ما أكثر الحراس الذين يتطوعون بمساعدة البطرانة فى كل لحظة ، خاصة حين تصلى ، اذ يطرق الزبون باب دكانها فلا يراها فى مدخل الدكان كالعادة ، فيطرق مرة أخرى ، فيجيئه صوت البطرانة من الداخل مرتفعا فجأة بسورة من القرآن الكريم تتبعها بصيحة : الله أكبر .. ربنا ولك الحمد !! فهنا يقف الزبون متطوعا بحراسة البضاعة ، رغم يقينه أن البضاعة فى مأمن وحدها . ولكن سرعان ما يأتى زبون آخر ، ليعرف أن البطرانة تصلى ، فيقف ، لا فى انتظارها ، بل فى حراسة الواقف قبله . وبعد قليل يأتى زبون ثالث ، فيلذ له أن يقف فى حراسة الاثنين . وحين يتزايد عدد الزبائن تتطامن البطرانة فى صلاتها ولكن صوتها يعلو الى ذروته : « كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم فى العالمين انك حميد مجيد .. يـ .. د .. السلام عليكم .. السلام عليكم » لحظتها يبدأ الجميع فى التزحزح نحو الداخل وكل يمد الفلوس والوعاء الذى سيأخذ فيه طلبه .

فى الطريق الى دارنا فى ذلك اليوم كانت الأحاديث تتنقل من مجموعة لأخرى ، حتى عرفت العجب فى هذه الخطوات القليلة : هذا الضابط ليس من الشرطة انما هو من الجيش ، الأعجب من ذلك أنه ليس زوج ابنتها انما هو ضابط عنده . ذلك أن « ملكة »

اصغر بنات البطرانة كانت تخرجت وكيلة نيابة ، قبل أن يقع فى غرامها ضابط كبير من رجال الثورة من الصف الثانى او ما أشبه كما يقولون . أصله من نواحينا ، وكان يعرفها وهى طالبة ، ويقوم بينهما حب ، استخدم فيه عربات الجيش وحمير أهله فى توصيلها والتحويط عليها من أى عدوان خارجى ، الى أن تخرجت فتزوجها فى مهرجان كبير لم ولن تنساه بلدتنا أبدا . وقد حاول العريس أن يثنى البطرانة عن عزمها ، يجعلها تترك هذه المهنة وتنتقل معهما الى البندر كى تستريح . غير أنها وضعت امامه نفس الشرط الذى لا تحيد عنه مطلقا والذى خضع له كل أزواج بناتها السابقات : أن يتركها فى حالها ويضرب صفحا عن مهنتها ، لأن الراحة بالنسبة لها تعنى الموت النهائى ، وهى أعرف الناس بنفسها ، وتعرف أنها لن تستريح فى أى مكان فى الدنيا سوى دارها هذه الكائنة فى شارع داير الناحية .. كذلك لا راحة لها الا فى شغلتها هذه التى تربت عليها وعشقتها ، وهى قد عاشت عمرها معلمة مسترجلة ولسوف تظل كذلك حتى يتوفاها الله .

وهكذا خضع كل أزواج البنات لشرطها . والعجيب أن هذا الشرط لم يعق أى خطوبة ولم يعطل اى فرح ، فكأن جميع العرسان قد جاءوا مستعدين لقبول الشرط ، بل أن بعضهم لم يكلفها مشقة طرحه عند الخطوبة . وواقع الأمر انهم جميعا ـ كما يقول اهل بلدتنا ـ أذكياء يؤمنن بالمثل القائل : بركه يا جامع ، اذ هم فى الواقع يتمنون اسقاطها من دماغهم نهائيا .

***

شكرا لها على كل حال ..

هكذا قال أزواج البنات واحدا بعد الآخر .. فقد صرفت على بناتها فى المدارس العليا .

وكانت قد نذرت ذلك على الملأ فى جنازة زوجها موسى البطران ، حيث ملست على نعشه قائلة قبل أن تشرع فى أى بكاء أو صوات :

ـ « الرب لم يرزقنى ذكورا يا موسى ليحموا بناتك ! فلأكن أنا هذا الذكر بدلا منك ! ولتكن كل واحدة منهن ذكرا بمعنى الكلمة ! تحمى نفسها بنفسها !!

لسوف أصرف عليهن يا موسى حتى لو كلفنى تعليمهن جبالا من الأموال ! العلم عزوة من لا عزوة له ! وغدا يكون لكل بنت من بناتك عزوتها التى تغنيها عنى وعنك وعن كل أبناء آدم وحواء ! هذا ما نذرته الآن والله ! ولسوف يعيننى الرب لأنى ما نذرت الا خيرا وما طلبت الا سترا !! ومنذ متى خيب الله ظنون من رفع الى السماء يديه ؟ ! » .

وقد حدث .. تمخطرت ملكات الجمال فى شوارع بلدتنا قدر ما تمخطرن ، فكن مجلبة للاحترام اكثر من كثيرين من الرجال . أطرف ما تتناقله الحواديت البطرانية أن جميعهن قد حملن لقب البطرانة مضافا اليه لقب الست . فان أنت طلبت البطرانة الكبيرة فعليك أن تحدد ذلك قائلا : خالتى بطرانة . أما ان طلبت احداهن فعليك أن تقول : الست بطرانة الصغيرة . وأنت فى النهاية لن تطلب احداهن الا ان كنت تريد مراجعة الحساب أو العدد فى بيعة باعتها لك وحدث فيها خطأ . والبطرانة كذلك بذلك راضية وسعيدة ، لاعتقادها أن اسم الأنثى عورة لا ينبغى أن يردده الرجال ، وانه لمن حسن طالعها ان الرجال من تلقاء انفسهم كانوا يستحون من ذكر اسماء بناتها .

على أن البنات انفسهن كن يتحدين انوثتهن ، ولا يشغلن انفسهن بها ، كأن أنوثتهن شيء غير وارد عندهن . وان تجرا صفيق وذكرهن بجمالهن رددنه فى خشونة لبقة وقارصة ، تجعله بعرق خجلا ولا يكررها .

* * *

كان الحفناوى ، ومن بعده أولاده ، يقومون بتوصيل البنات الى محطة القطار بالركوبة كل يوم ، ليركبن القطار الى مدرسة البندر الابتدائية والثانوية ، وينتظرونهن بالركائب عصر كل يوم ..

فلما التحقت كبراهن « فهيمة » بالجامعة فى مصر أم الدنيا ، اكترت لها أمها سكنا فى المدينة الداخلية مثلها مثل بنات علية القوم ..

كانت « فهيمة » نصف شقراء . فيها شقرة أمها وخمرية أبيها . طويلة كانت كشجرة الجزورين . كل عضو فى جسدها فرع نتوء بارز . عينها كانت نصف خضراء ، نصف سوداء . لسانها ينطق الراء غينا ، فكأنها تتكلم الفرنساوى قبل أن تتعلمه، كانت طرية العود ، رطبة على الدوام ، طرية اللسان حتى وهى تدخله فى أحاسيسك ليقرضها ، حادة الملامح ، قوية العينين ، مفحمة النظرات ..

فى الأجازة الصيفية لم تكن تتورع عن الوقوف فى الدكان بلبسها الافرنجى المحتشم ، لتساعد أمها فى البيع ، وتوزع وقتها بين المذاكرة والشغل فى الدكان . وكانت تسافر فى أول العام الدراسى فلا تعود الا فى بدء الاجازة ، وتسافر لها أمها كل جمعتين

مرة . ودائمـا كانت اخبـار تفوقهـا تسبقها مؤكـدة رضـاء الأساتذة عنها ..

بفضل « فهيمة » اصبح للبطرانة ضيوف كثار من الافندية الشبان المحترمين مع مندوبين من أسرهم الكبيرة .

لم يكد يمر على التحاقها بالجامعة عامان حتى لحقت بهـا اختها « تفيدة » ..

ولم تكن « تفيدة » بالطويلة ولا بالقصيرة . كانت سمراء ، قمحية . ملامحهـا صورة طبق الأصل من ملامح ابيها ، بما فيها من دقة وحدة . واسعة العينين كعيون البقر . كانت مرحة رخيمة الصـوت زاعقـة النبرة ، تتحدث مع كل الناس بلسـان حلو يستجلب لها الدعاء من كل الناس .. وكانت تصلى الفرض بفرضه ، وتقرأ كل الكتب التى تشتريها أمها للبيع فى أوراقها .

ثم لحقت بهما « فوقية » ، التى كانت رفيعة مربربة ، كعود البان . ليس لجسـدها ملامح بارزة زاعقـة ، لكنها مع ذلك تثير جوع من يراها ، فيها رقة وعطف ، ومرح ، وان كان مفحمـا لمن لا يفهمه . كانت اجرأ قليلا ، واطول لسانا ، مما جنبها جراة المتصافقين . كما كانت نشطة فى شغل الدار وفى المذاكرة : لا تلجأ للبيع فى الدكان الا حين لا يكون هنـاك أحد غيرها . وقد فاجأت الجميع حين لبست لبس البندر الافرنجى فاذا هى أجمل قواما من الجميع ، واذا هى اخطرهن فى توزيع الأرق على جميع شبان البلدة وكل من زاملوها فى الدراسـة . فى نطقها للكلام لثغـة اختها فهيمة ولكن بصوت اقل طراوة وتمددا واكثر رخامـة ورنينـا ..

ثم لحقت بهن « سوسن » ، التي كانت ذات شكل رجولى صرف صوتها غليظ كصوت الرجال ، حتى لبسها فيه شبه كبير من لبس الرجال : الجلباب الواسع الكم ، المقفل على الصدر بدون ياقة ، الكاسى حتى الكعبين . كانت خمرية اللون ، مستطيلة الوجه ، مسمسمة الملامح ، يكاد ينبت لها شارب ، يزيدها اثارة . ليس من دليل أنوثة واضح فيها سوى عينين سوداوين واسعتين برموش مشهرة طويلة ، وحواجب ثقيلة متسقة . يداها كقطعتين من الحلوى ..

لم تكن تتورع ، بثوبها ذاك الرجولى الغريب ، عن السير بين الحقول كالصبيان ، ممسكة بالكتاب تذاكر فيه ، دون أن يجرؤ صبى أو شاب على معاكستها . ليس لشراسة فيها ، انما لأنه لن يجد من يصغى اليه أو يحفل به ، حتى أنه ليستسخف نفسه ، فينصرف عنها صاغراً يرد الطرف وهو حسير ..

كل من اختلس اليها النظر لهج لنفسه ولغيره بأنها ربما كانت اجمل اخوتها على الاطلاق . بات كل من يلتقى بها على طريق المذاكرة يظهر لها انشغاله الجدى الشديد فى المذاكرة ، بصورة مبالغ فيها . قد يوهمها أنه غير منتبه اليها ، لكنه لابد أن يتتبع أثرها حتى تختفى عن ناظريه . أما الأولاد الذين كانوا يريدون النجاح فى المذاكرة حقا فانهم كانوا اذا رأوها على طريق حولوا وجهتهم عنه فى الحال ، ادراكا لوقتهم قبل أن يضيع فى الانشغال بها دون طائل .

وقد لحقت بهن « لوزة » ، التى كان وجهها عبارة عن ظل لثلاث تفاحات ناضجات ، واحدة مكان الجبين ، واثنتان تحت العينين فيما يشبه الخدود ، يمتد بينهما أنف كأنه ظل لهما ،

يشرف على ثغر أعد للابتسام ، ينفرج دائما عن صفين من اللولى الأبيض . رقبتهـا طويلة ، صـدرها عريض ناهـد بارز بقبتين صغيرتين ، يمتد منهما جذع يترفع كلما هبط الى هضبة العجيزة المختبئة داخل جلباب كالجوال ..

كانت ذات كبرياء عجيب ، يحتمله الجميع ويستلذه ، لأنه مجرد مظهر . تنقضه عيناها الواسعتان الباسمتان على الدوام فى تألق ذكى صاف ، فيه شيء شبيه بالاستسلام أو اللامبالاة ..

الجميع كانوا يسمونها حضرة الضابط ، لمـا فى مشيتها من رشـاقة وجدية ، خاصـة عندما تلبس ما يسـمى بالتايبرات ، وتحتضن حقيبة الكراريس ، وتمشى عائدة من محطة القطار ، اذ يفرض عليها كبرياؤها أن تنزل عند مدخل البلدة لتحرجها من ان يراها الرجال راكبة مفشوخة ..

هى التى ــ يقولون ــ تفوقت على اخوتها فى اللعب بعقول الشـباب واحـلامهم . وهى التى تلقت أكبر قدر من الخطابات والأغنيات ، فلم تحفل بها ، ولم تعنف أصحابها عليها ، مما شجع العقلاء على الاقلاع وشجع الحمقى على الاستمرار . كما انهـا هى التى تحررت بعض الشيء ، فتركت رأسها نصف عاريـة ، على الدوام تلف شعرها بشريط عريض ، وتتركه شلالات على ظهرها يخلب لب القوم . كذلك كانت هى الوحيدة التى تبدو خدودها وشفتاها كأنها دهنتهما بالأحمر القانى ، فى حين أنهـا لم تعرف حتى أين تباع هذه الأشياء .

وأخيرا لحقت بهن « ملكة » . كانت اسما على مسمى . كانت شامية صرفة ، بعيون مصرية صرفة . شعرها مثل الكهرمان

اللامع . وجهها يشبه كاسا بللوريا فى قلبه ورد . يحب رائيها أن يتفرج على وجهها كل قطعة على حدة ، فلا يشبع من بريق العينين المتلهف الحذر ، ولا من أنفها الدقيق كاصبع الطباشير ، ولا من ورد الخدود ، ولا من شفتيها الرفيعتين المضمومتين على شيء غامض هو أقرب الى السخرية أو الخبث اللطيف أو النكتة المتحرجة من الرغبة فى الانطلاق ..

الغمازات فى صدغيها وذقنها تنقبض وتنفرج كلما شرعت تبتسم ، اذ هى دائما فى مشروع ابتسام ساحر ، كأنها تخشى ان هى اطلقت بسمتها ذبحت عقول الناس ..

نصفها بياع صرف ، وهذا ما يغرى بها قلوب جدعان البلد . ونصفها الآخر بندرى طلابى صرف ، وهذا ما يغرى بها قلوب أبناء المدينة ذوى الأصول الريفية ، كأنما اجتمعت فيها القرية والمدينة معا كأنصع ما يكون اتساقا وامتزاجا . جدعان القرية الحالمون يتعشمون فى الالتحاق عن طريقها بالمدينة . وشبان المدينة يحلمون عن طريقها بالحنين الى الريف ..

ولقد ضربت الرقم القياسى فى اقتتال شبان البلدة بشأنها مع شبان المدينة الذين يزورونها من حين لحين ..

فأما « فهيمة » ـ ويا للعجب ـ فقد عملت معيدة ثم أستاذا بكلية الهندسة . وقيل أن جمالها كان أخطر من تفوقها الدراسى . فلقد احبها استاذها الجهبذ الكبير ، وتزوجها ، ثم ما لبث أن اصبح وزيرا للاشغال فى حكومة الثورة المباركة ..

ولم تكد هى تنشغل بأمور الزواج حتى كانت « نفيدة » قد تخرجت وعينت هى الأخرى معيدة فى كلية الطب ! ليقع فى هواها أستاذ آخر ، فيتزوجها ..

كان زواجها سبب السعد على الجميع · قيل ان الزوج كان من بين القومسيون الطبى الذى يعالج سيادة الرئيس شخصيا . وقد ضم زوجه الى عيادته الخارجية المهولة الشهيرة فى مصر الجديدة باسم مستشفى الملكة .

واما « فوقية » فقد تخرجت فى كلية الآداب وعينت مدرسة للغة الانجليزية فى مدرسة دسوق الثانوية . وكان حكمدار المديرية يسكن فى منزلهم المواجه للمدرسة ، فاذا هى تلحس مخه بسرعة البرق . ظل يراقبها شهورا طويلة حتى عرف كل شىء عنها وعن اهلها ، حتى شرط أمها عرفه وابتسم له مرحبا ..

وكانت هى وجه السعد عليه ، اذ رقى الى رتبة مدير الأمن فى الأقصر ، فانتقل الى هناك ليعيش بين السياح ..

أما « سوسن » فقد تخرجت فى مدرسة الحكيمات ، وعينت حكيمة فى القصر العينى · وكانت تساعد اختها فى مستشفى الملكة الخصوصية ، فكان المرضى يخلطون بينهما ..

وقد حدث أن شيخا سعوديا من شيوخ النفط والمال كان نزيلا بالمستشفى · فما كاد يشفى من مرضه حتى وقع فريسة لمرض الحب . ولم يمهله الحب طويلا ، فتقدم لخطبتها بشروط مغرية جدا ، أهداها قصرا فى حى جاردن سيتى ، وسيارة يسمونها البويك ، وأرضا للبناء فى زمام بلدتنا ، ورصيدا فى البنك ..

اعتزلت المهنة وانتقلت لتعيش معه فى بلدان أوربا ، حيث مكاتب شركاته المتناثرة فى اثينا وقبرص ولبنان وباريس ولندن ونيويورك ، ولديه فوق ذلك شركة ملاحة بحرية ، وجريدة خاصة

به تصدر فى السعودية ليدعو على صفحاتها لمنتجاته وأعماله ، ويتصالح بها مع الحكام وامراء البلاد ، ويستجلب لها المحررين والكتاب من القاهرة .

« اوزة » هى الوحيدة التى شذت عنهن فى أمرين وان كان حظها لم يقل عن حظهن . فهى لم تكمل تعليمها مثلهن ، اكتفت بشهادة التوجيهية ، أو لعلها ارغمت على ذلك بسبب الأمر الثانى الذى اختلفت فيه من اخوتها . ذلك أنها ـ دون اخوتها ـ هى التى وقعت فى الغرام ، أحبت شابا من بلدتنا كان يعمل محاميا تحت التمرين ، وكانت لصالح أحدهم ..

لكن الظروف خيبت ظنونهم ، اذ ان « خالد حرفوش » دخل حزب الاتحاد الاشتراكى فنجح فيه بجدارة . ثم اذا هو يرتقى ممثلا للبلدة على مستوى المركز ثم على مستوى المحافظة ، ثم يصبح بين عشية وضحاها عضوا باللجنة المركزية ، ثم اذا هو يترشح لمجلس الأمة ، فيكتسح كل المرشحين لمنافسته .. وان هى الا سنوات قليلة أخرى حتى أصبح خالد حرفوش وزيرا للعدل ..

ويقول بعض الخبثاء ان خالد حرفوش وثب على كرسى الوزارة لا لشىء الا لكونه حفظ الميثاق وفلسفة الثورة ويحشرهما حشرا فى كل خطبه ومقالاته وأشعاره ومرافعاته ..

وعندما مات الزعيم عبد الناصر كان خالد حرفوش قد بات صاحب عزبة كبيرة فى نواحينا ، وصاحب شركات نقل ومكاتب استشارية ، ثم أعلن انضمامه لحزب مصر مع الرئيس السادات. فلما ألغى الحزب واستبدل بالحزب الوطنى صار من أقطابه .

ثم أنه اختفى بعد ذلك نهائيا من البــلاد . وقيل انه أصبح يعيش نهائيا فى أمريكا ، اذ ان له فيها مزارع ومصانع أدوية . وقيل انه يعمل سمسار اسلحة يوردها للفلسطينيين واللبنانيين والعراقيين والايرانيين والسودانيين والليبيين والتشاديين والباكستانيين .. فكل هؤلاء فى حاجة الى اسلحة يضربون بها بعضهم بعضا ..

المهم أنه لم يعد يظهر مطلقا فى اى مكان بعد أن كان ملء السمع والبصر . ولقد مات أبوه حلفاوى حرفوش دون أن يحضر هو جنازه . وقيل انه وكل البطرانة فى تصفية أملاكه بالبلدة ..

وبسببه أصبح يشاع فى البلدة ان كل ازواج بنات البطرانة قد سافروا جميعا الى بلاد الفرنجة واقاموا هناك ..

* * *

البطرانة اذن شخصية خلاف ما كنت أتصور . مع ذلك ظلت مجرد فسخانية عجوز بسيطة بســاطة كوم الســباخ امام دكانها . ومع كل ما اشيع حول هروب أزواج بناتهــا وانفضاض المساند من وراء ظهرها ، ظلت كقطعة حديد معقوفة يفتحون بهــا أصعب الأقفال . ولطالمــا بهرت الناس بحل مسائل عجز عن حلها نائب البرلمــان . انها اذن لحقيقة بقدر ما هى خيال . وقد يقع الانسان فى محنــة وتضيق به الدنيــا فلا تنفرج عنه الأزمــات الا لكونه ـ فقط ـ تذكر البطرانة .

هذا ما حدث لعبد الخالق الصردى ، التاجر الكبير فى بلدة العجوزين ، الذى فرضت عليــه الحراســة مرتين : ويقــال انه تذكر البطرانة فى لحظــة ضيق فجاء اليها بسيارته المرسيدس ،

وتصاحب معها مدة شهر او أكثر ، بعدها علمنا انه قد صار عضوا كبيرا بالحزب الوطني تنشر الجرائد صوره ..

وكان لى عم اسمه عبد الله افندى يكبر ابى بأعوام ، كانت هذه الحكاية تستثيره ولا يكف من ذكرها فى كل مكان كدليل على اقتراب الساعة ــ اى يوم القيامة والعياذ بالله ــ حيث قد غضب الله على القوم فحكم عليهم امرأة ..

ولا احد يدرى كيف حصــل عمى عبد الله افندى هــذا على لقب الأفندى رغم أنه يعرف القراءة والكتابة فقط وليس يرتدى زى الأفندى ســوى الطربوش مع الجلباب الصوف والعباءة فوقها مكومة على كتفيــه . وكان دائما على سفر الى البــلاد والأسواق متاجرا فى زبل الحمام . له من هــذه التجارة ثروة لا بأس بها ، وشهرة تفوق الوصف ، حتى لقد اشتهر فى بلدتنا وكل البلاد باسم الحاج عبد الله افندى رسمال الحمام . يعمل تحت سيطرته رهط من الرجال السريحة معظمهم من البرلس ، ينطلقون فى شــوارع البلاد حاملين الأجولة الفارغة ينادون بلهجة غنائيــة فيهــا شجن : رســمال حمــام للبيع رســمال حمــام للب .. ي .. ي .. ي يع .. فأنت وغيرك تستوقفه وتعرض عليه ملء قفة من زبل حمامك . يدب الرجل يده فيها يقلب جيدا ويقول : آدى نص افرنك بالصــلاة ع النبى ! ويدلق الكميــة فى جواله دون أن يفاصل معك . وأنت تقول لنفسك : النصف افرنك لا بأس به فوق انك تتخلص من زبل الحمام ..

كل ذلك يعود الى عمى عبد الله افندى رسمال الحمام فى النهاية ، ليعبأ فى زكائب كبيرة تملأ مندرتنا ويتنقل اليها كبــار تجار الأسمدة للمعاينة ودفع الأموال ، ليوردوه بدورهم الى مزارع

البطيخ لتسميد الأرض به فى سبيل بطيخ كبير مضمون الاحمرار والحلاوة والخشونة . وحينذاك تنتفخ أوداج عمى عبد الله افندى وسمال الحمام ويصبح كالديك الشركسى يروح ويجىء فى الدار يشخط وينطر ويبرطم ويهلفط ويتشدق ، بوجهه الذى يشبه صرة النقود الكبيرة ، فاذا احمر عند الفرح أو الغضب صار كالفرخة المكتفة المحمرة ، وتختفى عينه تماما تحت التجاعيد الكثيرة . وهو معلوف دائما من نسوانه الكثيرات ، اذ أنه مزواج مطلاق يبحث فىبطون النساء عن ولد ذكر يخلفه فلا تعطيه البطون سوى المزيد من الاناث ، فيكتم الحسرة فى قعر بطنه لكنه ما يكاد يشم رائحة النكتة أو التهريج حتى يتحول الى مهزار لا نظير له فى الضحك والمسخرة ..

لكنه كان دائم السخرية من ذلك المشهد الليلى الذى لابد ان يحدث كل يوم بين ابى وبين صدقى النشرتاوى أقرب جار لنا..

صدقى النشرتاوى كان جنديا فى الجيش أيام هوجة عرابى كما يسميها . وقبل تجنيده كان غناما ، مهنة ابيه الأصيلة ، فلما أنهى الخدمة فى الجهادية وجد نفسه قد ترفه ونسى أمور الأغنام فتركها لأبيه ثم لأولاده ، وذهب فتعلم الزيانة فى البندر ، ليصبح اقدم حلاق فى بلدتنا ، ويفتح دكانا فى شارع داير الناحية ، مجرد بناء من الطين بباب خشبى يغلق بدرفيل ، فيه طاقة يضع فيها حقيبة العدة ، وهى جلدية جرباء من نوع المنفاخ ، فيها مجموعة أمواس ملفوفة فى فوطة بيضاء حائلة على الدوام ، وصبانة بها بروة صابون ، وفرشاة ، وحجر يسن عليه الأمواس ، وابريق معدنى صغير به ماء ..

غير ان صدقى النشرتاوى نادرا ما يفتح هذا الدكان الا فى

فترات محدودة ، اذ أنه يلف بالحقيبة على زبائنـه فى دورهم ليأخذ لهم ذقونهم كل بضعة أيام ويسوى لهم شعرهم كل شهر ، ويتقاضى الأجر بنظـام الميسانية حيث يأخذه محصـولا عند كل حصاد . وكان يحلق لعائلتنا كلها مقابل ثلاث كيلات من القمح ومثلها من الذرة والفول كل عام ..

بينه وبين أبى صـداقة عجيبة وود غريب ، ولهما الدلال على بعضهما بشكل ليس له مثيل . كان لهما طقس يومى تعرفه البلدة كلها ، يبدأ بعد منتصف الليل ..

فلصـديق النشرتاوى مصطبـة أمـام داره كمـا أن لنـا مصطبة أمام دارنا تحت شباك مندرتنا . وفى العادة يسهر أبى فى المندرة . وفى لحظـة معينة يمضى ليقف بباب المندرة ، يرمى بصره عبر الساحة الكبيرة الخالية ، حيث تربع النشرتاوى على مصطبته وراح يدخن السيجارة ، وبجواره قلة ماء ..

يقف أبى مرتديا الفانلة ذات الأكمـام ، والسروال الكاسى حتى ركبتيه والحابك على الحزام بدكة ذات شراريب ، وفوق الفانلة الصـديرى . ينجعص أبى ساندا ظهره لباب المندرة صائحاً فى لهجة بندرية ممطوطة :

ــ « وله يا خروووف ! » .

فيرد عليه النشرتاوى من فوق مصطبته من خلال حنـك أهتم :

ــ « مرحب كبش ! » .

ثم يجلس أبى على مصطبته فى مواجهـة النشرتاوى حتى مطلع الفجر ، يتحاوران على طريقتهما المعتادة : فأبى من حين لحين

يفتعل كحة تسقط من تحتهـا ضرطة مضغمة . حينئذ يجيء صوت النشرتاوى :

ـ « اهلا ! انت لسة عايش ؟ ! » .

ثم يبعث اليه بقنبلة فى شكل ضرطة ، كأن الضراط فى مخزن لديه يتحكم فيه كيف يشاء ويطلقه وقتما شاء . وتمر لحظـات طويلة من الصمت العميق لا يقطعه سـوى نقيق الضفادع وصفير الصراصير . فاذا اشتعلت السيجارة فى يد أحدهما انتبه الآخر واشعل واحدة . وقد يظن احدهمـا ان الآخر قد استغرق فى النوم ، فاذا بضراط عال يبعثه النشرتاوى بفصيح العبـارة : فينتفض ابى صائحا على الفور من مقعده البعيد :

ـ « انزل يا خرووف ! »

فيرد النشرتاوى :

ـ « اقعد يا كبش ! » .

وهنا يخرج صوت عمى عبد الله أفندى رسمال الحمـام ، من قاعته المطلة على الساحة ، مترنما بصـوت أجش غليظ لا يمت الى الغناء بصلة :

ـ « الكبش قال للخروف راحت عليك يا خروف ! » .

« تعاكس النعجة ليه ؟ بالزمة مش مكسوف ! » .

« قال الخروف للكبش ما فيكش غير القرون ! » .

« عامل لى فيها دكر .. وانت راجل دون ! » .

ويكون هذا ايذانا بانطلاق الضراط من هنا وهنـاك فيما يشبه أن يكون صيحات الاعجاب والاستحسان ..

وكنت أظن ان هذه الأغنية لا هدف منها سوى السخرية من هذه العلاقة الغريبة القائمة بين هذين العجوزين ، ولكن سرعان ما اتضح لى ان أخى عيسوى لديه معلومات عجيبة وراء تاليف عمى عبد الله افندى رسمال الحمـام لهذا الموال الهازل . وقد حكا لى ذات ليلة بصريح العبـارة ، على ايقاع كحة أبى وضراطه فوق المصطبة الخارجية ..

قال أخى عيسوى أن ابى وصدقى النشرتاوى يتنافسـان فى حب البطرانة شخصيا ، على الفوز بقلبهـا واهتمامها ، وأن النشرتاوى يبعث بضراطه العـالى كرسـالة الى البطرانة فى عمق الليل ، كى تفهم انه صاحب هـذا الضراط القوى فصحته تبعـا لذلك قوية جبارة .

وقد أكد أخى عيسوى أنه ضبط أبى والنشرتاوى أكثر من مرة أثنـاء الحلاقة يتحدثان بشهية فائقة عن المفاتن المكنونة فى جسد البطرانة العبقرى ، كأن كلا منهما يوحى للآخر أنه راى جسدها عاريا وتذوقه جيدا حتى يتكلم عنه هكذا .. وهـذا هو السر فى أن ابى يستمتع بوقت حلاقـة ذقنه ، كما يستمتع النشرتاوى ، لأنهما متى انفردا ببعضهما برح بهما الشوق للحديث عن أحضـان البطرانة الدافئة . والحديث بينهما حميم كأنهمـا يمارسان الجنس فى بعضهما البعض ، لدرجة أنهما يغلقـان الباب ويندمجان فلا يشعرا بأى شىء حولهما . ولقد بات كل منهمـا يراقب الآخر ويطمئن على وجوده كل ليلة ، توقعا منه لأن يكون قد سبقه وتزوج من البطرانة .

* * *

ما كدت أنتبه لهذه العلاقة العجيبة الغريبة بين هذين العجوزين ، حتى بدات المفاجآت تترى ..

بعد أيام قليلة اكتشف أخي عيسوى شقا نافذا فى أسفل الجدار الخلفى للمندرة فى ركن ركين ، لا يكاد يظهر منه سوى ثقب صغير قابل للاتساع بمجرد اللمس ، ومختف تحت أرجل كنبة عتيقة . وكان من المعروف لنا جميعا ان هناك شرخا متعرجا على هذا الجدار صاعدا من أسفل الى أعلى نحو السقف ، فسره ابى واعمامى بانه شرخ فى الفقق بعيد عن صلب الجدار ..

ولكن أخي عيسوى حين دخلَ بكل جسمه تحت الكنبة باحثا عن البراية التى وقعت منه ، ارتد صارخا وهو ينتفض ، ثم ازاح الكنبة قائلا ان البراية كانت وصلت الى اطراف اصابعه لكنها انزلقت وطارت واختفت اثر حركة انتفاضة قوية صدرت عن هذا الثقب فى هذا الركن ، تبعها فحيح انفاس ساخنة لامست انامله . واخذ يشير لنا نحو الثقب فى أسف الركن . جعلنا ننظر فيه ونحن ننتفض ، فوجدنا ان الأرض تحته رخوة مبركّكة..

قال أخي عيسوى ان هذا الشق هو بيت الثعبان المعتق الذى يعيش على أفراخ الحمام فى ابراجها فوق سطح هذه المندرة ، اذ أن البرج فوق هذا الركن مباشرة ، ولابد أن الثعبان العجوز القوى من أكل الحمام قد ثقب لنفسه طريقا داخل الجدار والسقف ينفذ منه الى بنانى البرج ..

وجاءت عمتى تجرى حاملة قصعة مليئة بالطين ، صارت تأخذ منها بالحفان وترمى فى فتحة الثقب تسدها ، فكان الطين يرتد بعد برهة متناثرا ، ورأينا ذيل الثعبان بالفعل ، اسود

تخينا عليه طبقة من الشعر ، ما لبث حتى اختفى . عمتى راحت تحشر خرقا بالية فى الثقب وتليس فوقها بالطين المخلوط بالتراب حتى سدته تماما سدا محكما ، وقالت كأنها تدارى خوفها : « انه لا يؤذى أحدا ليكن فى علمكم ! لا يؤذى الا من يحاول ايذاءه !! » ، ثم أعادت الكنبة الى وضعها . وكان واضحا أنها لم تفاجأ بهذا الثقب ولا بوجود الثعبان ، لكنها أوصتنا بعدم فتح هذه السيرة حتى لا يرتعب الرجال وهم جلوس فى المندرة . فسخر منها اخى عيسوى قائلا انه سوف يسكت حتى يهجم الثعبان على أحدهم فيقتله ثم بعد ذلك يتكلم . ونهرته عمتى وقالت ان الطريق الوحيد للخلاص من هذا الثعبان المعتق هو أن نهدم فوقه الدار كلها ونبنيها من جديد . فقال لها أخى عيسوى : بل الأفضل أن نهدم أمخاخنا ونستبدلها بأمخاخ أخرى .. ثم جمع كراريسه ومضى ليذاكر فى مكان آخر ، فتبعته مشيا على أطراف أصابعى ، وقد داخلنى شعور غامض بأن الأمن لن يعود لى فى هذه الدار بعد الآن مطلقا ..

وكان هذا الأمر كفيلا بأن يشغلنى لولا أن أشياء أكثر غرابة كانت قد بدأت تحدث فى دارنا ..

لاحظت أن زيارة النشرتاوى لأبى قد تزايدت ، وبدون حقيبة الحلاقة . فكنت أرانى مدفوعا للتلصص عليهما بشغف كبير . فلم أكن أسمع شيئا مفهوما ، ولكننى كنت ارى ملامحهما تتوتر وتنقبض ، واحيانا يندمجان فى ضحكة ماجنة تتقاطر منها المرارة ، وأحيانا يحتدان على بعضهما حتى ليوشك كل منهما أن يطبق فى خناق الآخر ، الا أن الحدة تنتهى بتشويحة هنا أو تلويحة هناك ، يصمتان بعدها فى توتر واضح . وابى يقطع

الصمت من حين لآخر ممصمصا بشفتيه فى استعجاب ، مصفقا كفا على كف مرددا : « أما دى عجيبة والله ! » ..

اقترنت هذه الظاهرة باختفاء عمى عبد الله افندى رسمال الحمام منذ بضعة أيام حتى ظننت أنه مسافر كالعادة . غير أن أبى قد بدا هو الآخر يكثر من الغياب خارج الدار . أما نسوان الدار فكن يتجمعن فى الحوش ويبدو بينهن الود على غير العادة ، فيكثرن من الودودة والتشويح والتلويح والولولة الصامتة ، مما أشعرنى أن شيئا غريبا ، بل غريبا جدا يحدث فى دارنا ..

* * *

وذات مغربية شاحبة مختنقة الأصيل كثيرة السحب عظيمة الكآبة ، فوجئنا بصخب وصياح فى الساحة الكبيرة أمام دارنا .. فاندفعنا كلنا نجرى تجاهها ..

فاذا بعمى عبد الله افندى رسمال الحمام مرتديا ثيابه الفخيمة ، حليق الذقن مجلو الأطراف ، يحيط به رهط من صبيان الحارة وشبانها الصغار ، يقودهم أبى بنفسه ، وهو يصفق بيديه مرددا كالأطفال :

ـ « العريس اهه .. اهه ! العريس اهه .. اهه ! » .

والأطفال يردون عليه فى بهجة وحماس شديدين ومن خلفهم وقف النشرتاوى يرقب ذلك المهرجان ويطبق شفتيه على ابتسامة مريرة حاقدة تخشى أن تعلن تشفيها ..

أما عمى عبد الله افندى رسمال الحمام فانه ينكس رأسه فى خجل حقيقى ، يعتقل ابتسامة شاحبة بين شفتيه ، فيما هو

يخطو نحو مندرتنا ، كمن ضاعت كل ثروته فى السوق الخوان. لحظتئذ ، فهمت على الفور أن عمى عبد الله أفندى رسمال الحمام قد تزوج من البطرانة . ونظرته يدخل مندرتنا وينحط جالسا كالفتاة التى فقدت عذريتها واستسلمت للفضيحة . كان على وشك البكاء يردد عبارة واحدة : عندكم حق ! عندكم حق ! انا أستاهل كل اللى يجرى لى ! . .

اسرع ابى فاغلق الباب الذى يوصل المندرة بالدار ، وكذلك أغلق باب المندرة المطل على الشارع ، وعند اقترابه من عمى كان النشرتاوى يقترب هو الآخر نحو عمى من الجهة الثانية ، فبدا كانهما سيحاصرانه بعنف ، بل خيل لى أنهما سيقتلانه فى الحال خنقا . لكنهما اكتفيا بالوقوف الصامت المندهل المتوجس، الساخر مع ذلك . ورأيت عمى عبد الله أفندى رسمال الحمام يولول كالنساء قائلا فيما يشبه الهذيان :

ـ « كتبت لها نصف الدار مهرا ! » .

شخر ابى قائلا فى سوقية مذهلة :

ـ « أن . . . زل !! » .

وقال النشرتاوى فى معجبانية :

ـ « ظننتك اخذت مهرا يا رطل ! » .

وكان من الواضح أن عمى يكلم نفسه :

ـ « لم آخذ غير البعبوص المشفى ! انه ابليس عليه اللعنة ! اضاعنى ! اضا . . ع . . نى ! » .

ولكزه النشرتاوى فى كتفه صائحا :

ـ « لكن ما رأيك فى البضاعة ! البضاعة أهم شىء ! هل ذقت اللحم ؟ ! » .

نظر له عمى كأنه يسترحمه ، ثم زفر ، وبدا كأنه يريد أن يشق الهدوم من شدة الضيق ، والعرق يتصبب على جبينه بغزارة شديدة . ثم شوح بذراعيه مستعيدا شيئا ضئيلا من سطوته طالبا أن يوسعوا له ، وتمدد فوق الكنبة على ظهره وقد راح صدره يعلو ويهبط . وقال أبى وقد بدا أنه استشعر شيئا من الخوف الغامض على عمى :

ـ « عيب عليك يا رجل أن تتزوج دون علمنا ! على الأقل كنا نصبح عليكما ! » .

وكانت الغربة قد بدأت تظهر فى عينى عمى عبد الله أفندى رسمال الحمام ، فكأن العين لا تتعرف على شىء مما حولها ، لكنها كانت تروح وتجىء مع لسانه كبندول الساعة :

ـ « صبـ .. ا .. حيـ .. ة سو .. دا .. ا .. ء !! فتـ .. شـ .. ت كل شىء ! فتشت دارها كلها ! لم أجد أى شىء ! أى شىء ! لا شىء فى دارها ! لم .. تكن .. فلوسها ! .. كانت .. فلوس الناس .. و .. أخذوها !! » .

ثم صمت يلتقط أنفاسه . وقال النشرتاوى :

ـ « المهم ما رأيك فى البضاعة ؟ ! » .

وجلس أبى على حرف الكنبة وقد ظهر عليه القلق على حالة عمى فبدأ يمد يده ويتحسس بها صدره ، لكنه قال بيأس :

ـ « وما العمل الآن يا ترى ؟ ! » .

فتح عمى عينيه ، وهز أصبعه فى وهن ، مرددا :

ـ « لن .. أعود .. اليها .. رميت عليها يمين الطلاق ! ».

ـ « وهل يصح منك هـذا يا رجل ؟ تتزوج القرد من أجل ماله ! فلما تجده مجرد قرد بلا مال .. تطلقه ؟ ! » .

هكذا قال النشرتاوى ، وامن أبى على قوله بهزة من رأسه . فاذا بعمى يهز أصبعه ثانية ويتألىء :

ـ « أبدا .. أبدا .. طلقتها لأننى .. عثرت على شـهادة ميلادها .. لقد .. لقد .. ا .. ا .. اتضح لى أ .. أنها .. يـ .. يـ .. يهـ .. يهو » .

فانحط على الجميع صمت رهيب ، كأن سقف المندرة قد وقع فوقنا .. حتى أن النشرتاوى لم يحتمل الوقـوف فهبط جالسا على قرافيصه ، ساندا رأسـه . أما أبى فانه جمد على وضعه شارد النظرات كأنه انسخط . وأما عمى عبد الله أفندى رسمال الحمام فانه قد أغلق عينيه ورمى برأسـه على جنبهـا وبدا كأنه استراح الى الأبد ..

ورغم أننى كنت أشـعر ان أمرا جللا قد حدث الآن لتوه سوف تنقلب له الحـال فى دارنا رأسا على عقب ، فان عينى كانت قد تعلقت بالشرخ المـائل فى الحائط ، واللياسـة التى حبشتها عمتى قد تشققت ، وظهر الشق من جديد .

ديك الجن

من يوم ما جاء بى المقاول من بلدتنا فى آخر الصعيد الجوانى لكى احرس له عدة شغله التى يتركها ها هنا ، لم انزل الى هذه المدينة التى كانت فرحتى بالشغل من اجل رؤيتها . لم أر من هـذه المسـماة بمصر سوى هـذا الشـارع الطويل المسـمى بصلاح سالم ، حيث تصطف المقابر والجيشان على جانبه الملاصق لجبل المقطم ، وفى الجـانب المقابل شريط ما يسمى بالمترو ، وادارة قيل لى انها تسمى بالأمن المركزى ، ولا شيء غير ذلك سوى الوحشة والليل الغويط . من حسـن حظى ـ فيما يقول لى الفواعلية من بلدياتى المقيمين هنا من سنين طويلة ـ أننى جئت بعد مدة طويلة من شق هـذا الشارع الطويل الذى اطلقوا عليه اسم صلاح سالم ، الذى قيل لى انه من رجال الثورة ، ولكن لم يقولوا لى ما هـذه الثورة وما عملها وفى اى مكان تكون : وقالوا أننى لو جئت قبل ذلك لمـا قدر لى أن أستمر فى العمـل ليلة ثانيـة بل ما قدر لى مواصلة الحيـاة أصلا ، اذ أن هـذه المساحة الخالية التى يبنى فيها المقاول صفا من العمائر والدكاكين فوق ارض انتزعها من جسد المدفونين فيها ، كانت مقابلة لبقعة اسمها « قطع المرة ! » . هو عبـارة عن سرداب ضيق متعرج

تحفه المقابر من كل ناحية ويغرق فى ظلام دائم ويبعث على الخوف والرعب المشبع برائحة الرطوبة ورائحة الجثث المتعفنة ليل نهار ، ملىء بالحفر العميقة الخادعة والأرض الرخوة التى ان داسها غريب هبطت به الى « فساقى » وجحور مليئة بالثعابين وأطفال الذئاب والثعالب وقطاع الطرق . سمى « قطع المرة ! »، لأن اى شخص يجرؤ على المشى فيه بعد أذان المغرب مباشرة لابد أن يتحول الى امراة ، من فرط ما سيلقاه ويتعرض له من مفاجآت واعتداءات ومخاز . مع ذلك فانه الممر الوحيد الذى يسلكه أهل منطقة قايتباى وهم عدد كبير جدا من الناس شغلتهم طربية وحريرية ومطبعجية وقهوجية وغرزجية وبلطجية ومخزنجية للمخدرات . منهم من يعمل فى قلب مصر ولابد ان ينزل الى شغله كل يوم ويعود الى بيته كل مساء ، والنزول الى المدينة قائم على الأقل من أجل تموين المؤن ، ولهذا تعود القادمون الى هذه المنطقة من اهلها أن يتجمعوا فى شارع الأزهر على جبل الدراسة لكى يعودوا معا فى جماعة تونس بعضها بعضا . احيانا ـ يقول الولد بلدياتى ـ كانوا يلتقون فى نهاية السهرة بعائد منفرد يتملكه الرعب على مقربة منمدخل الدرب لا يجرؤ على الدخول ؛ فيقاولونه على أجر مقابل توصيله حتى باب منزله فيعطيهم الأجر بدون لكاعة وفوقه بوسة من رش السجائر ،حامدا الله انهم ليسوا قطاع طرق ولم يتعرضوا له بالأذى فى الطريق ..

بلدياتى هؤلاء لم يشعروا أنهم حسرونى على ضياع هذا الممر السحرى ، الذى كان كفيلا باسعادى ، وكنت قمينا بأن احوله الى مملكة خاصة بى ، أما مسألة « قطع المرة ! » هذه فقد أثارت خيالى وأصبحت تهيجنى وتشد أعصابى كلما

سمعتها . وهذا هو السبب فى أننى أصبحت مغرما بالسير ليلا فى المنطقة التى تبقت من ذلك الممر . .

ورغم أن الطريق المرصوف قد أضاء بعواميد نوره كل أنحاء المقابر ، ونشر ضوءه بين الحنايا والمنعطفات ، فانه لم يمنع الوحشة ولم يجىء بشىء من الأنس . واننى لأقضى الليالى كلها ساهرا ، والسكين مربوط على ساقى ، والشومة فى يدى ، فلا ارى غير سيارات تمرق منطلقة بسرعة ، واشباح ناس يدخلون ويخرجون من حى المقابر الذى يتجاور فيه الأحياء مع الأموات فى حجرة نوم واحدة وربما على سرير واحد ، وكنت فى قرارة نفسى أعرف أن هذا المقاول وضعنى ها هنا كرمز لوجود حارس لا أزيد ولا أقل ، معتمدا على شهرته بأنه قوى الشكيمةنافذ على رجال الحكومة من كبيرهم لصغيرهم ويكاد لولا ذوقه يأمرهم وينهيهم ، كما أن معداته ثقيلة ومعظمها راسخ فى الأرض ليس من السهولة نقلها الا بقوة عصابة كبيرة مزودة بشىء من الأسلحة والسيارات . أما مواد البناء من طوب واسمنت فموضوعة فى مخازن مغلقة بالضبة والمفتاح . .

كان الليل يكاد يقتلنى مع أن وجودى لا لزوم له . لكن الله بعث لى بتسلية بديعة . كان أحد الفواعلية يقضى حاجته فى حنية من حنايا المقابر فعثر بين القمامة على كيس من القماش ممتلىء بقطع الحشيش والأفيون الملفوفة فى ورق السوليفان ، فجاءنى بها يرتجف طالبا منى اخفاءها حتى آخر النهار مقابل الحق فى جزء منها . فزعمت له انها تخص تاجرا أعرفه ، وعينت له اسما وهميا ادعيت بأنه جاء يسألنى عنها ، وانه تعود أن يرميها بين القمامة ويجلس على المقهى للتمويه فلا يعود اليها الا ليأخذ

منها لمشتر . واستبحت لنفسي أن أفتحها واعطيــه ثلاث قطع على سبيل الحلوان الذى سأقنع به صاحبها ، فقبل الفواعلى ذلك عن طيب خاطر . ومن يومهـا وانا انعم بالانسطال العميـق وروقان الأفيون كل ليلة .. تسخن دمائى ، أروح اتمعن صور الراقصات والممثلات العاريات التى نزعتها من مجـلات يتركهـا المهندســون ، وعلقتهـا على حـائط هـذا الكوخ الذى بنى لى خصيصا على مقربة من الشغل ظهره للصحراء ووجهه فى اتجاه المقابر . كثيرا ما تمددت دافنا نفسى فى الرمل مطلقـا خيـالى يحوم ويتلكأ فى سرداب قطع المرة ، ليعيده من جديد فيضــع فيه حفرة أو فسقية من فساقيــه ، لأنفض فوق نهودها كل هـذا العذاب الذى يأكلنى ، ويتجدد أكلانه صباح كل يوم ، حين تدلق السيارات علينا طوائف من فتيات كاعبـات ونساء يشبهن كوز العسل ، جئن بصحبة شبان خرعين او عجائز مكحكحين أو بمفردهن لكى يتفرجن على الشقق المحجوزة باسمائهن فى هـذه العمائر ، فاسارع انا باقتيادهن الى الطوابق ، أريهن الشقق . هن يتعاملن معى بود كبير يغمزننى بالبقشيش الدســم ، يخطـرن أمــامى كالأوز من حجرة الى حجرة ، ليطلن الوقوف فى المطبخ والحمام يتخيلن أوضــاعها بعد تشطيبها ، يتحركن بكل حرية فتتكشف لى أفخاذ وأرداف واثداء ومؤخرات مبرومة مقلوظة يطير لها مخى . أما حين ينظرن لى بعيونهن الواسـعة المتقدة فحينئذ يخيل لى انهن بنات الجن والشياطين يطلعن لى فى هذه الأوقات من الضحى الى العصر ثم يختفين مخلفــات فى نفسى لواعج وخواطر توسوس فى راسى بانهن لا يمكن ان يكن من بنات الانس والا فانهن من طينة غير طينة اهلى وعشيرتى فى بلدتى .. تضمحل صــورهن فى أوائل الليل ، ويستقر اليقين بانهن محض جنيات طيبات جئن يعابثننى

ويتسلين بى وقتا ينصرفن بعده ، لكنهن فى عمق الليل يستيقظن بمجرد ما يسرى روقان الأفيونة فى عروقى وتشعشع فى دماغى انفاس الحشيش ، فأروح أضاجع من تعجبنى فيهن فلا يسعفنى الخيال الا لدقائق قليلة أستريح بعدها قليلا ليتأكد لى اننى لم اضــاجع فى الخيــال ســـوى بنات الجن ، فيغلبنى النعـــاس فلا أصحو الا قرب الضحى ، لأراهن امـــامى فى ملابس جديــدة وأشكال جديدة يسألننى عن المقاول ، عن مواعيد التشطيب ، عن اشياء كثيرة لا أعرف لها جوابا ، لكن الأمر ينتهى دائمـــا بالصعود الى الطوابق والتجوال بين الشقق وبين جحيم المؤخرات الملفوفة علنا تحت ثياب خفيفة سائبة ، والأثداء النافرة مع كل انحناءة معاينة ، والأرداف المنسابة والبطون التى تتمــاوج فى المشى بين الطوب والحصى ..

الى أن جاءت تلك الليلة الموعودة التى لا تريد أن تنمحى ابدا . كنت مندمجا فى التحشيش مستحضرا احدى بنات الجن فى ضوء اللمبة الصـــاروخ ذات الشعلة بغير زجاجـــة ، شربت وحدى ربع قرش محترم ، وأفينت بقطعة كالحمصة ، ثم خرجت أشم هواء الدراســـة فى ضوء القمر الفضى ، فاذا بى أرى مبنى ادارة الأمن المركزى ملفوفا بعناقيد من اللمبات الكهربية الملونة ، وضجيج من موسيقى وغناء يتصـــاعد من فناء المبنى فى مكبرات صوت . قلت لعله فرح واحد من الضباط مثلا ، وان الفرجة عليه لاشـــك مباحة وممتعة فلربمـــا رأيت راقصة حية بدلا من تلك التى تسمر على الجدار فى تصويرة باهتة . اقتنعت بضرورة الفرجة حينما لاح لى أن كثيرا من الولاد والشبان المماثلين لى فى السن يتسلقون ســـور المبنى كأبراج المراقبـــة ليتفرجوا . وهكذا مضيت نحو السور فى اتجاه حى الدراســة ، حيث كانت دكاكينه

ومقاهيه ساهرة على بعد قريب ، ومحطة الأتوبيسات المتاخمة للمبنى تملأ الساحة بعشرات الأتوبيسات ومئات من الركاب والمنتظرين . فلما اقتربت منهم تنبهت الى أننا لا نزال فى أول الليل ، ثم اخترت زاوية من السور بعيدة عن أضواء الشارع وقريبة من الطبلية العالية التى تدور فوقها نمر الحفل ، فما رأيت سوى رجال يخطبون ويوزعون الجوائز ومن حولهم جمع كبير ومهرجان ، بقيت أنتظر استئناف الغناء حتى يئست ، وكنت اهم بالنزول والعودة الى الكوخ حينما لفت نظرى وجود فتاة جميلة جداً ، من نفس فصيلة بنات الجن اللائى يزرننى ضحى كل يوم وفى أعينهن لهفة شديدة غامضة . كانت ترتدى ثوبا محزوقا يظهر من خلاله صدرها وكتفاها بالذراعين وساقاها حتى ما فوق الركبة بكثير ، شعرها منطرح على ظهرها بمقدمة عالية فوق الجبين ، وتلوك فى فمها قطعة من اللادن لاتنى تفرقع ،يتصاعد منها عطر شهى ..

استدرت فوق السور ، جعلت اتفرج على جسدها الناعم الطرى المتألق ، جعلتها شغلى الشاغل . كانت واقفة تحت السور مباشرة حيث لا محطة ، مما أكد لى انها تنتظر شخصا ما . تستدير من حين لآخر نحو السور ناظرة الى ، فارى على وجهها شيئا من الغلب والشقاء متخفيا تحت البوية الحمراء والبيضاء التى دهنت بها وجهها ، انها اذن من بنات الانس مثلنا لأن بنات الجن لا يضعن على وجوههن شيئا من هذا اذ انه موجود لوحده فيها . وجهها كان مألوفا لى كاننى اعرفها شخصيا وتعرفنى شخصيا . شفت أننى يمكن أن اكلمها بسهولة . ومثلما لم اعرف لماذا كنت أهرب خجلا من نظرات بنات الجن ، لم اعرف لماذا صرت ابحلق فى هذه الفتاة بقوة والحاح . شيء فيها

يقنعني انهـا ستكون رهن اشـارتي ، حينئذ تراءى لي الكوخ بأرضيته الرملية وفوقها الحصيرة والمخدة والبطانية . .

رأيت الا أضيع الوقت ، قلت لها :

ـ « مساء الخير يا مزمزيل ! » .

نظرت هي الى اعلى باسمة في بساطة قائلة :

ـ « مساء النور ! » .

ـ « يلزمش اي خدمة ؟ ! » .

هكذا قلت وانا اهبط عن السور في قفزة واحدة ، واقفـا امامها قالت دون أن تتراجع أو تختلج :

ـ « كتر خيرك ! الف شكر ! » .

ـ « وقفتك طالت ! ظننت انك بحاجة لشيء ! » .

اتسعت ابتسـامتها ، اشرق وجههـا ولم يبد عليهـا اي ضجر أو استرابة . قالت :

ـ « عـدم المؤاخـذة ! انتظر ولد عمي ! سنشتري بعض الطلبـات ! » .

بان لي من صوتها وطريقة كلامها انها من أصـل صعيدي مثلي ، لكن عقلي المفتح قال لي : هي تدعي أنها صعيدية مثلك لكي تختشي على دمك وتتركهـا في حالها . انسحبت ، وقفت من خلفها بعيدا ، ارقبها في شغف وفي نيتي أن لا أدعها تفلت مني . وكانت أم كلثوم تردح في راديو المقهى في ساحة المحطـة قائلة : خدني لحنانك خدني بعيد بعيد وحدينا ، فصرت اتمنى لو أنها هي التي اخذتني بعيداً وحدنا . لم أكد أذهب مع أم كلثوم الى

نهاية السور حتى رأيت شابا متأنقا ؛ طويل القامة أشقر الوجه مستطيله بشعر ملون قصير مفروق من المنتصف وعين ملونة كذلك ، يرتدى القميص مع السروال ، وسترة من الكتان البنى أنيقة جدا ، يتأبط كتابا مجلدا ضخما ، ويمضى فى حماسة شديدة مارا من امامى . لما وقعت عينه على الفتاة أشرق وجهه وابتسم فى سعادة كبيرة ثم انعطف عليها فتحركت نحوه سلمت عليه قائلة :

ـ « كلمتك فى المكتب منذ دقائق من تليفون كشك السجائر هذا ! » .

قال وهو يعطيها ذراعه :

ـ « نزلت من حوالى ساعة ! لم يؤخرنى سوى هذا الكتاب ، رأيته على سور الأزبكية وأنا فى الأتوبيس ! فنزلت مسرعا واخذت أفاصل مع البائع نصف ساعة ! اشتريته بآخر نقود معى ! انه كتاب مهم كنت أحلم بقراءته منذ سنوات طويلة فالحمد لله أن جاءنى » .

لكزته فى احتجاج غاضب :

ـ « كلما قابلتك رايتك تحمل كتابا ! الا تزهق من الكتب ؟! تضيع نقودك وبصرك ! كان الأولى بك ان تدخر المبلغ لنصرفه ! » .

ـ « تتكلمين مثل امى ! والله كان فى نيتى ان ندخل السينما لكن المبلغ لم يكن يكفى تذكرتين فقلت خسارة بخسارة يا ولد هات الكتاب أحسن ! ولو تركته كنت سأندم طول حياتى ! » .

ـ « أهو قصة حب ؟ ! » .

ـ « انه كتاب الف ليلة وليلة الذى منعته الحكومة من التداول ! » .

ـ « اذن فاعره لى بعد أن تقراه ! » .

ـ « أنت لا تجيدين القراءة ! » .

ـ « سافهم على قدى ! »

ومضيا معا . فمضيت خلفهما وقد تأكدت أنهما ليسا يمتان لبعضهما بصلة قربى ، هى ليست صعيدية ولا هو مصراويا صرف ، مضيت خلفهما دون أن يشعرا بى . مضى بها الى شارع صلاح سالم فى اتجاه القلعة . رايته ينعطف بها نحو مقابر المجاورين ، ثم اختفيا . لحقت بهما لاهثا . كانا قد استترا بالظلام الخفيف المتراكم بين الأحواش . فداريت نفسى وصرت أختلس النظر . رايتهما يهبطان فى حفر عميقة فى الأرض ابتلعتهما حتى لم يعد يظهر منهما سوى ظل من شعر الرأسين ، قفزت مندفعا نحو الحفرة دون أن يصدر عنى صوت ، جعلت ألتفت حوالى قبل أن أهجم عليهما فلعل وراءهما حراسا مجهولين لحماية ظهريهما . أيقنت أنه ليس كل من أمسك بالكتاب مفتحا ومتودكا ، فمن غشومية صاحبنا واندفاعه لقضاء وطره بسرعة ، أنه لم ينتبه الى أن الحفرة فى دروة حقا لكنها مكشوفة تماما لأى ماش على طريق صلاح سالم المرتفع جدا فوق سطح المقابر ، بل اتضح لى أننى لو كان هدفى الفرجة فحسب فاننى أقف على رصيف الطريق المحاذى لأتمكن من رؤية كل ما يدور فى الحفرة بل أرى عمق الحفرة من الداخل خاصة اذا كان القمر ساطعا كهذه الليلة ، لكن ما الى هذا قصدت بالطبع ..

فى البداية ظلا واقفين لبرهــة طويلة يضحكان فى غبطــة ونزق وخوف ، ثم ما لبثا حتى اندمجــا فى قبــلات واحضـــان ترنحت بهما فمالا على الأرض فى هبوط متقن ، فيما تتقدم خطواتى بأنفاس محبوســة . اذا به يعتدل قاعدا فيخلع سترته الكتانية فيفرشها على الأرض ، ويجعل من الكتاب على هيئة مخدة ، ثم يخلع سرواله الخارجى فيضعه فوق الكتاب ، ثم سرواله الداخلى؛ ثم ضجع الفتــاة ، ومد يديه فخلع سروالها الداخلى الذى بدا فى يديه كمنديل حريرى صغير ، ثم رفع ساقيها فانحسر الثوب عنهما فرسم القمر خيالهما على الأرض ضخما مثيرا للجنون . هنـــا تقفزت داخل الحفرة كالفهد فصرت فوق رأسيهما وكان هو يتأهب للانقضاض عليهـــا . انتفض الولد تحت رجة الأرض ، ارتد جالسا على حقويه ، وأطلقت هى صرخة مكتومة فزعة وهى تعتدل ضامة ساقيهـــا مدارية اياهما بيديهـــا . ألهمنى الشـــيطان فاختطفت السراويل بسرعة وجريت فرميت بها فى مكان خفى ثم عدت اليهما لأجدهما فى حال من الذهول والخذلان . صارت هى تنظر فى وجهى قائلة :

ــ « انت ؟ ! » .

التقط هو انفاسه بصعوبة ، همس فى تشكك واسترابة :

ــ « تعرفينـــه ؟ ! » .

ــ « كان يعاكسنى وانا واقفة فى انتظارك ! » .

تدلى مثل خرقة بالية ، قال :

ــ « اسمع يا جدع أنت ! هـــذه زوجتى ! والمشـــكلة اننا لا نجد مكانا ! فخل عنـــدك بعض الذوق وهات الهـــدوم فنمضى لحالنـــا ! » .

قلت :

ـ « حلو ! أنا عندى المكان ! انت والهانم ضيفان عندى هذه الليلة ! مكان آمن نظيف ! فيه شاى وسكر وحشيش ! »

الولد كاد يوافق ، نظر اليها كانه يطلب موافقتها ، فازورت عنه منكمشة ترتجف ، فقال :

ـ « هات الهدوم ! ونذهب معك ! » .

قلت :

ـ « ساعطيك السروال الخارجى فحسب ! ويبقى معى الباقى طوال الطريق حتى هذه السترة وهذا الكتاب وفى البيت ... » .

استدار بغضب واتجه خارجا للبحث عن الهدوم ، فمنعته بيدى ، نظر يدى بشدة فارتدت بعنف فصفعتنى فى عينى ، طار منهما الشرر ، فشيعت له بونية فى وجهه أودعتها كل غيظى . ترنح ، صار يتباعد مناورا كالمصارع . انقضضت عليه ، تملص ثم طوقنى بذراعيه ، وكان صلبا قويا على عكس ما توقعت ، لكن على من ؟ صرت انفض نفسى فأرفعه كله وأنزل به ، حتى تمكنت من طرحه ارضا فبركت فوقه فصار يزحف نحو عمق الحفرة فيما يشيع لى الضربات بقبضتيه وبراسه فأشيع له مثلها ؛ فلما كدنا نختنق فى قاع الحفرة قمت من فوقه وجررته من شعره الى مدخل الحفرة فاعتدل ببهلوانية مفاجئة وتمكن من تطويقى باحكام وصار يضربنى بالركبة والراس فى قوة ، وقد تغيرت ملامحنا وانغمرت هيئتنا بالتراب الناعم الرطيب ..

وفيما كنت أتلقى ضرباته رأيت خيـال كاب مستدير مضـلع يزحف على الأرض برقبة سوداء سرحة ، فخيل لى انه شاهـد مقبرة فزلزلنى الرعب من زحفه المستمر ، الذى ما لبث حتى اكتمل فى هيكل جسد اسـود كالوطواط مجسد فى ضوء القمر ، متقمطا بالسترة المحزقـة تحت حزام عريض ، وعصـا التأديب تتدلى من الحزام . لبرهة وجيزة غامت عينى ، فلما فتحتهمـا وجدت الشرطى يقف امامى بلحمه ودمه . صار ينقل البصر بيننا وبين هـذه التى لا تزال متكورة على نفسها تولول بأسى فاجـع مرددة : استر يارب ! استر يارب ! . .

شعرت بقليل من الراحة ، لكن جوعا أبديا كافرا كانت تفح به عينا الشرطى ، الذى راح يردد فى زراية واستهجان لا يخلوان من هزل مبتهج « الله الله ! ما شاء الله ! ما شاء الله ! » . ثم كتفها فى حنو ، ثم سالها بلهجة حاول أن يجعلها تبدو قانونية :

ـ « اسمك ايه يا شاطرة ؟ ! ايه حكاية الولدين الصايعين دول معاكى ؟ !» .

فباعدت وجهها عنه مدارية عينيها بيديها مندمجة فى البكاء ، فأخذها فى حضنه ، فاذا بها تستكن فيه ، فاذا هو يقبلها فى شعرها ، ثم فى جبينها ، ثم فى شفتيها ، ثم لا يدرى بنفسه الا وقد انطرح فوقها كالديك الشركسى الحامى ، كالثور الهائج ، وصارت يده اليسرى تفـك ازرار سرواله فى لهاث فيما يده اليمنى تحيط بجسـدها . .

اكلنى الغيظ ، وصار الولد يفلفص منى ليجرى اليه لكننى صرت من شدة الغيظ أضرب فيه وصار من شدة الغيظ يضرب فى ، صرنا نمزق فى لحم بعضنا بقسوة مريعة وصوت الفتاة يزلزلنا متأوها متألمـا محتجا ثم نشوانا يتنكر فى الاحتجاج . وكان الولد يشير من تحتى بذراعه قائلا للشرطى فى لهجة باكية :

ـ « حاسب الجاكتة يا ابن ديك الكلب ! » .

مدينة السلام ـ مساء الجمعة ٢٧ اكتوبر سنة١٩٨٩

ســارق الفــرح

الواد « عوض » ابن خالتى ما صدقنى ، لمــا قلت له أن ثمن الحذاء الذى اشتراه أخوه « مطر » أمس الأول ، يصلح أن يكون مهرا يدفعه لعروسه معشوقة قلبه « وهيبة » ابنة « عم بيومى » منادى السيارات الساكن وراءنا فى نفس العشش ٠

عوض ابن خالتى يحب وهيبة منذ كنا اطفالا صغاراً ، فعم بيومى طول عمره يسكن حجرة مجــاورة لحجرتنا أيام كنا نسكن فى بيوت ، فى حى داخل البلد . ولمــا قالت لنا الحكومة ذات يوم أن هذه البيوت التى نسكنها آيلة للسقوط ، لم نصــدقها . ولمــا أخرجونا بعدها بالقوة ظللنا نبيت فى العراء بجوارها شهورا طويلة . فلما انهارت ، أزالتها الحكومة ، لكنهــا وسعت بمكانها الميدان . فجئنا الى هذه الهضبة العالية من تلال زينهم المواجهــة لجبل المقطم ، وأقمنا فوقها هذه العشش ، وسكناها . حمدنا الله أن الحكومة تركتنا فى حالنا ، ولكن بعض الشبان من ذلك الذى يسمى بالاتحاد الاشتراكى ، والذى لم نعد نسمع له اليوم حســا ولا خبرا ، قالوا لنا أن الحكومة اشتكتنا لجمال عبد الناصر فقال لهم : دعوهم وشأنهم . فالقادر منا بنى بالطوب ، والفقير بنى بالبوص والحصير .

عم بيومى رجل غلبان ، انما جدع . وكلنا غلابة مثله وجدعان ايضا ، لكن الزمن ابن قحباء لا يفرق بين الجدع والغلباوى . وعم بيومى عرف كيف يقلب عيشه ، من صبيحة ربنا يمضى نحو الشمس نازلا الدحديرة العالية فى سرعة ، ينكفىء على وجهه مرات ويعتدل . بعد دقائق يصير فى قلب المدينة ، فى الوسعاية التى يفرض عليها خفارته ويسمونها الموقف ، حيث تركن عشرات السيارات ثم ترحل ، لتحل غيرها محلها ، فلا يفعل عم بيومى اكثر من ان يصيح كلما راى صاحب سيارة يشرع فى فتحها : آيوا . . أ . . ه . ثم يهرول نحوه فيمسح له زجاج السيارة ، وينزل زجاج النافذة ويمضى قائلا : هات ورا . . اكسر العجل كله بسلامة الله . وصاحب السيارة يجده أحسن من غيره من « الشضلية » الصياع الذين يفرضون اتاوة على كل سيارة بدلا من سرقتها وتشويهها فيعطيه البريزة أو الربع جنيه كله .

يعود عم بيومى آخر النهار متعشيا . الله يكرمه ؛ لديه زربة عيال لا شغلة لهم ولا مشغلة ، فكلهم بنات ما عدا ولدين اثنين صغيرين . وله الشكر على كل حال ، فقد رضى أن يزوج ابنته وهيبة أجمل بنت فى العشش كلها لعوض ابن خالتى أفقر خلق الله تما .

عوض ابن خالتى هو الآخر لا شغلة له ولا مشغلة ، انما هو طيب والله ، قلبه ابيض ، غير انه شرانى ، مخه طاقق لا يصبر على التفاهم بالراحة . المصيبة أن طيبة قلبه لا تظهر الا بعد أن تقع المصيبة . وكم قلنا له كلنا : ما ينفع الناس من طيبة قلبك اذا كانت لا تظهر الا بعد أن تضرهم وتسبب لهم الأذية ؟ ! ولكن هذا طبعه ، من يومه ، وكل أهل العشش يعرفونه ويعاملونه بالراحة وطول البال . وبعد انصرافه يستعيذون بالله ويقولون :

لو كان هادىء الطبع قليلا لفتح الله عليه بشغلة تدر ذهبا مثلما لأخيه « مطر » ، وربما أكثر ، اذ أن الولد شكله جميل وله سوالف طويلة منسقة ، حتى أن كل من يراه ينخدع فيه ويظنه ابن ناس .

كل واحد من الناس له صنعة واحدة . اما عوض ابن خالتى ففى يديه ستون صنعة لكنه لا يفلح فى اى صنعة منها . فمرة اقابله مبقع الثياب بالبوية ، ما الحكاية يا عوض ؟ يقول : « باشتغل مع العسال فى الدوكو » . مرة أخرى أقابله مزيت الثياب بالشحومات ، يقول : « اشتغلت مع حسن الميكانيكى » . ويوما أراه مع عربة انابيب البوتاجاز فى حوارى البلد ، ويوما آخر سارحا بين السيارات بفوط صفراء وقطع كاوتشوك ومناديل كلينكس ..

عمرى ما رايت معه مائة جنيه كاملة . دائما يشتكى لى . ولو كان الود ودى لساعدته . العين بصيرة واليد قصيرة . كل ما أحتكم عليه هو ترابيزة البخت هذه ، أفردها واطويها كما يحلو لى . املأها كل يوم بالبخوت ، عين فيها عسلية ، عين فيها طوفاية ، عين فيها قرش ، عين فيها ملبسة وحبة فول سودانى . اسرح بين حوارى العشش وقرب البيوت الخارجة عن المدينة .

انا يا صاحب ترابيزة البخت جمعت ذات يوم مائة جنيه كاملة ، ولكن عيالا ملقطين أولاد وسخة ضحكوا على واخذوها منى فى لعبة قمار . نهايته ، اللهم اخزك يا شيطان . قال لى وقال العيال : العب ثانية فربما كسبتها لكننى أخزيت الشيطان . ومن يومها لم اذهب الى الدحديرة الخلفية عند جذوع الأشجار الجرباء العجوزة . ومن يومها أيضا لم افلح فى تجميد مائة جنيه كاملة فى جيبى . مستورة والحمد لله ، فحين تنفقىء كل عيون

البخت فوق ترابيزتى اطويها وأعود الى العشـــة ، فالقى بالألواح الفارغة لأمى العجوز ، كى تتسلى بملئها من جديد ، وتلصـــق فوق اللوح فرخ ورق . اعطى لأمى الغلة محتجزا لنفسى الفرق مع المصروف . فأمى تظن اننى أبيع العين للطفل بقرشين ولذا فهى تحاسبنى بعدد العيون قرشـــا مضاعفة . وأنا قد فتح الله مخى فى الأيام المـــاضية ، فدخلت منطقة فيها ثلاث مدارس . تلكأت حولها ، فهجم الأطفـــال على ، فصرت ابيـــع لهم العين بخمسة قروش فلا يعترضون . ومن يومها يكرمنى الله فى ساعة زمن . ومع ذلك ، لم تتجمع المـــائة الجنية مرة ثانيـــة ، العمليـــة أصلهـــا يا دوبك .. انزل المدينـــة نزلة واحـــدة ، ارى خيرات الله على الأرصفة ، وفى محـــلات يلذ لى أن أدخلها ولو للفرجة . واراني عائدا من المدينة اصعد الهضبة مهدود الحيل من ضياع قروشى فى الفرجة فقط من غير ما احصل على شىء مما تمنيت لو أذوقه .

يعز على ان يكون عوض ابن خالتى معذورا فى قرشـــين . ودمى يأكلنى لمـــا يكون المبلغ اكثر من مائة جنيه بخمسين . فاذا أنا حدثت أمى ورضيت هى أن تسلف ابن اختها ، فسيكون ذلك من رسمال ترابيزة البخت . مع أن هـــذا شىء أصعب من أن نجد المبلغ ملقى على قارعة الطريق .. فمن اين يجىء عوض ابن خالتى بالمبلغ المطلوب ؟ ..

ربك والحق ، عوض ابن خالتى لابد له من تدبير المبلغ بأى شكل ان كان يحب وهيبه حقا ويريدها زوجة . فالولد « شطة » ابن « عدولة » الملاية كان قد هاجر الى العراق فمكث هنـــاك أعواما بائعا سريحا . جمع مبلغا كبيرا ، وجاء ينطح فى مستقبل عوض ابن خالتى : بعث يخطب وهيبة ، ويعشمها ببناء حجرة بمنافعها بالطوب الأحمر مكان عشتهم البوص . وهيبة لم تغرها

الفساتين التى لوحت بها أمه لها ، ولا الملابس المستوردة التى تظهر كل ساعة على كتفيه ، ولا السجائر الأجنبية التى يشعلها على الدوام بولاعة مذهبة . ووهيبة تلوى شفتيها باشمئزاز وهى واقفة امام الفرن الطينى الرابض جوار عشتهم بين شجرتى كافور كبيرتين ، ثم تهزكتفيها وتدخل العشة بين قوافل البط والدجاج والاوز ومعزتين وثلاثة خرفان واربعة كلاب وقطتين .

فى هذه العشة المليئة بكل هذا ينام اثنا عشر فردا هم عم بيومى وأولاده ، مع العرس والفئران والقطط والثعابين المعروف أماكنها . كل يتجنب الآخر ولا يعتدى على الآخر . انه الستر ودعاء الوالدين . والكل فى النهاية يبيت متعشيا بالصلاة على النبى .

عدولة الملاية التى كانت البارحة تمشى خافضة الرأس ذليلة ، تلقى صباح الخير ومساه على كل دابة فى الطريق ، وتلف تستلف جنيها أو اثنين ، تسأل عن قطعة خميرة ، عن المنخل ، عن فرخة ضالة ، عن ذكر بط وفى يدها بطة تريد لها لقاحا . عدولة هذه ارتفعت قامتها فجأة ولفت نفسها فى ثوب متسق كأنها من الستات المحترمات ، وطرحة سوداء من الحرير اللامع حول وجهها الملىء بقشف الهموم كقشر السمك ، وبات من حقها أن تكثر من المرواح والمجىء أمام عشة عم بيومى ، يأكلها قلق الانتظار . لقد أخبرها عم بيومى أنه موافق ولكنه سيرد عليها بعد أن يتكلم مع ابنته كلمتين صغيرتين فى السر . وهى تعلم أن وهيبة غير موافقة على الزواج من ابنها ، وواثقة أن عم بيومى يخشى غضبة عوض ابن خالتى غير أنه رجل ضرس ، بارم ؛ ولافف . وتعلم أيضا أنه غير موافق ولا يستطيع أن يوافق حتى لو دفعت عدولة مال قارون مهرا لابنته .

عم بيومى نفسه يعرف ان رايه لن يكون مجرد راى فى زواج ابنته من اى شخص كان ، بل انها مسألة ينتظرها أهل العشش كلهم ويتشوقون لمعرفة نهايتها : كيف يتاتى لعوض الخائب أن ياخذ وهيبة النتاية ؟ وهل المسالة حب حقيقى أم لعب عيال واونطة ؟ وعم بيومى متأكد من ان الولد يحب البنت ، والبنت تحب الولد ، وسوف يثبت لأهل العشش أن الحب لم يكن لعب عيال والا كان هو نفسه رجلا بقرنين عديم المفهومية .

الذى فات على عدولة ام شطة ان تفهمه ، هو أن عم بيومى أعطاها كلمة الموافقة المهزارة فى لحظة عرف الخبيث كيف يستغلها ، اذ أن ذهاب عدولة الى عشة عم بيومى لتخطب ابنته وهيبة لابنها شطة العائد لتوه من العراق ، لم يكن ليمر هكذا . الخبر انتشر بين العشش كالشرارة بين الحطب ، تناقلته أفرع الكافور العجوزة الجرباء فى الدحديرة الخلفية ، حيث يمتلىء قاع الدحديرة بكتل من الظلام لو دققت فيها لرأيتها رجلا متقرفصا يقضى حاجة أو قعدة قمار أو مجموعة شبان اصطادوا مومسا ضالة او أفنديا غشيما وراحوا يجردونهما من كل شىء .

اقطع ذراعى ان ما كان عم بيومى هو الذى شجع عدولة على الفكرة وجراها على التقدم علانية للخطوبة . كان يسمع الخبر وهو عائد يركض مترنحا لاهثا بعد ما بذله من جهد فى صعود الهضبة ، فيكمل لهالة باسما عن سنة يتيمة باقية تتدلى من سقف فمه الواسع كالخطاف ، كالخديعة اللطيفة ، ويكون قد دخل الشارع العمومى للعشش وحود أول دويدة على اليمين متخطيا فناء القردانى وعشة الشحاذ العجوز وحظيرة خنازير المعلم عطا الله الصعيدى المتوطن قبل الجميع ها هنا .. فما يكاد عم بيومى يجلس على التعريشة المصنوعة من الحجارة المعدة لمواسير

المجارى حتى يمسح على ساقيه السوداوين المعروقتين ، ويقول بصوت عال وفى جدية متعمدا أن يسمعه الجميع :

ــ « وماله ! هو عيب ؟ راجل ملو هدومه !

الراجل عيبه جيبه ! واحنا فى ديك الساعة ؟ ما هى كدة تبقى قد بعضها ! الملاية تبقى حماة بنت المنادى ! » ..

وهكذا تجرأت عدولة وجاءت تجر خلفها ابنها ورجلين احدهما قرداتى سابق ، ومهنته الحالية شراء الأشياء من بورسعيد وبيعها للناس فى العشش . اما الثانى فهو خفير فى شركة الملح والصودا . لبسوا جميعا أهم ما عندهم من ثياب ، ونثروا كثيرا من السجائر الأجنبية التى وزعها عليهم شطة ، وتكلف عم بيومى شايات وقهاوى وحاجات ساقعة وسجائر ــ أجنبية أيضا ــ لم يكن لها أى مبرر . وشكروا جميعا فى الولد : باسم الله ما شاء الله كسيب وفالح وابن يومه . ولم ترتفع من داخل العشة همسة واحدة تدل على الترحيب ، بل كان عم بيومى هو الذى يقوم بنفسه فيحضر الشايات ، ويعيد الكوبات والصوانى ، التى ما ان رآها القرداتى السابق حتى تأكد أنها من بين ما باعه لزوجة عم بيومى من مجلوبات بورسعيد ، فشعر بزهو لبرهة ثم قال :

ــ « سمعونا الفاتحة امال بقى ! » .

لكن عم بيومى شوشر عليه بصنعة لطافة ، قائلا انه قبل الفاتحة هناك شىء يجب أن يقوله ، ثم لا يقول شيئا . وفى كل برهة يذكر بأن هناك شيئا يجب أن يقوله ، ثم لا يقول شيئا ، وأن كان مع ذلك لا يكف عن الكلام ، لكن كلامه ما يلبث حتى يذهب فى واد آخر ولكن بطريقة مشوقة توهمك أنه بعد كل هذا الكلام

المنمق المتسق الطويل سوف يقول فى النهاية شيئا شديد الاهمية ، لكنه لا يقول شيئا . فان قاطعته لتستفسر عن شيء فانه يقاطعك صائحا بان هنـاك شيئا يجب ان يقوله .. خل بالك معى.

الا انه اخيرا قال شيئا ، فى اللحظـة المناسبة ، حين كان الخاطبون قد نهضـوا للانصراف . وكنت وجواسيس عوض ابن خالتى قد تابعنا كل شيء وسمعنا كل شيء . واذ هو يودعهم حتى الفرن الرابض بين شجرتى الكافور قال بصوت عال و هو يعلم أن أشباحنا ذائبة فى الجدران :

ـ « اهلا بيكى يا ست عدولة ! معنديش اى مانع ! بس حارد عليكى بعد يوم ولا اتنين ! ما تقلقيش ! » ..

ثم ارتد نحو العشة فى ركض هادىء يشمله رضـاء وزهو ، حيث أيقن أن قنبلته قد أصابت قلب الهـدف ، وأن لغاه قـد وصلت الى من يفهم الكلام من الجارات الموجه لها الكلام .

وهـكذا بات على عوض ابن خالتى ان يضرب الأرض لتطـلع بمائة وخمسين جنيها من تحت طقاطيقها .

الولد أبن حلال ، متربى ، لا يسرق ولا يفكر فى الحرام . عمره ما سرق ، لكنه قال‌لى انه مستعد هذه المرة لأن يسرق ، المشكلة ماذا سيسرقه ، ؟ ! .. وهـذا كلام يدل على أنه طيب وغشيم ، فاللص يجد دائما ما يسرقه ، وعوض ابن خالتى لا يجد مائة وخمسين جنيها يحل بها مشكلته الأزلية . نعم هى الآن مشكلته الكبرى . ومن يدرى ؟ ربما لو تزوج من وهيبة استكن قلبه فيستكن سره ويهدأ باله ويستقر فى شغلة واحدة تدر عليهما رزقا حلالا . قلنا هـذا كلنا ، ولكن القول وحده كالعادة لا يفيد.

ساعتها كنا جالسين على مقربة من عششنا ، بين شلة من اشجار الكافور ؛ والأرض من حولنا متميزة بالتربة الخشنة السوداء الرطبة المشبعة برائحة روث الخرفان . وكان عوض ابن خالتى لابسا بنطلونا من الجينز وفانلة نصف كم بدون ياقة ؛ مرسوم على صدرها أنور السادات ، وعلى ظهرها حيوان اشبه بالفهد الأحمق يندفع فى الفراغ اندفاعة مجنونة ليس امامها ولا من خلفها أو تحتها سوى الفراغ الماحق الساخر ، قد اشتراها من القرداتى السابق بالتقسيط المريح . وكان القمر يتساقط بين أوراق الكافور ويسقط معها على الأرض ، وأضواء السيارات تبرق فى القاع البعيد متلاحقة خاطفة فى سيل متدفق على طريق صلاح سالم ، الذى يحزم الهضبة ويطوقها من ثلاث جهات ، رائحة جائية لا توقف أو نهاية . والفضاء يئز بزلزال خفى ، تتلقاه فروع الأشجار كهوائيات التليفزيون ، وتبثه فوقنا رعدا مخيفا يمزق القلوب . وكانت العشش كلها تبدو أمامنا فوق الهضبة كورم خبيث مليء بالجحور والسراديب ، ينام فيها عشرات الفتيات المحتجزات بشبكة أو عقد قران أو قراءة فاتحة، ينتظرون فك عقدة السروال فى الحلال المباح لكل دابة ، وعشرات الشباب مثلهن فى قلب الليل يحلمون براقصات الأفلام ومذيعات التليفزيون ، ويضاجعون اناث الدواب وراحات الأيدى . وعشرات غيرهم من الأزواج يتحينون فرصة للمضاجعة بعد خمود الذين يشاركونهم نفس الفراش والرغبات المحمومة تتلوى كالثعابين زاحفة بعضها فوق بعض فى نعومة وزفلطة .. فما الذى تريد أن تفعله الآن يا عوض يا ابن خالتى ؟ ! ستضيف الى عشتكم كائنا آخر ! تقول انك ستستقل وحدك بحجرة وهم جميعا مرحبون بذلك حتى تتيسر لك الأحوال بسفرة الى أى بلد ، ولكن ها هى الأحوال تريد أن تبدأ معك بالعسر لا باليسر ..

ملت على عوض ابن خالتى وقلت له :

ـ « تعرف ان أخاك مطر اشترى حذاء أمس الأول ؟ ! » .

قـال :

ـ « نعم .. أوراه لى » .

قلت :

ـ « ما رايك فيه ؟ » .

قال بضيق :

ـ « احنا فى ايه ولا ايه ؟ ! » .

قلت وانا أعزم عليه بسيجارة سوبر :

ـ « تعرف كم ثمنه يا عوض ؟ » .

شـوح قـائلا :

ـ « يقول انه حذاء يلبسه لا أدرى من ومن ! باختصـار هو حذاء غال ! ولكن ما لنا به الآن ؟ ! » ..

قلت رغما عنى :

ـ « الم يقل لك ان ثمنه مائة وخمسون جنيها ؟ » ..

هب عوض ابن خالتى واقفا يلتمع الذهول والشر فى عينيه. ورايت فى عينيه بصيصا ما ، يتصـل بعينى القمر الساجيتين من خلل الكافور ، ثم حول ذهوله الى تشويحة هزار ، وقال :

ـ « يا شيخ بلاش معر ! لقد ضحك عليك ! الحذاء لا يزيد على ثلاثين جنيها لو ضربه الدم ! حتى لو كان من الذهب الخالص !·

امى لو سمعتك الآن لماتت بالسكتة القلبية فى الحال ! اياك ان تقول هذا الكلام امامها » ..

ضحكت لأنى اعرف هذا ، وقلت له :

ـ « لكن ثمن الحذاء مائة وخمسون جنيها بالكامل يا عوض ! » .

جلس كالذى وقع من طوله :

ـ « وكيف عرفت ؟ » ..

فجعلت اقول له كيف عرفت ...

مطر ابن خالتى ولد مفتح من يومه ، وشاطر ، فهلوى وابن بلد وعلى كيفك . كنا ننظر اليه على انه الولد البايظ الفاقد، الا ابوه زوج خالتى، كان يقول ان مطر هو الوحيد الذى سينفع فينا كلنا ، اذ هو ولد نزيه ابن دنيا ، والدنيا دنية والزمن خداع ، وابن الدنيا هو الوحيد الذى يستطيع قهر الزمن وخداعه ..

وقد بات واضحا ان مطر ابن خالتى سيركب ظهر الدنيا من خلال الدربكة . سفروت خفيف الدم مطر ابن خالتى ، عشق النقر على الدربكة بسبب القرداتى السابق وزملائه القرداتية الذين كانوا يستوسطونه فى بيع او شراء قرد صغير السن ، يعهدون اليه بتدريبه لهم ، فكان يقضى النهار يدق فوق الرق الصغير نغمات يتراقص عليها القرد . الرق والعصا هما الأداتان اللتان بهما يسير القرد على عجين الفلاحة فلا يلخبطه . من حسن حظ مطر ابن خالتى انه لم يعشق مهنة القرداتى واكتفى بعشق النقر على الرق . وكان القرداتى يستعين به فى النقر على الرق فيما هو ممسك بالعصا بيمناه وسلسلة القرد بيسراه . مطر ابن خالتى كلما راى فرحا انحشر بين الفرقة وربض بجوار الطبلة حتى

عرفوه . اشترى لنفسه طبلة ثمينة . طلع مع فرق العوالم . كان لهلوبة ، يهز بالنقر السريع المتقن اثداء الراقصات العواجيز وخصورهن المتخشبة ، يبعث فيها شبابا يجنن مساطيل وسكارى المتفرجين ..

الحكاية بدات فى لعبة فى فرح ، والسبب عم بيومى . كنا فى الفرح فى هذه المدينة المتكومة على نفسها فى سفح الهضبة ، وهو لابن احد تجار الفلال . عند النقوط يظهر دائما عم بيومى ، وحين يفرح الجميع ، فهو أحسن واحد يقدم النقطة نيابة عن الآخرين ، اذ يعطيه المعلم عشرة جنيهات أو عشرين أو ثلاثين قائلا له أسماء الذين سينقط عليهم من الحاضرين وأصحاب الفرح . عم بيومى يأخذ حق صاحب النقوط جيدا ، كل ورقة بعشرة لها وقفات طويلة يردد فيها اسم المعلم عشرات المرات ، وأسماء المعنيين بالتماسى عشرات المرات ، ويطلب سلاما جمهوريا لكل اسم ، وموالا لكل معلم . كل فرق العوالم يستبشرون به ، حتى النبطشى الذى يجمع النقوط للفرقة يفرح به ويردد خلفه كل كلمة يقولها كالببغان . والفرقة تجامل عم بيومى وتعطيه آخر السهرة ثمن الدخان . طلع عم بيومى ليلتها على خشبة المسرح رافعا يده برزمة من عشرات الجنيهات كورق الكوتشينة فى يد لاعب حريف . توقفت كل الأصوات فى انتظار ان ينطق . هتف بأسماء المعلمين واحدا وراء الآخر ، ثم توقف قائلا أنه سيهدى المعازيم هدية خاصة :

ـ « اليكم فاصلا منفصلا من العزف على الدربكة للطبلجى المعجزة مطر ! » ..

فلما ظهر مطر من خلفه صبى صغير سفروت هاج الناس بالصياح والتشجيع . وقف مسندا قدمه على الكرسى ليطول قامة

الميكرفون . راح ينقر على الطبلة نقرا جميلا ، يهتز جسـده كله وينتفض ، حتى لقـد نهضـت الراقصـة واندمجت فى الرقص ما يزيد عن نصف ساعة ، والناس فى عجب ودهشة . فى نهاية الفرح أخذته معها ، فاذا هى راقصـة تؤدى نمرا فى كازينوهات بشارع الهرم . واذا بها تضمه الى فرقتها ، ليصبح بعد شـهور قليلة طبالها الخـاص الذى تعشقه . تحول مطر ابن خالتى من ولد سفروت صـدىء الوجه والثياب الى شـاب أنيق ، أحلى وأشيك من الممثلين . صار كل يوم يطلع علينا بمطلوع جديد . كل يوم نرى على جسده قميصا جديداً غريب الشكل ، أو بنطلونا محزقا . ودائما هنـاك موضـة جديدة فى اللبس نراهـا على جسده ويحكى لنا عنها ومنه وحده عرف شباب العشش أسماء الأقمشة والمـاركات الشهيرة فى القمصـان والفانلات . يتفرج عليه أهل العشش كلما رأوه يستعد للنزول وقد نتف ذقنه وسرح شعره الأكرت الهائش ورفل فى رقيق الثياب والكعوب العالية ـ قعر كباية حتى أننا فى الأول كنا نخجل منه ومن منظره الذى لا هو شاب ولا فتاة ، لكننا رأينا البلدة كلها تلبس هكذا ، فصرنا نفرح بمنظره والوقوف بجواره أمام العشة لحظات ..

فى عششنا ناس كثيرون متعلمون ، حصـلوا على شـهادات عالية ، يعملون فى الحكومة ، تراهم يهرولون فى الصـباح ركضـا فى الدحديرة النازلة الى المدينـة ، يلهثون فى اللحاق بالأتوبيس ويعودون آخر النهار مفسخين كل ذراع فى ناحية . أما مطر ابن خالتى ، الطبلجى ، فانه الوحيد الذى تجىء سيارة الراقصـة لتأخذه ، وتعود به فى مطلع الفجر .

على كثرة عشـق مطر ابن خالتى للملبوسـات المستوردة بالذات فانه لم يعشق شيئا مثل عشقه للأحذية بنوع خاص . لديه منها ما يملأ صندوقا . وكلنا نلبس من ورائه أحذية بالمجان

ليس فيها سوى خدش بسيط أو بعض فشكله . ودائما يقول
انه مضطر لهذا بحكم العمل . فالطبال عنوان الراقصة ، و
الذى يجلس فى الطرف فى مكان بارز من الفرقة ، ولا يجل
الا واضعا ساقا على ساق ليسند الطبلة فى متناول يديه ، ول
فان الحذاء هو أبرز شيء فيه ، اذ هو ممدود على الدوام فى
وجوه المتفرجين عرضة لأن يتفرجوا عليه برغمهم .. فلابد اذن
أن يكون الحذاء ثمينا غاليا متينا جميلا ، فالناس فى بلادنا كما يقول
تعرف الناس من أحذيتهم وتحترمهم تبعا للحذاء الذى فى
أقدامهم .

لكن آخر ما كنت أتصوره أن يشترى مطر ابن خالتى حذاء بمائة وخمسين جنيها . لو كان هو الذى قال لى الخبر ما صدقته . لكن الصدفة هى التى جعلتنى أعرف .. فقد هبط على ذات ليلة بسيارة مرسيدس فاخرة لم تأنف من دخول العشش والركنة بجوار عششنا . صحانى من النوم ، فرأيت مجموعة كبيرة من الشبان والبنات اللائى لا فرق بينهن وبين الصبيان . ظننت أنها الحكومة . فلما رأيت المرسيدس عرفت ان ضيوفى أغنى من الحكومة بكثير . قلت لعلهم تجار المخدرات الذين يدفنون بضاعتهم فى أماكن سرية ها هنا ، وخفت ، لولا أن مطر ابن خالتى صاح بى هاتفا من نافذة الكرسى المجاور للسائق . فذهبت اليه مرحبا . فقال لى انهم يريدون التحشيش الآن بأى شكل . أهلا وسهلا ان كان الصنف معكم . قالوا ان كل شيء معهم وليس ينقصهم سوى المكان والعدة ..

فتحت لهم العشة ، وفرشت فى وسطها حصيرا ، تربعوا عليه جميعا فى حبور ، وصنعوا ضجيجا كبيرا مزعجا أحضرت الجوزة والمنقد والحجارة والماشة والقوالح . شاركنى بعضهم

فى توليع النار وتكريس المعسل الذى جاءوا به معهم فى أكيــاس نايــلون . .

وسط سحب الدخان الأزرق ضحكوا كثيرا وتكلموا كثيرا ؛ وفتح مطر ابن خالتى كيســا من البلاستيك ، نزع منه علبــة سميكة انيقة تعتبر تحفة للفرجة . فتحها فاذا هى مبطنة بالقطيفة كعلبة المصحف عدم المؤاخذة . اخرج منهــا كيسا من النايلون تبينت بداخله حذاء ذا منظر أسود خلاب ، يشد البصر من أول نظرة . أول شىء جاء فى دماغى من منظر الحذاء هو أننى لو لبسته فسوف أستخسر المشى به على الأرض فى عششنا . وعجبت كيف يهون مثل هذا على أقدام تخوض به فى وحل ، ان مثل هــذا الحذاء لابد أن يكون معمولا للفرجة فحسب . لم أقل هــذا الكلام طبعا حتى لا يضحكوا على ويتهموا مطر ابن خالتى بأن أهله لا يفهمون فى الأحذية . غير أن الضربة القاضية جاءتنى حين أخرج مطر ابن خالتى فردتى الحذاء من كيسها النايلون ، وأخذ يعرضهما على الجالسين ، الذين راحوا يتأملون الحذاء بشغف واعجاب وحسد ، ويباركون للأرض التى ستمشى هى عليها . قالوا جميعا :

ــ « بكم يا مطر ؟ » . .

قال مطر :

ــ « يساوى كم ؟ » . .

قال احدهم فى تحفظ :

ــ « سبعون ؟ ! » . .

رد آخر مستنكرا بشدة :

ــ « سبعون ماذا يا رجل ؟ ! قل خمسة وثمانين مثلا !! » . .

قال ثالث كالعارف ببواطن الأمور :

ـ « هذا النوع بالذات لا يقل ثمنه عن مائة !! » ..

فصاحت احداهن :

ـ « هذا الحذاء لم ينزل منه فى مصر سوى اثنين ! واحد لصاحب الكازينو ! وهذا !! » ..

فبدا على وجه مطر ابن خالتى ان هذا الكلام شبه صحيح واعتدل واحد رابع نحيف الجسد يبدو كحكيم معلول ، لكنه كان اكثرهم اناقة ؛ ويبدو مطر ابن خالتى امامه خادما ، ويقولون له المايسترو ، قال هذا المايسترو وهو يشد نفسا من الجوزة التى امسكتها له متقرفصا امامه كالقرد حتى ياخذ راحته فى الشرب :

ـ « هذا النوع من الأحذية عالى ومشهور جدا ! وثمن الجوز منه لا يقل عن مائة وخمسين جنيها ! الا مليم لأ !! » ..

فانتشى مطر ابن خالتى فجاة ، وجعل يعيد الحذاء الى الكيس الرقيق ، والكيس الى الصندوق ، والصندوق الى الكيس الكبير صائحا :

ـ « فعلا ! انت جبت الفايدة ! هو بهذا السعر فعلا ! » .

فاخذت انقل البصر بينهم ، ابحث فى وجوههم عن الفشر والهزار فلم اجد الا جدا فى جد ، بل انهم انطلقوا جميعا يباركون للأرض ، ويوصون بالمحافظة على الحذاء من البهدلة فى ارض هذه المخروبة ـ اى مصر كما يسمونها ـ المليئة بالخراء والنيلة . وقال من يدعونه بالمايسترو ان لها لورنيشا خاصا وأنه يعد بأن

يحضر له علبتين منه فى سفرته القادمة الى الخارج . فشكره مطر ابن خالتى وقال وهو يربت على كيس الحذاء فى حنان عظيم انه سوف لن يلبسه الا فى السفرة التى تنوى الفرقة أن تسافرها قريبا مع الراقصة الى الدول العربية . لحظتها أحسست لأول مرة فى حياتى أننى انسطلت ولم أعد قادراً على الخدمة ، فتكورت منزويا فى ركن بعيد أتابعهم وهم يقولون عجبا .. فهذا القميص بسبعين جنيها ، وهذا البنطلون بمائة ، وهذه البلوزة بمائتين ! .. وكان شجر الكافور المحيط بالعشش يبث فوقنا رعدة الزلزال الخفى الذى يضطرم بعنف من تحتنا . وكنت ارتعش ، فرفعت راسى عن ركبتى ونظرت تجاههم لبرهة فلم أجد احدا منهم يرتعش أو يشعر باى شيء .

قلت هذا كله لعوض ابن خالتى ، وانا أسند ظهرى الى شجرة الكافور . فرأيت عوض يشرد ويبدو عليه الهم الشديد لأول مرة فى حياته . الولد الشقى المهزار الذى يتعارك وهو يبتسم ظهر لى لحظتها تعيسا كاليتيم المنكسر لا سند له فى الدنيا ..

عوض ابن خالتى ، ومطر ابن خالتى ايضا ، احبهما معا ؛ لكننى فى تلك الليلة بدأت أشعر نحو مطر بمشاعر غريبة لست أفهمها ، ونحو عوض بمزيد من الصداقة والحب ، رغم أننى لا انتفع منه مثلما أنتفع من مطر بحذاء قديم أو بنطلون أو ولاعة بوتاجاز أو تحشيشة . وكنت أتمنى لو كان الخير الذى يرتع فيه مطر ابن خالتى قد تحول نصفه الى عوض ابن خالتى . فهو على الأقل ينفعنى فى الزنقة ، وما يكاد يسمعنى اتخانق مع احد حتى يخف الى بمطواة أو سنجة ، وان لم يجد فالبونية والدماغ أقوى عنده من اى سلاح ..

فجاة وقف عوض قائلا :

ـ « تستطيع ان تثبت لى صدق هذا الكلام ؟ » ..

وسكت برهة ثم قال :

ـ « أنت الوحيد الذى يقدر على ذلك ! أريد أن أتأكد من صحة هـذا المبلغ ! اتأكد فحسب ! فان كان صحيحا فانه يصير اعجوبة نفتخر بها امام العيال فى العشش ! » ..

قـلت :

ـ « وكيف أثبت لك ذلك يا عوض ؟ انما قلت لك ما سمعته أثناء التحشيش فى عششنا » ..

قال عوض وهو يضغط على كتفى :

ـ « أعرف اين يخبىء الحذاء ! الليلة ساخفيه بعيدا ! وفى الصباح ننزل انا وأنت لنفصله فى محلات شارع الشـواربى التى يقولون أنها متخصصة فى المستورد ! » ..

ظننته يمزح ، فوافقته . لكنه قبل طلعة الشمس طرق باب العشة واطلق صفيره المعروف بيننـا . خرجت اليه ، فاذا هو ممسك بالحذاء ملفوفا فى جرنان . قال : بنا . صحت دون أن ادرى ، بنا . فى نفس الوقت صحت فى امى أن تجهز لى ألواح البخت حتى أعود . ومضيت معه دون تفكير وقد سحرتنى المغامرة شبطنا فى ثلاثة اتوبيسات واحد بعد الآخر . صرنا فى قلب المدينة فى شارع الشواربى .

دخلنا محلات الأحذية الكبيرة . زعمنا أننا قادمون من العراق حيث نعمل هنـاك باعة ملابس ، وأن أحد أقاربنـا يريد ابتياع

هذا الحذاء منا ، فكم يكون سعره الحـالى فى مصر حتى لا نظلمه ولا يظلمنـا ؟ ..

كل المحلات نظيفة وفيها أفندية وفتيات نظيفات ، تفوح منهم جميعا روائح الفل والياسمين لكنهم جميعا تنط اللصوصية من أعينهم ووجوههم الناعمة . بعضهم ردنا بغلظة ورفض التكلم . بعضهم نظر فينا بطيبة وفى الحذاء بحسد ، ثم لوى شفتيه فى أسف دون أن ينطق . بعضهم قلب الحذاء فى استهانة وفصله بتسعين جنيها . بعضهم قال ان الحذاء تقليد للصنف الأصلى . آخرون قالوا أن الصنف الأصلى نفسه مضروب فى السـوق . وهناك من لوح لنا بالبوليس دون سبب . لكنهم جميعا قد ظهر فى عيونهم ان الحذاء ثمين ، وانهم جميعا يودون لو حصـلوا عليـه بشكل أو بآخر ولو باتهامنا بسرقته منهم . فملت على عوض ابن خالتي وهمست له أن الحذاء بالفعل ليس لعبة ، وأنه يسـاوى المبـلغ .

مشينا فى الشواربى وقصر النيل صامتين ، بين أمواج من البشر ، كلهم يلبسون فاخر الثياب ، حتى تأكد لنا أننا وحدنا الفقراء ، وكان الغضب واليأس يبصمان وجه عوض ابن خالتى بتقطيبة مكلبظة تشبه تقطيبة العيال المجرمين من أولاد الناس الذين نراهم فى الأفلام ومسلسلات التليفزيون . واذا هو يشدنى ليوقفنى ، ثم يشـدنى ثانيـة وهو يستدير عـائدا نحو شـارع الشواربى . انصعت له مستفهما ، قال :

ــ « اظن اننا نستطيع أن نبيع هذا الحذاء ! مادام هنا من يفهم قيمته ! فلماذا لا نبيعه له ؟ ! » ..

ثم أحس منى ترددا ، فصاح بى فى بساطة :

ـ « صدقني انني جننت الآن ! وســوف ابيع هذا الحذاء لأتأكد بنفسي أن الحذاء يمكن أن يساوى مبلغا كهذا ! وأن هناك من يدفع !! » ..

قلت :

ـ « وبعد أن تتأكد ؟ ! » ..

قــال :

ـ « ليس يهم بعد ذلك شيء ! المهم أن أرى بعيني وأقبض بيدى هاتين لكى أصدق ! » ..

قلت :

ـ « أما يكفيك ما سمعنا ورأينا ؟ » ..

قــال :

ـ « سأظل أظن انهم جميعا يضحكون علينا ! من أدراني انهم جادون فى كلامهم ؟ اننا لم نطلب من أحد أن يشتريه ! لم نر من يضع يده فى جيبه ويخرج النقود ويعدها ورقة ورقة فى مقابل حذاء سيمشى به فى الأوحال !! » ..

صحت فيه مشوحا :

ـ « ومــن أدراك أن من سيشـــتريه ســـيمشى بــه فى الأوحال ؟ ! » ..

صاح مشوحا هو الآخر :

ـ « ومن أين تجيء النظافة اذا كانت الأرض طافحة بها ! ومن أين جاءت هذه الوساخة قل لى ؟ ! ان عششنا انظف من هنــا ! » ..

قلت :

ثم شدني ومضى فى تصميم .

ـ « تبيع حذاء أخيك مطر ؟ » ..

قال بخفة دم ادهشتنى :

ـ « جزمة تفوت ولا حد يموت ! » ..

قلت :

ـ « سيعرف حتما وستكون الفضيحة فى العشش ! وامام وهيبــة !! » ..

قال وفى عينيه بريق جنون لا يعبأ بشيء :

ـ « لا شأن لك ! أنا السارق ام انت ؟ ! » ..

قلت لكى أرضى ضميرى :

ـ « قد تخسر أخاك يا عوض ! » ..

قــال :

ـ « على الجزمة !! » ..

عجزت عن الرد ، فهززت كتفى ومضيت بجواره صامتا قال بعد برهــة :

ـ « تستطيع ان تبيعه لى ؟ » ..

ثم صمت واقفا فى انتظار الرد ، ثم عاجلنى :

ـ « لك خمسة جنيهات عرقك اذا بعته لى ! » صراحــة فرحت ، مع ذلك صحت فيه :

ـ « عيب يا عوض ! نحن اخوة ! » ..

ثم سحبت الحذاء من يده . قال :

ـ « فى أى محل سنبيعه ؟ » ..

قلت :

ـ « محل ايه يا مجنون !! احنا بتوع محلات ؟ ! » ..

ثم صرنا فى قلب الشوارع ..

وجدت صندوقا من صناديق الكهرباء المعدنية مثبتا فى الأرض يشبه الدولاب بدرفتين . فرشت على سطحه الجرنان ، اخرجت العلبة الكرتونية من الكيس الكبير ، فتحتها ، أخرجت الحذاء وأوقفته فى فتحة العلبة الكرتونية بشكل يلفت الأنظار ووقفت انتظر . وعلى مقربة منى وقف عوض .

بعد دقائق بدأ بعض المارة يتوقفون أمام الحذاء يتفرجون ثم ينصرفون بعد ابداء الاعجاب . ثم أخذ كل من يمر يتوقف وينظر ، وبعضهم اخذ يقلب فيه ويبدى علامات الدهشة والغباوة تمهيدا للفصال من تحت درجات السلم . يتملعنون على بائع البخوت ولاعب الثلاث ورقات فى عشش تلال زينهم ، أعرف أن ابن السوق الشاطر الناجح هو من اذا سئل عن سعر الشيء رمى بالرقم فى سرعة وبساطة مهما كان عاليا .. فكنت أقول لمن يسألنى عن السعر كلمة واحدة سريعة كورقة البوستة : مائتين انطقها بكل ثبات وثقة دون أن أعنى بالنظر فى وجه السائل . العجيب أن أحدا لم يندهش ، فقويت ثقتى . كل ما هنالك أن من يستمع الى السعر كان يعيد الفحص فى جدية وتدقيق ثم يعيد وضع الحذاء فى حرص شديد كأنه يضع تحفة البللور ، ثم يبالغ فى شكرنا وهو ينصرف .

شيئا فشيئا بدأ يظهر لنا من يفاصل فى السعر . والفصال يشجع ناسا آخرين على التوقف للفرجة ثم الدخول فى الفصال . الى أن توقف امامنا شاب رفيع القوام أبيض الوجه رقيق الملامح ازرق العينين ، يتكلم بصوت خافت ممرور . قلب فى الحذاء قليلا ثم قال :

ــ « ليس معكما غيره ؟ » ..

قلنـا :

ــ « لا ! » ..

قال مبتسما فى سماحة :

ــ « طبعا ! انه وحده رأسمال ! » ..

ثم أوصل السعر الى مائة وستين ، ووقفنا به ــ آخر كلام ــ عند مائة وثمانين . فحلف الا يزيد . وحلفنا ما جاءت بثمنها . فتركنا ومضى ، ثم عاد بعد برهة ، وأعرج من فوق مؤخرته الممسوحة داخل البنطلون محفظة جلدية ثمينة ، فارتعش قلبى لمرآها . أخرج منها سبع عشرة ورقة من الأحمر العريض ، مدها نحوى قائلا :

ــ « هى آخر ما عندى ! » ..

اندفع الجنون من عينى عوض ابن خالتى ، وقرصنى فى وجهى قائلا :

ــ « حذار أن تعود النقود الى محفظته ! » ..

فتناولت النقود وحشرتها فى جيبى وقد اقشعر بدنى وكدت أطير من الفرح لامساكى بمبلغ كهذا لأول مرة فى حياتى رغم أنها

ليست لى . وضعت الحذاء فى علبته ثم فى الكيس ثم لففتهـا فى الجرنان لفة حاولت أن تكون لفة بائع حريف .

لا استطيع وصف الفرحة التى شملتنا حين أخذنا نهرول عائدين ، تكاد نخفى انفسنا من الأنظار مخترقين ميدان العتبـة بحثا عن الأتوبيس ، لكننا خفنا من اى احتكاك فاكملنـا المشوار سيرا على اقدامنا . عند الدحديرة الخلفيـة للعشش جلسنا نعد النقود من جديد ونتأملها فرحين . هو يسلمها لى بالعد مرة ، وأنا أسلمها له بالعد أخرى ، فى استمتاع : عشرة .. عشرين .. ثلاثين .. مائة . ورغم ذلك ظل وجه عوض ابن خالتى جامدا غير مصدق لمـا حدث .

بنى آدم منا طماع . وصدق من قال أن النقود تعمى العيون عن الواجب . ظهر على وجه عوض ابن خالتى انه يفكر فى لحس اتفاقه ، اذ راح يحسب المبلغ على النفقات المطلوبة منه دون أن يقتطع منه عمولتى التى وعد بها اذا نجحت فى بيع الحـذاء . صراحة اغتظت منه . وبصنعة لطافة أمسكت برزمة النقود ورحت أعيد تسليمها له ورقة ورقة . فلما وصلت الى المائة والخمسين طويت الورقتين الباقيتين ودسستهما فى جيبى قائلا :

ـ « هذا حقى يا عوض ! كان المفروض أن تعطينى خمسـة جنيهات من المـائة والخمسين ! لكننى تنازلت عنها لك ! معك الآن ثمن حذاء أخيك كاملا بالمليم ! الباقى هو عرقى يا عوض ! الله الله على الجد » ..

اسود وجهه لبرهة سريعة ، ثم ابتسم رغما عنه ، وقال :

ـ « وماله يا خويه ! المصلحة واحدة وأنت تشكر ! » ..

وكان النهار قد انتهى ، حين تركت عوض ابن خالتى عند عشتهم ومضيت الى عشتنـا ، لأجـد الواح البخت مركونـة فى الدهليز ، والترابيزة مطوية بجوارها فى انتظارى ، وامى لم تكف بعد عن استنزال اللعنات على . خيل لى أننى فوجئت بترابيزة البخت ، وكأننى كنت تحررت منها . نظرت اليهـا مبتسـما اجاملها كما أجامل شخصا كنت أعرفه ، وقلت لها فى سرى : والله لن أشيلك على كتفى مرة ثانيـة . وقد نورت الفكرة فى دماغى : لسوف أعمل فى الغد بائعا فى شارع الشواربى ، ولسـوف أشد عوض ابن خالتى معى الى هذه اليغمة الكبيرة . فشوارع مصر تزدحم بالخير والمجانين المستعدين لشراء أى شىء بأى ثمن .

بعد ما تعشيت صعب على منظر عوض ، فخفت أن يزعل منى ، فلحقت به . رافقته الى عشة عم بيومى . استقبلنا بالصياح المرحب ، اقتادنا الى الخن الذى يهجع فيه وحده وقد حرص هذه المرة على أن يغلق الباب بيننا وبين أهله ، كأننا من الضيوف الأغراب ، كأننا مجرد خطاب لابنته . ابتسمنا لبعضنا من فوق كتفيه ، وافهمناه اننا استطعنا بالعافية تدبير هذا المبلغ . فظهرت الشهامة والبشاشة على عم بيومى ، وفتح باب الخن من آخره ، وصاح طالبا الشاى ، ثم تركه مفتوحا بقية الليل .

فى الصباح توجهنا الى صائغ فى حى الجمالية . انتقينـا غويشة ودبلتين قطعوا حـوالى مائتين وخمسين جنيهـا . دفع عوض بالمبلغ على بنك الصائغ قائلا :

ــ « اكتب كمبيالات بالباقى ! » ..

لوى الصائغ بوزه ووقف مترددا . أخرج عم بيومى منديلا معقودا ، فكه من ثمانين جنيها رماها فوق مبلغنا قائلا :

ـ « لا كمبيالات ولا دياولو شوف الباقى كم وتصرف فيه ! » ..

قال الصائغ :

ـ « ناقص عشرين جنيه ! » ..

قال عوض فى مسكنة مزقت قلبى :

ـ « والله ما معى ! » ..

اكلنى دمى ، أخرجت عشرة جنيهات من العشرين التى كسبتها ، قدمتها للصائغ قائلا :

ـ « سايق عليك النبى ! » ..

وقال عم بيومى بلهجة مؤثرة :

ـ « الهى ربنا يكفيك شر المرض ! انه رجل على باب الله ! لو ساعدته فى فرحه تكسب ! » ..

قال الصائغ وهو يغيب النقود فى درجه :

ـ « مبروك ! » ..

قابلتنا الزغاريد التى بدأت منذ نزولنا للصائغ · فما كاد الليل يدخل حتى كان أولاد عم بيومى قد نصبوا الكهارب على طول الشارع ، ونصبوا خشبة عالية ، ملأها شبان من أصدقائنا تصرف أحدهم فى طبلة ، والآخر فى رق ، والثالث فى ناى . وجاء مدرس موسيقى يسكن جوارنا بعوده .

ارتفعت الأنغام وصهللت . احتشد الشارع كله بالساهرين من أهل العشش . وحزمنا الليل بالمزيكة العالية حتى رقص الكافور .

ولقد افقت فوجدت أنني متحزم ، وممسك بعصـــا ، وعوض ابن خالتي كذلك ، وقد اندمجنا فى رقص مجنون . وحين نظرت فى وجوه المصفقين لنا ، لمحت مطر ابن خالتي يقف الى بعيد ، وعلي وجهــه غم وكدر شــديدان ، عــاقدا ذراعيــه علي صــدره المتحفز للقتال ، وبجواره يقف أمين شرطة ، واثنان من المخبرين . وكان عم بيومى قد اندمج معهم فى كلام ودى ، وكنت موقنـا أن عم بيومى خبير فى التعــامل مع الشرطة بارع فى استرضائهــا .. حولت بصرى عنهم وقــد دب فى عروقى حمــاس فصرت أقفز فى الهواء كالبهلوان ، وانط الخشبة رائحا جائيا ، وكل عضلة فى جسدى تهتز فى نشوة مع التصفيق والأنغام . وكانت الدنيــا تدور بى ، فلا أعبأ بها . وكنت أزداد اندماجا فى الرقص ، ولاشيء فى رأسى أوعينى سوى رقبة مطر ابن خالتي ورقاب أمين الشرطة والمخبرين ومآذن القلعة وقبابها والأهرامات وبرج القاهرة وبرج التليفزيون ، كل ذلك يتلوى تحت قدمى فى دوامة عنيفة تبلعنى وتلفظنى لتبلعنى .. ثم تلفظنى ، لكننى كنت أشــــعر كأننى الفراشة التى ارتفعت بعيدا بعيدا ، عن أكوام القمامة .

أمسيات الفحم الرديء

كنت المنوط بعملية اشعال النار فى الوجاق الكبير فى مقهى المعلم عتريس الكائن بناصية على شارع الحى العتيق . ولهـذا فقد عرفت الفحم عجنته وخبزته ، عرفتـه كما أعرف النـاس وأغتاظ منه اغتياظى منهم وأحبه حبهم ، وهناك فحم أعاتبه وفحم أعتذر عنه وفحم أسب ديك الذين خلفوه ، وفحم أصفق له بل ويصفق جمهور المقهى مصهللين قائلين : « نارك والعة يا معلم ».. وهم بالطبع يقصـدون بالمعلم أنا رغم أننى منوط ـ كما يقولون ـ بأتفه عمل فى المقهى نظرا لصغر شأنى من صغر سنى ..

وفى البداية كان المعلم عتريس يجلس خلف نصبة المـاركات بوجهه المستطيل الأبيض المحمر وشاربه الصغير الناطق وجلبابه البلدى ذى القطان والكم الضيق . ويرسـل لى اللعن فى كل موضع من جسد أمى المسكينة النائمة فى مخيمنا داخل مسجد أصلان الكائن فى نفس الحى تنتظرنى بما أعود به فى نهاية المساء من قروش ، لكى تعتبر نفسها قد استيقظت من النوم حقـا ؛ حيث تنهض فترفع شريط اللمبة وتغسل الطبق الذى سنشترى فيه الفول ، وتغسل عدة الشاى ، وحيث يكون أبى قد عـاد من الخلاء منجذبا برائحة الفول أو رائحة الشاى ، ليحكى لنا آخر

أنباء الخطاب الذى يقال انه سوف يتسلمه من المحافظة لنحصل بموجبه على شقة فى المساكن الشعبية التى تبنيها ، ويخفت صوته حينئذ لكى لا يسمعه جيراننا فى المخيم الملاصق ـ اذ بيننا وبينهم جدار عبارة عن ستارة من الخيش ـ فيحسدوننا ويقولون للمحافظة : اشمعنى فلان ، وأنا أحب هذه القعدة فى المساء وأحب أبى وهو يسر بهذا الحديث بنفس اللهجة التى يتحدث بها واعظ المسجد حين يلقى درس العصر أو العشاء على المصلين أو اللاجئين عن الجنة التى وعد بها المتقون ، وأمى تنصت اليه مصدقة كل حرف ينطق به ـ رغم اننى اسمع عن هذا الخطاب المزعوم منذ وعيت ـ اذ تقول أمى دائما اننى كنت قطعة لحم مثل ورك المعزة ملفوف فى بطانية على صدرها حين جئنا الى هذا المسجد لاجئين نفترش بلاطه ونقيم هذا المخيم بعد أن أزيل البيت الذى كنا نستأجر غرفة فيه . ذلك البيت الذى أمر عليه كل يوم فى طريقى الى المقهى فأجده قد تحول الى عمارة فاخرة عليها آلاف اللافتات وتحتها عشرات البوتيكات التى تبيع ملابس العرى وأحمر الشفاه . وكان أبى قد وجد لقمة عيش بجوارها اذ عمل حمالا للبالات والصناديق فهدت حيله فى ظرف شهور قليلة وجاءه ما يسمونه بعرق النسا وان كنت أظن أن ظهره ـ ببساطة ـ قد انقطع تماما حتى أنه بات يمشى خمس خطوات فى يوم . لهذا أوصتنى أمى بأن أنسى شتائم المعلم عتريس وأن أجعلها تدخل من أذن لتخرج من الأخرى الى الهواء . فالشتائم لا تلتصق بالانسان ، وأكل العيش مر ، ومعلهش يا ابنى استحمل ..

شىء واحد كان يجعلنى استحمل بالفعل ، ذلك هو الفحم الأصيل ، القابل للاشتعال بأقل مجهود ممكن وأحيانا بدون مجهود

يذكر ، الأمر الذى كان يوقف سيل الشتائم الا حين يفرغ المقهى من الزبائن للاسبب واضح · وفراغ المقهى من الزبائن ليس معناه كراسى خالية أو سكون مطبق ، بل قد يكون المقهى عاجة بالخلق وكل الكراسى مشغولة والضجيج فى ذروة قائمـة ومع ذلك نعتبر المقهى خالية من الزبائن ، بل تعتبر ساعة نحس فظيعة نحسب لها جميعا الف حساب ، نداری بعضنا البعض السكات حتى لا نثير ثائرة المعلم ونعطيه فرصـة لافراغ غضبته المدمرة فينا ، مع يقيننا من انه لابد وان يفرغها بأى شكل ولأى سبب مفتعل مختلق ، آنئذ نحـاول ارضاءه من طريق خفى ، فنشيع فى المقهى حركة غلاســة وغلظة مفاجئة فى معاملة الجالسين ، فمعظمهم طلب الواحد شاى أو كرسى المعسل وجلس هو ومن معه ساعات طويلة لا يكفون مع ذلك عن اثارة الضجيج وطلب الطلبـات الفارغة المجانية : هات كباية ميه .. شوية نار .. امسح الترابيزة .. هات كرسى غير ده . وحاجات تطقق المخ .

مثل هؤلاء الزبائن نفشل فى عجم عودهم قبل أن نشرع فى خدمتهم على الوجه الأمثل ، اذ هم يخفون حقيقتهم جيدا تحت ثياب فاخرة وحقائب لافتة وانجعاصات متقنة فنمعن فى خدمتهم باخـلاص فتكون النتيجة أننا نتحمل الألاطة والنفخة الكذابـة والبكوية المزيفة نظير قرشـين بقشيش ، ولربمـا تكالح الزبون فانتظر الباقى على ضآلته امعانا فى الكيد للجرسـون لأى سبب ، وحتى لو طلع الزبون ابن ناس ودفع بقشيشا شبعانا فان ذلك لن يرضى المعلم بل ربما عجل بثورته ، ذلك ان المعـلم عتريس لا يطيق رؤية النقود الا وهى تزحف نحو درجه بلا انقطـاع .. كل ترابيزة من هذه الترابيزات يجب أن تؤتى بثمنها الحقيقى والا أغلقها بالضبة والمفتـاح ، ما لم يكن هنـاك لعب كوتشينه

او دمينو أو طاولة فليس لها لزوم ، فاللعب يستدر المشاريب بلا انقطاع ، وشارب النارجيلة ـ البورى ـ يجب ان يلاحقه الجرسون بالحجر الثانى والثالث والرابع والى ما لا نهاية طالما الزبون جالس والشيشة أمامه ، المعلم عتريس لا يطيق منظر زبون يقوم بعد ساعة أو أكثر ليحاسب على واحد شاى وواحد مصرى ، يا فرحتى ، شغل مكانا وشيشة واستخدام اسياده لمدة ساعتين بلا شيء ، ويل للجرسون اذا طلع الزبائن « سكة » أى ليس من ورائهم خير ، وويل له اذا لم يمعن فى اكرام الزبون بتفريغ جيوبه من كل ما فيها عند الحساب . .

فى تلك الأيام الخالية كنا لا نحتاج الى فعل الحركات النص كم هذه كثيرا مع الزبائن ، لأن المقهى أيامها لم تكن ابدا محلا للانتظار ، كل زبائنها جاءوا للعب شيء أو لشرب المعسل ، ليكن وراء ذلك انتظار خفى ما ولكن هذا ليس يعنينا فى شيء طالما انك تجلس عندنا وقطعة الطباشير تتراقص فوق الحائط مسجلة عليك ما يصير فى ذمتك على التوالى ، ان الانتظار عندنا معناه أن تصير عبئا على المقهى وحينئذ يكون نهارك أبيض ومع السلامة بقى . زبائن زمان كانت مرتباتهم قليلة ، بضعة جنيهات ، والولد منا يعرق طول النهار بخمسة قروش بركة ورثه ، كانت الفلوس قليلة جدا فى أيدى الخلق ومع ذلك قليل منها يصلح كل شيء وليس المعدة وحدها ، بعكس زبائن اليوم الذين جرت فى أيديهم النقود أنهارا دافقة ومع ذلك حولوا المقهى الى مكان للانتظار يزدحم بالضجيج والصخب دون عائد يذكر . العجيب ان هؤلاء واولئك ارتبطوا فى دماغى وقلبى وحياتى كلها بالفحم الذى اتعامل معه . واذا كانوا يقولون وهم على حق ان الغش قد ساد وعم الفساد واصبح كل شيء مغشوشا حتى الرجال

فان الفحم قد أصبح هو الآخـر مغشوشـا بدون جـدال وغير مؤهل للاشتعال مطلقا ..

عشرات الشيش المتناثرة أمام الزبائن تبقى طويلا فى انتظار كرسى الدخـان المؤجل بسبب انطفاء النار . أمروح على الفحم فى الوجاق بالمروحة الريشية المتآكلة حتى ينخلع ذراعى اليمنى فأنقلها الى اليسرى فتنخلع قبل أن تنتظم فى الرواح والمجىء فأعدها الى اليمنى ثانيـة . تطقطق القطع وترسـل شظايا ملتهبة ما تلبث أن تنطفىء فى الهواء . ثم ما يلبث اللون الأحمر الداكن أن ينتشر بين النتوءات السـوداء موسعا مساحته شيئا فشيئا ببطء . تزداد سرعة يدى بالمروحة حتى يبدأ اللون الأحمر يخلع بعض رقائقه الدكناء كالغازية العاهرة تخلع اجزاء متواليـة من بدلة الرقص ليبقى فى النهاية جسـدها المشتعل عريا ووضـوحا وصفاقة . أخيرا يرتفع لسان اللهب فأمعن فى الترويح بسرعـة كأنى أبغى تثبيته فى أحشاء الفحم فاذا هو يستجيب ويتسـع فيملأ الوجاق ويفيض حواليه . « قشطه عليه » . بقولها ع « سنكر » النصبجى من وسط الرمال الساخنـة والأكواب . تثقب أذنى صيحة المعلم « كفاية بقى يا .. ويذكر عضو أمى ـ حتخلص النار كده » . أكف عن الترويح ، أشير للواد « زعبله » أن يأتى ليرص ما يشـاء من حجارة المعسـل . أرسـل نظرة متوجسة الى داخل الوجاق ، أفاجأ بأن اللون الأحمر قد اختفى تماما وتحولت الجمرات التى كانت منذ برهة كحبات الأوطة الى كومة من الثلج الأبيض . لحظتئذ يدب الفرح فى نفسى بقدر ما يدب الفزع . فهـذا التاج الأبيض ، هذه الغلالة المشغولة من فقاقيع دقيقة بيضـاء ، هذه الملاءة التى كأنها من قطن مندوب ، تنبت دائما على جسد الوهج المشتعل بعد برهة من كف الهواء المباشر

عنه ، لتظل تتراكم ويزداد سمكها غورا فى جسد النار . وهى دليل قاطع على واحد من اثنين لا ثالث لهما ، اما أن الفحم اصيل تماما ، أو انه خسيس الى أدنى حد . وضـــع الواد « زعبلة » عشرة حجــارة أمامى وقال لى : رص . فأمسكت بالمــاشة الكبيرة ثم غرستها فى الكومة البيضـــاء واخرجت منها قطعة كبيرة وضعتها على الرخامة وصرت أضرب بثقل فوقها بالمــاشة بغية تكسيرها الى قطع صغيرة ارصها فوق الحجارة ، فاذا هى من الصــلابة الى حد أن الضرب فوقهـــا يكاد لا يصــدر صوتا . قربتهـــا من فمى ونفخت فيها فتطاير بقايا النسيج الأبيض الهش كما تطـــايرت أوراق الشجر عن جسد ابينا آدم وأمنا حواء لتظهر الفحمـــة سوداء عاطلة من أى وهج بل من الاستعداد للاشتعال . رميتها فى الوجاق بغيظ وبصقت فوقها ثم اختطفت قطعة اخرى خفيفة ، ضربت فوقها فتكسرت فظهر ســـواد قلبهـــا لامعا . حانت منى التفاتة خائفـــة نحو نصبة المـــاركات فرأيت المعلم عتريس ينظر نحوى معتقلا فى صدره عفاريت الأرض . لكن الخواتم الذهبيـــة فى أصابعه حجبت عنى وجهه حين رفع يده ليحيى جماعة دخلت يتوقع من ورائها خيرا ولا يبغى مقابلتهم بالعكننة . كانوا فى هيئـــة بكوات وباشوات ولكننى أعرف انهم صياع كبار من الحوارى المتاخمـــة لحارتنا ، يتاجرون فى الحشيش والأفيون والبرشـــام والعملة وتهريب السيارات وكل شىء ، ويركبون المرســـيدس أم مائة باكو ، ولم يذهبوا الى مدارس ولم يذاكروا ، ولا يفـــكون الخط ، يقتلون القتيل ويمشـــون فى جنازته ، ومع ذلك يبدون كالمؤدبين أولاد الكرام ينتظرون مثول الخدم ــ اى نحن يعنى ــ وسواء طلبوها أو لم يطلبوها فانه سيحاسبهم عليها بالتأكيد ، اذ انه يجيد بيعها لهم وتقاضى ثمنهـــا وان لم يحضرها او يعرف ما هى على وجه التحديد .

بحثت بالماشة عن فصوص صغيرة مشتعلة الأطراف . كومتها فوق بعضها ورصصت القطع الكبيرة حولها رصا يشبه البناء . ثم أخذت امروح . وكنت ارتعش خوفا من شلوت المعلم عتريس الذى قد يدهم مؤخرتى فجأة . تطايرت المساحات البيضاء كلها من الوجاق وامتلأ وجهى وحلقى بموجات التراب . شعرت بالغيظ والتعب ، وتذكرت ان سفرة للسعودية أو العراق أو الكويت قد أعود بعدها لأفتح مقهى كهذه لأجلس هكذا مثل المعلم عتريس استأجر ولدا أشتمه وولدا اضربه وولدا يناولنى الماء وولدا يسقينى الحشيش وولدا يسقينى الغرام وامرأة تكيد لى وامرأة أكيد بها من تكيد لى . وكانت كومة الفحم لاتزال منكفئة على سواد القلب وبصيص النار يبحث لنفسه عن منفذ ، عن صدر دافىء يحتضنه فلا يجد . ثم تذكرت ان أمى لابد ان تطب ساكتة اذا أنا لم ارجع لها فى نهاية الليل ، بل أنها لا تصحو الا اذا دخلت أنا وأيقظتها ، وكثيرا ما أظن انها ربما كانت ميتة ومدفونة فى فراغ هذه البقعة المبلطة من ارض جامع أصلان ، وأن روحى أنا هى التى تحل فيها مدة اللحظات التى أكون موجودا فيها فحسب . المصيبة اننى فى الأيام الأخيرة بدأت أشعر بالتعب كلما دخلت عليها المخيم ، وأحيانا اتمدد بجوارها برهة قبل ايقاظها فاذا بالنوم يجذبنى الى قرار سحيق لا أصحو منه الا على الدوشة المنبعثة من الميضأة والمراحيض عند مطلع النهار ، لأطس وجهى بحفنة ماء ثم أجرى الى المقهى .

مر المعلم عتريس بجوارى متجها الى رف الشيش لينتقى واحدة سالكة ذات ضرب موسيقى عال ، فعرفت أنه سوف يصطبح مع هؤلاء فى استقبال العصارى ، ولابد من أن نجهز له مصفاة ملآنة عن آخرها بحفنة من قطع النار كحب الرمان ،

ليتسنى للمعلم ان يغترف منها بملعقة صغيرة ويدلق فوق الحجر. منذ سنوات مضت كان الزبائن ينظرون الى فى اشفاق اذا تباطأ اشتعال الفحم ، بل كان منهم من يتطوع بالنهوض ومساعدتى فى علاج النار بالمروحة أو باى شىء مع انه يكون رجلا ذا مركز ووجاهة وعلم ، أما اليوم فان اى ابن قحباء يتخفى فى حلل ثمينة يتصور ان بكويته لن تكتمل الا اذا شتمنى كثيرا • اتسعت المساحة الحمراء من جديد ، ولكن كلما خفتت حركة يدى بالمروحة يشرع اللون الأسود فى الزحف من جديد نحو المساحة الحمراء ليطفئها ويشقق سطحها بخدوش كأنما هى معركة يريد اللون الأسود ان ينتصر فيها على لون الوهج عدو الخسة اللدود. وقلت لنفسى بكل ضيق : ماذا أفعل فى فحم خسيس يستعير صفة الفحم الأصيل ليحارب بها الاشتعال عدوه اللدود ، اذ هو يوهمك عند لحظة معينة انه قد اشتعل بالفعل بل انه ينسج حوله نفس العباءة البيضاء القطيفية التى يحمى بها الفحم الأصيل شعلته من عوامل الريح ويحمى بها الخسيس خسته من عوامل الاشتعال .. ولقد تعلمت كشف الخسة من النذالة فى الفحم بمجرد النظر فى هذه العباءة ، وللتأكد فاننى لو ضربت الماشة فى عباءة الفحم الأصيل فانها تغوص حتى موضع الجمرة التى تكون أحيانا قد افنت جسدها اشتعالا حتى صارت الشعلة فى حجم رأس الدبوس ، ومع ذلك تظل مشتعلة حتى النهاية التامة ، أما عباءة الفحم الخسيس فان الماشة سرعان ما تصطدم بكتلة السواد الصلبة .

نزع الواد « زعبله » قطعة حمراء صحنها فى المصفاة ووالاها بالنفخ والتطويح بها فى الهواء مدة طويلة حتى صهللت فوضعها أمام المعلم عتريس وتلقى نظرة امتنان وكأسا من الويسكى صبه

له احدهم من زجاجة كبيرة انتبهت الى وجودها تحت الكرسى . وأحسست كأنهم يكيدوننى فأدرت وجهى ورحت امروح بكل قوة . انتبهت ايضا الى أننى أبكى بعمق ولا أحد ينتبه ، ذلك ان منظر الدموع على وجه من يقف أمام نار مثل هذا الفحم الخسيس امر طبيعى لا علاقة له بالبكاء وان كانت دموعه أغزر . وكنت افكر فى علاج لهذا الفحم فخيل الى أن هؤلاء القوم جميعا قد باتوا فى حاجة لأن نخرجهم من هذه الأجولة البراقة الفاخرة وننشرهم على الأرض حتى تتكفل الشمس بتبخير كل ما فى جوفهم من رطوبة فلربما اكتسبوا بعدها أصالة الفحم الأصيل ، ولربما استطاع الواحد منهم ان يحس بالآخر على البعد ، وان تنتقل شرارة الدفء بينهم بسرعة ودون حاجة الى مروحة من اى نوع . غير ان ضحكاتهم المخمورة كانت قد بدأت تثقب أذنى وتزيدنى تأكيدا أننى وامى العجوز وابى مقطوع الحيل لن يكتب لنا مغادرة المخيم فى جامع اصلان طالما انا واقف امام هذا الفحم الردىء أخدم مزاج هؤلاء الكلاب باردى القلوب . دهمتنى غمغمة حادة تخللها سب لكل شىء . نظرت فرأيت مصفاة النار فى يد المعلم قد صارت تحوى حفنة من هشيم ليل كالح ثقيل الظل سخيف ، لم يفلح وهجها الذى كان منذ برهة فى اشعال أكثر من حجر واحد مكتوم سرت عدوى الخسة الى ما فيه من تبغ معسل وحشيش فتفحم بدوره . صاح المعلم عتريس صيحة مخمورة مبسوطة : « ما تعمل لك همة يا ابن الـ .. » فوجدتنى أتوقف عن الترويح ناظرا اليه فى تحد مرتعش ، فارت رعشته فجأة فى يا فوخى فشخطت فيه شخطة مسرسعة خائفة الى حد الشجاعة ، عاقلة الى حد الانذار بالجنون : « باقول لك ايه .. ما تشتمش » . فبهت الذى كان قد شتم ، وبهت القوم حوله . وكنت أتوقع ان يندفع نحوى ويشوطنى بالشلوت فلا يتركنى الا جثة هامدة ،

وللذلك تهيأت ممسكا بالماشة الكبيرة فى يدى مستعدا لغرزها فى رقبته والطيران الى حيث لا رجعة • لكنهم جميعا ضحكوا فجأة ضحكا صاعقا أنهاه المعلم عتريس قائلا فى تهديد واضح : « طيب .. طيب يا ابن الوسخة » . وكان المزاح واضحا فى صوته هذه المرة رغم نبرة التهديد ، فاستدرت مستأنفا الترويح بكل قوتى وسرعتى حتى طقطق الفحم واتسعت الدائرة الحمراء صانعة فجوة كبيرة من فتات وهج مشتعل كان من المفروض أن يفرحنى ولكنه أثار حنقى وغيظى ، وصرت أحس باحتقار لا استطيع وصفه تجاهه ، اذ أننى موقن من انه يمعن فى خداعى كلما أمعن فى اصطناع الوهج ، وأبدا لا تنطلى الحيلة على فقد بت لا أميز لون الوهج من لون الخسة فى اللون الأحمر » قد بت ابحث عن ذلك الأوار المرتفع يتفرع من لسانه القرمزى لون البرتقال ويزداد وهجا وقسوة فيبزغ الأخضر مجاوراً للبرتقالى .

قلت ليكن الفحم خسيسا أدنأ خسة فهو حر وهذه طبيعته، لكن المصيبة اننى أدفع وحدى ثمن خسته . لاطبق الفول فى المساء الداكن مع امى ، ولا كوب الشاى بالحليب الذى يمنحه لى المعلم فى الصباح بكافيين لمقاومة هذه الخسة ، اننى أصرف على هذا الفحم من جسدى وأكاد أطعمه لحمى حتى يشتعل فلا يشتعل ، لقد أصبحت أوقن اننى لو وضعت جسدى كله فى هذه الجوزة التى تبدو ملتهبة فان جسدى لن يشتعل وان احترق • صرف بصرف من الجسد فليكن صرفا على شىء ارتجيه وان طال الزمن . أحسست أن ذراعى انفصلت عن كتفى وصارت جناحا كسيرا يتطوح فى الهواء رائحا غاديا غير عابىء بأن الوجاق كله قد صار لسانا هائلا من اللهب ورهط المخمورين يتابعونه ضاحكين فى نشوة واستبشار ، وكان الولد « زعبله » قد تكفل

بأمر الصفاة جالسا بها أمامهم يواصل النفخ على الدوام من حجر الى حجر ومن نفس الى نفس . ثم اصطبغت وجوههم بألوان جديدة من الملامح السمحة المسترخية الضاحكة بغير حساب ، البلهاء بغير نظير ، المنكسرة مهما تنكرت فى لمع قوى وهاج ، بدوا لى لحظتها كأنهم جميعا يتغافلون بارادتهم عن شىء مجهول لكنه فظيع وخطير ، وأن شعورهم بالذنب البائد لا يزال يكمن وراء هذه الملامح التى تندلق ضاحكة لأتفه الأسباب .. والا فما سر هذا العنف الشديد الذى سرعان ما ينقلبون اليه راغمين ، اذ فجاة يبدو كأنهم يتحاربون فى بشاعة ، ويصبح من العسير على الرائى أن يعرف من يتحارب مع من ، فالكل يتكلم فى آن واحد ، يسب يلعن يمدح يقدح يهتف يصرخ فى آن واحد ، وانك لتحار فى التمييز بين الهزل والجد ، اذ هم فى ذروة كل ذلك يصيحون كأنما فى بهجة عظيمة طالبين المزيد من الكئوس والحجارة المضاة بجيد التعميرة ..

ولم أكن بعد قد استطعت ايقاف يدى عن الترويح ، « وعم سنكر »ينبهنى قائلا : « كفاية بقى يا شكوكو » ، فانتوى جذب ذراعى الى داخلى وايقافه عن الحركة ولكنه لا يركن لارادتى أبدا ، وكنت أحس كأننى اثار من شىء أو أسعى الى هدف نبيل عظيم أو ربما كليهما معا فأولهما ربما أدى الى الثانى . فلما نظرت فى لسان اللهب أدركت السر فى اصرار ذراعى على المضى فى حركته .. ذلك أن لسان اللهب الذى كان دامغا ملعلعا مصهللا كان هو الآخر أسود القلب .. نعم كقطعة الفحم التى تبثه تماما . هذه القطعة الحمراء القانية بلون الاشتعال ان ضربتها وكسرتها بعد لأى تجد السواد يتصاعد لامعا من خلل الانشطار كحقيقة لا حقيقة سواها حتى النار نفسها بالقياس

اليها تعتبر وهما خادعا ، أما ســواد قلب الفحم الرديء فحقيقة لامراء فيها . هــذا السواد الكامن فى جسم الفحم الصــلب هو نفسه ــ ويا للعجب ــ يتصــاعد فى قلب لسان اللهب المتوهج ، كشريط من الظل الأســود يشع من حواليه لهبا ، ظل كأنه شفرة الفحم الخسيس تخرج من جوفه ممتدة فى قلب اللهب لتحارب اللهب الحقيقى بلهب مثله لتقضى على الاشتعال الحقيقى باشتعال زائف ، انه لينطوى على قلب من الخسة والدناءة الى حد يمنعه من أن يفنى نفســه فى اى سبيل .. ولقد ادركت ان مهمــة ذراعى المنفصلة كانت هى محــاولة تنقية لسان اللهب من السواد الذى يشــوبه ، وكومة النار لاننى ترسل الغبــار والهبــاب مما يغرينى بالاستمرار بوهم ان الغبار سيكف بعد برهة ويصفو لسان اللهب تماما . ثم ادركت أيضا كم كنت واهما ، لأن جهودى المضنية كلهــا لم تستطع اذابة الفحم ولم تفلح فى فصل الشريط الأسود الذى يسرى خلال اللهب الأحمر . حينئذ رميت المروحــة على طول ذراعى بكل غيظ وقرف فجــاءت حركة مسرحية ضحك لها الجميع قائلين : « قشطة عليه » ، لكننى لم ابتهج ، وقــال احدهم فى اعجــاب : « لا والله تستاهل الســلامة ياد » ، فلم اصدقه . وقال المعلم عتريس نفسه : « بس ابن ميتين كلب مخه صلب زى اليتامى » ، وكان ينظر الى باســما يقصد ان يصالحنى؛ لكننى لم اصطلح بل عبست فى وجهه . دفع أحدهم بورقــة مالية فى جيبى بحركة مسرحية وغمزنى بضغطة عنيفة يهددنى بها ان حاولت ردها ، فلم اردها ولكننى لم ابتسم ولم أجد أى رغبة فى الابتسام . قلده شخص آخر بنفس الحركة فكادت الفرحة تغزو فؤادى لكننى نبذتها فى الحــال وبقيت صامتا أقضم بين أسنانى غضبا مجهولا كظيما . وزغــدنى المعلم عتريس قــائلا فى جعيره الجهورى المعهود : « ما تضحك بقى بديك أمك » ، لكننى لم

أجد قدرة على الضحك . وكان أحدهم قد بدأ ينفخ فى المصفاة بقوة وعرق بعد انصراف « زعبلة » لشئون اخرى ونظرت الى لسان اللهب فى الوجاق من بعيد فرايته قد ارتخى ببطء لئيم حقير قذر ، وزحفت على الفجوة الملتهبة شطآن من السواد الداكن . وكان الألم فى ذراعى يوخزنى بعنف ، فوجدتنى انسل خارجا الى الشارع ثم انطلق كمصفور ودع القفص الى غير عودة، وكنت سعيدا لأننى سارى أمى لأول مرة فى النهار بعد سنوات طويلة لا اراها الا فى آخر الليل . فان هى الا خطوات حتى صرت امام عتبة جامع اصلان فى أعماق حى النبوية . قفزت داخلا الى مخيمنا الصغير الكائن بين الميضاة والمراحيض . وجدت أمى مستغرقة فى نوم عميق مطمئن فلم اشأ ايقاظها خوف أن تصدمها عودتى . فجلست جوارها أشعر بحزن عميق دفين وكان الجامع يشغى بالحركة والأصوات والروائح الكريهة . وشرع المؤذن لصلاة العصر ، وكنت أود الخروج الى الخلاء ، وهتف بى هاتف : « صل العصر معهم » ، فأسرعت بالانضمام الى صفوف المصلين وحينما وجدتنى فى الطريق من جديد بعد الهدوء الذى اشاعته فى الصلاة تحسست يدى فى جيبى وريقات النقد فهتف بى هاتف : « عد الى المقهى وكن عاقلا كى لا تحرم على الأقل من هذه الوريقات » ، ولكن هاتفا أقوى من كل ذلك قال لى : « خل بالك يا شكوكو فانه الوهج الكاذب تنتشر عدواه فى كل مكان » . ثم دوى فى اعماقى صوت داهم يشبه صوت المعلم عتريس قائلا : « طب وحتروح فين بقى بديك امك ؟ » ، ولم أجد ردا عليه ، لكننى تجاوزت المقهى ببطء متعمد فخرج المعلم بنفسه مناديا على ، ولكننى بكل استمتاع شوحت له بذراعى فى عدم اهتمام ، ومضيت .

عــدل الطاســة

كنا جلوسا على المقهى فى منتصف الدحديرة والمزاج فل .
المقهى ملقف هــواء وبشرا من كل نــواع تتخيــله أو لا تتخيــله
فالدحديرة العجيبة يصب فيها اربع فتحات فى جهات ما بجوار
الدحديرة أو حواليهــا . وفى الدحديرة ســوق الحى ، بعربات
خضراواته وحشــوده من النساء اللاتى يشكلن مظاهرة غوغائيــة
قائمة لا تنفض لحظة من نهار ، ثم ان الدحديرة تقود الى الشــارع
العمومى حيث محطــة الأتوبيس . والمقهى حافــلة بالترابيزات
تطرح موائدها وكراسيها فى قلب الشارع منافســة ومزاحمــة
لعربات الخضر ، ووفود المــارة ســيل متكثف لا يكف عن التدافع
فى جماعات متنافرة متناحرة متآلفــة مع ذلك ، والســيارات
المرسيدس والبيجو والفورد التى يقودهــا الواد بليه الســمكرى
والواد ســيد خرابه الحرامى والمعــلم حنطور تاجر المخــدرات
والأفنديــة العائدون مثلنا من الاعــارات والعقود طويلة الأجل
والمهربون وتجار العملة والتكسجية .. تشق لنفسها ــ بكل هدوء
خرافى ــ طريقا بين جدران البشر والأرائك والاشباه ــ وولدان
المقهى يتقافزون كالنسور الجارحة بأيديهم صــوانى حافلة بادوات
ملأنة ونارجيلات وجوز ومصاقى نار متوهجة واطباق أو خشبات

مليئة بأحجار الجوزة المرصوصة بالدخان المعسل ، فلا تتعطل سيارة عن الزحف ولا تكف امرأة عن مناحرة بائع ولا يهبط ميزان عن قدره ولا تقع من الجرسون قطعة نار .

حتى نحن وقد انتقلنا من « السطل » الى عـوالم أخرى خاصة بنا ، اعتلينا شرفات وهمية ورحنا نتفرج على دفق الحياة والتناقضات كلها فى بوتقة واحدة كهذه ، غير مبالين بأننا جزء غير منفصل عن هـذه التناقضات الخارقة ، حتى ليوسـع الواحد منا طريقا للسيارة بأن يتزحزح بالكرسى أو يقف موسعا فيما هو ممسك ببوصـة الجوزة يشفط النفس ، فالعجيب ان كل شىء عند الكييف قد يقبل التأجيل لبرهة وجيزة الا تولیع الحجر ، ربما لشدة احساسـه بانه قد دفع فيه دم قلبـه وبعضـا من رفاهية أبنائه المساكين ، أو ربما قد دفع فيه قيمة برشوة تقاضاها أو هدية ثمينة قبلها عن طيب خاطر .

ولدان المقهى ، يعرفون اننا اخوة أصدقائهم سكان الحـارة المجاورة الذين هم زبائن اصـلاء ووجوه لوامع فى ليالى المقهى ، ويتعشمون فى بقشيش سخى فى نهاية المساء ولذا فهم يخدموننـا باخلاص حقيقى ، لا يتركوننا لحظـة ، صـوانى حجارة المعسل ترفع من امامنا محترقة لتستبدل فى الحـال بغيرها جديدة ، والجوز تتغير كل عشرة حجارة على الأكثر ، ويضعون فيهـا بدلا من المـاء قطع ثلج ، فنحن عيال عتاولة فى الشرب ، نجوم قدامى قبل أن تستغرقنا فكرة السفر الى حيث توجد الأموال « يشرب الواحد منا خمسين حجرا وحده ، صد رد ، حتى يكح جيداً ، ويطرد عن صدره البلغم المتراكم من الأمس والأماسى السابقة ، بعدها يسلك ويستطيع الشد كما ينبغى ، وتنفتح شهيته للشرب، فيطبق فى خمسين حجرا آخرين . أيامها كان قرش الحشيش

الهبو لا يزيد ثمنه على ثلاثة جنيهات وراتب الواحد منا فى وظيفته الحكومية ـ اذ كل الوظائف كانت حكومية ـ يساوى ستة قروش فى الشهر على الأكثر ، وثمن حريقها اذا كان متخرجا فى الجامعة او أحد المعاهد الفنية العليا . كان يزاملنا فى الشرب رجال من كبار الموظفين والأساتذة وكنا نحن أصحاب الربع قرش والتمناية نحسدهم لأن راتب الواحد منهم يساوى أوقية أو اثنتين ومع ذلك كانوا احيانا كثيرة يطمعون فى أن نجاملهم بحجرين معتبرين مما معنا ، ولم نكن نبخل ، بل كنا ننال شرفا يستحق ان نكون قده فنحن حشاشون أصحاب كيف ، والعامة فى بلادنا يرفعون النقط الست عن الحرفين المتشابهين فيصبح للفظ معنى بأنه حسيس ، وما دمنا كلنا محتاجين لعدل الطاسة فلنكن كلنا .. ذلك الحسيس . مع اننا فى الأصل ربما كنا ابخل من كلبة يزيد التى لم أتشرف بعد بمعرفتها شخصيا .

الآن اصبح ثمن القرش خمسين جنيها ، قد نجده بعشرين مثلا أو بأقل ، انما الحشيش الذى يستحق ان نشربه لا يقل ثمنه عن خمسين . هكذا يفهم اخوتنا الذين يحتفلون بنا طوال مدة اقامتنا فى الاجازة ، ولهذا فقد اشتروا اعلى صنف من ولد يقف على دحديرة مشابهة فى حى الدرب الأحمر ذى شهرة عريضة يعرفه القاصى والدانى . زميلنا الولد مخيمر يده مبروكة يرص القرش مائة حجر حلوين . وكلنا جدعان بالصلاة على النبى والغربة لم تستنفد قوانا بعد وان كانت قد انقصت من بهجتنا كثيرا بل كثيرا جدا ، اذ اننا قد أصبحنا نملك كل شىء ونفعل كل ما كنا نحلم به ولكن أحدا منا لا يستمتع أبدا . هكذا نصرح لأنفسنا كلما انسطلنا واحلو كلامنا واضاءت وجوهنا ، لكن الحديث لا يصير جدا ابدا ، اذ ينظر الواحد منا الى المتحدث

نظرة ذات معنى ويقول : « عندما تنتهى من بناء العمارة الثالثة ارح نفسك وارحل الى الريف ولو أنه لم يعد فى مصر ريف » ، فيرد الساخط البادىء بالسخط قائلا : « بطل نق .. وعندما تشبع انت من شراء الأراضى التى تهوى تكديسها ليوم معلوم .. الخ » . وهكذا ننعطف الى الضحك بصوت عال جدا ، ونختلق نكات صاخبة ، ونتشوق لفرح ملىء بالصخب ، ويكاد صياحنا يعلو على صخب الدحديرة ، ويصعب على من يرانا أن يحدد ما اذا كنا نتعارك أم نتضاحك . تغمرنا بهجة لا ندرى أن كانت حقيقية ام طارئة مؤقتة ولكنها ذات وجود طاغ ، تجعل الواحد منا يتسامح الى أقصى حد ، وربما الى حد البله ، تجعل الواد مخيمر يدخل على الولد الجرسون بحجر يولعه من نفسه ، تجعل الباشمهندس حوده يمسى على الشلل المجاورة بعشرات الحجارة رغم أن تكاليف الحجر الواحد قد تصل الى خمسين قرشا لكن سيبك انت الجدع جدع ، تجعل حسن أبو على خادم الأمير يوزع كروته الخاصة على الذين تم التعارف عليهم فى المقهى ومصادقتهم فى الحال ، وقد كتب فى الكارت : « الشيخ حسن » على اعتبار انه فى معية الأمير وكل من فى معية الأمير يصبح شيخا ذا ابهة ، يقوم هو ليدفع الحساب ، يدفع خمسة جنيهات بقشيشا للولد الصبى ، وأخرى لمن سقانا ، وثالثة لمن جرى فى المجىء بالثلج ، ثم يتصنع انه هم بالنهوض ، لكنه يتمهل قليلا ، ثم يطلب طاقم الختام الذى قد يبلغ خمسين حجرا متخمة بامضاءات الحشيش المبططة كالبريزة الفضية .. حيلة خبيثة يفعلها دائما ليجر غيره الى المحاسبة مثله ودفع البقشيش مثله .

وكان الطاقم الأخير قد اوشك على الانتهاء ورؤوسنا هى الأخرى قد انهكت من الارسال والاستقبال فانعطفنا جميعا نحو

قليل من الهدوء سرعان ما آب الى صمت غريب كأننــا كنا وحدنا مصدر الصخب المروع فى الكون . ولم تكن أرضية الأصــوات المترسبة فى قاع الشارع قد بدأت تتصـاعد لتحل محل صخبنا حين انشق الصمت الكاذب فجأة عن صرخة تمزعت لها نياط قلب الشارع برمته ، صرخة أحــدثت لأول مرة ذلك الخلل الذى لم تستطع كثافة احداثه فى هــذا التوازن العجيب ، لأول مرة اضطرب الميزان فى ايدى الباعة ، وضربت سيدات صـــدورهن من الخضة، والتوت الأعنــاق كلهــا فى اتجــاه الصرخة وقد تحول الشــارع والدحديرة الى وجــه مكشر غاضب يتوجس ويبحث عن طفلة فرمتها سيارة أو ذبحها سكين غادرة ، فما وجدوا ســوى طفلة أتبعت صرختها بالبكاء المتواصــل فى خوف مروع فيما أخذت تدبدب فى الأرض بقدميها ، وتطلق زئيرا حادا يثير الفجيعــة فى القلوب ، وتتلفت حولها فى ذعر كأنما تستنجد بقوة عظمى لتنقذها من خطر داهم . اقترب منها البعض ثم عادوا ضاحكين يهزأون ويشوحون بأيديهم فى فروغ بال والبعض منهم صار يلعنها ويسب ديك الذين خلفوها لأنهم لو ربوها جيــدا ما افزعت كل هــؤلاء الناس لسبب تافه جدا كهذا » .

وكانت الطفلة لا تزال تبكي فى فجيعة . وكانت الطاســة الساخنة التي اشترت فيها ببريزة فول مدمس قد وقعت منها على الأرض واندلق الفول يعانق التراب والأوحــال ، فاندلقت وراءه صارخة باكية ، ثم ان جماعة كانت مقبلة لا تلوى على شيء فداست فوق حفنة الفول وأخذت فى أقدامها ما أخذت ، فارتاعت الطفلة واعادت صرختها . فانبرى اكثر من صــوت يلعنها ويسب ديك أمها ، وبعضهم شخط فيها مهددا اياها برمى الصنجــة فى وجهها ان لم تكف وتنكشح . لحظتها مرت سيارة أنيقة تتهادى

لا تلوى هى الأخرى على شىء فسحقت ما تبقى من الفول ومضت واشتد نحيب الطفلة وقد تضاعف خوفها من الناس وراحت تحاول كتمان بكائها فتنتفض . وكانت تختلس النظر مذعورة هنا وهناك وهى تنحنى على الأرض ، وفى هدوء الفلاسفة وبراءة الملائكة راحت بيديها الصغيرتين الحلوتين تجمع ما تبقى على الأرض من عجينة طينية مشبعة برائحة الفول الساخن الطازج ، وتعيدها الى الطاسة ، ثم تمضى متعثرة لتغيب فى الزحام .

مــوقف الفــرق

واد وجدت فى حوزتى بضعة جنيهات اتتنى من باب الله احلوت الفكرة فى نظرى وقررت السفر الى تلك المدينة التى يسمونها بلد العجايب واحيانا أم الدنيا ، ووضعت فى تصميمى انه لابد لى من الاتيان بأخى الدكتور من تحت طقاطيق الأرض . المشكلة انه ليس دكتورا من النوع الذى يعالج المرضى حتى تكون له عيادة معروفة ، انما هو دكتور مثل طه حسين كما يقول ابى ، حيث يظل المرء يدرس ويدرس الى ان يطلقوا عليه لقب الدكتور، ولابد أن لفظة الدكتور هذه منتهى الآمال ، حتى أن اخى منذ أن سعى اليها ــ بعد سنوات من الغيبة فى التعليم امتص فيها دمنا جميعا أبى واخوتى وانا ــ اختفى من حياتنا تماما ، ولم نعد نراه أو نسمع عنه ، غير أن بعض الناس فى بلدتنا يؤكدون أنه يعيش فى أم الدنيا ، والبعض الآخر يبالغ فيؤكد أنه رآه رؤية العين فى الهيئة الفلانية أو الهيئة العلانية . وكتب لى أحدهم ورقة زعم أن فيها عنوان الهيئة التى يعمل فيها أخى .

* * *

دهمتنى العاصمة فلم اعرف لها أولا من آخر ، والخيل

حالى فلم أعرف لى رأسا من ذنب ، لكن الذى يسأل ـ حقا ـ لا يتوه .

* * *

ذهبت الى المكان الذى يعمل فيه أخى . وكنت أظن اننى سأقوم برحلة مضنية فى سبيل البحث عنه ، ولدهشتى فوجئت بأنه فى نفس العنوان الذى يسمونه هيئة لا أعرف ماذا . وقد تفاءلت وحلت بى سعادة غامرة مرة ، اذ أحسست أن أخى شخصية مهمة جدا فى هذه الهيئة ، يعمل تحت امرته عدد من الموظفين ، وآلة التليفون بجوار مكتبه هو ، وكلهم يجاملونه ويأخذون الاذن منه . غير أننى بعد ساعة واحدة قضيتها فى مكتبه اكتشفت انهم جميعا يكرهونه بشدة ، وربما لكثرة تدقيقه فى كل شىء ومراعاة الأصول والضمير كما علمه أبى تماما فحينئذ عرفت انه فى هذه الناحية ابن أبيه بمعنى الكلمة . وخلال هذه الساعة سمعت أكثر من واحد ـ بدون مناسبة ـ يغريه بالسفر الى أى مكان يقدر كفاءته بعيدا عن هذه المخروبة . على أن هذا لم يخيفنى انما الذى مرر حلقى هو حالة أخى الذى بدا عجوزا كركوبا وهو بعد فى عز الشباب ، نحيف القوام بارز عظام الوجه غائر العينين مرهقا حتى النخاع ، وعرفت أنه يعمل صبحا وظهرا ومساء ليفى بنفقات الحياة فى المخروبة التى لم يبارك الله فى شىء فيها قدر بركته فى عدد العيال .

* * *

انحشرنا فى الأتوبيس بعد ان تصلبت أقدامنا من الانتظار الطويل على المحطة . وبعد هبد ورزع وكتم أنفاس وبهدلة لمدة ساعة هبطنا .

* * *

اذا بنا فى قلب بحر غريق والناس يمخرون عبابه بأقدامهم فى لا مبالاة . وقال أخى انها مياه المجارى ، ولم أكن فى حاجة الى هذا القول . وكانت السيارات التى يركبها الصياع المخبولون العائدون من العراق وليبيا تمر سريعة فتطلق علينا رشاشات من الغائط العتيق .

* * *

وقفت حائرا انظر فى أخى الدكتور الذى بدا كأنه لا يعانى من أجل مشكلة ، بل انه جعل يتأهب للقفز فوق حجر على مرمى حجر آخر عليه أن يعبره ليقف على فردة كاوتشوك . قلت لنفسى : ماذا نفعل الآن يا حسان ؟ الوحل من ورائك والغائط من امامك فأيهما تختار ؟ العجيب أننى رأيت أنه لا مفر من اختيار الغائط فهو فى الواقع لم يكن محل اختيار بل كان هو الملاذ الوحيد فى هذا الوقت فى هذا المكان . وقد عجبت للأطفال يسبحون فى بحر الغائط على اطارات من الكاوتشوك ، يلعبون الكرة ، كأنهم جميعا كائنات غائطية لم نعرفها فى قرانا من قبل .

* * *

أشرفنا وسط بحر الغائط اللزج المتلبد ، على حارة ضيقة فصرنا نتقافز كالقردة والبهلوانات فوق نتوءات صلدة يعرفها أخى جيدا وينبهنى الى عدم الانخداع فى أى نتوء ، فليس كل نتوء صلدا . بعد عناء شديد ومسخرة وصلنا الى بيت جميل ، الشكل من الخارج كعمارة من سبعة طوابق ذات شرفات ونوافذ يتدلى منها الغسيل فوق الحبال . فما أن دخلنا حتى خضنا فى أكوام من القمامة فى مدخل الباب وحواليه . ظلت رائحة الروث الانسانى

المتعفن ترافقنــا على الســلم الضيق الواقف ، حتى الطــابق الأخــير .

* * *

استقبلتنا وفود من البط والدجاج والكلاب والقطط والأطفال فلم نستطع تمييز القط من الكلب ولا الكلب من الطفل ولا الطفل الزاحف من الأوزة . اخذنا نتخطى كل ذلك دون أن نفلح فى تجنب الخوض فى اوان بها أكل البط ، لندخل بعد ذلك فى ضجيج هائل: صياح وصراخ وجعير وعواء وزئير ونباح وصوصــوة وحمحمــة واصطدام أشياء بأشياء واصطكاك الأرض بأوان جعجاعة الصوت كأننا اخطأنا فدخلنا غابة مفترسة . تبينت صوت ســيدة مرهقة بائسة ترقع بالصــوت الحيانى مثلما كانت أمى تفعل منذ أكثر من أربعين عاما ــ الهى أشرب ناركم ! أعدمكم واحد واحد يارب! . اربد وجه أخى وظهر عليه الغضب والانقباض . صرنا فى قلب فسحة ضيقة يطل عليهــا باب تتصــاعد منه الروائح الكريهــة تقدمنى أخى داخلا ، فدخلت وراءه ، فاتجه مباشرة الى كنبــة رفيعة تشبه المصطبة فى دارنا القديمــة ، وقف عليها وأقــام الصلاة ، فيما رحت أتعود على الظلام المتراكم فى الحجرة .

الحــــول

.. كنت قد وصلت الى المعزى متأخرا ، فحمدت الله أن توافق الزمن مع هدفى المرسوم : أن الحق ولو بالربع الأخير ، لأمكثـه كله ، فأكون بذلك قد اديت الواجب بصـورة لائقة ، فى واحد اعتبره من الأعزاء القليلين فى حياتى . لحظة أقبالى على السرادق الفخم المهيب فى ساحة عمر مكرم كان المقرىء يتأهب لقراءة ما بدا لى أنه الربع الأخـير ، حيث راح عـامل الفراشـة يعدل مكبر الصوت فى مستوى فم المقرىء المتربع على أريكة عالية وينفخ فيه فيصفر ويخرخش ..

نهض صف طويل من الرجال بمجرد ظهورى عند حـائط مجمع التحرير ، فى خيمة الضـوء البرتقالى المنبعث من ثريات متدليـة من سقف السرادق كالعناقيـد يعانق ضـوؤها بطانة السرادق الحمراء المخططة بشرائط خضراء على شـكل مربعـات ومثلثات فى وسطها كلمات وحروف تنطق بألفاظ الجلالة والآيات القرآنية واسم المعلم صاحب المفروشات وعنوان محله . كان صف الرجال طويلا مهيبا ، كلهم رجـال أشـداء وقورون فى ملابس رسمية كاملة وعلى سنجة عشرة ، بوجوه حليقة مزنهرة مضروبة ببوية الحزن المتقنة المعجون ..

سلمت عليهم واحدا واحدا ، مرددا كلمة واحدة : ذنبكم مغفور ! ذنبكم مغفور ! ذنبكم مغفور ! .. ثم تهت فى السرادق لبرهة كالعبيط أتمنى أن تنشق الأرض وتبلعنى قبل أن أتعثر فى البحث عن كرسى ، حتى لقد تخبطت فى ناس انتهزوا الفرصة وقاموا لينصرفوا قبل أن يستبقيهم المقرىء نصف ساعة أخرى ..

لحقت بكرسى فى نهاية صف الصدارة فى مواجهة المقرىء فجلست ، فعاجلنى الفراش بملابسه الرسمية حاملا صينية القهوة ومن خلفه واحد آخر يحمل ابريق ماء وكوبا فارغا . شكرتهما بحركة تقليدية وعقدت ذراعى على صدرى ورميت بنفسى فى بحر الحزن الأليف المسيطر . ثم استعاذ المقرىء بالله من الشيطان الرجيم ، وبسمل ، وشرع يقرأ سورة الرحمن ، فتفاءلت خيرا ، اذ أننى أعشق موسيقاها وتواتر صورها فى دفق الشعور بذبذبات لا نهاية لتردداتها المدوية التى لا تنداح من الذهن أبدا ..

غير أننى ما لبثت حتى رفعت رأسى وجلت ببصرى فى المعزى فرأيتها على درجة عالية من الأبهة ، فداخلتنى فرحة غامرة هدهدت جوانحى . فعلا ، هذا ما يستحقه « عبد الرءوف عجلان » أنبل رجل فيمن عرفتهم على الاطلاق . فجأة رأيت « عبد الرءوف عجلان » بنفسه يدخل مخترقا الطريق نحوى مباشرة كالمدفوع بامتنان شديد لكى يتقبل بنفسه عزائى له فيه ، فاقشعر بدنى وانتفض برعدة الشروع فى البكاء الحار . كان معفر الثياب مترهلها كالعادة ، بوجهه الكروى المكلبظ كوجه طفل مقشر الوجه لم يتشكل بأى ملامح بعد ، مجرد كرة ينزوى فيها عينان عميقتا الغور كنارونتين مفتوحتين على الفضاء ينفذ منهما قرطاسان من الضوء المشع الصافى ، بعد مساحة متاخمة لهاتين العينين

تلوح فتحتان أضيق كعلامتي استفهام متقابلتين ، فوقهما انف يكاد لرقته ورهافة تحديده يذوب فى كروية الوجه . وقد لا تشعر انك امام وجه بشرى الا حين ينفجر ضاحكا ، لحظتئذ فحسب ، ينفتح فم واسـع رهيف الشفتين ، تنضغط كرة الوجه كأن يدا خفية تقبض عليها فتعجنها حتى لتكاد تنضغط ، تتفصد بالعرق الأحمر القانى كأن صاحبها يعرق دما ورديا لامعـا مشعا بالبهجه العريضة المعدية فى سرعة مذهلة ، فسرعان ما تشعر بالرغبـة الدافقة فى الضحك الصـافى والسرور اللانهائى . وعند الانفعال تكاد كرة الوجه تقفز لتتنطط فوق هضـبة كروية اخرى هى كرشه الخفيف الظل ، الذى يرتفع حزام السروال حتى منتصفه تماما فاذا كرشه قد انقسم بالعرض كقوس قزح ، واذا هو على الدوام يمد يديه ليرفع الحزام بين آونة واخرى ليظل السروال شالحا فوق الحذاء الأسود اللميع والجورب الرمـادى . رغم ما يثيره فيك من بهجة وسرور اذا ابتهج يثير فيك الحزن العميق القاطع اذا حزن ، طفلك الحبيب قد ألمت به نازلة أفقدته النطق فحولت وجهه الى كرة من اللهب يثير فيك حرارة الألم . ها هو ذا يسلم على فى حرارة ووجهه كرة من اللهب ، ثم جلس بجانبى ، فايقنت اننا نجلس فى معزى لعله معزى زميلنا « عاشور » كاتب الصادر والوارد بالهيئة التى نعمل بها . ايقنت ايضـا أن صديقى « عبد الرءوف عجلان » قادم لتوه من القرافة ، وانه قام بالواجب فى حق زميلنا الراحل خير قيام ، انه ليس مجرد رئيس حسابات الهيئة ، وليس مجرد رئيس اللجنة النقابية الخاصـة بالهيئة ، انما هو الى ذلك امين صندوق لا احد يدفع فيه مليما واحدا ، هو منشئه ومموله الوحيد خدمة للزمـالة واسـعافا لعسرات الحياة ومواجهة ازماتها الطارئة على اى زميل ، اذ اننا جميعـا على باب الله قد يعجز الواحد منا فى لحظة عن الذهـاب بابنـه

للطبيب فيموت الولد فى شربة ماء ، وقد تكون زوجة الواحد منا فى حالة وضـع ان لم يتطلب طبيبا او مصحـة فعلى الأقـل يستلزم مواجهـة انفاق ضرورية . وهكذا ، وكان المفروض اننا جميعا قد وافقنا على أن تخصم الادارة من مرتباتنا قروشـا معدودة لصالح صندوق الزمالة لكن الادارة لسبب ما لا ندريه لم تفعل ، مع ذلك ظل « عبد الرءوف عجلان » يقدم الخدمـات ويؤدى الواجب من جيبه الخاص ، اذ أنه محترف جمعيـات يدبرها من مصروف يده التى لم نرها تصرف شيئا على الاطلاق للانفاق على صاحبها . زوجه وأولاده لا يعرفون من هذه الجمعيات شيئا ، اذ هو يقبضها فيرمى بها فى بعض محـلات تجارية تربطه بأصحابها صلات طفولة وقرابة وعلاقات متينة موثوقة ، يدبرون بهذه الجمعيات أحوالهم نظير عمولة ربح متفق عليهـا تضـاف تلقائيـا الى المبلغ ، ليمر هو فجـأة على واحـد منهم فينتحى به جانبا : « شـوف لى معك ميتين جنيـه بأى حال ! دلوقت حالا ! » .. ودى الوقت حالا بأخدها ، ليجرى لاهثـا فيتجرأ لأول مرة فى حياته فينادى : تاكسى ! اذ لابد أن يلحق بمريض من الزملاء فى مستشفى ، أو أن فى انتظـاره صديقا على مقهى معذورا فى قرشين ، أو سيلحق « بطلعة » ميت يمت بصلة قربى لأحد الزملاء ويجب أن يعزم عليه بشىء من النقود أو يتقـدم من تلقـاء نفسه فيحاسب الفقية وعمال الفراشة ..

ـ .. « بينهما برزخ لا يبغيان .. فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » سحبنى قرار الصـوت . لم يكن بجوارى فى معزى « عبد الرءوف عجلان » أحد سـوى بعض الكراسى الخالية ، لكن السرادق مع ذلك ملآن بالناس من مختلف الأشكال والألوان ، شىء مبهج حقا ، شخصيات تبدو شديدة الأهمية على درجة كبيرة من الأناقـة

فى أثمن الثياب وأربطة العنق ، والرابضـون بمدخـل السرادق كثيرا ما يتسلل بعضهم ليمضى فيعيد الترحيب بهؤلاء وأولئك ممن بدا أنهم شخصيات ذات مراكز مرموقة ، لعلهم وزراء أو وكلاء وزارات أو رؤساء مجالس ادارات ، يشير الى ذلك هـذه الأرتال من السيارات المرسيدس السوداء والفورد والفولفو التى راحت تتزايد أمام السرادق . لم يكن « عبد الرءوف عجلان » من ذوى المناصب الكبيرة ولم يكن من الحكام لكنه كان ذائع الصيت فى الهيئة وفى هيئات كثيرة لها صلات عملية وثيقة بهيئتنا . كذلك كان معروفا معرفـة جيدة لدى نسبة كبيرة من وكلاء الوزارات ورؤساء مجالس الادارات ، كثيرا ما كانوا يطلبونه فى الهـاتف أو يرسلون له التحيات مع بعض الوسـطاء والسعاة ، لا غرابة فهو متوقد بالنشاط لا ينصرف من مكتبه ووراءه ورقـة واحدة فى حاجة الى استكمال ، لا يرجىء عملا للغد أبدا ، لو كان الود وده لأنهى عمل العمر كله فى يومه . وكان هذا يخدم مصالح هيئات كثيرة وناس كثيرين ، سرعان ما يندهشون من أنهم ليسوا مضطرين للعودة غدا ، بل لم يكن بعضهم يتوقع أن يدعى للجلوس وشرب فنجان من القهوة ريثما تنتهى مصلحته بعد دقائق . مفتشـو الجهاز المركزى ومندبوه كثيرا ما يتحرجون فى التفتيش عليه ، فيكتفون بالمراجعـة المطمئنة الواثقة دون تلكؤ عند التأشـيرات لاستكناه مضمون غير مضمونها واستقرائها مخالفات وتساهلات وموالسات كما يفعلون مع غيره فى أماكن كثيرة . أتذكر الآن انه ذكر لى مرة فى حديث عارض أن أمه من عائلة كبيرة جدا فى الصعيد كان منها الباشـوات والبكوات قبل ثورة يوليو ، وهم اغنيـاء الى حد انهم لم تعد تربطهم بأمه اية صلات اللهم الا فى المناسبات الضرورية ، لكن اسـمه واسم أبيه يرددان فى اى نعى تنشره العائلة فى جريدة الأهرام عندما يموت واحد منهم اذ يقولون :

وضهر فلان الفلانى وابنه فلان رئيس حسابات هيئة كذا . ترى هل نشرت العائلة اليوم نعيا خاصــا بها ؟ الواقع اننى مررت على صفحة الوفيات بسرعة فلم تتوقف عينى الا على النعى الذى نشرناه باسم الهيئة مع صورة له ..

ـ « .. يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من اقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون الا بسلطان .. فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

ها هو ذا زميلنا « محمد عزوز » صراف الهيئة يقبل نحو السرادق . هو الآخر يجيء متــأخرا وقد أوشــكت المعزى على الانتهاء ؟ أشعر نحوه بكثير من الاحتقار والسخط لكننى مع ذلك فرحت بمجيئه ، يكفى أنه الوحيد من الهيئة الذى أراه الآن فى المعزى . ترى هل جاء غيرنا ؟ لاشك انهم جميعا حضروا وانصرفوا، وقاموا بالواجب فى عمليــة الدفن واقامة السرادق . فجاة دخل « عبد الرءوف عجلان » الى الحجرة التى تضــم مكاتبنا نحن الخمسة العاملين فى قسم شئون الأفراد ، كان ممتقع الوجــه لاهث الأنفــاس زائغ النظرات يحمل بين يديه مظروفا تطل منه أوراق مالية من فئة العشرات والخمســات : وقف وسط الحجرة قائلا بلهجة حزينة متلعثمة بالحرج : « يا جماعة ! كل واحد منكم يلافينى على الأقل بخمسة جنيه ! فيه عجز كبير فى الخزنة والواد محمد عزوز حيدخل فيهــا السجن مفتش الجرد قاعد مستنى عشان يقفل الخزنة ! اللى عنده اى اعتراض أو زعل من عزوز يأجله دلوقت ! المهم دلوقت سمعة الهيئة لأن ده فى وشنا كلنا ! انتوا عارفين ان دى مسالة ما فيهاش هزار ! جايز يكون لكم رأى فى عزوز انه ملعب وبتاع ثلاث ورقات ! لكن أنا شخصيا بأشــوف إنه اهمال ! نوع من الاستهتار والمعيلة ! وواجب علينــا نديله

فرصة المرة دى ! عشان خاطر عياله بس ! بعد كده هو الجانى على نفسه ! يلا بقى يا خوانا اهرشوا فى جنابكم امال » ..

ــ « .. يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام . فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

اختفى « محمد عزوز » فى ركن قصى . اخذت اجول ببصرى فى السرادق بحثا عنه . شد بصرى شخص جديد أقبل ، انه زميلنا « عبد الرحمن عرجاوى » مدير العلاقات العامة فى هيئتنا، مهياص كبير ، يتنفس الكذب ، لكنه مع ذلك لطيف وطيب ورقيق ولا بأس من عشرته اذ أنه مفضوح الكذب ، كذبه نوع من الفشر والفشخرة والمعر الناتج عن تضخم فى الشخصية ، الطريف ان هذه الصفات فيه هى التى جعلت منه مدير علاقات عامة ناجحا ، يعطى للهيئة مظهرا فخما . كان « عبد الرءوف عجلان » يهرول فى اتجاه حجرة رئيس مجلس الادارة حينما اصطدم بى وانا خارج من دورة المياه : « مالك ملهوف على ايه ؟ ! » . قال مشوحا : « الواد عرجاوى مسكين ! تصور مخصوم منه عشرة أيام بعد تحويله للتحقيق ؟ أصله كان كذب كذبة من المعر بتاعه كلفت الشركة خسارة كبيرة ! تفتكر رئيس الهيئة حيوافق على رفع الخصم لو انا دخلت كلمته ؟ الواد صعبان عليه والعشرة أيام كتير برضه يقسمو وسط الراتب ! على كل حال ادخل له برضه واتحايل عليه شويه ! ان كان كده نبقى نلمهم من بعضنا فى السر ونحطهم فى الخزنة يقبضهم مع المرتب ! » ، ثم هرول نحو الحجرة ..

ها هو ذا « عبد الرحمن عرجاوى » يسلم على المستقبلين ، الذين سلموا عليه فى حرارة . كان من الواضح انه يعرفهم واحدا واحدا ..

ـ « .. هل جزاء الاحسان الا الاحسان ؟ .. فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ » ..

بعينـه الصقرية ذات الرموش الطويلة السـوداء لمحنى « عبد الرحمن عرجاوى » ، فأقبل نحوى متمهلا بقامته الطويلة الرشيقة واناقته المفرطة ، ووجهه المزنهر بالحمرة كأنه يشرب كوبا من الدم صباح كل يوم ، وبشعره المفلفل المتسق على جبينـه وفوديه بمقص حلاق فنان ، وملامحـه الوسيمة المسمسمة . سـلم على وجلس بجـوارى ، همس فى أذنى : « انت وحـدك هنـا ؟ ! » . قلت : « ومحمـد عزوز » . قـال مستنكرا : « فقط ؟ ! » ، ثم أضاف : « احنا أصلنا اتأخرنا ! انا والله قطعت الاجازة وجيت من البلد حالا ! » ..

ـ « .. فيهمـا عينان نضاختـان .. فبأى آلاء ربكمـا تكذبان ؟ » .

همست فى أذنه : « كان المفروض أن يقف جماعة منا بين المستقبلين ! السنا أصحاب المعزى ؟ ! » . احمر وجهه ولوى شفتيه فى أسف : « المفروض طبعا ! آ » . قلت : « هل تعرف أحداً من الذين استقبلوك ؟ » . قال : « ولا واحداً » : كدت أبتسم . شدنى منظر طائفة من المعزين مقبلة نحو السرادق ، تبينت فيهم مجموعة كبيرة من زملائنا فى الهيئـة ، توقفوا أمـام السرادق فى ارتباك شديد ، أوشـك منظرهم أن يصير مضحكا مثيرا للاستنكار ، انزوى جماعة منهم فى المنطقة المظلمة ، لمحنا الآخرون فتشجعوا لانهاء التردد ، خاصـة أن المستقبلين وقفوا تأهبا لملاقـاتهم . دخلوا ، تناثروا فى السرادق كسحابة من الدخان ، جاء بعضهم نحونا ، « سالم عيد » و « سيف الكردى » و « السـيد زيدان » جلسـوا بجوارنا والقلق باد عليهم . مال نحونا « سالم عيد » وقال

هامسـا: « أمال فين طـارق وفيصـل ؟ ! » . قلت : « من يكونان ؟ ! » . قال : « ابنا المرحوم ! ما شاء الله طارق فى الثانوية العامة يعنى لازم يكون هنا ! دوروا عليه عشـان نعزيه ! » حينئذ مال « سيف الكردى » وهو يكتم ابتسامة أسف حرجة : « يا جماعة ! هذه ليست معزى عبد الرءوف عجلان ! معزى عبد الرءوف فى السرادق المجاور ! » . شعرت بغيظ يأكل قلبى : « ازاى ! انا ما شفتش معزى تانيه هنا ! » . قـال : « أصلها معزى فقـايرى ! عشـان كده مش باينـه جنب السرادق اللى احنا فيه ده ! » . .

رغم الشعور بالأسف تبسمنا فى كثير من الضيق والتوتر ، صرنا نستعجل المقرىء ، لكنـه شبك فى قصار السور فسمرنا فى جلستنـا فصرنا كالفئران الحبيسـة فى المصـيدة . قـال « عبد الرحمن عرجاوى » فى توتر : « لابد أن نلحق بأولاده ولو فى آخر لحظـة والا فمنظرنا ليس لطيفا ! » حين صدق المقرىء وطلب الفاتحة كنا أول من وقف ، أسرعنا الى الخروج . هرعت فى مساحة الضـوء أبحث عن معزى « عبد الرءوف عجلان » . صاح « سيف الكردى » هاتفا : « أهه طارق أهه » واندفـع مهرولا نحو سيارة أجرة شرعت تتحرك حاملة طارق وأخاه . جرى « سيف » وراءهما مناديا : « طارق ! » ، لكن السيارة اندفعت مارقة فى الشارع الخـالى ، ثم ما لبثت حتى اختفت . وقفنـا خائرين كفلول جيش ضال ، انضم الينا الكثيرون من الزملاء ، أخذنا نتابع العمال وهى تفك حبال سرادق شديد التواضع خافت الضوء . وحين فوجئت بأننى مستلق وحدى على كرسى خلفى فى سيارة أجرة تزأر على طريق الكورنيش كنت أغالب الرغبـة فى البكاء وأتمنى لو أننى لحقت بطارق عبد الرءوف لأعتذر له قائلا : لا تؤاخـذنى يا ولدى ! فأبوك وأنا ! . . كنـا نعزى فى شخص آخر !

المرجـــع

مثلما يدق جرس الحصص بانتظام ، ومثلمـا نواظب على الحضور يوميا ونتخذ مجالسنا خلف الأدراج ، كان مدرس الفصل يواظب على توبيخي دون ملل ، وكنت أواظب ـ أيضـا ـ على هز الرأس فى طاعة عمياء ، والنظر حولى فى حرج شديد ، ومحـاولة الاستمساك بالابتسـامة المعلقـة على شفتى مخافـة أن تسـقط أو تنمحى فتنتصر الدموع ..

يقف ناظرا الى بما يشبه التهديد والوعيد ، أخيرا يفتح فمه بالعبارة المنتظرة :

ــ طلعوا المرجع .

فترتفع موجة من الأصوات يحدثها انفتاح الأدراجوانغلاقها ، بعدها يستقر الكتاب (المرجع) فوق كل الأدراج الا درجى أنـا وهو لسوء الحظ لصق درج المدرس مباشرة ، مدرس الفصـل يعرف مقدما أننى بلا نسخة من كتاب (المرجع) وأننى كالعادة لم أفتح درجى .. مع ذلك يبعد نظرته عنى الى عمق الفصـل صائحا كأنه يعنينى أنا وحدى :

ــ افتحوا على صفحة كذا ..

فتنبعث خرخشة الصفحات أما هو فيتراجع الى الوراء مرسلا الى الوراء نظرته المنكلة الى صرت اكرهها قدر ما ارهبها ، ثم يعاجلنى :

ـ أمال فين يا خوية المرجع بتا .. عا .. ك ؟ !

اتلعثم للمرة المليون ، ابلع ريقى الناشف ، أحاول اختراع سبب جديد :

ـ اصل .. أصل يا أستاذ .. ربنا يخليك .. أبويا ..

ثم لا أعود أعرف ان كان ما يرتسم على وجهه ابتسامة أم كشفا عن الأنياب .. أحس كأن مبنى المدرسة كله فوق دماغى .. كلمات المدرس تقرع راسى تضربها فى التختة :

ـ ده علم يا شاطر مش هزار .. السنة قربت تخلص .. ثم ده كتاب ثمنه تلاتين قرش .. أمال لو ما كانش التعليم مجانا كنتوا عملتوا ايه ؟ .. عايزين كل حاجة ببلاش ! .. جتكم البلا..

ثم يسحب نظرتــه عنى فى قرف ، يخطو بين الصفوف ، فيرتد ناظرا نحوى :

ـ لازم تجيب المرجع يا شاطر والا ما تجيش خالص ..

يقذف الطباشير فى الأرض يسحقها بقدمه صائحا :

ـ الولد فلان يقرأ ..

ويشوح لى فى يأس قائلا :

ـ بص مع اللى جنبك ..

اكسر رقبتى ناحية جارى واروح انظر فى مرجعه ..

اصبحت اعرف ماذا على ان افعل حين يوبخنى المدرس هذا التوبيخ ، لكننى لم اكن اعرف ماذا على ان افعل حين يمتنع جارى عن اشراكى فى النظر الى مرجعـه ، مع ان هذا المرجع قد اصبح محفورا فى راسى كلمة كلمة بل ربما كنت الوحيد الذى يحفظـه عن ظهر قلب كما يقولون ، كنت دائم التودد الى جارى ، ابرطله بكل قطعة سكر او عسلية تقع فى يدى ، فأصبح يعطى نفسه الحق فى تفتيش مخـلاتى وجيوبى بحثا عن شىء يأخذه . كل الأشياء التى اخذها منى ـ وما أكثرها ـ كانت ميسـورة الا ثمن كتـاب (المرجع) وقد بكيت لأبى عشرات المرات ، وهو لا يريد الاقتناع بأن نترك كتب الوزارة وندرس فى كتب خارجيـة ، فأقول له انه كتاب فيه كل العلوم التى ندرسها ولكنهـا مختصرة ومنظمة ، وان فيه نمـاذج من امتحانات السنوات السابقـات والاجابات عليها ، وان كل الأولاد اشتروه ما عداى .. فلا يفعل ابى شيئا بل يبسط يده قائلا فى الم :

ـ منين .. اجيب تلاتين قرش منين .. لو كنا نقدر كنا وديناك المدرسة انما انت اللى رحت لوحدك ..

وكان لابد ان ارفع قامتى فى الفصـل ، فصرت أذهب الى سوق البلد والأسواق المجاورة اساعد الناس فى حمـل اشيائهم المشتراة ، فيعطوننى قروشا وملاليم أصرها فى منديل محـلاوى اربطه على وسطى ، فلما تجمع لدى ما يزيد على القروش العشرة ذهبت الى ولد من ولدان السنة المـاضية وطلبت منه أن يبيعنى مرجعه القديم ، كان قد تهرأ وفقد غلافه وصفحات كثيرة من بدايته ونهايته ولكنه كان حقيقة بين يدى ، حملته الى الدار فسهرت الليل كله افصل له غلافا من الكرتون الصقه بالدقيق العلامة حتى اذا ما اقبل الصبح ارتديت ثيابى واهتممت بنظافتها على غير العادة ..

حملته وحده بدون مخلاة ، تأنقت فى ابرازه ، وكان اول شىء فعلته ذلك اليوم ان هزأت بجارى وجررت « شــكله » حتى شتمنى .. فمزقت له ثوبه وضربته بالشلوت والبونية ولم يخلصه منى سوى الجرس .

ما ان دخلت الفصل حتى وضعت (المرجع) على سطح الدرج ورحت انتظر فى زهو دخول المدرس ، ولكن الوقت مر بطيئا ثقيلا ، فات نصف الحصــــة ، اخيرا دخل رجل جديد لم نره من قبل ابدا ، قال انه المدرس الجديد ، ثم قال أنه سمع عن كتاب ندرس فيه اسمه (المرجع) فمــاذا يكون يا ترى ، فعلى الفور تطلعت بابرازه فى زهو كبير : اهو يا أستاذ ..

فتناوله وأخذ يتصفحه بامعان ثم جلس فى فرح صائحا :

ـ طب طلعوا صفحة كذا ..

فخرخشت الصفحات وانفردت فاشــــار المدرس لواحد بعيد وأمره أن يقرأ ، ثم نظر نحوى فى اعتذار قائلا :

ـ بص مع اللى جنبك ! .

منزلـة الشـوق

حدثنى صديقى الطويل « جودة أبو ظريفة » أنه كان فى تلك الليلة يعانى من حالة اشتياق شديد جدا لزوجته ، حالة وصلت الى حد الوجد المشبوب والشعور بالهياج العصبى المثير للغيظ. ان زوجته لم تكن بالبيت ولا بالمدينـة ، كانت قد سـافرت الى الخـارج لزيارة شقيقها المقيم هناك ، وقد تعاهدا بالعين القويـة عند لحظة الوداع منذ حوالى ثلاثة أشهر ان يدخر كل منهمـا للآخر زادا كبيرا من الشوق لا ينفس عنه الا عندما يحين اللقاء بينهمـا .

غير انه لم يكن يعرف أن لحظات الشـوق ان طالت تسبب كل هـذاالعذاب وتخرج الانسان عن طوره فيفعل حركات صبيانية تكاد تكون فاضحة . وباعتبـاره رجلا محترما يبزغ الشعر الأبيض على فوديه ويظلل وجنتيه بمسحة من وقار الأربعين ، فانه تعود حين يركب الأتوبيس الذى يوصله الى الضاحيـة البعيدة مقر سكنه أن يتجنب الانحشـار قـدر الامكان . وأن قضى عليـه بالانحشار ـ ولابد أن يقضى ـ فانه ينكمش على نفسه ويقشعر حين يلتصق به اللحم الأنثوى فى غير مبالاة وتحتـك باعضـائه احتكاكا قويا مستفزا ، ويروح هو يبحث لنفسه عن موضـوع

ملح يشغل به دماغه حتى يسرح بعيدا ولا يظهر عليه اى ردود فعل للاحتكاك ، ولكن على كثرة ما فى حياته من مشاغل ومشاكل تنتظم وقته دقيقة بدقيقة فان جميع المشاكل والموضوعات تهرب كلها فى تلك اللحظة ويبدو كأن ذهنه يعانى من البطالة . وكان فى العادة ينجح فى الاحتفاظ باحترامه لنفسه وبوقاره حتى المحطة الأخيرة ، ثم يمضى الى شقته فى الشوارع الهادئة الساكنة التى لم تكتمل تقاطعاتها بعد ولم تمتلىء كل فراغاتها ، فيتسلل اليه فى ضوء القمر أو فى الظلام الخافت شعور وردى بأن ثمة من سينشق عنها هذا السكون فجاة لتسأله المساعدة فى شىء أو ربما سألته المبيت حتى الصباح .

وفى تلك اللحظة كان قد برح به الشوق فقرر تدبير سفرة سريعة يلتقى فيها بزوجته هناك ويعود بعدها بها أو بدونها أو لا يعود فكل ذلك يمكن مناقشته بعد أن ينتهى من التعبير عن شوقه العارم بكل ما فى مدخرات الأيام الفائتة من رغبات وانتظارات حارة . وكان القمر الساطع فى السماء ليلتها يفضح ما فى نفسه من أوهام حول السفر ، اهمها انه ليس معه من نفقات السفر مليم واحد .

ثم أن طائفة من الكلاب خرجت من احد التقاطعات تجرى مهرولة فى ابتهاج وشقاوة صبيانية ، ولاحظ انها جميعا تجرى وراء كلبة أنثى ، ثم توقفت فى الأرض الفضاء وصارت تتقافز فوق الرمال برشاقة ، ثم تتسارع فى ملاعيب مسرحية ، فيما اقعت هى على مبعدة وراحت تتابع فى شعور بالملل الساخر كأن كل هذه الملاعيب لم ترق لها . كأن هذه الاستعراضات لم تكشف لها عن الذكر الحقيقى الذى يملأ دماغها فتعطيه نفسها .

وجد نفسه مسمرا فى وقفته يتامل المشهد بلذة فائقة يتقمص موقفها تارة وموقفهم تارة أخرى ، فكان يبتسم مشجعا لأحد الكلاب على مهارته فى رد الخصم بالقوة ، ويكاد يصفق لآخر على رشاقته فى التصرف ، ويكاد يحكم بفوز ثالث لتكامل جسمه وبنيانه . لكن الكلبة كالملكة ما تزال تقلب البصر فى ملل وتنظر فيه هو شخصيا كأنها تقول له ولا أنت أيضا يعجبنى ذوقك .. لك مقاييسك ولى مقاييسى التى لا تفهمها انت ولا تعرفها . ثم أمعنت فى احتقارهم جميعا واعتدلت واقفة ثم شمشمت فى الأرض ثم انطلقت تجرى وحدها بسرعة فائقة ، واستمرت بقية الكلاب تتعارك حيث انقلبت ملاعيب الفتوة واستعراضاتها الى معركة حقيقية بينها .

احس هو بالاحباط الشديد ، فاندفع يمشى فى أثر الكلبة محاولا الاسراع قدر الامكان . والى ان بلغها على الناصية الأخيرة البعيدة كان قد تجاوز التقاطع الذى يقع فيه مسكنه . وكان كلب آخر خرج من مكان ما على غير موعد ، وكان مهزولا وليس فى شكله أو هيكله ما يوحى بالاغراء ، وكانت هى قد جلست على مؤخرتها مستندة بأماميتيها رافعة رأسها فى اتجاه الكلب المهزول كأنها تقول له : تعال أين كنت ؟ .. الكلب المهزول أخذ اتجاهه نحوها مباشرة وبدأ بينهما ود عظيم .

لابد ان أنامل الود العظيم تزحف فى صدره لتعزف عليه لحن الهدوء والخلود والأمان . وكان ، ليس فقط يتابع الكلبين اللطيفين بل يباركهما من كل قلبه ويخفق قلبه بالأمل : لكن لحظة الالتحام ما كادت تبدأ وتتحقق حتى انشقت الأرض عن كلب أسود زرى الهيئة غليظ خشن الصوت ، غوغائى ، اندفع نحو الكلبين اللطيفين فى عدوانية شرسة ، فانقض عليهما فاتكا

دونما تفاهم ، عقر الكلب المهزول فارتمى بعيداً يعوى ، وخمش بأظافره الكلبة المحبة فانسربت خجلى تعض على نواجذها من الألم .

غلا الدم فى عروق صاحبى . ولو كان فى يده مسدس لأطلق النار فورا على هذا الكلب الحقير الزرى . ما غاظه أكثر وأشعل النار فى قلبه أن الكلب الأسود الزرى اندفع بكل همجية نحو الكلبة طامعا أن يستأثر بها وحده ، ولكن ذلك كان محالا فى نظر صاحبى .. لقد قرر أن ينتقم منه شر انتقام .. فرمى بحقيبته على الأرض ، وجمع كومة من الطوب والزلط ، ثم اندفع يطارد الكلب الزرى وينشن عليه فى مقتل ، والكلب يتلقى قذائف الطوب متتالية ، فيلهث صارخا متوجعا ، لم يوقفه سوى طوبة قاسية فى قدمه السفلى أعجزته فانطرح على الأرض يعوى .. فارتد صاحبى وقد شعر براحة كبيرة .

بحث عن الكلبة فوجدها تقف هناك بعيدا جداً ، فظل يقترب منها ، فاذا بها واقفة بجوار حقيبته التى كان قد تركها فى مطاردة الكلب الأسود . فوقف ينظر اليها فى امتنان . وبعد برهة جاء الكلب المهزول يتقافز فى مرح ويؤدى أمام الحقيبة وصاحبها رقصة الابتهاج الكبير . لكن صاحبى كان غافلا عن ذلك كله فى أول الأمر ، كل أعصابه معلقة متوترة فى انتظار أن يستأنفا اللقاء من جديد . غير أن وقفته طالت وباخت فحمل حقيبته ومضى عائداً الى بيته ، وعندما اقترب من بيته نظر بجواره فرأى الكلبين يمضيان وراءه مباشرة ، أحدهما على يمينه ، والآخر على يساره ، فنظر اليهما وابتسم .. فظلا يلاحقانه فى حراسة مشددة حتى اختفى فى الدار .

قيـام الواجـب

لو كانت المشيخة بتطويل اللحية وتقصير الجلباب والحرص على أداء كافة الفروض الدينية فى أوقاتها المعلومة ، أو بالتفقه فى علوم الحديث والتفسير والشريعة وما الى ذلك ، لمـا استحق ابويا عبد المعطى ابو حسين القزاز من هذه المشيخة مثقال ذرة . اذ انه لا يحمل من هذه الصفات أى شىء على الاطـلاق ، ومع ذلك تعطى له ، لله فى لله ، وليس يعرف أى أحد فى بلدتنا ، ولا هو نفسه ، متى درج الناس على تلقيبه بالشيخ ، دون شبهة سخرية أو تريقة أو مقلته . الا أن ذلك فيما يبدو قد بدأ منذ وقت بعيد جدا لعله من طفولة ابويا عبد المعطى أبو حسين القزاز . المشيخة تمضى معه فى كل مكان يذهب اليه ، حتى اذا طالعه شخص لم يسبق له معرفته من قبل واضطر لمخاطبته فانه بتلقائية شديدة يقول له يا عم الشيخ ، ربما لأن سمت أبويا عبد المعطى أبو حسين فيه شفرة السر التى تنطق بالمشيخة على أصولها رغم عدم وجود زبيبة الصـلاة فى جبهته . أيا ما كان الأمر فان لقب الشيخ قد بات جزءا من اسمه كأنه مدون فى شـهادة ميلاده ، ينـادى به فى قعداته التى لا تنتهى صبح مساء ليل نهار ، وفى سرحاته الليلية التى يدبر فيها الفصولات الشقية لخلق الله على شطآن الترع

والمصارف وغيطان الذرة ، ليمتع نفسه وشلة مارقة من صحابه العابثين مثله بمنظر الفزع يدب فى الناس الآمنين السائرين فى حالهم ، بمنظر شخص كان يدعى المرجلة فاذا هو ينكفىء فى مسطاع المصرف صارخا من الرعب يبول على نفسه ، بمنظر خفير مغرور بحكم البندقية واللبدة الحكوميتين اذ يتملكه الخوف فيفرغ جعبة ذخيرته الحكومية فى حصير مبروم وواقف فى الجرن يتحرك بفعل خيوط خفية ممسوكة بأيد تختفى فى مكان بعيد .. هى مسخرة فى مسخرة يموت فيها أبويا الشيخ عبد المعطى ابو حسين القزاز ، يفقد فيها كل وقاره بل انه لا يعترف أصلا بما يسمونه بالوقار ، لا يتورع عن لبس جلابيب النساء ولف الراس بطرحهن ليتقمص شخصية النداهة التى يجب أن تتسلل فى الهزيع الأخير من الليل الى بيت فلان الفلانى تناديه بهمس واعد حلو تدعوه الى صحبتها لمرافقتها فى اى مكان يشاء : « عايزاك فى كلمتين صغيرين ! أنا فلانة مانتاش عارفنى يا فلان ؟ ! » ، فيمضى معه الموعود بالعذاب ، يلف به أبعد الغيطان وكل الخرائب بحجة البحث عن بقعة آمنة ، حتى يكل صاحبنا من المشى وتأجج الانتظار ، ثم ما يلبث حتى يفاجأ بما يثير جنونه ، بأصبع خبيث يبعبصه فى مؤخرته بسرعة مفاجئة فيتلفت حواليه منتفضا صارخا كالموتور ، فما يكاد يمضى خطوتين حتى يفاجأ بأصبع آخر يحاصره اينما لف يجده ، ففى اللحظة التى يرتفع صراخه يطلب النجدة تكون النداهة قد دفعته الى عشة نائية : « خش هنا يا حبيب قلبى متخافش ! دانا باهزر معاك ! » وتتركه وتختفى فى الحال ، هو ونصيبه حينئذ حسب قدرته على الاحتمال ، بعضهم يهذى فى العشة وحده حتى الصباح ، بعضهم بارد القلب يخرج بعد فترة ليقفل عائدا الى داره منتفضا متلصصا يبسمل ويحوقل ويقرأ عدية يس ..

الأعجب من ذلك كيف ينتقل الخبر الى أهل البلدة فى الصباح الباكر فى حين ان أبويا الشيخ عبد المعطى أبو حسين القزاز لم يؤت فرصة مقابلة أحد يبلغه الخبر ، كما أن الموعود بالفصل السخيف ربما لم يفضح نفسه بنفسه بصياح أو جعير ، اذ هو فى العادة يبقى نائما حتى الضحى العالى لا يستطيع أن يلم نفسه من الفرشة . وهكذا أيضا أبويا الشيخ عبد المعطى بعد ان يفعل فعلته يظل نائما ولا على قلبه خبر بأن الدنيا من وراء ظهره مقلوبة تتحدث عما جرى لفلان الفلانى بالأمس .

بمجرد خروج الموعود بالفصل البايخ من عتبة داره يجد الحادث يبرق فى أعين جميع من يلتقيهم ، الكل يبدو انه يكتم فى نفسه خواطر مثيرة للضحك ، ربما نشط الخيال فضخم الحادث أضعاف أضعاف حجمه ، ولكن حسب درجات العشم ، ومركز الشخصية فى البلد ، فلقد يظل الواحد منهم يضحك بعمق غير عابىء بأن صاحبنا قد انجرح أم لم ينتبه ، ولقد ينجح فى كتم الضحك حتى يبتعد صاحبنا ، لينفجر حلقه بصوت كحشرجة الكلاب عندما تكشر عن أنيابها لحظة الغضب . فاذا مر صاحبنا بمصطبة فى الطريق العمومى بدا الجالسون عليها كأنهم كانوا فى انتظاره من صبيحة ربنا ، يردون عليه السلام بحماسة مبالغ فيها يشددون فى العزومة عليه بكرم حاتمى أن يتفضل الشاى ؛ هيهات أن يفلت منهم بأى عذر أو حتى باصطناع الغضب . ان أفلت بمعجزة من اى مصطبة فان ذلك مستحيل عليه بالنسبة لمصطبة دارنا ، التى ربما هى أشهر مصطبة فى البلدة كلها .

أبويا الشيخ عبد المعطى أبو حسين القزاز هو الراقوبة التى يبيض فوقها المساء رجالا ضاحكين عديدين . الوقت ملكه ، فهو يملك أرضا يزرعها أولاده الأشداء الذين هم فى الأصل

أولاد أعمامى ويدخل ضمنهم فى نظره اخوته الصغار من اعمامى . يقضى النهار على هــذه المصطبة يذب الشرد أو الذباب عن وجهه ، يعيد تبليغ عبارات المؤذن فوق جامع العصــاروة القريب من دارنا ، مرسلا كل عبارة بعبارة من عنده تستغفر ، تدعو بالستر ، تطلب غفران الذنوب ، تستشفع بالنبى فى رد عذاب الآخرة المتوقع، تستهول نيران جهنم الحمراء . ضمن ذلك يوقف اى عركة تنشب، اذ مهما تعظم شأن العركة وارتفع اللجــاج بين المتعاركين لدرجة تنذر بطلوع النبابيت ، فان كلمــة واحدة منه ـ ينطقها بحرفنة عظيمة ـ لابد ان توقفها فى الحــال مع أن العمدة نفسه لو ظل ينطق نفس الكلمــة طول النهار فلن يأبه له أحد . ان لم تنفع الكلمــة فشخطة حادة تحســم ، فان لم تبــلغ الشخطــة ســمع الموتورين فقفزة سريعة عن المصطبة يصير بها فى قلب العركة فاصلا بين الأطراف وهو على أتم ثقة من أن أحد الطرفين لن يجرؤ على دفعه بعيدا لينقض على خصمه ، بل ســوف تتهدل اعصــابه فى الحال ويمتثل خازيا الشيطان . غالبا ما يعود الأطراف كلهم فى نهايــة الشوط الى المصطبة للتحقيق فى أصــل السبب وفى حله من جذوره بشاى يشربونه جميعا من براد واحد . فان لم تكن عركة فان أبويا الشيخ عبد المعطى لابد أن يجد ما يفعله فى قعدته ، يرشد الغرباء الى الطرق الصحيحة الموصــلة الى اغراضهم ، يتصيد شروة ســمك تفوت بها امرأة صــياد تحملهــا فى طبق أو مصفاة مغطــاة بورق الخروع ، فيناديها قائلا : « ورينى يا أم فلان ! » ، فاذا هى تنزل الشيلة عن رأسها وترفع الورق ، فيبسمل ناظرا فى الشروة بعينيه الضيقتين نظرات تعبر شــاربه الضخم المنفوش وانفــه المدبب ، تتقبض جبهته المتغضنة تحت عمامة محندقة بشال حول طاقية صــوفية كاصيص مقلوب ، ثم

يقول : « يلا بالبركة ! وديهم للعيال ! » مشيرا بكوعه الى باب الدار المجاور للمصطبة ، يتبع الاشارة بصيحة : « يا بت يا فكيهة ! » ، فما تكاد أى فكيهة تخف لتلبية النداء حتى يكون قد حدد السعر الذى سيدفعه ، ويبدأ الفصال من تحته ببضعة قروش ، لتظل المرأة تردد خلفه : و « يفتح الله ! » الى أن يصل لما حدده فلا يرتفع عليه مليما واحدا . ثم ينصرف الى تدبير الحيل لتصيد الرجال كى تجلس معه ، بأن يضع صينية الشاى بالبراريد والأكواب وطبق من القراقيش الناعمة كالبسكويت بجواره على الدوام ، ليقول لكل فائت ألقى عليه السلام ، « الشاى اهه ! جاهز وسخن ! حود حود والله لتحود ! » . لا بأس ان يدخل الشاى الدار للتسخين أو للتجديد طالما أن الضيف قد تم اصطياده ، ترك بلغته على الأرض وتربع فوق الحصير الجميل ومن خلفه المساند الوثيرة .. الشاى يسحب شايات ، والسلام يشد رجالات ، تصير الزربية كلها كمهرجان يومى تحت شمس الأصيل القرمزية كبطن الخيمة المضاءة ، تطرح المصطبة ملاحق وقعدات اضافية حولها بحصير على الأرض أو بدكك خشبية عتيقة تسحب من المندرة مجرجرة الى جوار المصطبة ، تنتعش الحكايات والنوادر والطرف والأخبار ، يتألق الفرافير البارعون فى التشخيص والقلتة . يا ويل من تعرض للفصل البايخ اذا مر لحظتئذ ، فأر أغلقت عليه المصيدة ، الا أن الجميع بوحى من أبويا الشيخ عبد المعطى يستقبلونه فى جدية كأنهم لم يعرفوا أى شىء عما حدث . وتمر لحظات طويلة يأمن خلالها صاحبنا ويطمئن ويندمج معهم فى الحديث الكلى وفى الضحك . وفى عز اندماجه فى الانبساط يعتدل أبويا الشيخ عبد المعطى فى قعدته ، يميل نحو صاحبنا كأنه يحدثه عن شخص آخر مجهول :

ـ « يقولون ان هلفا وقع بالأمس فى يد النداهة ! الا تعرف من هو يا فلان ؟ ! ..

عندها يحمر وجه صاحبنا يصير كالكبدة ، يطرق بوجهه الى الأرض ، يحاصره أبويا الشيخ عبد المعطى » ..

ـ « وبعد يا رجال ؟ ! لقد استفحل خطر النداهة والناس مع ذلك يصدقونها حينما تعود فتناديهم ! أصلها نداهة بنت حرام تنده لكل واحد منهم بما يريده ويصدقه ! » ..

وهكذا ينخرط السامر فى ضحك عاصف ، حتى المضحوك عليه لا يجد مفرا من المشاركة فى الضحك على نفسه وعلى كيفية استغفاله ، يضحك بصدر رحب فى غير حقد أو غيظ ، لأن أبويا عبد المعطى ابو حسين القزاز لابد أن يفسل له صدره اثناء تريقته عليه ، يكفى أن ينظر المغيظ الى أبويا الشيخ عبد المعطى وهو مندمج فى الضحك ، اذ يتحول وجهه الملوح بالشمس الى وجه طفل غاية فى البراءة والصفاء ، ولاينى يردد خلال ضحكه المنطلق المنفعل بالبهجة والغبطة عبارات متقطعة جذلة تفيض بالحبور والسرور والحب :

ـ « لمؤ .. ا .. خذه الـ .. كلام .. م .. مباسطة ! كلنا فى النهاية اخوة مفيش حاجة ! بس و .. لا .. د الـ .. حرام اللى .. سارحين فى البلد دو .. ل .. لازم .. نوقفهم عند حدهم ! دول حيخلصوا على رجالة البلد ! دى مصيبة حلت علينا ! » ..

ويمسح دموع الضحك بظاهر يده . المغيظ الذى صار الآن مستعداً لغفران ما حدث له ، لم يعد يغيظه سوى شيء واحد :

ان يكون واثقا بينه وبين نفســه ومن شواهد كثيرة ان ابويـا الشيخ عبد المعطى هو الذى فعل به ما فعل ، فى حين ان ابويـا الشيخ عبد المعطى ليس فحسب ينفى عن نفسه التهمة بثقة راسخة الأعصــاب ، بل يصب جام غضبه على فاعل مجهول غريب عن بلدتنا برمتها . الا ان المغيظ فى النهاية لابد ان يمضى وقد اقتنع بشكل ما ان ابويا الشيخ عبد المعطى ليس هو الفاعل مطلقــا ، فليس من المعقول ان هــذا الرجل العجوز الشايب يمكن ان يفعل هذه الأفاعيل الصبيانية الصغيرة الخطرة فى بعض الأحوال ، التى لا يفعلها ســوى الصياع وقطاع الطريق الغرباء الأشرار ، لا سيما انه غير مستفيد على الاطلاق من فعلها ، ليس يســعى من ورائها الى مكسب أو سلب أو نهب أو كيد أو انتقام ، اللهم الا سبيل الضحك فحسب ، كى تظل قعدة المصطبة قائمــة على الدوام تؤنس ليــالى البلدة بنوادر الأخبار والطرائف ، والأخذ والرد والحديث الشهى بأصــوات منطلقــة مبحوحة من فرط الحماسة والانفعال البهيج ، حيث الضحكات تندلق من الصدور الى الصدور بغير حساب ..

انما كل الناس فى بلدتنا دائما أبدا مستعدون لغفران هــذه الفصولات التى يفعلها أبويا الشيخ عبد المعطى ، الا أبى المدرس بالبلدة . وبقية أعمامى الفلاحين ، الذين لا يرضيهم هــذا اللعب العيالى من رجل كبير مثله :

ــ « يا اخى اكبر بقى ! بطل شغل المسخرة دى ! ضحكت علينا اللى يسوى واللى ما يسواش ! » ..

هكذا كان يقول له ابى فى لحظات الصفاء خاصــة بعد تناول العشاء على طبلية واحدة ايام الأسواق والمواسم ، فيؤيده أعمامى

كل واحد بكلمة ، حتى أعمامى الأصغر سنا فى عمر أولاده يوافقون على هذا الزجر من أبى ، ولكن بالصمت وهز الرءوس علامة التأييد . لكنهم جميعا ـ بما فيهم أبى نفسه ـ لا يمكن أن يكونوا جادين فى هذا ، لأنهم يكتمون الضحك حتى وهم يعترضون، اذ تصحو فى الحال أخبار ونوادر وحكايات بسبب فصولات أبويا عبد المعطى تشد حبال الضحك على آخرها حتى ليستلقى أبى نفسه على قفاه من فرط الضحك ، فى حين يفقد جميع أعمامى وقارهم وهم يخبطون بأكفهم على جباههم أو يخلعون الطواقى ليقذفوا بها على الأرض من شدة الانبساط ، فيما يتابعهم أبويا الشيخ عبد المعطى فى جدية بالغة . فى هذه اللحظة بالذات يتحول الى شخص آخر تماما ، هو الوحيد الذى لا يضحك حينئذ بل يشفى غليله بالنظر اليهم فى استنكار ، امعانا منه فى الايهام بأنه ليس مسئولا عن هذه الأفاعيل الصبيانية التى يتحدثون عنها . ولربما يكون أحد الرجال قد اشتكى لأبى بالأمس ، واذ يضطر أبى للتصريح بهذه الشكوى ، يسحب أبويا الشيخ عبد المعطى نفسا من سيجارته الرفيعة ويشوح بذراعه الطويلة نحو الخلاء فيما هو متربع :

ـ « طب أهو فلان الفلانى ده سهران معايا امبارح لأدان الفجر مجابليش أى سيرة للموضوع ده ! يا عم دى ناس بتخاف من خيالها ! بتهر على روحها او قلت لها : بخ ! وعلى العموم اللى يظبطنى ويمسكنى باليد حلال عليه قتلى ! » . .

يعرف أبى أن هذا لن يكون ، لأنه فشل كما فشل كل أعمامى فى ضبط أبويا الشيخ عبد المعطى متلبسا باحدى أفاعيله ، مع أنهم تعقبوه كثيرا وسهروا من ورائه طويلا حتى سئموا من حصاره ، ومع ذلك يسمعون فى الصباح الباكر أن فلانا الفلانى

قد حدث له بالأمس كيت وكيت ، وجدوه متكوما على نفسه فى مرحاض المسجد ، وجدوه يهذى عند ساقية الوقف ، وجدوه عاريا فى الخرابة ، وجدوه يتسلق دار النصارى بحثا عن كنز مزعوم . حينئذ يكون ابى واعمامى أول المنطلقين فى الضحك ؛ حتى ليبدو ابى منخرطا فى البكاء الحاد اذ هو يضحك بصوت مكتوم ، يضحك رغما عنه ، لا سخرية مما حدث فحسب ، بل سخرية بنفسه وباخوته الذين تعقبوا بالأمس ابويا الشيخ عبد المعطى حتى الصباح ومع ذلك افلت منهم خلسة ليفعل ما فعل ..

غير ان ابى كان واثقا أن أحدا فى البلدة لن يكره أبويا الشيخ عبد المعطى أو يسعى الى الانتقام منه باى حال من الأحوال . ولم يكن ابى ليقسوا عليه ، فهو فى النهاية أخوه الأكبر . صحيح ان ابى بحكم كونه مدرسا وافنديا يلقى الاحترام والتوقير من الجميع ولا أحد يخاطبه الا واقفا ، الا أن العين لا تعلو على الحاجب ، ثم ان أبويا الشيخ عبد المعطى ــ وهو الأكبر ــ هو أول من يوقر ابى ويقدمه على نفسه فى كل شىء حتى لقد تنازل له عن دور كبير العائلة ، توقيرا للعلم الذى حصله أبى فى المدارس حتى شهادة الكفاءة ، وبالأخص للقرآن الذى يحمله كله فى صدره ..

على أن البلدة كلها ، رغم ضيقها الشديد من فصولات أبويا الشيخ عبد المعطى ، ترخى الحبل دائما اذا ما احتدم العتاب بين واحد منهم وبينه ، حتى لا يصل العتاب الى مرحلة الخلاف ويقفز الخلاف الى العراك ، وهو أمر لا يتصوره أحد فى بلدتنا ــ فان نسي أحدهم فى غضبة الانفعال وأوشك أن يفقد أعصابه ويسف فى الألفاظ ، سرعان ما يخف الآخرون لتنبيهه ، ففى الحال

يموت الخـلاف فى مهده قبل ان يتجاوز نطاق فرد لفرد ليصير بين عائلات لا يستهان بشانها ..

وفى الواقع ليس هذا السبب وحـده ما يعتقل الخـلاف ويمحوه ، انما السبب الحقيقى الذى يعرفه الجميع ويفخر به ابى واعمـامى ، أن أبويا الشيخ عبد المعطى هو ـ ويا للعجب ـ النجم الأوحد فى بلدتنا ، المتخصص فى فض المنازعات ووأد الخلافات بين الناس ، ليس فحسب بين فرد وفرد ، بل بين بلدة وبلدة . هو فى هـذه المهمة موهوب صاحب عبقرية لا يدانيـه فيها أحد فى بلدتنا او بلاد العب كله . صاحب حيل بارعة ذكيـة لا تنتهى أبدا ، وصاحب لسان ذرب طليق ، وعبـارة موزونة مشحونـة مؤثرة حاسمة ، ليس فيها لت أو ثرة . ولقد تستيقظ الفصول الهازلة فى ذهن من يستمع اليه ـ بل هى مستيقظة على الدوام ـ لكن المستمع له ينظر فى عينيه حينئذ فلا يجد فيهمـا سـوى الجدية الباعثة على الثقة والصفاء الباعث على النسيان . ذلك ان كلامه المنطق المحـكم الملىء بالصـدق والحرارة يملأ دماغ المستمع ، اذ ان أبويا الشيخ عبد المعطى يدخـل فى الموضـوع مباشرة ، فيخترق ذهن المستمع يفاجئـه بأنه يعرف ما يفكر فيه الآن على وجه التحـديد وما يود ان يقوله ، يصرح له بأن الرد واضح ، وأين أذنك يا جحا ؟ قال : من هنا ، ويلف ذراعه حول رأسه ليمسك الأذن البعيدة ، تعبيرا عن السخرية من جحـا الذى كان بامكانه أن يلمس بيمناه اذنه القريبة من يمناه . ثم ان أبويا الشيخ عبد المعطى يسـمى الأشياء بأسمائها الحقيقية حتى ولو كانت باعثة على الخجل أو الحرج ، لا يهمه وجود حريم ، لا يختشى من عمدة أو امام مسجد أو شيخ طريقة . ولقد يتحرج الوقورون والوقورات

وربما وضعوا أيديهم على آذانهم أو عيونهم من فرط الانزعاج والخجل من لفظ قبيح أو تعبير حاد لم يتعودوه فى أى حديث بينهم ، تقشعر ملامحهم من شدة كتمان الضحك ، الا انهم سرعان ما يكشفون عن أعماقهم الموافقة على هذه اللهجة لأنها رغم شكلها الصارم تريحهم تماما اذ تضع النقط على الحروف تؤكد صدقه الى حد الأنفة من تجميل الشىء بلفظ موارب او مراوغ ؛ من هنا فالمعانى عنده دائما محددة وقاطعة ، خاصة اذا كان الحديث فى أمر تحقيق الحقوق وجلسات المصالحة ، ولا ينسى احد ان الفاظه العارية وعباراته الساخرة هذه كثيرا ما فثات غضب المتخاصمين فمزجتهم جميعا بضحكة واحدة صاعقة صافية يصعب بعدها استئناف لبس قناع الزعل ، ويسهل الاسترسال فى عبارات الأريحية الميالة نحو التصالح يدعم ذلك أن لديه مخزنا لا ينفد من الحكايات القديمة والجديدة تبدو كأنها كلها من تأليفه يقحم فيها عمر بن الخطاب وسيدنا على وابا حنيفة والامام الشافعى أو سيدى ابراهيم الدسوقى او السيد البدوى ، لأن احدا غيره لا يعرفها ، وجميع المشايخ المحترفين والمتنورين لم يقرءوها فى مصادرهم وأمهاتهم ، وكلها حكايات تنتهى نهايات محبوكة على الموقف الراهن دامغة صارمة ، تحض على الحلم وتبين مخاطر الغضب وعواقب الاندفاع وفضيلة الاعتراف بالحق ومكرمة العفو عند المقدرة ، وضرورة انتقام السماء فعلى الباغى تدور الدواير ، والعدالة الالهية التى بنى عليها الكون ، هل اتاكم حديث ذلك الرجل المؤمن الذى نزل ضيفا على احد معارفه فى غيبته فزاغت امراته فى عينيه وزاغ فى عينيها فهمت به وهم بها لولا أنه تذكر برهان ربه فاستغفر وصان نفسه من الخطيئة ، فلما عاد الى داره رأى زوجته فى حالة اضطراب غير طبيعية فسألها عما يكربها فقصت عليه كيف ان

السقا جاءهم بالمـاء اليوم فلما شعر أن رب الدار غائب تطـاول عليها فغازلها بمعسول الكلام حتى كاد يستميلهـا لولا انها ردته بخشونة ولقنته درسـا قاسيا ، حينئذ اتعظ الرجـل المؤمن وصفق كفـا على كف وهو يقول : « دقة بدقة ، ولو زدنا كان زاد السقا ! » ، نعم يا جماعة ، داين تدان العين بالعين والسن بالسن والبادى أظلم .. الى آخر هـذه الحكايات والطرائف التى تمتلىء بها جعبة ابويا الشيخ عبد المعطى أبو حسين القزاز ..

كثيرا ما يمر على مصطبته فى عز الليل ناس منهمكون فى المشى بحماسة وانفعال ، فاذا هو قائم يعترض طريقهم ، يجبرهم على رمى السـلام ، وعلى الاطلاق بالتلاتة لتشربوا الشاى ، وشاى فى حكاية ، ومثل فى آية ، وموعظـة فى حديث ، يمضى الوقت ، وفى النهاية ينصرفون وقد داخلهم ما يشبه اليقين بأنه كان على علم بأنهم ذاهبون لتقليع زرعة او سرقـة زريبـة أو التربص بغريم ، وأنه عمد الى تعطيلهم حتى تضيع الفرصـة فيثوبوا الى رشدهم مهما يكن من أمر فان قعدته الليلية هـذه على المصطبة أمام الدار كثيرا ما لعبت دورا فى وأد جريمة فى مهدها ، أو فى تدبير مؤامرة تكشف عن طوايا نفوس صافيـة لنفوس صافيـة أخرى كانت متخاصمة ، فتعيد وصل ما كان انقطع بين نفوس ونفوس ..

مؤامرة بريئة كهذه فضت خلافا بين عزبتين مجـاورتين ، ومثلها قضت على عداء متحكم بين بلدين . يعزم على الغداء فى منزله أقطابا من عائـلات المتخاصمين دون أن يعلم هـذا بحضور ذاك ، وعلى طبلية الغداء يتم التصافى بكل الحيل الجميلة والطرق القصيرة . شيئا فشيئا ــ وبأساليب جهنمية ــ يسـعى للربط بين عائلات المتصالحين حديثا فى مصـاهرات ، يغرى هذا بخطبة ابنة ذاك لابنه ، ويساهم فى تذليل اى عقبـات تنشأ فى سبيل

اتمام الزيجـات ، ربما تعهد لنجـار الموبيليا بضمان بقية فلوسه ، ربما ابتدع صيغة لكتابة قائمة العفش ترضى الطرفين ، ربما تطوع بمحاسبة المغنين أو الطباخين ، وربما أرسل النقوط خروفا ثمينا او اردبا من الأرز ..

الحق كل الحق ان ذاكرة الناس فى بلدتنا أصبحت تربط بينه وبين النقيضين فى صورة محيرة : السعى بين الناس بالصلح ، والســعى فيهم بالهزل والمسخرة . الا أن عقـلاء بلدتنا كانـوا يؤكدون أن هـذه الأخيرة جزء من تمام الأولى ، وبهذا أراحوا أنفسهم واعتبروه قرينا لفعل الخير بوجه عام ..

لهذا ، لم يكن أحد فى بلدتنا أو فى العب كله يتوقع أن أبويـا الشيخ عبد المعطى أبو حسين القزاز ينتهى هذه النهاية الفاجعة. بل لم يكن ليرضاها له أحد على الاطلاق . ذلك أن أبويا الشيخ عبد المعطى ابو حسين القزاز قد قتله أشباه الرجال فى غفلة من الزمن فى فصــل هزلى لا يقل خرقا ولا طرافة عن فصوله الهازلة التى طالمـا افتتن بتدبيرها والقيام بتنفيذها بنفسه : كان بكرى خفير التفتيش الغلبان المكسور الجناح قد اشتكى له من خليل البقال ، الذى دأب على مغازلة امراته الجميلة واغرائها بارتكاب الفحشاء معه أو تطلق نفسها من بكرى لتتزوجـه . وكان أبويا الشيخ عبد المعطى يعرف أن وهيبــة زوجة بكرى امرأة جميلة بالفعل وتساوى رقبة عشرة مثل بكرى وخليل معا ، هكذا يقول له دون حياء ، لكن هذه نقرة وهذه نقرة ، الحق حق ، ونجاســة الذيل سبة للبلدة كلها . وهكذا أقسم أبويا الشيخ عبد المعطى لبكرى خفير التفتيش أن يجعل خليــل البقــال يتوب عن هــذا الفعل على يديه توبة نصوحــا ، ليجعلنه يفقد الخلفة يصبح هو والمراة سواء . وبعد منتصف الليل ترك جلسة الساهرين معه على

ذمة أن يفعل مثلمـا تفعل الناس ويستنجى ويتوضـأ لصـلاة الفجر ، ثم دخل الدار ، ثم تسلل من الباب الخلفى المطل على الغيطـان ، بعد ان لف جسـده بالملس الحريمى ولثم وجهـه بالطرحة ، وزرق فى الحوارى الموصلة لدار خليل البقال الجديدة المبنية بالطوب الأحمر على شاطىء مصرف نمرة تسعة . وتحت شباك الحجرة التى ينام فيها خليل كمن أبويا الشيخ عبد المعطى حتى رأى خليـل البقـال قادما بعد تشطيب الدكان يتخبط فى الظـلام يدوس فوق الكـلاب النائمة . ناداه فى همس وغنج : « سى خليـل ! سى خليل ! » . ففزع خليـل وبصق فى عبه : « بسم الله الرحمن الرحيم ! مين ؟ ! » ..

ــ « هش ش ش ! وطى صوتك ياسى خليل !

متخافش دانا وهيبة ! جوزى بايت فى التفتيش الليلة وبكره وبعد بكره ! الدار خالية وأمان ! تعال ورايا ! » ..

ومضى أبويا الشيخ عبد المعطى كشبح يتقصع فى الظـلام ويطرقع اللبانة فى فمه ــ كاحدى أبرز سمات وهيبة ــ ويطرقع بالشبشب فى كعبيه ، ويكاد لبراعتـه فى التمثيل والتقليد يكون وهيبة بذات نفسها بمشيتها المعجبانية المعروفة .. ومن خلفـه مضى خليل البقال يتراقص من الفرح والغبطة لاهث الأنفـاس خشية أن يتوه الشيخ من عينيه بين أحراش الحلفـاء وأعواد التيل والبوص وشجر الجزورين ، حيث اخترق أبويا الشيخ عبد المعطى دروبا مختصرة تخترق غيطانا وحدائق وتعبر قنوات ، تجنبـا للخوض فى حوارى وسط البلد حتى لا يراهما أحد ، مما ضاعف من مصداقية الملعوب ، حيث قد وقر فى ذهن خليل البقـال أن المرأة اللعوب جادة فى دعوته والوصول به الى دارها فى أطراف البلدة من الناحية القبلية ..

الذى لم يكن يعلمه أبويا الشيخ عبد المعطى أن وهيبة كانت قد تواعدت بالفعل مع خليل البقال ولكن بالاشــارة فحسب ، اذ كانت فى دكانه فى الضحى تشترى شريط لمبة الجاز نمرة خمسة وذكرت له أن بكرى سيبيت الليــلة فى التفتيش فى حراســة ماكينة الرى ، وانها تخشى المبيت وحدها فى الظلام ولهذا جاءت تطلب شريطا للمصباح ، فأعطاها الشريط بالمجــان ، ونخبة من فصوص اللبان النتاية ، حفنة من اللب والســودانى للتســلية ، وشريحة من الحــلاوة الطحينيــة ، ولم تكن المسكينة تعرف أن زوجها بكرى المكار قد أوهمها بانه سيبيت فى التفتيش لكى يفاجئها فى الليل ، فبعد أذان العشاء صفرت عليها الدار ، ورسم لها ضوء المصباح على الحائط أشباحا من المخــاوف ، فتذكرت أن خليل البقال وهو يغمزها بالهدايا قال لها : « يمكن أفوت اشرب الشاى معاكى ! » . فردت عليــه قائلة : « تشرف البيت بيتك ! » لأنها كانت واثقــة ان خليل البقال لا يمكن ان تواتيه الجراة على فعل شىء كهذا ، وواثقــة أن ردها هــذا مجرد واجب كلامى لا اكثر ولا أقل ، الا انها استعادت ضغطة يد خليل على يدها ، والشبق المجنون فى عينيه والحرارة الواثقة فى صــوته ، فاقشعر بدنها فخشيت ان يركب خليــل عقله فيفعلهــا ويجىء وتكون الفضيحة ، استعادت شريط خليل من يوم ما بدأ يعاكسها فتمثل لهــا شــيطانا مجنونــا يمــكن أن يفعــل اى شىء لينــام معهــا باى شكل ، فرات ان اسلم شىء تفعله أن تقوم الآن فتذهب لتنام مع أمها العجوز الوحدانيــة فى دارها فى عزبة العبيد ، فسحبت الملس فتلفعت به وانطلقت مهرولة الى هنــاك . قرب منتصف الليل آن لبكرى أن يفاجىء زوجه ويقطع دابر الشــك من نفسه بعد أن فاحت الرائحة فى البلدة ووصلت اليه الأخبار من شهود العيان تؤكد رؤيتهم لوهيبة مختليــة بخليــل فى ركن قصى من

دكانه . كانت ركبه سائبة وقلبه يتقزز من موضعه كلما اقترب من داره ، وبندقية التفتيش تهتز على كتفه فيشدد قبضته على حزامها . فتح الدار فلم يجد زوجه ، فركبه الجنون ــ سال الجيران فردا فردا فلم يجد لها أثرا عندهم ، واخبره طفل صغير انه شاهدها واقفة مع خليل البقال عند داره . قرر أن يعاجلهما من أقصر طريق ، أن يخرم من المزارع ليكون فى مواجهة الدار مباشرة ، نفس الدروب التى سلكها أبويا الشيخ عبد المعطى وهو متنكر فى زى النداهة . كان ابويا الشيخ عبد المعطى ينوى تتويه خليل وتعذيبه فى الغيطان والمصارف بقية الليل حتى يمسخره وبربى له الخفيف ، فجعل يموه على خليل البقال كى يوقعه فى معجنه بشعة على مشارف دار بكرى ، اذ أن الخريجية قد تريحوا كنائف الجامع الكبير منذ ثلاثة أيام فقط فملأوا بالخراء بركة عريضة جافة حتى سووها بالأرض وتركوها لتجففها الشمس فجففت سطحها فحسب . كانت الخطة ان يتركه غارقا فى الخراء حتى اذنيه ويرجع الى جلاسه على المصطبة كى يستمع معهم الى صراخ خليل طالبا النجدة بعد ما تعييه الحيل ..

ولم يكن قد بقى على المعجنة سوى خطوات قليل حينما لمح ابويا الشيخ أبو المعطى شبح خفير بندقية معلقة فى كتفه يمشى بانفعال والشرر يتطاير من قدميه على الأرض . حاول أن يدارى نفسه فى جزوورينة قريبة . الا أن الخفير لمحه ، فتتبعه متلصصا ، فاذا بشبح خليل البقال يظهر لاهثا فى البحث عن شبح وهيبة الذى احتجب بالجزوورينة ، فصار يهمس مناديا بصوت متهدج « وهيبة ! رحتى فين يا وهيبة ؟ » ، واتجه الى الجزوورينة ملتحما بشبح وهيبة • حينئذ صرخ فيه بكرى : « استنى عندك يا أبو ديل نجس » . وكان خليل قد امسك بطرف الملس وجلب

شبح وهيبة يريد احتضانها حينما رن الصوت فزلزله . ما كاد بكرى يرى الملس الأسود ينسلخ عن جذع الجزوريئة حتى صرخ : « آه يا فاجرة ! » ، ولم يدر الا والبندقية قد قفزت مستقرة بين يديه ؛ واحكمت النشان وأفرغت فى الشبحين كل رصاصها فسقطا فوق بعضهما على الأرض جثة واحدة متداخلة الأطراف مختلطة الدماء ..

قرب العصر صدر التصريح بالدفن . كان يوما عصيبا مؤلما على عائلتنا كلها ،ركبهم الذهول حتى عجزوا عن البكاء وعن فعل اى شىء ، بل انعقدت السنتهم فى حلوقهم وعلاهم الشحوب والحيرة فصاروا كالبلهاء الخرس يتخبطون فى المهانة والخزى . لم يكن فى الوقت متسع لحمل الجثة الى الدار . كان لابد من التعجيل بالدفن كيفما اتفق . ورجال البلدة كلهم فى عز موسم الشغل فى الحقول البعيدة ..

اقرب مكان يصلح لتغسيل الجثة وتكفينها واقامة الصلاة عليها هو جامع سيدنا هارون ، ذلك المسجد العتيق البالغ من العمر خمس مئات من السنين كماهو ثابت فى لوحة بجوار منبره العتيق . يقع فى مكان معزول وحده خارج مبانى البلدة فى بقعة متاخمة للمقابر ، فمع أنه أفخم مسجد فى البلدة من حيث طراز البناء وطول المئذنة وضخامة قبة الضريح الا أنه كان يبدو كالمنبوذ المكفهر ، لا يؤمه للصلاة الا مجموعة قليلة جدا من مجاذيب الطرق الصوفية والدراويش حيث يتيح لهم فرصة الاختلاء بأنفسهم لوقت طويل ، انجذابا الى سيدنا هارون ، ذلك الولى الزاهد الذى أقام لنفسه خلوة فى هذا المكان منذ ذلك التاريخ البعيد ، فلما مات دفن فيها ، فبعد دفنه زار بعض الموسرين فى المنام وطالبهم ببناء مسجد له ، فامتثلوا على الفور

فأقاموا المسجد حول الضريح فصرفوا عليه مبالغ طائلة لكي يجعلوا منه تحفة نادرة ، الا أنه قد أحيط بالشـؤم من أول يوم ، حيث سقط من على سقالاته أثناء البناء ثلاثة من الفواعلية فماتوا ، وحدث خطأ هندسي في بكية البوابة القبلية فسقطت بعد عامين من بنائه على بعض من كانوا نائمين في ظله فماتوا . ابان بنائه واكتماله حلت بالبلدة غزوات من عسكر من ملل كثيرة نهبت وهتكت وسفكت وخربت ، فكان أن هجره الناس هجرانا شبه تام ، فخيمت عليه سحابة من الكآبة والمهابة والرهبة ، وكان مع ذلك يبدو للقادمين من الطرق الزراعية شيئا جميلا ثمينا يضفي على بلدتنا عراقـة وأبهة ، خاصــة أنه محاط بخلفية من ابراج الحمام كالقوس يكاد يحتويه في حضنه . وكانت قبة الضريح والمئذنة يغوصـان في أحشاء الأبراج يلتحقان بها كأنهما المركز المتميز الذي تتفرع عنه هذه الأبراج البيضـاء المستطيلة الشامخة بعشرات المئـات من العيون المفتوحة في تشكيلات عديدة . أجيال لا حصر لها من الحمام تربت وتعلمت الطيران فوق هـذه المئذنة وهذه القبة حتى استوطنها بأعداد مهولة . أبدع مشهد في بلدتنا على الاطـلاق هو قوس الأبراج وفي قلبه الجامع كخاتم يحيط بحجره الكريم ..

عندما شرعوا يغسلون الجثمان فوق الضرابية في الميضأة كان الحزن قد وصـل بأبي الى منتهاه ، حتى سمعته يهذي بالكلام لأول مرة منذ جاءنا الخبر المشئوم . الحزن لم يكن بسبب الموت فحسب ، ولا الطريقـة البشعة السخيفة التي تم بهـا الموت ، انما لاكتمال الشؤم الفاجع ، بأن يتم تغسيل الجثمـان والخروج به من هذا المكان المشئوم خرجـة لا تليق أبدا بسمعة عائلتنـا ولا بقدر أبويا الشيخ عبد المعطي بالذات وهو نار على علم في العب كله ، فكيف يخرج هكذا في يوم خلت فيه البلدة تماما من الرجال ؟ ! وكان أبي ينظر الى الذين يؤدون صـلاة الجنازة

فيجدهم يعدون على أصابع اليدين ، فينكس رأسه فى الأرض محمر الخدين متهدل الملامح كالمضروب على وجهه بنعل جزمة قديمة ..

ما كاد النعش ينتصب واقفا فى صحن المسجد غير المسقوف حتى انهالت عليه أسراب الحمام بغزارة كالمطر ، تسقط فوقه جماعات جماعات ، عموديا كتساقط الفاكهة الناضجة من افرع الشجر ، فى مظاهرة شديدة الصخب من صفق اجنحة ورفرفة وهديل . ما ان ينطلق سرب حتى يحط بدلا منه أسراب تحتل كل بقعة فى خشب النعش وفوق غطاء الجثمان ، كأنها اكتشفت لعبة جديدة مثيرة مبهجة . والفقيه الذى أم صلاة الجناز راح يرفع صوته ليغطى على لغط الحمام ، والمصلون ملخومون متوترون يدفعون عن وجوههم رفرفة الأجنحة ويختلجون من اندفاعها أمام وجوههم مباشرة . وحتى بعد أن انتهت الصلاة وتقدمت الرجال لحمل النعش لم يجفل الحمام ، بل ظل فى مكانه منكمشا انكماشا وادعا اذ يرى نفسه يرتفع بارتفاع النعش فوق الأكتاف ، ويهتز النعش بشدة اثر اندفاع سرب على حين غرة يحتل مكانه سرب آخر . واذ خرج الموكب الصغير من البوابة القبلية وانعطف على الطريق المؤدى الى المقابر كان ثمة نعش يتهاوى وسط حوالى عشرين رجلا تتسع المسافات بينهم ، صاخبة مزغردة صاعدة هابطة فى تشكيلات تتسلخ من بعضها لتدور حول بعضها لتعود فتتلاحم تتداخل تتشاكل تملأ الفضاء بنتف غزيرة بيضاء من الريش كالقطن المندوف . وصارت الخيمة تتسع وتمتد لتلتحق بالمقابر المقامة على مرتفع جبلى ، فتختفى الأشباح الصاعدة شيئا فشيئا يخفيها ذيل رداء شديد البياض ، فيما يرتفع النعش بغطائه الأبيض فكأنه المنطاد يسبح فى السماء معلقا فى مظلته بحبال خفية .

العرجـاوى عطـا

لى أعمام كثيرون جدا فى بلدة الشقة ، لكنهم جميعا ، على شدة بأسهم ، يتضاءلون أمام عمى العرجاوى عطـا . ذلك أن جميع الناس فى بلدتنا وكل البلاد يحترموننا بشىء كثير من الرهبة لأننا من سـلالة العرجاوى عطـا . وحين نقوم بزيارة أعمامى فى بلدة الشقة نقول اننا ذاهبون لزيارة عمى العرجاوى عطـا ..

تبعد بلدة الشقة عن بلدتنا مسافـة ساعتين بالركوبة من طريق الكنيسة فى اتجاه الجنوب الشرقى ، على طريق متعرج ثم مستو على شاطىء مصرف نمرة تسعة ، ثم يتعرج مرة أخرى فى كوعة على اليمين فى أعلى الجنوب مرورا بعزبة الطوال ، ثم يأخذ الطريق فى الاتساع على شاطىء ترعة تحفها على الجانبين أشجار الجميز والتوت والصفصاف ، تلقى على حافة الترعة ظلالا داكنة تتماوج بحركة مضببة سرعان ما يبين أنها تلال صغيرة تتصـاعد منها دوائر وتروس وصلبان خشبية فوق رقاب ماشـية مغماة تدور بالسواقى .. تلك هى أحلى وصلة فى الطريق ، وعندهـا يتباطأ الحمار فى خطوه يمشى باطمئنان وروية ، حيث تلفظنا خيم الأشجار كل حين الى عراء الشمس لتستقبلنا خيم الأشجار من جديد تحتوينا ، الى أن تزداد كثافة الظلال لمسافة طويلة يتلذذ

الحمار بقطعها فى خطو مهيب ذى ايقاع مبهج ؛ أن الحمـار يعمل حسابا لعمى العرجاوى عطا اذ ربما التقاه فى الطريق ماشـيا بشكل غير مهذب فيسلخ جلده من الضرب ، كما أنه يعرف أن راكبه قد بدأت تعتريه بهجة الفرح بلقاء أهله ، يعرف كذلك أنه منذ وطىء وصلة الأشجار قد صار بالفعل فى رحاب الديار ، أى تحت سمع وبصر عمى العرجاوى عطا ، الذى يبدو طريق هذه الوصلة كأنه شـعاع من عينى عمى العرجاوى عطا الجـالس كالصقر أمام الدار على مبعدة حوالى ستة كيلو مترات ، فيبلغه نبأ قدوم ضيفه قبل وصـوله بوقت طويل . يميل الحمار الى التروى فى السير لاضفاء مزيد من الوقار على دخلة صاحبه ، ولاعطاء فرصـة لأبناء العائلة المنتشرين فى حقولهم على الجانبين لأن يروا ضيوفهم . الحمـار ينحرف عن الطريق العمومى الى الجرن الواسـع المرصع باكوام من الردم والسباخ واعواد الذرة وقش الأرز وبرك صغيرة منحدرة من الترعة تسبح فيهـا طوائف من الأوز والبط والدجاج ، وثمـة مواش مربوطة فى أوتاد أمامها حزم من البرسـيم الجـاف ، ومرصـع أيضـا بشـوارب عمى العرجاوى عطا ، وبنظراته التى لا تكف من التنقل بين الأشـياء تغسلها من الكسل والغفلة تصحيها بوخز كوخز الابر ، لدرجـة أن اللص ــ يقولون ــ حين يفـكر فى السطو على أى شىء فانـه سيصطدم بنظرات عمى العرجاوى عطا فى أى مكان يسطو عليـه فى أى لحظة اذ أن عمى العرجاوى يترك نظرته على الأشياء ويمضى فتبقى هى حتى بعد أن تزول الأشياء ..

ما يكاد الحمار يدخل فى هـذا الأنس الزاخر بروائح الروث والردم الطـازج والقشـدة الزاعقة فى الأفران حتى ينـدمج فى رقصته الجميلة المعهودة كأنه يهدهد راكبه ، ففى الحـال يقفز

الراكب هابطا الى الأرض تاركا الحمار يمضى مهرولا فى رقصته السريعة حيث تهتز مؤخرته فيبدو تحت البردعة المنجدة بالقطيفة الرصينة اللون كالرهوان ، يتوجه مباشرة الى الباب الكبير لهذه الدار العريضة ، فيخترقه الى الزريبة التى يعرف مكانها جيدا ، ولابد أن يجد من يستقبله فى منتصف الطريق بترحاب ليقوده الى مدود حافل بالتبن والفول ، ينزع عنه البردعة، يربطه فى الوتد ويتركه . أما الراكب فان خبر وصوله يكون قد تهاتف به الطريق والشجر ومياه الترعة ، فخف لاستقباله عدد من الرجال كلهم صور منسوخة من عمى العرجاوى عطا ..

تلك هى الدار الأصلية لعائلة عطا ، التى تفرعت عنها كل هذه القرية برمتها ، بدورها المتراصة على الجانبين تتخللها شوارع وحارات ورحبات ، ومدرسة الزامية أقامتها وزارة المعارف العمومية منذ أكثر من خمسين عاما بطلب من عمى العرجاوى عطا الذى تبرع بالأرض وعمال البناء وظل لسنوات طويلة مسئولا عن ايواء المعلمين الى أن تعلمت اجيال من العطاوية فصار منهم معلمون فى المدرسة فانحلت مشكلة السكن وتحقق حلم عمى العرجاوى عطا فاصبح العطاوية يعلمون العطاوية زيتنا فى دقيقنا . هى الآن مبنى جيرى كالح مصفر ذو سور من الأسلاك الشائكة ، تطل على جرن آخر خلف ظهر القرية ، يطل على مصرف عريض ، له كوبرى مبنى بالأسمنت على قضبان من الحديد بمثابة قنطرة تنحدر قليلا لتلتحق بالطريق الزراعى السائح فى جرن القرية كانه متفرع منه ، مبقع على الدوام ببطش من الجلة والروث . فى مواجهة هذه القنطرة حارة طويلة ضيقة كشق متعرج فى جسد الدور ، فيه يمضى السالك بين جدران من الطوب اللبن المليس بالطين المخلوط بالتبن لا يفتح عليها اى باب أو حتى

طاقة صغيرة . يتفرع منها حارتان يشطرانها كالصليب ، أن حودت على يمينك وجدت كتـاب الشيخ طلبه الحيطاوى ، الذى اختاره وزينه عمى العرجاوى عطـا لكى يذهب اليه الأولاد قبـل سن الذهاب الى المدرسة حتى اذا ما انتقلوا الى المدرسة كانوا على دراية بالقرآن الكريم يجيدون القراءة والكتابة . وان حودت على يسارك وجدت كتاب الشيخ بسيونى جمعه ، الذى اختاره ورتبه ايضا عمى العرجاوى عطا اذ ان أولاد العطاوية فى تكاثر مستمر باسم الله ماشاء الله . كلاهما ضرير وعتيق لكن الشيخ طلبه مكرش بصـورة فاجعة ، وشكله وهو قاعد يشبه قبة الولى ، أما الشيخ بسيونى فانه نحيل ربعة القوام يحرص دائمـا على ارتداء الجبة والقفطان والعمامة على عكس الشيخ طلبه الذى يلبس الجلباب الكالح المتجلد والطاقية الدبلان الحائلة ، ويميل اليه الأولاد لأنه مرح مهزار يتفنن فى العقاب الذى يوجع البدن ولا يوجع النفس لكنه مع ذلك يتقن تعليم الأولاد . وكلا الكتابين فى الأصل مندرة تستقبل الولدان فى الصباح لحفظ القرآن الكريم وفى المساء تستقبل ضيوف الأسرة حيث يجلسون على المصاطب المفروشة بالحصير ، وبجوارهم شباك مستطيل مغلق وفوق ارضه رصات من الورق المصفر الشايط تتخللها فتـلات الخيط وبقع الدقيق العلامة والصمغ والأحبار ، هى نسخ من المصحف الشريف وسيرة الهلالية وعنترة وكتاب الف ليلة وليلة وتفسير الجلالين ونسخة متهرئة من صحيح البخـارى . ان حودت الى اليسـار قادتك الحـارة الفرعية الى مزارع تمتد على مساحات شاسعة الى بحر نشرت ، وان حودت الى اليمين قادتك نفس الحـارة الى مزارع أخرى تمتد على مساحات يقطعها الحصـان السريع فى نصف نهار حتي يصل الى بلدة الحصـة . هذه المساحات وتلك

كلها ملك لناس تنتهى أسماؤهم بلقب « عطا » ، وليس فى البلدة البالغ عــدد سكانها حوالى عشرين أو ثلاثين الف نســمة ، من لا ينتهى اسمه بلقب « عطا » ، فلاحا كان او من الأعيان او عمدة أو شيخ بلد أو صعلوكا او شحاذا أو معتوها او شاعر رباب او اجيرا، كما أن الأســماء المشهورة فيها متكررة بصــورة لافتة للنظر ، فدائما أبدا هنــاك نسخ مكررة من عمى العرجاوى عطــا والحــاج عطية عطا والشيخ عبد العزيز عطا والحاج شعبان عطا والمغنى سالم عطا ولص المــاشية ريشة عطا وقاطع الطريق علوان عطا ، ناهيك عن ســواقى عطا ومواشى عطا ومحاريث ونوارج وجمال عطا ، كلها اشهر من نار على علم فى جميع حقول الناحيــة ، كلها لها على حقول الجيران افضــال لا تنسى ، كما لشباب عطا فى افراح الجيران ومعازيهم على السواء حضور اساسى بارز ..

وجوههم جميعــا ماركة مسجلة ، عليهــا بصمة العطاويــة الزاعقة ، بالشقرة الضاربة الى الحمرة فى لون الشعر والشوارب والرموش والحواجب ، والخدود المنتفخــة بالقشــدة والحليب المخلوط بالشاى ، والرقاب المبرومة المطوقة بدوائر فوق بعضها فكأن الرقبــة رصات من اقراص الحلوى السمسمية ، يولد بهــا الأطفال ذكورا والأناث ، صــوتهم واحــد ، جهورى ، يضخم الكلمات يعطيها هيبة وجلالا حتى لو كانت من الألفاظ السوقية ، لهم فى صوتهم جعصة كجعصتهم حين يجلسون على الكنب المنجد أو الكراسى الخيرزان ، فاذا هم يتحدثون بصــوت منجعص هو الآخر ، ولكن فى غير غطرسة أو ترفع ، انما هى ترييحة فى الصوت عند الاندماج فى الكلام اذ أنهم جبلوا على التدفق فى الحــديث بحماسة وانفعال تتزايد حرارته فى الحلق حتى ليبدو الواحــد منهم كأنه يبكى اذ هو فى الواقع يعبر عن ترحيبه الشــديد فى لهجة ودودة طيبة ، تتزايد هــذه الطيبة كلما توغلنا فى بيوت

الفرع الفقير من العطاوية الذين عثرت حظوظهم فى الحياة لسبب أو لآخر ، حتى لتصل الطيبة الى حد العته أحيانا واللامبالاة أحيانا أخرى نتيجة للافراط فى زواج الأقارب كما يقول المتنورون العطاوية ، بعكس الأعيان الذين هيأت لهم مراكزهم المالية زيجات من بيوتات غنية من بلاد أخرى . ولقد فاضت نساؤهم عن شبانهم منذ وقت مبكر ، فصاهروا بهن عائلات كبيرة فى بلدان مجاورة أصبحت تدين بالولاء للعطاوية ، وانتشرت بذلك بصمة العطاوية على كثير من الوجوه فى الناحية كلها باستدارة الوجه واكتناز الملامح وطول الرموش وثقل شعر الحواجب الواقف أبدا كالأسلاك الحمراء .

جدى الأكبر ، ذو الصورة المعلقة فى برواز على حائط مندرتنا فى البلد يعلوها التراب ، كأنها شباك كبير مفتوح على الماضى ، حيث يطل وجه جدى « أبو السعادات عطا » ببسمته الخفية السمحة ، ولحيته القصيرة المهذبة المنسقة المبرقشة بدوائر بيضاء ، وجبين مضىء تحت طربوش داكن ، وربطة فى عنقه تحت ياقة القميص الافرنجى ، والسترة على كتفيه تنبىء من أجود صوف . جدى هذا ــ يقولون ــ كان يخدم فى الخاصة الخديوية اذ يعمل ناظرا لزراعة أفندينا الخديو فى ضيعته الواسعة التى تقع بلدتنا على تخومها . وقد منحته الخاصة الخديوية اقطاعية فى أراضى الناحية ، شأنها مع كل من يلتحق بخدمة القصر الخديوى من غير الدم الخديوى ، وتسميهم العائلة الخديوية : الأوباش . اقطاعية جدى كانت كبيرة ، حوالى ثلاثمائة فدان من أجود الأراضى فى زمام بلدتنا . ولما كان مصرحا لذوى النفوذ من هؤلاء الأوباش الباشوات بأن من يستصلح منهم أرضا بورا فهى له مهما كانت مساحتها ، ولما كان جدى ــ بحكم

وظيفته ـ يمتلك الفلاحين والأجراء والأنفار العاملين كلهم فى ارض افندينا ، لذا فقد تمكن جدى بشطارته من استصلاح خريطة شاسعة هى المنطقة التى اقيمت فيها بلدةالشقة ..

تزوج جدى تسعا واربعين زيجة ، جمع فيها بين العائلات الارستقراطية والمتوسطة الحال والفقراء بل والخواجات أيضا. لم يكن يحكمه سوى جمال المراة فحسب ، ان راقت له تزوجها فى الحال ليشبع نفسه الظمآنة ابدا ، الى ان تكشف العشرة عن عوامل النفور وضرورة الانفصال فيطلقها بالمعروف مثلما تزوجها بالمعروف .. وقد عاش مائة واربعين عاما ، ظل خلالها يحتفظ دائما بأربع زوجات فى عصمته فى اربع أماكن يتردد عليها لمباشرة مهام عمله فى المعية : القاهرة والاسكندرية والأقصر وبلدتنا ، ذلك ان الأفندينا أطيان فى زمام كلّ هذه البلدان ، انجب جدى حوالى مائة وخمسين ابنا وابنة . وكان عند الاختلاف مع زوجاته لأى سبب من الأسباب يتسامح فى كل شىء الا فى حضانة الأولاد ، ما ان يشب الابن او الابنة عن الطوق حتى ينتزعها أو ينتزعه ليضمه ويضمها الى معيته فى بلدتنا . فمنهم من عمل موظفا فى الحكومة فى بلدان بعيدة ، ومنهم من عمل فى التجارة فى بلدان امهاتهم ، وصفصف الأمر على حوالى المائة من ابنائه الأشداء رآهم يميلون للفلاحة فاطلق ايديهم فى اراضيه الصالحة فانتزعوها شيئا فشيئا من شاغليها ثم قسموها فضعف ريعها فبيع معظمها لناس آخرين .. الا أراضى بلدة الشقة المستصلحة فانها بقيت فى حوزة العطاوية بفضل قوة عمى الغرجاوى عطا فى ردع من يفكر فى البيع وتخويف من يفكر فى الشراء ..

هذه الدار الكبيرة المطلة على هـذا الجرن الكبير ، الممتدة على مساحة أكثر من فدانين ، بأكثر من زريبة وأكثر من منخ للجمال وأكثر من مراح للغنم وأكثر من مندرة وأكثر من مخزن للحبوب وحجرات نوم ومعيشة تتكشف فى قلبه الدار فى صفوف متقاطعة متداخلة .. ابتناها جدى فى الزمن الغابر كاستراحـة تليق بأن يستضيف فيها علية القوم لأزمنة راحة طويلة ، وأن تكون مستقره النهائى حين تجىء اللحظة التى لا يصبح فيها قادرا على خدمة أفندينا بصـدق واخلاص . وهـذا ما قد حدث بالفعل كما تقول حكاوى العائلة وأغنياتهـا وجـدران الدار ودواليبها وما تبقى فيها من أشياء أصيلة بنت أصل عريق ، تقول الأغنيات وحواديت الجدات أن هـذه الدار شهدت سنوات من الليالى الملاح لم تشهد المديرية كلها شبيها لها ، زارها واستراح فيهـا طوائف من جميع انحاء الأرض ، وعلى واحد من هـذه الأسرة النحاسية الأثرية نام جدى نومته الأخيرة بين احضـان زوجتـه الكبيرة ذات الأصل الصعيدى ، من زيجاته المبكرة جدا ، الوحيدة التى عمرت معه مصرة بعنـاد مازح أن تكون قدمه الى القبر أسبق من قدمهـا • كانت ذات سـلطان جبار وسحر لا يقـاوم ، استمدته من عراقة أصلها العربى المستوطن فى الصعيد فى بيت تسكنه الباشـوية منذ وقت بعيد ، هى العقل المدبر وصاحبـة اليد الطولى فى كل شىء ، هى التى اختصرت عدد أبناء جدى باغرائهم على الرحيل حتى يتم تسييد أبنائها هى وعلى راسـهم عمى العرجاوى عطا . كانت فى الواقع محقة ، يكفى انهـا انجبت العرجاوى عطـا ، فيه وحده حق لها أن تشتهر فى جميـع انحـاء البلد بأنها أم العرجاوى عطا ، شهرتها بأنها أم العرجاوى عطـا أذيع واشد فخرا لها من شهرتها انها زوجة ناظر الخاصـة . ثم ان أبناءها هى أبرز أبناء جدى على الاطـلاق ، اكثرهم عددا ،

اشـــدهم رجولة ومدعاة للفخر ، اميل الى العمل والسيادة وملء الهدوم بجواهر الرجال ، اليهم يرجع الفضـــل فى قيـــام اللون الأخضر على هـــذه المساحات المهولة التى كانت مجرد رمال وبرك ومستنقعات . كانوا أكثر من ثلاثين رجلا ، كل رجل فيهم بمقام بلدة بكاملها ، ورثوا عن جدهم حب الزواج والانجاب حتى ملأت بطونهم هذه الدور كلها ..

قدر لجدى فى أيامه الأخيرة أن يستمتع بمنظر هـــذه الملكة وأن يدعو من قلبـــه لعمى العرجاوى ، الذى عيشه كأفندينـــا بالضبط فى كل شىء وان على نطـــاق مصغر نوعا ، أكبر ما كان يفرح جدى أن أبناءه وأحفـــاده بات منهم الزعيم والعمـــدة وشيخ البلد والخفراء المعلمون وموظفو الميرى ، الســـلاح فوق أكتـــافهم وتحت ابطهم وفى سراديب مبنية فى قلب الحيطـــان بكميـــات كبيرة وبدون ترخيص . أما يوم وفـــاة جدى فقد جعله عمى العرجاوى يوما واقفا على شعر راســـه لمدة تزيد على مائة وسبعين ساعة لم تنقطع خلالها الوفود ولم تهدأ الطرقات من الركايب التى تشغى بها . لعلع فى سماء العب كله صـــوت القرآن الكريم بحناجر بلبلية خاصة بالقصر الخديوى ، وتعاقب على منصـــة الخطابة باشوات ووزراء وعمد ، زعماء أحزاب فألقوا خطبا نارية تلهج بأمجاد جدى وتصب المديح على رأس عمى العرجاوى عطا ..

حق لأبناء العربية الأقصرية من جدى ــ التى قيل انهـــا من أصل يمنى ثم قيل بل مغربى ، بل هو خليط من اليمنى والمغربى ــ ان يحتلوا هذه الدار وحدهم ، فصارت لهم السيادة المطلقة على العب كله ، اذ ان كافة الأوراق والسجلات والخزائن فى مستقرات لها فى أماكن من هـــذه الدار . كان يسرى فيهم عرق غطرســـة تركيـــة كانت مدسوســـة فى صلب جـــدى من قديم ، لكن عرق

الغطرسة تحول عند أبنـاء العربية الأقصريـة ـ خاصـة عمى العرجاوى عطا ـ الى مجرد شعور بالاعتداد بالنفس مبالغ فيه قليلا ، أو كثيرا فى بعض الأحيان . اعتداد بالنفس تضخمه عادات موروثة كالحرص على اقتناء نسخة من شجرة العائلة ، وحفظ التواريخ والمـأثورات والحكايات عن الآباء والأعمـام والأخوال ، وايام المعارك وأيام الأفراح وما اكثرها فى حياة العطاوية ..

ابناء جدى هؤلاء لم تكن تخلوا طبائعهم تماما عن اللطشـة التركية ، الا انها كانت تمتزج بكثير من اللطشات الفرعونيـة والبدوية والعربية ، حتى لقد كان عمى العرجاوى عطا يبدو احيانا كفرعون ، واحيانا أخرى كعمر بن الخطاب ، وكثيرا ما يبدو وكأنه الحجاج بن يوسف الثقفى . هو ـ عمى العرجاوى عطا رجـل ذو هيبة ورهبة بكل معنى الكلمة ، يرتبط مع الحياة بلسانه ، اذا قال فعل ، واذا فعل لا يتراجع ، واذا اقتنع لا يتزحزح ، واذا هوجم فالنصر أو الموت ، واذا لحقه عدوان فالثأر فى الرقاب قاب قوسين أو أدنى من الهلاك ..

اى حكايات تحكى عن عمى العرجاوى واخوته لابد ان يصدقها المرء مهما بدت خيالية خرقاء لا تحدث الا لعفاريت من الجن . فافاعيلهم ونوادرهم واشتداد بأسهم أمور لا يكاد يصـدقها عقل ، لكن العقل يقبلها مع ذلك فى حالة واحـدة فقط : اذا حكيت عن عمى العرجاوى عطا أو أحد من اخوتـه .. فلقد اعتاد العقـل السائد فى بلدتنا والبلاد المجاورة ان يتعامل مع اعمامى هؤلاء باعتبارهم انصاف آلهة شياطين ، اذ ان الواحد منهم قد يرمى بابنه فى المصرف لقاء رهان التزم به حول شىء ، وقد يقتل عشرات الناس لقاء وعد أقره ، وقد يبيع قطعانا من المـاشية ليفى بسداد مبلغ كان ضامنا فيه لأحد المدينين فلم تمكنه ظروفـه من الدفع،

وقد يرتكب الواحد منهم فعلا اخرق ليدلل بنتيجته على مقولة يود ان يلفت اليها الأنظار ، مثلما فعل عمي العرجاوى نفسه ذات يوم . كان عائدا من سوق التلات على ظهر بغلته يحتضن بلاص عسل ، اذ انه يعتبر العسل الأسود ماء المحاياه ، وكل صباح على الريق يشرب منه كوبا كبيرا قبل الافطار بساعتين ، ولذا فهو يحرص على انتقاء نوع العسل بنفسه . وقرب داره استوقفه اثنان من البرابرة كانا مندمجين فى عراك شديد ، فطلبا اليه أن يتوقف قليلا ليحكم بينهما ، فى الحال طافت بذهنه المندرة القبلية المعدة لمبيت الضيوف الغرباء ، وأيقن أن مجموعة من البط والأوز ستطير رقابها بعد قليل على شرف هذين الضيفين الغريبين . فما ان توقف حتى لاحظ أن العراك بينهما يدور حول حصانين معهما احدهما أبيض والآخر أسود . فلما استفسر منهما عن سبب العراك اخبراه انهما غريبان سيضطران اليوم للمبيت خارج ديارهم ، والمشكلة الآن هى أن الحصانين سينامان بعيدا عنهما فى الزريبة ، فحين يأتى الصبح كيف يتسنى لكل منهما أن يتعرف على حصانه من حصان الآخر ؟ ! أحدهما يقترح على زميله بأن يقطع أذنا من حصانه كعلامة يميزه بها ، والآخر يعترض قائلا : اقطع من حصانك انت ، فماذا يكون الحل يا عمنا الحاج ؟ ! ..

فما كان من عمي العرجاوى الا أن رفع بلاص العسل على طول ذراعه وهبده فى الأرض بغيظ شديد فجاء الى ستين حتة . ثم اشار باصبعه الى العسل المندلق صائحا فى أسف شديد :

ـ « وحق من اسال هذا الادام على الأرض انكما لأغبى من رأيت طول حياتى !! يا بنى آدم انت وهو ! كل منكما لابد أن يميز حصانه بلونه على الأقل ! » .

ثم تركهما وواصل السير الى داره كان شيئا لم يكن .. الحكايات ليست فى حاجة الى شهود عيان من الزمن المنصرم تشهد بصحة ما جرى فيها . ليست فى حاجة الى وثيقة فالواقع نفسه وثيقتها المتجددة ..

عمى العرجاوى عطا فولكلور قائم بذاته يعتبر من تراث العائلة رغم انه لم يرحل عن الدنيا بعد بل انه ما يزال فى عنفوانه وقوته وصحوة راسه رغم تجاوزه المائة عام ، ويتوقع له الناس بقاء اطول من أبيه . أنه طويل القامة ضخم الجثة كعامود فى معبد الكرنك ، جارم الملامح والأطراف ، مستطيل الوجه مسترخى العضلات ثقيل شعر الحواجب كمظلة فوق عينين صقريتين تبعثان شواظا من لهب ، واسعتان ، اذا نظر فى الواحد جففه ، افقده فى الحال ارادته : اقعد يا فلان فيقعد فى الحال دون مماحكة ، قل ما وراءك فيقول ما فى جوفه بكل صدق وامانة وترقب ، فضها سيرة يا فلان يعنى يفضها سيرة ، أعد السريقة لأهلها فلابد أن يعيدها دون أدنى تردد . هو ـ كعمدة ـ ليس فى حاجة لاستخدام يده فى الضرب لأنه لو صفع شخصا براحة اليد فانها الصفعة التى لا قيام بعدها . تكفى النظرات يدير بها كل الأمور ، وما الخفراء الا صورة رسمية فحسب من قبيل الأبهة مثل آلة التليفون والسلاحليك وصندوق البريد المعلق تحت شباك الدوار . لهذا فانه عمدة البلدة بالتزكية منذ وقت موغل فى القدم والى ما لا نهاية ، تجيئه العمدية وهو قاعد على المصطبة امام الدار . يفتل حبلا أو يشرب النارجيلة يغرم بها على غرار أجداده وتمييزا لنفسه عن رعاياه الذين يدخنون الجوزة . لا يعترف بزوال الملكية ولا ثورة يوليو وان كان مع ذلك يهنىء الفقراء بها ! ظل سنوات طويلة يشمئنط ويشيح بوجهه كلما

جاءت سيرتها فى قعدته ، حينئذ يبدو وفى جلسته بين الرجال شبيها بتمثال شيخ البلد ، خاصة اذا خلع العمامة المصرية المملوكية الكبيرة فالبسها ركبته المرفوعة تاركا راسه الحليق كالبطيخة النمس معرضا للهواء تعبيرا عن أن راسه قد ضاق بما يقولون . فان طال المديح فى ثورة يوليو وزاد الملق من بعض « المتفلسفين » فى القعدة، الذين يرى أن الثورة قد عملتهم بنى آدمين على آخر الزمن ، فانه يشد زمام ابتسامته الغامضة على سره فلا تعرف ان كان موافقا على المديح أم رافضا له ، لكن صفحة وجهه الغنية بالدماء وعمق التصميم وقوة الارادة تكتسى بدهاء مخيف . بصنعة لطافة يتسلل فى الدخول الى الكلام مغيرا مجرى الحديث، بطريقته الخلابة فى اثارة الانتباه ، وألفاظه العتيقة الرنانة ، وأسلوبه المشوق ، وصوته المؤثر بنبراته الجهورية ، يحكى حكايات وطرائف من التاريخ أو من الأساطير ، عن رجال فقدوا رجولتهم منذ خصيهم السلطان ، عن سلاطين توهموا القدرة على كسر انف الشعوب فقهرتهم الأيام والأحداث فى عزل واغتراب وذل وعوز ، عن عواقب الظلم ، عن الشطط فى فرض الأحكام ومعاملة الناس بغير الحسنى . قليلون هم الذين تبلغهم رسالته الخفية فى الحكايات والطرائف ، والكثيرون يأخذونها كمواعظ فى الحياة مفحمة ، دون الانتباه لمغزاها السياسى الذى يجيد اخفاءه فى تلافيف الحكاية . الا ان عداءه للثورة كان معروفا للجميع ولكن لا أحد يستطيع الجهر به ، انما قد يجد شيئًا ما فتفلت منه تعليقه عابرة تكشف موقفه بكل وضوح فتنفجر صدور السامعين بالضحك البهيج ..

الكل يعرف أن عمى العرجاوى عطا لا يهمه أحدا ، ولا يخاف الا من الله ، ويعطى لكل ذى واجب واجبه على أكمل

نحو ، ويأخذ من كل ظالم حق المظلوم كاملا ، اذ انه العمدة والقاضي وشيخ الخفراء والخفراء . واى جلسة فى اى مكان فى اى لحظة تنعقد لأى سبب من الأسباب فان عمى العرجاوى عطا لابد وأن يكون هو مديرها ورئيسها وصاحب الكلمة الأخيرة فيها . الغريب انه لا يفرض نفسه أبدا بل لابد أن يدعى لذلك بالحاح شديد يحلو له أن يتجاهله طويلا ، ذلك ان قوته اصابت الآخرين بالضعف . وكان ذلك يحزنه جداً ، ويصفق كفا على كف قائلا فى توتر :

ـ « كل شيء لابد أن افعله انا بيدى ؟ متى يتعلم العطاوية المساكين أن يصبحوا مسئولين ؟ أمنيتى ان يجتمعوا مرة بدونى ! أن يفعلوا شيئا دون سؤالى فى الفارغة والملآنة ! ماذا يفعلون لو مت غدا أو بعد غد ؟ ! » ..

هو الى ذلك شديد الأدب ، دمث الخلق ، حيى ، محب للعمل اليدوى . سرعان ما يخلع الجلباب الكشمير والقطنية الشاهى فيرميهما بجوار العباءة الجوخ والشال الحرير . يخلع المركوب البنى والجورب ، يمضى بالفانلة والسروال الداخلى ذى التكة بشراريب ، والصديرى يحيط بجذعه الأعلى منتفخ الجيوب من الناحيتين ، على اليمين منظر المحفظة الكبيرة مطبوع تحت قماش الجيب منتفخة بالفلوس الفضية والورقية التى لا تنفذ مطلقا ، وعلى اليسار منظر الطبنجة واضحا ، وقبضة الخنجر العاجية المشغولة بالأحجار الكريمة تطل بجرابها من تحت كم الفانلة القطنية .. وهكذا ينزل الى الجرن ليقوم بمهمة تكييل القمح أو البرسيم ، حيث يمسك بعيار الكيلة المصنوع من الخشب المعشق المرصع برءوس المسامير ، اذ يدبه فى كومة الحصاد ليملأه ، وبيديه يمسكه من عنقه ويروح يهزه بقوة ويغرف الحب ويملأ ، دون كلل حتى يتهاوى التل فى دقائق ..

أو تراه وقد تخلى فجاة على الأبهة فأمسك بالفأس وراح يعزق . ضربة فاسه بقوة عشرة رجال ، يعزق وحده فدانا كاملا فى زمن قليل . أقصى راحة له كى يستأنف العمل ربع ساعة يقضيه فى تدخين حجر من التبغ المعسل على النارجيلة التى تصاحبه فى كل مكان ..

رأيته ذات مرة متربعا على الأرض أمام البوابة الكبيرة ، لاويا تحت وراكه خروفا سمينا ، وبالمقص راح يجز صوفه ، صانعا حوله أكواما من الصوف تنتظر من يجمعها لمن سيجىء ليشتريها . وكان يومها قد تسلم مراح الغنم من صبيحة ربنا ليجز صوف الأغنام ، فما كاد الضحى يعتلى سقف المراح حتى كان عدد الأغنام الزعراء الحليقة الملطخة بآثار ضربات المقص قد بدأ يتكاثر بين الأغنام . قام متجها الى المصطبة ليشرب حجرا على النارجيلة فى هدوء وروية وبمزاج . كان بالفانلة والسروال فحسب ، وقد اغبر وجهه بتراب الصوف ، وانحسر طرف السروال عن ساقيه الطويلتين المشعرتين وعن جزء من لحم وركه . ولم يكن يتحرج من ذلك لثقته أن جنس الحريم الذى يمر من هنا يعرفن أن أى جزء من جسده يعتبر عورة لكن عيونهن لشدة رهبته لن تنظر الى الجزء العارى فيه بل قد لا تلحظه أصلا ..

سحب النارجيلة أمامه ، أمسك بورقة التبغ المعسل ماركة السلوم وفتحها ، وجد التبغ ناشفا ، صار يبلل اطراف أصابعه بشفتيه ويدعك فى التبغ فيما يصيح فى بوابة الدار : « النار يا ولد الفرطوس » . فبعد قليل أقبل الغلام ممسكا بالماشة وبين فكيها قطعة نار حمراء متوهجة قال :

ــ « النار يا جدى » ..

اشار عمى العرجاوى الى وركة العارى ، قائلا :

ــ « حطها هنا ! » ..

وراح يواصل ترطيب التبغ بريقه ودعكه بأصابعه . نظر اليه الغلام فى تشكك وحرج وتردد . فسلط فيه عينيه شاخطا فيما يشير الى وركه العارى :

ــ « قلت لك حطها هنا وامشى !! » ..

فامتثل الغلام لأمره فى الحـال ، فوضـع جمرة النار على فخذه العارى ، وانصرف . فلم تصدر عن عمى العرجاوى اية وحوحة ، او اية ارتعاشـة او حتى اختلاجة رمش ، فكأن الغلام قد وضـع الجمرة فوق رخام . بقى عمى العرجاوى متربعـا يدعك فى التبغ حتى أصلحه ، ثم وضعه بكل هدوء فوق الحجر وسواه ودندشـه ، ثم امسك الجمرة المشتعلة باطراف أصابعـه فوضعها فوق التبغ وراح يجذب الأنفاس على مهل ..

عمى العرجاوى عطا هذا ، ليس مستعدا لغفران اى غلطـة مهما كانت تافهة . أنت غلطان فلابد أن تدفع الثمن حتى لا تقع فى الغلط بجميع انواعه مرة اخرى ، ذات يوم كان ابناء عمومتى يجلسون حوله يتحدثون فى أمر من الأمور . من سوء حظ الواد عكاشة أن بطنه كانت مضطربة لأنه اكل وحده أوزة كاملة ، فلم يشعر الا وصوت ضرطة قوية ينفلت من مؤخرته داويا قبل أن يتحكم فيها . ذهل الولد وغاصت الدماء فى خديه من شدة الحرج المزوج بالخوف من جده العرجاوى . لكن ذلك لم يشفع له ، ما درى الا والشـومة المبزرة الثقيلة تتراقص فى الهواء لتهبط فوقه بغيظ جنونى ، والولد المذهول قد التاث وعجز عن الجرى . حتى الجالسـون كلهم تجمدوا فى أماكنهم خوفـا من أن تتحول الشومة الى أدمغتهم . وهكذا راحت الشومة تنهال على ضلوع

الولد صاعدة هابطة حتى كسرتها وشجت رأسه والولد يصرخ . حملوه الى حلاق الصحة فحمله بدوره على الركايب الى مستشفى البندر . وبعدها بأيام عاد الولد من المستشفى بعاهة مستديمة فى راسه وأخرى فى ضلوعه ..

الى أن جاء يوم كان أشد حلكة .. كانت المندرة الكبيرة مرصعة بالرجال من عدة بلدان مجاورة : عمد ومشايخ عرب وافندية وضباط شرطة وعضو مجلس الأمة عن دائرة الناحية ، جاءوا لانهاء معركة مزمنة بين عائلتين متجاورتين بسبب مياه الرى الشحيحة ، حيث يحتجزها احد الطرفين عن الآخر لفترات طويلة يموت الزرع خلالها . وكان عمى العرجاوى عطا قد تكفل بحل النزاع اذا عقل الرجال وسحبوا أوراقهم ودعاويهم من امام قضاة المحاكم . وصار من المؤكد لجميع الحضور ان عمى العرجاوى عطا لن يعدم وسيلة يذيب بها الجليد المتراكم بين العائلتين . وكانت ايدى المتخاصمين قد صارت على وشك أن تمتد للمصافحة علامة التصافى ،لولا أن حدث ما حدث فى لمح البصر وبشكل لم يكن يتوقعه أحد على الاطلاق ، حتى عمى العرجاوى نفسه . لحظتها كانت جميع الأبصار منصبة عليه فى انتظار ان ينطق بالحكم فى مسألة تعويضة مقترحة ، فيما قد تربع هو ، مندمجا فى اطراقة طويلة كان لاشك خلالها يفكر فى حل مناسب ينهى به الخلاف . وكان الجميع يعرفون أن عمى العرجاوى عطا فى السنوات الأخيرة قد بدأ يكثر من الشرود لأوقات طويلة حتى اصبح لابد من تنبيهه ولو بصنعة لطافة ؛ كان قد بدأ يفقد الكثير من القدرة على التركيز . ويميل جميع الحاضرين الى الاعتقاد بأن عمى العرجاوى قد فقد الاحساس بوجودهم لبرهة وجيزة ، أو أنه من فرط التركيز بينه وبين نفسه

نسى وجودهم .. اذ فوجئوا به ــ بكل بســاطة وبدون أدنى حرج ــ يرفع اليته اليسرى عن الأرض قليلا ، ويدفع الى الهواء بصرطة قوية رنت فى الأرض رنينا مدويا ، وملأت فضــاء المندرة والأنوف برائحة كريهة ..

فى الحال افاق عمى العرجاوى ، شهق تحجرت ملامحــه تصخرت فى عينيه نظرة رعب مرعبة ، كغريق طفــا على ســطح الغرفة فلما أفاق تمنى أن لو غاص فى القاع مرة أخرى . منظره التعيس وحده كان كافيــا للاعتذار ، خاصــة أن الحضور قد جمدتهم المفاجأة فلم تلن وجوههم حتى عن ابتسامة ولو على سبيل الرثاء . وكان من الممكن أن يمر الأمر كأن لم يكن ، لو أن ذلك حدث من شخص آخر غير عمى العرجاوى عطا ، أما وقد حدث ما حدث ومنه هو بالذات ، وقد حدث وانتهى الأمر ولا سبيل الى محوه من سجلات ذاكرة القرية ، فان الأمر قد بدا خطيرا غاية الخطورة ينذر بانهيار كونى داهم راحت نظراته المتصخرة تتفتت حوله وقد بدأ يعتريه الكثير من التوجس المفاجىء ، كأن أحدا غيره فعل هــذه الفعلة النكراء فى حضرة الرجال ، كأنه ثمــة مؤامرة كونية دبرت ضده وأدخلت فى جسده شخصا آخر لم يتلق أى تربية يفعل هذه الفعلة ويختفى كالعفريت . وقعت نظراته على الواد مكاشة الذى كان واقفا فى الخدمة مع رهط من شــبان الدار ، توقفت النظرات عند العاهــة المستديمة التى تركتهــا شومته على رأس الولد وعلى ضــلوعه ، انتفض راكســا على ركبتيه فى حركة جنونية رعناء ، تقلصت ملامحه فيما تمتد يمناه فتنزع الخنجر من ساعده الأيسر لينتقم به ممن أوقعه فى هــذه الورطة . ثم انه حرك ساعده بالخنجر الى الوراء ، وبكل قوته وعنفوانه دك الخنجر عن آخره فى فتحة مؤخرته دون أن يطلق انة واحدة .. ثم تهاوى فوق الأرض غارقا فى دمائه .

الصاعقـــة

على غير العادة فوجئت بشراعة باب شقتى مفتوحة ، وضوء الردهة يفرش ظله الونيس على ارضية مدخل الشقة فى الطابق الأرضى يرسم على درجـات الســلم الأسمنتى شبكة الشراعـة الحديد بكل نقشها بصورة مكبرة . رأيتها بمجرد دخولى عتبـة البيت ، فداخلنى شعور غامض بالبهجة والفرح ، اذ لابد أن يكون ثمة ضيف حميم جدا يزورنا الآن . ثم تذكرت أن زوجتى لا تفتح باب الشراعة هكذا الا حين يكون ذلك الضيف رجلا غريبا، أو عاملا جاء يصلح شيئا فى الشقة ، وذلك درءا للشبهات وتأمينا لنفسها ، فاهتز قلبى بالخوف من المجهول ، لبرهــة ثقيلة حاولت أن أحدس شخصية الضيف وأسـباب زيارته . وكنت مرهقـا الى حد الرهك فحاولت تجاهل الأمر ..

خير يارب . قلتها فيما أسرب يدى من خلل شبكة الشراعة لأفتح الباب من الداخل . فاذا بى أفاجأ بما لم يكن يخطر لى على بال مطلقا . كانت هى أمى ، نعم أمى ، بلحمها وشحمها جالسة على الكرسى المواجه للباب وحولها بعض الشبان والفتيــات ، بين زوجتى وأولادى ، وحالة من الأنس المكتوم تحيط بهم جميعا، وألوان التليفزيون تنبثق وتتراقص وتترادف فى فضاء الردهة .

انشد قلبى الى أسفل من شدة الفرحة والرجفة والمفاجاة ، فهذه اول مرة تزورنى أمى فى بيتى فى هـذه المدينة الخرافية الاتساع ، بل لعلها اول مرة تنتقل فيها أمى من قريتنا البعيدة فى شـمال الدلتا لتقطع كل هـذه المسافة من أجل أن ترانى ، ولابد أنهـا داخت حتى اهتدت الى عنوانى . حينئذ تملكنى شعور جـارف بالذنب وتأنيب الضـمير ، فانا الذى بت استبعد المسافة بين القاهرة وبين قريتى واستثقل السفر اليها خاصـة بعد ان كثرت عيـالى ، اضطرت أمى الكبـيرة المرهقـة الى المجىء بنفسـها لترانى ..

حبست دموعى وانا أملأ فراغ الباب داخلا . وقف الجميع فى استقبالى فارتفعت بداخلى معزوفة الحزن المروع ، وارتميت على صدر امى فاحتضنتها واندفعت أبكى بحرقة واقول :

ـ « ازيك يا امه ! دانتى واحشـانى خـالص خـالص ! وتاعبة نفسك للدرجة دى ؟ دانا والله كنت ناوى اجيلك الأسبوع الجاى ! القلوب عند بعضـها صحيح ! وعاملة ايه يا امه ؟ دانا نفسى أتكلم معـاك من هنـا لحد يوم القيامـة ! عندى كلام كتير قـوى ! » ..

ثم تركتها تنسحب من صدرى باسمة بعد أن تعبت من طول الوقفة . رائحتها العتيقة تملأ خياشيمى وتنتفض فى عروقى بعد طول احتجاب . حتى لقد رايتنى طفلا اتوق الى التدلل واللعب ، كما استيقظت فى دمائى كل الأوجـاع التى أتوق أن اسمعهـا صوتها طمعا فى مزيد من حنانها الدافق اللذيذ ، أستنيم لهـذه الرائحة واشعر بالأمان والاطمئنان فى عبقها . لهذا جلست بجوارها بعد أن وسع لى أحدهم مكانه . فى غمرة الانفعال نسيت أن أسلم

على بقية الضيوف الذين لم اكن قد عرفتهم بعد وان رأيت على وجوههم اختام دمائنا بتلك العلامة المسجلة التى تذوب فى ملامح كل أبناء اسرتنا ، فلابد اذن انهم من أولاد أخوتى ..

قالت أمى من خلال البلغم المتراكم دائما ابدا فوق صدرها يزيق ويعطل انتظام تنفسها عند الكلام :

ـ « لم تسلم على بقية العيال ! » ..

ـ « نسيت نفسى يا ام ! » ..

وسلمت عليهم جميعا وانا شبه غائب عن الوعى ، حتى أولادى سلمت عليهم بالجملة دون أن أدرى بالابتسامات العابثة فى عيونهم والحركة المازحة فى ايديهم وان كنت قد لمحتها على الطاير . وقلت :

ـ « تعشيت ؟ » ..

قالت :

ـ « نعم ! زوجتك الأصيلة غدتنا وعشتنا وأكرمتنا كرما زائدا عن الحد ! » .

ثم أضافت موجهة الحديث الى زوجى :

ـ « هات لزوجك يتعشى ! » .

كان وجهها موردا ، يشوبه قليل من الشحوب ، وبعض شعيرات بيضاء صفيقة تحاول الظهور من تحت التعصيبة المحكمة على رأسها والطرحة البيضاء الملفوفة حول رقبتها .

تذكرت أننى لم أر هذا الوجه منذ سنوات بعيدة جدا ،

وأن عدم رؤيتــه كانت تحرمنى من الكثير من هــذه المشــاعر الدافقة الطازجة ..

وكنت أشعر أننى أريد ان احدثها فى عشرات الموضــوعات والمشاكل التى ضاقت زوجى بحديثى عنها فاعتقلتها فى صــدرى طوال سنوات وسنوات . جعلت أعصر دماغى لأتذكر ولو موضوعا واحدا من تلك الموضــوعات فلم أفلح ، فصرت أشرد طويلا كواقع تحت مخدر ثقيل ، ومن حين لآخر أقطع شرودى ناظرا اليها فى وله حقيقى قائلا :

ـ « والله زمان ! أنت نورتينى ! شرفتينى ! أحييتينى من جديد ! » ..

تفك طرحتها وتعيد حبكتها من جديد حول عنقهــا ، نفس حركتها المعهودة دائما ، الحبيبة دائما ، تقول بنبرة عتاب خفى :

ـ « لا نأخذ منك غير حلو الكلام ! » ..

وتلمع فى عينيها نفس النظرة المؤنبــة العاتبــة . أقول درءا لشكها فى عظيم حبى لها .

ـ « قد لا تعرفين مقدارك عندى ! » ..

تتسع الابتسامة تحت شفتيها المضمومتين ، نفس الابتسامة التى احببتها فاحتفظت بها طوال عمرى بين شفتى :

ـ « اسمع كلامك اصدقك ! اشوف امورك أستعجب ! » ..

نفس العبارة الأزلية فى فمها التى طالمـا وجهتها لأبى فى لحظات الصفاء ، والتى باتت توجهها لكل منا ..

وكانت زوجتي قد انتهت من اعداد عشائى فوق الترابيزة

الصغيرة وعدلتها أمام الكراسي المواجهه لقعدة أمي ، فانتقلت فصرت مواجها لها ففرحت بالقعدة وشرعت آكل ببطء ..

وفجاة دهمني دوار عاتي الشدة قابضا على قلبي ، رايت الأرض ترتفع أمامي وحوالي كأنني في سفينة تتلاعب بها الأمواج الثائرة · انبثق من داخلي شعور طاعن ساخر هازىء مصحوب برياح تكاد تعصف بالملابس من فوق جسدي وتخلف الأرض من حولي خرابا ، وتملأ الأفق العريض ببقايا اعواد جافة . وبدا كأنني صرت راكبا في قطار يمرح صاخبا في بلقع بين جذوع اشجار جرداء كالحة .. ذلك أنني قد تذكرت ان أمي هذه الماثلة أمامي بلحمها ودمها قد ماتت منذ ما يزيد على عشر سنوات ، نعم ماتت وشبعت موتا ، ولم أكن حضرت جنازها اذ وصلت بعد دفنها بأيام لأن البرقية التي ارسلها اخوتي وصلتني متأخرة ثلاثة أيام . تذكرت أيضا أن هذه البرقية ما تزال محفوظة بين أوراقي الخاصة في أحد ادراج مكتبي وانها كثيرا ما وقعت في يدي أثناء البحث عن أشياء أخرى . كدت أصاب بالشلل من فرط الرعب ، وقد منعني الروع من رفع عيني في مواجهة هذه الحقيقة الشاخصة المجسدة المرعبة .

صاحب السعادة اللص

مجموعة قصص

اهــــداء

الى طفلتى العزيزة ((ايمــان)) .. التى ولدت فى واحـــدة من هــذه القرى ، فى نفس الزمن .

خيرى

السقوط فى بئر الأحزان

كان الليل قد وصل الى الذروة ، وصدمت ، وخيل الى اننى نزلت قرية لا أعرفها . ثم استيقظ الحلم الذى طالما راودنا ونحن طلبة فى الابتدائية أن تتحول قريتنا الى مدينة ، وكنا نزعم فى حماس كلما ضمنا مجلس أن بيننا وبين المدينة خطوات صغيرة ، السنا نقيم النوادى الرياضية ونفتح المراكز الثقافية ؟ اليس فى قريتنا نقطة بوليس وعساكر يستخدمون الخفراء فى خدمتهم ؟ .. ولا تسالوا عن الاحتفال العظيم الذى اشعناه فى البلدة يوم افتتح « عندنا » فصلان اعدادى .. وكان ثمة حلم توارثناه من اخوتنا الكبار جيل الأربعينات ، ذلك هو أن تضىء الكهرباء شوارع قريتنا ، وكثيرا ما توغل بنا الحلم فى أبعاد القمر فخططنا الشوارع والطرقات والمداخل ، بل وحددنا نقطا لاقامة محطات البنزين أما المحطة التى سيقف عندها القطار وتسمى باسم بلدتنا فحدث عنها ولا حرج كما يقولون ، والواقع أن صورا باهتة من هذا الحلم كانت تتراءى لنا كلما شاهدنا جمعا من المزمعين السفر ، نعم ، فالمدينة فى نظرنا كانت أيضا ، هى السفر ، هى الذهاب والمجىء بالمتاع . وقد لعب مرشحو الدائرة طوال ثلاثين عاما أو تزيد من عمر وعينا أدوارا بهلوانية على مسرح خيالنا . فلا باس من عربة « قصراوى » تجىء من

المدينـة ـ التى بها « المركز » ـ الى قريتنا رائحة غادية طوال مدة الدعاية حتى اذا ما نجح المرشـح خرجت العربـة وذهبت بلا عودة .

كنت قد نزلت كعادتى منذ عشرين عاما فى محطة المركز ، مفضلا اياها عن المحطة التى تواجه بلدتنا مباشرة ، على أمـل ان احتمال وجود عربة أجرة فى المركز قائم وقوى ، فى حين أن الوقوف على المحطة المواجهة لبلدتنا هو السراب بعينه فى ليل كافر مجنون . ولست أدرى لمـاذا كنت احس أن الليل ـ لأول مرة فى حياته معى ـ يفقد طعمه اللذيذ عند السفر ، فطول عمرى أحب السفر فى المســاء وفى البكور ، ففى خيالى البعيد ذكرى من احباء واعزاء طالمـا نادتهم الأشواق والأفئدة فى رحاب المساء .. آه لو ينفتح الباب فجـأة ونرى فلانا داخـلا . هكذا تقوم أمى فى كثير الأمسيات . غير ان الســفر لا أدرى لمـاذا فقد بهجتـــه فى ذلك المساء ، لست أدرى ان كان السفر أو الليل مسئولا عن افســاد كليهمـا !

كانت البهجة التى خرجت بها من منزلى فى المدينة قد آبت فى عاصمة المحافظـة الى الشعور بالكلال والارهاق الشديدين ، ذلك أن جسدى قد تلقى من الاهانات قدرا هائلا ، ابتــداء من الأتوبيس الذى استخف بنا جميعـا ولم يحضر الا بعد ثـلاث ساعات ، ومرورا بموقف « أحمد حلمى » ، وخذ عندك : السقيفة التى تقف تحتها عربات المحافظـة التى أعنيها غير موجودة ، ولا هى ولا غيرها من بقية الخطوط ، وشبح مؤامرة يجثم على الصباح ، ولا أحد يريد أن يرد عليك ، غير أن وفودا من اللاهثين يهرولون خلسـة وراء بعضهم كالقرود أو أشـد ذلة ، يجرجرون أطفالهم ويتعثرون فى حاجياتهم ، فتقذف ببصرك وراءهم ، فتراهم

يتحدفون فوق عربة مرابطة على مبعدة ، والسائق يشلت لهم ويشدهم من أقفيتهم ، ويصرخ أطفال وتكسر نظارات وتنشد كرافتات وتنهار أناقات سهر فى تدبيرها .. لست أحسن منهم بالطبع انت تستخفهم أى نعم ولكنك مع ذلك تزحف نحوهم على أمل أن تحدث المعجزة ، أن يقف السائق بنفسه ويطرد راكبا ويقول لك تعال أنت ، الحق انك سترى هذا الأمل يطل من أعينهم جميعا لا فرق بين أفندى وجلباب ، بل سترى ناسا يبدو بما لا يدع مجالا للشك أنهم من علية القوم المحترمين يتزلفون للسائق فى تودد مهين كريه ، وسوف تدهش حين ترى السائق يعاملهم بفهم حقيقى لهم : يعاملهم باعتبارهم أوباشا حتى وان كان واثقا انه من بينهم ومن صلبهم !

تزغدك أذرع وتزيحك أكتاف ، وتجلدك ملامح ملتوية فى غموض عدوانى ، كل يتدثر بوقاره الزائف الى حد الرغبة الواضحة فى فرضه عليك بالقوة ، وأنت تدعه فى حاله وتتذرع انت الآخر بوقار غير لائق عليك ، فكيف يتسنى لك فى هذه اللحظة أن تختار الوقار الذى على قدك ! انه وقار السلام ، هو يقف بجوارى ، ذليلا مثلى ، مضروبا بالصرمة القديمة مثلى ، ومع ذلك يوهمنى أنه ارفع مستوى ، ويلوح لى بحقيبته السمسونيت، ويخايلنى بنظارته البرنسول خلعا ولبسا كأنها لعبة فى يد طفل ، ويلدب الهواء والبعوض بالجرنان الملطخ بعرق الحبر ، ويتيه علينا بنظرات طاووسية ، ولابد أننا فى نظره رعاع ، والا فلماذا يتعفف عن مشاركتنا فى الحديث وتداول الأمر ؟ .. يبح صوتنا من العلو حوله : كيف يفعل السائقون بنا هكذا ؟ .. ماذا نفعل ؟ .. لكنه غير منتبه اليك ، انه يتنمر لعربة مقبلة ليكون اول من يقفز داخلها . وأنت من فرط الغيظ والمهانة لا ترى ظهرا ولا عصرا ،

انما ترى الغروب قد دخل فجـأة وادركك المساء فى أحمد حلمى . ولو لم يكن هـذا اليوم يسمى فى النتائج بالعيد ويصـدق الناس وأنت مثلهم تصدق ، لفكرت فى الرجوع ، الا أن رحلة الرجوع تهون عليك مشقة المواصلة ، والواقع انك ـ بقدرة قادر ـ تكون قد سافرت حقا حتى وان كنت فى أحمد حلمى ما تزال ، وترابطت فى ذاكرتك حوارات ولقاءات ومفاجآت ، وترتبت أمور وصـارت العلاقات قائمة ساخنة حية لا ينقصها الا لحظة اللقاء . فهل تستطيع أن تمزق نفسـك من هذه السدى وانت لحمتها ؟ .. كيف ؟ !

..

تسلم نفسـك للسمسار يقودك الى عربـة فى احدى حارات شـبرا البعيـدة ، وعليـك باديء ذى بدء الا تناقش اى امر او تخضعه لمساومة ، فاذا كان من هو أشيك منك وارفع منزلة يلثمون الأيدى ويضعون فوقها نقودهم فليس عليك ، وانت قليل النقود مهما قبضت ـ الا ان تقبل أى وضـع ، ولعلك ـ ان كنت ممن يقراون الكتب ـ تتذكر صـورة كتبهـا ارهـابى يهودى تقول : انك لو غطست انسانا فى بئر وتركته فانه سيحاول أن يطفو وقد يطفو ، أما ان نزلت به الى القاع السحيق فان منتهى أمله يكون التنفس ، مجرد التنفس ! وحتى أن تذكرتها فهى لن تفيدك فى شيء ، بل انك ستطردها باعتبارها هرش مخ .. وقد رأيت افنديا محترما يتأبط جريدة مطوية وحافظـة جلدية أنيقة ويرتدى أفخر الثياب ويبدى استعدادا للنوم تحت الكرسى فى المسافات المتاخمة لنقط المرور .

غير انك فى النهاية لابد أن تصـل ، هذا مثل حقير جدا من الأمثال الشائعة فى قريتى ، أى نعم سـوف تصل ، ولكن أى وصـول ؟ ..

وقد وصلت الى عاصمة المحافظة التى يتبعها أهلى ..

ثم كان على أن أركب القطار منها الى مدينة المركز . وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة وليس من قطار ذاهب الى هناك الا فى منتصف الليل على الأرجح ، ذهبت الى موقف العربات ، لم أجد عربة واحدة ، ولكننى وجدت شخصين يقفان ففرحت وظننتهما مسافرين فداخلنى الأمل فى أن السفر فى هذه اللحظة لا يزال مشروعا ، فلما اقترب منى أحدهما تبين لى أنهما سمساران ، وان سيارة يمكن أن تقلنى الى مدينة المركز نظير عشرة جنيهات . والجنيهات العشرة هى كل المبلغ الذى دبرته للرحلة من أولها الى آخرها ، فأنا موظف بسيط أتقاضى ثلاثين جنيها فى الشهر ، وبمناسبة ما يسمى بالعيد قبضنا مبكرا فتبرأت من مرتبى وازحته على زوجتى لتتحمل مسئوليته الشائكة ، وكان من المقرر الا أسافر لكنه ـ بمناسبة العيد أيضا ـ أنعمت علينا المؤسسة بعشرة أيام بقشيشا ، بموجبها لبست بدلة كاملة وكرافت وحذاء لامعا وامسكت حقيبة واشتريت علبة سجائر كليوباترا كاملة « عشرين » اشتريتها من ماسح الأحذية فى أحمد حلمى . فما ان وصلت الى عاصمة المحافظة وجدت أن ما بقى معى لا يزيد على ستة جنيهات مطوية بعناية وموضوعة فى جيب سحرى فى حزام البنطلون ، باستثناء قليل من البرايز والقروش فى جيب الجاكتة .

رجلى فوق رقبتى ذهبت الى محطة القطار وجلست على الدكة الخشبية انتظر ، وارى أشباحا من ذكريات قديمة انبعثت شيئا فشيئا . وسار ملمس الدكة الخشبية يبعث فى جسمى برودة لذيذة وصرت أنهد وأتهالك فوق حقيبتى فلما جاء القطار بدا كتنين خرافى ، وكان خاليا الا من باعة اللب والحلوى والمرطبات

الساخنة ، والعجيب انهم ما كادوا يروننى اجلس فى العربة حتى حملوا بضاعتهم ومروا جميعا على وقد استأنفوا النداءات بنفس الحماس الآلى ، وراحوا وجاءوا عدة مرات ثم تخـاذلوا شيئا فشيئا وخمدوا من جديد . ثم جاء الكمسارى ونظر فى وجهى واخرج دفتره وفتحه وضع الكربون وسحب القلم من اذنه ونظر الى ٪ واتخذ وضعا جعلنى احس انه يتحدانى باعتبارى احاول ان اكون افنديا محترما . احسست بسخف بدلتى وحقيبتى وهبطت شخصيتى الى الأرض وانا ارانى مضطرا لفك جنيـه ، وادمبس فى جيبى واخرج كل رصيدى بكل الحرص لأفتحـه ببطء وانتزع منه جنيها . كانت الفكة التى معى تنقص قرشـا واحدا ليكتمل ثمن الوصـول والتطويق واصر الكمسـارى عليـه فاحسست نحوه بالكراهية ! . ثم ان القطار اخذ يغوص فى قلب الليل ، الليل يخفت وتتباعد البثور الضـوئية عن جلده الأسود السميك ، والقطار كسكين الجزار يخرط ويخرط ، وبقع الدم الداكن تظهر من حين الى حين حيثما هـدأ السكين على احـد الأرصفـة .

وكانت بقعة الدم الكبيرة قد راحت تزحف نحو وجهى حتى غمرته تماما ، وحاولت ان احجز ضـوءها بكفى ، وكرهتها ، فقيل لى اننا قد وصلنا الى آخر الخط اى ان هـذه المحطـة هى مركزى . فنزلت ، ومشيت على الرصيف تائها ، فلما بدأت أستمع الى وقع خطوات حذائى عليـه بوقعه المنغم اللذيذ ادركت بالفعل أنه رصيف مركزى ، وأنه قد تعرف على خطوتى فبعث فيها رنينها القديم ، حينما كنا نسير فوقه مختالين ونحن طلبة فى ثانوية المركز تملؤنا بهجة لا حد لها وكاننا الغزاة الذين اصبحوا من أهل المدينـة ، وكانت لهجاتنا الريفية المعووجة تنعدل الى لهجة بندرية مستقيمة القوام .

وجدتنى عند نهاية الرصيف على الحافة ، والقضبان تمتد امامى متشابكة بلا نهاية تلمع كالسراب فعرفت أننى اخطأت الاتجاه ثم ما لبثت أن عدت أمشى الى أن وجدته ، السلم الذى أهبط منه الى نفق يوصلنى الى باب ينفتح على الشارع العمومى. اشعلت ولاعتى البوتاجاز التى حرصت أن تكون معى لأتباهى بها على اهل قريتى ، فأضاءت بقعة صغيرة اهتديت منها الى آخر سلمة فاذا بالنفق غارق فى الماء ، واذ بى اغوص فيه حتى ركبتى، فخرجت صاعدا الى حيث كنت ، ووقفت على الرصيف حائرا والماء يشر من ساقى ، فذهبت الى ناظر المحطة وظللت اطرق عليه الشباك الزجاجى الصغير الى أن فتحه بضجر كبير ، ودون ان يفتح عينيه سألنى عما أريد فسألته هل النفق غارق فى المياه؟ فقال مشوحا انه لا يعرف ، قلت له انه غارق فى الماء فكيف أخرج الى الطريق والظلام حولى وداخلى ؟ فقال انه أيضا لا يعرف فشكرته ومضيت ، ثم اننى هبطت الى وسط القضبان وعبرتها الى الأسلاك الشائكة واستندت اليها ناظرا فرأيت الأرض فى قاع بعيد ، فاعتدلت وظللت امشى الى ان انتهت الأسلاك الشائكة والتحمت القضبان بالطريق فانحرفت عائدا .. رأيت محطة البنزين على اليمين ، والبيت الذى كان لأحد الباشوات واحتلته الحكومة الثورية وحولته الى محكمة جزئية ثم عادت وسلمته الى ورثة أصحابه من جديد ، وبعده رأيت مركز البوليس، بيت هو أيضا وله حديقة كبيرة أينعت لكثرة المحتجزين فى تخشيبته من تجار المخدرات وأولاد الليل الأشقياء ، ثم رأيت مدينة أخرى كاملة ، مدينة جديدة تماما ، كانت بخيلة بضوئها تحتجزه داخلها ، فلما اخترقتها وجدت أكثر من صيدلية ساهرة وأكثر من مقهى يلعلع فيه أحمد عدوية وانور العسكرى ، وعساكر جيش وسائقوا سيارات ، ولافتات بالنيون تنبىء عن ساعاتية

وكهربائيــة ، واسماء اجنبيــة لمحــال ، وبازارات ومعروضــات في فتارين منسقة . ففرحت ايما فرح ، واستيقظ الليل من جديد في داخلي فجلست على المقهى المطل على طريق عمومي دائري . وطلبت قهوة فجـاءتني قرفــة ، وسألت عن سجـاير كليوباترا فعرضوا على السجائر الأجنبية ، وكنت بحاجة الى التدخين بعد ان نفدت علبتي فامتثلت صاغرا واشتريت علبة بثمانين قرشــا ، وقررت بيني وبين نفسي ان أختصر مدة زيارتي للبــلد يوما أوفر فيه هــذا المبلغ المسفوح ثم رحت اعدد أسماء أولاد شقيقاتي البنات واشقائي الصبيان ، وأحاول ان أتذكرهم جميعا وأتخيل ملامحهم ، وحــاولت أن التمس أعــذارا تبرر لي التخــاذل في اعطــائهم « عيديتهم » ولكنني لم أســتطع ان أكره ملامحهم أو كثرتهم . ثم دخلت امي في الحال .. الواقع أنني أنا الذي دخلت عليهــا وكانت متربعــة في القاعة تخيط ثيابنا القديمــة وترتق الملاءات أو تصــنع من بقاياها ملابس لمولود جديــد . ابتسمت وتحسست حقيبتي التي اضع فيها شيئا عزيزا لها ، طرحة من الحبر كانت أمي تحدث بها الركبان والرعيان المسافرين ، وكان ابي يفشل دائمــا في العثور عليها كلما نزل المدينــة ، فظلت حلما يشغل بالها الى وقت قريب ، وقد استطاعت زوجتي تدبيرها من « دلالة » محنكة أقسمت أن هــذه هي الطرحة التي تريدها امي ، ولسوف تطرق بابنا لشهور تسعة لتنتزع منا كل شــهر جنيها ، كنت فرحا بهــذه الهدية القيمــة وأتعجل الوصــول من أجلهــا .

تلكأ الولد وهو يعطيني بقية ربع الجنيه ، وعز على أن يقف كوب القرفة على بعشرة قروش كاملة ، ولمــا لم اقــل للولد : خلاص يا ابني ، وفضلت الاستنطاع ، رمقني بنظرة أكثر استنطاعا

دمتني بمعنى جارح فهمت منه انني افندى دنيء .. وقلت لنفسي انه ليس صادقا على أى حال ، فان كنت انا دنيئا فى نظره فنظرته هـذه نابعة فى الأصل من دناءته . لوى رأسـه نحو النصبة وصاح فى ضجر : معاك قروش يا حوده ؟ .. شوف لى معاك اى فكة ضرورى . فنظر « حـوده » بدوره الى مستغربا اصرارى على انتظار القروش . وكنت فى الحق ضعيفا ، ليس لأننى أعلنت اصرارى على أخذ الباقى بل لأننى اعلنت احتياجى على هـذه الضجة الفارغة دون لزوم ، واضفت بكل صفاقة : حد قال لك هات باقى ؟ ثم ان الخيبـة حلت بى ففتحت العلبـة ورأيتنى أنفحه سيجارة ثمنها أربعـة قروش أى ما يعادل ثمانية أرغفـة ، فنزعها بجـلافة وغلظة ووضعها فى أذنه دون اهتمـام ، فكرهته هو الآخر . لكنه سارع فأشعل لى سيجارتى بولاعة رونسـون من احدث طراز ، فغاصت ولاعتى فى كفى ثم توارت فى جيبى وقد قررت الا اظهرها ، وقـال الولد الذى نصفه جرسـون ونصفه بلطجى :

ـ انت فين دلوقت يابيه ؟

تمعنته جيداً ، شكله ليس غريبا ، قلت له :

ـ الله .. انت تعرفنى ؟

ـ انت مش عارفنى والا ايه ؟

ثم جلس أمامى دون تكليف . أخذت اغلفة الزمن تنجاب عن وجهه شيئا فشيئا . كان بائعا سريحا فى القطـار الذى تعودنا أن نركبه الى المدينـة حيث نتعلم ، كنا افندية صغارا يعاملنـا الجميع باحترام ويساعدوننا فى النزول وفى الركوب ، ويتوسطون لدى الكمساري فى فض مشاكلنا ! ويدعون لنا بالتوفيق حتى يكون

فى البلد ناس متنورون ، وكان هـذا صغيرا مثلنـا ينظر الينـا بانبهار ويقرب منا سـبت الحلوى والسـودانى قائلا : « ربنـا ينجحك يابيه تدوق الحـلاوة دى » .. فنشترى منه وكان يكبر معنا حتى لكأنه واحد من « شـلتنا » ومن جيلنـا ، جزء هو لا يتجزأ من عالم القطار وعالم المدينة التى احببناها ، وظل يحمل السبت الى وقت قريب جدا حتى بعد ان تخرجنا وصرنا مهندسين واطباء ومدرسين وكتبة فى المحاكم والشركات .

- ازيك يا « زوزو » ..

هكذا صحت اذ تذكرت اسمه فجاة :

ـ عليك نور .. لا صاحى برضه ..

قال هـذا وهو يسحب السيجارة من اذنه ويشـعلها ثم سـالنى :

ـ اتوظفت فين ؟

قلت له ـ كذبا ـ اننى تخرجت فى الجامعة وعينت مهندسا زراعيا ، والواقع اننى كنت موظفا بالجمعية التعاونيـة بدبلوم التجارة المتوسطة قال : ما شاء الله .. قلت : وانت ؟ قال : مستورة والحمد لله .. ربنا تاب علينـا من الشقا .. القهوة دى بتاعتى .نظرت حولى ـ كراسى وترابيزات انيقة مثل مقاهى القاهرة واحسن ، جدران كلهـا بالموزايكو ، اكواب وصـوانى جديـدة ، نصبة كبيرة عليهـا صـفوف من الشيشـة والبورى والاكواب والفناجين . قـدرت المكان كله ـ لا ادرى لمـاذا ـ باثنى عشر الفا من أهيف القد ممشوق القوام قلت له : هل سافرت الى احدى الدول العربية ؟ .. قال : لا .. ولمـاذا يهين الانسان نفسه ؟ . قلت : فمن اين لك هـذا ؟ .. وعزمت عليه بسيجارة اخرى ما دامت خربانة خربانة ، فازاحها وقدم لى علبته

المـاول بورو قائلا : من باب الله .. كله على الله .. ثم قال : هل أنت مسافر الى البلد ؟ . قلت : نعم قال : ليتك جئت مبكرا قليلا كنت بعثت الولد يوصلك. قلت : ولد من ؟ ! قال : سائق عربتي.. فعندي ــ فضلة خيرك ــ عربة أجرة على قد حالها ترمح طول النهار هنا وهنـاك . ثم أشار الى المدعو « حوده » فجاء ، فقال له اذهب واطرق شـباك الأسطى فرج وقول له المعلم بيقول لك فيه توصيلة مخصوص . انطلق « حوده » وترك أمامى نظرة كأنها تفتتح حسابا ما . غاص قلبي في ركبتي لدى سـماعى كلمة مخصوص ، وكدت أسـأله صراحة كم سيكون الأجر ، لكننى امسكت . وبعد ثلاث سجائر جاء « حوده » ومعه الأسـطى « فرج » . دعكت عيني وخيل لى اننى فى حلم . أمعقول أن يكون الأسطى « فرج » هو نفس الأسطى « فرج » الذى أعرفـه ؟ . حين تقدم منى تأكدت انه هو ، ثم انه أقبل نحوى مبتسما : « ازيك يابيه .. والله زمان » ثم جلس .

سلمت عليه وطلبت له قهوة . الأسطى « فرج » جزء من طفولتي . كان سائقا للأنفار فى الوسية أو بمعنى أصـح صبيا لأحد المقاولين يقوم بجمع الأنفار من بعض البلاد والعزب ، فلما قامت الثورة عمل « خوليا » فى الاصلاح الزراعى ، وآخر أخباره عندى انه اشتغل سائق جرار فى الجمعية الزراعية ، فهل تراه سيوصلنى بجرار الجمعيـة ؟ . قال انه لولا معزتى عنده لمـا صحا من النوم الآن . قلت له : اذن فهيا بنا . قال : الولد زمانه جاى. قلت : ولد من ؟ . قال : ابنى ! .. قلت : هل تزوجت ياعم فرج ؟ قال : انه تزوج ثلاث مرات ، وأنه فى الثانية عشرة من عمره ، رفيع صغير كالنخلة الزعزوع .. قال له أبوه : سـلم يا ولد على عمك سراج . فسلم الولد على . قال له أبوه : حتوصل

سـعادة البيه البلد .. بلدنا يعني . قال الولد بظرف : هو البيه من « كوم الديابه » ؟ . قلت : نعم . وقال أبوه : ما تعرفش خالك رضـوان الصباغ ؟ . اهو أبو سعادة البيه يبقى متجوز بنت خالته . فسلم الولد على مرة اخرى وقال : تفضـل يابيه . فنهضت واقفـا . وقلت للأسـطى « فرج » ، « ستأخذ مني كام » . ابتسم وقال : « مفيش فرق يابيه اللي تدفعه » . قلت : « معلهش برضه احب أعرف » . قال : « الدنيا ليل » و « السكة زى ما أنت عارف كلها لبط » .

قلت : « البركة فيك » . قال : « خلاص ادفع خمسـة جنيه » .

تهاويت جالسا . نظر الى فى استنكار : « ايه كتير ؟ » . قلت : جدا . قال : « خلي علينا » .. وصله ياد وتعـالى . قال : « زوزو » : « شوية عليك وشوية عليه .. ادفع أربعـة جنيه يابيه » . قلت : « مستحيل .. هذا مبلغ خرافى » . قـال الأسطى فرج : « أمال عاوز تدفع كام ؟ » . وكان ودودا حقا ، فلم أجب ، لأننى اعرف بالضبط ماذا على أن ادفعه . وقـال « زوزو » : « البيه مننا وعلينا يا أسطى فرج » . وقال الأسطى فرج « دانا اللى مربيه . دانا .. اسأله يقولك » . وكان يريد أن يقول انني كنت ذات يوم من بين الأنفار الذين يسوقهم للعمل فى الوسية لكنه تحرج . وأحسـست بجروح تنزف داخلى. فقلت وأنا اتشعلق بأعلى درجات البكوية : « آخر كلام حاديلك ثلاثة جنيه » . وكنت فى أعماقي اتمنى أن يرفض ، لكنه قال : « هات ثلاثة ونص علشـان خاطر الذكريات القديمـة بس » . قلت : لا . قال : « زوزو » : « عندى أنا » . قلت : لا . قـال الولد : « خلاص عندى أنا » . قال فرج : خـلاص اتصرفوا مع

بعض .. تتنازل عن بقشيشك ؟ قال الولد : « رقبتى » فدفعت ثلاثة جنيهات وجررت ساقى بصعوبة شـديدة الى حيث تقف العربـة .

عربة هيلمان عمرها فوق الأربعين . فتحت بابها بكل قوتى، وجلست بجوار الولد مكتئب المزاج ضـائق الصـدر ، وعبثـا حاولت اغلاق الباب الذى صدعنى من الخبط والرزع دون جدوى، فكان على ان اظل مسندا اياه بذراعى من فتحة الشباك . وكنت اخاف أن يسقط الولد بها فى اى ترعة أو يخرم فى أى حقل من فرط الظلام ، لكنه كان يقودها نصف واقف ونصف جالس كالجن المصور . وقلت له : من أين جئتم بهذه العربة ؟ . قال انهـا كانت وجه السعد ، استلقطها أبوه من على الطريق جثة هامدة بخمسين جنيها ، ثم لفق لها موتورا وخرط لها قطع غيار من صنع يديه ، وشغلها على خط المركز ــ القوى .. فجاءت برزق وفير وابتنى أبوه عمارة من ثلاثة ادوار وقفت عليه فى النهاية ببلاش ، اذ جمع تكاليفها وثمن أرضها من الخلوات . قلت : « ما شاء الله .. وزوزو ما هى أخباره ؟ » فابتسم الولد فى خبث عجوز وقـال : انه ما شاء الله ظل يجـاهد حتى استخرج رخصـة مطعم فول وطعمية فى المركز ، وسار كل شهر يأخذ تموينا من الزيت والفول، يبيعه ويذهب المشترى بنفسه ليتسلمه من الحكومة ــ أى أن « زوزو » يتاجر بلا رأسمال ، بل هو يقبض أثمانا عالية وهو جالس فى داره . فجمع راسمالا كبيرا فتح به هذه المقهى واشترى عربة أجرة . ولا تزال رخصة المطعم تتسلم التموين بانتظـام رغم ان هـذا المطعم لم يكن له وجود فى يوم من الأيام !

ظننت الولد يهذى بأى كلام ، قلت له كيف يحدث هـذا ؛ انك يابنى قد لا تعرف ان هنـاك مفتش صحـة ومفتش تمـوين

ومباحث وما الى ذلك مما لا يستطيع رجل كهذا ان يفلت منهم . وهنا انفجر الولد ضاحكا بصفاء يشوبه قدر قليل من الخبث ، وكان من حين الى حين ينظر الى نظرة سريعة خاطفة ليرى ان كنت أمزح بهذا الكلام أو أقصـد الجد . ولاحظت عدم التصديق الشديد فى وجه الولد وفى ضحكته المستمرة ونظراته المستنكرة . فقلت له انني لا أمزح ، فقال بكل بساطة : « تبقى انت حضرتك يا سعادة البيه ‥ لامؤاخذة يعنى ‥ مش عايش فى الدنيا ! » .

استغربت من جراة الولد ، وتعشمت خـيرا فى الأجيـال القادمة ، فها هو ذا الطفل يعرف من أين تؤكل الكتف ، ويعرف أيضا كيف أن الأكل من الكتف فن يجيده اذكيـاء المجتمع وان الأغبياء فقط والمتخلفين عقليا هم الذين يخترعون كلاما كثيرا عن الشرف والأخـلاق يبررون به عجزهم عن الكسب والنجـاح أمـام أولادهم ! ‥ قال الولد :

ــ مفتشين ايه يا بيه كل سنة وانت طيب !

ــ يعنى ايه يا شاطر : تقصد ايه يعنى !

ــ مفيش حد ماهش عايز فلوس يتمتع بها ويربى ولاده ..

ــ أيوه بس فيه أخلاق وقوانين وشرف .. والا كل واحد يعمل اللى هو عايزه والدنيا تبوظ ..

لامؤاخذة يا بيه ‥ الدنيا باظت يوم ما سمعنا الكلام ده . بقي الشرف والأخلاق انى انا اقعد اتفرج على الكسيبة وانـا مش لاقى آكل ؟ ! .. تعرف يا بيه .. انا حاقول لك على حاجـة بسيطة .. هى الست اللى بتبيع جسمها عشان تأكل وتسـكن وتلبس .. بنسميها ايه .. شريفة ولا ماهش شريفة ؟

ــ طبعا ماهش شريفة !

ـ طيب .. يبقى الشرف يعنى تجوع وتتعرى وتنطرد من بيتـك .

ـ انت فى سنة كام يا شاطر ؟

ـ انا فى الاعدادية ومش ناوى أكمل .

ـ ليــه ؟

ـ واكمل ليه ؟

ـ عشان يبقى معاك شهادة !

ـ اعمل بيها ايه ؟

ـ تتوظف بيهـا .

ـ واتوظف ليه .. انا مجنون .. ده ماهية الموظف دى انا اكسبها فى يوم ..

ـ عشان تبقى متعلم ومتنور وفاهم الدنيا .

ـ اصل يا بيه اتضحت حاجة .. ان الواحد عمره ما يتعلم ويتنور ويفهم الدنيا من الكتب .. الناس طول عمرهـا بتتعرى وتتعلم وتصرف دم قلبها .. وبعدين يطلعوا من المدارس والكليـات يلاقوا الدنيا حاجة ثانية خالص غير اللى تعلموه ..

ـ طيب ما فيه ناس كتير اتعلمت ونجحت فى حياتها ..

ـ انت بالك هما نجحوا عشان عملوا باللى تعلموه !. أبدا .. دول من الأول فاهمين كل حاجة .. واتعلموا بس عشان يتباهوا بالشهادة .. انما يركنوا اللى تعلموه ده على جنب .. ويشتغلوا باللى فى دماغهم هما .. بالفهلوة اللى تعلموها فى السوق وفى بيتهم .. أمال يا بيه الحيـاة أصلها مش لعبة .. إنا بسوق

العربية دى وسنى تسع سنين .. وكنت بسوقها وأنـا واقف واديك شايف السكة اللى باسوق فيها شكلها ايه ..

ـ بس الفهلوة دى نصب .. اللى يعيش كده بالفهلوة يبقى نصاب وحرامى وسـفاح « نظرة جانبيـة قلد فيها فريد شـوقى » :

ـ يا بيه الدنيا كلها مبنية على كده .. نصب فى نصب .. أبويا لمـا اتجوز أمى نصب عليهـا وفهمها انه ولد مفيش منه وكسيب وهو كان لسه يادوب نفر فى الوسية .. ولمـا دخل عليها ولقتأنه ع الحميد المجيد ما بقتش ترضى له .. نصب عليهـا علشان يخلفنى .. قعد يقول لها وانا بحبك وانت حيـاتى دانا ح اعمل لك واسـوى .. ومن يوم انا ما جيت لحد النهـاردة وهو بينصـب على .. يفهمنى انه بيفهـم أكثر منى عشـان أخاف منه وأحترمه قدام النـاس .. ويفهمنى انى انا راجـل عشان أبقى أريحه فى الشغل ..

« نظرة جانبية أخرى قلد فيها شكرى سرحان » :

ـ ومفيش حاجة تغيظ بقى غير النصب بتاع المتعلمين واللفندية .. تروح للدكتور بالست بتاعتك وهى حامـل يديهـا نصايح مالهاش اول ولا آخر كل يوم نصيحة .. تأخد له الطفل المولود يديلك عشرميت نصيحة .. والراديو والتليفزيون كلّ حاجة منها لها عشرين الف صـوت كلهم بيقولوا لا احنا اللى نغسـل أكثر بياضا .. والأصوات اللى بتقول الكلام ده عن الحاجة دى هى نفسها اللى تقول نفس الكلام ده على الحاجة الثانيـة .. وفى حالة ثانيـة تلاقى دكتور ولا مهنـدس ولا واحد من الأساتيذ يقول لك لا ماتعملش كذا وماتصدقش الكلام الفـلانى .. مش

كل ده نصب يا سعادة البيه ؟ • تعالى بقى على الجماعة اللى بيرشحوا نفسهم فى الانتخابات .. كل واحد منهم يلف ع البيوت ويقول حاعمل واسوى وحاجيب للبلد وحاوظف وحاشق مصارف وادخل الكهرباء وارصف وأجيب ميه والآخر كلهم بيجيبوا جاز .. زى البابور لما ينطفى ويبرد يروح جايب جاز .. الله .. هو احنا يا سعادة البيه عمرنا شفنا المطربين يغنوا ليل نهار لخضر العطار •• ايه بقى خضر العطار ده ؟ •• ده لو بيبيع ماء الحياة مجانا .. يعنى لو كان المسيح عليه السلام أو سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ماكانش يتغنى له كده •• تعرف الناس عندنا فى الأفراح بيجيبوا فرقة فيها مطرب أى كلام .. ويغنى برضه خضر العطار .. زى الراديو ! .. ده لازم يكون الملحن اللى لحن اللحن ده واخد أجرته عزبة سبعتلاف فدان ، ويكون خضر العطار قارون اللى بيقولوا عليه فى الحواديت .. يا بيه صلوا ع النبى يا بيه وماتوجعش دماغك .. اللى تعرف ديته اقتله ..

وكنا قد وصلنا الى مدخل البلدة حين تمهل الولد فى القيادة فيما يقول :

ـ حمد الله على السلامة يا بيه ..

ـ الله يسلمك ..

ووقف وقال ان دخول البلدة لم يكن ضمن الاتفاق ، ذلك انهم يتفقون دائما على الوقوف عند هذا الكوبرى ، لأن شوارع البلدة مليئة بالمطبات والأوحال ثم انها ضيقة كثيرة المنحنيات .. قلت له ففيم المخصوص اذن ؟ قال المخصوص يعنى ان اطلع بك وحدك ولا اتوقف لأحد ولا يضايقك احد . وكنت أرى أن دخول

البلدة أمر وارد فى ذهنــه وفى الاتفاق ولكنه يساوم لاضـافة نقود جديدة . غير اننى لم أجد فى نفسى طاقة لأى شىء . ففتحت الباب ونزلت .

وكان الليل قد بلغ الذروة حين اخذت أجوس بين الحوارى الضيقة التى ازدانت بالفوانيس الكهربائيــة ، تلقى على الأرض ضوءا شاحبا يعمق الليل أكثر مما يؤنسه . ورغم أن جغرافيــة الحوارى كانت تؤكد لى انهــا جزء من بلدتنا الا أن ثمــة شــيئا ما كان ينفى هــذا التأكيد ، لعله انعدام تلك الرائحــة القروية الجيدة ، رائحة الروث والألبان والسمن المقدوح ، رائحة الخبز الطــازج والتقلية ، وكان يحل محلها رائحة البنزين المحترق ، وكانت ثمة عربات فارهة تقف أمام البيوت المبنية بالطوب الأحمر!. وكان بيتنا قد غرق فى صمت مألوف جعلنى اطرق شــباكه فى هدوء يتناسب معه ، فلما طال الطرق شددت من وقع قبضتى. وفتحت لى زوجة اخى ولم يكن يبدو عليها النوم ، ومن داخــل القاعــة البعيدة كانت تلمع أضــواء سماوية فى خفقات سريعــة متتالية ، فعرفت أن بالبيت جهــاز تليفزيون ، وأنهم ســاهرون حوله ، عجبت طبعــا كيف تسنى لهم هــذا ، لكننى سرعــان ما تذكرت أن لى شقيقا صغيرا كان قد سافر الى السعوديــة مساعدا لأحد عمال البناء .

ادخلت الى الدار بحفاوة شديدة لا تتناسب مطلقــا مع حجم محتواى المــادى ، وهبت الأسرة كلها فى سعادة واشراقة ، ونزلت امى عن السرير وعانقتنى . كان كل اخوتى قد حضروا .. النجار والسمكرى والنســاج والخيــاط والبنــاء ، وكانت قد انتشرت فى القاعة أشياء غريبة وشــاذة : روب دى شامبر ..

كامـيرا .. جرامفون .. اسطوانات .. كاسيتات .. بنطلونات حريمى .. وثمة حقائب كبيرة جدا لم يكن يخطر ببالى ان يكون عندى مثلها ، كانت كلها محشوة بالهدايا والأشياء المشتراه من هنا وهنـاك . وكان من الواضح ان أمى قد أشبعت تماما ، وانه لم يكن ينقصها الا مجيء ابنها الموظف ، اى المحترم الوحيد فى العائلة كما قد توارثوا الأفندى الوحيد الذى تعلم على حساب الباقين والذى من المفروض انه كبير العائلة .

رميت حقيبتى الحقيرة ، جلست بينهم أحـاول أن أكون سعيدا بأى شكل ، ولا ادرى كيف تسرب خبر حضورى فى هـذا المساء ، اذ انفتح الباب ولم ينغلق بعدها حتى الصباح من كثرة الداخلين والخـارجين ، وكان اخوتى الأصـغر منى قد راحوا يتبارون فى توزيع الأوراق النقدية الجديدة على الأطفال ، ويبعثون فى شراء أشـياء ولا يسـألون عن الباقى ، الأمر الذى أحالنى وسطهم الى عود من القش الجـاف ، الذى ان عصرته نزت منه الكآبة السوداء . وكان الوقت كلما أمعن فى الضحى والوضـوح تعريت ، وحتى قدوم الصباح كنت اتذرع بطلوع النهـار وقدوم الأطفال المهمين فى نطـاق الأسرة لأعطيهم « عيديتهم » ، ولكن الصـباح جاء ومن بعده الضحى ، وصرف الأطفـال أضعـاف أضعاف ما بقى فى جيبى ، وكان لابد أن أنصرف ، ورحت أبحث عن أسـباب قوية تبرر رحيلى فى نفس اليوم — يوم العيـد — وفتحت حقيبتى وأخرجت على استحياء شديد الطرحة الحبر ملفوفة فى ورقة جرنان ، وقدمتها الى أمى ، ففكتها مبتسـمة ، ومبتسمة أيضا راحت تشوح بها فى مرح مرددة : يو ...و ... و .. أنت لسـه فاكر .. ان شاء الله ما أشتهيك » . لكن لهجتها لم يكن فيها اى حمـاس ، اى فرح ، ثم انها وضعتها بجوارهـا فى عدم اهتمام ، وقالت .. لتفرحنى أو لتشقينى لست أدرى :

ـ هاتى يا بت الهـدايا اللى اخواتك جايبينها لمـا أفرجه ٠

وجاءت اختى الصغيرة بعشرات الأشـياء التى تتضـاءل امامها هديتى الى الصفر . تفرجت بلا حماس ، ولم اسـأل عن أشياء كثيرة كانت تستحق السؤال . ثم ان الجميـع خرجوا للتجول فى القرية وزيارة المقابر ما عداى ، وعادوا ثم خرجوا ثم عادوا مرات عديدة يصحبهم رجال واطفال ، وكنت خـلال ذلك مشتت الفـكر يشغلنى أمر مهم : كيف اصحو مبكرا لأبدأ العودة فى رحلة عجفاء تخلو من كل رفاهية فما بقى معى بالكاد ـ يوصلنى الى بيتى متشعبطا . وكنت ألاحظ أن الأطفال يشيحون عنى فى تجاهل مهذب ، ولا يستجيبون لمداعباتى !

السعد الذى طرق أبواب اليتيمات

حين نزل من محطة القطار لم يعرف بالضبط ما اسم هـذه المحطة بل لم يعرف بالضبط لمـاذا ركب هـذا القطار بالذات ، فقد سـأل وهو فى العاصمة عن خط الأرياف فدله أولاد الحلال الى هذا القطار ، فركبـه ، وعرف أن مظهره هو الذى جعلهم يوجهونه نحو القطار بدلا من عربات الأجرة المرفهة ، ولقد ساعده كل من سـأله سـؤالا وحمل عنه بعض أحماله ، وقد رزقه الله بمن رافقه الى المحطـة وقطع له التذكرة واسلمه لمن يكون مسئولا عنه فى القطار ، ذلك ان « شلاده بخشوان » رجل ضرير مغلق العينين تماما ، جارم الأطراف والملامح وعمـلاق ، يرتدى جلبابا جلديا حائل اللون يبرز من فتحته صـديرى وفى القدمين بلغـة بيضـاء .

فلما انحشر فى القطار المزدحم بكتل اللحم البشرية وجد ـ ويا للعجب ـ من يتنـازل له عن كرسـيه ، ومن يتولى ايجـاد مكان لحقائبه على الرف المستطيل ، بل ومن تطوع بحراسـتها والتتميم عليها كلما وقف القطار على محطة . ومنذ جلس لم يكلف نفسه عناء السؤال عن شىء ، حتى حينما سأله أحدهم :

ـ على فين العزم يا حاج ؟ .. قال بسرعة : آخر الخط ان شاء الله . وقد أجاب بناء على التذكرة التى اقتطعها والتى أراد لها أن تكون مفتوحة وعليه أن ينزل فى المحطة التى تعجبه وظل يراقب حركة القطار بدقة شديدة وانتباه عظيم لا يتوفر الا للعميان أمثاله . فكان يدرك بالملاحظة ان مجتمع القطار يتغير من محطة الى أخرى . فجاة يسود مجتمع نصف مدنى ، وفجاة ينقرض بعد محطتين ، ليسود مجتمع ريفى قح ، يظل يمعن فى قحته فكأن القطار يدخل شيئا فشيئا فى بطن لهجات تشبه أن تكون قبليه من فرط تميزها الشديد . فما أن وصل القطار آخر محطاته حتى برع فى أذن « شلاده » من يعرض عليه أن يتفضل معه . لحظتها لم يكن قد بقى فى القطار احد سوى هذا الفلاح الذى وجد فى القطار رجلا غريبا ، فلابد أن يكون قاصدا بلدتهم ، ولابد أن يكون قريبا لأحد من أهله ، فعليه اذن أن يقوم بالواجب تجاهه .

مالت راس شلاده نحو مصدر الصوت :

ـ احنا فين دلوقت يا ابنى ؟

ـ احنا فى البشلاوة المحطة .

ـ امال بشلاوة البلد تبقى فين ؟

ـ مافتناها ورانا .. اللى عاوز ينزل بشلاوة البلد ينزل فى المحطة اللى قبلها احسن له .. عشان يمشى خمسة كيلو بس !

ابتسم الوجه الأسمر ذو الشعر الكثيف :

ـ امال اللى ينزل بشلاوة المحطة بيروح فين ؟

ـ يروح البريمة .. انت حضرتك رايح فين ؟

ـ انا كده بلاد الله خلق الله .

ـ آه .. بالجودة .

هكذا ختم الفلاح وقد ترسب فى نفسه احساس بالخوف من التورط فى ضيافة قد تعطل مصالحه .. ومع ذلك وهو يهم بالنزول قال :

ـ طب ما تتفضل معانا .

ـ يزيد فضلك .. نزل معايا الشنطة ؟

اعفاه الفلاح من حمل أى شىء ، فشد حقيبتين بحزام جلدى ومال فحشر كتفه بينهما ، ثم حمل الثالثة بيمناه وباليسرى سحب « شلاده بخشوان » ونزل به من القطار ، ثم استدار يحجل بخطوه الثقيل نحو الطريق الزراعى .

العدد القانونى لركاب العربة خمسة ركاب ، ولكن « حمدى » السائق يوسقها بعشرة على الأقل ، وهى عربة فورد موديل ١٩٣٨ ـ اشتراها « حمدى » من وكالة البلح ولفقها ورممها فكلفته ثلاثمائة جنيه هى كل مدخراته منذ توظف تمورجيا بالوحدة العلاجية سنة ١٩٥٦ وصار يزوغ من الوحدة بعد ساعة أو ساعتين بالكثير ليجرى على السكة رائحا غاديا من المحطة الى البلد يعمل له فى اليوم عشرة ادوار بالراحة . النفر بعشرة قروش وتحسب الحقيبة نفرا اذا تجاوزت يد صاحبها . ولا حديث لركابه طوال الطريق الا هو نفسه ، كثرت عجوله وابقاره لدى الفلاحين ، كيف ابتنى بيتا « حديثا » فى مواجهة الوحدة وسط الحقول . كيف انه ـ وهو الذى لا يذهب الى

العمل ولا يعمل ـ يرفع القضايا ضد الوحدة ويوكل المحامين يطالبون له بحقه فى الترقيات والدرجات والعلاوات . ويكسبها بالفعل .

يضحك حمدى بصوت مسرسع كاشفا عن اسنانه الصفراء الكبيرة ، يزغد من بجواره كأنما ليستحثه على مزيد من الثرثرة ، ويسوق العربة وهو جالس على ما لا يزيد على شبر ، اذ الكرسى الأمامى فى هذه العربة الفورد ذات الأصول النبيلة قد تحول الى كنبة استنبولى يحتلها ثلاثة أو اربعة ركاب بجوار السائق ، أما الكنبة الخلفية فيحتلها خمسة آخرون ، يجلس فوق ركبهم ثلاثة أو اربعة ، والعربة تجأر وتزمر وتزعق ، وتنشال وتنحط وهم لا يبالون .

ـ قف ياسطى .

قالها « شلاده » فى لهجة حاسمة ، وكانت العربة لحظتها قد أخذت الرابع وراحت تعمل على دهك الركاب فى بعضهم وتحويلهم الى عجينة واحدة ، والسكة عجفاء مضلعة ..

ـ عاوز ايه يا حاج .

هكذا رد حمدى فى ادب شديد كما تقضى التقاليد بمخاطبة الغرباء .

ـ ما دام عندكم نظام العربيات ، يبقى عندكم نظام المخصوص .

ـ أيوه عندنا .. عندنا كل حاجة ..

ـ مش ممكن تطلع بى انا لوحدى مخصوص ؟

ـ ممكن قوى .. انزلوا يا اسـيادنا .. بس حناخد منك تلاتة جنيه يا حاج ..

ـ مايهمش ..

ـ خلاص .. انزلوا يا جماعة .. ربع ساعة وحارجع لكم .

توقفت العربة وحدثت حركة سريعة أحس « شلاده » خلالها ان الدنيا راقت بعض الشيء ، ولما سأل عن ابن الحلال الذى كان يرافقـه رد عليه قائلا انه لا يصح أن يتركه وحده . ورغم ان شلادة لا يملك عينين الا انه تأكد من أن الركاب كلهم لم ينزلوا ، وان ثلاثة فقط هم الذين نزلوا ، ولكنـه قرر بينه وبين نفسـه ان يدفع الجنيهات الثلاثة وأمره الى الله .

منذ تلك اللحظة بدا حمدى ينشغل بأمر « شلادة » ، فمنذ برهة كان يتصـور أنه رجل « أى كلام » ، مجرد ضرير يمشى بصحبة أهل البلدة ومعه ثلاث حقائب كبيرة ، أما أن يتمخض عن رجل كبير هكذا ، يدفع ثلاثة جنيهات فى توصيلة كهذه ، ودون مساومة فانه لأمر لا ينبغى أن يفوت على حمدى . ولذلك فانه . استعاد حديثه وكف عن الهزار ، وبلهجة رزينة قال : « امال الحـاج منين ؟ » .

فقال « شلادة » بلهجة يفهم منها انه من شخصيته ، ان وطنه الحقيقى هو شخصيته .

ـ مش مهم .. بلاد الله خلق الله ..

ـ أيوه لكن البلد الأصلية ايه ؟ ..

ـ من دولة عربية جنبكم .. بينها وبينكم فركة كعب .

فنظر الفلاح الى كعبه فوجده ينبىء عن مشاء كبير والى ملابسه الكالحة فوجده لا يزيد على بائع سريح ، فقال كأنه يتبرأ منه امام أهل بلده :

ــ تصوروا أنه نازل بلدنا وهو ما يعرفش أى حد فيها ؟ !

نشط خيال « حمدى » :

ــ تايه ولا ايه ؟

ــ لا يا ابنى .. انا تاجر .. معايا بضاعة بأبيعها .

واعتقل « حمدى » خياله قليلا :

ــ ربنـــا معـــاك .

لكنه لم يستطع التغافل عن الحقائب الثـلاث وما يمكن أن تحويه من بضـــائع ، فحمدى يحب الصوف والكشمير ، ويحب الفانلات أم رقبة والجواكت الشمواه ، ويحب الساعات المعلن عنها فى الشرق الأوسط ، ويجب أن يكون عنده جهاز للتسجيل يتباهى به ويخـادع الأصدقاء و « يسجل » لهم ، ويحب قبل كل ذلك وبعد كل ذلك أن يصطاد هذه الأشياء قبل أن يصطادهـا غـيره ..

ــ ايه البضاعة اللى معاك يا حاج ؟

ــ كل طلباتك .. بس أما تنزل وافرجك .

وظل حمدى طول الطريق صامتا ، فلما وصـل الى الجمعية الزراعية حيث يتعين عليه الوقوف للعودة ، اذا به يواصل السير الى داخل البلد . وعجب من كانوا معه وكشفوه بتعليقاتهم ، وكان حمدى قد نسى انه خدع الأعمى واوهمـه بأن التوصيلة « مخصوص » وها هى ذى ليست كذلك ..

ـ هما بيطلعوا منين ياخويه ؟

هكذا علق الأعمى ، فانفجرت الصـدور ضاحكة ، واضطر حمدى الى مداراة حرجه بالضحك ، لكنـه سرعان ما وثب على الموقف واعتلاه :

ـ على العموم خلى عنك .. التوصيلة دى على حسابى ..

وكان فى صوته نبرة جادة صادقة .

ـ تشكر يا أسطى ..

ـ اسمع .. الغريب مكروم لأجل النبى .. وانت النهاردة ضيفى .

ـ الله يكرمك ما نتحرمش .

ودون أن ينتظر رد الأعمى انطلق نحو بيته ، وحين وقف نزل من السيارة وأشار للركاب قائلا : طب مع السلامة انتو .. اتفضل يا حاج . فنزل الأعمى وسحبه حمدى الى الداخـل ، وأدخل السيارة الى حوش المنزل وأغلق بابه .

دبت الحياة فى بيت حمدى على غير العادة ، هو الذى انعزل عن الناس كلهم منذ أن صار ذا مال ، وأغلق على نفسـه أبوابه كلهـا درءا للحسـد ، ذلك ان اللقمـة التى تفتش لا تؤكل ، آثر ان يعيش مع أمه العجوز فى هـذا البيت الكبير « وطرمخ » على مسألة الزواج هـذه خوفا من ان يجىء بواحدة ليست من صلبه تشاركه فى ماله ـ على الجـاهز ـ وتصبح شريكة لمثله فى خيره ، فلربما انفصل عنها بسبب من الأسباب وما أكثرها ويخسر بذلك شيئا مما داخ فى جمعه وتكوينه .

وظل يخطب ود الزواج من بعيد لبعيد متعشما أن يخلق الله له واحدة خاصة بمواصفات خاصة ، وظل بيته يطالعك فى مدخل البلد انيقا تحوطه حديقة ويصدح فيه عبد الباسط ليل نهار .

غير ان هذا البيت سرعان ما تحول الى سوق ، تؤمه العرائس والعرسان ، ويؤمه التجار والزبائن والسماسرة ، ففى ظرف أيام قليلة كان صيته قد طبق الآفاق وصار من المألوف أن تجد الركائب مربوطة فى سور البيت تنتظر أصحابها الذين جاءوا من العزب المجاورة يتفرجون أو ينتقدون أو يسفهون من قيمة البضائع ولكنهم جميعا فى النهاية يشترون ويدفعون .

انتشرت على أجساد الولدان الصغار فانلات ملونة وبنطلونات محزقة أو مترهلة ، الأمر الذى أحدث ما يشبه الانقلاب فى البلد، فهذه الملبوسات والمقتنيات قاصرة على الذين لهم أقارب من العارين للعمل فى البلاد العربية ، وهؤلاء كانوا يشكلون طبقة متميزة . أما أولئك الذين لم يكن لهم أقارب فانهم فجأة صاروا وكأنهم هم انفسهم من العاملين فى البلاد العربية ، فها هى ذى الملبوسات والمقتنيات قد جاءت لحدهم وبنفس الأسعار تقريبا ان لم يكن أقل بكثير مما يزعم القادمون بالهدايا من هناك . وفى القرية لا توجد وجوه للانفاق أكثر من الأكل والملبس والعلاج والكيوف المتاحة ، وما بقى من هذه الوجوه ــ وهو قليل ــ مدخر لليوم الأسود الذى يعمل له الفلاحون ألف حساب . ولكن لم تكد تمر أيام قليلة حتى كان هذا الأعمى قد حصل على كل المدخرات ، وخلال ذلك كان « حمدى » هو الذى يساوم ويبيع ويقبض ويعطى للرجل ما يقبضه ، ويقول أهل البلد ان « حمدى » قد استنفع من ورائه كثيرا ، ويقول آخرون انه حصل

فقط على عمولة ، ويقول المقربون منه ان مكسبه كله لم يتجاوز حصوله على جهاز تسجيل وقطعتين من الصوف له وقطعة الديولين لأمه .

وفى اللحظة التى بدات وفود المشترين تتضاعف كانت البضاعة قد نفدت تماما ، وكان الأعمى قد عرف أنواعا جديدة من المطلوبات التى يلح اهل القرية فى طلبها ، بل وعرف أسماء الأصناف التى لم يكن قد سمع بها مطلقا ، وتعجب كيف يمكن أن يصل صيت هذه الأشياء الى مثل هذه القرى البعيدة عن كل عمران . لقد جاء من يسأله مثلا عن أقراص « الجفرين » التى تعطى الانسان قوة الحصان . ومن يسأله عن أبر ماكينة الخياطة سنجر ، ومن يسأله عن الجوخ والكشمير ، والملاءات والطرح البيضاء . والخلاط والمفرمة وماكينة الحلاقة بالكهرباء ، والطاسة التى لا يلتصق بها الطعام ، وعرف كذلك طائفة من الأشياء الغريبة ، فهذه سيدة عجوز تسأله عن قماش يسمى (الحبر) ـ بفتح الحاء والباء ـ وأخرى تسأله عن شال من القطيفة وثالثة تسأله عن المسك والجاوة . وجاء فى السر ناس من علية القوم تسبقهم مقدمات دبلوماسية يسألونه عن افلام من التى يتفرج عليها الأمراء فى بيوتهم الخاصة . وجاء شبان من طلبة المدارس الثانوية يسألون عن مجلات السكس . كذلك عرف طائفة أخرى من الأشياء الأكثر غرابة التى تندرج كلها تحت بند « الأصلى » فمنها اشياء معلومة بل ومتوافرة فى كل مكان ولكنها ليست الصنف الأصلى انما هى المقلد !!

حينئذ نام الأعمى على ظهره فوق سرير حمدى الذى تنازل له عنه ، وسرح بأفكاره الى بعيد . ان القرية ، اذن ، تريد سوقا كاملا يحفل بكل هذه الطلبات ، انها تعامله ليس باعتباره

بائعا سريحا لا فرق بينه وبين أى من البائعين المنتشرين هنا وهناك من قديم الأزل ، بل تعامله باعتبــاره بلدا عربيــا بحــالة انتقل اليهم ومطلوب منه أن يلبى كل احتياجاتهم . لقد أخطــأ حين زعم أنه من ليبيا الشقيقة وانه أحد تجــارها فعاملوه على انه لبيبا ، ثم حاول أن يطرد من ذهنه شبح التفكير خوفا من أن يرى « حمدى » أفكاره فتتكشف حقيقته ، لكن ســؤالا ملحا كان يطرق دماغه : ما الذى يحدث لو علم كل هؤلاء انه مصرى مثلهم ، انه محروم مثلهم من كل ما يحتاجون اليه وانه مثلهم ايضا يطلب ما ليس فى حاجة اليه وهو لا يعرف السبب فى ذلك ، الا يعرف هؤلاء الاغرار المساكين ان هــذه الأشياء التى باعهــا لهم بكل مدخراتهم هى فى حقيقة امرها اشياءه التى اشــتراها لنفسه بشقاء ثلاث سنوات فى ليبيا ؟ ! .. نعم ، لقد تمكن من السفر الى ليبيا بمعجزة منذ ثلاث سنوات ، وكان مؤذنا فى أحد المساجد ، وكان يدعى امام الأغراب أنه امام وانه من ضحايا عبد الناصر الذى سجنه مع الاخوان المسلمين ، وحدث أن وفد الى القــاهرة ثرى ليبى يطلب زوجــة وبعض الخــدم وكان « شلادة بخشوان » يقرأ « راتبا » لدى أسرة الزوجة فوقع فى عرضها فكلمت زوجهــا الثرى فقال انه ابتنى تحت منزله زاوية صغيرة ولا باس من أن يصحبه معه الى ليبيا اماما لهــذه الزاوية . وفى ليبيا زعم أنه من ضحايا السادات وانه أخرج من بلده مطرودا بلا مــال ولا زاد ولا متــاع ، وبذلك حصــل على الجنسية غير أن المــاء دائما يكذب الغطــاس المدعى ، فسرعان ما كشف ادعاءه المصلون ، واهملوه تماما واختاروا لهم اماما من بينهم ، فآب الى وضعه الطبيعى مؤذنا ، ثم لم يعد يحظى بأى تقدير ، ثم ساءت المعاملة فطلب السفر ، واخذ مدخراته فاشترى بها كل ما سمع عنه أو جلب اهتمامه خــلال فترة الاغتراب فى

ليبيا ، فلما عـاد من جديد الى القاهرة التى سيطرت على أحلامه اكتشف فجاة انه بلا أهل فيهـا ، وان المبيت فى المسجد لم يعد أمرا مستحبا خاصـة انه صـارت له ممتلكات كهـذه ، فأصيب بيأس شـديد وفكر فى الاستغناء عن بعض هذه الممتلكات لقـاء أجر المبيت ، الا أن تفاهـة العائد لم تشجعه على الاسـتمرار خاصـة أن جيبـه لا يزال عامرا ببقايا جنيهات ، الى أن رأى نفسـه مدفوعا للسفر بما معه بحثا عما يكون قد خبىء له فى المجهول ، فقاده الحظ السعيد الى هـذه القرية الصغيرة الثانية .. فماذا يفعل الآن وقد نفدت بضاعته ، هل يتحول الى سـوق أم يكتفى برزقه ويرتد عائدا ، ولكن الى أين ؟ ..

وفى الصباح عند تناول الفطور قال « شلادة بخشوان » لحمدى العرايشى :

ــ ان شاء الله أنا مسافر النهاردة .

ــ مسافر ليبيا ؟ !

ــ ان شاء الله .

ــ أشرق وجه حمدى بالبشر :

ــ كده على طول ؟

ــ اذا عزمت فتوكل على الله .

ــ يعنى خلاص زهقت مننا ؟

ــ لا .. دانا راجع تانى .

ــ صحيح ؟

ـ امال ٠٠ الطلبات اللى الناس طلبوها لازم أجيبها ٠

ـ على خيرة الله .

* * *

ثم كتب حمدى قائمة من طلباته الخاصة قدمها له ، تتضمن تليفزيونا ملونا وغسالة وثلاجة ان أمكن ٠ وقال « شلادة بخشوان » ان كل شيء ممكن ولكن على المدى الطويل يسهلها المولى . فصدق حمدى كلامه وقام ليوصله بالعربة الى القاهرة .

« كل ذى عاهة جبار » ٠٠ هكذا يقول المثل فى قرية « البريمة » وفى كل القرى ، واذا اعتبرنا ان العمى عاهة بالنسبة لشلادة بخشوان فانه يكون مثلا صادقا تماما . ومهما يكن من أمر فان « شلادة بخشوان » جبار بكل معنى الكلمة . لقد مر بعربة حمدى العرايشى على أماكن متعددة فى المدينة توقف عندها ونزل كأى « بيك » من بكوات العصور القديمة ، وانتظره حمدى كأى سائق ، ثم يعود دون أن يذكر أى شيء عن الأماكن التى دخلها . ثم انه ودع حمدى فى المطار ، وما أن سمع صوت العربة الفورد القديمة المهانة يبتعد فى زئيط المدينة حتى استوقف تاكسيا وعاد به الى وكالة البلح .

على مقهى هناك التقى بمن تواعد معهم من أصدقائه القدامى ، وقاموا ببضع جولات فى وكالة البلح استمرت عدة أيام وأسفرت عن مجموعة من الحقائب الكبيرة والبالات والشكائر والأجولة ، تجمعت كلها فى عربة « هوندا » نصف نقل ، واتخذت طريقها الى قرية البريمة . نفس الطريق الذى حفظه « شلادة

بخشوان » عن ظهر قلب فصار وهو الأعمى يقود السائق ويحكى له أسـماء وأخبار هذه الصفوف من البيوت الطينية المتجاورة .

تجاوزت الأمور قدرة « حمدى العرايشى » على السـيطرة فخرجت البضـائع من نطاق داره ، فتحولت القرية الى سـوق كبيرة ؛ ونشأ له سماسرة ومروجون وخبراء بلا خبرة حقيقية . حتى البقالون والخياطون وبائعوا الخضـار اشتروا مجموعات من الأصناف بسـعر الجمـلة وعرضـوا فى محالهم بطريقة أحسـن وبأسعار مضاعفة .

ارتفع صيت حمدى العرايشى وصار نجمـا لامعا فى البلد . وصارت العربة نصف نقل « الهوندا » تدخل البلدة كل بضعـة أيام فتحدث رجه كبرى . وجرت الفلوس فى كل الأيدى بقدرة قادر . فما أسـهل على صعلوك خاوى اليد أن يشترى قطعـة قماش بفلوس الآخرين ثم يبيعها بعد دقيقة فيكسب فيهـا ثم يشترى غيرها لصاحب الفلوس ، وقد يلعب هـذه اللعبة عدة مرات فى اليوم .

وطوال هذه الأيام كان « شلادة بخشوان » يحلو له الخروج ليتمشى عند ترعة البلد بصحبة « حمدى العرايشى » ، فيجد الحفاوة والاحترام الشـديدين من كل الناس ، ويتلقى العزائم ويتولى حمدى الاعتذار عنه لمشاغله الكبيرة ، وان هى الا أيـام أخرى حتى أهمل « حمدى » عربته وصار مجرد مدير أعمـال لـ « شلادة بخشوان » وصارت عربتـه مخصصة لمشاوير شلادة فحسب . وكان يبدو على « شلادة بخشوان » انه يزمع الحديث فى امر ما ولكنـه يحجم فى اللحظـة الأخـيرة ، فكثـيرا ما قـال لـ « حمـدى » : « عايز أكلمـك فى موضـوع كده بس مش دلوقت » ، فلما اشتاق حمدى الى معرفة هذا الموضـوع ذهب الى « سيد الجمال » فى « عزبة العبيد » واشترى منه تعميرة

محترمة ، واغلق كل الأبواب والنوافذ ثم أوقد وصهللت الجوزة فكشف من حشاش كبير جدا فى ثياب « شلادة بخشوان » ثم ان حمدى ضرب السيخ المحمى فى قلب الجوزة وراح يدكه بعنف شديد وهو يقول :

ـ موضوع ايه اللى عاوز تكلمنى فيه ؟

اعتدل « شلادة » بخشوان ومسح على كرشه :

ـ بصراحة بقى .. عايز اتجوز !

ـ طب يا أخى قول كده من الصبح ..

قالها فى بهجة ممطوطة وقد أحس أن ثمة بابا جديدا للكسب فتح أمامه ، لكنه سرعان ما أحس بخفقة من قلبه غير عادية ، كان قلبه سيسقط منه ، فان تزوج « شلادة بخشوان » معناه خروجه واستقلاله بنفسه ، أو بمعنى أصح وضع نفسه تحت سيطرة جديدة يعلم الله من ستكون .

ـ تعرفليش عروسة بت حلال كده وغلبانة ؟

ـ طبعا اعرف .. واهم حاجة تكون غلبانة .. خدوهم فقراء يغنيكم الله .

ـ عليك نور .. بس تكون حلوة كدة ومتختخة !

ـ وناوى تسكن بيها فين ؟

ـ فى اى بيت .. وان حكمت نبنى لها بيت ..

ـ ع العموم ما تشيلش هم .. تقدر تسكن عندى لحد ما يحلها ربنا .

ـ اللى تشوفه .

ولم يكد ينتهي الحديث حتى كان « حمدى العرايشى » قد حدد العروس تحديدا قاطعا وبلا رجعة . فالبنت « فكيهة » بنت المرحوم مرشدى لا يطرق بابها الخطاب أبدا ، على الرغم من أنها أجمل جميلات البلد ، والكل يقع من طوله حين تمر عليهم ، حتى نساء القرية يغازلنها لأنها بحضورها تضعهن فى خانة الذكور. وقد كانت أمها تنام على كنز دفين من فلوس المرحوم وقد درج الناس فى بلده على عدم الزواج من الجميلات لانهن فتنة ولانهن ـ بالقطع ـ غير شريفات ! .. وصحيح أن أحدا من أهل البلدة لم يضبط « فكيهة » متلبسة ، ولم يمسك عليها فعلا شائنا ، ولكن الجميع يؤكدون دائما انها على علاقة ما ببعض الرجال ، وقد يكون فلانا وقد يكون علانا ولكن ليس من المعقول أن تظل فكيهة بلا علاقة خاصة وانها ليست فى حماية رجل . وتنهد « حمدى العرايشى » وهو يقول فى نفسه : آن الأوان لأن يعرف هو قيمة الكنز الدفين لدى « أم فكيهة » .

ان كان على الأم فهى موافقة بلا تردد ، وان كان على « فكيهة » فان موقفها تجاوز حدود الصمت الى حد اعلان السعادة ، متيمنة فى ذلك بمثل أصيل « ضل راجل ولا ضل حيط » . واما بخصوص الكنز فقد كانت « أم فكيهة » واضحة تماما ، اذ أوضحت له حقيقة الأمر مصرحة ما لديها : الى جانب ربع نصف الفدان الذى ورثته عن المرحوم هناك قرط ذهبى كان فى أعماق « الصحارة » تدخره لخرجتها ـ أى للصرف من ثمنه على موتها . وكان لابد لحمدى أن يرى القرط ويختبره ، وكجزء من الاختبار وضعه فى جيبه فلم تعترض « أم فكيهة » وان أحست بقلبها ينقبض ، ولعله انقبض من فرط ما تمثل لها شبح البوار فى سوق ابنتها الوحيدة العزيزة ، بقيت هناك

مشكلة ومشكلة خطيرة : ان « شلادة بخشوان » يجب أن يختبر جمال البنت ، وهـذا من حقه ، لكن كيف يتم له ذلك ، وكيف بكون وجه « أم فكيهة » امام أهل البلد ؟ انها تعرف أن ابنتهـا موضع كلام وحديث ويعلم الله كم يعذبها ذلك اذ هى تعرف حقيقة ابنتها جيدا . فهل تساهم بدورها فى المزيد من تسوىء سمعتها !؟

هنا قال « حمدى العرايشى » أن الأمر بسيط ، فهو واثق أن « شلادة بخشوان » سيدخل بيتها دخلة واحـدة ينتهى فى أعقابها كل شيء ، فالبنت أنثى وشلادة فحل هائج متعجل وان الأمر لن يتعدى مجرد اللمس باليد مرة والاستماع الى صـوت البنت مرة وشرب الشاى من يدها مرة ، ثم قال لها أن التليفزيون يريهم السـلوك الواجب اتباعه عند الخطوبة ، الا ترين ان الخطيب والخطيبة يفعلان كل شيء عيانا بيانا ؟ . فتنهدت من أعمـاق صدرها وقالت على الله التساهيل والستر .

كان « حمدى العرايشى » مصيبا فيما قال ، واستجاب الله لدعوة « أم فكيهة » بالستر ، اذا لم يستغرق الأمر سـوى جلسة واحدة ، فعلى حد قوله أنه اشتم رائحتها منذ أهلت ، وانه كان ببصرها تماما اذ هى جالسة بجواره ، فلما امتدت يده نحوها لم تخطىء طريقها أبدا .

اشتركت القرية كلها فى الفرح ، وكان فرحا بهيجا بحق لم تشهد له القرية مثيلا من قبل . وزف « شـلادة بخشوان » الى « فكيهـة مرشـدى » على سرير « حمـدى العرايشى » كان « حمدى » فى أعماقه مبسوطا ، وفى ليلة الدخلة أشرف بنفسه على حمام « شلادة » وعلى مزاجه فظل به حتى مطلع الفجر كلما فتح شلادة باب حجرة النوم وجد فى انتظـاره طاقما من الحجارة المرصوصة ، ووجد النار فى وهج .

فى الصباحية كان « شلادة » قد خلع الحزام الجلدى من وسطه واستغنى عنه نهائيا وترك لفكيهة مهمة الاحتفاظ بما ينطوى عليه من ورق النقود الحمراء والخضراء . وكانت العربة « الهوندا » نصف النقل لا تنى تجىء من وكالة البلح الى قرية « البريمة » بلا توقف حتى دون أن يسافر لها « شلادة » وكان السائق واثنان يرافقانه يحلو لهم الوقوف امام المتفرجين على نزول البضائع ويتكلمون بلهجة ليبية ويبلغون « شلادة » سلام فلان وفلان وفلانة من أجاويد ليبيا . حتى حين أصيبت العلاقات بين ليبيا ومصر بالانهيار كما يزعم الراديو ظلت العربة الهوندا تؤكد قيام العلاقات وتؤكد ان المسألة « بسيطة » وان ما بيننا وبين « ليبيا » حبة زعل ، وسوف يروق الجو عما قريب .

لم يكن « حمدى العرايشى » يتوقع هذه المفاجاة ، لكنه احتملها ، صحيح أن « فكيهة » التى خدمها ضربته خازوقا كبيرا طلع من نخاعه ولكنه لم ينس انها تعمل دائما على تمكين العلاقة بينه وبين « شلادة » ومنحه المزيد من الثقة . ولذا لم تطل دهشته حينما سمع أن « فكيهة » قد اشترت قطعة أرض مجاورة لتبنى عليها « فيللا » أنيقة تقيم فيها مع زوجها ، وأن هذه الفيللا ستكون باسمها كما رغب « شلادة » ، لقد أحس أن « شلادة » ينسحب من تحت سيطرته ، وان نهر المكاسب الذى كان ينحدر نحوه سوف يستقيم ، حسن ، انه « حمدى » ـ لن يستطيع الوقوف فى وجه التيار والا كان مجنونا لن يقوى على كسر قوام النهر حتى يظل منحدرا نحوه ، ومن الخطأ محاولة

ذلك ، فخير له اذن أن يظل النهر يمر به ولو مرور الكرام ، وعموما اذا لم يذهب الجبل الى محمد فليذهب محمد الى الجبل، هكذا سمع الوعاظ يقولون ، وهو يستطيع أن يلحق النهر اذا ما النهر غادره ، المهم الا يجف النهر تماما .

ذهب « حمدى » الى « فكيهة » وعاتبها باحترام شديد كيف تفعل ما فعلته من ورائه وهو لها بمثابة الأخ ، الم يكن وكيلها فى عقد الزواج ؟ ان ما فعلته خير أسعده ، ولكنها ان شاورته لجاء لها بفرص أحسن ، وعموما فهو لا يزال تحت أمرها ، وأكراما لها ولزوجها سوف يتولى الاشراف على بناء هذه الفيللا بمزاجه ، وسوف يجعل منها اعظم بيت فى البلد .

فلمعت فى عينيها نظرة ذكية قالت بها أشياء كثيرة ، وقالت ايضا انها موافقة على ان يظل يستنفع من ورائها ولكن عليه ـ فحسب ـ ان يترفق بها وبالرجل الضرير . وقد حلا لحمدى ان يتغافل عن هذه الغمزة وان بدا أن جديته قد باخت. وهو فى كل غدوه ورواحه ، وعند سفره لشراء الطوب من أمكنة بعيدة ، ولاستلقاط الأسمنت من السوق السوداء وكل الأسواق السوداء بعيدة مكلفة ، ولجلب الحديد « بطلوع الروح » ، وفى الاصرار على استدعاء « المهندز » من المدينة ٠٠ فى كل ذلك يعلم انه مكشوف وان حماسه مجرد « هجص » وان الأطفال فى أيدى أمهاتهم يعرفون أنه ينهب « شلادة » ولكنه مع ذلك لم يكن يخفت له حماس ولم يكن يمل من تعليق الابتسامة القادمة هى الأخرى من وكالة البلح ، ولم يكن الأمر يخلو من مداعبات

شبان خبثاء ، أو تعليقات جارحة من البنائين والعاملين الا انه لم يكن يأبه لها ، بل كان يضحك فى خبث شديد وشاحب مرددا بينه وبين نفسه : مساكين يعتبروننى انهب شلادة بخشوان ولا يحقدون على شلادة بخشوان الذى ينهبهم ويبيع لهم أشياء سبق بيعها مرارا وتكرارا .

ولا تسل عن الاشراق الذى حل بالقرية يوم اكتملت « الفيللا » وتصدرت مدخل الطريق الى البلد ، فقد اكتسحت كل ما أمامها وحولها من بيوت حتى بيوت القادمين من الامارات. تحولت « فكيهة » الى أسطورة لا تقل شأنا عن أسطورة ست الحسن والجمال ، أليست تنتقل بين عشية وضحاها من عشة الى سراية ، وترتدى أفخر الثياب . فجأة صارت سيدة تطل من البلكونة وتجلس فى الفراندة ويزورها النساء ليقمن عنها بكل الاشغال . وصار لها حديقة وبستان وخادم يقول لها : يا ست ، وانتقلت أمها لتعيش معها سيدة هى الأخرى وبان عليها العز خاصة عندما تقيم الصلاة ملتفة بطرحتها البيضاء الحريرية . كان الجميع يحترمونها بحق وتلمس صدقهم من على بعد ، الا « حمدى العرايشى » رغم مبالغته الشديدة فى احترامها. كانت نظراته دائما تشككها فى سعادتها ، كانت تقول لها ان هذه السعادة وهذه السيادة مشتراه كلها من وكالة البلح ، وانها سبق ان بيعت عشرات المرات ، فيها عرق الآخرين وذكرياتهم وشقاؤهم ، فيها أيضا سعادتهم وتعاستهم ، هى اشياء فقدت اثمانها ولكن كل ذى عاهة جبار يبيعها بأغلى الأثمان فى سوق الحرمان — كان « حمدى العرايشى » يوشك ان يشرح كل هذا لفكيهة بكل وضوح وجلاء ، غير أن « فكيهة » كانت تسد عليه كل المنحنيات والمنعطفات ، فقد كانت أذكى منه بكثير ، فاذا كان

فيه ذكاء المرابين المكتنزين ففيها ذكاء الفقر ، ذكاؤه ذكاء النمر المفترس يعرف أين بالضبط يفرس نابه ، وذكاؤها ذكاء الأحلام التى طال احتباسها وقد حان أن تتنفس فلتكن هـذه الحياة كلها مشتراه من وكالة البلح بتراب الفـلوس ، فلتكن هى وكالة البلح نفسها طالمـا هى قد وضعت يدها على ما كان فى خـزائن الحلم ، وصحيح أنها تلبس ثيابا خلعها الآخرون ولكنها تدخل حياة جديدة .

ومرت الشهور سعيدة هنية لا تشوبها شائبة تعكر صفوها . وتربع « شلادة بخشوان » ولظلظ وبدت عليـه سمات الأمارة والعز . ولكن ثمة شىء ما كان يدور فى الخفاء ولم يكن يلحظـه فى البداية غير « حمدى العرايشى » ، فقد راقب « فكيهـة » وعرف من مصادره الخاصة انها تذهب فى مشاوير مسائية طويلة، وتسـافر احيانا الى المدينة فى عربة مخصـوص ، ولمـا طقس واستقصى عرف انها مشغولة بأمر الخلفة ، فابتسم الشـيطان فى أعماقـه وتركهـا تبحث . ثم ان الخبر بدأ يسرى فى القريـة ويتهامس به الناس فيما يشبه الاشفاق الشديد على « شلادة » كأنهم جميعا يحملون مسئولية ثروته وكيف انه لن ينجب .. من يرثها ! مع حبهم الشديد لفكيهـة .. غير ان الجد الله .. الله عليـه .

وجلس « شـلادة بخشوان » الى « حمـدى العرايشى » واستمتع بأنفاسه وعنايته برعى النار على الحجر وحرصه على تغيير الجوزة وتنظيفها . وحين سخن الحديد رفع « حمدى » مطرقته وهوى بها قائلا :

ـ باين عليك مشغول .. انا عارف كل حاجة .. وحاسس بمأسـاتك .

وكان يعرف ان هذه الجملة الأخيرة مجرد جملة التصقت بذهنه من حوار التمثيليات ولكنه استطعم قولها ، ثم أضاف على الفور :

ـ المال والبنون زينة الحياة الدنيا .. وأنت لابد لك من ولد .

بدا على « شلادة » انه تذكر هذا الموضوع فجأة ، وتذكر « فكيهة » وما تثيره فى لبه من هياج ، لكنه قال :

ـ اى نعم صدقت والله .. لقد اشتقت الى ولد .. ولكن ماذا افعل ؟

ـ ما رأيك فى فكيهة ؟

ـ الحق لله بنت لا تعوض .. غلبانة ومريحانى خالص .. وباسطانى .

ـ فيه أحلى منها .. بس بقى . الخلفة عندهم من غير عدد .. أنها بتولد على الأربعين ...

ـ طب وفكيهة ؟

ـ فى بيتها .. زى ما هى على زمتك برضه ..

ـ طب وهى حتسكت ؟ ..

ـ وحتعمل ايه يعنى ؟ .. ولا تقدر تعمل حاجة .. اتوكل على الله ومايهمكش .

ـ خلاص .. توكلنا على الله .

وحين نطق بهذه الكلمة كان فى ذهنه افتتاح بلدان جديدة

مجاورة ، وكان يحس أن العربة « هوندا » نصف النقل يجب أن تكون كبيرة .

* * *

انتعش الليل فى بيت « حمدى العرايشى » طوال عدة أسابيع وفود من النساء تتلوها وفود ، والهدايا تسرب خلسة قبل أن يلتقى الرجال « صدفة » ويجر الكلام بعضه جرا ، كأنما هو صدفة أيضا ، وكان وفد من الوفود يباع للذى يليه ، حتى اذا ما أحس « حمدى » أنه لم تعد فى عيون الوفود دموع يذرفنها فى داره كان قد انتقى العروس المقبلة . يتيمة هى الأخرى من اليتيمات الكثيرات اللائى مات آباؤهن فى مناسبات عديدة . عندها ثلاثة قراريط ملك ، لا مانع لديها من بيعها له بأى مبلغ يراه ، وليس من شرط لها سوى أن يكون لها بيت لا يقل عن بيت « فكيهة » وتعهد لها حمدى بذلك . ولم تكن « وجنات » لتقل عن « فكيهة » جمالا ولا ذكاء حلم .

راحت « فكيهة » ترقب حركة البناء التى نشأت فى مواجهتها على المدخل الآخر للبلد ، تحقيقا للانعزال والبراح ، كانت قد عرفت كل شيء ، بل أنها اختارت عن اقتناع تام ان تسلم بما حدث ، ونشطت منابع الحكمة الموروثة فيها منذ آلاف السنين وأفهمتها ان ليس الحياة المخلوعة لا يعلم الانسان كيف يخلع او يستغنى ، انه على العكس يعلمه كيف يستبقى ويتشبث. ولقد تشبثت ، ولكن بمنتهى العقل والحكمة ، ها هى ذى تملك فيللا وبعض مدخرات ثمينة ، وسوف تعيش على نفس الحال طالما « شلادة بخشوان » على قيد الحياة ، فليفعل ما يحلو له .

وعبر هذه القنطرة المتينة انتقل « شلادة بخشوان » الى الفيللا الأخرى القائمة على راس المدخل الثانى للبلد . واستقبلته « وجنات » أحسن استقبال فادارت راسه وايقظت فيه سعارا جنسيا هائلا ، حتى أنه قال « لحمدى العرايشى » وهو يشد نفس الجوزة :

ــ تصور يا حمدى ان الدنيا كان فيها كل هذا .

قال حمدى بدون احساس :

ــ شوف انت بقى ؟

بعد برهة قال « شلادة » بخبث هذه المرة :

ــ لكن يظهر انها مش ناوية تعملها هى راخره !

ــ يعنى ايه ؟

ــ بقى لنا كام شهر والعادة مستمرة !

ــ مش معقول !

ــ صحيح .. هى دى بقى العادة الوحيدة اللى الواحد ما يتمنهاش !

ــ على العموم اصبر وربنا يسهل .

وفى تلك اللحظة كان خيال شيطانى قد بدا يغزو افق عينيه سابحا مع كتل الدخان الأزرق التى كانت من فرط كثافتها تكاد تمطر فى سماء هذه الغرفة .

* * *

توطد مركز « شلادة بخشوان » فى المنطقة واصبح كما يقول البلغاء العرب نارا على علم ، ولم يعد فى حاجة الى خطط أو مشاريع جديدة تسنده ، بل ان فرية أنه ثرى ليبى لم تعد فى حاجة الى اثبات ولن يصدق أحد عكسها . لقد صار « شلادة بخشوان » قوة كبيرة فى المنطقة بقدر عدد المستفيدين من بقائه ، أنهم جنوده الشجعان ، انها مملكة جديدة نشأت واصبح لها حاشية ومعلمون وصبيان وقد صفصف الجو خلال الأعوام القليلة عن بضع رجال عتاة اصبحوا من عتاة التجار فى المنطقة ، اصبحوا يقومون بكل شىء وما على « شلادة بخشوان » سوى التمويل بالبضائع ، بل انه صار يتعاقد ويقبض الفلوس فيما هو جالس فى صالونه ، ثم تجىء العربات الى عناوينهم وباسمائهم ، كان قد تنازل عن نسبة مئوية من مكسبه لحسابهم ، أما هم فضاعفوها فى القطاعى اضعافا مضاعفة . وانتقل الحزام الجلدى من حضن الزوجة الى حضن أحد البنوك وصار دفترا أبيض يستطيع « شلادة » أن يملأه بأى مبلغ يشاء لأى مستفيد يشاء . ولم يتخل عن صحبة « حمدى » لأن « حمدى » لم يسمح له بذلك مطلقا ، أنه ولد « عشرى » يصون العيش والملح .

ويبدو أن « وجنات » كانت ذات أصول اعرق قليلا من أصول « فكيهة » . هى صحيح تشاركها فى اليتم لكن شتان بين الأصلين ، ففكيهة كانت ابنة لأجير أما وجنات فكانت ابنة لمالك من الأعيان جار عليه الزمن ، واذا كانت فكيهة تملك نصف فدان فان المرحوم ظل عمره يحوش ثمنه ، واذا كانت وجنات تملك ثلاثة قراريط فانها بقايا ممتلكات ، والمهم من كل ذلك أن « وجنات » كانت ـ كجسد ـ اقل فورة واكتنازا وبروزات من « فكيهة » المتفجرة ، الا انها انثى من الداخل اكثر

من فكيهــة بما لا يقاس ، حتى ان « شــلادة بخشوان » نسى « فكيهة » تماما وارتمى فى حضن « وجنات » ولم يكن هنــاك شيء ينقص صفاءه غير أن العادة الشهرية لم تنقطع رغم مرور كل الشهور ، الأمر الذى يجعل السعادة ناقصــة نصفها بالضبط ، فها هو ذا المــال ينساب كالنهر بين يديه ولكن المــال بدون بنين كالنهر بدون أرض يرويها .

والحــق أن « فكيهــة » وان كانت سليلة فقر مدقع منذ عشرات الأجيال الا انها ظلت متماسكة محافظة على سمعتها ، ولكن ذاكرة الناس لا تهمد أبدا ، فسرعان ما رجعت الى دفاترها القديمة وبعثت الى الوجود تاريخ ســلوكها وما كان يدور حولها من شائعات ، وراحت الألســن الهامسة تربط بين هــذه الذكريات وبين ما يرونه الآن يحدث .. ذلك أن « فكيهة » قد بدأت فى الشهور الأخيرة تستقبل فى « فيللتها » بعض كبار التجــار الذين يمولهم زوجها بالبضائع . وقيل أنها تدبر للايقاع بزوجهــا ، وقيل انها تشتغل لحسابها بعد أن عرفت سر المهنــة ، وقيل انها انما تطفىء غلتهــا الجنسية بعد أن حرمت تماما من زيارات شلادة الأسبوعية . لمــا بلغت هذه الأقاويل سمعها نزلت عليها بردا وسلاما ، واغلقت أذنها عنها ، بل ولم تحفل بالدفاع عن نفســها .

وحين عنى « حمــدى » بطرح موضــوعها امام « شــلادة بخشوان » لم يعن بالوقوف عنده طويلا انما ذابت سيرتها وتبخرت مع الدخان الأزرق ، وكان « شلادة » مشغولا هــذه المرة لحد الاكفهرار . وقال له « حمدى » :

ـ اعرض نفسك على الطبيب ..

فقال « شلادة » :

ـ أنا واثق من نفسى .. لقد سبق أن أنجبت .

ـ كنت متزوجا من قبل ؟ ! ..

ـ أى نعم .. يرحمها الله « أم على » عاشـت معى أياما سـوداء وكانت تنجب اولادا ضعافا يموتون .. ثم ماتت هى نفسـها .

زام « حمدى » مثل الكلب يجامل سيده :

ـ خلاص .. البذرة سليمة والأرض مالحـة .. ابحث عن غيرهـا ..

وقال « شلادة » :

ـ عندك عروس ؟

وكانت جعبة « حمدى » حافلة مقدما باليتيمات الفقيرات وكلهن صالحات للاغراء ، ولكنه مع ذلك قال :

ـ يساويها ربنـا .

* * *

أقيمت الفيللا الثالثة على المدخل الجنوبى للبلد وانتقلت « سبيله »من « عزبة العلمين » الى حياة القصـور . وفى ليلة فرحها تحولت القرية كلها الى مجموعات من مجالس الحكماء ؛ حتى الأطفـال الصغار تحولوا فى هـذه المجالس الى فلاسـفة يرقبون ويتـأملون الأمر فى دهشـة ويستمعون ويشـاركون فى الحديث ، وكان محور الحديث كله : كيف تفتح أبواب السـعد هكذا دفعـة واحدة امـام الذين لم يكونوا فى الحسبان ! ..

« سبيله » هـذه مثلا ، هل كان أحد يتصور أن الله يتوب عليها من اللف فى الغيطان بابريق العرقسوس حيث تسقى الأنفار أيام الحصاد ما يبل الريق نظير حزمة أو حزمتين مما يحصدون . وحيث يتجاوز السقى أبريقها فتسقى من ريقها ومن لمس جسدها ! ..

كان الجميع يعتقدون أنها لا يمكن أن تتزوج فى يوم من الأيام فاذا بها تصبح سيدة بمعنى الكلمة ، واذا بمن كن يعطفن عليها يأملن فى أن يكن بعض وصيفاتها ، هـذه حكمة عميقة ودرس من السماء وهى أيضا من علامات الساعة : ان تنقلب الأوضاع والمعايير هكذا رأسا على عقب . ولكن السؤال الذى لم يكف عن النباح فى أدمغتهم : كيف تم هـذا ؟ .. فليس لدى « سبيله » ما تنفحه لحمدى العرايشى مقابل الايقاع بشلادة فى حبائلها ؟!.. غير أن شبان القرية الخبثاء لفتوا أنظار آبائهم الى أن « سبيله » هى فى الواقع معشوقة « حمدى العرايشى » وأنه خدمها مجانا ليسترها فتظل بالنسبة له بمثابة بئر الساقية الذى يحتجز الماء فى جوفه لتوصلها قواديس حمدى الى جيبه هو ورغم أن احدا لم يكن قد رأى دليلا قاطعا على صدق هذه الشائعة الا أن الجميع لم يجدوا تفسيرا أقرب الى المنطق منه فصدقوه دون مناقشة !

تحيرت « وجنات » ماذا تفعل ، انها أميز من غيرها ، تعرف المدنية قبلهن وطبعها طبع مدنى كما يشهد الجميع ، وتفهم فى السينما والأفلام التليفزيونية وتعرف جيداً كيف ترضى زوجها، وتحفظ دواوين من حوار العشق الساخن ، وتزين نفسها حتى يراها ويحسها الأعمى .. فكيف استطاعت هذه البنت السنكوحة أن تستولى على زوجها هكذا ؟ لقد مضى شهر فى اثر شهر لم

يتصل بها وان كان يبعث لها السلامات والتحيات . ولكنهــا كانت أشد من « فكيهة » وعيا بطبيعة زوجهــا ؟ فهو ثور ، حيوان جنسي لا يشبع ، ومثله لا يرده القديم عن الجديد بحال ، فليذهب الى الجحيم طالمـا انها ضمنت مستقبلها المـادى . ولم يمض ثلاثة شهور على غياب زوجها حتى صارت كالنمرة المحبوســة فى قفص ، وكان « حمدى العرايشي » يراقبها من بعيد فى شماتة ، وكان يعرف أن عشرتها لشلادة بخشوان ـ باعتباره ثورا ـ قد خلق منها لبؤة كبيرة .. ثم انه راح يرقب الصراع الخفى بينها وبين « فكيهة » فى اجتذاب كبار التجار ، حتى أنه لاحظ الفرق الجوهرى بين الرغبتين : فــاذا كانت فكيهــة تجتذبهم لابتزاز أموالهم فان « وجنات » تجتذبهم لابتزاز دمائهم . كان يعرف هذا ولا يتكلم فهو فى الواقع مشغول بمزاج « شلادة بخشوان » ، ومشغول أيضا بما آل اليه حاله ..

ذلك ان نجم « حمدى العرايشي » قد أصبح ساطعا فى العب كله ، وأصبح معششا فى بطون القرى والبلاد والعزب المجاورة فتسعين فى المــائة من أبقار ومواشى هذه البلاد ملك له وان كانت فى حوزة الآخرين ، وكان الى ذلك ذا نفوذ وســلطان كبيرين ، كان ـ وهو التمورجى ـ يستطيع أن يتحكم فى مصير الطبيب ومدير المستشفى ، ويصــل تأثيره الى أعلى من ذلك بكثير .. وكانت العربة الفورد ذات الأصول النبيلة قد استراحت من اقدام الحفاة وغلظة مؤخراتهم ، وتغيرت قطعها وتغير لونها ، وصــار يركبها ويقضى بها مشاويره مرتديا الجلبــاب الصوف والعباءة ، وكان فى الأيام الأخيرة قد بدأ يكثر من المشاوير خــارج البلدة ، ويتودد الى الناس كبيرهم وصغيرهم على غير العادة ، واحس الناس ان فى الأمر شيئا سوف تسفر عنه الأيام القليلة القادمة .

* * *

كان « شلادة بخشوان » قد بدأ يفتقد « حمدى العرايشى » ويقضى الساعات فى انتظاره ، فما ان التقى به حتى اخذ يعاتبه فاذا بحمدى يقول له :

ــ انا اصلى عملت مشروع وعايز نفسك معايه .

ــ خيرا ؟

ــ رشحت نفسى .

ــ فين ؟

ــ لمجلس الشعب :

ــ بتتـكلم جد ؟

ــ طبعا .. والدايرة تقريبا فى ايدى .

ــ ربنـا معـاك .

ــ نفسك معايه برضه ..

ــ نفسك معايه انت ..

ــ انـا خـدام ..

ــ انا مش مبسوط .. البنت طلعت مش هى !

ــ سبيلة ؟ .. ازاى ؟ ..

بخبث والتواء :

ــ الوزة من قبل الفرح مدبوحة !

ــ مش ممكن .. وايه اللى مسكتك من نهارها ؟

ـ مكنتش متأكد كويس .. لكن دلوقت متأكد قوى !!

ـ غريبة .. وحتعمل ايه ؟

ـ الله يسهل لها .

لمح الخيال الشيطانى فى دماغ حمدى :

ـ فردة بلغة .. غيرها أحسن منها . عندى أكثر من واحدة.

ـ المرة دى بقى .. لازم أنا اللى اختار .. واشوف .

ـ وماله .. يساويها ربنا .

وشهدت قرية « البريمة » مهرجانا سريا لم يسبق له مثيل. كان « حمدى العرايشى » يواصل الليل بالنهار داعيا الى انتخابه عضوا بمجلس الشعب وفى نفس الوقت باحثا عن عروس لشلادة بخشوان . فى كل يوم كانت الأخبار تصل الى « شلادة » من فلانة بنت فلان وفلانة أخت فلان وفلانة شقيقة زوجة فلان ، ويسمع أوصافا لهذه وتلك ، ولكنه يصر على الرؤية والمعاينة والاستماع . وكان « حمدى » يستطيع انهاء الأمر على اسرع وجه ، لكنه أجل ذلك الى أن ينتهى من المهمة الكبيرة التى يقوم بها .

ويوم الانتخابات كان له العجب . كانت البلوفرات الأنيقة والجاكتات الشمواه والكرافتات السولكا قد زحفت فى طرق ودروب ، وشرقت وغربت يحملها المقاولون والتجار والسماسرة، وأمام كل لجنة فى كل بلد تابعة للدائرة كنت ترى وفودا من مؤيدى « حمدى العرايشى » يباشرون مهامهم فى سيمفونية رعوية غليظة . وكان منافسه على الدائرة لا يتصور ـ وهو أستاذ الجامعة الكبير وابن عائلة لها فى السياسة باع طويل وفى

خدمة الجمهور باع اطول ـ انه يمكن أن ينهزم أمام شخص كهذا ، وكان وقع الصدمة خفيفا حين أعلن أنه لابد من الاعادة بينهما وفوجىء أستاذ الجامعة وهو يمارس نشاطه بوفود من « حمدى العرايشي » تزوره في ود ، وتعرض عليه التنازل والاحتفاظ بماء وجهه ، وفى مقابل ذلك يأخذ كل ما صرفه ، فغضب الأستاذ وطردهم شر طردة . وكان المبلغ فى جيوبهم على اهبة الدفع فقرر « حمدى » أن يصرفه فى الدعاية ، فأخذ يصلى فى كل مسجد فريضة ويعطى المنح بلا حساب وانطلق رجاله يوزعون الفانلات الملونة على الفقراء وكانت لديه بالة من البلاطى المخلوعة من لوردات انجلترا وأمريكا فوزعها على كبار رجال العلائلات عشية يوم الانتخابات .. وهتف الجميع باسمه .

وحين اذيعت النتيجة وتأكد « حمدى العرايشي » من أنه قد صار نائبا عن الدائرة ، بدأ يتفرغ لشلادة بخشوان . كان على موعد مع عشرات الفتيات اليتيمات ، جئن لتقديم التهانى فاحتجزن فى القاعة الجوانية كلهن ، كان الليل قد انفرد على كل الأطراف حينما جيء بشلادة بخشوان سرا لينتقى عروسه من بينهن ، وكن جميعا يعرفن أنهن سيخضعن للاختبار ، وكن ينظرن الى بعضهن البعض فى حرج مكشوف .. ولكن من للبنات اليتامى بمن يحميهن من مثل هذه اللحظات ؟ !

صاحب السعادة اللص

ولدتنى أمى فى واحد من هذه المخازن التى آلت ملكيتها الى « الحاج سعيد النمس » ، وكانت فى الأصل ملكا لمحمود الوزان .. وكان « الوزان » متزوجا من « جليلة الخشاب » أم « سعيد النمس » هربا من زوجتيه السابقتين حيث أنجبت كل واحدة عددا من الأطفال ضايقه فى عيشته وفى مزاجه . فالتقط « جليلة الخشاب » باعتبارها امرأة حلوة رغم بلوغها سن الخمسين ، وباعتبارها نظيفة ولا أمل فى أن تنجب له مزيدا من الأطفال ، وان كان على ابنها « سعيد » فيمكن اعتباره من جملة أطفاله ..

كنت فى ذلك الحين طفلا يقول البعض عنى اننى مجنون ، ويقول البعض الآخر اننى جدع وواع ، وكانوا جميعا يرجعون شقاوتى وجنونى وكل شىء فى الى كونى يتيم الأب ! . وكان « سعيد » هذا هو الآخر طفلا ويتيما أيضا ، لكنه كان شديد الهبل بحق وحقيق ، فلم يقل عنه احد شيئا صالحا ، بل اجمعوا على انه لن ينفع فى حياته كما اجمعوا على اننى سيكون لى مستقبل كبير باذن الله . كان يتخانق مع طوب الأرض ولا أحد يزعل منه أبدا ، أبدا ، لهبله من ناحية ، وليتمه من ناحية اخرى . ولكن فجأة انتشر الخفراء فى البلد يجمعون الأطفال من الدور ومن

الحقول ليدخلوهم المدرســة الالزامية ، وقال الناس كيف يكون ذلك ؟ فقــالوا لهم أن هناك رجلا يدعى الدكتور « طه حسين » جعل العلم بالمجــان ، فهرب الناس أولادهم وخافوا ، ذلك أن الحكومة لا يمكن أن تفعل شيئا فيه مصلحة للناس ، ولابد انها تحجج بالمدارس وستأخذ الأولاد للسخرة أو لحراســة قصــور الملك ، وظلت أمى تفكر فى تهريبى مدة طويلة الى أن فوجئت بأن احدا من الخفراء لم يطلبنى بالاسم ، فتركتنى أجرى خلفهــا فى مخازن الوزان واساعدها لقاء قرشين فى اليوم . أما « سعيد » فانه لم يهرب ، بل فرحت أمه وفرحت البلدة كلها لأن المدرســة سوف تلمه وتحبسه بين جدرانها وتريحهم منه ، الوحيــد الذى لم يفرح لهذا هو « الوزان » وكان يقف فى الحوش صائحا بين الرجال فى غضب :

ــ الحكومة دى مش لاقية لها شغلة ! ..

فيرد احد الرجال الحكماء :

ــ ليه بس .. عايزة تعلّم الشعب القراية والكتابة .

فيستدير الوزان مشوحا له :

ــ احنا بندفع لأولادنا مصاريف..ازاى الحكومة تلم الصيع الحافيين وتحطهم فى فصــل واحد مع ولادنا ؟ .. بقى اســمه كلام ؟ .. المدرســة دى حاجــة خصوصية نظيفة ، ميصحش يفتحوها على البحرى .. الرسول صلى الله عليه وسلم قــال : لا تعلموا اولاد السفلة العلم !

يرد رجل آخر :

ــ ده حديث مدخول ياعم الوزان ..

فيصرخ الوزان :

ـ مدخول فى عينك .. انت ايش عرفك انت .

وتقول سيدة مسنة وهى تجمع نتف القطن من الأرض :

ـ على العموم الواد ابن جليلة ده عمره ما هو نافع .. دا ولد اهبل .. هو كل من دخل المدرسة ! ..

فيشوح « الوزان » من جديد ويتدحرج بقامته القصيرة الى حجرته التى يجلس فيها ليقابل التجار والفلاحين .

ولكن آه من هذه الأيام . ها هو ذا « الحاج سعيد النمس » قد صار شيئا آخر ، ورغم ذلك لا يزال شديد الهبل ، أما أنا فلم أبصر شيئا ، ولازلت أسمعهم يصفوننى بالجنون ! . والله ما أنا بمجنون ، وانما الحياة هى المجنونة ، والناس فى بلادنا أكثر جنونا . وهم يصفوننى بالجنون لأننى افهم كل شىء يدور حولى ، و طالب بحقى ، وهم يعرفون أننى صاحب حق ، وان ما احكيه عن « الحاج سعيد النمس » حق كله ومع ذلك يتهموننى بالجنون لهذه الأسباب ! « فهل العاقل ـ كما يقولون ـ من يعرف ويسكت ، ومن يرى ويتعظ ، ومن يؤكل حقه فلا يفتح فمه ؟ » . ويقول لك الواحد منهم أن حقك ضائع ولهذا وجب السكوت وراحة البال . وأنا أقول ان حقك ضائع ولهذا وجب الكلام ولزم الجنون . والحاج « سعيد النمس » يتصور أننى شىء تافه فى مملكته ؛ وأننى ان كنت نارا فلن احرق مطرحى ، ولهذا فهو اهبل . ولا قدرة للأهبل على الوقوف قبالة المجنون ، فأنا المالك الحقيقى لهذه المخازن وان كانت مفاتحها فى جيبه ، وأنا الذى يعرف كل شىء فيها وان كانت دفاترها فى درج مكتبه ، وأنا الذى أعرف كيف آلت اليه وان كان هو نفسه لا يتصور اننى أعرف .

اقول ان أمى ولدتنى فى واحد من هذه المخازن . وقد حكت لى كثيرا عن لحظة مولدى ، ولكننى كثيرا ما اعتقد بأننى رأيت ذلك بعينى .. مجنون أنا ؟ .. ليكن .. وسوف اكرر اننى ـ وأنا فى بطن امى ـ رأيتها تحمل القفة على رأسها قادمة من الحوش الكبير متجهة الى أحد المخازن ، عليها أن تقترب من غرارة كبيرة واقفة يتصاعد من قلبها رجل يدق القطن بقدميه .. فحين يراها يفرد لها حنك الغرارة لتدلق هى قفتها فيهــا ، ولستدير عائدة لتملأها من جديد ، وكنت أرى عشرات الغرارات تتجاور وعشرات النسوة تجلبن لها القطن ، وأرى هزال أمى ووهنهــا بينهن ، واسمع تأوهاتها ولعنها الحمل وسنينه .. فما كان منى الا أن انتهزت فرصــة مالت فيها أمى نحو الغرارة فارجــة ساقيهــا قليلا .. فلفظت نفسى مندفعا الى الأرض لكى أريحها من أحد الحملين ، فما دامت هى مسكينة لا تملك أن تريح نفسها من حمل القطن فلأكن لطيفا وأريحها انا من حملى ، وقيل اننى « ابن سبعة » اى سبعة اشــهر فقط واننى لهذا دقيق الملامح صغيرها مهما كبرت بى السن ، ضئيل الجسم نحيفة ، ولهذا أطلقوا على اسم « أبو سبعة » وهكذا لم أعرف لى اسما آخر ، وانتظرت أن تأخذنى الجهادية فلم تفعل ، وأنا الآخر لم أسأل ، ولكن هناك من قال اننى بدون شــهادة ميلاد ، وهناك من قال اننى معفى من الجهــادية لاعالة أمى ، فلم يدهشنى ذلك ، انما أدهشتنى أن يكون للانسان شهادة ميلاد .. فمن أين يعطى هذه الشهادة ؟ .. لا ادرى .. وما لزمتها ؟ .. لا أدرى أيضا .. وهل هــذه الورقة التى يحملها الانســان فى جيبــه هى التى تثبت أنه مولود وحى يرزق ؟ . انها بدع فارغة .. والطريف ان الناس يندهشون حين يعرفون اننى ابن سبعة ومع ذلك أعيش ، ويندهشون أكثر وأكثر حين يعلمون اننى بدون شــهادة ميلاد ، حينئذ يشهقون ويبدو

عليهم الأسى قائلين : « اتعرف ! .. سيكون هذا سببا فى الا تخرج لك شـهادة وفاة » .. فما يكون منى سـوى الضحك الكثير .. فأنا الذى لم يهمنى امر شهادة الميلاد كيف يهمنى أمر شـهادة الموت ؟ .. بحق الله ماذا جرى للناس ؟؟ ..

لكن كله كوم و « الحاج سعيد النمس » كوم وحده .. فأنا منذ اندفعت هابطـا الى الأرض فى مخزن « الوزان » لم اخرج منه حتى الآن ، وابلغ من العمر كما يقولون واحدا وأربعين عاما ، قضيتها كلها فى خدمة الوزان ومن بعده « سعيد النمس » . ولم أعرف لى حتى الآن دخـلا من خرج ، فعند العرى يكسينى وعند الجوع يطعمنى من فضـلاته ويكذب قائلا : لقمته بلقمتى وجلبابه بجلبابى ، وفى ذلك لا يريد أن يفتح مخه أبدا .. وهو يسخرنى فى الكبيرة والصغيرة .. بصراحة « يستكردنى » .. واذا كنتم تريدون معرفة ما أعمل فأقول لكم اننى ظهرت مرة فى التليفزيون ، نعم ظهرت غير انهم كانوا فى التمثيلية يسموننى الطواف وكانت العائلة التى أخدم فيها اسمها « عيلة الدوغرى » ، غير انهم نسـوا كثيرا من الأعمال التى أقوم بها فى خدمة « الحاج سعيد النمس » ، ومع كل فأنا القل بالى حتى أشـوف اخرتها معه ولابد للمجنون أن يغلب الأهبل ، وحين أضرب ضربتى لن يكون لى ذنب حيث صبرت عليه صبر الابل ، ولم يحفظ الود ، وطلع فيها مرة واحدة .

طبعا تريدون معرفة كيف طلع فيها مرة واحدة . سأقول لكم بعد أن أشرب هـذا الحجر .. بالمناسبة ساسقيكم تعميرة من تعميرة الحاج شخصيا ، خنصرتها منه وانا أسقيه ، كنت أضع فمى فوق الحجر بحجة اننى انفخـه لأبكر الجوزة ، ويكون لسانى قد التقط التعميرة ، وفى الحـال أدلق النار فوق الحجر والحاج

يشد نفس المعسل بشدة ويتلمظ .. و .. وقبل أن أروى لكم كيف طلع فيها مرة واحدة أحب أن أعطيكم فكرة عن شيء ضرورى: ذلك أنكم تعلمون أن « الحاج سعيد النمس » ليس انسانا يستحق الخدمة من الأصل ، وكل من فى حوزته ينفر نفورا الهيا من خدمته . أنتم لا ترون حمارته ساعة يركبها ، تركبها عفاريت الأرض ، وحين لا تجد فائدة من هياجها تحزن رامية جسدها فوق الأرض وليضربها بالحذاء أو بالرصاص فهى لن تقوم .. فكان يتوعدها بالويل ، هو أنه سيشترى سيارة خنزيرة ويدوسها بها كما نذر . وأنتم طول عمركم تستخدمون الأشياء بأن تمسكوا بها وتفعلوا ما تفعلون ، أما هو فان الأشياء كلها لا تطيق لمسه ، فجأة ينقلب البراض من يده ، يقفز كوب الشاى وينكسر ، تنفلت القلة من فمه .. فاذا به يملأ الدار بالأزرار ، يضغط على زر ويضع بوزه فى ماسورة الثلاجة فيشرب ، يضغط على زر فترتفع الصينية بالفنجان فيشفط منه الشاى والقهوة ، يضغط على زر فتنار الحجرة ، ينفتح التليفزيون ، تسير العربة ، تنفتح الخزينة ، الشيء الوحيد الذى لم ينفع معه الزر هو الجوزة ، ولولا هذه الجوزة لاستغنى عن خدمتى من زمان . ويا للفرجة التى كانت تحدث ساعة يرتدى جلبابا ، ما من جلباب يتضح انه لائق عليه ، وما من ثوب أو حذاء الا وملعون بائعه النصاب الغشاش .. فاذا به الآن يهجر الجلاليب ويجى الترزى لحد عنده ويفصل له الحلل والبلاطى والعباءات .. ويذهب الى مصر بالخنزيرة لينتقى الأحذية الغالية .. و .. واترون الى الكلب يضرب به المثل فى الوفاء ويمتزج بمزاج صاحبه ويشم رائحته ؟ .. تفرجوا اذن على كلبه ، هذه هى المرة الوحيدة فى حياتى ارى فيها كلبا يضرب المثل فى عدم الوفاء ، لا يجرى نحو « الحاج نمس » ولا يطوح بذيله ولا يفعل شيئا بل يهوهو عليه كأى رجل

غريب .. فاذا « بالحاج نمس » يسـافر الى كليـة الضبـاط ويشترى .. « كلب هول » من كلاب البوليس يصحبه معه فى كل مكان ويصرف عليه فى اليوم الواحد ما يصرف على أنا فى شهر !

وهكذا ترون أن كل شىء ها هنـا كان يستخسر الخدمة فى « الحاج سعيد النمس » وكأن كل الناس والأشياء متفقة فيما بينها على الا يفيدوا هـذا الرجل بشىء ومع ذلك . فان ثروة الحاج « سعيد النمس » تضاعفت بشكل جنونى .. وكان الكون كله قد اتفق مع بعضـه على أن يوقع بكل الفرص الرابحة بين يديه وحده دون سائر البلد ! .. ونحن جميعـا نعرف السبب ، وحتى الذين يسرقهم « الحاج سعيد النمس » يعرفون جيدا أنه يسرقهم ومع ذلك يساعـدونه ويقيمون له الاحترام ! وهو من هبله يتصـور انهم لا يلحظون الاعيبه وانهم يحترمونه بحق ، انها لم تدخل على أنا المجنون فكيف تدخل على من هم أكثر جنونا منى ؟ .. بعد ذلك أشرب هـذا الحجر وحدى ، حجـر من نفسى .. !! .. اقول أنه من كثرة هبله يتصور انني حين شاركته فى تضليل الفلاحين كنت غائبـا عن الوعى . كانت المحاصيل التى يوردونها الى الجمعيـة الزراعية ـ وهو امين مخازنهـا ـ تنتقل بجدمنتى أنا الى مخازن « الحاج نمس » بينى وبينكم كنت اتصور فى حال المبتدىء أن « الحاج نمس » يحفظ أموال الحكومة فى داره خوفا عليها من اللصـوص ، ولكننى عرفت اللص الحقيقى ، وعرفت كل شىء من كثرة لطم الفلاحين لخدودهم وشق أطواق جلاليبهم ، يحدث ذلك فى مندرة الحاج امامنا جميعـا ، بينمـا هو جالس تتدلى المسبحة بين « ثنايا كرشه » ، يقول للفلاحين انهم بعد أن وردوا محاصيلهم للجمعيـة فوجئوا بأن الحكومة تطـالبهم بها من جديد ، يشخط الحاج فيهم ، ينبه عليهم انهم بصموا

باصابعهم على المديونية ، وأن الدفاتر والأوراق هي الأصدق ، فهي أوراق دفاتر حكومية لا تغش .. هل يجرؤ أحد على الافتراء على الحكومة ؟ ! .

لا طبعا لا سمح الله يا حاج .. الحكومة على راسنا .. لم نقل شيئا .

ـ انت مطلوب منك كذا او كيت ..

ـ كيف ؟

هكذا يقول الفلاح وهو يشوح بيده قبل أن يسند ذقنه عليها . ثم يبدأ الحساب من جديد . تخرج الدفاتر ، تنفرد الكشوفات ، يلمع الخاتم الذهبي في يد الحاج وهو يطوح بيده فوق الأوراق ، يحلف بالشباك الذي وضع يده عليه ، تؤيده طرقعات المسبحة اليسر .. يقول الفلاح بعد تفكير عميق :

ـ هي الحكومة عايزة مني كام بالضبط ؟ .. عاوزه ايه بالجملة ؟

ـ تاني ؟ ..

هكذا يصيح الحاج في بأس وضيق ، يتكرع بصوت قبيح . يسبح الله ، يخجل الفلاح ، يكاد يتنازل عن سؤاله ، لكنه ـ ارضاء لضميره ـ يعود فيقول :

ـ عدم المؤاخذة اصل مش فاهم الحساب ده . انا كنت أخذت سلفة كذا . كويس قوى .. الحكومة كانت عايزة مني ايه قبل كده ؟ ..

تطول روح « الحاج نمس » يطلب شايا ، يتفضل بتقديم بعض الأكواب لبعض المحترمين منهم ، يعلق الابتسامة على

شفتيه ، يحكى موال كل يوم ، حيث يتضح أن الديون قديمة ، قديمة جدا ، ومتداخلة فى بعضها ، فدين الاصلاح يجر معه السلفية ، والسلفيةكانت لها فوائد ، والفوائد قد دفعت من محصول العام ، وبقى دين الجمعية ، ودين الجمعية له غرامة ، وهناك حدث فى كذا ، له مصاريف انقاذ قدرها كذا .. يتنهد الفلاح ينفخ من غيظ مكتوم .

ـ مانى عارف من الأول .. هو انا حاطول حاجة ؟ .. ما دامت الحكومة دخلت فى الوسط عليه العوض .. ربنا يسلم .. وبنا يسلم .. اذا طلعنا منها ملط يبقى ربنا كرمنا .. ويخبط الفلاح على ركبتيه متطايرا من الغضب ..

ـ يعنى تفضل طول السنة تأخذ فى سلفيات وتصرف وتفنطز .. والآخر يصعب عليك رد حق الحكومة ؟ ..

ذلك ما يردده « الحاج نمس » فى هدوء وابتسام ..

ـ سلفيات ايه وزفت ايه يا ناس .. دى الحكاية كلها سلفية واحدة خدتها من سنتين ولا ما أعرف ثلاثة ..

ـ أهو خدتها وخلاص .. الحمد لله أنك اعترفت بأنك اخدت .. !

ـ ربنا يتوب علينا بقى .. انا حازرعها فواكه زى بتاع مجلس الشعب ..

ـ روح انشا الله تزرعها شوك ..

وهكذا كانت محاصيل البلدة كلها تذهب الى مخازن « الحاج نمس » وتأخذ الحكومة بدلا منها أوراق مديونات عليها بصمات ولا تنتهى . الناس تنشال وتنحط من الغيظ لكن لا تفتح

فمها بكلمة تكشف السر . الحق لله ربما متمخولة فى الأمر ، فان تزيد المديونيــة هكذا بدلا من أن تنقص رغم مواظبتهم على تسليم المحاصيل بكاملها أمر بثير الشك ، الفلاحون لا يقرأون ولا يكتبون ويعتمدون على الله فى كل شىء ، وهم ليسوا أغبياء ، وحين يضيق صدرهم تكاد الكلمة تنطلق من أفواههم قائلة « الحاج نمس » .. « أنت لص » ولكن هــذه الكلمة لا تنطلق أبدا ، بل ينطلق بدلا منها كلام آخر يدعو الحاج بطول العمر وموفور الصحة !

العبد لله يقول لكم لمــاذا زادت المديونيات على الفــلاحين مرة واحدة .. لقد رشح « الحاج نمس » نفسه فى الاشتراكى كما تعلمون ، ورأى أن الميل كله فى جانب خصمه ، فصار يطلب الفلاحين الى داره ، وبعث مناديــا ينــادى بأن من لم يذهب اليه ستفوته فرصة العمر . فى المندرة اجتمع خلق كثير ، فأخذ يكلمهم عن الحالة وارتفــاع الأسعار والعيد الداخل وكسوة الأولاد .. فاستكانوا جميعا بعد أن كانوا متضررين . علق بعضهم بأن النواة تسند الزير ولكن أين هذه النواة . فقدم لهم الحاج كشفا طويلا من كشوف الجمعية ، وصار يوزع عليهم الأموال : هــذا خمس جنيهات وهذا عشرة جنيهات حسب أملاكه وعدد أولاده ، وقــال لهم انها منحــة منه نذروهــا لله ، ولهم بعد ذلك أن ينتخبوه أو لا ينتخبوه .

تعلمون أن معظم الفــلاحين فى بلدنا يتركون اختــامهم عند بعض الموظفين خاصة موظف الجمعية الزراعية .. هذه خصلة قديمة ، وقد استغلها « الحاج نمس » أسوأ استغلال ، ومنذ أن توسطت له « جمالات المنسى » وعينته فى الجمعيــة الزراعية فرض على جميع الفلاحين أن يدقوا أختاما ، وقد فعلوا ، وكان الواحد منهم يذهب الى ســوق البلدة ضائقا ليقابل صانع الاختام

ويتفق معه ، ويفاجأ بأن « الحاج نمس » جالس بجواره ويقول للفلاح فى خبث : « طب روح انت بقى يا فلان ما دمت مستعجل وأنا حابقى أستلم الختم بتاعك » .. ولم يكن يخطر ببالهم ان الحاج ينوى بهم شرا ؛ ورغم أن شروره كانت تصيبهم دائما الا انهم يوم الانتخاب صدقوه وهللوا وهتفوا باسمه . خاصة ان الجمعيات الزراعية فى البلاد الأخرى لم تصرف سلفيات لأحد فى هذه الآونة ، الأمر الذى اكد لهم ان المنحة من جيبه الخاص ..

نجح طبعا فى الانتخاب ، وصار أمينا للفلاحين على مستوى البلد ، ومر عام فى اثر عام والفلاحون يسلمون المحاصيل كلها ومع ذلك لا تنقضى المديونيات ، فيجن جنونهم ، ومن كان منهم على قدر من اللماضة طلب الكشف والحساب ، فاذا ما جاء الكشف والحساب تاه فى عشرين سكة ومائة حودة والف باب فيصفق كفا على كف ويطلب انهاء الحساب خوفا من ان يكشف التحاسب عن اعباء منسية ، الواحد حين تنهال عليه كرابيج الحساب من دفاتر « الحاج نمس » يقول فى نفسه « يا مين يحوش عنى » ويتمنى وقف الكلام بأى ثمن .. ولكن هل عرف احدهم أن « الحاج نمس » اضاف على حسابهم كل ما صرفه فى الدعاية الانتخابية هو واثنان آخران من موظفى الجمعية الذين يسيرون فى موكبه ؟ .. اشك فى انهم يعرفون .. واشك فى انهم لا يعرفون ، ان الذى أكلوه وز .. وز .. طفحوه : بط .. بط ..

اسمحوا لى بحجر من فضلكم .. انا لست غرزجيا كما قد تتصورون ! .. لا .. انا مثلى مثلكم كلما هفنى المزاج جئت الى هنا لأشرب حجرين بنفس واحد . وانا لست اخدمكم الآن وأمسك لكم الجوزة وأسقيكم لقاء أجر منكم أو من صاحب الغرزة ، انا أسقيكم جدعنة ، وانتم الأجدع .. مساء الخير ..

يشهد صاحب هذه (الفرزة) وها هو ذا أمامكم فاسألوه ـ ان « الحـاج نمس » جعلنى يده اليمنى فى كل شىء ، فالفرزة بجوار الجمعية كما ترون ، وكنت أجىء ها هنا فى المســاء لأضرب حجرين واحمـل الأجولة الى مخزن « الحـاج نمس » أتذكر يا عبد المعطى ؟ . قل لهم يا عبد المعطى عن أهل اليمن انسيت ؟ العيال الذين أخذتهم الجهادية وكانوا غلابة مثلنا .. ثم شحنتهم الجهادية الى اليمن ليحاربوا أعـداء لنا هنـاك لا أدرى من هم ، كان العسكرى منهم يأخذ فى اليوم خمســة جنيهات أو عشرة على ما اذكر .. لا .. لا اظن ان الضباط هم الذين أخـذوا عشرة .. المهم ان كل عسكرى من بلدنا هيش له مبلغـا محترما من حرب اليمن ، أولاد الأرامل مثلى ، الذين كانوا يبيتون فى عشش عزبة العلمين ، عادوا من حرب اليمن وانشأوا لأنفســهم دورا بالطوب الأحمر ، واللبن ، ومازلت أذكره يوم كان « الســيد ابو جلطة » يضرب ابنه العسكرى ضرب موت ويقول له صارخا : اشمعنى انت مانروحش اليمن يا ابن الكلب لازم أنت مشافت وتاعب قلبهم عشان كده ماودوكش » . وكان الولد يصرخ ويبجم قائلا : « والله يا بابا ابدا .. دى أصلها بوسايط » ـ أظن فهمت الآن يا عبد المعطى قل للبكوات اذن كيف كان « الحاج نمس » ـ باعتباره أمينا للفلاحين يتوســط للناس كى يســافر أولادهم العساكر الى اليمن .. والله اعلم ماذا كان يفعل ؟ كنت أســافر معه الى المركز دورا والمحافظة دورا آخر ، ويدخل الى ناس بلفائف الفطير وقوارير السمن البلدى ، وأحيانا بأردب أرز ، وحين نعود يذهب الى ناس ويبارك لهم بأن أولادهم العساكر خلاص .. حيسافروا . اتعرفون يا بكوات كم كان يأخذ من العســكرى الواحد ؟ . قل لهم يا عبد المعطى .. لمـاذا انخرست ؟ ..

ان البكوات ليسوا من المباحث انهم من أهلنا وزملاء صبانا غير انهم عاشوا فى المدينة ، أم أنك لا تتخلى عن النذالة ؟ .. لا تؤاخذوه يا بكوات فان « الحاج نمس » هو الذى يحميه ويحمى هذه « الغرزة » وكلما هاجمها البوليس بكبسة ذهب وأفرج عن « عبد المعطى » وقال لهم دعوه يأكل عيشا انه غلبان ولا يرى الزبائن وهى تضع الحشيش ! .. وحقيقة الأمر يا سادة أن « عبد المعطى » هذا هو الذى يشترى الصنف « للحاج نمس »، العمل الذى حزنت عليه انا ، وعلى فكرة .. هو صنف ليس كالذى تشربونه ، انكم لا تشربون ـ عدم المؤاخذة ـ الا عطارة مصنوعة بالكبس ، والدليل على ذلك اننى تعب صدرى من تنفيض الجوزة بعد شربكم ، عدم المؤاخذة فى المرة القادمة دعونى انا اختار لكم الصنف الجيد فانا أفهم فيه وعبد المعطى يعرف ذلك ، ولولا اننى أوافق على التعميرة التى يحضرها لما قبلها الحاج .

هوه .. كيف تقولون انكم كنتم زملاء الحاج فى الدراسة ؟ هذا عيب والله .. فناس مثلكم كالورد لايمكن أن يكونوا زملاء لمثل هذا الرجل . صحيح أنه الآن يستطيع أن يشترى أجعص من فيكم .. هل الدنيا بالفلوس ؟ .. انها لا توجد الا مع التيوس. ماذا ؟ .. طبعا .. قلت لكم أعرف الحاج نمس من قبل أن يولد .. نعم دخل المدرسة كما تقولون ولكنه اكتفى بالابتدائية فحسب ، ليتكم فعلتم مثله .. هأنتم ذا افندية محترمون تحملون الشهادات وفى رءوسكم علم وفى صدوركم حلم ولكن ماذا فعلتم ان علمكم وحلمكم لا قيمة لهما .. وأنتم الآن تشربون لكم حجرين بفلوسكم وهذه حريتكم ، لكن الحاج نمس يستطيع الآن أن يتحكم فى مزاجكم .. لماذا اندهشتم هكذا ؟ ربنا لا يسوقه الآن ، فيكفي

نظرة واحدة منه لكى يتملعن عبد المعطى ويزعم لكم انه لا يسقى حشيشا ، ويظـل يرش المـاء على الطريق حتى يغرق ثيابكم ويطردكم . لا تغضب هكذا يابيك فانا املأ يدى من كلامى .. لو ذهبت أنت وهو الى نقطة البوليس أو المركز فانك بشهادتك العليا وبذلتك المحترمة ـ سـوف تقف ذليلا ويجلس هو واضعا رجلا على رجل ، وكلامه يمشى ، فعدم المؤاخذة من انت ؟ ..

تريدون معسلا آخر ؟ . هات عشرة حجارة يا عبد المعطى نعم ؟ . تريد أن تعرف متى بدأ « الحاج نمس » يتفرعن ؟ .. ساغير ماء الجوزة واطجن النار ثم أجىء لأحكى لك .

« شوفوا يا بكوات » « الحـاج سيد النمس » لم يتفرعن هكذا الا منذ وقت قريب ، منذ متى يا عبد المعطى الا تذكر ؟ . فى الأول كان يمشى جنب الحيطـ ، ويؤدى الفرض بفرضـه ، وكنت اتامل فى عينيه طول الليل بينما أسقيه ، فأجد انه مشغول وانه مكسور ، طبعا مكسور ، الله يخليه ويحرسه «أنور السادات» ضرب اهل القوة فى البلد ، وجاء بثورته فاحببناه وأحببناه لانهـا خلصتنا من الذين كانوا يشخطون فينا ويضربوننا بالشلاليت ، كان الخوف يطل من عينيه ، وكلما تجرأ ولد من تلاميذ المدارس ـ الذين كثروا هـذه الأيام ، وردد أمامه كلاما عن الاختلاسـات المنشورة فى الصحف أو عن رجال يقفون أمام المحكمة كان يصيبه الرعب وكنت أسمع كركبة بطنه ، وكنت أسـأله : فيم تفـكر يا حاج ؟ .. فيقول انه مثقل بالديون .. وأن وراءه أوراقـا وكشـوفا ناقصة . ثم يجىء بالأوراق ويظل يعبث بها طول الليـل وينظر لى من تحت لتحت ، وكان دماغى يقول لى انه يحـاول تصليح هذه الدفاتر واللعب فيها .

وكان قد جمع ثروة هائلة من محاصيل الفلاحين ، وثروة هائلة من اهل اليمن ، كان يأخذ ربع المبلغ الذى يقبضه العسكرى العائد من اليمن ، الجزء مقدما والباقى يأخذ به وصـــل أمانة على ولى أمر العسكرى ، ويعتذر قائلا ان هذه الفلوس ليست له نما هى لأصحاب النصيب . وكنت اعرف أنه مشـــغول بأمر تخبئة هـــذه الثروة عن العيون المتلصصة عليه · فكيف يخفيها ؟·· نقد اكثر من الصـــلاة امام الناس . فجأة ينهض طالبا سجادة صلاة ، ليخطف ركعتين بسرعة الصاروخ ، ليصـــل الى ختـــام الصـــلاة هو فى الواقع لم يكن يريد الصلاة بل كان يريد ختـــام الصلاة ليقول فيه كلاما موجها الى الله وهو فى الواقع موجـــه للجالسين . يقول ربى افعل كذا وكذا وخلصنى من كذا وكذا واجعـــل أولادى كذا وكذا ، فنفهم نحن الجالســـين معـــه انه محـــروم ـ يا ولداه ـ من لقمـــة العيش . وكنت أذهب الى الاتحاد الاشتراكى لأناديه يكلم زوجته . فأجـــده جالسا يتكلم كلاما صغيرا ، يشتم فيه عبد الناصر شتيمة غير لائقة ، فلما كان الرئيس الســـادات يخطب ويمدح فى عبد النـــاصر ويتكلم عنه باحترام كان « الحاج نمس » يحتـــار ويظل طول الليل فى دورة المياه الى ان جاء ذلك اليوم .

ايقظنى فى الصباح لأذهب معه الى المدينة ، كانت ملامح وجهه قد بدات تزداد غلظة وكلاحة ، وغادرها الخوف والتواضع الكاذب ·· كان يكاد يقفز من كثرة السعادة . فقلت لعله أوقـــع بصفقة جديدة ، لكنه ركب الحمارة المسرجة بعد أن قمت انـــا بتهدئة خاطرها واقناعها بتحمل مؤخرته ، ورحت اجرى خلفهـــا محاولا التكهن بسر هذه السفرة المفاجئة . وعند النقطـــة الثانية

نزلنا وتركنا الحمارة أمانة لدى الخفيرين المرابطين فى النقطة الثانية وركبنا القطار الى المدينة ، حيث تناولنا غداء عظيما مكونا من أم الفلافل الساخنة والفول بالزيت الحار والليمون والسلاطة المعتبرة ، وانتقلنا الى قهوة تسمى بورصة الأمانة يملكها امين التنظيم المسئول عن مركزنا ، احتسيت الشاى واحتسى هو القهوة والشيشة ، ثم همس مرات كثيرة فى أذن الجرسون ، الذى همس بدوره فى اذن ولد يبيع الجرائد ، ثم جاء الولد بعد برهة وهمس فى اذنه فأعطاه جنيهين ، فخرج الولد وعاد بكتاب سلمه الى الحاج الذى أخذه وصار يتصفحه كأنه يريد احتضانه، ثم يغلقه ويضعه فى جيبه ، ثم يخرجه من جديد ويتصفحه ويعيده الى جيب الصديرى .

انا لا اقرأ . لكنى سمعت طراطيش كلام بين الجرسون وبائع الجرائد فهمت منه أن هذا الكتاب اسمه « الأسرار » .. لا يارب .. اسمه « الأسوار » .. نعم .. « الأسوار » .. اظن ان اسمه كلام عن أسوار .. أو تحت الأسوار أو فوق الأسوار لا أدرى ، لكننى متأكد أن اسمه فيه كلمة الأسوار ، وفيه أيضا ـ والله أعلم ـ كلمة حمار .. أو ما يشبه كلمة حمار .. حمار وراء الأسوار أو ما اشبه . المهم اننا لما انتهينا من شرب الشاى والشيشة قام الحاج ودفع الحساب والبقشيش للجرسون ومشى منتفخ الصدغ والرقبة وانا خلفه اقول فى نفسى والله لأعرفن سر هذا الكتاب . وصار الناس يروحون ويجيئون ويتكلمون مع الحاج ويدفعون نقودا ، من خمسة جنيهات الى عشرة . كل ذلك من أجل أن يحصلوا على الكتاب .. بعينى هذه رايت واحدا من مقاصيف الرقبة يدفع للحاج خمسة جنيهات ليشترى منه الكتاب . بعدها سافر الحاج الى مصر . وعاد

بعد بضعة أيام يحمل ربطـة كبيرة من هذا الكتاب ، أخذها فى داره وصار يوزع النسخة بخمسة جنيهات ويجىء لها ناس من بلاد وعزب مجاورة . وصرت أرى الحاج يلتقى ببعض النـاس ويسلم عليهم بحرارة ويقول : هيه قريت ؟؟ . فيصفق الآخر بيديه فى عجب : شـوف يا أخى مين كان يتصور أن عبد الناصر يطلع حـرامى ؟ . وفى يوم رأيت ابن العمـدة الكبير يجلس بين مجموعة من رفاقه فى الصياعة وهو يقرأ لهم فى هـذا الكتـاب فوقفت أستمع فكلما رآنى أحد من الفـلاحين يقف هو الآخر يستمع ، ونسمع اسم عبد الناصر والبنك والشيك الذى سرقه، فتكفهر وجوهنا ، وقال واحد من الفلاحين بقرف :

ــ ايه الكلام الفاضى ده ؟ .. بقى ده اسمه كلام ! ..

وقال واحد آخر :

ــ قلة حيا .. اذكروا محاسن موتاكم ..

وقالت سيدة عجوز :

ــ اخص عليكم وعلى تربيتكم .. بقى كده .. تلطخوا وش الراجل وهو ميت ! .. اخص عليكم .. اتفوا ..

وتسحب ولد تلميذ ــ من أبناء العمدة أيضـا ولكن من زوجة أخرى غير أم الصايع الذى كان يقرأ .. فخطف الكتـاب وانطلق يجرى وهم يجرون وراءه .. فلما أوشكوا على اللحـاق به مزق الكتاب ورماه فى الترعة . انتشر الكلام فى البلد ، وحدثت بسببه خناقات كثيرة ، وكان الحاج نمس يقف فى الشارع ويصيح بأعلى صوته :

ــ دى حريـة . احنـا فى عصر التوموكراطية .. والمستور مصيره يتكشف .. ايه بقى .. طلع حرامى .. احنا مالنا ؟

وكان وجه « الحاج نمس » يقول نيابة عن لسانه : مش انا لوحدى اللى حرامى ، وعرفت أنا أن هـذا الكتاب كشف برقع الحيـاء عن وجه اللصـوص كلهم ، وأراح ضميرهم ، وجعلهم يصنعون فرحا كبيرا فى البلد لكى ينشغل الناس بسرقات الكبار عن سرقات الصغار أمثالهم . هم أيضـا فى هبل الحاج نمس .. ويتصورون اننا لا نفهم .. عيب على هذا السخام الذى نشربه .

ولع يابك .. بذمتى وديانتى ان الظـروف كلها تخـدم « الحاج نمس وتنصره علينا جميعا ، تصـوروا .. المعروف أن كل جمعية تعاونية زراعية لها ـ كما يقولون بما يسمى بمجلس الادارة .. الا جمعية الحاج نمس لم نعرف لها مجلس ادارة أبدا ، انما تعرف لها أعضـاء فقط ، الأعضاء طبعا هم الفلاحون.. وتسأل : أليس للجمعيـة مجلس ادارة يا حـاج سعيد ؟ .. يشخط فيك بصوت غليظ : « أمال يا جحش .. فلان وعلان وترتان ويحكى لك مجموعة من الاسـماء ، تعرفهم أى نعم ، لكنهم من الناس الكسر .. أجدع من فيهم لا يعرف الألف من النبوت . وفيهم رجل عجوز اذا جلس أمام التليفزيون ليلة بحالها وسألته ماذا رأيت أو ماذا سمعت يقول لك : « والله مانى عارف أهو خرفشة مخ والسلام عشان الواحد ينام » . والمصيبة ان كلهم هكذا ، تعودوا على الصمت . تفرج عليهم ساعة يحضرون ما يسمونه بالاجتمـاع ، وحتى النظر يختلسونه الى بعضهم البعض فى أدب ، وكأنهم يخـافون ان تكلموا أو قلو حيـاءهم فسيطردوهم من على هذه الكراسى .. أقسمت بالله ، هكذا يكون الفلاحـون فى بلدتنا . ولكن هؤلاء ذنبهم ، انهم لم يتفلحسـوا ويرشحوا أنفسهم لمجلس الادارة . انما هناك من جاء بهم وقال لهم : أنتم الآن أعضـاء مجلس الادارة . قل لهم يا عبد المعطى

عن تلك النادرة المشهورة فى البلد . لقد حدثت أمامك ، يوم كان مجلس الادارة هـذا مجتمعا وجاء بعض الفلاحين يطلبون عونـا لتسميد الأرض .. يومها .. يا لهوى .. كان الحاج نمس قد تشرف فى كل شىء ولم يبق فى مخـازن الجمعيـة سوى السقف والقاع ، أيداريهم السكات ويلاحقهم حتى تمر بسـلام ؟ .. لا .. لقد شخط فيهم وتهجم عليهم .. فبكوا .. فما الذى فعله السيد عضو مجلس الادارة العجوز ؟ .. وقف وراح يشتم فى الفلاحين بلا سـبب ، فيقول له النـاس وأنت مالك ؟ .. فيقول كيف يشتمون زميلى واسكت ؟ ..

ولع يا بيك .. والمشرف الزراعى .. طبعا يا بيك أنتم تعرفون أن المشرف الزراعى هو مدير الجمعية ، وأهله صرفوا عليه دم قلبهم حتى تخرج فى الكلية وصار مشرفا . بقدرة قادر وعدنا الله بمشرف من ولدان هـذه الأيام ، شعر مسبسب وبنطلون مرقع بالجيوب والكبسون من كل ناحيـة ، يركب الحمار الحديد، أقصد الموتوسيكل يتنطط به طول النهار هنا وهنـاك . يذهب الى المركز ليدخل السينما مع بنت سنكوحة من بنات البندر ، وكان لذلك يريد فلوسا كثيرة وكان « الحاج سعيد النمس » يدبر له كثيرا منها ، كان يعطيه باستمرار كلما احتاج ، ولمـا حدثت الضجة الأولى واكتشفوا ان شكل الجمعيـات فاسد من أساسه داس « الحاج نمس » فوق هـذا المشرف اذ قدم للمسئولين أوراقا أثبتت انحرافـه فرفتوه ، وجىء بمشرف غيره ، ولد صغير أيضا ، والحقيقة ان أى مشرف زراعى مهما كبر فهو ولد بالنسبة للحاج نمس ، وكان هذا الولد ــ أقصـد المشرف الجديد ــ قد عرف للحـاج نمس من سطوة وطول باع فى الغش والتـدليس وتزوير الدفاتر والكشوف ، فدخل عليه دخلة طيبة اذ جـاء

الى داره وبدا صحوبية ، أراد أن يدخل الى الحـاج من الباب الانسـانى ولم يعرف المسكين أن هذا الباب هو أسود الأبواب فى شخصية هـذا الرجل ، لقد فتح له عبه وأكرمه واستأجر له مسكنا بمعرفته ، وصار هو يؤدى عمله على ما يرام وفجأة .. جاء المفتشون وفتشـوا ثم قبضوا على المشرف الجديد .. ولم نعرف الى أين ذهب ، لكن الحاج ظل أياما طويلة يترحم عليه ، ويتكلم مع الناس فى الاتحـاد الاشتراكى حول المسئولية التى فرط فيها المشرف . وكان ما يسمى بمجلس الادارة يتكلم عن شىء يدعى مشروع الائتمـان الزراعى التعـاونى ، وشىء يدعى المؤسسة العامة للائتمان الزراعى ، وشىء يدعى المؤسسة التعاونية الزراعية العامة ، وشىء يدعى التسويق التعاونى ، وشىء يدعى الاستغلال الزراعى وتنظيم الدورة الزراعيـة ، وشىء يدعى مشروع تنظيم الاستغلال الزراعى .. والواقع أن الحاج هو الذى يتكلم عن كل هذه الأشياء التى يقول ان الجمعيـة تتبعها وتخضـع لها ، وبقية الأعضاء لا يفهمون شيئا فهم انفسهم لا يفهمون حتى بطاقات حسابهم التى يحملونها فى جيوبهم .

تريدون معرفة المزيد من اخبـار ونوادر « الحـاج سعيد النمس » ؟ .. أذن فهات عشرة حجارة يا عبد المعطى ، البكوات يبدو انهم من عتاولة الحشاشين . وهذا شىء غريب ، فقد كنت اظن أن شرب الحشيش مزاج لنا وحدنا نحن الفلابة فاذا بالأفندية لا مثيل لهم فى شربه . ولكن ما رأيكم فى هذه « التعميرة » ؟ تفرجوا كما يعجبكم ، اقطع دراعى كله ان كنتم تجدون لها مثيـلا فى القاهرة ، ان حشيش القاهرة هو أسوأ حشيش ، لأن البضاعة حين تجىء مهربة تجىء أساسا من طريق الأرياف ، والرءوس الكبيرة المتاجرة فى الصنف تقيم أساسا فى الأرياف وتحتجز لنفسها

أجود الأصناف ، ما يباع فى القاهرة باثنى عشر جنيها يبــاع فى بلدتنا بأربعة جنيهات فقط ، أنت تأخذ « قرش » الحشيش الزيت المعتبر باثنى عشر جنيهــا من « مصــطفى زقزوق » ، وهو هو بعينه تأخذه من عندنا بأربعة ، أما ان أردت ربع أوقية فالسعر يختلف . ويختلف أكثر ان أردت نصف أوقية . عندنا الخير كله. ان الحشيش الذى تضبطه الحكومة هو الحشيش « المسـكوك » الذى يدفعه صاحبه رشــوة للحكومة لكى تسكت عنه ، انه بدلا من أن يرميه فى الصحراء يسلمه للحكومة ويسلمها معه ولدا من صبيانه الاشقياء يقيمون به قضــية يترقون بسببها ويحصــلون على مكافأة . هكذا يفعل « الحاج سعيد النمس » .

سأقول سأقول . ولكن اعلم يا سـعادة البيك ، اعلموا كلكم ان « الحاج سعيد النمس » لمـا انضربت مراكز القوة ، لم ينضرب هو ، فهو لم يظهر نفسه كمركز قوة يجب ضربه ، انما ــ ولا تدرى كيف ــ ظهر كواحــد من ضحايا مراكز القوة هؤلاء . لقد ظل يسافر وحده عدة مرات ، ويعرف ، ويكشف الأسرار ، وكان فى بلدة مجــاورة لنا جمــاعة من الطــلاب يقيمون ناديا رياضــيا ويجمعون له التبرعات ويضمون اليه أسماء رجــال كبار من البلد ليجمعوا مزيدا من التبرعات على حسهم ، وكان « الحاج سعيد النمس » قد اختير عضــوا بمجلس ادارة هذا النادى الرياضى ، وفى يوم أخذنى معه وسافرنا الى القــاهرة ، وصار يدخل أماكن ويقابل ناســا ، ويختفى فى شوارع ثم يعود الى حيث انتظره فى مقهى ، وفى الآخر عاد برزمة من الورق ملفوفة عشرين لفة ، وبعد عودتنا الى البلدة أمرنى أن أتوجه سرا الى هذا النادى فى منتصف الليل ، وان أتسلق ســوره وأنزل الى حوشه وأدخل من الباب الخلفى الذى يترك عادة بلا قفل ، وأن أضع هــذه

الأوراق فى مخزن الأدوات الرياضية واعود فى الحـال دون أن يرانى احد ، ولمـا سألته عن السر امرنى بالسكوت خوفا على مصلحتى ، ثم نفحنى عشر جنيهـات أطـارت صـوابى ، وكبت العمـارة ليلا وفعلت ما امرنى به ، وما كاد يطلع النهـار حتى علمت ان البوليس قبض على مجموعة كبيرة من هؤلاء الأولاد لانهم خونة وكفرة واشاول ، نعم ، اقول لكم معنى هذه الأشاول ؛ انتم تعرفون الأشول ، الذى يستخدم يده اليسرى ، ولابد أن هؤلاء الأولاد يستخدمون يدهم اليسرى ولذلك يسمونهم اليساريين وهذه تسمية بالنحوى لا احبها .

الحق لله زعلت، من نفسى وكرهت هـذا الرجل . ولكن ربك كريم ، ومصر فيها رجال طيبون ، اتعرفون ؟ . لقد اخذ الأولاد البراءة وعادوا الى دروسهم واتضح انهم يحبون البلد وانهم ليسوا اشاول ، ولكن هـذه البراءة لم تظهر الا بعد أن امن الحـاج نفسه واصبح راسا كبيرا فى البلدة وفى الآخر ــ كما تعلمون ــ زهقت الحكومة كما زهق الشعب من هـذا الاتحـاد الاشـتراكى فالغته الحكومة ، ودخل « الحاج نمس » حزبا من الأحزاب ، وحـاول ترشيح نفسه لمجلس الشعب ولكنه تعب ، كان يصرف باليمين والشمال ويقول : « انا مش عاوز غير الحصانة الدبلوماسية .. » طبعـا تعرفون لمـاذا يريدها ، لكى تمر عربيتـه دون تفتيش ، ويسافر الى بورسعيد ليشترى البضـائع المستوردة ، ويهرب الحشيش بحصانته الدبلوماسية ، قولوا لى من فضلكم .. أنا حتى الآن لا اجد من يريد افهـامى معنى كلمـة حصانة ؟ .. هل الحصانة هى الحصان الانثى ؟ .. طب والدبلوماسية ؟ . يظهر لى ــ والله اعلم ــ ان معناها حضرة صاحب السعادة اللص لأن رجلا « كالحاج نمس » حين يبحث عنها ويشتريها بأى ثمن لايكون

معناها الا هكذا .. وقد حصل عليها ذلك المفترى .. اتعرف كيف ؟ .. بطريقة شيطانية .. نعم سأحكي لك كل شيء فليس وراءنا اليوم غيره ومزاجنا ؛ صحيح أنه ضد مزاجنا والكلام فيه يعكر المزاج ولكن هل نعدل مزاجنا الا لنعرف كيف ننظر فى أمر هؤلاء ونحتمل النتيجة ؟

فى ليلة كانت هى .. اقصد الليلة ، الليلة التى تجىء كما نريدها ونحلم بها وتجىء دون أن نسعى اليها . ليلتها كان الصنف جيدا للغاية .. وكان « الحاج نمس » قد تطور فى شرب الجوزة ، فصارت « جوزته » جوزة هند برفاص ، ثم وصلت الى مرحلة أعلى ، فصارت أبريقا كبيرا من البنور الأصلى ثم خرمه من الجانبين وتم سده ، ومن الفم بكاوتشة محكمة يخترقها القلب الخشب ، الخرم الأول غطاه بقطعة مشمع ملتصقة من أحد طرفيها والطرف الآخر حر ليكون بمثابة رفاص تنفخه فيوسع للدخان المحترق ، واذا شفطت من الجوزة ينشد وينغلق الخرم ، والخرم الثانى وضع فيه خرطوما بمبسم من الفضة بدلا من البوصة ، أما المنقد الفخارى فقد صار تحفة من النحاس بقوائم من الحديد صنع خصيصا له ، به مخارم وبلكونات دائرية ترص فيها الحجارة ، وبه بسطة من الحجر لتكسير قطع الفحم المشتعل ، ومصفاة من الفضة بيد من العاج ـ ربنا يعطيك ويعطينا .

ليلتها سقيته طاقما من التعميرة الزرقاء ، أحسن تعميرة فى البلد كما تعلمون ولا يشتريها سوى الأكابر وتذهب اليهم مع مخصوص . لكنه اشمأز منها ، وقال لى : تعرف لمبة الجاز « الشيخعلى » ، الموضوعة فى المطبخ ؟ .. قلت : نعم . قال هاتها ، فاحضرتها ، هى مستطيلة ولها قاعدة مكرنشة وقوامها مخروط كقوام المراة . امسكها وبرم قوامها فى يده فانفصلت الى

قطعتين كانت احداهما تلبس فى الأخرى عاشق ومعشوق ؛ نظرت فى قطعة العاشــق فوجدت بها ثلاث قطع كبيرة من الحشيش ، بعضها أخضر وبعضها أحمر وبعضها أسود . قلت له : « ما هذه الدسة يا حاج » . قال : « انها عينة جاءته من ثلاثة أيام عن طريق بلبيس ونسى أن يختبرها ليبحث لها عن ســوق بين صبيانه وقد تكاســل عنها لأن الكمية محدودة من ناحية وغالية الثمن من ناحية اخرى » ، قلت : « آن أوانها » . قال : « كرس منها » .. فكرست منها عشرين حجرا أو ثلاثين لا أذكر .. وكانت خياشيمى قد امتلأت برائحة نفاذة هى خليط من رائحة الكافور ورائحة التفاح .. مساء الخير اهلا .. طاخ ـ طيخ .. طاخ ـ طيخ .. صد ـ رد .. منى له ، حتى لم أعد أقوى على حمل الجوزة ، وكان مـاء الجوزة بما فيه قطع الثلج قد صار بركة آسـنة ، واستغربت كيف نسى الحاج ان يقول لى : غير ماء الجوزة فى حين انه فى العادة يطلب تغييرها كل عشرة حجارة .

نظرت اليه من تحت لتحت ، فرأيت انه فى ســفر طويل ، استعذت بالله وطلبت الستر من مثل هــذه السفرات ، فلابد أن تنتهى بكارثة تعم على الجميع ، من حسن الحظ أن هذه السرحات الخطرة لا تتكرر كثيرا ، ولكنهــا حين تحصــل فقل على الدنيــا السلام ، اذكر سرحة كهذه من سرحاته حدثت عام ١٩٦٧ الذى تسمونه أنتم يا أهل القاهرة بالنكسة ، ليلتها ـ واظن انه أيضــا كان يجرب عينه ـ افاق فجأة وقال لى : بكرة ان شاء الله سنقوم بلفة .. قلت له : اين وأين ؟ . قال : لا شأن لك .. وفى الصباح ركبنــا الحمير وانطلقنا على الســكة ، ولم يكن فى الأمر حرب ولا ضرب ، والحــالة عادية والفلاحون يعزقون ويحرثون ، والأبقار تأكل وتحلب ، والغرز فى كل السكك شغالة أربعة وعشرين قيراطا،

والأولاد فى الجهادية وليس على بالنا شىء كذا .. او كذا .. حكاية الحرب هـذه هبطت علينا من الراديو ، فجـاة وجدنـا الراديو يقول كلاما فيه انفعال وفيه فايدة كامل وكارم محمود والله أكبر فوق كيد المعتدى ، فانتبهنا ، وقال لنا الذين يفوون الاسـتماع ان الأمر حرب دائـرة . مع من .. قـالوا بيننا وبين أمريكا .. ثم قالوا بيننا وبين الصهيونيين ، ثم قالوا بيننا وبين الفلسطينيين والله أعلم بالحقيقة .

هذا الكلام طبعا حدث بعد هذا المشوار الذى رحتـه أنا والحاج نمس ، حيث نزلنا فى بلاد كثيرة ، وفى كل بلد نجلس فى مكان قرب وحدة الاتحاد الاشتراكى حيث « الحاج نمس » مشهور فيه ، وينطلق المنادى ، فيجىء الناس ، ويبيعون للحـاج نمس مخزونهم من الحبوب : القمح والذرة والأرز والبرسيم والفول والشعير وخلافه .. اندفع الناس علينا كأنهم لم يروا القرش من عشرات السنين ؛ وهـذه الحبوب هى البقايا الصغيرة التى اختلسوها من المحصول قبل توريده للجمعية ، فما صدقـوا أن رأوا محفظة تنفتح امامهم ببساطة ، وكل واحد لديه خزين من الحبوب يأكلها ، ولكنه فى حاجة الى قرش فى يده ، يشترى قطعة لحم ، يشترى هدمة ، يشترى حـلاوة طحينية ، يذهب للدكتور بالأولاد .. المهم ان الحـاج اشترى كميـات هائلة من الحبوب صنعت أفدنة من الأكياس والزكائب تنتظره فى كل بلد بحراسة العمدة ، ورجال الاتحـاد الاشتراكى مجاملة له . وفى المساء خرجنا من آخر بلد الى المركز حيث استأجر الحـاج اربع عربات نقل كبيرة ، أعطاها العناوين فسبقته الى هناك . ولحق بها هو فى عربة مخصوص . فقلت له : لمـاذا يا حاج تشترى كل هذه الحبوب .. ما لزمتها الآن ؟ .. فقال لى : لا شأن لك ..

ثم اننا بعد ايام قليلة سمعنا بوقــوع الحرب من الراديو وخا
عندك .. أيام سوداء عاشتها البلاد تبحث عن كوب الأرز بأى ث
فلا تجده ، وعربات التجار الكبار تجىء من المدن ليلا لتشحن اا
مناطق بعيدة .

في تلك الأيام الســوداء كان أولاد الوزان قــد تخرجوا تى المدارس وذهب بعضهم الى الجهادية ، وانتظر البعض الآخر ان نبعث له تلك التى يسمونها عندكم فى القاهرة بالقوى العاملة ، ولكنهم اخذوها من قصيرة واشتغلوا كتبه ومحاسبين عند « الحاج سعيد النمس » الذى كان يستاجر منهم مخــازن أبيهم الوزان بتراب الفلوس ، وقام بتوسيعها وبناء دورين آخرين فوقهــا ، وصار بذلك اغنى واحد فى البلاد المجــاورة ، وصار الكل ــ كبيرا وصغيرا ــ يتزلفون له ويقومون بخدمته حتى من غير أن يكلفهم او يطلب منهم ، الناس فى بلادنا تفعل افعالا تصيبك بالعلة .

و .. ونفس هذه السنة السوداء كررها « الحاج نمس » فى الحرب الثانية ، وبالمناسبة ، هل تسمى حربه رمضان أم حرب اكتوبر ؟ .. هــذه الحرب طبعــا قد سمعنا بها فى الحــال .. ورأيناها .. نعم ، كانت الطائرات تقع فى بلادنا ونرى المدافع وهى توقع بها ، ونسمع الراديو يذيع أخبار الطائرات من الأرياف . ويقول أوقعنا كذا وكذا فى المكان العلانى وشمال الدلتا ، وكنــا نستغرب لمــاذا لا يذيعون عن الطائرات التى أوقعناها فى بلادنا ؟.. فلما بعتنا جوابا للراديو نسأل عن السبب ردوا علينا ــ وأذاعوا أسماءنا ــ وقالوا العجب .. فهل تتصــور يا بك ان بلادنا هــذه اسمها شمال الدلتا ؟ . لمــاذا اذن لم يقولوا لنا ذلك من قبل ؟

المهم ان « الحــاج سعيد النمس » قام لف نفساللفــة

قبل الحرب بمدة طويلة .. وفى هــذه المرة كانت عرباته التى أصبح يملك العشرات منها هى التى تسافر هنا وهناك .

نرجع مرجوعنا الآن للحصــانة التى حصــل عليها الحاج سعيد النمس . فهل تحبون الاستماع اليها ؟ . اذن فهات عشرة حجارة يا عبد المعطى ..

ولع يا بيك ..

قلت ان « الحاج سعيد النمس » فى تلك الليلة كان يجرب عينة جديدة ، وانه سرح سرحة عميقة طويلة جعلتنى استعيد بالله منها . وكان من حجر لآخر ينفث الدخــان فى وجهى ناظرا الى قــائلا :

ــ تفتكر يا ابو سبعة ممكن الناس تنتخبنى ؟ ..

قلت له بكل جراة :

ــ لا طبعا .. مين حينتخبك .. دا الكل بيشتم الاتحــاد الاشتراكى وانت منه .

قــال :

ــ واذا اشترينا أصواتهم ؟

قــلت :

ــ وتضــمن ذممهم !

فسرح قليلا ، ونهض قائلا فى فرح :

ــ بس .. أنا حاخذ أصواتهم ببلاش .. من غير ولا مليم .

ثم أمرنى بتغييرماء الجوزة واحياء النار فى المتقد .

ففعلت ذلك على خير ما يرام . فقال لى :

ــ روح انده لأخويا رمضان فى السر كده وتعال .

اندهشت يا بكوات .. أخوه رمضان ؟ .. كيف ؟ ما هذا التحول الكبير ؟ . ان « رمضان » هذا أخ غير شقيق « للحاج سعيد النمس » فأنا لم أقل لكم ــ نسيت ــ ان « الحاج سعيد النمس » حين طلق ابوه امه ظل وقتا طويلا بدون زواج كان رجلا نذلا ، تنكر لابنه وترك أمه تتكفل به وتتزوج وهو معها دون أن يكلف نفسه شيئا بالنسبة له ، وسافر الى بلاد بعيدة فقالوا انه مات وقالوا الكثير ، لكنه عاد منذ سنوات قريبة ، عاد « الحاج سعيد النمس » رجلا كبيرا ، فحاول أن يتقرب الى ابنه ويضمه اليه ولكن « الحاج نمس » رفضه وتنكر له ، وقال واحدة بواحدة ، وكان الرجل قد بلغ الستين من عمره ولكنه محتفظ بقوته ، فتزوج أرملة صغيرة السن راح يجرى عليها ويشتغل ــ على حس الحاج نمس أيضا ــ فى الاصلاح الزراعى كخولى أنفار .. والغريب ان هذه الأرملة انجبت له طفلا أسماه رمضان ، واندهش الناس من قدرة الرجل على الإنجاب وذهبت بهم الظنون مذاهب بعيدة ، لكنه فاجأهم بولد آخر وثالث ورابع ، أى أن « الحاج سعيد النمس » صار له أربعة أخوة لم يكونوا فى الحسبان ، ولما مات أبوهم لجأوا الى أخيهم غير الشقيق ــ الحاج سعيد ــ فشغلهم فى مخازنه وأهانهم اهانة كبيرة لكنهم احتملوها وكانوا يسرقون فى الخفاء وكنت أعرف ولم أكن أتكلم لأن هذا الرجل لا يستاهل الاخلاص .

وخلال هذه السنوات التى كان الحاج يكبر فيها ويتحول الى غول كبير كان أخوه « رمضان » قد كبر هو الآخر ودخل الجهادية ،

كان قد مضى على تجنيده ستة اشـــهر يوم اعلن الراديو قيـــام حرب رمضـــان او اكتوبر .. وبعد انتهائهـــا كان الفرح قد عم البلاد ، وسهرت بلدتنا هذه ليالى طويلة تحتفل برمضـــان وزملائه من الجنود ، وكان « رمضان » يسهر معنا كل ليلة وفى كل مكان ويحدثنا كيف اقتحم خط بارليف واوقع ـ وحده ـ باكثر من عشر دبابات ، وكان من المنتظر الا نصدقه ابدا فى كل ما يحكيه لولا ان الاذاعة جاءت به وقدمته فى الراديو وفى التليفزيون ، وسمعناه وشهدناه فى بلدنا هنا والمذيع يسأله وهو يحكى له نفس ما كان يحكيه لنا ، وكان معه رجـــال كبار قدموهم لنا على انهم رؤساء « رمضـان » فى الجهادية ، وكانوا يؤيدون كلام رمضـــان ويعيدون فوقه احسن منه .. حتى اشتهر رمضان فى العب كله وصار معروفا للكبير والصغير ، وصارت بلدتنا تفخر به بين البلاد وصرنا حين نقول اننا من « البرامون شرق » يقولون لنا اذن فانتم تعرفون رمضان صائد الدبابات .

خطفت رجلى الى دار رمضان فى آخر البلد ، حيث يسكن مع امه واخوته فى دار نصفها طوب اخضر ونصفها الآخر تعريشة من البوص والبغدادلي اخترعها المرحوم . ساعة وصـــولى كان « رمضان » صائد الدبابات جالسا يتمشى ، امامه على الطبلية طبق من البصارة ورغيفان وبصلتان وقطعة من الجبن القديم ، وقلة ماء .

قال لى :

ـ خير يا ابو سبعة ؟

قلت له :

ـ قوم معايا الحاج عايزك ضرورى .

وقالت امه من داخل الدهليز :

ـ الواد جاى تعبان . طول النهار يعزق بالفاس .

وقال « رمضان » :

ـ عايزنى ليه ماتعرفش ؟

قـلت :

ـ والله ما ادرى لكنه يريدك الآن باى شكل .

فقـال :

ـ حاضر ، ثم أخذ يطوح اللقيمـات فى فمه ويتبعها بقضمة البصل ، فلما انتهى رفع القلة ودلق نصفها فى فمه ، وقال لأمه ان تؤجل الشاى حتى يعود .

فى طريق عودتنا مررنا ببيت « الحـاج نمس » القـديم ، رايت الولد « رمضان » ينظر اليه فى حسرة ، فهو بيت فى حـارة جانبيه من الشارع العمومى كانت تملكه أمه ، وقد هجره الحاج الى بيت جديد بناه فى مدخل البلد ، عبـارة عن سراية لاشـك انكم رايتموها وانتم قادمون ، ولاشك انكم تحلفون انها أحسن من سرايـة « محمـد على باشا » التى كانت فى سخـا . قلت لرمضـان :

ـ مش كان واجب يديلك الدار دى تسكن فيها وتتجوز فيها بدال ما هى خرابة كده .

فقال « رمضان » :

ـ لازم عاملها مخزن .. وع العموم ربنا يزيده .. مش عايزين منه حاجة .

فتأكدت انه ولد طيب وصافى النفس ، والا ما كان استطاع اصطياد كل هـذه الدبابات • ثم مال على هامسـا والقـلق فى عينيـه :

ـ بذمتك ما تعرفش الحاج عايزنى ليه ؟

قـلت :

ـ والله ما أعرف .

فمشى الولد المسكين بجوارى وهو ليس على بعضـه ، يكاد يقع من طوله ، فلابد أن الحاج يطلبه فى شىء لغير مصلحتـه فهو يعرف أن « الحاج نمس » لا يحبه ولا يحب اخوته ولا أمه .

مددت يدى من فوق المثلث الخشب وازحت شنكل باب الجنينة ، ودخلنـا ؛ وسار الولد المسكين يضرب « بلغته » فى الأرض لينفضها ، من الطين والتراب حتى لا تلوث السجاجيد المفروشـة ويكون جزاؤه الشـتم أو الطرد .. مع ذلك خـلع المسكين بلغته عند آخر سـلمة ، ودخلنـا فحودنا الى الحجرة الداخلية حيث يجلس « الحاج نمس » وكان لحظتها يجلس فى الصالة على ترابيزة السفرة ياكل بسرعة ممسكا بفخذ ديك رومى كبير ، فتركناه ودخلنا الحجرة وجلسنـا ، وبعد قليل دخـل « الحاج نمس » يمسح يديه فى الفوطة ويتجشأ قائلا :

ـ ياللا يا أبو سبعة شوف شغلك .

فأخـذت أمروح على النـار بسرعـة لأحييهـا من جديد وقال هو :

ـ تعال يا رمضان أما أقولك .

فنهض رمضان منكمشا على روحه يرتعش ، ومضى بجوار الحاج حتى اختفى صوت خطواتهما فى الصالة الكبيرة . مر وقت طويل شربت خلاله ثلاثة حجارة بصوت خفيض حتى لا يسمعنى، وأعدت تنظيف الحجارة وتتويجها ، أخيرا دخل الحاج وحده يبتسم فاشخا حنكه الواسع وتظهر أسنانه الكبيرة وقطع اللحم منحشرة بينها .. وراح يشرب ..

هات عشرة يا عبد المعطى . لاحظ اننى نسيت حساب البكوات وعليك أن تكتبه بالطباشير ، هذه هى الورقة الخامسة فيما أظن ، على فكرة .. عبد المعطى لم يرفع السعر كبقية الفرز عندكم .. ان الورقة عنده بعشرين قرشا فقط ، اى ان الحجر يقف بقرشين ، عندكم يباع بخمسة تعريفة او بثلاثة قروش ، طبعا ليس عندكم خدمة كالتى عندنا . الدور على من ؟ .. آه .. سأبدأ من اليمين . ولع يا بيك .. اشرب بهدوء وعلى مهلك فالنار كالحمص .. يبدو انك لم تصح بعد .. يمكننى أن أعطيك سنة الف . أفيون يعنى - وهى كفيلة بعدل مزاجك على التمام .. لا .. اطمئن من هذه الناحية فانا احسن من يفهم فى الأفيون ، قل لهم يا عبد المعطى ، اننى يا بيك أقلب عيشى بشرف ولا أحب غش الناس خصوصا فى هذا الملعون ، لانهم يضعونه فى جوفهم .. الجمعة الفائتة ذهبت الى بلدة الرحبة ، وهى كلها تجار مخدرات من كبيرها لصغيرها .. عندكم الباطلية ، وعندنا « الرحبة » . كان معى عشرون جنيها هى كل راسمالى ، دخلت المعمعة واشتريت بالمبلغ ورقا كسبت من ورائه عشرين جنيها أخرى فى ظرف يومين . نعم أقول ورقا ، لكنه غير الورق ، انه ورق سلوفان ، ان تجار الأفيون يتسلمون البضاعة ملفوفة فى ورق سلوفان ، كل تاجر حسب قدرته ، فأنت رأسمالك أوقية أفيون ،

وهذا راسماله ربع أوقية ، والبيك راسماله ثلاث أواق ، وهكذا ، وصاحب الأواقى الثلاث يبيع لصاحب الأوقية فى ورق سلوفان ، وكل واحد من هؤلاء حينما ينهى بضاعته يستخسر ورق السلوفان لانها تكون ملطخة ببقايا الأفيون ، فيحتفظ بها ، ثم يجمع عددا كبيرا منها ويبيعه لناس مثلى يسمونهم « الكحيته » فتصور اننى اشترى حفنة ورق بعشرين جنيها ، اظل اكشط فيها بحد المطواة يوما كاملا ، حتى اجمع من هذا الكشط جالوصا كبيرا ابيعة بحوالى ثلاثين جنيها غير ما احتجزه لمزاجى ، وابيع الورق نفسه مرة أخرى بحوالى عشرة جنيهات او اقل او اكثر ، يشتريها واحد من الأفيونجية المدمنين ، أقول لك ماذا يفعل به ، يضعه كله فى براض كبير مملوء بالماء ويتركه يغلى ، ويمسك بطرف الورقة ويغمرها فى الماء الساخن ولا يتركها الا وهى بيضاء كما كانت فى الأصل ، وهكذا يصبح عنده براض شاى كبير مملوء بالأفيون المذاب ، فيضعه فى زجاجات ، يبيع منها ما يبيع ويشرب ما يشرب آه لو أخذت لك جرعة من زجاجة ، مهما كنت مدمنا فانك لابد تهتز وتصير فى حالة من الفرفشة لا مثيل لها . وعلى كل حال ذق هذه السنة وسوف تجعلك ملكا . ضبطنى الحاج مرة وانا اكشط الورق بحد المطواة ، فوقف مندهشا وقال ى ، هذه نتانة .. فلم أرد ولم أغضب ، لأننى أعرف ان الحاج مس يتاجر حتى فى بقايا الحشيش والأفيون المتخلفة بين أسنان صبيانه وهم يقتطعون اثناء البيع للجمهور .

ولع يا بيك . سأقول لك . لم أنس ، ولكن الكلام مثل الحياة يدخل فى بعضه ولا تستطيع قطعه من بعضه ، وهذه الأوراق التى كنت أقلب فيها هيشى ، والتى قال منها الحاج انها نتانة ، فوجئت أيام الانتخابات انه يشتريها ، بل اطلق مجموعة

من الناضورجية والباعة الصغار فانتشروا بين التجـار وجمعوا له زكيبة كاملة من هـذا الورق ، وضعهـا فى دار أمه القديمـة وامرنى بالذهاب اليها ، وقبل أن أبدأ فى العمليـة كان هو قد جاء ووقف على يدى . كان الورق دسـما فى الحقيقة ، جمعنا منه حوالى ألف قطعـة من الأفيون لا تقل الواحـدة عن قرش أو نصف قرش ، لففنا كل قطعـة فى ورقـة صغيرة ووضعناهـا كلها فى حقيبة سفر أنيقة ، ثم قمنا بغلى الورق فى حلة كبيرة حتى صار الورق كالعصيدة فأمر الحاج بدهكه فى مصفاة ، وملأنا بهذه الكمية ما يقرب من الف زجاجة صغيرة كلف الحـاج احـدى الاجزاخانات بشرائها له ، ثم برشمها بالفلة ولصق على كل منها ورقة عليها كتابة ، ووضعها هى الأخرى فى حقيبة سفر ، ثم تركنا كل شىء فى مكانه وخرجنا الى السرايا حيث أسقيه بقية الليل .

يرجع مرجوعنـا للانتخابات . أنا لم أكن أجعل بالى من اشياء كثيرة ، ودائما ينبهنى الناس الذين يتضح أن ناسا آخرين نبهوهم .. فجأة رأيت صـورة « رمضان » مطبوعة بالألوان على ورق كبير معلق على الحائط فى شوارع البلدة ، صرت ألف واتفرج عليها ، ويقولون لى ان هـذه الصورة منتشرة فى كل بلاد الدائرة، جئت بولد تلميذ وجعلته يقرأ لى ما عليها من كتابة ، فقرأ : « انتخبوا بطل أكتوبر .. النمس .. لا تنتخب الا النمس .. بطل أكتوبر .. صائد الدبابات النمس .. الذى حارب من أجلكم وانتصر .. هو الذى يستطيع أن يمثلكم . وسألت هل اسـم الولد « رمضان » مكتوب على اى صـورة ؟ فقالوا لى : لا .. المكتوب هو النمس فقط .. قلت لابد ان المطبعة ضحكت على الحاج ونسيت اسم الولد المرشح ، فطلعت اجرى الى الحـاج وهتفت أن أنتبه فاسم الولد ليس مكتوبا .. فضحك الحاج حتى اهتز كرشـه وقال :

ـ مش مكتوب النمس .

قـلت :

ـ نعـم .

قـال :

ـ خلاص . الناس حتعرف الباقى .. هو فيه كام نمس فى البلد اصطادوا دبابات ؟ ..

قـلت :

ـ كان واجب نكتب اسمه : رمضـان النمس .. عشـان نفرحـه .

ضحك ثانية وقال :

ـ ولا يهمـك ..

وفى يوم الانتخابات ركبت الخنزيرة مع الحاج واخذنا نلف البـلاد ، نمـكث فى كل بلد وقتـا قصـيرا ثم ننصرف الى بلدة اخرى ، و .. لاحظت يا بكوات ان الزجاجـات التى قمت انـا بتحضيرها منتشرة بين الناس ، فى اللجان وبين الناخبين ، كان الواحد منهم ينزوى فى ركن بعيد ويتأمل فى الزجاجة والفرح باد عليه ، وكانت عصابة الحاج تختطف الناس من كل مكان وتقف معهم ، فاذا دخل الناخب الى اللجنة قالوا له : تنتخب من ؟ .. يرد بصوت عال : النمس يا بيه .. النمس يا بيه .. النمس يا بيه .. وانطلقت الزغـاريد فى البلد مع النتيجـة ، وانقلبت السراية بمجاميع الناس الذين جاءوا يباركون للحاج .. وسألتهم لمـاذا لا يباركون رمضان باعتباره هو الذى نجح ؟ .. فضحك

الحاج كما ضحكت العصابة ضحكا كثيرا وقالوا لى : رمضان مين يا جدع .. الحاج هو الذى رشح نفسه وكسب الدائرة ! ..

الحاج ؟ ! .. كيف يا جدعان .. ان الصور والدعاية كلها كانت لرمضان صائد الدبابات .. فقالوا : بل كانت للحاج نمس.. قلت فما لزوم صورة رمضان اذن فى الموضوع ؟ . قالوا لى : يا عبيط ان الحاج يتفاخر بأخيه ويقول لأهل الدائرة انه يستحق الاكرام من أجل أخيه البطل . فوالله وبالله لم تدخل هذه الحكاية دماغى ابدا ، وظللت حتى الآن لا أعرف كيف أجعلها تدخله . انما المهم أن « الحاج سعيد النمس » حصل على ما اراد .. وها هى ذى عرباته تدخل اى مكان فتفتح لها الأبواب ، وتخرج فتنحنى لها الرءوس ، وهو الآن يبيع ويشترى فى الناس .. فهل تريدون معرفة كيف يفعل ذلك ؟ .. اذن فهات عشرة يا عبد المعطى ..

الدور فى هذه المرة يبدأ — عدم المؤاخذة — من الشمال .. أنا لا احب الدخول من الشمال ولكن هكذا النظام .. ولع يا بيك .. ذات صباح قالوا لى اذهب لتساعد البنائين فى الدار القديمة وترى طلباتهم . طيب .. فاذا بدار أم النمس قد هدمت وشملت فى هدمها ثلاثة او اربعة بيوت كبيرة اشتراها الحاج بثمن بخس من بعض الأرامل ، واذا بالفواعلية قد اختطوا أساسا مفحوتا فى الأرض ، فلما سألت عرفت أن الحاج يبنى ها هنا مجموعة من الدكاكين فظللت أساعدهم وأقدم لهم الشاى واشترى لهم الصنف حتى تحولت هذه الخرابة الى جناح كبير يضم حوالى عشرين دكانا .. عشرة مقابل عشرة وبينهما حارة بطول العشرة تنتهى بجدار طويل بباب صغير هو جدار المخزن الكبير ، كان منظرا مفرحا فى الحقيقة ، جعل الواحد يتخيل ان البلدة

صارت مدينة ، خصوصاً أن الدكاكين بالتبن والمسلح ومبيضة بالزيت ، وبها فتارين من الزجاج وأرفف ودواليب من الخشب المدهون اللامع . وقيل ان « الحاج نمس » سوف يؤجر هذه الدكاكين لناس سوف تأتى من المدينة لتفتحها . وقيل انه أخيرا رق قلبه لاخوته من أبيه وقرر أن يؤمن لهم مستقبلا بمنح كل واحد دكانا ببضاعته ، ولكن « الحاج نمس » لم يفعل شيئا من هذا ، وفى صباح آخر ذهبت الى هناك بعامود الغذاء للحاج فوجدت العجب ، أنتم ـ اذا كنتم من بلدتنا ـ تعرفون أن دار أم الحاج نمس كانت حارة متفرعة من الشارع العمومى ، وتقول أنه اشترى الدور المجاورة لدار أمه حتى وصل بدكاكينه الى الشارع العمومى ، وصارت أبوابها تفتح على الحارة التى تخصها ، يبقى الشارع العمومى وهو شارع يسمى داير الناحية اذ هو يطوق البلدة ويلف حول سرتها . فكيف يمكن أن يباع الشارع العمومى ؛ ومن الذى يستطيع أن يبيعه ؟ .. مع ذلك قالوا ان « الحاج نمس » قد اشترى هذا الجزء من الشارع العمومى ، الجزء الذى اذا سده « الحاج نمس » واشترى البيت المقابل سار مربوطا بسرايته ومربوطا أكثر بمخازنه التى كانت فى الأصل مخازن الوزان . بشرفك يا بيه قد كان .. اشترى البيت المقابل وهدمه وحوله الى قطعة أرض فضاء يلف حولها سور من الطوب الأحمر ، يمتد هذا السور ليلتصق بحائط الدكان المطل على الشارع العمومى ، وبهذا انسد الشارع العمومى نهائيا لكن « الحاج نمس » كما تعلمون رجل حقانى ، لا يرضيه أن يتعذب الناس ، الحق لله انه بقى مدة شهر تقريبا يرى كل يوم خناقة ، ومحاولة لهدم السور تنتهى بفض اشتباك وكلمتين طيبين ، الى أن أعلن « الحاج نمس » أن هذا لا يرضيه ، وانه سوف يظل يعمل لخدمة أهل الدائرة وتخفيف اعباء المرورية

منهم ، ولم يكلب خبرا ، ففى الصباح جاء بالفواعلية فشقوا طريقا ليلتف من جديد حول سرايته ، ثم ينحرف داخلا الى وسط البلد من جديد ، وقد كلفه هذا الطريق ـ فيما يقول ـ آلاف الجنيهات .

ثم اننى بدأت أرى « الحاج نمس » فى حالة انشغال دائمة ، يجتمع بناس ويبعث فى طلب ناس وسأل عنه ناس حتى حفيت أقدامى من الجرى واللف والخدمة ، الى ان جاء يوم سافرت فيه الى « بورسعيد » التى كنت أسمع أنها ضربت الفرنساوية والانجليزية والصهيونية ـ كما قالت أم كلثوم فى أغنيتها . فرأيتها زائطة مائجة كلها ناس وبضائع ومعارك بين الناس وبعضهم ، وعربات تدهس ناسا ، وناس تدهس عربات ، ونساء يفتشن ورجال يتعرون ، كل ذلك فى سبيل البضائع ، ورأيت عربات « الحاج نمس » تشحن من كل شارع آلاف البالات والكراتين والزكائب ، وهو يمر ريعاين ويكتب ورقا ، وكنت أركب وراءه فى الخنزيرة حاملا حقيبته « السانسوايت » ، فسألته : لماذا كل هذه البضائع يا حاج ؟ . فقال ان « بورسعيد » منطقة حرة ، يعنى كل واحد يأخذ منها ما يشاء .. المهم ان العربات النقل نزلت البلد ، وأفرغت بضائعها فى المخازن ثم قام ناس بترتيبها فى الدكاكين والفتارين ، وان هى الا ايام قليلة حتى أضيئت الدكاكين باللمبات النايلون الطويلة وصارت البلدة بفضل هذه المنطقة تلملط فى الليل كالعروس المجلوة ، ثم ان هذه الدكاكين انفتحت على المنطقة المسورة ، وامتدت البضائع والمعروضات على عربات صغيرة ، وأخذت الميكروفونات تلف هنا وهناك وتنبح مبشرة أهل الدائرة بأن « الحاج نمس » قد اغرقها بالرخاء ، وها هى البضائع على قفا من يشيل ؛ صحيح أن القفا الذى يريد ان يشيل سيدفع نقودا

كثيرة قبل أن يشيل ولكن القفا فى النهاية سيجد ما يشيله ، وسيتعب فى البحث عن نقود يشيل بها ..

هات عشرة حجارة يا عبد المعطى ..

أنتم عدم المؤاخذة كثيرون فى عين العدو ولن يكفيكم عشرات العشرات بالصلاة على النبى ، أنا مبسوط منكم لأنكم تضربوها صرمة قديمة .. « الحاج سعيد النمس » الآن يحسب الوقت بالذهب .. فمسافة ما تشربون ورقة واحدة يكون هو قد جمع الف ورقة فى جيبه ولكن من ورق البنكنوت . أنتم عدم المؤاخذة، تحبون التحشيش فى وضح النهار ، وهو رجل عملى ، يحب سرقتكم فى وضح النهار . فطالما أنتم تحششون وهو يعمل فسوف يظل يعمل . وهذا ما قد حدث .. ولع يا بيه .. هذا دورك فى التوليع على النظيف وأنا لا أوافق ، هذا أيضا من حسن حظ « الحاج نمس » ، كل واحد يريد أن يأخذ دور الآخر ، يركب على الآخر ، عدم المؤاخذة انا لا يهمنى ، أنا أقول الحق ورزقى على الله .

ولع يا بيه . اقول ان « الحاج نمس » اطمأن الى أن كل الشبان المفتحين والرجال النيرين يبيتون من السطل الشديد فى حال ، وهو يبيت من السطل فى حال أيضا ولكن سطله مسنود بالغذاء والأمن وهو ينسطل ليفكر وهم ينسطلون لينسوا .. وكان يوما مشهودا ذلك اليوم . بعد صلاة فجر مباشرة كان رجاله قد انتشروا فى سوق البلد ، سوق البلد يقام عادة يوم الثلاثاء ، ومكانه هناك فى المدخل الشرقى للبلد ، وكان السوق يقام وينفض وقد لا يشعر به أحد من اطراف البلد ، صحيح انه يشبه

الحركة فى البلدة كلها ، ولكن « الحاج نمس » كان يغتــاظ لأن تجار الحبوب يطلعون الســوق بأنفسهم ويقيمون « فرشهم » فى أماكن معتادة ، يبيعون ويشترون ويأكلون زبدة الســوق ، اما هو، فلا يجيء لمخازنه سوى المزنوقين فى شيء شاحح ، وهــذا شيء يقلق بال الحاج ، ولذلك فانه بصحبة رجاله وقفوا بعد صــلاة الفجر فى مكان الســوق بالعصى والمسدسات والبنادق المخفيــة البارزة فى نفس الوقت وكلمــا هبط بائع سريح هبطوا عليه ومنعوه من اقامة فرشــه ، ونبهوا عليه ان مكان السوق قد انتقل الى المدخل الغربى ، بالتحديد فى قلب الســوق الذى اقامه الحاج بجوار الدكاكين الجديدة ، ويتطوع ناس ليصحبوا الناس الى المقر الجديد ويساعدونهم فى اقامة فرشهم .

استغرقت هذه العملية ثلاث جمع متواليــة استقر بعدها السوق فى مطرحه الجديد واصبح تحت سيطرة الحاج ، وكانت الميكرفونات تلف وتعلن أن الحاج فعل ذلك خدمة لأهل الدائرة الذين لا يقدرون على الذهاب الى السوق . ثم ان الحــاج راح يتسلل الى الباعة ويدرس احوالهم ، ويكرههم فى عيشتهم ، ويطلب منهم الاهتمــام بمستوى البضــاعة ، فيبدون يأسهم من ضيق ذات اليد ؛ فيعطيهم ، وفى ظرف عام لم يعد هنــاك باعة ولا تجــار يملكون ، تحول الجميع الى باعة ، مجرد باعة بالأجر ، وقد وضح انهم جميعا ســعداء ، فأخيرا وجدوا من يعفيهم من لعبة الحظ ، ويضمن لهم آخر النهــار لقمة طرية وهدمة مستوردة ، وقرشا سائلا فى اليوم .

تقول ان هذا شيء جميل . انا ايضا اقول ، ولكن الجميع الآن يعبرون عن ســعادتهم وهم يضعون أيديهم على قلوبهم ، فكثيرا ما ينحرف مزاج « الحــاج نمس » فى لحظــة ، فيغــلق

الدكاكين ، ويغلق السوق ، ويستمر أياما . أراكم تنزعجون .
ها ها ها هاى .. فماذا اذن لو علمته ان « الحاج نمس » منذ أيام قليلة قد بدأ يسرب بضائعــه وأمواله شــيئا فشيئا الى ان فرغت الدكاكين تماما ، وقــد ظل الناس يتمشمون الخــبر حتى أعلن افلاســـه وصــار النــاس يبحثون عن عمــل بعد ان فرطوا فى راسمالهم .. أما أنا فاعرف انه قد نقل نشاطه الى مكان آخر لم أعرف اسمه بعد .. ويظهر اننى لن أعرفه ، لاننى لم أعد أراه منذ ترك الخنزيرة واشترى طائرة يسافر بها الى مكاتبــه المنتشرة فى كل بلاد العالم ..

هبه .. ولع يا بيه ..

فما الذى تقولينه الآن يا نوحاية ؟ !

خلال السنوات العشرين الماضية كنت أتابعهم واحدا واحدا . وكنت أعرف أنهم أيضا يتابعوننى . وكانوا هم يعرفون اننى أعرف وكنت أنا أعرف انهم يعرفون ، ومن المؤكد كاليقين وكسطوع الشمس ظهرا أن أخبار كل واحد منا موجودة فى جيب الآخر ، بكل التفاصيل .. ومع ذلك فحين يلتقى أحدنا بالآخر يبدو كأنه لا يعرف أى شيء عن الآخر ، وتنهال الأسئلة الطامحة الطامعة المشتاقة تتقصى كيفية الأحوال والصحة ، وعامل ايه دلوقت ، لعلك بخير .. بخير والحمد لله وأنت ما بنسمعش اخبارك ليه .. يا عم فكر تزورنا مرة هو ما كانش عيش وملح والا ايه ؟ !. ويتواعد الاثنان ـ وعودا صريحة مؤكدة ـ على أن يتزاورا ، وان ينعشا الذكريات ويقيما وصل الماضى بالجديد . غير أن هذا اللقاء يتكرر بكل حذافيره اذا ما تصادف والتقى الاثنان صدفة فى أى مكان ..

كنت اعرف ان « بهاء الدين » قد أصبح « صولا » فى الجيش وان حالته قد تحسنت بعد عودته من حرب اليمن . فقد أغدقت الحكومة على الجنود المبعوثين الى اليمن أموالا طائلة ، ابتنوا بها البيوت واقتنوا عربات الأجرة وانتقلوا بأهاليهم وذويهم

الى حياة جديدة فى أطراف القرى .. وبذلك قدر « لبهاء الدين » أن يعوض سنين التخلف الدراسى ويحقق مستوى من الحيـاة والأمنيات يفوق ما حققـه الذين واصـلوا دراساتهم بنجـاح . وكنت أعرف أن « سميح » ابن الذوات الذى كان يعاشرنا من باب التقديس للزمالة بصرف النظر عن مستوانا الطبقى ، قد ظل يرسب فى الدراسة عاما بعد عام بمزاجه الشخصى ! ولم يكن أبوه يدعى هذا حين كان يردده باسف امام كل من يسأله : فالولد بالفعل قد « غوى » بمعنى انه عشـق منصبه كرئيس لاتحاد الطلاب فى جامعة « المنصورة » وكان مستعدا لأن يدفع عمره ، مقـابل ان تظل اخباره وصوره تنشر فى الجرائد .

وكان ـ يقول أبوه فى خطاباته لى ـ يسهر الليل يدبج الخطب الى ان استقر على صيغة مناسبة تصلح لكل زمان ومكان ولكل شخص يعتلى زمام المسئولية فى البلاد . وآخر أخباره عندى أنه بعد أن توفى أبوه انهزم شر هزيمة فخرج من الجامعة بلا شهادة نهائية ، وانتقل الى مدينة « طنطا » ليتولى ادارة محل الأخشاب الذى آل اليه . وكنت أعرف ان « عبادة » قد دالت دولته ، فنزل فجأة من عليائه الى الصفر ، كان قد تخرج فى كلية العلوم وكان عضـوا بمنطقة الشباب ، والحق بوظيفة فى المحافظة واصبح مسئولا كبيرا فى نطـاق محافظتنا عن الشباب ، وكان فى القرية متحدثا رسميا باسم الثورة والاتحاد الاشتراكى وباسم أشياء كثيرة . فلما قامت ثورة التصحيح حاول أن يصـل نفسه بأسبابها ولكن شبانا جددا كانوا له بالمرصاد ، فلفظوه وحملوه مسئولية وجود عبد الناصر والسد العالى وحرب اليمن وسجن المخـابرات والقضاء على انسانية الانسان وانقراض المواطن الصالح ، وكان بدوره غير راغب فى الصراع لمـا يهدد من دموية ، فاكتفى من

الغنيمة بشقة عظيمـة كان قد منحها أيام العز ، وعربتين له والزوجه كان بسلطانه قد احتجزهما من شركة نصر وخرج ثمنهمـا مصاريف نثرية تافهـة ، ثم استحضر عقدا وسافر الى الدول العربية مدرسا ثانويا . وكنت أعرف أن « سعيد » أو الحـاج « سعيد » كما قد صار أو « النمس » كما كنا نسميه ايام الدراسة قد اتضح انه احكمنا جميعا ، منذ أن أخذها من « قصيره » ونبذ فكرة التعليم من أساسها ، واكتفى بالشهادة الابتدائية والتحق موظفا بالجمعية الزراعية امينا لمخازنها ، فصار حاجا ، وآخر أخباره عندى انني ـ وفى شارع سليمان سنة ١٩٧٤ ـ رأيتـه يجرر عباءته فى الطريق سـائرا ، ورأيت « يوسف خلف » بجلالة قدره « ابرز أعيان البلد طوال تاريخهـا الحـديث ، يستوقف الحاج سعيد فى الطريق ثم يهرول نحوه فى امتثال الخدم ويسلم عليه فى احترام يقترب من لثم اليد طالبا منه خمسة جنيهـات سلف .. فلم ارهما نفسي وكانوا يعرفون ان خيبتي لم يعد لها مثيل ، فقد كنت الوحيد الذى اخذ المسـالة مأخذ الجد ، وسهر وضرب المثـل فى التفوق الدراسى حتى حصـل على ليسـانس الحقوق ثم عملت موظفا بوزارة المـالية ، ثم سكنت فى شـقة بحى زينهم فى بيت كان جديدا وقتها ، فان هى الا شهور قليلة حتى وقعت ابنة صاحب البيت فى غرام العبد لله فرمت شـباكها واصطادته زوجا ، وانا بدورى فى الحق أسلمت قيادى للشباك دون مقاومة بل استرخيت فى لذة ، واشـهد أن زوجتى جميلة وساحرة وما تزال ، فضلا عن انها طيبة وبنت حلال ، ولكنهـا أنجبت لى خمسة ذكور وأربع اناث خلال خمسـة عشر عاما ، فصرت أبحث لنفسي بينهم عن لقمة صغيرة أتبلغها ، وبقعة صغيرة أضع رأسى فيها ، ورقعة متواضعة استر بها جسـدى ، رغم أن حماى قد استغنى عن ايجـار شقتى ، وتوسط لدى السيدة الكريمة « نوال عامر » عضو مجلس الشعب فنقلتنى الى ادارة

التأمين والمعاشات بدرجة أعلى ، وفرصـــة للعمل بعد الظهيرة « الأوفرتايم » .. ومع ذلك ظللت محروما من السيجـارة ومن فنجان القهوة كرؤساء الأقسام الأخرى .

وطوال هــذه السنوات المـاضية لم يكن يشــغلنى من أمر الجماعة القديمة سوى « حميدة » ، ذلك المحور القوى الذى ربط بيننا برباط من حديد رغم الشتات الذى أصابتنا به الأيام ، فلابد أن يكون ثمة سر عظيم كامن فى الأمر ، فكل الناس قد زاملت فى طفولتها وصباها ، وكل الناس قد أحبت وخابت فى حبها ، وكل الناس قد تفرقت فى النهاية أو فى البداية ومع ذلك لم تتوقف الدنيا ولم ينشغل أحد بأحد كل هــذا الانشغال مثلما انشغلنا نحن ببعضنا البعض وبحميدة والسبب .. « حميدة » . وليته كان انشغالا مفيدا بالنسبة لأى منا ، انه مجرد انشغال ، أرانى مدفوعا للسؤال عن أخبارهم بالتفصيل وباهتمام يفوق اهتمامى بأولادى ، وأراهم ــ واكتشف انهم يفعلون نفس الشيء معى ، وينفلت لسان الواحد منهم بكلمــة واحدة ربما ، تكشف عن انه ســاهر يترقبنى ويتوقع لى الفشــل فى كذا والنجــاح فى كيت وها هى نظرته قد تحققت هنا أو ها هنا . ولكن والعجيب ان واحدا منا خلال لقاءاتنا التى تمت كلها صدفة أو بتدبير ، لم يعن بالسؤال عن « حميدة » ولعل كل واحد كان يضمر فى نفسه محاولة الوقوف على أخبارها بطرق دبلوماسية ودون أن يسأل بشكل مباشر ! .. فى كل لقاء لمحت الأعين انعطافة لذيذة تقول دون أن تقول : ما تعرفش ايه أخبار « حميدة » ؟ . ولكن الســؤال أبدا لا ينطلق ولا يتحدث .

وأجزم ان السبب فى استمراره وفى بقائه انه لم ينطلق ، فظل يتأجج بالرغبة القديمة الموثقة ، والأمر من جانبى كان قد

وصل الى ذروته • ربما لاننى اكثرهم اهتماماً وانشغالا بأمر « حميدة » . وربما لاننى أقلهم الماما بأخبارها وما وصلت اليه من حال . هى الوحيدة من بينهم ليس لها عندى من « آخر اخبار » . فكل ما وصلنى عنها من مصادرى الخاصة لم يكن يدخل فى بابه الأخبار بقدر ما يدخل فى باب الشائعات ، وهى شائعات غير مغرضة ، لأنها أدلى بها من ناس طيبين جدا ولا يعنيهم أمرها من قريب او بعيد ، هم ناس من قريتى اراهم فى المدينة فجأة يتقافزون امام العربات كالقرود ، أو أصدم بهم فى عيادة طبيب نصف مشهور . او فى موقف احمد حلمى بينما أوصل حماى الى بورسعيد او استقبله حاملا الهدايا التى جاءت باسمنا لتباع لآخرين يملكون ثمنها . فأسالهم – بقليل من الحرج : ماتعرفوش البنت اللى كانت معايا فى المدرسة ، اللى امها ساكنة جنب محمود البقال .. أيوه اللى اسمها حميدة فيضربون جباههم بأكفهم صائحين : آ .. ه .. أيوه أيوه حميدة اللى كانت سافرت تتعلم ، اللى ربنا اداها سر آدم :

سر آدم .. أتساءل أنا مبتسما ، واقول بينى وبين نفسى ان المسألة دخلت فى باب الأساطير ، وحين يلحظون دهشتى وعدم ثقتى فى أنهم يعرفونها ، يسارعون باسكاتى : أيوه سر آدم .. هو آدم كل من الشجرة ليه .. مش عشان يعرف ايه طعم الشجرة دى اللى ربنا وصاه ما ياكلش منها .. بنى آدم ضعيف طبعا وكان لازم ياكل من الشجرة دى بالعنية عشان يعرف ايه حكايتها بالضبط .. فلا ادعهم يسترسلون ، لأنهم يكونون قد أفصحوا تماما عن معرفتهم لحميدة الحقيقية التى اعرفها . نعم هذه هى حميدة .. ونعم هذا هو اجمل وصف لها واجمل تفسير لشخصيتها التى أعرفها ..

كانت فتاة . وكنا ذكورا وكنا جميعا نحبها ..

وكنا نعترف بذلك فى لحظات الضعف حيث فشلت المنافسة بيننا فى استحواذ أحدنا عليها ، فكتمنا ضيقنا من بعضنا وقلنا باسمين انها تشبه فكرة الوحدة العربية واننا جميعا نلتف حولها اذ نحبها . وكنا جميعا نحب ما يذاع فى الراديو ـ فى صوت العرب بالذات ـ وما ينشر فى الجرائد حول الوحدة العربية الكبيرة . وكم كان لهذه الكلمة من وقع ساحر فى نفوسنا ، نتخيل انفسنا وقد صرنا نجوما عربية ترحل من دجلة الى بردى الى الفرات عائدة الى النيل ، لنستأنف الرحيل الى الخضراء واخوتها ، ونرى أنفسنا فى العيون النجل وفى البشرات الذهبية . وعلى الألسن التى تنطق نفس نطقنا بعزف آخر .. كنا نكرر معانينا وأخيلتنا على آلات كثيرة كلها عربية . وكنا نحبها .. وكانت فتاة .

لم تكن زميلة فى المدرسة .. ولم تكن مطمحا طبقيا بأى حال . على العكس كانت يتيمة الأب بلا ميراث . ابنة أجير على قد حاله لم يكن يملك سوى ساعديه . فلما انهد واندفن استعارت أمها ساعديه وراحت تعمل بهما نفس العمل ، ان كان عزيقا فعزيق وان جمع قطن فجمع قطن ، ولم يكن ينقصها من اعمال الرجال سوى المناصب الرئاسية كالخولى أو الناظر أو ما الى ذلك . لا تقبل طلوع الترحيلة رغم اغراءات نصف الريال اليومى : أسيب ولادى لمين ؟ . وتقبل القروش الستة فى اليوم لكى تعود الى الدار فى مطلع المساء . يقول لها الناس رجالا ونساء وصبيانا : لو كنت منك كنت أشغل الولاد .. ثلاث عيال يجيبوا ريال فى اليوم .. لكنها ابدا لا تقبل حتى ان تسمع هذا الكلام . لكل شخص

رده المناسب ، ان كان رجلاً محترماً صادق النية فان ذقنهـا بوشمه الأخضر المستطيل الذى يبدأ من منتصف شفتها السـفلى يتراجع باسما فى حياء ترتعش قمته على الشفة يجيشان الكلام : يعنى يرضيك اهينهم .. دا ابوهم موصينى عليهم ودول أمانة فى رقبتى واهى مستورة والحمد لله .. اما ان كان المتحدث واحدا من « الكحيتة » فانها تنفجر من الغيظ : « هما كانوا شحتوا منك .. يا شيخ ما تخليك فى حالك .. » .

وقد تعود الجميع ان يخلوا انفسهم فى حالهم ، وان يتهيبوا هذه السيدة خوفا من التهزىء او الرد الباطش . رجال كبـار اثرياء كانوا يخاطبونها باحترام شديد ولا يستضعفونها أو يتطاولون عليها ، باستثناء « ابو ظريفة » لأنه فاسوخة البلدة كلها ، يكون سعيدا من يحظى بشرف معابثته ، اذ أنه لا يعرف الحياء مطلقـا فى اى لفظ أو سلوك فى اية لحظة ، حتى فى اشدها دقة وجلالا ، يخرس الجميع فى الحال بلا رد فيضحكون من تعليقـه فى تأمل فلسفى .. ذلك ان قلة حيائه تحظى باحترام عجيب .. ربما لأنها نابعة من صدق عظيم ومطلق فى كل شىء .. فالأشياء عنده ليس لها اسم آخر غير اسـمها الحقيقى ، والشىء يوصف بوصفـه الدقيق فى اللحظة المناسبة دون مواربة وبلا تهذيب . ولولا حلاوة « أبو ظريفة » فى مداعبتـه لـ « نوحاية » لأهالت عليـه طوب القواميس وغبارها المدفون . كان كلما التقاها يعرض عليهـا المناكحة شرعا ، فقد لا تندهش هى من صدمة اللفظ فى حين يندهش الآخرون وحينئذ يلومهم على دهشتهم بقوله انهـا كلمـة مقدسة وردت فى القرآن الكريم ولو كانت عيبا أو جارحة للحياء لاستبدلها القرآن بلفظ آخر .. !

تعتدل هى فى الحال كأنها ضبطت عارية . تشد الطرحة ،

ومن تحتها تجذب المنديل حتى لا يظهر من شعرها طرف شعرة ، ولكن يضيء وجهها ويزدهر الوشم على ذقنها ويزداد اخضرارا ، وترد ردا ـ ربما كان هو الوحيد فى البلد الذى يوازى شخص ابى ظريفة ويتكافأ معه ، فبلا حياء ولكن بعبارة لا تتخلى عن الحياء تقول انها ـ العفو ـ ليست من ثوبه ، فثوبه الحقيقى منطرح على اجساد الغوازى ، يطعنه الرد وتنهدل ملامحه المتشبثة بالابتسام ، ويرميها بشتمة سوقية مناسبة ثم يمضى ، فلا تلتفت هى اليه .

هى ايضا كنا نحبها ، كملح بارز فى وجه قريتنا عندما يهبط المساء علينا فى حجرة فقيرة فوق سطح عمارة استأجرناها ـ الحجرة ـ فى مدينة دسوق ، كنا خمسة فى سن واحدة وسنة دراسية واحدة وفى نهاية العام سنحصل جميعا باذن الله على الشهادة الابتدائية لنصبح بعد ذلك أول جيل من حملة الشهادات فى قرية (أبو دعموم) .

فى ليلة تذاكرنا فيها المواد كثيرا وتذاكرنا فى نوادر « نوحاية » أكثر : تساءلنا عن أصلها وفصلها ومعنى اسمها ، فنحن ـ منذ وعينا ـ نراها هكذا بلا رجل ، تسكن دارا صغيرة ذات حجرتين متجاورتين ودهليز طويل يفضى الى سلم يفضى بدوره الى (مقعد) من البغدادلى الرخيص .. يطل باب الدار على الشارع العمومى ، وينحشر بين اثنين من أكبر دكاكين البقالة فى البلد .. فى المواجهة خياط يتربع ليل نهار على المصطبة الخارجية يخبط الأقطنة ويقفف العباءات . تداولنا الآراء والنكات : تقول هى ـ فلها مثل علية القوم أقوال ومأثورات مدونة فى الرءوس : أنها سميت « نوحاية » نسبة الى جدها نوح عليه

السلام ، وان النجاة بالسفينة ديدن جدها القديم ولا ينبغي لسلالته ان يضلوا ، انما عليهم أن يركبوا سفينة اذا ما حل بهم الطوفان ، اما وقد حل بها الطوفان وحدها بموت زوجها عن ثلاثة اولاد فانها لجديرة بأن تقود بهم السفينة الى النجاة .. قيل لها وما السفينة فى نظرك يا نوحاية ؟ قالت : هى حماية العرض والأولاد من تعريضهم للذل والاهانة .. قيل وهلا تلاقين انت الذل والاهانة يا « نوحاية » ؟ قالت : من يملك ساعدين كساعدى ولسانا كلسانى وحقا كحقى لا يذل ولا يضام .. ثم تستطرد قائلة : انما يذل الانسان نفسه بنفسه . والواقع أن سر اهتمامنا الكبير بنوحاية فى تلك الليلة ، حيث سجلناه على انفسنا جميعا بكثير من الغمز واللمز والخفقان ، كان وراءه دافع آخر ، تلك هى « حميدة » ابنة « نوحاية » التى كنا قد اكتشفناها فجأة كل على حدة .. فمنذ أن بدأنا نتغيب عن القرية سعيا وراء العلم فى المدينة اصبحنا لا نقضى فى القرية سوى ساعات الاجازات فلا يتاح لنا رؤية النمو الا بشكل مفاجيء . وهكذا رأينا « حميدة » .. كنا عائدين من المحطة يحمل كل منا « سبت » الزوادة بيده بقليل من الحرج لا يغطيه الا شعورنا باهميتنا كطلبة علم فى المدينة وجلابيبنا ذات الياقة والأساور ، أو القمصان والبنطلونات، وما أن تجاوزنا آخر الكبارى فى الطريق الزراعى وأوشكنا على كوبرى السلامونية حتى رأيناها صاعدة سلم (الموردة) بالبلاص ، هيفاء كمهرة عاقلة جامحة فى آن ، فلما وصلت الدرجة الأخيرة صعودا واجهتنا ، فاذا بنا امام عروس تخر لها الجباه وتتملظ العيون الملتهبة ، نعم كانت مذاقا مجسدا يغرى بالالتهام ، ذهلنا كلنا فى لحظة واحدة وتبادلنا النظر فى خجل ونطقنا : « حميدة .. مش معقول » . فلما شارفتنا

طرحت على رءوسنا ابتسامة ظللنا نلملم اطرافها الى أن وصلنا بيوتنا .

ثم لوحظ فيما بيننا ان احدا لا يريد أن يجيء بسيرتها أبدا لكننا كنا نلمح خيال هذه السيرة فى ضمائر بعضنا البعض ، ونكاد نجرها لولا حرص غامض سرعان ما يمسكنا عن الخوض فيها ، كأنها شيء محرم وكان من الواضح ان كلا منا قد اضمر فى نفسه الاستئثار بحبها وحده ، فلما بدأنا نتساقط أمام بعضنا البعض واحدا وراء الآخر لجأنا الى العقل المبكر الذى بدأنا نكتشفه هو الآخر بعد انقطاعنا عن تخريف العامة واتكاليتهم وبعد احتكاكنا بمسائل الهندسة والجبر والطبيعة والكيمياء وما الى ذلك من ضروب نبهتنا الى عقلنا .. وعقدنا اتفاقية صريحة عقدنا لها الاجتماعات وناورنا بما فيه الكفاية .. واعترفنا أخيرا بمجموعة من البنود المهمة ، على رأسها اننا جميعا لن نفكر فى الزواج منها مهما كان جمالها ، فنحن غدا أو بعد غد سنصير اطباء ومهندسين ومعلمين وضباطا ، ومن يدرى فربما صرنا وزراء وسفراء وابهة ، والمقطوع به اننا لن نفتح باب الزواج الآن لأنه قد يغلق علينا أبواب فرص عظيمة للحياة ، وبالتالى ، فان اختلافنا على « حميدة » لا يجب أن يقودنا الى الخسران ، وطالما ان أحدا منا لا يضمر لها غرضا سيئا فان الاقتتال بشأنها يعتبر ضربا من العبث لا يصلح لأمثالنا ـ ونحن حملة الابتدائية ـ الاستمرار فيه .

أدلينا جميعا بتوقعاتنا الشفوية على هذه الاتفاقية المهمة ، وفى اليوم التالى وربما اللحظة التالية نقضناها تماما . شغل عيال كما تعرفون ، لكننا ضبطنا انفسنا بانفسنا ندلى بتصريحات ذات

خطورة فى جمالها وحسن لحظتها وعذوبة خطوها ، وأى حديث منها كان يعد من قبيل السلوى ، ونجر بعضنا بعضا الى التحدث فيها لنستمتع .. على ان ضربة الحظ المفاجئة التى خبأتها لنا الأيام لم تكن تدور لأى منا فى خلد : كنا لحظتها قد دخلنا القرية وصرنا فى الشارع العمومى ، نتوقف من خطوة لأخرى نسلم على الناس ، الى ان حدث ما لم يكن فى الحسبان واستوقفتنا « نوحاية » امام باب دارها ، حيث كانت تقف بجوارها .. « حميدة » . ما ان رأتنا حتى تأود عودها اللدن فى رشاقة وهمت بالاختباء لكننا أدركناها وهى لما تكد تستدير داخله ، فارتدت عائدة وسلمت علينا ناطقة اسم كل منا على لسانها .. فحللنا وقعه بكل دقة وانتباه ، ومع أنه لم يكن هناك ادنى اختلاف فى صوتها من اسم لآخر ، الا أن كلا منا حاول تعميق ابتسامته بقدر الامكان !

لفت « نوحاية » يدها فى طرحتها ـ حتى لا تنقض وضوءها ـ وسلمت علينا ، فلا ندرى لماذا أسعدتنا هذه اللمسة الى حد النشوة . كأنها قد اعترفت بذكورتنا أمام فينوس . بالطبع أطلنا الوقوف .. ونظرت « نوحاية » الى « حميدة » قائلة بكل جراة : « تتمعشق البنت فى التعليم ! » فهتفنا جميعا بحماس منقطع النظير ان لا بأس ويا حبذا ويا ليت والله تنجح . حينئذ خطت « حميدة » نحونا متجاوزة عتبة الباب كأنما لتعبر عن انتمائها النهائى الينا ، وواجهتنا بقوة غريبة واصرار وثقة . وهنا ابتسمت « نوحاية » وقالت كالمعتذرة ولكن فى لهجة طاغية : « بعد ما شاب ودوه الكتاب .. يا بنت دا أنت سنك أربعتاشر سنة » .. وقالت حميدة : « وايه يعنى .. العلام ملوش دعوة بالسن .. وأنا حاتعلم يعنى حاتعلم حادخل امتحان الابتدائية

من منازلهم ــ طوحنا رءوسنا فى الهواء من النشوة دون اى كلام راحت عروضنا فى المساعدة تتسابق وتتصادم أمام عينيها .. ولم ننصرف الا وقد انتهينا ــ على قارعة الطريق ــ من توزيع المواد على مدرسيها ــ الذين هم نحن ــ وحدد كل منا عدد الحصص التى (سيلتزم) بأدائها كل أسبوع ، على ان يتم هذا ــ طبعا فى الاجازة الصيفية .

ولكن اى اجازة واى صيفية ؟ . صرنا نخالس الزمن لحظات سريعة نتحجج فيها بالسفر الى البلدة ، واكتشفنا بعد قليل ان كلا منا قد بدأ نشاطه فى اعطاء الدروس بالفعل ، رأينا بصمات بعضنا وخطوط بعضنا على كراسات الفتاة ، ورأينا أيضا كتبنا القديمة وما تحويه من دسائس ورقية صغيرة مليئة بعبارات مرعوشة لم تكن هى ــ من أسف مضحك ــ تجيد القراءة لتقرأها ! . على ان شيئا غريبا كان يحكم علاقتنا بها . ذلك هو اطار العلو الاخلاقى المزعوم ، وواقعه ان كل واحد يريد ان يعلو فى نظرها على الآخرين ، ان يكون لها بمثابة الأستاذ الحقيقى، أن يبرز لها شتى مواهبه ويقنعها بأنه (شخصية) قوية و .. مترب . وهكذا فوجئنا بأننا جميعا (شخصيات) قوية ، ونشط التنافس بيننا فى المواجهة والمتابعة والحصول على تقديرات أعلى حتى حالفها النجاح وحالفنا . وكانت تتحول شيئا فشيئا الى ما يشبه الرمز فيما بيننا ، تشبه أن تكون هى الدوافع وهى الحماس وهى الملتقى ، وهى الأمل المشرق الذى يشد خطواتنا نحو الآفاق الجديدة المشرقة .

قد لا يصدق احد أن « حميدة » دخلت امتحان الشهادة الابتدائية من منازلهم فى نفس العام الذى قررت فيه الشروع فى التعليم ، اننى ما زلت غير مصدق حتى الآن ما حدث ،

ولست أدرى بأية قوة خارقة للمألوف حققت هذه الفتاة هذا النجاح فى وقت قصير جدا ، ويكفى اننا ظللنا اربع سنوات نغترب فى المدينة ونكلف أهلنا الجلد والسقط ، سنة بعد أخرى حتى هيىء لنا دخول الشهادة ، فى حين انها ــ فى لعبة مرحة تشبه المزاح ــ دخلت امتحان الشهادة و .. تفوقت علينا ! .. نحن الذين تعهدناها بالدرس والتحصيل فيما تبقى من أوقات مذاكراتنا ، جاورناها فى ارقام الجلوس ولكننا لم نجاورها فى القمة التى بلغتها .. لقد كان ترتيبها الأولى على المنطقة كلها بينما لم يحقق أحد منا درجة أعلى من المتوسط ! ..

شيء كالحواديت ولكن .. هل الحواديت الا تقليدا للحياة ؟ ..

بفستانها الريفى الجميل وحذائها ذى الطراز العتيق والجورب غير الشفاف ، والشال الأحمر ، واللسان الفلاحى الخالص بلا فلحسة أو ادعاء ، كانت تقف بين لفيف من الطلبة والطالبات أولاد الذوات الذين جار عليهم الزمن وجاورهم أمثالنا من الأجلاف الحفاة والانفار وأبناء التجار والحرفيين . كانت تبدو وسطهم كحورية من عصور موغلة فى القدم . فصيحة فطنة مرحة بريئة الى حد يخجلك . كانت (فرجة) بحق : هذه هى البنت الفلاحة التى نشرت الجرائد صورتها .. صحيح .. ويقف الرائح والغادى ويكلمها ويبدى عجبه قبل اعجابه . وكان الحوش هو حوش المدرسة الثانوية التى التحقت بها « حميدة » على أن تسافر كل يوم وحدها .

انا الوحيد من بين المجموعة زاملها سنوات فى المدرسة الثانوية ولكن مشكلة الاقامة وحدى حلت بوجود اقارب لأمى فى الاسكندرية دعونى للاقامة عندهم فكان باب السعد انفتح لى ،

واقرغوا لى حجرة خاصــة بايجار قدره جنيه واحد فى الشهر ، ولقد سعى اقاربى لدى شركة كبريت البنا فالتحقت بها عامل زهورات اثناء الاجازات الصيفية .. فطابت لى الاقامة هنــاك ولم أغادرها الا للتجنيــد بعد حصــولى على الليســانس ، وغابت « حميدة » عن آفــاق حياتى · حجبتها صور جديدة أخذت بلبى وكادت تسلخنى من جلدى .. الا انها ـ « حميدة » ـ كانت تستيقظ فجاة كلما خلوت الى نفسى لحظة . ثم اننى غادرت بحر الاسكندرية الى بحر الحياة العكر . فغرقت فى همومه ولكننى ابدا لم انس « حميــدة » .. اين تراها الآن ؟ .. ماذا حققت .. لو حققت شيئا ذا بال لسمعت على الأقل صــوته . لبلغنى بنفس الصدفة التى حملت الى اخبار الآخرين ، كم انا مشوق الى معرفة اخبارها ! .. ايكون سر الأربعين عاما من العمر هو الذى يحركنا بقلق نحو اخبار الرفاق القدامى ؟ .. هل لنقارن بين نجاحاتنا ؟ أم يكون ذلك الاهتمــام بدافع من الحب الحقيقى لحميدة والاعتراف بقوتها واصالتها ؟ ..

و .. فجــاة .. لطمتنى زوجتى بالكلمــة لطمة افقدتنى صوابى ـ وضعت ساقا على ساق وعقدت ذراعيها على صدرها وقالت كالأم التى امسكت على ابنها شيئا خطيرا : (أمال ايه حكاية حميدة دى) ! هه ! .. نعم ؟ ! .. قالت زوجتى مندهشة اننى تلفظت باسمها اكثر من مرة وكتبته فى بعض أوراقى المبعثرة ، وكنت افــكر فى اختراع شىء أرد به لولا أنهــا صفعتنى بورقــة وردية اللون صعقتنى رؤيتها ، كنت قد حاولت كتابة خطــاب لحميدة منذ بضــع سنوات اسألها فيه عن اخبارها ، ويبدو ان عباراته كانت تحمل اكثر من مجرد الرغبــة فى الأخبار . وكان لابد ان احكى لزوجتى حكايتها بكل صــدق وامانة ، كنت اتصور

ان الأمر قد انتهى عند هـذا الحد ، ولكننى فوجئت بزوجتى ذات لحظة رائقة تقول لى بكل حب وصـدق : « أنا عاوزة أشوف حميـدة دى » . ولكننى لذت بالصـمت فى خجل ، فقـالت : « ما تيجى نسافر البلد ونسأل عنها » . هتفت : « بتتكلمى جد » اقسمت انها جادة فلم أتوان ، تركنا الأولاد فى عهدة حمائى وتسللنا فى اندفـاع صبيانى وركبنـا الى البلد .. نبحث عن « حميدة » .

العربة البيجو « ٥٠٤ » تسف الهواء وتهيله علينـا ترابا وأزيزا ، وتكاد رءوسـنا تطير من النوافذ المفتوحـة ، ولا أحد يقول ـ ولو من باب الرجاء : « ما تقفلوا الشبابيك دى » . وكنت اريد أن اقولها ولكننى احجمت ·· فركوب الأتوبيس القاهرى كل يوم علمنى ان ليس لى دعوى بأى شىء لا يخصنى وحدى ، فلربما تلقيت زجرا يؤدى الى مشاحنة لا لزوم لها · لكن زوجتى تأففت من قوة الريح ونظرت الى ·· فبيد مرتعشـة مترددة رحت أرفع زجاج النافذة المجـاورة لها ، الا أن صوتا عدوانيا خشنا اتى من الكراسى الخلفيـة : ؟ « افتح الشـباك يا استاذ .. روحنـا حتطلع » .

نظرت خلفى فاكتشفت أننا ضمن أسرة كبيرة لا يربطها اى رابط ، حتى العربـة نفسها لم تنجح فى الربط بينهم ، بل على العكس بدا أنها عمقت فرديتهم ، اذ جلس كل منهم مشيحا عن الآخرين بوجهه يتلصص بعينيه كأنه يتوقع عدوانا ، وان تجرأ واحد وفتح حديثا أو قدم سيجارة فان مبادرته تقبل أى نعم وبترحيب شـديد ولكن اللهجة تكشـف عن أرضـية من الحذر والخبث « وأنا صاحبك » .. « ومش على الكلام ده » . فقد

وتر فى الأذهان مفهوم مدنى عصرى هو أن الشخص ان لم يكن فى حاله تماما فهو اما نصاب أو محتال !

انتظرت ان يعضد موقفي ــ من النافذة ــ أحد ، لكن الصوت الخشن ظل قائما فى الأذن بلا اعتراض . فقلت له بتهذيب شديد ان الريح قوية ويجب ان نتقيها والا نسفت رءوسنا .. فاشار الى صدره وانفه اشارة ذات معنى ، فنقلت البصر فيما حوله فلم تلتق نظرتى بطرف واحد ، انصعت الى النافذة صاغرا ورحت أخفض الزجاج قليلا قليلا ثم تركته فى المنتصف .

وكنت اجلس بجوار السائق ، وكان بدوره مستغرقا فى القيادة والتدخين ، والعلبة الروثمان تطل أمامه مفتوحة ، وقلت له :

ــ آخر قطر يروح « الشهداء » يطلع الساعة كام ؟

رد بلسان فلاحى النطق :

ــ معنديش فكرة .

احسست انه صفق الباب فى وجهى ، فاشعلت سيجارة نفثت فى دخانها ما تجمع فوق صدرى من آهات قديمة . ولكنه عاد بعد برهة يقول : « حد يركب القطورات الأيام دى يا بيه ! » . ضحك الذين فى الخلف ضحكة متملقة كأنه أدلى بحكمة عظيمة . قلت وأنا أمسح عرقى :

ــ خلاص ؟ .. الناس كلها ارتقت وبقى عندها عربيات ملاكى !

قال السائق :

ـ وهو مين المجنون اللى يقف يستنى قطر .. القطر ده معمول لناس ما وراهاش شغل !

ـ ازاى بقى ؟ ..

ـ طبعا .. ومالوش دعوة بالساعة خالص .. الساعة دلوقت اسرع منه .. ما هو الزمن لمؤاخذة بيتغير .. أيام القطار كانت الساعة بتساوى ثلاثة أربعة صاغ .. النهاردة بتساوى ثلاثة أربعتلاف جنيه احيانا ويمكن أكثر !!

اندهشت من هذا الدماغ اللامع وقلت لنفسي من حقه أن يشرب الروثمان ، مادام يحسب الوقت بهذه الدقة . عزم على بواحدة فقبلتها ، وقال وهو يشعل لى :

ـ احسن حاجة الشهداء تأخذ تاكسى بالنفر ..

قلت لا بأس ولكنني اريد الذهاب لقرية متاخمة للشهداء اسمها « أبو دعموم » . فنظر نحوى وقد انقلب الى قط وديع مبتسم :

ـ انت حضرتك من أبو دعموم ؟

قلت : نعم .

قال : اهلا وسهلا .. بلد « جمالات المنسى » .

اندهشت ثانية ، صحت : هى « جمالات المنسى من أبو دعموم » ؟

نظر لى بدهشة اكبر : ما تعرفش ولا ايه ؟

قلت بصدق : أبدا والله .

قال ببساطة : تبقى حضرتك مش من هناك .

وقالت زوجتى بتوجس : اتهيالى سمعت الاسم ده أو قريته .

اغتظت من جهلها الفاضح ، قلت : ما تعرفيش « جمالات المنسى » .. كانت عضو مجلس الشعب فى فترة من الفترات .

وقال السائق متشككا : لكن ازاى يا بيه تبقوا بالديات وماتعرفش ؟؟

قلت له : ان صلتى بالبلد ليست دائمة ، واننى منذ توظفت فى المدينة لم اعد ازور القرية الا لماما .

قال بثقة : « حضرتك من دار مين ؟ » . فعرفت أنه فلاح قرارى .

وقلت على الفور : « أنا فلان ابن فلان » . امتدت يمناه نحوى مبسوطة : « أهلا اهلا ٠٠ بقى أنت الأستاذ فلان ٠٠ فرصة سعيدة خالص » سلمت عليه بحرارة . مال بدربة فائقة نحو زوجتى : « أهلا يا مدام » وسلم عليها . قلت له : و « حضرتك مين بقى ؟ » ـ قال انه أسف لاننى لم أعرفه ، رحت أدقق فيه النظر بامعان ، راح هو يبتسم ولا يلتفت ، تعرفت أولا على شعره .. نعم شعره .. فشعره الأحمر الهائش المبروم على هيئة خواتم صغيرة شعر تنفرد به أسرة كبيرة موسرة تسكن قرية صغيرة متاخمة لقريتى ، ثم لهجته ، نطقت على الفور : « انت من عيلة فلان » ٠ اتسعت ابتسامته : « بالضبط ٠٠ وكنا زمايل ـ فى فصل واحدة فى المدرسة بتاع البلد » صحت باسمه : « أهلا شفيق » ..

سلم على مرة اخرى واضعا فى يده كثيرا من عمق الذكريات ومداعباتها الساحرة . ثم اندفع يحكى قصته ، بعد حصول على الابتدائية حزن على التعليم وطفش متفاديا اللوم والتقريع والتهديد ، واشتغل ملاحظا بورشة لاصلاح السيارات بالاسكندرية ، عليه ان يكتب لكل عربة فيشة ، ما نوعها ورقم رخصتها ورقمها فى الوارد وماذا بها للاصلاح وكم على صاحبها ان يدفع عند التسلم ، فاكتشف ان اقل صبى من صبيان الأسطوات يرجع كل يوم بخمسين قرشا على الأقل خلاف أجره الأسبوعى ، اى ان هذا الصبى يحصل على ضعف مرتبه هو الأفندى حامل الابتدائية ، فما بالك بالأسطى ، ثم ما بالك بصاحب الورشة ! .. فما كان منه الا أن خلع القميص النظيف وارتدى العفريتة الزرقاء وقدم نفسه صبيا للأسطى ، وأما الملاحظة فقد دبروا لها مغفلا آخر من شبابنا المغرمين بالمكتب والجريدة وحسن الهندام .. ولم تمض سنوات طويلة حتى أصبح يملك ورشة خاصة به متخصصة فى تصليح الفيات ، وهو الآن يملك محلا لقطع الغيار فى عاصمة المحافظة التى تتبعها ، وفى نفس الوقت يعمل على هذه العربة التى هى ملكه أيضا ، وقد تهيأ له بذلك ان يراعى محل قطع الغيار فى عاصمة المحافظة ، وأن يلحق بحساب الورشة آخر الليل فى القاهرة .

خيل الى اننى اتفرج على اسطورة من أساطير العصر . وسألته :

ـ وتتنزل البلد كثير ؟

قال :

ـ ان شاء الله ناوى أفتح سينما فى أبو دعموم !

ـ سينما ؟ !

ـ تكسب دهب .. البلد حواليها عشرين عزبة وثلاثين كفر .. وكبرت قوى .

ـ من الميكانيكا للسواقة للسينما ؟

ـ القرش يعمل كل حاجة .. معاك قرش تبقى زى ما انت عايز ..

اشرق فى راسى خاطر . هتفت :

ـ اسمع .. ما بتسمعش اخبار عن « حميدة » ؟

ـ مين « حميدة » ؟ ! اول مرة اسمع عنها .

ـ حميدة .. اللى .. اللى .. اللى ربنا اداها سر آدم ..

وابتسمت اذ رددت كلمة العامة كما سمعتها ..

فتفكر قليلا وقال :

ـ الحقيقة ما سمعتش عنها .. اشهر اسم فى البلد هو « جمالات المنسى » .

وقلت لنفسى :

ـ جئنا نبحث عن حميدة فظفرنا بجمالات المنسى ..

وقال السائق :

ـ اسمها « حميدة » ايه ؟

انتبهت فجاة الى اننى لا اذكر اسم ابيها ، ونظرت الى زوجتى كأنها تعرفه ، ثم ابتسمنا معا وأدركنا مدى عبثية الموضوع من

اساسه . وجاءنى احساس بالرغبة فى العودة ، ولكن حبى للذكريات القديمة وطرافة المغامرة ولقائى برفيق الصبا الباكر جدا كل ذلك دفعنى الى مواصلة الرحلة . فجأة قال السائق : « حمد الله على السلامة » . فعرفت أننا وصلنا الى مدينة دسوق . وكان شاطىء النهر والروث والأشرعة والحناطير كل ذلك يقنعنى أننا لم نغادر القاهرة .

رمى السائق يمينا بالطلاق الا يأخذ أجر التوصيلة ، وحينما ابديت اصرارى على الدفع أطبق بيده على النقود دون مقاومة ، ثم قال : « اتفضل معاية » . فمضينا خلفه الى موقف للسيارات قريب واذ بنا أمام ساحة لتبادل الشتائم المقذعة التى هى علامة على الود فيما بينهم ، وكانت هذه الشتائم فى صبانا هى العلامة المميزة على المدنية . توقفنا عند سيارة متهالكة ، فتح سائقنا بابها وقال :

ــ « اتفضل يا بيه » .

فقدمت زوجتى التى ركبت ثم ركبت بجوارها واغلقنا الباب.

وقال سائقنا لسائقها :

ــ « وصل البيه أبو دعموم » . فركب السائق وهو يستدير نحونا متمعنا ليتعرف على أصلنا . ثم انه أدار المحرك وانطلق .

بقينا فى صمت مدة طويلة الى أن تضاءلت خلفنا مدينة دسوق ثم اختفت تماما . وقلت للسائق الشاب : « أسمك ايه يا شاطر ؟ » فقال :

ــ « خدامك صلاح .. وحضرتك » .

فقلت له على اسمى فقال آهــلا وســهلا ولم يبد عليه انه يعرفنى ، ولمــا رأيته يفوض بنا فى طريق لم أفلح فى تذكره أبدا قلت له :

ـ « انت نسيت احنا رايحين فين » ؟ !

قــال :

ـ « أبو دعموم » .

قلت :

ـ « بس الطريق ده مش هوه » .

ـ « ما هو ده الطريق اللى المرحومة عملته » .

ـ مرحومة مين ؟

ـ جمالات المنسى .

ـ هى ماتت ؟ ! « ثم شهقت زوجتى معى ! » .

ـ تعيش انت من ثلاث اربع سنين كده ويمكن خمسة !

ـ ماتت ازاى ؟ !

ـ ماتت فى الطيــارة اللى كانت فيهــا سلوى حجــازى بتاعة التليفزيون .

ـ لا حول الله .

قالت زوجتى متشائمة .. واضاف صلاح :

كانت مسافرة لجوزها مش عارف فى ليبيا ولا فى بيروت .

ـ جوزها مين يا صلاح ؟

ـ أصلها لمؤاخذة كانت متجوزة ولد فلسطيني مركزه كبير ٠

ـ تاجر ولا موظف ؟

ـ لا .. فدائي .. كان زميلها في الجامعة وحبها .. واتجوزته ·· وبقي يسافر يعمل حاجات ويرجع لها ٠

ـ حاجات زي ايه ؟

ـ حاجات فدائية يعني .. ولما ماتت هو راخر مات على طول .. ما استحملش ..

ـ مات ازاي هو راخر ؟

ـ أهم بيقولوا عمل عملية كبيرة مات فيها ٠

ـ عملية ايه ·· خير ؟ !

ـ عملية م اللي بيعملوها الفدائيين ٠

ـ آه ..

وابتسمنا أنا وزوجتي ابتسامة مرة المذاق ، ثم حط علينا صمت عميق ، وكان الطريق الذي شقته المرحومة بجهودها يزرى بأي طريق في أي عاصمة كبرى .. وسألت صلاح كيف شقته فقال انها كانت تقف على كل البلاد المستفيدة من هذا الطريق وتجمع من أهلها النقود ، وكان الرجل الذي لا يدفع أبدا حين يراها يخجل ويدفع لها ما تحدده بلسانها ، وجمعت من الوزارات والهيئات ومن كل مكان له سيارة أو دابة تمشي على الطريق ، وساعدها طلبة المدارس ، حتى هم الآخرون دفعوا مصروفهم الصغير ولفوا معها في كل مكان ·· و ·· « تصور يا سعادة البيه ·· كانت بتلم فلوس للفلسطينيين عشان يشتروا بيها بنادق ·· ووالله والله يا بيه الله يرحمها بقى ، كانت تروح الجامع وتقف تخطب زي الرجالة

بعد الامام ما يخلص ، وتسافر مع العيانين وتجيب لهم عربات على حسابهــا ، وتشترى لهم الدواء ، حقولك حاجــة يابيـــه مش حتصـدقها . . فى مرة ولد تلميذ مات فى حادثة ، واثنين ثلاثة تعوروا لقطر عمــل بهم حادثــة ، وكانوا فى الاعداديــة . . تعــرف . . ما استريحتش الا أما جابت فى البلد مدرسة اعدادية . . اى والله . . الأول جابت فصلين . . وبعدين بقى امتحان الاعدادية يحصــل فى البلد نفسها . . والله يرحمها بقى كانت أجدع من ميت راجل » . .

أخذ دماغى يروح ويجىء ، ويعصر خلاياه بحثا عن أصــل هذه السيدة ، فلست أذكر من بلدتنا شخصا يدعى المنسى ، ولم يكن تعليم الفتيات منتشرا أيام جيلنا . . ثم سألته :

هى المرحومة كانت متعلمة ؟

ـ الا متعلمة . . آخر علام . . كانت متخرجة من الجامعة فى كلية الحقوق . . واشتغلت محامية الأول عند واحد محــامى كبير وبعدين فتحت مكتب فى المركز . . وحياة المصطفى كان شغال ببلاش للى معاه واللى ممعهش ؟ !

عبثا حاولت التعرف عليها ، وحتى صورتها لا أذكر اننى رأيتها فى جريدة أو مجلة ، فلابد ان المرحومة كانت جادة ولم تكن تجد الوقت للدعاية لنفسها .

وقالت زوجتى بلهفة :

ـ انت من البلد يا اسطى ؟ !

ـ طبعــا . .

ـ تعرف « حميدة » ؟

ـ « حميدة » مين .. حميدة ايه ؟

اسرعت قـائلا :

ـ اللى كانت ساكنة جنب محمود البقـال .. ودارهم فى الشارع العمومى .

حدق فى الهواء برهة ثم قال :

ـ بصراحـة انا ما اصحاش للدار دى .. محمود البقـال عارفه لسه موجود ..

ـ والدار اللى جنبه ؟

ـ مفيش دار جنبـه يا بيه .. دى كلها دكاكين ومخـازن وقهوة ..

اطلع الاقيهم ؟ !

واحسست باليأس الشديد ورحت ابحث عن ملامح شاردة من وجوه الذكريات القديمـة . وكنا قد دخلنا فى طريق فرعى تحفه البيوت على الجانبين ، بيوت السرايات . ابدا ليست هذه قريتى ، بدأت اتشكك من جديد ، وخيل الى اننى وقعت ضحية ظروف محتالة اخذتنى فى متاهة كاذبة .. وقلت للسائق : « هل هـذه قرية أبو دعموم ؟ » قال : « ايوه يابيه سـلامة الشـوف » .. اضطررت للنزول ، ووقفت اتأمل علنى أتذكر شيئا غائبا ، ونزل « صلاح » واخذ يشير الى بعض البيوت :

ـ بالامارة ادى المدرسة الاعداديـة اللى عملتها المرحومة .. وادى الجمعية الزراعية اللى هى عملتها برضه .. وادى كابينـة البوستة .. والتليفونات مع بعض .. أمال يابيه آخر أبهة ..

وعلى فكرة .. عواميد النور دى .. اللى واقفة زى الشاهد ، كانت المرحومة هى اللى مجمعاها من الشجر .

قلت على سبيل المزاح :

ــ ولكن اين بيتنا اذن ؟

قال صلاح :

ــ لابد يكون بقى فى البلد القديمة .

هتفت :

ــ ايوه ودينى البلد القديمة .

قال صلاح :

ــ طب مش تقولى كده م الأول يابيه ؟ .. كنا رحنا فى الطريق القديم ؟

ــ صحت :

ــ وهو الطريق ده ما يوصلشى ؟

ــ قال لا . كان لازم يتعمل الطريق ده من هنا عشان يبقى موصل على حتت كثيرة .. انما تقدر يابيه تخرم على القناية دهه تنزلك وسط البلد .

ثم لم نمض أكثر من دقيقة ، بل لعلها جزء من الثانية،وانفتح الدماغ على المرئى ، انت تفكر فى انسان او يمر بذهنك شخص مرا عابرا ، فاذا بك تراه فى التو ، فتقول هاتفا : « يا ليتنى فكرت فى الف جنيه مثلا » . وما حدث اننى وقفت حائرا مكتئبا للحظة احاول فيها تذكر شكل « حميدة » وحجمها ، فاذا بها ــ كالسحر

أو كالخيال أو كالحواديت ـ تمرق أمام عيني خارجة من شـارع صغير . حينئذ صحت كطفل سعيد لقى أمه بعد عذاب .

ـ اهه .. حميـدة .. اهى هناك اهى .. بس خـلاص لقيتها .

ثم اندفعت اجرى خلفها .. ولحقنى صوت زوجتى .

ـ يا راجل يمكن ما تكونش هى .

وناديت بأعلى صـوتى :

ـ حميدة .. يا آنسة حميدة .

فالتفتت خلفها ، فايقنت انها هى ، واشرت اليها ، ولكنهـا لم تتلق اشارتى ، حيث استدارت وتابعت سيرها من جديد ، وكان على ان اندفع جريا لألحق بها . استدرت للسـائق لاهثا أرتجف :

ـ تعرف بيتها يا اسطى ؟

قال ببساطة :

ـ ريح بالك بس دى ما اسمهاش حميدة .

اغتظت ، قلت :

ـ لا يمكن أن تكون غير « حميدة » ..

قال السائق :

ـ يا سعادة البيه دى مش حميدة .. دى انا اعرفها كويس ..

قـلت :

ـ ما هو مش ممكن الشبه يكون قوى للدرجة دى ..

وقالت زوجتى بابتسامة مشفقة :

ـ حميدة اللى انت تعرفها مش ممكن تكون دى .. دى بنت سنها ما يزيدش عن خمستاشر سنة .

واضاف السائق :

ـ يا ريت .. دى بتاع تلتاشر بس هى اللى فايرة .

واستدركت زوجتى :

ـ حميدة اللى انت تعرفها لازم تكون سنها دلوقت على الأقل أربعين ثلاثة واربعين سنة . مش كانت فى سنك ؟

هبط العرق على كل بقعة فى جسدى ، وادركت .. اننى سقطت صريع لوثة غيبت عنى كل تمييز .. ولم تقو ساقاى على حملى فاستدرت الى « رفرف » السيارة ، ولكن الصورة التى رايتها الآن تتطابق تمام المطابقة مع الصورة التى فى راسى ، حتى القوام وتقاطيع الجسد ، حتى الخطوة ، تذكرتها بحذافيرها ، واجزم ان ليس ثمة فرق يذكر بينها وبين « حميدة » .

اقترب منى « صلاح » السائق وبسط ابتسامته فى سماحة وهو يقول :

ـ انت يا سعادة البيه عايزها فى حاجة ؟

قلت له باصرار :

ـ تعرف بيتها ؟

قال :

ـ طبعا .. اعرفها كويس قوى .. مش بنت بلدى ! ..

قلت له وما اسمها ؟

قال : اسمها « مصرية » ..

ثم تريث قليلا قبل ان يصفعنى بالحقيقة التالية :

ـ تعرف دى تبقى مين يا سعادة البيه ؟

قلت بلهفة :

ـ لا .. تبقى مين ؟

قال برعشة فى شفتيه :

ـ تبقى بنت جمالات المنسى :

هتفت ضارعا :

ـ ارجوك .. وصلنى بيتها .

ـ طب اتفضل اركب يا سعادة البيه .. والله لولا المرحومة ..

ولف ثم ركب .. وانطلقت بنا السيارة تخوض فى طريق متعرج ضيق ، وكنت اشفق على السيارة ، وعلينا ، واخاف ان انحرفت عجلة القيادة أقل انحرافة ، لكننى كنت واثقا انها لن تنحرف ، ذلك أن السائق كان متحمسا وواثقا ، اذ كان يفعل ذلك من أجل روح .. المرحومة ..

أخيرا وصلت السيارة ـ بشق الأنفس ـ الى كوبرى صغير أعرفه جيدا . كان على أيامنا عاليا ، أما الآن فلست أعرف ما اذا كانت الأرض هى التى ارتفعت أم انه هو الذى هبط . من قديم كان يقوم فى هذا المكان « سبيل » . بحثت عنه ، بل اننى

احسست بالعطش مثلما كان يحدث دائما كلما مررت بهذا المكان.. لم تكن تنقطع عنه المياه قط . وقد رايت بقاياه قائمـة تشبه بقايا برج صغير اثرى .

قلت للسائق :

ـ هذه هى « ابو دمموم » فعلا .

فقـال : ان سكان البلدة الجديدة يطلقون عليها : البـلدة ثم انه داس فوق البنزين فجـاة فصرنا فى قلب البلد ، وعرفت ان البيت القديم الذى كانت تسكنه « حميدة » قد انتقل ـ لابد ـ من مكانه الذى اعرفه . على ان العربة شقت طريقهـا الى حديقـة النخيل الكبيرة ، رقص قلبى ونحن داخلها ، فقد كان من احـلام طفولتى ان أجوس بين النخيل حتى أصل الى ذلك العمق الساحر لم يكن النخيل الا تمويها يخفى بداخـله قصرا صغيرا من ثلاثـة أدوار ، ورايت العربة تخترق الطريق اليه ، وهى طريق مستقيمة معبدة ومفروشة بظلط ملون . قلت للسائق :

ـ المرحومـة « جمـالات المنسى » كانت تقرب لعزيز باشـا استفانوس ؟

قـال :

ـ لا .. لم تكن تعرفه !

قـلت :

ـ ولكن هذا هو قصره الذى كان بمثابة استراحة يقضى فيها اسابيع وشهورا من كل عام ، وكان يظل ساهرا ومفتوحا سـواء هو موجود او غير موجود ، لأن طائفة الخـدم والتملية يسهرون بدورهم على هذا احتيالا لقدوم الباشا فى اى وقت .. وحين تركت

قريتى وســافرت الى المدينة نهائيا كان وضع الباشوات والبكوات قد تحدد ثم انقرض

قال صلاح السائق فيما تتهادى العربة :

ـ ده بقى سكن المرحومة !

تبادلت النظر مع زوجتى ، كان اعتراضا قد دفعنا لذلك ، كان هذا لا يتناسب مع الشخصية التى فى ذهننا . وكانت ابواب القصر وشبابيكه قد راحت تتفتح وتطل من خلالها رءوس ، ثم ما لبثت الرءوس ان صارت بشرا يقتربون من السيارة يحــاولون النظر الينا فى تدقيق ، يحاولون التعرف فى ملامحنــا على أقــارب لهم أو اصهار . فلما توقفت السيارة نزل السائق فنزلنا معه ، وتقدم نحو عتبة السلم الأمامى قائلا : سلام عليكم ، فهبط رجل اشيب الشعر يتوكأ على عصــا من الأبنوس ، وقرب أذنه من صلاح فيما ينظر نحونا باستغراب وتوجس ، وننظر نحن اليه بفضــول وتمعن . قال صلاح بصوت عال :

ـ الجماعة دول عايزين الآنسة « مصرية » .

قال ذو الشعر الأشيب والكلمات تصفر فى فمه :

ـ مصرية مين ؟

لحطت علينا خيبة أمل ثقيلة . . وقال صلاح :

ـ بنت المرحومة . . « جمالات المننى » .

صاح ذو الشعر الأشيب وهو ينقر الأرض بسن العصا :

ـ أ . . ه . . وه . . مش بيتها يا أبنى .

ـ هى مش كانت ساكنة هنا ؟

ذى مش هى يا ابنى .. منهم لله البعدا .. لا حول الله ..

ثم راح يمصمص بشفتيه ، والعيون المتلصصة من النوافذ تختفى لتظهر من جديد فى اماكن اخرى . والعجوز يواصل :

ـ دى كانت واخده اوضه فوق هى وامها .. وكانت بتخش لها من السلم الورانى .. اما البيت فكان واخده الاتحاد الاشتراكى الف رحمة تنزل عليه !

كانت نبرة التشفى واضحة وبعمق فى صوته ، ثم انه استدار غير عابىء بنا وصعد الدرجات وارتمى فوق كنبة من الخيزران ومدد ساقيه على ترابيزة من الخيزران أيضا .. واحسست اننى اريد ان ابصق فى وجهه مائة عام على الأقل ! ..

وقال صلاح بآخر ذرة فيه من ادب :

ـ امال حضرتك تبقى مين ؟

ضرب الأرض بعصاه فى قوة . صاح ورذاذ فمه يتطاير نحونا :

ـ انا صاحب البيت ده .. خلاص انفكت عنه الحراسة .. جمالات المنسى دى كان زمان وجبر .. دوروا عليها هناك .. مطرح ما كانت فى اصلها القديم ! ..

ـ مصمص له يرجع لأصله !

نظرنا نحو مصدر الصوت ، فاذا بها عجوز كركوبة بيضاء الشعر كأنه باروكة من التيل . ورغم أن العدوان كان واضحا تمام الوضوح فى وجهها وفى تشنج اطرافها الا انها قالت بلهجة مهذبة .. كأنما لتريبنا جوهر اصلها :

ـ شــوف يا ابنى .. احنــا ما نعرفش حاجــة من المنسى بتاعتك دى .

احنا خدنــا حكم بالطرد .. وخدنــا البيت .. عايزين مننا ايه تانى ؟ ..

كفاية محرومين من بيتنا عشرين سنة .. واولادنا ســكنوا بالأجرة زيهم زى أى واحد .. حلوا عننا بقى .. البيت أهــه زى ما انتوا شايفين مليان من فوق لتحت .. فيه الفاميليا كلها .. واحنا ما صدقنا ـ وعمرنا ما حنفرط فيه تانى .. خلاص .. لو كنا نعرف من الأول ان الحكاية هزار بايخ كده ماكنــاش سكتنا الوقت ده كله !

اشفقت على السيدة رغم كل شيء . تبادلت الابتســام مع زوجتى . هزأ منها صــلاح بحاجبيه وشفتيه فأضحكنى .. وقلت لها بكل أدب :

ـ يا ستى احنا ضيوف من القاهرة .. وبندور على واحدة قريبتنا .. بدال ما تقول لنا اتفضــلوا قهوة .. ع العموم احنا متشكرين .. يلا بينا يا أسطى ..

خرج شاب من الباب حلو المظهر جميل التقاطيع . نصفــه ابن ذوات قديم ونصفه شقى ، لكن شقاوته هى الملمح البارز والحلو فى طلعته . كان يمسك فى يده مجلة « الشبكة » . ويمســك باليد الأخرى جهاز تسجيل تتصــاعد منه الأغنيات الأجنبية الراقصة . قال : « فيه ايه ؟ » . قال ذو الشعر الأشيب : « سيبك منهم يادوحة أنا عارفهم كويس .. شربت منهم كثير وطعمهم مرر ريقى وعلقم صدري » وقالت المرأة العجوز : « مفيش حاجة يا ممدوح ..

دول ناس بيســألوا عن بيت المنسي » • تقدم « ممدوح » الينا باســما :

ــ تعالوا اوريكم بيتها .

كدت احتضنه . انصعت وراءه ، تذكرت السيارة فرجوت صلاح ان يبقى . فربما فشلنا فيعود بنا . لكن « ممدوح » قــال لى : « متخافش فيه عربات كثيرة .. سيبه يشــوف شغله .. مع الســلامة انت يا اسطى » . فعدت الى صلاح واعطيته حسابه وشكرته واعطيته ايضا عنوانى فى القــاهرة . ومضيت مع زوجتى خلف ممدوح ، وكنت اعجب من ارتفاع صوت التسجيل وارى انه يصنع فضيحة كبرى فى الشــوارع ويلم النــاس علينــا ، لكننى خشيت ان اقول له : « وطى الصــوت شــوية » . ولم يكن يثير دهشتى ــ سوى رؤيتى لبعض الذين اكتشفهم فجاة واكاد انطق بأسمائهم رغم عوامل الزمن الواضحة عليهم وكيف انهم يتوقفون ناظرين الينا فى فضــول دون أن يتعرفوا علينا . وهمست زوجتى فى اذنى :

ــ بعد الفضيحة دى كلها مفكرناش حنقول لها ايه ولا احنا عايزين ايه ؟ ! فغمزتها فى يدها قائلا :

ــ مش مهم .. أمشى بس .

تباطأ ممدوح وتقهقر حتى حاذانا ، فعرفت ان البيت قــد اقترب ، الا أنه ــ ممدوح ــ توقف أمامها .. المدرسة .. مدرسة البلد الالزامية التى تعلمنــا فيها فك الخط . التحمت عينــاى بالجدران وصارت تتحسسها بقعة بقعة ، وتعلق بنظراتى بصمات كثيرة ليدى : خربشات يدى والأحبار التى مسحتها فيها ، كلمات سوقية كتبتها على جدرانها . تحت هــذا الشباك بالتحديد زنقتنى

الحاجة ذات مرة فاقعيت وقضيتها دون حرج ، ونالتنى بسببها علقة بالفلقة : كانت المدرسة كابية وغارقة فى الرطوبة ، وزحفت مبانيها فشغلت الحوش الكبير الواسع . صاح ممدوح بلهجة نصف بندرية :

ـ يا عم عيد .. يا عيد !

انفتح باب ملاصق لجدار المدرسة ، يصنع مع جدار يتوازى مع جدار المدرسة حارة سد ، أطل منه وجه عجوز تجاوز السبعين من العمر : عم عيد ! .. كيف .. فراش المدرسة الذى كان يسقينا ان عطشنا ، ويرافقنا الى دورة المياه ، ويوزع علينا الكتب ، ووجبة الغداء الممنوحة لنا من الوزارة ، ويرفع أقدامنا بالفلقة لتنال حظها من بوصة المعلم .. هو هو ذا عم عيد بلحمه ودمه : هناك أشياء تبقى دائما فى هذه الحياة لتجسد القديم وتحيى الماضى الذى لا يموت . نفس الوجه ، نفس البسمة المحملة بالألم الغامض ، ويده التى لا تنى تهش الذباب حتى لو لم يكن هناك ذباب . نظر الينا بدهشة كبيرة ، قال :

ـ أهلا سى ممدوح .. اتفضلوا .

توقف « ممدوح » برهة كأنما ليعلن عن رغبتنا الحقيقية فى التفضل فغاب « عم عيد » فى الداخل برهة طويلة ثم عاد ففتح الباب هذه المرة على وسعه ، فطالعتنا باحة مستطيلة مفروشة بالحصير الملون المزخرف بزخارف اسلامية ، وثمة مساند بحذاء الحائط ، وطبلية قديمة ، وعدة شاى متناثرة ، وبلاص مائل وسط فجوة رطبة ، وطشت وابريق ، وثمة كومة من اللحم البشرى تتقرفص فى ركن بعيد لباب قاعة جوانية فى المواجهة .

تنحنح « ممدوح » قائلا : يا ساتر .. ثم خطا الى الداخل فتبعناه على استحياء ، وسلمنا على « عم عيد » . ولم أشأ ان

اذكره بنفسى فى التو . كان ينظر الى بالحاح وتدقيق .. فما أن خلعنا أحذيتنا وتربعنا فوق الحصير حتى جلب الوابور وراح يعطيه نفسا . ثم ان البراد تربع فوق النار ، وألقمه « عم عيد » حفنة من الشاى ثم نظر الينا قائلا : « انتو شرفتوا » .

قالت زوجتى :

ـ ما تعرفش الأستاذ ده يا عم عيد ؟

واشارت الى ، فانتهز الفرصة وركز البصر فى وجهى وقد انبسط وجهه حتى صار كطفل صغير ، قال : « شكله مش غريب على » .. ثم كشر حاجبيه فجأة وصاح : « شبه دار فلان مش كده » . صاحت زوجتى : « برافو » .

هتف عم عيد : « تبقى انت فلان .. اهلا بيك » .. انتشيت راقبت وجه ممدوح فرأيته قد انتشى هو الآخر كأنما وقف على حقيقتنا واستراح من التخمين . ثم راح ينظر الينا نظرات ذات معنى قال لعم عيد :

ـ أصلهم كانوا جايين يسألوا على المرحومة .

حينئذ جاء صوتها قويا هادرا حكيما :

ـ لسه فيه حد بيهمه أمرها .. ويسأل عليها .. الحمد لله .. أنا كنت عارفة ومتأكدة انها لازم تفضل عايشة .. وربنا عمره ما خيب لى أمل .

عرفتها من صوتها .. وكانت الدموع فى عينى قد شطرت المرئيات كلها الى نصفين ، وكان وجه « عم عيد » قد انزرد واحمر واكتسى بحزن جليل بلغ حد الابتسام العظيم .. كانت رأسى تدور

وندور وندور ، وكل شيء أمامى يدور بسرعة فائقة . قال : « عم عيد » :

ـ ما توحد الله يا استاذ .. احنا كنا نسينا ..

عرفت اننى كنت أبكى .. وكنت ابكى بحرقة شديدة ، وكنت احس أن قوة فى الأرض بالغة ما بلغت من الجبروت لاتستطيع ان توقفنى عن البكاء الجارف . وقال « عم عيد » كأنه يزكى فى نفسه الاحساس بالحزن :

ـ دى كانت حلم ، يا سعادة البيه .. كانت لحظة واتخطفت.

وقال ممدوح كأنما ليدافع عن عشيرته :

ـ كل اللى خدمتهم فى حياتنا عضوا ايدها .. يعنى النمس ده مثلا .. ما كانش قادر يعمل حاجة لبنتها ؟ .. الحاج نمس مش فاكر يا عم عيد يوم ما شغلته مخزنجى فى الجمعية التعاونية؟.. شوف كان بيجرى وراها ازاى ؟ .. وفى الانتخابات كان ماشى وراها زى الخدام ..

ـ عشان مصلحته ..

ـ طبعا .. كان بيكسب من وراها .. دلوقت بسم الله ما شاء الله عنده عمارتين فى المبانى الجديدة ..

ـ هنياله .. اللى يكوش ربنا يسهل له بس يشبع !

وقال « ممدوح » بحقد شديد :

ـ النمس ده .. ايام ما كانت المرحومة مشغولة بمصالح البلد والناس .. كان هو مشغول بالتكريش .. وصلت ثروته الى انه يشترى عمارة المركز .. ويكتبها باسم مراته .. ويخدع المرحومة وياخد منها خلو رجل عشان يديها شقة فى العمارة

تعملها مكتب .. والمرحومة من طيبتها ما تعرفش ان العمارة بتاعة مراته يعنى بتاعته !

ــ ياريتها جات على حد كده ! ..

هكذا قال « عم عيد » مشوحا . ثم اضاف :

ــ بمجرد المرحومة ما ماتت خد عفش المكتب وفاء بالايجار المتأخر !

أحسست أن فى دمى أشياء تأكلنى وتقرض أعصابى .. ثم قال عم عيد :

ــ المرحومة ما كانتش موظفة .. ما سابتش لليتيمة اى حاجة ..

والمصيبة السودة .. البنت كانت فى مدرسة بالمصاريف .. رفدوها ..

ودخلناها مدرسة البلد الاعدادية .. قالت ملهاش مكان .. ولحد النهاردة مش لاقيين لها مكان !

هتفت :

ــ هى فين الآنسة « مصرية » .. عايز أشوفها .

لاحظت الفرحة قد أشرقت على وجه ممدوح ، وتحفز . ولكن « عم عيد » شوح بما يشبه الغمز :

ــ مش هنا .. راحت مشوار وجاية .. اظنها بتملى ميه من الحنفية العداد .

ثم اتجه الى « ممدوح » فجأة ؟ ..

ـ اهلا سى « ممدوح » .. كيف الحال ؟ ..

وكانت فى لهجته نبرة واضحة تقول له « قوم بقى روح ، ومن الواضح ان ممدوحا قد احسها ، فما ان شرب الشاى ـ الدور الثانى ـ حتى قام وسلم علينا ثم انصرف ، فحل بالمكان سكون خرافى ، بعدها مباشرة صاح « عم عيد » :

ـ تعالى يا مصرية !

فنظرت اليه ، فتلقف نظرتى وأجاب عنها :

ـ المؤاخذة .. حاكم الولد ممدوح ده حاطط نقره من نقر البنت .. داير عليها يعنى .. مش عشان يتجوزها .. لا .. زى ما تقول يعنى عايز يلعب معاها أو يلعب عليها . المهم انه عايز يلعب وبس !

فكرهت « ممدوح » بعد أن كنت احببته . واستدار « عم عيد » :

ـ بس البنت بتصده .. ومابتعبروش خالص .

ثم ان « مصرية » أقبلت .. اقصد « حميدة » .. نفس الخدود المستديرة الحمراء من فرط الخجل ، يطل منها نبل وذكاء لامعين متوهجين ، ونفس الابتسامة الواثقة البريئة المعبرة عن الانبهار وحب الرؤية . سلمت علينا ولثمت يدها هى ، كأنها تلثم أثار ايدينا . ثم جلست فى مواجهتنا ، وقلت لزوجتى :

ـ هذه هى « حميدة » .. حميدة التى كنت وسأظل أعرفها .

فانكسرت الاشراقة الطبيعية فى وجه « مصرية » .

وجاء صوت العجوز :

ـ لسه فاكر يا قلب أمك .. ياه .. حميدة ..

وابتسم « عم عيد » :

ـ دا انت يابيه تعرف المرحومة من زمان قوى !

ـ طبعا .. مش كنا زملاء وأصدقاء ؟ ..

ـ ما هو باين أهه .. بدليل انك بتقول عليها « حميدة » ..

ـ الله .. هى ما كانش اسمها حميدة ؟ ..

ـ حميدة كان اسمها اللى احنا طلعناه عليها من يوم ما تولدت .. لأنها كانت شبه خالتها .. الست بتاعتى الله يرحمها .. لكن اباها قيدها باسم تانى .

بقى حميدة .. كان لها اسم تانى فى شهادة الميلاد ؟ ..

ـ أمال .. كان اسمها جمالات .. جمالات عبد العزيز المنسى ! ..

أحسست اننى اهبط فى جب عميق مظلم غاية الاظلام . أحسست أن حياتنا كلها من أولها الى آخرها تنشأ وتؤوب الى هذا الجب ، وان كل الاشراقات والتمنيات والأحلام ان هى الا اطلالة سريعة خاطفة تطل خلالها رءوسنا من حافة هذا الجب ثم سرعان ما تغطس فيه من جديد .. ان هو الا عفن فى عفن فى عفن .. آه لو يستطيع الانسان أن يتحرك الآن ، أن يفعل شيئا ، ان يحتضن هذه الوثيقة المشرئبة المتحفزة ، أن لو بامكانه أن يهيىء لها مناخا ، آه لو .. آه لو .. ولكن .. كيف .

ـ مش ناوى تسلم على الحاجة ؟ ..

انتشلنى صوت « عم عيد » :

ـ ياريت ؟ ! ..

ثم نهضت واقفا ، وتقدمنى « عم عيد » الى القاعة الجوانية ، مخزن للظلام الكالح العطن ، رائحة الرماد تنبعث من فرن فى مدخل الباب ، تحسست الظلام حتى لمست يدا معروقة لكنها قوية ومتينة من فرط ما عملت وناضلت .

ـ ازيك يا حاجة ؟

ـ ازيك يا ضنايا أهلا وسهلا ..

ووسعت بجانبها مكانا على المصطبة الكبيرة المحتلة كل فراغ القاعة . جلست على الحافة ..

ـ هل تعرفينى يا خالة نوحاية ؟ ..

ابتسمت . تبينت فى ابتسامتها كثيرا من دماء « حميدة ».. و « مصرية » ، فأحببتها حبا شديدا مدت يدها ولمست على رأسى وكتفى ، استكنت تحت يدها كأنها سترقينى ..

ـ أنا فلان .. ابن فلان ..

ـ كنت بتذاكر مع المرحومة ..

ـ البقية فى حياتك ..

ـ البقية فى « مصرية » ..

ـ ربنا يأخذ بيدها ..

ـ هو لن يتركها .. هو لا يكذب .. هو لا يرضى .. هو لا يغفل ..

ـ الم تترك المرحومة شيئا «للمصرية » على الاطلاق !

ـ نجت المرحومة من الطوفان .. غرق الكل ونجت هي .. فذهبت بكل طهر ... وهي لم تمت .. جسدها الطـاهر ستظل تسفعه الشمس حتى تعجز عن فنائه فتجعله لؤلؤة كبيرة تضيء حياتنـا ..

ـ شيء مفزع والله يا خالة .. أن تواجه البنت حياتهـا بلا سـلاح ..

ـ كدب .. البنت هي الأخرى نجت من الطوفان ..

ـ كيف ؟ ..

ـ لا تملك شيئا .. لا تسرق شـيئا .. لا تتـاجر في حرام .. لا تفرط في شرف ..

هي الأخرى نجت من الطوفان .. الكل غارق .. في كل شيء .. غارق في أي شيء .. غارق في السيارة .. غارق في ثيابه .. غارق في تكوينه .. غارق في أكل السحت .. غارق ومن لم يحصل على كسب من هذا الزمان هو الناجي من الطوفان .

ثم بسطت يدها أمامي لاوية شفتيها في تهكم حكيم . لحظتها أحسست بأنني انتصب واقفا لأواجه الحياة من جديد وبكل نزق الشباب المنصرم .

مغامرات الأمير في البر المصرى

لاتضحكوا يا صحاب ، فأنا قد عشت تجربة الامارة . سمعتم طبعـا بها وضحكتم حتى تعبتم فيما علمت ، أثناء انغمـارى فى الامـارة كانت تبلغنى أخبـاركم وسهراتكم وموجز لآخر الأنبـاء المسائية ، وكنت أشتاق للمناكفة والتعليقات الواجبة لولا أننى كنت أمر بأحلى وأمر تجربة فى حياتى : تجربة الامارة ..

ولست أمانع فى ان احكيها لكم بكل حذافيرها ، اذا وعدتمونى بعدم تهييف ما أحكى ، أعنى بالاغراق فى الضحك .. انا معكم فى أنها مضحـكة حتى النخـاع ، لكنكم يجب أن تكونـوا معى فى أنها ـ أيضا ـ مبكية حتى النخاع ! ..

وأنا لم أدخل تجربة الامارة دفعة واحدة ، انما سبقتهـا ارهاصات « ثورية » كانت تطرأ على كلمـا نزلت الى أرض مصر الخصيبة . أتعرفون لمـاذا هى خصيبة ؟ .. أقول لكم ان بنت النيل عند الفيضـان تفيض بلا حساب ، مثلما تتسرب ميـاه النيل دافقـة الى أماكن بعيدة غريبة ، فتصبح ترعا وأخاديد وقنوات وبساتين من العدم ، وتصنع أيضا مستنقعات كثيرة ، ذلك ان الأرض غير مستوية كلها ولابد أن تحتجز المـاء اما فى

بقعة هابطــة بطبعها وأما بين عدد من الصخور والنتوءات الجبلية البارزة .. وهى لا تفرق بين غريب وقريب ، ولا بين اصــيل ودخيل ، فهل يختار ماء النيل مهاده ؟ وهل يمنع نفسه عن أى بقعة بمزاجه ؟ ذلك أن مزاجه كان سلسبيلا وعمليــة الاندفــاق الى ابعد المدى هى مزاجه ..

كنت قد ادخرت من مصروفى اليومى مبلغــا امســكت عن انفاقه فى مدن الجزيرة ، ونزلت به سائحا الى أرض الكنانة وفى مقدورى أن أعيش أسبوعا واحداً على الأكثر عيشــة فوق الكفاف بدرجات قليلة ، غير اننى ويا لهول ما اكتشفت ، عشت بهــذا المبلغ البسيط شهرا كاملا انفقت فيه ببذخ وعن ســعة ، وكنت اتساءل : هل يمكن أن تكون رخيصة الى هــذا الحد ؟ أقصــد أن تكون هكذا بأقل التكاليف ؟ انت هنــاك لا تبحث عن شىء مطلقا ، فكل شىء يجىء لحد عندك ويعرض نفسه عليك ســلعا مدعومة من الحــكومة . طوائف من الحاجيات تقبل عليك ملباة بطوائف من البشر مستعدين للتفانى فى خدمتك . ولهذا فقد احسســت بعد برهــة قصيرة ان الناس ها هنا يؤمروننى ، فأنا الذى أرتهب من رؤية الأمير واقيم له الف حساب ، أنا الذى لم تكن الامارة من دائرة طموحاتى بل كانت فوق مستوى خيالى ، وجدتنى فجاة اتقلد الامارة وبأرخص التكاليف .. فأدركت أن الامارة هــذه مسألة غير مكلفة على الاطلاق بل هى ســهلة وميسورة اذا ما وجد انسان مثلى فى ارض الكنانة فى زمن كهــذا الزمن .. حسن ســأقول لكم الحكاية وبالتفصــيل . أرجوكم لا تتعجلوننى بملامحكم ، وهأنذا اقســم لكم بكل المقدســات اننى لا أبالغ ولا أتجــاوز الواقع قيد انملة ، فهل تروننى أدلس على نفسى ؟ . انتم تعلمون أننى مكافح .. اخــذت الحيــاة بالذراع

نزلتها حمالا فى الميناء وتاجرت فى مياه البحر فلما تكون لى قرش كانت قوافل المصريين واليمنيين والفلسطينيين والباكستانيين والهنود قد أخذت تزحف علينا طالبة من يستخدمها لقاء أجر يستطعمون به الحياة لكنهم من غفلتهم ومن شراقى الحرمان يشترون به كاسيتات ، اجهزة لا لزوم لها على الاطلاق • أكون غبيا اذا تركت هذه الأيدى تضيع منى هباء •• افتتحت متجرا واشتريت توكيلا للسيارات وأقمت ورشة كبيرة ، واشتريت قرضا بفائدة مضاعفة ، كما اشتريت تشكيلة هائلة من أولئك البشر ما بين مهندس ومحاسب ومساعد وخفير ، أطلقتهم كلهم فى ساحتى وجلست اتابع حصاد الآلة الحاسبة •• وفى الواقع انه لشىء مبهج حقا أن تصبح صاحب عمل وتحت امرتك من يعملون عنك .. فأنا اذن لى مع الامارة تاريخ نبع من ها هنا ومن ها هنا ـ اى اننى احمل بعض الأصالة والا ما نجحت فى تجربة الامارة ..

اقول اننى قد مكثت فى القاهرة شهرا بطوله اتمتع بلقب سمو الأمير ، ويزول عنى الحرج شيئا فشيئا حتى صرت أضيق اذا نسى احدهم ذكر هذا اللقب ، ينحنى لى السعاة والبوابون والسفرجية والأفندية كل على طريقته وباغداق حتى أصبحت أفهم كثيرا فى معنى الانحناء وفى مختلف صوره وأشكاله ، أستطيع أن أؤلف كتابا فى صورة الانحناء ولا تنفد مدخراتى فى الصور التى عشتها . وفى البداية كنت أعطى لكل من ينحنى أجرا ، لكننى سرعان ما تنبهت الى أن الانحناء قائم بدفع مجهول الهوية ، فكان ثمة قوة مجهولة تدفع الأجر نيابة عنك ، وما عليك الا ان تقابل هذا كله كأنه شىء طبيعى بالنسبة لك . فلما قارب الشهر على الانتهاء وأوشكت نقودى على النفاد قدر لى

أن أكتشف جوا ساحرا وعالما غنيا يشبه الجنة بل لعله كان نوعا من الجنة بدليل انه على مشارف الأفق يتاخمها جحيم . طاب لى البقاء ولكن السفر المحتم انتزعنى من سحر التجربة قسرا ، فظل الحنين يدخر نفسه ويدخر لنفسه شهورا ثم سنوات حتى رجعت الى القاهرة الرجعة الكبرى ..

خلال الأيام الأولى التقطنى ثلاثة شبان من ساحة الفندق الكبير لا اعرف كيف ، لكننى فوجئت فى لحظة بهيجة اننى محاصر بهم فى الاستراحة الكبيرة ، واننا نتبادل الحديث كأصدقاء قدامى ، والواقع انهم هم الذين كانوا يتحدثون وكنت أنا استمع كالمتفرج الذى تتلى عليه هذه الأشياء بغية امتاعه ، فأعلق أو أضحك أو اشمئز أو اطلب لهم بعض المشروبات . كانوا يتحدثون فى كل شىء واى شىء ، فما عدت قادرا على تمييز الحكاية من الخبر من النكتة من المأساة ، غير ان شعورا مجسدا كان ينتابنى أحيانا فأحس كما لو اننى مطالب بالنظر فى شئون الرعية ! ثم ان منظرهم صار مألوفا لدى وصرت أقبل عليهم مثلما يقبلون على . فسرعان ما نلتحم فى جلسة فى مكان ما . وقد أدعى أحدهم انه صحفى ومحرر سياسى كبير ، وادعى الثانى انه منتج سينمائى ، وادعى الثالث انه صاحب شركة للسيارات ، وهذا الأخير هو الذى جعلنى أؤكد انهم جميعا يدعون .. رغم أن المنتج السينمائى وجه الدعوة باسمى الى عدد من النجوم الشبان ، فلبوا الدعوة شاكرين وسهروا ليلة على حسابى ، وعرضوا أمامى (نمرا) مختلفة من ملاعيبهم التمثيلية المتقنة .. ورغم أن صاحب الشركة المزعومة زودنى بمعلومات هائلة عن أنواع السيارات وطرائق استخدامها وكيفية تسويقها .. كل هذا قد حدث ولكننى أحس بادعائهم ربما لأنهم نجحوا فى تقليدى الامارة وأنا لست منها فى شىء .. فكنت أحس كأنهم يلبسوننى ثوب الامارة ليمرقوا تحت

رأيتى من كل حساب .. فانزعج لبرهة ويزول الانزعاج بظهور تفاهة التكلفة .. مع ذلك أسلمت قيادى لهم وقد قررت أن أعيش الامارة بحق وحقيق ، فما دام هنــاك من يصرون على تأميرى فلأكن أميرا ، ادفع الفتات وأحصــد النواة ، وعلى هذا خرجت من الصفقة رابحا ، لقد استخدمتهم دون أن يشعروا ، ظنوا انهم يستقطعوننى وانا فى الواقع استفيد من ورائهم باعتبــارهم منافذ بارزة ، باعتبارهم على الأقل حاشية تصنع الأبهــة لى حتى ابيع واتعاقد مع عملاء يحضرون لحد عندى بواسطتهم هم وبتشجيعهم واذكاء حماســــهم .. وهــكذا صرفت فى رحــلتى السياحية الأولى مبلغا تافها وعدت الى متجرى بأرباح ضاعفت راس مالى . المــدهش يا أصحــاب اننى تعــلمت منهــم كيف استخدمهم ، فقد ردد الصحافى المزعوم أمامى ـ من بين ما ردد ـ كلمة علقت بذهنى واضاءته ، حيث قال : يقول الحكيم لا ادرى من ان الأمم تقاد باستثارة شهواتهم أسهل مما تقــاد بالاهتمــام بمرافقها .. فتنبهت الى اننى كلما تنازلت عن بعض الهدايا اللامعة تكاثف الطابور من ورائى ووضع نفسه تحت امرتى .

لبيت دعــوة لحضــور فرح ، العروس ابنــة أخت خبير السيارات والعريس مهندس زراعى حديث التخرج ، وكنت أعلم أن العروس تبغى هدية محترمة وان العريس يبغى عقد عمل كما رجحت ، ومع ذلك لم أتراجع ، فاما عقد العمل فيمكن الوعد به واما الهدية فان ثمنها مهما أرتفع لن يوازى حجم بهجتى بحضور حفل زفاف مصرى ، وباعتبارى الأمير فسوف أكون نجم الحفل .

كنت قد استأجرت بواسطة خبير السيارات عربة فارهــة بعشرة جنيهــات فى اليوم انتقل بها . فلما نزلت الى الجــراج لأطلع بها تبين لى أن الفرح ليس فى المدينة ، وأن اكثر من عربــة

فارهة تنتظرنى لتقلنى الى حيث يوجد الفرح . جلست فى الكرسى الخلفى وحدى تكريما لى ، وجلس الصحفى بجوار السائق الذى هو خبير السيارات ، وتبعتنا عربات أخرى راحت تثير الفضائح على متن الطريق وهامشه صياحا وتزميرا وطبلا وزغاريد كأنهم يشهدون الكون كله على ان ثمة لحظة فرح تتحقق الآن ! ..

انسحبت المدينة وراءنا وراح سرادق الأضواء يلفظنا الى درب فى الظلام مظلل بأضواء القمر ، مضمخ برائحة الأرض الخضراء النيلية . وكانت الضجة النزقة ما تزال تبلغنا من السيارات الخلفية التى تداعبنا فتقتحمنا فجأة ثم تتجاوزنا ثم نتجاوزها مرة أخرى ، ورائحة العطور النفاذة تنبعث رائحة غادية فتثير النشوة فى عروقى . ثم أخذنا ندخل فى سرادقات ضوئية جديدة فنخترقها فاذا هى مدينة سرعان ما تلفظنا من جديد الى الدرب المظلل بضوء القمر .. فعرفت أن الفرح مقام فى قرية صغيرة فى منطقة بعيدة .. وأحسست كم هى واسعة وشاسعة ارض الكنانة .

بعد ساعات امتزجنا فيها بالليل الاهبل الهايف التحقنا بليل آخر اميل الى الرصانة والعمق ، خرج هذا الليل لاستقبالنا فى منتصف الطريق الى القرية الغائصة فى سفح جبلى كحصن مكين ، واخذت العربات تهبط فى طريق مرصوف نحو مدخل بدا أنه مدخل حديقة ظلت العربات تجتازه لفترة طويلة وعناقيد الضوء الكهربى الملون تصنع تاجا من الدر والياقوت ، فعرفت اننى المعنى بشكل التاج هذا ، وانه حركة موجهة الى وحدى . وكنت أرى على الجانبين حظائر من السلك والخشب وخلايا نحل أنيقة ، وبحيرات صغيرة واحواضا مزروعة ، وأشجارا وحدائق

وابراج حمام فى الخلفية البعيدة تنحشر بين شرفات عالية ، وسمعت نقنقة دجاج وخوار ابقار وهديل الحمام وثغاء ماعز .. فأدركت اننى فى مزرعة كبيرة . فلما تجاوزنا هذه المدينة السحرية الصغيرة ونحن لم نزل على نفس الممر طالعنا الهدوء من جديد شاملا وموسيقيا . ثم انحرفت العربة قليلا واستقرت تحت تعريشة انيقة قائمة على عمدان من الحديد المصقول .

ثم نزلنا واصوات أبواب السيارات وهى تنغلق خلفنا تصنع صوتا خفيفا كأنه أزناد البنادق ، وكانت شرفة القصر عريضة عملاقة دائرية تزدان حافتها بأفرع الضوء ، وتنسكب منها وجوه ساطعة تنطلق منها عيون تتزاحم وتتقافز وتجوس بيننا باحثة مدققة مشرئبة ، فادركت انها تبحث عنى ، ثم انها استقرت جميعا على حينما تراجع الركب كله امام الدرج وقدمنى ، فمضيت أجرجر أطراف (الدشداشة) مطوحا يمناى فى وقار كأننى اصعد الشرفة الأخطب فى رعيتى ، وما ان صافحت قدمى آخر الدرج حتى انبعث تصفيق حاد مرح تطايرت خلاله الزغاريد فأيقظت أسرابا من العصافير وسابقتها فى الرفرفة بنشوة حيرى . من خجلى صرت أبحث عن العريس الحقيقى الذى كان قد انزوى فى آخر الركب مهملا يتفرج بانبهار .

سرحت يدى وجالت بين كتل من الأيدى على مختلف انواعها مسلمة مستشعرة الحرارة الساخنة ، وكان لابد لسمو الأمير الذى تنازل وشرفهم بالحضور أن يقول كلمة بهذه المناسبة . ولم يكن ينقص طقوس الامارة الرسمية فى هذا الحفل الكبير سوى كاميرات التليفزيون ، وفيما عدا ذلك فقد حاصرتنى أجهزة التسجيل والتصوير ، وجاءت العروس وسلمت على وقدمت لي طاقية من الصوف ومنديلا من الحرير ، لم ار فى حياتى

مثيلا لأناقتها ، فأعطيتها بدورى علبة مجوهرات مفتوحة يطل منها خاتم سواتير ، هدية صغيرة لكنهـا تليق بأمير ، ورغم أننى كنت استكثره فى البداية لكن علو مستوى الحفل المضيف قلل من قيمته فى نظرى ، ثم جاء اللقاء وما أغرقنى به من حب فصـار الخاتم فى نظرى بلا قيمة .. فطلبت رؤية العريس.. فجىء به الى يتعثر فى الزحـام والخجل ، وسلم على بحرارة ، فخلعت من يدى خاتما كبيرا وقدمته له ، فهاجت المشاعر من جديد هياجا دافقـا بالحماس والعاطفة البدائية المتوحشة ، وحينئذ تقدم منى رجل يربو على الخمسين من العمر ولكنـه متين البنيـان رشيق الحركة ممتلىء بالنشاط والبهجة ، وأحسست انه صاحب هذا البيت ، اذ احاط كتفى بذراعه ودفعنى برفق الى الداخل ..

صرت فوق بساط على ارض من الخشب خـلال ساحـة واسـعة تطل عليهـا أبواب وتشكيلات ديكورية وتمتلىء بالألوان المزدانة بتحف وعناقيد ذات عراقة فى الأبهة . فى المواجهة سـلم خشبى عريض ذو درابزين مخروط . اذن لى الرجل بالصعود فتقدمت صـاعدا فاذا بى فى مستطيلة مفروشة كلها بارقى الأثاث وفاخر البسط ، من السقف تتجلى قطع النجف كغابة من السحر الشفاف . جلست فى صدر المكان وجلس الرجل بجوارى ، ثم توارى الجالسون زرافات ووحدانا حتى امتلأت القاعة وتلألأت الابتسامات المشرقة على الوجوه . ومدت الينا اكواب الشربات على صـوان من الفضـة الخالصـة ، وتلكأ أمامى السـفرجى بطربوشه وقطنيته ذات الحزام ، وأمطرنى بالتحيات والدعوات ، فعبثت يدى المرتعشة فى جيبى وانتزعت ورقـة ماليـة جديدة أطبقتها ، وقبل ان أدسها فى حزام السفرجى اختلست نظرة اليها

فتبينت انها من فئة العشرين جنيها فشكني دبوس الغضب شكة صغيرة سرعان ما نسيت المهـا فى نظرة الانبهار والتقدير والاكبار التى انتشرت على الوجوه ولست أعرف كيف تسرب خبر هـذه الورقة فى الحـال الى اقصى القاعة رغم اننى حاولت كتمانه بحركة يدى السريعة .

مال الرجل نحوى براسـه وقال مبتسما :

ـ سرقت منى الأضواء يا سمو الأمير هذه الليلة . ابتسمت بدورى وان كنت لم افهم على التحديد مقصده ـ غير اننى فوجئت بالصحافى وقد بزغ فى المقعد المجـاور لى مباشرة ، وكأن حـركة تنقلات سريعـة قـد حدثت فى لمح البصر ليجىء هو بجـانبى . وامتطت رقبته نحوى مشيرا بيده الى الرجل .

ـ الأستاذ فتح الله العوضى .. من كبار السياسيين القدامى وعضو مجلس الشعب .

ورغم اننى لم أكن قد سمعت فى حياتى بشىء عن العوضى الا اننى هززت راسى فى حمـاس كأننى اعرفه جيدا . وقلت :

ـ طبعا اخى .. طبعا .. نار على علم .

فانبرى الأستاذ العوضى وراح يحكى لى مغامراته مع الملك ومع جمال عبد الناصر ، وكيف انه ـ الوحيد ـ الذى قال لا ، وأدان بذلك عصر عبد الناصر فى مذبحة القضـاء ، وقال أيضـا انه من كبار الوفديين وانه قد آن الأوان ليسترد الوفد قاعدته الشعبية العريضـة ويوقظ ماضـيه السـياسى الحـافل .. فجاءنى احسـاس حاد بأن هـذا الصحافى لابد أن يقوم من جوارى، واخذت أدبر لازاحتـه ، وأدبر ايضا لاصطياد هـذا المحـامى الكبير لعله يصبح واحدا من عملائى ولعلنى بقليل من الحيلة أصبح

شريكا له فى هـذه المزرعة الكبيرة الحافلة . لكن الحفل لم يعط فرصة لذلك . فسرعان ما دعى سـمو الأمير ـ الذى هو انا ـ لتناول العشاء . وكان عشاء يليق بسمو الأمير حقا . مائدة طويلة عليها صنوف الذبائح والوان الأطباق والزجاجات وكان الأستاذ العوضى قد تفرغ تقريبـا لمراقبتى واثارة شهيتى للطعام . وقد سرب فى حديثه عبارات سريعة مقتضبة فهمت منها ، أنه خـال العروسين اى أن الولد يتزوج أبنة خالته ، كما فهمت أيضـا أن لديه بعض المشروعات التجارية والصناعية الكبيرة .. فبيت النيـة عليه ولم أعلق بشىء .

ثم اقتيد سمو الأمير ـ الذى هو أنا ـ الى القاعة من جديد .. وجلسنا ندخن وقد اقتحمتنا أصوات آلات موسيقية خافتة مقبلة من الشمال الشرقى .. ثم طلب منى أن أتقدم لتحية الفرقة الموسيقية ، فسرت خلف الأستاذ العوضى حتى خلصنا الى شرفـة فى الشمال الشرقى تناثرت بهـا كراسى من الخيزران تطل على مساحة شاسعة مسورة بجدار من الأسمنت تظلله الأشجار ، اقيم عليها صـوان غير مسقوف ، وفى المواجهة مسرح ارتفعت فوقـه الفرقة الموسيقية ، وامام المسرح عشرات الصفوف من الكراسى جلس عليها عشرات المدعوين . فما ان ظهرت فى الشرفة ورفعت يدى بالتحية حتى انضبطت الفرقة فى الحال وعزفت السلام تحية لى ، ثم انعطفت الى أنغام راقصـة مبهجة يقودها الأكورديون . وخرجت من الكواليس راقصـة يتلألأ فستانها بالترتر وينجـاب عن ساقيها ، كانت كأنها تواصـل رقصـا بدأته خلف الكواليس من مدة طويلة ثم قفز وراءها شـاب انيق جدا مفروق الشـعر محزق الثياب ذو صوت رخيم راح يداعبها بألحان راقصـة ، ثم هدأ فجـأة وغنى موالا ركز فيه على جملة تقول : « املا كلامى

تحية والمسا وأجب .. على ناس أمارة وكمل يفهموا الواجب » :
فما ان اتمها حتى قفز على المسرح رجال راحوا يتسابقون فى اللهج باسمى فوق المسرح شاهرين اوراقا مالية كبيرة ، والولد المطرب يلهث ويعيد على مسمعى اطنانا من عبارات التبجيل والتعظيم حتى اشفقت عليه ورثيت لهم جميعا . وكان لابد لى ان اظهر بما يليق بسمو الأمير : فمددت يدى فى جيبى ورحت أعبث بالورق متمنيا ان تصطدم يدى بورقة صغيرة بعض الشيء ، ولكن حركة يدى بقدرة قادر وصلت الى المسرح .. فاذا بالراقصة تهبط عن المسرح وخلفها الطبال والمزاهرى ، تجوس بين المدعوين مقبلة نحو الشرفة الى أن اختفت فى ظلها ثم حودت ثم فوجئت بها صاعدة من سلم خارجى ومقبلة نحوى ، فاوسعوا لها رحبة صغيرة فزحفت عليها وأدت فاصلا من الرقص اطار لبى ، وأسال عرقى ، فدفعت اليها بورقة أخرى من فئة العشرين جنيها ، فألصقتها بجبهتها واستانفت السير عائدة الى المسرح فلما وصلت شرعت الورقة امام المطرب وراحت تستدر هتافه باسمى ما يزيد على نصف ساعة .

استغرقتنى مظاهر البذخ حتى احسست بالسأم يتسرب الى .. الا اننى فى لحظة الشعور بالسأم رأيتها ، اقصد رأيت عينيها السوداوين تبعثان نحوى اشعة من لهب مضيء ، عينان واسعتان تطلان من فتحة باب الشرفة ، فيهما طموح ورغبة فى الارتفاع وتمن . رغما عنى صرت أختلس اليهما النظر ، فلما ظهرت امامى تبين لى انها طفلة فى الثالثة عشر من عمرها ، غلامية الوجه والقوام ترتدى فستانا متواضعا يكشف عن قدرة الله العظيمة فيما يفرينا بولوج النار . كانت تمشى الى آخر الشرفة وتبعث بصرها الى السور المعرش وتمط رقبتها وتتكلم ، فدققت فرأيت

وجوها كالحـة تطل من فتحة فى تعريشة السور ، ثم يتبين لى أن جدار السور المعرش لم يكن ســورا ، بل كان كتلا من الأجســاد والوجوه التى وقفت تتفرج يابســة خائفــة من الطرد ان هى عبرت عن فرحها مع الأفندية ـ وخيل الى اننى نزلت فى عصر وليس من مكان ، واننا فى عصر ما قبل ثورة يوليو المصريــة . ثم ان الفتاة الغلامية ذات العيون السوداء الواســعة أقبلت من جديد فسحبت عنقى وراءها حتى اختفت .. وفوجئت بالصحافى يهبط على وبأنفاســه تطوف حول اذنى هامسة باننى لا يجب ان آخذ كلام المنتج السينمائى على محمل الجد ، فقلت له : اى كلام ؟ . قال : اى كلام ! . فانصرفت عنه الى الرقصــة . وبعد برهة فوجئت بالمنتج السينمائى يجلس أمامى ويميل هامســا باننى يجب أن احترس من خبـير الســيارات والا اغتر بهــذه المظاهر !. فانصرفت عنه أيضا فتسلل خارجا . وان هى الا برهة حتى أقبل خبير السيارات فحيانى بكأس وهمس لى اننى يجب ان أكون على حذر من الصحافى ولا اصرح امامه بشىء ، فأحسست بمغص فى بطنى ، وعرفت لـماذا يمكن ان يصبح رجلا مثلى اميرا فى مصر ، بل وحاكما ان اراد .

ثم جاء الأستاذ العوضى ودعانى الى جلسة هادئة نتكلم فيها. فقمت واتجهت الى حيث أشار لى . دخلت بابا موشى بالستاير الحمراء .. فوجدت نفسى ـ انا والفتاة الغلاميــة ذات العيون السود ـ فى غرفة واحدة !

وقفت مسمرا . كانت تنظر الى فى شىء من الانبهار . دققت النظر فى انسانى عينيها ، احسست انه ليس انبهارا بل هو نوع من الاستهانة أو الاستخفاف . داخلتنى نشــوة طاغية من هاتين العينين اللتين تستخفان بى وتتحديانى اذ همــا من حيث لا تدرى

تثيرأن فى الرغبة فى قهرها . تقدمت منى حاملة طستا وابريقـا من النحاس ..

ـ تبغى الوضــوء ! .. لدينا مياه فى الحنفيات ولكن ربما احببت الوضوء فى مكانك ها هنا ..

ـ الوضــوء !!

وكتمت ضحكة كانت حرية بأن تكشف عن سوقيتى ، وبدا اننى متورط وظهر فى عينى الفتـاة ذكاء شارخ . كان من الواضح انها موقنة باننى لا اصلى ، لدرجة أنها همت بالخروج . آلمنى ذلك . قلت لها :

ـ « تعالى يا بنت » .

فنظرت الى مرتاعة وقد تحولت عيناها الى ثقبين منفتحين على الجحيم :

ـ « بنت ؟ .. يعنى ايه بنت ؟ » .

ثم وضــعت الطســت فى الأرض بهـدوء كأنهــا تستـعد للعراك معى :

ـ « فاكرنى شغالة ؟ » .

فضحكت انا كما ضحكت هى ، واحسست بســعادة غامرة لا اعرف لها سببا . وكان من الواضح اننى نسيت مسألة الوضوء هذه ، حتى أن طقوسها وحركاتهـا البسيطة بدت لى مشـكلة كبـيرة ..

قالت الفتاة ببراءة :

ـ الناس عندنا يتصورون أن كلّ الأمراء يؤدون الفرض بفرضـه !

وفهمت من نبرة صوتها عكس المعنى الذى تقول . مع ذلك قلت نعم هـذا حق . وعدت فقلت نعم نعم وهل هنـاك شـك فى ذلك . ثم اخذت اشمر اكمامى ، ورحت أتوضـأ . فى هذه اللحظة دخل الأستاذ العوضى حاملا سجادة الصلاة . حاولت ايجاد مدخل لتملق الفتاة . قلت للأستاذ العوضى بينما انا أتوضـأ ، ابنتك هذه يا عوضى بيك ؟ .. فصفعنى من الفتاة رد لم أكن اتوقعه ، قالت مع ابتسامة متحدية :

ـ الناس عند الوضوء تقول أشياء أخرى .. أم أن سـمو الأمير نسى ما يقال عند الوضوء !

لحظتها ميزت بين مياه الوضوء وبين عرقى ..

ضحك الأستاذ العوضى وقال ببساطة :

ـ لا ينزعج سمو الأمير من لمـاضة لمياء .. فهى لطيفة وكلنا نحبهـا .

انهيت الوضوء كيفما اتفق ، وقلت :

ـ بالعكس أنا سعيد جدا بلمياء ..

وفى لمح البصر كانت لميـاء قـد حملت الطسـت والابريق وانصرفت وارتفع داخلى صوت قوى يقول : « ليس الحجـاب بالنسبة للفتاة أن نغلق عليها باب الحريم ونلفها فى الثياب من أخمص قدميها الى رأسها .. انما الحجاب الحق تصنعه الفتـاة بنفسها حتى ولو كانت عارية » .

وأيقنت فى الحال أن لمياء قد افتتحت من نفسى منطقة مجهولة فقلت للعوضى بيك :

ـ ابنتك ؟

قال انها مثل ابنته واكثر ، فهى فى الواقع ابنة سائق سيارته ، وانها فى الاعدادية ، وان أباها الأسطى « ابراهيم الغرابلى » ينتمى الى أسرة العوضى بيك منذ سنوات طويلة انتماء يتوارثه أبا عن جد ؟ . .

ثم افترش السجادة واشار لى قائلا :

ـ تفضل . . أقم الصلاة يا سمو الأمير . .

فاقمت الصلاة . . واصر على أن يقدمنى للامامة . فامتدرت بشدة ، لا لشىء الا لكونى غير صالح لهذه المهمة ، فانا بالكاد استطيع تأدية الصلاة كأى مسلم عادى اما ان اكون اماما فهذا ما لم يكن يخطر لى ببال . وقلت للعوضى بيك ان فارق السن بيننا يحتم أن يتقدم هو ليؤم الصلاة ، ولكنه أصر . . فلم أجد بدا من الموافقة ولم اكن متوترا فى حياتى مثلما كنت فى تلك اللحظة ، حيث أخاف أن أخطىء فى الصلاة فيكون منظرى غير سار ابدا . وما شغلنى فى الدنيا خوف مثل شغلى بختام الصلاة ، فهى التى ستكشف جهلى ، ولكن العوضى بيك تكفل بها وحده بصوت عال وخيرا ما فعل اذ اننى اضعت همساتى فى صوته . تلقيت لثمة يده بلثمة من يدى استأنفتها على شفتى . ثم نهض فنهضت معه . وقدمنى الى الباب . فخرجت . استقبلتنى الباحة المباحة فأغرتنى بالتجوال دونما حرج ، وكنت قد تشربت الامارة على التمام فحق لى أن أتصرف كما يحلو لى فالبيت بيتى وان لم يكن بيتى ، والحفل حفلى وان لم يكن حفلى ، والأهل

ليس فقط اهلى او عشيرتى بل هم تحت امارتى ، لحق بى العوضى بيك وتقــدمنى الى ممر كأنه فى سفينة عائمــة ، وعرجنــا الى « قمرة » أنيقة اين منها قمرة « الربان العظيم » ، قال وهو يدفع بابهــا انهــا حجرة مكتبــه ، حيث يكون قــد انتهى من لقــاء « الجماهير » وفرغ من دوشتهم ، صحيح أن هنــاك من يضطلع بمهمة الاستقبال وتصريف الحــاضرين الى الخارج بأى شكل ، وان زبدة المواضــع تنصله ملخصــة فى ورقة صغيرة ، وربمــا جملتين على الشفاة ، وربما هزة راس على سبيل الاستهانة .. صحيح كل هــذا ولكن حتى هذه الزبدة تقتضى منه شغلا لا ينبغى أن يجور على شغله الخــاص ، فهو صاحب مزرعة كبيرة كمــا أرى ، ولديه مكتب للاستيراد والتصــدير ، ومعرض للسيارات وبضعــة ارتــال من العجــلات ترتع على الطريق بين القــاهرة وبورســعيد .

احاطت نظرتى بكل شىء فى الحجرة ـ القمرة .. فقــاعة شرقية بكل معنى الكلمــة شلت من الجلد المزخرف وصوان من الفضة اللامعة عليها أطبــاق وقوارير . ودواليب من الأرابســك مجوزة وصلبة وتريد أن تتــكلم معك ـ على الشلتة المستطيلة جلست متكئا على شلتة أخرى عالية ، وجلس العوضى بيك فى مواجهتى ، وكان الضــوء العليل المنبعث من فتحة فى خشب السقف ينعكس على صلعته الأنيقة ، ويضفى على ملامح وجهــه ظلالا من الرقى ، والهيبة ، حتى صوته الرصين يتمازج بلســانه الفصيح المتين . فكأنه واحد من العرب القدامى جدا جدا . واحد من البطون البعيدة لا يستطيع عصر كعصرنا الهزيل أن يبتلعــه ؛ فيبتلعه هو . دهمنى احساس قوى بأننى مجرد ســمكة صغيرة غشيمة تتخبط بين أمواجه العاتية . مع ذلك كنت سعيدا وفرحا

فرحة المدى البعيد ، فرحة الاحساس بالخطر الداهم الذى من فرط خطورته صار امنا ، فبان تتخبط بى الأمواج هائجة مائجة فلست الا كيانا جزئيا أقل ما يمكن أن يكون من مستوى النظر .

قال العوضى بيك وهو يشعل لى سيجارتى بولاعته الذهبية :

ـ مرحب سمو الأمير .

دهمتنى ولاعته الذهبية وانا الأمير استخدم ولاعة كحيانة . وقررت أن أتشبث بالامارة الى اعلى درجة ، خوفا من السقوط المحقق باستمرار المحاولة مع العوضى بيك . وقد الهمنى الله عادة من عادات الامارة الأصلية ، ان يجلس الأمير فى وقار كبير ويستمع فحسب ، وليس مطلوبا منه أن يناقش او يجادل ، انه اما أن يامر او ينهى أو يقر ، وأى مخلوق أمامه . . أيا كانت شخصيته ومهما كانت قيمته ـ فهو مشمول بامارتى . وهكذا تربعت فى مطرحى وتركت العوضى بيك يتحدث ، حديثا ممتعا فى الواقع ، ومغريا بالاستماع ، بل أنه بالنسبة لى كان مثل الدينمو يشحن راسى ووجدانى بمعلومات عالية المقام وأذواق فى السلوك رفيعة المستوى ، ولكن آه من خطورته ، آه لو تحدث المعجزة ونتآلف معا فى لحظة تفاهم يعترف فيها بأمارتى ولو كانت زائفة ، حينئذ نصير أصدقاء لا يقوى الزمن على التفريق بيننا ، فقط يعفينى من اثبات امارتى ، يعفينى من اثبات النسب ، وفى نفس الوقت يعاملنى باعتبارى أميرا ، اننى لا أطلب منه سوى أن يحتفظ لى بما للأمراء من حقوق وواجبات ، والخوف كل الخوف ان يعرف حقيقتى واننى مجرد صاحب متجر للسيارات نصف راسماله كمبيالات وشيكات تمر بدورات مرسومة بدقة ، اننى اذن اتحول فى نظره الى صبى من صبيانه ويكون هو المعلم الذى يجنى كل الفائدة ، انه طاقة كبيرة وأنا لا يجوز أن أحصل

من ورائها على الفتات .. انني لست صاحب عمل يستخدم أمثاله من المصريين فحسب بل انا أمير ، والوضع الطبيعى أن اكون انا صاحب العمل ؛ والعوضى بيك ترسا من تروسه ، ماذا لو فاتحته فى الأمر ، حسن انا باعتبارى اميرا من حقى أن اتجرأ وافاتح اى مخلوق فى اى امر بكل حرية ، يمكننى مثلا ان اقول للعوضى بيك بجلالة قدره : « لك وظيفة عندى » .. الأفضل ان أقول له : « ايه رايك لو انا جيت استفيد بخبرة سيادتك » .. لا .. الأمراء لا يقولون هكذا .. انهم يأمرون بلهجة مهذبة كل على قدر مقامه ..

ـ كنت اقول لو أن العوضى بيك .. لا سمح الله يعنى .. اقصد اننى .. اكون سعيدا لو أن العوضى بيك تفضل وقبل مشكورا أن يكون .. يكون .. مديرا كبيرا لأعمالى .

عينا العوضى بيك مثل خرزتين كبيرتين مسمرتين فى ثقبين فى وجهه لم اقو على مواجهة البريق المنبعث منهما ، اشعلت سيجارة وانا أتوقع أن العوضى بيك يدبر لى ردا حارقا رادعا يعلمنى به الأدب جزاء هذه اللعثمة واللجاجة التى تفوهت بها . لكنى فوجئت بأن العوضى بيك يبتسم بعمق حيث تكرمش وجهه واختفت عيناه تماما من وجهه حتى كأن لم يكن لهما وجود من قبل ، انتهزت فرصة غيابهما واستطردت :

ـ قلت ايه يا عوضى بيك ؟

فجأة انفرج وجهه وانفتح الثقبان فاطلت الخرزتان وراحتا تتماوجان . ثم انه وضع ساقا على ساق وقال باحترام شديد :

ـ انا خدامك يا سمو الأمير .. انت تأمر ..

كدت انتفض صائحا من الفرح :

ـ اذن فانت موافق !

ـ نعم لمــاذا لا ولكن ..

اهتز قلبي فكانت اهتزازاته هي التي قاطعت العوضي بيك فصمت ناظرا الى بجانب عينه نظرة ذات معنى ..

ـ ولكن ..

وصمت انا الآخر منتظرا .

ـ ايستطيع سمو الأمير أن يدفع راتبي ؟

غــاص قلبي في الأرض . قــال صـــوت في داخــلي : « لا والف لا » . وقال صوت على لساني :

ـ ان سيادتكم لا تقدرون بمال .. ولكن .. ما تأمرون به كراتب لن يسعني الا الموافقة .

ابتســم مرة اخرى ابتسامة عجوز ناضجــة بكل نظرته الحقيقية لي ، ابتسـامة أحسست انها وزنتني وقدرتني على الدقة والتحديد ، ولم يكن ينقصها الا النطق قائلة : « أنت كذاب » . لكنها لفرط حكمتها نطقت بقول آخر :

ـ الواقع يا سمو الأمير راتبي الحقيقي لا يستطيع اى عمــل في الدنيا ان يفي به سوى اعمالي أنا الخاصة .

فضلت أن اعتقل لساني خوف النزول الى خيبة أخرى ، واكتفيت بهز رأسي علامة التأييد لكلامه ..

ـ ولكن ..

ثم صمت ، وقالت ابتسامته « ولكن مرة أخرى » .

فقلت : أهيــه ..

ــ اذا كان لســمو الأمــير أن يستفيــد من خبراتى ومن مشروعاتى فالأجدى له ان يفعل مثلمــا نفعل نحن الفــلاحين ها هنا .. وهو منتهى الحكمة .

قلت له متلهفــا :

ــ وما الذى تصنعونه ؟ ..

قال وهو يترك السيجارة ليشعل البايب :

ــ هناك ناس على شاكلتنا من الفلاحين لا يشتغلون بالفلاحة ولديهم اموال يريدون لها النمو الخصيب .. فيقوم الواحد منا بشراء عدد من الأبقار والجاموس ويوزعها على بعض الفلاحين .. انت فلاح ولديك حظيرة وحقل وشغلتك الفلاحة .. فلأشــترى لك بقرة أو جاموسة أو ما تحتمله قدرتك على الرعاية .. ثم تتكفل أنت أيها الفلاح بالتربيــة والرعاية ، وما تدره الأبقــار من لبن أو تلده من عجول يكون ربحا تستحق ثلثه .. وهكذا ترى نفسك فى ظرف ربيع أو ربيعين قد تضاعفت حظــائرك . وهذه انجح وسيلة لمضاعفة رأس المــال ونموه بسرعة ، فهو مشروع لا يكلفك أى مشــاغل ادارية أو مشــاكل عماليــة أو مفاجآت ضرائبيــة .

قلت له بغاية الفرح :

ــ تريدنى أن أفعل ذلك ؟ ..

قــال :

ـ لا .. اذا كان سمو الأمير يريد أن يستثمر بعض ماله فعليه ان يسلمه لى . وانا التزم بتسليمه نسبة مئوية تصل الى الخمسين فى المائة فى كل عام ! .. خالص الضرائب .. لأننى سأقيم مزرعة معفاة من الضرائب خمس سنوات .

قلت له اننى موافق وما عليه الا أن يعطينى مهلة قصيرة أتدبر فيها الأمر بقليل من الروية ، وقلت له أيضا ان أموالى على كثرتها تعتبر قليلة بحكم قلة خبرتى فى التجارة ، فليس من عادة الأمراء التجارة . وهنا نظر الى العوضي بيك نظرة عرتنى من ثيابى ، مع انه قال « أى نعم .. الامارة خلاف التجارة » . ثم لذت بالصمت من جديد وعاد هو يتحدث عن تاريخ العرب ، ابتداء من معنى كلمة عرب ، حتى ما يسمى بأزمة الشرق الأوسط . وكان يجرنى جرا الى أن اتحدث عن عائلتى ، وأن أذكر له نسبى كاملا ، وكنت أهرب منه بفتح موضوع جديد . لكنه بلباقة شديدة قدم لى « أجندة » مكتبة قائلا :

ـ اذا تفضلت فاكتب عنوان سموك هنا لكى أتصل بك عند اللزوم .. أم ان فى هذا ازعاجا لسمو الأمير ؟ ..

عندئذ انشرخ السكون واقتحمتنى ضجة الفرج من الساحة الخلفية ، ورغم أنها لم تنقطع الا اننى كنت قد نسيتها . وكانت « الأجندة » قد انتقلت الى يدى ، التى راحت ترتعد .. وكنت أفكر : هل اكتب اسمى الحقيقى أم أزيف اسما يتصل نسبه بنسب الأمراء الحقيقيين ؟ ان الرجل الجالس أمامى يكاد يعرف أسماء العائلات العربية فردا فردا ، وأى ادعاء جديد أمام مثل هذا الرجل أمر غير مضمون العواقب ، مع ذلك تذكرت اننى أمير ويجب ان أسلك سلوك الأمير ، فنحيت « الأجندة » جانبا فى هدوء واشعلت سيجارة وقلت له اننى سأعطيه بطاقة فيها كل

ما يريد . وهنا تدخلت العناية الالهية وانقذتنى من ورطتى ، اذ طرق الباب فصاح العوضى بيك : ادخل .

فدخلت « لميــاء » حاملة صينية عليها بعض أصناف الفاكهة النادرة ، وحينما انحنت لتقدمها أمامى خيل الى ان الأرض تميل كلها معهــا ، ثم استقام عود الفتــاة من جديد فأخذت أبحث عن عينيها الى أن التقطتهما فوجدت اننى احب أن أراها على الدوام ، صحيح اننى متزوج وعندى أولاد ، ولكن لا بأس من رفيقة مصرية، هناك رجــال من بلادنــا يتزوجون من مصريات ، فالزواج من المصرية ربما كان أسهل زواج فى الدنيا ، ذلك انها لا تحب الا أن تعيش مستورة فحســب ، أما انا فلست احبذ هــذه العادة ، فما كان الحصــول عليه ميسورا بدون قيود أو التزامات فمن الخطل وضــع الانسان نفسه فى القيود والالتزامات ، ان المصرية فى هذه الآونة غيرها فى أزمنة سابقة ، فى المــاضى كان الزواج منها رقيا وتمدينا ، الآن اختلف الأمر واصبح الزواج منها تفضلا ، ذلك انهن كثيرات ، ومن ثم بلا ثمن ، وواحدة كهذه بالنســبة لواحد مثلى تعتبر نزولا ، فأنا ان لم اكن اميرا حقيقيا فاننى — بالنسبة لها على الأقل — امير وأى امير ، ثم انها ابنة الأســطى « ابراهيم الفرابلى » ، والأمر ببســاطة يمكن أن يتم عن طريق السيطرة على أبيها .. ماذا يعطيه العوضى بيك راتبــا شهريا ؟ .. لأعطه أنا أضعاف أضعاف ، اعطيه ما يماثل مرتب العوضى بيك نفسه ، يمكننى ايضــا أن استدعى « لمياء » للعمــل فى متجرى بمرتب يجعلها تنبذ التعليم وتنصرف عنه .. أننى مستعد للتنازل عن كل شىء الا عن رغبتى فى امتلاك هــذه الفتاة وقهر ذكائهــا و «لمــاضتها » ..

اختفت « لمياء » وطرق الباب مرة اخرى قبل أن استجيب

لدعوة العوضى بيك فى تذوق الفاكهــة . دخــل المنتج السينمائى يتلصص على حذر ، ثم استأذن فسمح له بالجلوس ، وقــال بلا مناسبة انه يبحث عن الصحافى . وان هى الا برهــة وجيزة حتى دخل الصحافى دون استئذان وصــاح فى غوغائية بصــوت مهووس « انت فين يا جدع » ، فنظر العوضى بيك اليهما بنظرة ذات معنى لم افهمه . ودون استئذان أيضــا مد الصحافى يده وراح يتذوق الفاكهة بنهم ، ثم نظر الى المنتج السينمائى وقــال بلا مناسبة :

ــ بالمناسبة عملت ايه فى الفكرة اللى اقترحناها سوا ؟
فانبسط وجه المنتج السينمائى ونظر الى العوضى بيك :

ــ التكاليف كثيرة .. ولابد من ممول أو شريك .

فقال الصحافى :

ــ ما راى سمو الأمير ؟ :

قلت : فى ماذا ؟

قال بأن هناك مشروعا لانتاج قصة العوضى بيك فى فيــلم سينمائى ، أو حلقات تليفزيونية ، وهى قصــة كفاح عظيمــة ، ونضال سياسى مرير ، يكفى أنه الوحيد الذى قال : لا ..

استسخفت الفكرة من أساسها ، مع ذلك داخلنى شــعور بالبهجة لمجرد اكتشاف لوجود المنتج السينمائى فى هذه اللحظة ، فبحماس شديد اخذت أبدى اعجــابى بالفكرة ، وباستعدادى للمساهمة فى انتاجها ، ذلك اننى أحسست أن المنتج السينمائى بهذه الفكرة ، يمكن أن يكون مدخــلا الى « لميــاء » . فأردفت قائلا له :

ـ أصبحت انافسك فى اكتشاف الوجوه الجديدة .. واليوم اكتشفت نجمة يمكن أن تلعب دورا فى قصة حياة العوضى بيك .

وجموا جميعا . ونظروا الى بعضهم البعض ، وتساءلوا : من هى ؟ . فقلت دون حرج وببساطة جادة :

ـ لمياء .. التى كانت هنا منذ لحظة .

فهتف المنتج السينمائى فى فرح :

ـ انا مستعد .

وهتف الصحافى :

ونظر الى قائلا فى حزم :

ـ ويمكن أن تعمل على اشهارها منذ الآن وامتعض العوضى بيك !

ـ لا .. دعك من لمياء هذه .. انها لن توافق .. وان وافقت فأنا شخصيا لا اوافق !

ـ لماذا تقف أمام مستقبلها ؟

هكذا قلت . فرد قائلا :

ـ انا الذى يعرف مستقبلها .. ولا داعى لمناقشة هذا الأمر .

فاحسست نحوه بكراهية شديدة . واستيقظ فى اعماقى شعور جارف بالتحدى .

اقترب لغط منغوم صحبه هياج مفاجىء ما لبث أن راح يخفت شيئا فشيئا ، وعرفت أن الحفل قد حصل أخيرا على خصوصية ؛ وأن المدعوين قد انصرفوا وعادت العروس الى داخل البيت ليقوم أهل البيت بأداء دورهم فى التعبير عن فرحهم بطريقتهم الخاصة ، استأذن العوضى بيك وخرج ليشرف على تنظيمهم فى الباحة . ثم دخل خبير السيارات متهالكا متهدل الثياب . وقال لى : ان نصف عمرى سيفوتنى اذا لم أقم واتفرج على الحفل الحقيقى الذى بدأ . رحبت على الفور خوفا من عودة العوضى بيك ، ونهضت مستعدا ، فاقتادنى خبير السيارات الى الباحة وخلفنا الصحاق والمنتج السينمائى .

كانت آلة « الأكورديون » قد توهجت واخذت تجود بأحلى ما فى جوفها من انغام راقصة . والطبلة والرق يصاحبانها لتنضم اليهما « السلامية » ثم « الأرغول » .. وكانوا يشكلون دائرة واسعة ، وكانت هى ـ لمياء ـ بلحمها وشحمها ، قد تحولت الى غصن بان يتراقص رقصا لم اشاهد مثله فى حياتى ، كانت تملؤنى بهجة واصرارا ، وتشد الزغاريد من الحناجر شدا .

أنتم تعرفون اننى لست مراهقا ، وأؤكد لكم أن لمياء فى تلك اللحظة لم تكن تثير فى شعورا بالمراهقة ، بل لم تكن توحى بأى خلاعة ، انما كانت برقصها تعبر عن فرح حقيقى ، حتى اننى فى وقفتى ـ لولا ان تذكرت اننى أمير ـ كدت أهبط الى الدائرة وأرافقها فى كل حركة .

ولقد بت ليلتى مفعما بكثير من المشاعر الجديدة على ، ممتلئا برغبة لا حدود لها فى البذل ، وبالمقابل فى جمع ثروات طائلة ، وعجبت كيف يكون تحقيق الامارة سهلا هكذا فى حين يصبح

الاستحواذ على فتاة كهذه مشكلة تؤرقني . فلما أيقظوني كانت الشمس قد جنحت الى الاصفرار ، وحينئذ استطعت أن أرى القرية .. من ضجعتي على السرير مسندا رأسي ، وعبر نافذة جانبية رأيت القرية من بعيد تنكفيء على نفسها ، كتلة من الطين الأسود تتخللها ابنية مستطيلة تشبه الأبراج وما هي بأبراج . كان الفقر المدقع يعصب وجهها بتعاسة وبؤس شديدين .

نزلت عن السرير . تمطمت . ذهبت الى الشباك ففتحته . نظرت الى الطريق . هالني ما رأيت : أفواج من البشر يجلسون على أكوام السباخ حول القصر ، باعداد هائلة ، ظننت انهم يعملون في معية العوضي بيك ، ثم صححت ظني بأنهم أهل الدائرة جاءوا يعرضون شكاواهم . غير أن العوضي ببك طرق الباب ثم دخل باسما وهو يشير لي نحوهم قائلا :

ـ شايف سموك .. عملت لنا مهرجانا !

ـ كيف .. ما علاقة سموى بهؤلاء ؟

ـ لقد جاءوا يتفرجون عليك .. وهم يجلسون هكذا من الفجر في انتظـارك !

ـ كيف .. وهل أنا فرجة ؟

ـ طبعا .. ربما كانت هذه أول مرة في حياتهم يرون فيها سمو الأمير ..

ـ ظننتهم أهل دائرتك جاءوا يطلبون مقابلتك .

ـ أهـل دائرتي أنظف من هـؤلاء .. صحيح انهم من بين الأصوات .. ولكن من يطلبون مقابلتي ناس غير هؤلاء .. فهؤلاء ربما لا يعرفون ما معنى وجودي !

فعرفت لماذا كان فرعون القديم يمكث حاكما ما يزيد على الثلاثين عاما . ثم اننى تناولت فطورى على عجل وما أن شرعت فى الخروج حتى كانت افواج البشر قد أخذت تقترب من بوابة القصر ، وحينما وطات قدماى أرض الشارع هجمت الأفواج على كموج دافق . فكدت اصرخ من الخوف ، وكانت نظراتهم الشرهة المخيفة التى كانت تتابع يدى اينما تحركت تلقى الرعب فى نفسى ، وبحثت عن طريق بينهم فلم أستطع ، وصاح العوضى بيك مصرحا بانه سيدع السيارات تخترقهم ، ولكن أحدا منهم لم يتحرك . فقال الصحافى انه سيطلب البوليس والهجانة ؛ وقال المنتج السينمائى انهم يجب أن يشرفوهم أمام ضيفهم ، وقال خبير السيارات انه سيضربهم بالنار اذا لم يوسعوا طريقا .. ولكن لا حياة لمن ينادى .. صفوف صفوف من النساء والعجائز والأطفال تقف ناظرة فى بلادة كحيوان خرافى لا يعرف أى لغة .. فتكاتف رجال العوضى بيك واغلقوا البوابة .. ثم اقتادونا الى الداخل من جديد معلنين أننا لن نسافر الا بعد أيام .

صار من الحمق مواصلة الانتظار أكثر من هذا ، ولم يكن امامنا سوى الاستعانة بالبوليس ، لكن العوضى بيك استسخف هذه الفكرة واعتبرها وصمة فى حقه : ان تقول الأجيال القادمة انه ذات يوم جاء بالبوليس ليضرب أهل دائرته . أحسست انى فى سجن رهيب . تذكرت البدع التى انتشرت فى العالم فى هذه السنوات الأخيرة : أن يعمل مجموعة من الفدائيين قنابل او اسلحة ؛ أما هؤلاء فبلا أى سلاح يحتجزوننا رهائن ! .. ولكن رهائن ماذا؟.ربما يكون قد صور لهم الوهم اننى معتد على حقوقهم، واننى اتمتع بأرزاقهم ؟ .. ما الذى يريدونه منى بالضبط ؟ .. ان مظهرهم لا يدل على شر ، ولا ينذر بأى وعيد ، لكنهم جدار كثيف ليس من السهل اختراقه ..

قلت للعوضى بيك فى شىء من التريقة وشىء من الجد :

ـ افضل أن ترسل لهم مندوبا للتفاوض .. وليكن انت .

ضحك العوضى بيك مما يؤكد استهانته بالأمر .. فقررت أن افعل شيئا يذكر بأهميتى ، ووجدتنى أقول فى وقار مرتعش :

ـ يا عوضى بيك اذا استمر الوضع هكذا فاننى .. اقصد فانه قد يهدد بأزمة دبلوماسية ! ..

لحظتها لم أجد العوضى بيك فى مكانه ، صار الى كرة من المطاط تتقافز من فرط الضحك الذى يفيض مرحا واستهزاء معا ، واحسست أنه فاهم كل شىء ، وأن تشبثى بالامارة ضرب من العبث لا طائل من ورائه ، فبدأت اكره الأصدقاء والرحلة من اساسها ، لكن العوضى بيك مسح عينيه وقال :

ـ لا تجزع .. فلسوف تنجاب الغمة وتخرج من هنا باذن الله سالما .

تجاهلت ما فى كلامه من تهكم واضح . وقلت له بخوف :

ـ لقد مر عصر ومغرب وظهر والناس لا ينصرفون .. كأنهم يطاردون مجرما هاربا من العدالة .. ومن الواضح انهم لا يرغبون فى الانصراف مطلقا ..

ايدنى الصحافى قائلا بينما يشير الى النافذة :

ـ لقد نشأ بينهم باعة يبيعون اللب والفول السودانى ! ..

دفعت راسى من النافذة ، اهتاجت الجموع دفعة واحدة واخذت تشير نحوى بأصابعها مطلقة صياحا غامضا .. فارتعشت

أوصـــالى وضحكت رغما عني ، وهنا تفتق ذهن العوضى بيك عن حيلة لا شك أنها طريفة وبارعة :

ـ ليتفضل سمو الأمير فيخلع ثيابه هذه ويرتدى حلة من حلل العريس !

قلت والله انها لفكرة . واضاف العوضى بيك :

ـ ويلبس أحد رجالى ثيابك ! ..

قلت :

ـ جميل .. وماذا بعد ؟ ..

قـــال :

ـ ويقف احد رجالى بثيابك هذه فى هذه النافذة ليشغل الناس .. ثم تتسلل انت بثيـــاب العريس خارجـــا من أى باب يعجبك .. وعليك أن تمشى فى أى اتجـــاه يصـــادفك .. ويكون الأسطى ابراهيم الغرابلى فى اثرك ليوصلك بعربتى الى القاهرة .

استحسنت هذه الفكرة ودخلت فنفذتها على الفور . وكانت ثياب العريس ضيقة بعض الشىء فجعلتنى أبدو صغيرا ، ووضعت نظارتى السوداء على عينى ثم اندفعت خارجا من الباب الخلفى . فاذا بى اخــوض فى طريق زراعى تتنـــاثر على جانبيـــه البيوت والسواقى ؛ وناس يجلســـون واطفـــال يلعبون ورجـــال يلعبون « السيجة » وآخرون قد استغرقوا فى النوم . ومع ذلك فما أن رأونى خارجا حتى تحفزوا للانقضاض ، لكنهم عمدوا من جديد حينمـــا أشرت اليهم نحو البيت بما يعنى ان الأمـــير لا يزال فى الداخـــل .

ظللت أسير فى نفس الطريق . تظهر بيوت ثم تختفى لتظهر حقول .. لتختفى بدورها وتظهر بيوت جديدة : مما يشير الى اننى قد مررت بمجموعة من العزب والكفور ، وكنت التقى ببعض الفلاحين يسحبون الأبقار ويمشون فى بلادة ، فيدخلنى يقين بأنهم يسحبون أبقار غيرهم . وكنت أحب منظرهم واحس بألا خطورة منهم على شرط أن يظلوا أفرادا . وقلت لنفسى ان هؤلاء الفلاحين الأصلاء مثل هـــذه الأرض مثل هذه الأبقار يعطون دونما انتظار لعائد ، كالأرض تنبت لاعدائها ، كالأبقار تدر اللبن تسلم رقبتها لجزارهـــا .. وقررت أن اضمهم الى مصـــــادر ثروتى .. أن العوضى بيك ليس احسن منى ، وأى جزار ليس أذكى منى ، ولسوف انفذ نفس الفكرة التى طرحها امامى ليلة أمس .. سوف أملكهم أبقارا واتملكهم ..

داعبنى زفيف العربة وهى تزحف مقبلة نحوى . وسعت لها ، وقبل أن أفتح بابها اخذت أمعن النظر فى ابراهيم الفرابلى كأننى أريد أن افهمه بنظرة واحدة . ثم اننى جلست بجواره فاندهش دهشة بالغة وتصبب العرق على وجهه وقال :

ــ العفو يا سمو الأمير .. أن مكانكم ليس هنا بل ..

فابتسمت متعمدا اظهار تواضعى ، وقلت له الا فرق بين امير وخفير ، فراح يدعو لى بطول العمر وراحة البال . وسألته عما اذا كان الناس قد انصرفوا فبان عليه الخجل وقال ضاحكا :

ــ انهم يا سمو الأمير .. الحق انهم .. لقد رأوك فى الفرح وأنت تمد يدك فى جيبك فلا تخرج بأقل من ورقة بعشرين جنيها .

مددت يدى فى جيبى لأطمئن على نقودى فوجـدتها فقلت للأسطى ابراهيم :

بهذه المناسبة خذ هذه الورقة لك .

فرفض بشدة ، وظلت يدى معلقة فى الهواء بالنقود طويلا دون أن يمد يده ، وعبثا حاولت اجباره على قبول هديتى ولكنه اقسم برأس أبيه الا يأخذ شيئا لا يستحقه أكبرته اكبارا شديدا ومع ذلك ضقت به ونقمت عليه ، فعدم قبوله هديتى معناه هزيمة كل اسلحتى تجاهه ، ومن ثم فان « لمياء » تطير منى ، ان المهر الحقيقى للمياء ليس النقود بل الحب .. هذه حقيقة أعرفها جيدا .. وقد ازعم اننى أحببتها ، ولكن الأمر يختلف ها هنا ، فان تحب ليس مبررا كافيا لأن تملك ، وكذلك أن تملك ليس مبررا كافيا لأن تحب .. لا تبتسموا بخبث فأنا لم اسكر بعد ولا اعتقد اننى سأسكر بعد ما عشت هذه التجربة . أقول قد ازعم هذا ولكننى لا أملك الزعم انها احبتنى أو ستحبنى ، كل ما أستطيع تأكيده اننى أمير وهى جربوعة ، اما عقلها ، اما ذكاؤها ، اما ارتقاؤها بنفسها الى مستوى الرغبة فى التعليم والنهل من ينبوعه ، فكل ذلك ليس شيئا اذا ما حرم الانسان الحياة ، ان الزهور لا تنبت من العدم ، وانما السباخ والروث يخصبان عودها ، حسن ، هذا العود اذا لم يشرب ويرتوى فما الذى يحدث له ؟ انه يذوى ويموت .. وأنا بالنسبة للمياء مروى ، وهى بدونى ستذوى وتموت بين أحضان هلف فقير يسقيها المر يعبئها بالأولاد ؛ أنا مستقبلها الذى أثق أنها تتطلع اليه حيث ترفل فى النعيم وتملك ما تراه فى ايدى الآخرين .. هذا ما أفهمه وان غلطنى أحد فى ذلك يكون رجلا غير عملى فى نظرى ! ..

سألت الأسطى ابراهيم عن راتبه وكم يتقاضى من العوضى بيك . فقال الرجل : مستورة .. وقبل يده ظهرا لبطن . شددت عليه الخناق حتى يقر بحقيقة المبلغ وهو مصر على انها مستورة

والحمد لله . والطريف انه بعد ذلك راح يتحدث حديثـا متقطعا غير مترابط . استطعت أن افهم منه أن العشرة القديمة تفرض عليه أن يحتفظ بهذا السر ، وأنه لا يعتبر نفسه موظفا رسميا لدى العوضي بيك حتى يحاسبه بالحق والمستحق ؛ انما هو يخدم لدافع العشرة ووفاء بالعهد القـديم ، فهو منذ راى الدنيـا راى أن اباه وامه يخدمان هذه الأسرة مقابل ان يعيشوا فى غنائهـا ومن هباتها وعطاياها الدائمة ، حتى صارت خدمة هؤلاء لأولئك نوعا من الولاء وليس اكثر ، وهـذا ولاء حيوانى فى الواقع رغم انه مفرط فى الانسانية ، واى ولاء من هـذا النوع الى الانهيـار المحقق بازاء غول الحياة وولعة الأسعار ، ان الحياة رغبات غالية الثمن وليست فى قدرة احتمال سائر البشر .. فاى ولاء ذلك الذى يمنعنى من معانقة الحياة اذا جاءت لحد عندى .. وهكذا قررت لهذا الولاء حتى اهزمه ، على أن تقوم « الأجهزة التنفيذية » بتنفيذ هذا القرار على مهلها ! ..

وكشف لنا طول الطريق عن عشرات المداخل ومئات القرى والمدن والعزب وآلاف الكفور ، وعشرات أخرى مما لا هى قرى ولا هى مدن . ومن حولها الأراضى بمساحات شاسـعة يصارعها فلاحـون ومصاصـو العروق سائمين قرفانين ملقين بكل عبء على ارادة الله . وقد دخلت الى الأسطى ابراهيم من كل هذه المداخل، فتأكد لى ان سوق الأبقار ها هنا هو فى الواقع بترول جديد ، وبهذا أكون أنا مثل كل الأمراء قد امتلكت منجما هائلا ، فان انا سيطرت على مساحة كبيرة من هـذا السوق هنا أكون قد حققت لى الامارة لقبا وواقعا . لدهشتى تحمس الأسطى ابراهيم تحمسا بالغ الشدة حينما سألته اذا كان يعرف رجلا أو أكثر أستطيع أن أشترى لهم أبقارا يربونها .. فقال انه شخصيا ليس له فى هـذه

اللعبة ولكنه سيدلني على أخيه الفلاح المتخصص فى تجارة الأبقار، وعليه هو أن يوجهني . فألححت عليــه أن يقودني اليه بمنتهى السرعة ، فاقســم أن اخــاه يقطن فى بلدتهم التى تبعد عن بلدة العوضى بيك ثلاثين قرشا فى القطار ؛ وأنه ســوف يتسلل بعربة العوضى بيك صــباح غد فيعطيــه عنوانى ويبعثه الى فى الفندق الكبــير .

فقلت له ما هكذا يكون الكلام ، وذكرته بانه يخاطب ســمو الأمير ، وبأن التصرف الأمثل هو ان يجيء بنفسه ومعه أسرته كلها مضافا اليها أخوه ، لزيارتى فى الفندق ، ونتفاهم فى الأمر ، وهذه دعوة منى لهم ، ودعوة الأمير لابد ان تلبى . وقال انه لا يستطيع اهمال العوضى بيك يوما واحدا ، ولكن ما دام الأمير قد تنازل وعرض عليــه الدعوة فانه لا يسعه الا القبول على أن يكون ذلك يوم الجمعة القادمة التى هى اجازته . فرحبت على الفور ، وكان من المقرر ان اغادر القاهرة بعد يومين على الأكثر ولكننى اجلت سفرى الى ما بعد . .

كان يوما عظيما بحق ، وممتعا وبريئــا صــدقونى . انتم تعرفون اننى ولد صرماح ، أوافقكم ، وتعرفون اننى فى الأفراح وفى سائر ألوان الزحام والتجمعات خلبوص كبير ، أوافقكم ، لكننى أقسم لكم أن ذلك اليوم كان فى منتهى البراءة ، ارجوكم لا تسيئوا الظن بلمياء ولا بأبيها ولا بأمها . . فالواقع اننى فوجئت فى لمحــة قصيرة جدا باسرة كاملة تحيطنى وتحولنى الى ابن من أبنائها ، فى البداية حاولت الاحتفاظ بتقاليد الامارة ولكن درجة الدفء كانت شــديدة فأذابت كل الأقفــال ، ودرجة الصــدق كانت صافية الى حد كاد يقودنى الى الاعتراف بحقيقتى بل الى نبذ الامارة والنظر اليها باحتقار ، مجموعة من النماذج الانسانية لا تمل

من العطاء ، كان الرعاية واوضــاع الأمن والأمان والحب وظيفتهم الرئيسية فى الحيــاة · الأم فلاحــة قصيرة القامة حلوة التقاطيــع تنم عن جمال آسر ذوى منذ قليل ، فى صوتها بحة تتحدى الصوت الأنثوى بما جبلت عليه من رقــة وهدوء ايقاع يفيض بالحنان · والأخ فلاح تعود على أن « يسهر على » ، فحياته سلسلة لا تنقطع من السهر على أشياء تحتاج لسهر ، أما أرضــه القليلة او أرض غيره ، أو أبقار غيره ، أولاده او أولاد غيره · والأسطى ابراهيم مثال للوفاء والوقار والطيبة الخالدة . و « لمياء » .. تصوروا ان لمياء هــذه التى صنعت بينى وبينها حاجزا شفافا لكنــه صلب اتضح انها قطة صغيرة واليفــة جدا .. واتضح أيضــا أن لها صورة أخرى اصغر منها قليلا هى شقيقتها « سامية » الطالبة فى الاعدادية هى الأخرى غير انها متخلفة سنة دراسية واحدة عن لمياء .

طلبت لهم القهوة والشاى فصارت الأم تذعر كلما مددت يدى فى جيبى واخرجت نقودا ، كأننى اخرجها من جيبها هى ، وكأننى من المفروض ان اخزنها ، وكانت ترتاع من المبالغ الفكة التى أهملها للجرسونات وغيرهم ، ولكاد تثير فضيحة فى الفندق الكبير بنصائحها العالية الصــوت وتحذيراتها لى من طمع الناس وفراغ اعينهم . ولقد احسســت بســعادة غامرة فكأننى بعد غيــاب طويل عثرت على أمى الحقيقية التى احس بصــدق أنها تخــاف على وتخاف على أموالى ، فضــلا عن أن تكون طامعة فى . فداخلنى حب شديد لهذه الأسرة ، وقررت بينى وبين نفسى الا افرط فى لمياء مهما كانت الظروف والأسباب .

ثم اننــا تهيأنا للنزول ، ولم يكن موعد الغداء قــد جاء ، ففضلت ان نتجول فى المدينة قليلا ، وكان فى تقديرى انهم زهقوا

من القاهرة باعتبارها بلدهم ، لذلك كنت أشعر بقليل من الحرج لأننى أجوب بهم اماكن لا تعنى شيئا بالنسبة لهم . ولكن .. صدقوا أو لا تصدقوا ، كانوا فى غاية البهجة ، وكان من الواضح انهم يجيئون هذه الأماكن لأول مرة ، تصوروا ، بل كانوا ـ الأم والأولاد والأخ ـ يسألوننى عن اسماء الأماكن بل وبعض الشوارع التى نتجول فيها بعربتى . وكانت دهشتى عظيمة وأنا أرى « لمياء » وشقيقتها « سامية » تنتفضان من الفرح فيما العربة مقبلة على الأهرامات ، وكانتا تصيحان بألفاظ وعبارات نزقة تدل على انهما لم تريا هذه الأهرامات من قبل ، وصارت الأم هى الأخرى تندهش لدهشتهم ؛ ولا تعرف لماذا هذه الأهرامات تثير الدهشة ، ويقول لها أولادها انهم يدرسون هذه المقابر فىالمدارس فتزداد دهشة الأم من أن تهتم الحكومة بتدريس المقابر للأولاد .

نزلنا من العربة واخذنا نسير حول الأهرامات ، ووجدتنى أقوم بالشرح بقدر ما سمحت به معلوماتى عن الأهرامات ، ولم أمنع شقاوتى فى هذه اللحظة من التوهج ، فرغما عنى رحت أشرح لهم عن هذه الأهرامات باعتبارها دليلا على الذل والعبودية التى كان يعيشها المصريون القدامى وكيف انهم بالسخرة أقاموا هذه الأبنية للفراعين الجبابرة . وصدقوا جميعا فيما عدا « لمياء » فقد نظرت الى نظرة استنكار تكاد تصل الى الغضب ، فعرفت انها من الذكاء بحيث لن أستطيع اللف عليها فيما بعد . ولكننى عرفت أيضا انها متطلعة الى الحياة بكل ذرة فى كيانها ، وأن تحقيق الرغبات والطموحات المادية هو انجح الأسلحة فى السيطرة على هذه الأسرة سيطرة كاملة .

انهينا جولتنا فى منطقة الأهرامات وعدنا الى وسط المدينة ،

ورغم شدة الزحـام الذى يتطلب منى تركيزا مكثفـا فى قيـادة العربـة الا اننى لاحظت لميـاء بكل دقـة ، وكيف كانت تنبهر بما ترتديه فتيات فى سنها من فساتين شارع الشواربى وتكاد عينها تتسـاقط حسرات كلما رات زحاما حول شىء يباع ، وكنت اوجه بعض الأسئلة من حين الى حين ، وبشكل متحفظ ، فعرفت ان هـذه الأسرة رغم انتمائها للعوضى بيك ليس فى بيتها أى شىء من مستلزمات البيت الحديث ، وليس عندهم جهاز تليفزيون ولا بوتاجاز ولا غسالة ولا ثلاجة ، فاسفت لذلك أسفا شـديدا بقدر ما فرحت لأن سيطرتى على الأسرة اصبحت فى حكم النفاذ .
دخلنـا اكبر مطعم فى وسـط المدينـة ولاحظت الأسرة وهى « ملخومة » فى محاولة اظهار الأمر وكأنه طبيعى بالنسبة لهم ، مع انهم اثاروا فى الجو الارستقراطى جوا سـوقيا عالى الصـوت بما فيه من لوم ومجادلات وجر ترابيزات واندلاق اكواب ، سالهم الجرسون عن طلبـاتهم فحاروا ونظروا الى ، فطلبت لهم بمعرفتى حماما مشويا وكبابا وملأت الترابيزة باطبـاق لا حصر لها ، لدرجة انهم من فرط حيرتهم لم ياكلوا جيدا ، كما انهم اهملوا اطباقـا عظيمة لمجرد انهم لا يعرفون كيفية التعامل مع ما فيها من اصناف ولم يسمعوا بها قط فى حياتهم .

شهقت الأم وضربت صدرها بل كادت تسقط من طولها حينما رأتنى ادفع خمسين جنيها بالتمام والكمـال وانصرف ، وظلت تشتم فى نفسها وتؤنب مذنبـا مجهولا تسبب فى خسارتى الى هذا الحد ، فى حين كنت اكتم ضحكى واحاول انتهاز فرصـة الزحام ونحن خارجون بوضـع يدى على ظهر لميـاء بشكل يبدو عفويا . وقد نجحت مرة فاستراحت يدى الى أن خرجنا ، ويبدو

ان لمياء فوجئت بيدى تحوط كتفها ببساطة فارتاعت ثم ارتعشت ثم ابتعدت قليـلا .

دخلنا جروبى وتناولنا قليلا من الحلوى وتناولت أنا زجاجتين من الجعة ؛ وامرت بتجهيز مجموعة من الأطبـاق الحافلة بالحلوى لكل من لمياء وسامية وامهما والعم عبد الفتاح ، فلما جيء بالأطباق كبيرة ، فخمة ودفعت حسابها أقسمت الأم اننى فى حاجة الى من يردعنى ، وأعلنت احتجاجها بأنها لن تأخذ شيئا من هـذه الأشياء غير ان الأسطى ابراهيم انبهـا فسكتت . ثم اننى انتحيت بالعم « عبد الفتاح » جانبا واخذنا نتداول الرأى فى سـوق الأبقار ، فأحاطنى علما بظروف السوق وبأنواع الأبقار ، ومتى نشتريها ومتى نبيعها ومتى نكسب منها وكم ! حتى خيل الى اننى أمـام موسوعة لا نهائية فى علم الأبقار ، ثم انه حـدد لى ـ على وجـه التقريب ـ المكسب الذى يمكن أن أجنيه لو اننى دفعت كذا فى كذا او دفعت كذا فى كيت .. ثم طلب منى تقديرا محددا للمبلغ الذى انوى دفعه فى هـذه السوق، فحددته له بنصف مليون على الأقل .. فغاص الرجل المسكين فى ثيابه وأصفر وجهه وتملكته رعشة مفاجئة اسقطت السيجارة من بين أصابعـة عدة مرات ، وكان ينظر الى كأنه يبحث عن المزاح فى عينى ، فلما أكدت له اننى جاد اخرج من جيبه ورقـة مطوية فردها أمامى فقرأت قائمـة بأسماء تصـل الى المـائة وقال لى انهم هم الذين أستطيع أن أضع أموالى فى بطنهم وأن كل واحد منهم يستطيع رعاية قطيع من المـاشية ، فكلهم فلاحون مشهورون بتربيـة المـاشية كمـا انهم يملكون حظائر كبيرة . ثم قال لى ايضا اننى يجب أن أكون موجودا باستمرار فى القرية حتى أستطيع الاشراف على محصول اللبن .. فعرضت عليه أن يكون وكيلا لى فى هـذا الأمر ، فوافق

وارشدنى الى مشروع جانبى يمكن ان يقوم هو به : أو أؤجر له دارا كبيرة واجهزها ببعض الأوانى لكى يتلقى فيها محصول اللبن ، ويتخذ من هذه الدار معملا يقوم بتصنيع السمن والزبد والجبن والمش وما الى ذلك من المنتجات الألبانية .. وراح يحدثنى عن المطلوب فكشف لى عن خبير بالفلاحة والألبان عمره سبعة آلاف علم على الأقل . ولقد تم الاتفاق بيننا على أن يقوم هو بتمهيد الطريق مع هؤلاء الفلاحين لحين عودتى فى الزيارة القريبة القادمة .. حتى اذا ما جئت انا سافر معى الى أسواق الثلاثاء والأربعاء والأحد والجمعة فى عديد من البلدان ليقوم هو بانتقاء الماشية الصحيحة البدن وما على الا ان ادفع ، وسوف يكون كل فلاح من هؤلاء موجودا عند الشراء ليسحب بهيمته ويصبح مسئولا عنها من لحظتها .

الواقع لقد احببت هذا العم حبا كبيرا ، ولكى احكم السيطرة عليه قلت له ان عليه أن يعتبر نفسه موظفا عندى ابتداء من هذه اللحظة . ونفحته مائة جنيه على سبيل العربون ، فارتعشت يده ولم يضع المبلغ فى جيبه الا بعد الحاح منى كأنه غير مصدق ان هذا المبلغ قد صار له .

وكان وداعى للأسرة حافلا وعظيما ـ سلموا على وقبلونى واحدا واحدا والدموع تتساقط من اعينهم جميعا كأننا اخوة منذ عشرات السنين . وطلبوا منى تحديد موعد للعودة فحددته بعد مرور شهر واحد من سفرى . وقلت لهم اننى سوف أنزل من الطائرة على قريتهم مباشرة ولأكون ضيفا عليهم فى منزلهم طوال مدة اقامتى . فجنوا لهذه الفكرة جنونا خلابا ، واقترح الأسطى ابراهيم أن أبلغه بواسطة خطاب لكى ينتظرنى فى المطار ، فوافقت على ذلك وانتويت تنفيذه بكل حذافيره ..

اتذكرون يوم تلفنت لكم فجاة وقلت لكم اننى كنت فى القاهرة ؟ .. كنت يومها قد اتممت أسبوعا على العودة ، وقد فضلت عدم الاتصال بكم خوفا من سهراتكم التى اخشى أن تجرنى الى الحديث عن موضوع لم ينته ، نعم وكنت من جانب آخر مشغولا بأمر تدبير مبلغ اشترى به أبقار القاهرة ، وقد شرقت وغربت وصنعت الحيل الكثيرة مع البنوك ومع الأصدقاء التجار حتى جمعت مبلغا يقترب من نصف المليون جنيه مصرى ، ثم استخسرته فى الواقع ، ورأيت المساهمة بنصفه والاستفادة بالباقى فى متجرى ، ثم عدت فاستخسرت النصف ورأيت المساهمة بالربع . وأخيرا خفت من التضحية بمبلغ كهذا فقررت المساهمة ببضعة آلاف لا غير ، وكنت قد تعاقدت فى القاهرة على صفقتين كبيرتين بواسطة الصحافى وخبير السيارات فلما شرعت فى تنفيذها وجدت أن عائد الربح منهما يكفى لأن العب به وحده فى سوق الماشية .. ومع ذلك أخذت مبلغا كبيرا وعدت القاهرة .

كان الأسطى ابراهيم الغرابلى فى انتظارى فى مطار القاهرة كما اتفقنا . وكنت قد اتصلت بخبير السيارات ورجوته أن يسلم عربتى المؤجرة الى الأسطى ابراهيم حتى لا نحتاج لعربة العوضى بيك . وقد صرفت فى المطار مبلغا لا بأس به تمكنت بسببه من الافراج عن حقائبى فى الحال ، وهى فى الواقع لم تكن مجرد حقائب بل كانت أشياء ثقيلة ، ثلاجة وغسالة وتليفزيونا ملونا وبوتاجازا لبيتى الذى نويت انشاءه فى القاهرة لكى اتركه للأسطى ابراهيم فيما بعد واطنان من الملابس الفاخرة التى تدير راس لمياء .

حملت عربتى وعربة أخرى نصف النقل ، وقادنا الأسطى ابراهيم الى قرية تقع هناك فى منطقة نائية من شمال الدلتا

فيما بين المنصورة ودمياط ، اسمها « كفر المساخيط » ، يقولون انها سميت هكذا نسبة الى ما كان يوجد بها من تماثيل اثرية يطلق عليها العامة اسم المساخيط ، ويقولون أنها سميت هكذا نسبة الى أهلها أنفسهم باعتبارهم مجرد مساخيط تأكل وتشرب وتفلح الأرض . كان الأسطى ابراهيم هو الذى يذكر هذا ضاحكا كأنه يتكلم عن ناس لا يعرفهم . فلما دخلنا كفر المساخيط فوجئت أنها قرية كبيرة ولها طرق مرصوفة وبها بيوت أقرب الى العمارات ، فاندهشت من أن يكون فى مصر كل هذه البلدان وكل هؤلاء البشر ثم يكون هناك فائض للرصف والكهرباء وما الى ذلك، ولو أن هؤلاء البشر كلهم فى بلد غير مصر يتناوب سرقتها ونهبتها قوافل وراء قوافل لزحف أهلها على المناطق المتاخمة وأكلوا أهلها أكلا .. فوجئت أيضا بعربات ملاكى وموتوسيكلات وحناطير ، وبنات تلبس آخر موضة - كذلك فوجئت بمحال تبيع الأقمشة وتختزن من البضائع ما يوازى رأس مال دولة نامية . وأخيرا وصلنا بيت الأسطى ابراهيم فاذا بهم قد صنعوا لعربتى طريقا لطيفا مفروشا بالزلط المبشور والرمل . فتصنعت التألم وقلت لماذا التعب يا أسطى ابراهيم ، فأقسم أن الذى فعله هم الرجال الذين جئت لكى أملكهم الأبقار .

كان البيت عبارة عن شقة بالدور الثانى لبيت من دورين اثنين داخل حارة سد ، وكانت الحارة كلها قد خرجت عن آخرها ووقفت فى الأبواب على الأسطح تتفرج على وتشرئب بأعناقها فى فضول كبير .. الشقة مكونة من ثلاث غرف ضيقة ، بها من الأثاث كنبة وثلاثة كراسى خيزران وسرير جديد بعمدان ، وبوريه قديم ، وترابيزة كترابيزات المقاهى يذاكر عليها الأولاد . أفرغت نصف النقل من محتوياتها ، وجىء بها الى الشقة تقافزت الفرحة

على وجوه كل أهل الحـارة بل زغردوا من أجل الفرح الذى حل بجارهم ، واقتحمت الشقة وفود من النساء والبنات الجميلات والصبيان يتفرجون على الأشياء ، فصعب على القول بأن ثمة أشياء لى وثمة أشياء لهم ، وسكت ، فاعتبرتها كلها أشياءهم ، وكان شعورى بالنشوة لا حد له ، فقد تحققت من معنى العبارة التى رددها الصحافى ذات يوم ، وفهمت كيف أن الأمم يمكن أن تقاد باستثارة شهواتها .

ثم ما لبثت وفود الرجال ان أقبلت حتى اكتظت الشـقة تماما ، فانتقل الجمع الى دار الأخ « عبد الفتاح الغرابلى » ، وهى أوسع كثيرا ، حيث جلسنا على الحصـائر ورحنا نتبادل المشورة فى أسعار الأبقار وانواعها .. وفى النهايـة قر قرارنا على البدء بأقرب سوق وهو سوق الثلاثاء الذى يقام فى بلدة مجاورة .

كان المفـروض اننى ضـيف على أسرة الأسـطى ابراهيم الغرابلى ، وان الأشياء التى دخلت بها بيتهم ـ باستثناء القليـل منها ـ سيؤول اليهم على سبيل الهدية التى تليق بسمو الأمير . ولكن الليـل حمل مفاجآت غريبـة ، فقـد وفـد الى دار العم « عبد الفتاح » رجال من علية القوم ، وحضرت وفود من المدرسين والممرضين والفلاحين والأجراء ليسلموا على ويشاركوا فى الاحتفال بى ، والواقع انهم كانوا يكشفون عن السبب الحقيقى وراء زيارتهم بحديثهم الملح عن عقود العمل المطلوبة لهم فى بلادى .. فكنت امنح الوعود عن يمين وعن شـمال وبلا تحفظ ، فهى مجرد وعود تليق بسمو الأمير .

غير أن أغرب شيء فاجأنى به المساء هو أننى تذكرت مجموعة من زجاجات الويسكى أحضرتها فى حقائبى ، فبعثت بمن يأتى

بواحدة أو اثنتين أو ثلاث أفتحها على ذمة الحضـــور ، ولكن « المرسال » ـ وهو الأسطى ابراهيم نفســه ـ عاد بعد مدة طويلة دون أن يحمــل شــيئا . ثم اقترب منى وهمس فى أذنى انهم لا يستطيعون فتح اى من حقائبى الا فى حضــورى ، ان كان لهم أن يفتحوها ! .. فلم أفهم معنى هـــذا على وجــه التحديد وأحسست بغضب شديد ، ولكن الحضور تكفلوا باعتقال غضبى ، اذ راحوا يتبارون فى رص الحشيش والدخــول على بالجــوزة والنكات الحارقة حتى تمنيت ان أقضى بقية العمر جالســا هكذا فوق الشلتة والمسند من خلفى وكل هؤلاء يعملون على تصحيح مزاجى وادخال البهجة والسرور على .

وعند أذان الفجر خرجوا واحدا وراء الآخر حتى صفصف المقعد علينــا : العم « عبد الفتــاح » و « الأســطى ابراهيم » ، و « أنا » واصر العم « عبد الفتــاح » على أن أبيت فى داره ولكن « الأســطى ابراهيم » كان قد استعد بادارة محرك العربة حسما للموقف ، وحملنى الى داره على هودج الصباح ، فلما استقر بنا المقام على الكنبة كان النوم الوافد قد طار ، وكان أهل الدار قد استيقظوا وجاءوا ، وتلقفتنى الزوجة بالتعنيف : كيف اتصــور ان باستطاعتهم فتح حقائبى حتى لو باذن منى ؟ ! فاندهشت وقلت لهم ان حقائبى هذه ليست حقائبى وحدى وانما هى لهم ، الست الآن واحدا منهم ، فهزت الزوجة رأسها فى رفض بات ، وقالت أن الحقائب هى حقائبى وستظل حقائبى الى ما لا نهاية . قلت : ولكن بها هداياكم .. فقالت : وما مناسبة الهدايا ؟ اننا لم نفعل شيئا نستحق عليه الهدايا ، اتحب أن تتقول الناس علينا بالزور والبهتان .. اننا ان قبلنا منك شيئا ولو جوربا واحدا فسوف يتهمنا الناس هنا باننا أعطيناك شيئا فى مقابله ، وأن من حقــك ومن حق اى أحد أن يقدم هدية الى أحد ، ولكنا ليس من حقنــا أن نقبل هذه الهدية لأن ثمنها سيكون اغلى ما نستطيع ! ؟ ..

قلت والغضب يكاد يعصف بى :

ـ ما هذا الكلام الغريب ؟ !

فاستطالت قامة هـذه الزوجة القصيرة لا أدرى كيف ، ومالت نحوى هامسة فى ود كبير قائلة :

ـ يا سمو الأمير نحن ناس غلابة .. ولدينا ولايا .. انت سـموك ترى لمياء .. وساميـة .. فتاتان فى الاعداديـة .. عروستان .. والناس لن تسـأل عن الحقيقـة حين ترى على أجسادنا أشياء منك .. انها لن ترى من الحقيقة شيئا الا هـذه الهدايا .. ولن تتساءل : لم الهدايا ؟ .. لأنها ستقرر من البداية انك لم تعطنا شيئا الا جزاء ما أخذت منا .. وما الذى ستأخذه منا ونحن فقراء ؟ .. أتفهمنى يا سمو الأمير ؟ .. انك لن تأخذ منا سـوى .. سـوى .. أنت تعلم ان لدينا ولايا .. ها أنا قد قلت لك كل شىء يا سمو الأمير ..

لابد أن مطرا كان يرخ على وحدى ، لأن تيارا من البرودة راح يغزو جسـدى من قمة راسى الى أخمص قدمى ، ورحت أدقق فى هـذه المرأة القصيرة الحافية ، واستعيد كلماتهـا لأبحث فيها عن مبرر يجعلنى احتقرها واكرهها ، فلا أجد فيكون ذلك فى ذاته مبررا لأن أضيق بها أشد الضيق وصاح فى داخلى صـوت يريد أن يريح أعصـابى قائلا : انها تدبر لصفقة أكبر ، فلا تأكلن من كلامها ، واستجابة لهذا الصـوت رأيت أن أوافقها على رأيها تمهيدا لكشفها على حقيقتها فى ظرف لاحق . ونمت هـذه الليلة كالمضروب على أم رأسـه بالحذاء . فأنا لا يمكن أن أقتنع بأن مصرية فقيرة فى هـذا الزمن تستطيع أن ترفض هدايا الأمير ، أنها « بعظمة » لسانها تعترف أن اللحمة لا تدخل بيتهم الا فى كل

شهر مرة ، فثلاثة جنيهات تدفع فى مصروفات لمياء وسامية خير من دفعها فى كيلو من اللحم .. ثم اننا نرى المصريين فى بلادنا يكاد الواحد منهم يقتل الآخر فى مقابل قرش أزيد ، ونرى منهم المساخر فى الدس لبعضهم بعضا وفى تدبير المكائد لبعضهم بعضا .. ثم تجىء امرأة كهذه تكمل عشاءها نوما كما يتندر المصريون ، وترفض هديتى مدعية العفة والشرف ؟ .. اى عقل يصدق هذا ! ..

فتحت عينى عند الظهيرة على كوب الشاى باللبن . ثم قدموا لى صينية عليها طبق به قطعة من الجبن القريش ، وطبق آخر به بيضتان مقليتان ، ورغيفان كبيران ، وحزمة من البقدونس .. وشاركنى « الاسطى ابراهيم » فى الأكل ، وكنت أحس للطعام بمذاق لم اعهده فى حياتى . ثم جاءت أكواب الشاى تحملها لمياء ، فما أن رأيتها حتى تكهربت أعصابى وخيل الى اننى لم ارها منذ شهور طويلة ، وأحسست بشعور غامض نحوها ، شعور هو مزيج من اليأس والاصرار والنفور والجاذبية ؟ . ثم جاءنى شعور بالانقباض ، اردت أن القى بآخر سهم فى جعبتى ، قلت :

ـ أسطى ابراهيم .. ناد زوجتك اذا سمحت ..

فنادى على الفور :

ـ تعالى يا أم لمياء ..

فجاءت على استحياء .. ثم تربعت بجوار زوجها ..

قلت لها كأننى القى لنفسى بطوق النجاة :

ـ اننى أطلب القرب منكما فى لمياء ..

فهبط عليها وجوم صحبه توتر خفى ولكنه عنيف ، احسست بدقة ، حتى أن عينى « الأسطى ابراهيم » تحولتا فجأة الى كأسين من الدم . وشفط كوب الشاى دفعة واحدة ثم رمى بالكوب ، ولم يتكلم بشىء . وزمت الزوجة شفتيها وغابت فى شرود واستشعرت فيه الأسف ، فحل بى الارتباك ولكننى تماسكت :

ـ ما رأيكما ؟ ..

شوح « الأسطى ابراهيم » فيما يكاد يكون قرفا :

ـ هاك أمها فاسألها ! ..

وكان على وجه الأم احساس عميق بالرهبة ..

فشوحت هى الأخرى وقالت :

ـ والله ما ادرى ما أقول !

واستدرك الأسطى ابراهيم :

ـ فلنرح انفسنا ونأخذ رأى البنت نفسها .. تعالى يا لمياء ..

جاءت لمياء .. جلست بجوار أمها ، نظر « الأسطى ابراهيم » نحوها واشار نحوى فى لهجة تخفى استهجانا عميقا :

ـ سمو الأمير عايز يخطبك .. ايه رأيك ؟ ..

ـ يخطبنى انا ؟ ..

واشارت الى صدرها كأنما لتمنع شهقة على وشك الانفجار ..

ـ يظهر هذا ..

هكذا علق « الأسطى ابراهيم » .. فاغتظت منه .. وتعلقت بشفتى « لمياء » فنكست رأسها برهة طويلة ، ثم رفعت رأسها ناظرة الى ابيها ثم ناظرة الى قائلة :

ـ لا .. !

ـ ماذا .. ؟

هكذا صحت وانا امنع نفسى من الانتفاض حرصا على مظهر الامارة ، واستطردت « لمياء » فى بساطة آسرة :

ـ لا تؤاخذنى يا سمو الأمير .. انا ابنة رجل فقير كما ترى .. وهذه هى عيشتنا كما ترى .. وانت سمو الأمير .. فكيف هذا ؟ !

ـ خذوهم فقراء يغنيكم الله ..

ـ والله لا أوافق .. انك سوف تظل طول عمرك سمو الأمير .. وسأظل طول عمرى ابنة « الأسطى ابراهيم » السائق ! ..

ـ ستكونين زوجتى على سنة الله ورسوله ..

ـ لن أسعدك .. سأكون مشكلة فى حياتك .. وسوف تضيق بى .. أنا واثقة !

ـ من ادراك ؟

ـ انا اعرف نفسى .. انا احب ان يكون زوجى فى مستواى .. لكى أستطيع العيش معه فى سلام .. انا .. يا سمو الأمير .. احب .. أن أكون زوجة .. وانت تطلب جارية ..

وابتسمت الزوجة لأول مرة وهى تقول بسعادة غامرة :

ـ من أين تجيئين بهذا الكلام يا بنت .. والله عـال .. فتحت المدارس أعينكم .

وعلق « الأسـطى ابراهيم » كأنه ينهى الموقف خوف المزيد مما يحرجنى .

ـ البنت بصراحة وراها تعليم تنوى أن تكمله ..

ـ يمكن ان انتظرها حتى تتمه .. أخطبها وانتظر ..

واذا بالرد الذى لم اكن أتوقعه يصفعنى من « لمياء » :

يا سمو الأمير .. انت أتيت الى هنا لتشترى الأبقار .. لا لتخطب عروسا .

وكانت هذه هى الضربة القاضية التى سقطت على اثرهـا مغشيا على ، ولم أفق من ذهولى الا حين ارتفع الصـوت الذى بداخلى يقول :

ـ احذر ان تأكل من هـذا الكلام ، لا تنس انك تتحـاور مع مصرية ، اى انك تتحـاور مع شيطانة ناعمة ، تريد ان توهمك بالأمانة والشرف والصراحة و .. و .. الخ .. هـذه الفراشة التى ستوقعك بعدها فى حبائلها لا محـالة . وهنـا وضعت فى ابتسامتى كثيرا من الخبث ، وقلت كأننى انتقم من طول لسانها :

ـ اى نعم جئت لأشترى الأبقار .. وهذه الأبقار يمكن ان تكون لك ..

ـ أنا لست راعية .. ولا انوى أن اشتغل بالجزارة ..

ـ اقصد اننى يمكن أن اكتبها باسمك .. لتكون ملكا لك وحـدك ..

ـ فى مقابل أن أتزوجك ؟ ..

ـ باعتبارك ستكونين زوجتى ..

ـ هه .. انت اذن تطالبنى ان اتزوج الأبقار ؟ !

فلم أجد ثغرة فى الجدار انفذ منها الى التلاشى واحسست اننى أقل من لا شىء . وهـذا الشىء الذى هو جسدى احسست كأنه عبء ثقيل . كنت أبحث عن منديل ، وقفزت « لميـاء » كالقطة السيامية وناولتنى منديلا لا اعرف من أين خلقته لحظتها، وكانت تنظر فى ، وكنت انظر فيها ، فأرى فى عينيها الواسـعتين حنوا كبيرا ، يكاد يقنعنى انها أم عمرها سبعة آلاف عام ، وكنت واثقا ومدركا أن كل مشاعر المهانة منعكسة فى عينيها ، وانهـا تحتوينى بنظرتها وتواسينى كأنما جرحنى ناس آخرون ! . وكان الصمت العميق قد تجسدعلى المكان ، وكان ثمة ريح مجهولة تهيل الرمل الساخن على رأسى ، ثم جاء صوت « لمياء » مبللا بقطر الندى .

ـ هل اغضبك يا سمو الأمير ؟

تخلقت الابتسامة على شفتى وكان ميلادها يسبب لى المـا لذيذا ، قلت :

ـ طبعا يا « لميـاء » .. فالانســان يعز عليــه أن يتقرب الى ناس فيرفضونه .

احمر وجه « لمياء » وجالت على ملامحها عواصف من الحزن والاحساس بالذنب ، ، أما الوجهـان الأخران فلم أكن احفـل بوجودهما . لكن صوت « أم لمياء » شدنى بما فيه من صـدق واخلاص وصفاء غريب :

ـ بالعكس يا سمو الأمير .. نحن ناس غلابة .. ونحن لا سمح الله لا نرفضــك .. اننا وتربة خالى .. لسنا نحب أن نفعل شيئا تندم عليــه فيما بعد أننا .. والمصحف .. نرفض انفسنا من مكانتك انت .. سمو الأمير .. وتريد أن ترفعنا الى نسب الامارة .. وهــذا شرف كبير لنا .. لكننا نخشى أن أنت تركتنا لسبب من الأسباب ، أن نسقط محطمين .. أن أهلك الأمراء سوف يحنقون عليك لأنك تزوجت ابنة السائق .. انت ستدافع عن زوجتك أى نعم .. فكرامتها من كرامتك مهما كان.. لكنك فى النهاية ســوف تميل الى الكفة الأرجح ، كفة العائلة بالطبع .. وسوف لن يثنيك شيء من اخمادها بأى شكل .. فما أسهل أن تعطينا ثمن التبرؤ منا عند اللزوم .. اننا لا نحب أن ننظر الى فوق .. وأنت أيضــا الا تنظر الى تحت ! .. .

فما الذى أستطيع أن أرد به على امرأة فيلسوفة كهذه ؟ . فى تلك اللحظة فقط أحسست باننى أحتقر الامارة واكرهها ، فلو كنت شخصــا عاديا فلربما نجحت فى الحصول على « لمياء » انهم يخشــون الامارة ، أما شخصى أنا فلعلهم يحبونه ، ولكن من يدرى ، لعلهم يحترموننى من أجل الامارة ، ولعلنى بلا امــارة لا أساوى الاحترام فى نظرهم ، ثم ارتفع الصوت الذى يداخلنى يقول ان كل الأصدقاء الذين قاموا بمغامرات فى مصر لم تصادفهم امرأة كهذه أو موقف كهــذا ، ترى هل كل الأصدقاء يكذبون حين يحكون عن مصر ما يحكون ؟ . أم اننى سيىء الحظ ؟ ووجدتنى أرد على هــذا الصوت بأن مغامرات الأصدقاء هى التى خلقت مثــل هــذا الموقف ، فلو لم يغــامروا بسمعة الأمراء لمــا حــدث موقف كهذا . أيتها الامارة كم من الجرائم ترتكب باسمك .. ثم ضحكت ساخرا ، ونهضت واقفا ، فنهضوا جميعا بشكل آلى

ووقفوا صامتين .. قلت لهم انني آسف اذ اضطر الى السفر الى القاهرة الآن . فسألني « الأسطى ابراهيم » عن موقفي من مشروع الأبقار فقلت انني سوف أعود يوم السوق المتفق عليه أي بعد يومين . وبدأت أسلم فسلموا على جميعا بحرارة ، وسبقني « الأسطى ابراهيم » وراح ينقل كل أشيائي الى العربة ، وأخذت أراقبه فأراه لا يبقي على أي شيء . ثم انه تركني وغاب بضع دقائق ، ثم عاد بعربة نصف النقل من نفس القرية وصار يحملها بقية أشيائي وأنا أتابعه في حزن شديد . وكنت انتظر المعجزة التي تتحقق فجأة فيتضح لي انه غير جاد فيما يفعل ، ولم أكن بعد قد قررت ما الذي سأفعله بكل هذه المنقولات ، واين سأذهب بها . لقد كنت أجري مناورة ولكنها فشلت وصرت في موقف لا أحسد عليه وصارت الامارة على وشك الوقوع في الأوحال ، وكان « الأسطى ابراهيم » يتلكأ في نقل الأشياء ، ويتمهل ، ويعيد الترتيب ، على العربة بهدوء أعصاب منقطع النظير ، فكان يخيل الى انه يتعمد هذا ليعطيني فرصة للتراجع عن السفر ومن ثم تبقى الأشياء عندهم كجزء من مؤامرة الرفض الهادىء الذي يؤدي الى أن يبتلعوني ابتلاعا الأمر الذي جعلني اتذرع بهدوء الأعصاب أكثر منه لايهامه انني جاد في السفر .. فاذا بي اكتشف انه يتمهل هذا ليعطي الفرصة للحارة كلها وربما لأهل البلد كلهم ليروا انني اخرج من عندهم بكل اشيائي كما دخلت .. فعرفت ان الفلاح المصري في بساطته خادع كمياه النيل بقدر ما يحمل في تكوينه من أخلاق النيل ، ترى فيه بقعة مرتفعة مفروشة بالحشائش فتظنها جزيرة صغيرة محاطة بأعماق لا نهاية لها ، وربما اتضح كما تقول حواديتهم أن هذه الجزيرة تمساح كبير نام مخدرا بعد وجبة كبيرة .

ــ تفضل يا سمو الأمير ..

فوجئت باننى جالس على كرسى امام الباب والأطفال حولى بالعشرات ، حفاة عراة يعف الذباب على مؤخراتهم وعيونهم ، وبقايا الوسخ عالقة باجسامهم الضامرة ، وكنت أخشى أن يلمسنى احدهم فيلوث ثيابى او يثير قرفى ، ولكن هؤلاء الحفاة والعراة كانوا يشيرون الى ساخرين ، ويتساءلون بلغة طريفة لماذا الف هذه الملاءة على رأسى ، وبعضهم يسألنى عن اسمى ، وفى عيونهم لمعة بريئة ممزوجة بخبث لعله ذكاء . خيل الى انهم بعد قليل سيكبرون ويصبحون رغم بؤسهم الشديد ــ رجالا اشداء يصبح منهم الرؤساء والوزراء والخطباء الذين ينغصون علينا عيشنا ، قد ينشأ من بينهم بطل جديد يهدد عروشنا اشحت ببصرى عنهم فى قرف وقد جال بخاطرى ان وباء مهما كان عاتيا لا يمكن ان يفنى هذا النمل البشرى الذى يريد أن يشاركنا فى ارزاقنا . وقع بصرى على جندى يمسك مدفعا رشاشا وتنطلق من وجهه ابتسامة متحدية ، اخذت اتفرج على صورته المعلقة على حائط فى الشارع ، تقدم طفل وقال لى فى زهو :

ــ انه اخى .. الذى عبر ..

قلت له :

ــ عبر ماذا يا شاطر ؟

ــ خط بارليف !

قلت له مازحا :

ــ هل تعرف خط بارليف ؟

قال مشوحا :

ـ لا اعرف .. واخى هـذا عبر ومات .. ونحن أيضـا متنا كلنا ..

انزعجت :

ـ كيف (ضحكت) ها انتم احياء .. فكيف متم ؟

قـال :

ـ ابى يقول هـذا .. وامى ايضـا تقول اننا متنا كلنـا من الحزن عليه .

كان طفلا لطيفا ، فى وجهه شبه كبير من الجندى ..

وقال الصوت الذى بداخلى :

نحن لسنا فى حاجة الى جنود انما نحن فى حاجة الى ايدى عاملة .. ثم داخلنى بعض الاشـفاق عليه فأخرجت من جيبى قطعة نقود لعلها بريزة ، مددت بها يدى نحوه فى اغراء :

ـ خد يا شاطر .. خد دى علشانك .

فانتبه الأولاد كلهم ووقفوا مبهوتين ، ووقف الطفل حائرا مترددا امام يدى . وقلت للأطفال :

ـ ساعطيكم انتم ايضا .

فقال طفل آخر :

ـ لا تصـدقوا ياولا .. انه يريد ان ياكلكم . احسست بقلبى يغوص فى الأرض . ثم تهت عن كل ما حولى ، راسى كبراد الشاى يغلى ويتنفس . هل تذكرون ما سمعناه منذ شهور قليلة ؟ اظن ان بعض الصحف التى يحررها المصريون فى بلادنا قد رددت شيئا كهذا أو لعلها كانت شـائعة من الشائعات المهم اننا سمعناها

وكانت تسرى بيننا مسرى الحقيقــة : فقد قيل ان ثمــة بعض الاثرياء الكبار من قومنا كانوا يتسلمون من الملاجىء المصرية أطفالا صغارا فى شــهورهم الأولى من الذين استغنى عنهم أهلهم أو من اللقطاء ، بحجة انهم يتبنونهم والواقع انهم يذبحونهم ويأكلون أجزاء من لحمهم ، حيث وقر فى آذهانهم أن لحم الأطفال الرضــع يقوى الباه فضلا عن انه يطيل العمر !

لحظتها يا أصحاب .. لحظتها .. والله لا أعرف كيف أصف لكم شعورى ، لقد أوشكت على أن أكره الطفل ولكن ملامح وجهه كانت تحمل الكثير من ملامح وجه ابنى ، حتى لكأنهما شقيقان . على اننى عــدت فكرهت الامارة كرها حقيقيــا ، وكرهت أكثر ما كرهت ان يكون الانسان ثريا ، أنتم تعرفون اننى أحب الثراء، وكل الناس قاطبة تحب الثراء وتسعى اليه ، ولكن .. ملعون ذلك الثراء الذى يسىء الى الحيــاة نفســها والى البشر . لا أكذبكم القول اننى حين تذكرت حكاية الاثرياء الكبــار وحبهم للحم الأطفال تذكرت اننى الآخر كنت قد صدقتها ذات يوم فى بداية ثرائى ؛ وفى تلك اللحظة تساءلت بسرعة ما اذا كان من الممكن أن أحقق هــذه الأمنية التى جالت بخاطرى ذات يوم بعيد . وكان يبدو لى انه من المــكن أن يأكل الانســان طفــلا أو طفلين فى طقتين متباعدتين طالمــا أن أعداد الأطفال ها هنا موازية للتراب .. ولكن لم يمنعنى من وضع هــذه الفكرة موضع الاعتبار الا منظر ابنى وهو ينفسخ على مائدة وثمة ذقن طويلة تغوص فى دهنه وتمصمص عظامه . ثم اننى نهضت واقفا وقد قررت أن أخلع عن نفسى الامارة فى الحــال ، ان انبذها وأنبذ كل هــذه الأشياء ، أن أوزعهــا على الغلابة اننى لم أخسر فيها شيئا ، فثمنها كسبته بالفهلوة من تجار مصريين وسماسرة ، وهؤلاء التجــار والسماسرة كسبوا بدورهم

وما كسبه كلانا أن هو الا دم هؤلاء الأطفال ـ قررت أن أترك اشيائى دون أن احمل حتى عبء توزيعها ، وان انصرف بطولى فقط راكبا عربتى .

كان « الأسـطى ابراهيم » قد وقف صامتا فى انتظـار أن أتقدم للركوب ، فى حين ركب الآخر عربته نصف النقل وجلس يرقبنا فى سأم . تقدمت نحو العربة وأنا أقول فى تفخيم لعله آخر بقية من طقوس الامارة :

ـ اسطى ابراهيم .. الحاجات دى أنا مش عايزها .

ـ مش فاهم يا سمو الأمير !

وكان شيئا ينتفض على وجهه كعصفور شرير .

قلت بينما اشيح بوجهى عنه :

ـ يعنى مش لازمانى .. أنا متنازل عنها ..

وركبت وصفقت الباب ورائى صفقة لم تتخل عن الامارة مما اربكنى قليلا . مال وجه « الأسـطى ابراهيم » نحوى وقد بدا أنه سيفجر بالدم الغاضب ، وهمس فيما يشبه الهـدوء الذى يسبق العاصفة :

ـ مفيش داعى يا سـمو الأمير .. احنـا ما نرجعش فى كلامنـا أبدا ..

حاولت استدعاء لهجة تعبر عن الصـدق فلم أجد كما خيل لى ، ولكننى قلت وأنا احـاول تهدئته بحركات من يدى :

ـ اسـطى ابراهيم .. صـدقنى .. هـذه الأشـياء لا تلزمنى .. فاذا كان هناك من يحتاج اليها فانا ساكون مسرورا لو تفضلت وتكرمت بتوزيعها عليهم .

فزام « الأسطى ابراهيم » كأنه أسد حبيس ، وقال لأول مرة بغلظة تتمسك بأهداب اللياقة :

ـ طب انزل سموك انت فرقها بنفسك .

قلت بضيق :

ـ عافينى من الموضوع ده .. انت تعرفهم اكثر منى .

ـ انا ماليش دعوة .. من حكم فى ماله ما ظلم .. وهذا ليس مالى .. وانا لا أحكم فيه .

قلت بضيق أشد :

ـ خلاص .. انت حر ..

فرفع وجهه ووقف يائسا مهانا ينفخ من الغيظ ، واخيرا التفت نحوى وقد همدت ملامحه وشحبت :

ـ طيب بعد اذنك دقيقة واحدة .

ثم اختفى ...

ظللت جالسا فى العربة والأطفال يثيرون حولى زوابع مع الصخب ، وكانوا قد اهملونى تماما . طال الوقت ، وحتى سائق العربة نصف النقل اختفى هو الآخر . وبعد علبة سجائر كاملة انفقتها فى تدخين الانتظار أهل من آخر الحارة « الأسطى ابراهيم » وبجواره ثلاثة رجال : ميزت فيهم كلا من العمدة وشيخ البلد وسائق العربة نصف النقل ، فأحسست بانقباض شديد ، ولكننى تدرعت بالابتسام ، وتدرعت أيضا ـ ومرغما ـ بالامارة لعلها تنقذنى من اى مظهر عدوانى ؛ فلم انزل من العربة كما كان العمدة ينتظر احتراما له . الأمر الذي قلب ملامحه ونثر فيهما عدوانا وضيقا شديدين قررت مواجهتهما بمزيد من الامارة ..

ومال العمدة نحوى قائلا فى احترام :

ـ ايه يا سمو الأمير .. لمـاذا لا تأخذ اشياءك ؟ !

فقلت بعنجهية ندمت عليها :

ـ انا متبرع بها للفقراء والمحتاجين .. وزعها انت او شيخ البلد عليهم .

ـ ولمـاذا تضعنا فى مسئولية ؟ .. اننا مهما فعلنا لن نكون عادلين وستجر علينا القال والقيل ووجع الدماغ .

قلت بعجرفة :

ـ اذن فاتركوها هكذا لمن يريد ان يأخذها .

وكان الغضب قد بلغ بالعمدة مداه واراد ان ينتقم لهيبته ، فاشار لكل من السائقين :

ـ ارمى الحاجات دى يا اسـطى وروح .. سيبها فى الحارة زى ما هى كده .. وانت يا اسـطى ابراهيم خش دارك واقفل بابـك .

قال الأسطى ابراهيم :

ـ بس هو أمانة .. سمو الأمير امانة عندى لازم أوصـله بالعربيـة لحد مصر .. وفى نفس الوقت مش حاقـدر امشى الا أما اشوف الحاجات دى مصيرها ايه ؟

ـ خلاص انت حر .. خليـك .. نزل انت يا اسـطى ..

وفى ظرف دقائق محدودة كانت اشيائى قد بعثرت على ارض الحـارة ، وانصرف العمدة وشيخ البلد فى الغربة نصف

النقل . وبدأ الناس يتجمعون ويتكاثرون حتى صرنا فى خيمة ثقيلة من البشر ، ترددت أصوات : سمو الأمير مش عايز الحاجات دى .. خلاص ناخدها احنا . ثم تقدم واحد واخد حقيبة ومضى ، فشنكله أحدهم وكسر ساقه فوقع على الأرض صارخا . وتقدم آخر واختلس شيئا .. فجاءته ضربة على رأسه من الخلف ، وانتزع طفل شيئا وجرى ، فجرى وراءه عشرات ، وخلفهم عشرات ، ثم ان العشرات اشتبكت مع العشرات فى عراك رهيب جعل كثافة البشر تزحف بعيدا عن الأشياء . وتوسع طريقا للعربة ، فانتقلت الى مقعد القيادة وأدرتها وزحفت قليلا ، وكان العراك قد اتسع بالصوات وطلقات الرصاص .. ثم تقدم صبى رث الهيئة حافى القدمين فأشعل النار فى الأشياء وصار يذكيها باشعالات أخرى متعددة حتى ارتفع اوارها مسابقا اوار المعركة . بينما جازفت انا ودست على البنزين فقفزت العربة واجتازت الحارة وحودت ، ثم هبطت على براعة خرافية جعلتنى اتراقص بالعربة كالبهلوان متفاديا الاخطار فما ان اعتدلت على الطريق الزراعى حتى بدأت الرعشة تهزنى ، فارتبكت ، فاذا بعربة نقل كبيرة بمقطورة تثب فوق مؤخرة عربتى فتفعصها وتعتدل وتجرى وكأن شيئا لم يكن . وانتظرت أن تقف عربتى من اثر الضربة فلم تقف ، فظللت أمشى بها وقد داخلنى شعور قليل بالراحة اذ ان هذه الضربة الكبيرة شرف لى فى هذه اللحظة ، اذ انها يمكن أن تنفى عن مظهرى صفة الامارة ! تلك التى قررت الا أعود اليها حتى لو منحتها بقرار رسمى !

هات كأسا يا ولد ..

((تمت))

اهــــداء

خيرى



لحس العتب

لحس العتب

ليست هذه الترابيزة العجيبة هي كل ما تبقى من آثار العز والنغنغة التي كانت تتمتع بهما ديارنا ذات يوم بعيد . فهناك صيت المزعالكة نفسه وهو وحده يكفي لجلب الاحترام عند كل من يسمعه . وهناك أعمامي الكثار الذين تكاد تتشكل منهم ومن ابنائهم وأبناء ابنائهم وبناتهم بلدة كبيرة جدا تسمى بالزعالكة لا يسكنها مخلوق واحد لا ينتهي اسمه بزعلوك . كما انه ليس في العب كله من لم يحلم بالزواج من بنات الزعالكة أو يزوج بناته من شبان الزعالكة . وهناك أبي نفسه ، الحاج عبد الودود زعلوك الذي عشق العلم فتعلم حتى شهادة عالمية الأزهر الشريف ، ثم خلع عمامة العلم واشتغل بالفلاحة وتجارة الحبوب ، نفس مهنة أبيه التي عيشته كالبرنس وكونت له ثروة هائلة تقاسمتها قبائل من أولاده .

غير أن أبي لم يكن في براعة جدي ولا حصافته ونصاحته ، ولا قدرته على التحويش والادخار . الا أنه يرمي الذنب كله على اتضاع الزمن ونذالة الأيام وكثرة العيال ، فكل ذلك قد أتى على كيس نقوده فصار مخزن الحبوب يتناقص حتى بات لا يحتوى على قوتنا الضروري ، فأصبحنا نشترى القمح والذرة والشعير من تجار

كانوا صبيانا عند أبى ذات يوم ، ونستقضى اللبن والسمن والجبن من أقاربنا الميسورين • أما أن يمد أبى يده ليأخذ من أحدهم قرش تعريفه واحدا فهذا ما يعتقد أن الموت أهون عليه منه ، لأن واحدا من الزعالكة لاينبغى له أن يشحذ حتى ولو كان يشحذ من أخيه ابن أمه وأبيه • ثم ان أبى لا يشجع الشحاذة أصلا حتى بالنسبة للعاجزين عن الكسب فما بالك بالأصحاء ؟ ولذا فقد عاش أبى مرهوب الجانب حتى وهو يشترى الحبوب ـ لأكلنا ـ بالكيلة •

وهناك ـ فوق ذلك ـ دارنا هذه التى ورثها أبى وحده باعتباره أصغر الأعمام الكبار الذين ورثوا قبل ازدياد عدد الوارثين • وهى دار لا تخطىء العين عراقة أصلها • وهنـــاك بعد ذلك الســـتر ، فالداخل الى مندرتنا لابد أن يجد كنبة عتيقة مفروشة بالحصير الملون والمساند ، ويجد كرسيا عباسيا بصينية نحاسية توضع فوقها صينية الشاى الذى سيجىء له بعد دخوله بدقائق ولابد أن يتكلم مع أبى فى تأدب شديد مهما كان مركزه ، ويقول له : « يا أبا الحاج » ، هو يعنيها بالفعل لا مجرد مجاملة ، وأن يحادث أبى كما لو كانت الثروة ما تزال تغرقنا والجاه ما يزال يتوجنا ، ولابد أن يتردد المثل السائر : ان ذبل الورد تبقى رائحته فيه ، أكثر من مرة •

وبقدر ما كان ذلك يرضى غرورى أنا واخـوتى فانه كان يحنقنا ، اذ أن اخوتى كلهم ـ وأنا من بينهم ـ لم نر من هذه الثروة ولا من هذا الجاه شيئا ، أى شىء ، بل لقد كان يساورنا شك خفى فى أن يكون أبى ـ هذا الجلف الخشن الغليظ الصوت ، والرقبـــة والملامح والأطراف ـ كان ذات يوم من الأيام ابن عز ، فنحن لم نره الا وهو يأكل القديد والمش فيحمد الله ويقبل يده ظهرا لبطن ثم يبرم سيجارة كعود الكبريت يعفرها فى استمتاع ، ويقضى النهار والليل

بالفانلة والسروال والصديرى وفى آخر الليل يتمدد على كنبة فى المندرة متوسدا حشية من القش متغطيا بحرام متهرىء · لا يشتغل سوى يوم واحد فى الأسبوع هو يوم سوق البلد ، حيث يخطف رجله الى السوق من صبيحة ربنا ، ليحشر نفسه بين باعة الحبوب والبذور والمحاصيل مختلقا لنفسه سمسرة من البائع والمشترى ، على السواء بصنعة لطافة معجزة لا يقدر عليها سواه ·

معظم الأشياء الثمينة التى ورثها أبى عن جدى قد فرطنا فيها بشكل او بآخر ، لسبب أو لآخر ، مع أن كل شىء فرطنا فيه لم نفرط فيه بسهولة ، انما يصير شغلنا الشاغل لشهور طويلة تتخللها مفاوضات واستشارات من أبى لبعض أقاربه ، بل واستخارات يلجأ فيها الى الله بقراءة آية الكرسى وسورة يس قبل النوم لكى يرى فى المنام حلما يدله على الفعل الصحيح بايعاز من الله · لكن الأشياء تسربت فى النهاية ، ولم يبق من معالم تاريخنا أثر حتى الا هذه الترابيزة العجيبة ، ولهذا رفض أبى أن يفرط فيها بأى ثمن ·

هى ترابيزة مستطيلة مما يسميه الناس فى بلدتنا بترابيزة الوسط ، أى التى أعدت لكى توضع فى المندرة بين الجالسين ، ليمتد فوقها الطعام والشاى · كبر حجمها يؤكد انها اعدت لعائلة كبيرة ذات مندرة كمندرتنا · طولها يزيد على مترين وعرضها يزيد على متر ونصف المتر · شكلها يدل على صنعة متينة متقنة ، شغل يدوى ، بأرجل مخروطية عليها نقوش وانبعاجات وتكورات تنتهى فوق الأرض بأقدام على شكل حوافر من النحاس ان تأملتها قليلا تبينت انها على شكل سباع كثيفة الشعر غليظة الأظافر ، ظللنا لسنوات طويلة نتوهم انها من الذهب · أما خشبها فنوع غريب جدا لم نعرف له اسما ، ولكن رائيها يتصور لأول وهلة أن عملية نقلها من مكانها يلزمهـــا

عشرة رجال على الأقل لكى يتمكنوا ــ فقط ــ من زحزحتها ، وكم كان مبهجا وطريفا أن يحاول أحدهم اختبار ثقلها فاذا هو يفاجأ بأنها خفيفة كالنكتة البريئة ، واذا هو قادر وحده على رفعها والسير بها لولا طولها وعرضها • هى مع ذلك متينة كالحديد الصلب ، ناعمة الملمس كالحرير •

وهناك هناك فى ابعد ركن فى ذاكرتى أكاد أرانى طفــلا فى حوالى الثالثة من العمر ارتع زحفا على سطح هذه الترابيزة رائحا غاديا فى زاططة وعمتى تلاحقنى لاهثة وامى تباشرنى من كل ناحية حتى لا يأخذنى حماس اللعبة فأنكفىء على الأرض • أيامها ــ فيما أذكر ــ كانت شبابيك المندرة مفتوحة على الدوام من نصفها الأعلى، حيث تنقسم كل ضلفة الى قسمين أحدهما سفلى وهو الأطول والآخر علوى وهو الأصغر ، فاذا انفتح النصف الأعلى لم يتمكن المارون فى الشارع من رؤية الجالسين فى المندرة • حينئذ يندهن شكل الضحى بلون السماء الصافية ، وما أسرع ما تفوت الشمس غارقة فى خجل الحياء تاركة فوق الحائط المواجه بقعة من دمائها كالكرة الحمراء تظل تضيق وتضيق الى أن تمحوها ظلال المغيب ، هذه الظلال التى باتت تسكن المندرة منذ سنوات طويلة ، منذ أن كفت مندرتنا عن استقبال الضيوف المهمين من الأغراب والتجــار الكبــار ، فبقيت الشبابيك مغلقة على الدوام الا ضلفة من الشباك البحرى لكى يدخل الهواء الطيب لأبى ، الذى لا يزال يهوى النوم ظهرا فوق الكنبة التى تحت هذا الشباك مباشرة ، ويقضى معظم الليل فوقها يقرأ الأوراد والتسابيح ويستقبل بعض اعمامى وعماتى العجــائز ، وشـــلة من أصدقاء قدامى •

* * *

والواقع أننى لست أذكر متى رحلت هذه الترابيزة من وسط المندرة الى الخزنة الملحقة بها · هى حجرة مستطيلة كالسرداب يفصل بينها وبين المندرة جدار من الخشب البغدادلى · لها بابان احدهما يفتح على المندرة والآخر يفتح على دهاليز الدار حيث تحف به بعض القاعات المهجورة ، ودويرة الفرن وتعريشة الكنيف تحت السلم الطينى · قيل ان هذه الخزنة كانت بمثابة محطة يتوقف عندها الطعام القادم من مكان ما فى الدار قبل أن يقدم للضيوف الجالسين فى المندرة ، حيث يتم ترتيب الأطباق وتعديل أشكالها وأوضاعها ، وحيث توضع كميات احتياطية جاهزة على الفور عندما يشعر المراقب للآكلين أن طبقا من الأطباق قد فرغ ، فيرفعه ليضع مكانه بدلا منه فى الحال · ولقد طوى أمرها مع أمر الترابيزة حين لم يعد لكليهما ضرورة تذكر ·

حتى هذا لم أعد أتذكره الا لماما ، انما أذكر ـ منذ وقت بعيد جدا ـ أن هذه الترابيزة قد احتلت ركنها هذا من هذه الخزنة ، وقد وضعت فوقها تلال من أشياء تنوء بحملها الجبال وتضيق باحتوائها دار بأكملها ، أكياس من قطن تنجيد وسخ مخلوط بالتراب والحصى وفتات الخرق والخيوط البالية كانت فى الأصل مراتب والحفة ووسائد منذ سنين بعيدة ·· صفائح كبيرة لتخزين الملوخية الناشفة والحلبة الحصى وزيت وسكر التموين ، تضاف اليها وفوقها صفائح أخرى لتخزين كعك العيد ·· صندوق خشبى من صناديق الصابون النابلسى يمتلىء بأشياء لا حصر لهـا من متروكات ومهملات صواميل ، مسامير ، غطيان كازوزه ، ظرف ساعة جيب قديم ، مغزل، نحلة ، فردة حلق بلاستيك ، شباشب قديمة متآكلة ، زجاجات عطر فارغة تختلط رائحتها العتيقة بروائح الرطوبة والتراب والعفن فتزكم

الأنوف برائحة زنخة · لم يكن أحد يحب التقليب فى هذا الصندوق الا عند الضرورة القصوى ، ولهذا كانت أمى تخفى فيه بعض القروش التى تبيع بها بيض الدجاج ، أو طورة بلح مما اشتريناه يوم سوق مضى تدخرها لأخى الغائب فى شغل الترحيلة · فلما انكشف أمر الصندوق صارت تخفى الأشياء بين الكراكيب العديدة ، حيث يصبح من المستحيل على أى منا أن يرفع هذه الكراكيب الثقيلة ــ وبعضها ثابت راسخ فوق بعضه البعض من سنوات وسنوات ــ لكى يبحث تحتها أو بينها عن شىء مخفى ·

امى هى الوحيدة التى تستطيع ــ فى غفلة منا ــ أن تسرب يدها بين الأشياء خلسة لتعود بالشىء المطلوب فى لمح البصر · كثيرا ما كان أبى يفاتحها فى اقتراض ثمن ورقة دخان لف ، فاذا هى تنكر صائحة :

ــ « منين ؟ النبى أشرف خليقة الله ما احتكم على ريحتها »!

حينئذ يركز أبى بصره القوى فى عينيها صائحا :

ــ « يامره ، يا مره بطلى كهن وبزى بقرشين » !

فاذا هى تشوح له ناحية الترابيزة قائلة فى ثقة :

ــ «الدار عندك اهه قوم دور فيها » !

وليس أبى مجنونا بالطبع لكى يقوم ويبحث فى هذه الغابة عن ابرة ، فيسلم أمره لله ويسكت · فى السابق كان يفعلها ، فيقوم وينكت الدنيا يقلب عاليها سافلها فوق الترابيزة فلا يجد شيئا ·

اما تحت الترابيزة فالأمر أشد وانكى : ركام لا حصر له من أشياء قديمة بالية لا لزوم لها على الاطلاق ، ومع ذلك لا أحد

يعرف لماذا نحتفظ بها ؟ ولماذا نتركها تحتل هذا المكان ؟ ولطالما تساءلت هل نحتفظ بها لوجود هذا المكان ؟ أم لقيمة معينة فيها ؟ أم أن هذه الأشياء من تلقاء نفسها زحفت تحت الترابيزة واختبأت لتنجو بنفسها من شدة اصرارنا على استعمالها حتى وهى مفككة أو ذائبة او مهملة أو صدئة • الذى انا متأكد منه أن أى شىء يزحف تحت الترابيزة أو يسقط سهوا فانه يكون قد وورى تحتها الى الأبد ، ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تكتشف المكان الذى سقط فيه هذا الشىء أو ذاك • ومع ذلك فاننا لا يحلو لنا عد القروش أو فحص بيض أو فعل أى شىء ، من هذا المقبيل الا على الجزء المتبقى من فراغ الترابيزة • وقد تعود الواحد منا أن يمسك الشىء باعصاب متوترة ، فما أن يرتبك ادنى ارتباك حتى يسقط الشىء من بين يديه ، فيندفع الواحد منا فى الحال وراءه منقضا عليه قبل زحفه تحت الترابيزة ، ولكن عبثا ، انه لابد أن يكون قد اختفى فى لمح البصر ، اذا كان قرشا فقد فر ، ليستقر فى منعطف مجهول ، وأن كان فردة حلق فان الأرض تنشق وتبلعها ، وان كان فردة حمام أو دجاجة فان أيدى الجن نفســه لن تفلح فى الامساك بها بل لا تعرف فى أى ركن تختبىء ، الا أن تخرج هى بمزاجها بعد انتهاء المطاردة ، وربما تعطلت عن الخروج نهائيا • وان حاول أحد أن يقل عقله وينحنى غاطسا تحت الترابيزة فى محاولة يائسة للبحث فانه سيشعر من اول نظرة ان الأمر مستحيل سيرى غابة من : بقايا محراث قديم من أيام ما كنا فلاحين نملك أرضا ، مع بعض فأس وبعض كريك وعجــلات مشرشـــرة من مخلفات نورج قديم هرم ، وبرذعة تشهد أن كان لدينا ركوبـــة توصلنا ، وفردة رحاية وضعنا زميلتها كمسند لزير الميـــاه منذ صار فى بلدتنا ماكينة للطحين ، وطشت غسيل نحاس كان ذات

يوم عزيزا الى ان تآكل قعره فصار مجرد اطار كالمنخل التحم بالأرض واشتبك بأشياء اخرى ، وميزان حدادى كبير بلا كفات يقال أننا كنا نزن عليه اللحوم المشتراه أو التى نوزعها فى عيد الضحية ، وحطام صندوق ملابس كان من شوار أمى واحتفظت به لاصلاحه لكنه تشتت قطعا قطعا · وهناك الى ذلك براريض وقباقيب واجولة وغير ذلك من اشياء فقدت شكلها واسمها واصلها فباتت مجرد أشياء ·

اى رجل من عائلتنا او اى زائر يضطر للدخول الى هذه الخزنة يصيح أبى من خلفه محذرا اياه فى جدية بالغة :

ـ « اياك والاقتراب من الترابيزة ! والا فلو وقعت تحتها فنحن غير مسئولين عنك » !

وحينما زاد عدد افراد عائلتنا واقتسموا الدار ضاقت بنا القاعات وتزايد عدد اخوتى فصرنا ننام فى هذه الخزنة ، نفترش حصيرا تآكلت اطرافه وبقع كثيرة من وسطه فبرزت خيوط الدوبارة من كل ناحية وصارت تشبك فى أصابع اقدامنا وتلتف عليها كلما تقلبنا أو تمددنا . كانت نومتى تجىء دائما فى الطرف بجوار الترابيزة ، فاظل طول الليل منكمشا على نفسى خشية أن يزحف على مجهول قادم من تحت الترابيزة يقرصنى أو يلحسنى أو يأكلنى · فان تقافز فأر أو خنفساء بجوار رأسى فزعت · أما ان لمس أذنى أو أصبعى فاننى انتفض فى الحال صارخا لأظل جالسا فى موضعى بقية الليل ارتعش · تتقلب أمى النائمة تحت اقدامنا متوسدة ذراعها ، تقول من خلال نومها : « مالك يا وله » ، فاقول باكيا : « فيه حاجة كانت بتلحس فى » فتتفقو من جديد قائلة « قول باسم الله الرحمن الرحيم ونام ! » . ولربما انتفضت

هى الأخرى فى الحال نافضة ساقها بذعر خفى ، فأعرف أن ذلك المجهول الغامض قد لامسها عند مروره . وحين تستيقظ هى فى الليل وترانى جالسا أحزق من الخوف ، تتزحزح ناحيتى وتأخذنى فى حضنها حتى أنام ، ولكن منطقة تحت الترابيزة تبقى طول الليل فوهة يفح منها الخطر الخبيث المخادع .

* * *

عندما التحقت بمدرسة البلد لم يمض عامان حتى أصابنى مرض غريب حار فى فهمه حلاق صحة البلد ، لكنه سلمنا بعض أقراص صغيرة صفراء تسمى « الكينين » وأوصى بأن آخذ قرصا بعد الأكل ثلاث مرات يوميا . فما فعلت هذه الأقراص شيئا سوى أنها صبغت بياض عينى بلون الاصفرار الكابى ، وهدلت كل أطرافى ، فصرت أقضى النهار كله جالسا القرفصاء فوق الكنبة العتيقة فى المندرة ، آكل أطباق الأرز باللبن وأشرب الليمون حتى كرهت طعم الحلاوة فانقلب فى حلقى الى مرارة دائمة . وان هى الا أيام قليلة حتى لحق بى أخى خالد ، فانضم الى جوارى على الكنبة مصفر العينين والوجه بارز عروق الرقبة .

مكثنا على ذلك طويلا ، حتى بات منظرنا مألوفا كأنه جزء من هذه الكنبة . وصار ضيوف أبى يسموننا المتهمين ، اشارة الى جلستنا القرفصاء معا لا نفعل شيئا ولا نتكلم ولا نبتسم ولا نبكى كأننا فى انتظار حكم سيصدر علينا بعد قليل . غير أن هؤلاء الضيوف الذين أشبعونا تريقة ومسخرة هم الذين نصحوا أبى بضرورة الذهاب بنا الى مستشفى البندر أو الى الحكيم ، ويا حبذا لو كان الحكيم هو « البير فهمى » الشهير فى بندر دسوق الذى يذهب اليه كل مريض فى بلدتنا فيشفى .

ولم يكن ابى فى حاجة الى هذه النصيحة ، انما كان فى حاجة الى قرشين لكى ينفذها فى الحال · وكان كلما استمع الى هذه النصيحة ينظر الينا فى أسى شديد ، ويهز رأسه قائلا فى عشم كبير :

ـ « ان شاء الله ! ان شاء الله حاوديهم لأكبر حكيم فى البنـــدر » !

فلما تكررت نصيحة الضيوف وازداد ثقلها عليه ، هز يده فى غضب مكتوم وقال من بين شفتيه فى هدوء شديد :

ـ « يا اسـيادنا هو الحكيـــم ده مش حياخد فلـــوس ؟ ولا حيكشف عليهم لوجه الله » ؟ !

واعتبر أنه بذلك قد خرج عن طوره وفقد أعصابه ، اذ أنه اضاف بنفس الهدوء :

ـ « متأخذونيش اذا كنت اتنرفزت عليكم » !

فانبرى عبد الفتاح الزيات قائلا من خلف الجرنان المفرود أمام وجهه :

ـ « يا عم شوف لك صرفه فى الترابيزة دى ! تمنها ممكن يعالج لك العيال » !

وكان يقرأ فى الصفحة الأخيرة ، أما الصفحة الأولى فقــد كانت مفرودة أمامنا مباشرة ، وكلمة : المصرى ، بالخط الثلث الكبير ، غاطسة فى العلم الأخضر ذى الهلال والنجوم ، وتحتهــا عنوان كبير بعرض الصفحة بالحبر الأسود يشــير الى اختفاء هتلر فى ظروف غامضة · قرأه محمد مصباح الجالس بجوارنا وقال :

« يعنى يا خويه الحـاج محمـد هتلر مش باين له حس ولا خبر ! يكونش بيدبر فرتينه جديدة » ؟

ووجدتنى انطق لأول مرة بعد شهور طويلة قائلا :

ـ « ده موت نفسه ! انتحر علشان الناس ما تشمتش فيه » !

هنا ازاح عبد الفتاح الزيات الجرنان عن وجهه ونظر لى فى دهشة مندهلة ٠ وجاراه فى هذه النظرة محمد مصباح ومحمود جميل وعلى بقوش ورمضان ابن عمتى ، الذى كان متربعا أمام الوابور متوليا سلطنة الشاى ٠ ابى كذلك نظر فى زهو شديد ، وفى زهو أشد قال :

ـ « يا عم دا فخرى ابنى عارف الحقيقـة ! أقطع ذراعى ان ما كان انتحر فعلا » !

وكانت الأكواب الزنك الصغيرة قد ارتصت امامهم فراحوا يشفطون الشاى منها بصوت عال وقد اندمجوا فى تفكير عميق ، فى صمت لا يخدشه سوى صوت الشفط وصوت الوابوريون باعثا الأنس الجميل فى قعدة العصارى التى تمتد الى ما بعد منتصف الليل ٠ وكنت أستطيع أن أرى خلف جلد وجوههم أفكارهم التى ينغمسون فيها ، وأراها من خلال وجه ابى الذى راح ينقل البصر بينهم خلسـة كأنه يعرف مقدما أن مؤامرة تدبر ضـده لانتزاع الترابيزة على وجه التحديد ٠

انهم جميعا من الأعيان المحدثين ، الذين كانوا منذ سنوات قليلة من الناس العاديين ، حتى قامت الحرب العالمية الثانيـة فحولتهم الى أعيان لا حاجة بهم الى الشغل ٠

فعبد الفتاح الزيات كان بقالا صغيرا من عائلة كبيرة العدد كلها من الفلاحين ذوى القراريط والفدان ونصف الفدان ، ومنهم عدد كبير من الأجرية والأنفار • ومنذ عودته من الجندية مرفها ناسيا امر الفلاحة باع فدانه الملك وافتتح بثمنــه الدكان ، وحشره بأنواع البضائع ، وملأ مخزنا كبيرا ببراميل الزيت وصــــفائح السـمن •

الناس فى بلدتنا معظمهم لا يملك النقود معظم أيام السنة ، ولذا فانهم يشترون حاجاتهم بالأشياء ، أو على ذمة محاصــيل قادمة • فأنت تدخل الدكان وتشترى باكو دخان أو باكو شــاى بأربع أو خمس بيضات • والمرأة تشترى الفلفل والشطة والكمون والخيط والطماطم والخضراوات بحفنات من الأرز أو القمح • كوب الماء الكبير الذى يوضع فوق الزير هو العيار السائد ، هذا الشىء بكوب من الأرز الأبيض أو بكوبين • وبائع القلل والبلاليص أو بائع البذح الحيانى أو أى بائع سريح ، قد يقطع البلاد طــولا وعرضا بحماره ليعود فى نهاية الرحلة وقد جمع رسماله أرزا وفولا وشعيرا وقمحا وبصلا وبيضا ، ليبيعها بدوره للتجـــار المتخصصين فيكسب فروق سعر تعوضه المشقة •

عبد الفتاح الزيات جمع من البيع محصولات كثيرة قــام بتخزينها كى يبيعها للتجار جملة ، فادركته الحـــرب فارتفعت الأسعار خمسة أضعاف ، فصار هو يبيع هذه المحاصيل بالقطاعى للآكلين بسعر السوق السوداء ، ليصبح بين عشية وضحاها من أغنياء الحرب الذين نتفرج على صورهم المكعبـــرة فى جريــدة البعكوكة التى يشتريها ورقا يبيع فيه البضاعة • ولقد اعرض قفاه ، وانتفخت ملامــح وجهـــه المســتطيل واحتفظت مع ذلك

بتناسقها ، مما جعل البريق فى عينيه السوداوين يضفى عليه شبابا فات أوانه ، وجاذبية تستر ذلك الأوان • غير أنه لا يرفع عينيه فى امرأة الا مخفوضتين ، واذا خاطب النساء خاطبهن بأدب جم : يا خاله فلانة ، يا جدتى علانة ، يا أم فلان • لكذلك يخاطب الرجال برفق شديد كأنهم جميعا أطفال يسايسهم • لا يحتد لسانه فى اى مناقشة حتى لو كانت تمس أخطر أمور حياته ، لا يحتد الا عند الكلام فى السياسة ، اذ هو مغرم بالسياسة كأنها مزاج وكيف يتعاطاه بلذة فائقة • وان جاءت سيرة هلتر أو موسولينى أو النحاس باشا أو سعد زغلول أو غيره دب النشاط فى عينيه وارتعش كيانه وتأهب للخوض فى أجمل حديث فى الدنيا • وهو الى ذلك يعرف القراءة لكنه لا يعرف الكتابة ، يقرأ الجرنان بطلاقة ويعجز عن كتابة جواب • وأزيد من دفتر الشكك لا كتابة عنده ، حيث القلم الكوبيا المربوط فى الدفتر بدوبارة يحرث فوق الورق أخاديد ومنبعجات فى شكل أرقام وأسماء ، وهى مجرد رموز لا يقرأها سواه • الأغرب من ذلك انه خطيب سياسى مفوه ، لكل نواب الدائرة يسعون لكسبه ، ثم انه رئيس لجمعية تعاونية شارك فى تكوينها ـ ضمن جمعيات كثيرة ـ لكى تعاون الفلاح والعامل • يجتمع أعضاؤها فى مندرته ، يستقبلون أفندية وعمالا من كفر الدوار والمحلة الكبرى ودسوق ، يخطبون ويتكلمون كلاما كبيرا عن الوعى العمالى وجهل الفلاح وساعات العمل والاستعمار والصهيونية • ودائما نظيف الثياب كأنه يغيرها مع صلاة كل فرض •

اما محمد مصباح فانه من كبار التجار وان كان لا يفتح دكانا ولا مخزنا ولا يقتنى عمالا ، هو يملك الفلوس فحسب ، لا ليصرفها بل ليدخرها • أنت فلاح شاطر وسيرتك حسنة ويلزمك

بقرة تدور فى الساقية وتدر لبنا ؟ هو يشتريها لك من سوق الشين ويتركها عندك لتقوم أنت بالعلف والرعاية ويكون له نصف ما تدره البقرة من لبن ونصف ما يباع من خلفتها • أنت رجل صـــاحب مصاريف ويلزمك فلوس أو لا قدر الله وقعت فى أزمة مفاجئة ؟ محمد مصباح يقرضك على المحصول • عند الحصـــاد يجمـــع محصولا اكبر من محاصيل الفلاحين ، يبيعه للتجـــار وهـــو فى الأجران • فلما قامت الحرب صار يجمع المحاصيل فى مكان خفى ليبيعها بالكيلة والقدح زاعما لدى كل بيعة أن هذه الكيلة أو هذا القدح هو آخر ما عنده •

هو مكلبظ الوجه أحمره ، غليظ الشفتين ، يوحى منظره بأنه أكل لتوه ديكا روميا • وذلك صحيح ، فانه يموت فى الأكل • وقد تعود بيته أن يرسل اليه البرام المعمر حيث يجلس فى أى دار ، فلا يتورع عن تشمير ذراعيه ليأتى على البرام كله فى دقائق • والمعمر دائما حمام لأن لديه أبراجا كبيرة كثيـــرة • وقد تعود أصدقاؤه أن يتقبلوا ذلك بصدر رحب • وكثيرا ما تتطوع أمى بتقديم طبق من اللفت والليمون والباذنجـان المخلل مع أن الرجل مفتوح النفس من حاله • ويتطوع واحد منا فى الصباح بتوصيل البرام الى داره ، وقد يرجع بفردتى حمام على سبيل الهدية • فما أن ينتهى هو من الأكل حتى يمسك بالجوزة ليشرب كرسى الدخان فى بطء شديد ، حيث تنتفخ عروق رقبته وينزرد وجهه ، ويتلمس أى سبب لينفجر ضاحكا بصوت صاعق رنان كصوت جرس الكنيسة ويصير رأسه كالكرة الملتهبة يتقافز فوق عنقه التخين • هو كذلك مغرم بالنكتة ، وكل نكتة سياسية هجية قد لا يفهمها السامع ولكنه مع ذلك يضحك ربما من شدة هيافتها • مغرم كذلك بشراء الأشـياء بالشروة ، عمره ما اشترى من الشىء شيئا واحدا : العنب بالقفص

وربما بالأقفاص ، والطماطم بالمشنة ، والسمك بالجنبة كاملة ودون ميزان شرط أن يغطيها ولا يطيل الفصـال حتى لا يراهـا أحـد فينظرها • ومرة صادف فى الطريق رجلا يبيع القباقيب ، فاشترى منه الكمية كلها • فظل أبي شهورا طويلة يسخر منه ويقترح عليه أن يشارك عليها الفلاحين ، ومن حين لآخر يسأله عن صحة القباقيب مع أن الرجل تبرع بها فى النهاية لمساجد البلدة لينتفع بها المصلون عند الوضوء •

وأما محمود جميل فانه فى الأصل نجار سواقى شـاطر ، دقرم ، يفهم فى كل شىء ، يحب الابتكارات الجديدة حبا جنونيا • ما ان يرى آلة جديدة ذات فكرة طريفه حتى يعكف عليها فلا يهدأ له بال حتى يعرف فكرتها ، كيف تدور وكيف تعمل وعلى أى طريقة ركبت ، ثم لا يلبث حتى يفعل مثلها أو شيئا شبيها بها • كان يتفنن فى صنع دواليب الملابس للأعيان ، بأشكال زخرفية متقنة يأخذها من بعض المجلات ، يبتكر لها مفصلات عملية ومقابض عاجية وكوالين تختفى تماما • كذلك كان متخصصا فى صنع الحقائب للمدرسين والتلاميذ ، من الأبلكاش المدهون • وقد اخترع ذات يوم مرجيحة الصناديق ، ولا ندرى أين رآها ، لكننا ذات يوم عيد طلعنا القرافة وتجولنا فى السوق المقام فى سفحها احتفالا بالعيد ، ففوجئنا بصرح حديدى منصوب فى الأرض ، كقاعدة لطارتين كبيرتين مثل تـرس الساقية ، وعدد من الصناديق الملونة ترتفع فى الهواء لتهبط وتختفى برهة لتعود فترتفع وهكذا . فى كل صندوق يجلس طفل او أكثر يصيح من الغبطة . كل أطفـال البلدة وشبانها وبعض رجالهـا الهايفين ركبوا مرجيحة الصناديق يومهـا • ثم انها باتت ملمحـا رئيسيا فى يوم العيد من كل عام .

وهو أول من اشترى ماكينة للتذرية بدلا من المذراة اليدوية ، عبارة عن بضع مناخل فوق بعضها داخل صندوق خشبى ، لهـــا حنك مفتوح على الدوام ينفث تراب القشرة ، ومنه نرى المناخـل رائحة غادية تحت بعضها فى حركات متعاكسة ، ولها فتحة على السطح كالقادوس يدلق فيها القمح المدروس بترابه ، ولها كذلك مؤخرة منبعجة من الصاج النظيف ذات فتحة كالشرم ينـــزل منه القمح النظيف خاليا من القشرة ، يستأجرها الفلاحون بالنقود أو بالمحصول ، حتى اغتنى ، ووسع ورشته فغدت كالجرن ، وسافر الى دسوق فتعرف على كبار تجار الأخشاب ، وحول ورشته الى شادر يمتلىء بجميع أنواع الأخشاب من ألواح ومرائن وعروق ، وسواق كاملة بكل معداتها الخشبية والحديدية ، وجميع أنـــواع الحدايد والكوالين والمسامير والمفصلات والأقفال والدرافيل ، لـم يدفع ثمن كل ذلك بالطبع ، انما دفع مبلغا يسيرا جـــدا للتاجر الكبير ، على أن يدفع الباقى مقسطا تقسيطا مريحا . ما كاد يفعل ذلك حتى قامت الحرب ، وعزت الأشياء ، فاخفى البضائع وصـــار يبيعها بأغلى الأسعار ، وكل بضعة شهور نسمع أنه اشترى فدانا من فلان الفلانى ، أو اشترى حصانا من علان ابن ترتان . ثم ما يلبث حتى يبيع ما اشترى ، وسرعان ، ما ينكشف حاله ويبدو مفلسا لفترة قد تقصر أو تطول ولكن الفلوس لابد أن تستأنف جريانهـــا فى يديه من جديد . والجميع يعرف أن الأفيون الذى يمص جســده على الدوام يمص كذلك نقوده على الدوام . وسواء كان مفلسا أو فى رغد فانه لا يلبس الا كالح الثياب ، وأحيانا يمضى فى شـــوارع البلدة بالفانلة ذات الكم الطويل وفوقها الصديرى ، مع السروال

أبو دكة بشراريب ، حاملا عدة النجارة ، المنشــار معلق فى كتفــه النحيف ، والقادوم والشاكوش والفارة فى يديه ٠

طويل كالنخلة الفارعة ، مربرب ، مستطيل الرقبة والوجه ، بملامح صلبة صارمة لوحتها الشمس واحرقت بياضــها القديـم وصبغت عينيه الملونتين بظلال كابية ٠ يلبس فوق رأسه المدبـب طاقية من الصوف الملون طويلة كالكأس ٠ فى مشيته ايقاع صعود وهبوط معا ، حيث يرتفع صدره مع كتفيه ويديه ليهبــط بين كل خطوة والتى تليها ، كمشية المصارع يدب نحو خصمه متنمرا متحينا فرصة للانقضاض ٠ الشعر الكثيف يغطى آسفل ساقيه كالوبرة ٠ فى شفتيه غلظة وشهوانية ينمان عن ثور هائج شرس مخفى فى قاع بعيد جدا من عينيه اللتين ان ركزهما فى امرأة خرت فى الحال واعتراها خجل وارتباك ٠ اذا ضحك مد بوزه وفشخ حنكه بصعوبة ، لتبرز أسنانه الأمامية الكبيرة مصبوغة بلون الشاى وسواد التدخين الذى لا ينقطع لدرجة أنه ـ فيما يشاع ـ يصحو من النوم ـ اذا نام ـ فى موعد كل سيجارة ليشربها باخلاص ونهم ، وقيل ان لحظات نومه طول حياته هى اللحظات الخاطفة التى يغفو فيها بين كل نفس من السيجارة والذى يليه ٠

زئر نساء كبير ٠ الناس تحيك حوله حكايات لا تنتهى أبدا ، معظمها قد تصبح كذبة من أول اشارة ، لكن الجميع مع ذلك وبرغم ذلك يستلطفون الحكايات ويستحسنونها فيحكونها على سبيل التندر والطرافة ، فيصدقها السذج الأغرار ويرددونها باعتبارها قد حدثت بالفعل ، وربما بالغ احدهم وسرح بخيال الآخرين فيؤكد لهم انه شاهد عيان ، كان عائدا من الحقل ذات فجرية قمرية فاذا به يرى شبحا عند بحر السبيل ٠٠ الخ الخ ، أو أنه كان ذاهبا يصـلى

الفجر فمر من الحارة الفلانية فرأى شبحا يتسلل فى الخفاء خارجا من البيت الفلانى .. الخ الخ · ولقد شهدت ميلاد معظـــم هذه الحكايات فى مندرتنا فى عمق الليل على ايقاع الجوزة وصـــوت غليان الشاى فى البراد فوق منقد النار ، وصـــوت الضـــحكات الصافية التى تنفلت فجأة مدوية بعد طول همس ودودة غامضة · رغم ذلك فأبى يخشاه بينه وبين نفسه ، لا يؤامنه على دخول دارنا فى غيبته او غيبة أحد من أبناء عمومتى الكثيرين جدا والذين لابد ان تنشق الأرض عن أحدهم حال قدوم أى ضيف أو زائر يطرق بابنا او باب دار من دورنا أيا كانت شخصية الزائر ، اذ لاشـــىء فى نظرهم يسمى صديق العائلة ، كما أنه لا وكالة عندهم بغير بواب . ولو ظهــرت امى عفــوا ، أو ظهــر طيفهـــا من باب الدهلـيز فيما هم جالســـون فان ليلتها تكون اســـود من شـــعر راســـها ، نبيت كلنا فى نكد وعياط يسبقه ضرب مبرح ، فما بالك لو بلغهم صوتها فى المندرة ضاحكا أو متكلما او حتى باكيا ، ان صوت المرأة عرزة وانها اذن للكارثة العظمى · ولا تكون العورة عورة بحق وحقيق الا فى حضور الرجال ، وعلى وجه التحديد فى حضور محمود جميل ، الذى أراح الناس انفسهم فى النهاية وأشاعوا انه قد خاوته جنية ·

المثير لدهشتى انه اكثر حميمية لأبى دون غيره من أصدقائه الذين يسهرون معه فى المندرة كل ليلة · يكون دائما آخـــر من ينصرف قبل وصول الفجر بساعة · ولم اكن اجد لذلك تفسيرا سوى أنه يجيد القراءة ، وبصره حديد ، يقرأ فى ضوء المصباح نمرة خمسة لكما يقرأ فى الظهيرة · فى حين أن أبى ضعيف البصر بحكم الطعن فى السن وان ظل قوى البدن كثور وأسعد اللحظات فى حياته هى تلك التى يختلسها من بقية أصدقائه قبل قدومهم وبعد انصرافهم ، حيث ينظر الى محمود جميل نظرة ذات معنى ، يتبعها

بقوله : « مش حنخلص أبو زيد من الأسر ؟ ! » ، فيمد محمود جميل يده الطويلة السرحة المغطاة بالشعر وقشف العمل الدائب ، الى طاقة الشباك المجاور ، ليسحب الجزء الكذا من السيرة الهلالية ويبدأ فى القراءة من حيث توقفا ليلة أمس حينما وقع أبو زيد الهلالى اسيرا . ابى وهو لاشك يعرفان هذه السيرة سطرا سطرا ويعرفان أن أبا زيد سوف يحدث له كذا وكيت بالتفصيل ، ومع ذلك فلا حد لمتعتهما وهما يستقرئان ذلك مثنى وثلاث ورباع دون ملل . ارضية الشباك كانت حافلة بعنترة وذات الهمة وسيف بن ذى يزن وحمزة البهلوان وألف ليلة وليلة وروايات جرجى زيدان عن تاريخ الاسلام ، من عذراء قريش الى شارل وعبد الرحمن والمملوك الشادر وارمانوسة المصرية وفتاة غسان وفتاة القيروان ، وكتاب شمس المعارف الكبرى وكتاب تفسير الأحلام لابن سيرين ، ومصاحف كاملة وأجزاء من مصاحف ، وتفسير الجلالين وصحيح البخارى . ولقد شاهدتهما يقرآن فى كل ذلك بعدد شعر راسى من الليالى الطوال .

الوحيد الذى كان يجاريهما فى حب الاستماع بنفس الحماسة هو الشيخ على بقوش أو الشيخ تكعبلها كما يسمونه فى مندرتنا وفى بعض انحاء البلدة . ذلك أنه أعمى العينين مغلقهما تماما ، عيناه كبؤرتين خزقتهما أصابع مجهولة ، ثم التأمت جراحهما فانغلقتا وبقيت شفرة الجرح خطا أحمر فى كل عين . حين يقرأ القرآن يفرد كفه واضعا ابهامه فى أذنه وتبصره فى احدى العينين كانه يضغط على أزرار يخرج على اثرها صوته ، اذ ينتفخ عنقه وهو يحزق ، وتربد ملامحه وتنضغط فى بعضها حتى ليكاد يخرج عن الوجه وجه آخر . صوته قبيح جدا الى حد لايمكن احتماله لبرهة واحدة ، وربما لهذا السبب وحده يتقبله الناس ويستمعون اليه درءا للشعور بالحرج ، بل انهم يغدقون عليه من أوصاف

الاستحسان ما قد لا يحظى به أصحاب أجمل الأصوات · يعيش على قراءة الرواتب فى البيوت حيث يتنقل من بيت الى بيت ، ليجلس فى المكان المعهود فيقرأ سورة أو بعض سورة ، ثم يصدق وينصرف، فى مقابل بعض كيلات من المحاصيل الزراعية عند الحصاد ، ناهيك عن أيام الخميس والجمعة والأعياد ، اذ يطلع القرافة لقراءة القرآن على أرواح الموتى ويعود محملا بأجولة من العيش والقرص والتمر والخروب ، مع بعض قروش ·

يمشى بجنبــه ، جنب الحائط ، متحسسا الأرض بعــكازه الأعوج · كل السكك والشوارع مرسومة فى دماغه خطوة خطوة ، يعرف جيدا ــ وبحنكة ــ متى يحود فيحود ، ومتى يستقيم فيستقيم ومتى سيصادف صخرة أو رحاية ثابتة فى الأرض أو مصطبة أو معجنة طوب فى الطريق ، فيتفاداها بكل دقة ، فى حين ربما سقط فيها المبصرون · يسكن فى حارة ضيقة متعرجــة تبعد عن دارنا بشوارع كثيرة متداخلة متفرعة · مع ذلك يحرص على المجىء الى مندرتنا كل ليلة مهما كان البرد قارسا ، وحتى فى عز اشتداد المطر ، حيث تصبح بلدتنا بحرا متعدد الشوارع والحارات من الطين السائل والروبة الزرقاء · كنا نفاجأ به يطرق الباب طرقات تنافس صوت الرياح الصرصر العاتية التى تعصف فى الخلاء باحمـال القش والحطب فوق أسطح الدور ، صوت كحتــه المميزة يختلط بصوت الطرق فنعرفه فنفتح له على الفور · واذ ينفتح البـاب تعقد الدهشة ألسنة الجميع ، اذ نرى أن العوص لم يلحقه بأكثر مما لحق المبصرين ، مجرد طين فى حذائه الميرى ذى الرقبة والرباط الذى اشتراه من مخلفات الجيش ، فلا يكون عليه أكثر من أن يخلعه ويسنده على عتبة المندرة من الخارج ويدلف داخلا يسبقه صــوت السلام عليكم ، ثم يأخذ سمته الى الركن الذى اعتــاد الجلوس

فيه • فان طالت الدقائق الزمنية وافتقد صوت أحد من أعضاء القعدة الليلية الدائمة الدافئة سأل عنه فى الحال • فان قيل له ان المطر قد منعه فانه يرفض التصديق ويختلق له عذرا آخر قد يكون السبب فى منعه ، وربما تطوع بالذهاب لسحبه •

وكانت القعدة تضم ضريرا آخر هو الشيخ زيدان الحاصل على شهادة العالمية من الأزهر الشريف ، ويسمونه فى بلدتنا بالقاضى ، لأنه كان يحكم فى مسائل الزواج والطلاق حتى لا يكلف الناس مشقة الذهاب الى المحكمة فى البندر ، اذ ما يكاد الخلاف ينشب بين رجل وزوجه ، أو بين خاطب ود وصهره ، حتى ترتفع الأصوات صائحة : « بينا ع الشيخ زيدان القاضى ! نعرف رأى الشرع ! » ، وفى هياج وثرثرة من جانبهم ، وصبر وطول بال من جانبه ، يتمكن من معرفة كل صغيرة وكبيرة فى الموضوع بل يتمكن من معرفة الأسباب الحقيقية للخلاف وهى فى العادة تكون مخفية وراء أسباب أخرى تبدو قوية وداعية للخلاف بالفعل ، وحينئذ ينطق بالحكم الصحيح المناسب ، فلا يجرؤ على معارضته أحد . ولا يستطيع التشكيك فى ذمته ، لأنه فى العادة لا يتقاضى أجرا على ذلك ولا يقبل حتى كلمة شكر ، بل انه قد يحكم لصالح أحد الطرفين ثم ينهال عليه لوما وتقريعا وتأنيبا ، فهو فى الواقع غير محتاج للأجر ، ويعيش من ريع ثلاثة أفدنة ورثها عن أبيه ويفلحها أولاد عمه •

وجوده كان ضروريا فى القعدة ، لأنه بمثابة القاموس السياسى والتاريخى والدينى • ان غاب عن لسانهم اسم زعيم فعل كذا ، فانه يسعفهم به فى الحال مقرونا بيوم الفعل وتاريخه • وان غمضت عليهم مسألة دينية حول الصلاة أو الصوم أو الحج

أو الحـــلال والحرام فانه يفتيهم فى الحال · بلســـان الشيخ المراغى والشيخ بخيت والشيخ الخضر حسين · فان لم يقتنع القوم فابن تيمية أو الامام الشافعى أو على بن أبى طالب · هو صاحب ذاكرة تبدو لى أحيانا كأنها صندوق سحرى ملىء بمئات المبصرين من عمال يمدونه فى الحال بملعومات لا نهاية لها ، حتى انــه كثيرا ما ينسيهم الكتب ويستقل بالحـديث ربما طول الليل ؛ فى سليمان الحلبى وكيف قتل الجنرال كليبر ، عن الشيخ الدرديرى وكيف تحدى الأمراء المماليك وهزمهم ، عن الخيول الفرنسية التى دهست سجاجيد الصلاة فى صحن الأزهر ، عن عمر مكرم ، عن المغاربة والأفاوقة والهنود والشوام من مجاورى الأزهر أصحاب الأروقة · أما ان تطرق الحديث الى أحمد عرابى وثورة ١٩١٩ وسعد زغلول ورفاقه فان أبى سرعان ما يصادره فى الحال ، مدافعا عن أرضه التى يخبرها جيدا ، ثم يتملك دفة الحديث فلا يجد من يراجعه فى شىء ·

الشيخ زيدان زيدان لم يكن فى صلابة الشيخ بقوش كعبلها ولا جرأته ، اذ يكفى أن يسمع من يقول : الدنيا ناويه تمطر ، لكى يمتنع عن الخروج من البيت أو ينهض فجأة يطلب من يسحبه الى أول الشارع العمومى ـ شارع داير الناحية ـ وفى معظم الليالى الممطرة كان الشيخ بقوش يصر على الذهاب الى دار الشيخ زيدان زيدان ليسحبه ويجىء به الى مندرتنا لولا أن الشيخ زيدان لـم يكن يطاوعه ·

***

كل هؤلاء لديهم منادر يستقبلون فيها الضيوف من أقارب أو أجانب · ويهمهم وضع ترابيزة أنيقة ثمينة فى وسط المندرة ، وعلى وجه التحديد ترابيزتنا · كلهم لهذا ـ يؤكد أبى باستمرار ـ طامعون

فى الترابيزة لكى يزينوا بها منادرهم . وهم ليسوا افضل منا ، ولا اعرق اصلا . صحيح اننا لا نستخدم هذه الترابيزة الآن بل نخفيها تحت المتروكات ، ولكنها فى النهاية ملك لنا نستطيع ابرازها وقتما نشاء · ومن يدرى ؟ لعل الأمور تنقلب فجأة لصالحنا من جديد كما هى منقلبة الآن لصالحهم · كان أبى يكاد ينطق بهذا المعنى بكل حذافيره ، مع تحريف بسيط مهذب ، اذ كان يقول لهم كلما جاءوا بسيرة التخلص من الترابيزة :

ـ « يا اخوانا هو معقول الحالة حتفضل كده ؟ أكيد ربنا حيكرمنا ونفسنا تنفتح للأبهة ونبقى نعرضها فى المندرة مع الكراسى اللى تناسبها » !

ولم يكن يغيظه ـ ويغيظنى ايضا ـ سوى هزة رءوسهم فى تسليم مبالغ فيه قائلين : « طبعا طبعا ! امال ! » ، كأنهم يقولون : « ابقى تعالى قابلنى لو حصل ! » ، بلهجة تدل على أن ذلك مستحيل غير أن ابى لم يكن يظهر غيظه ابدا ، انما كان اذا جاءت سيرة الحرب راح يصب جام غضبه على الحرب وسنينها السوداء وكيف انها قلبت موازين الدنيا فجعلت عاليها واطيها وجعلت النذل يتحكم فى ابن الأصول والكلب يملك مصير السبع ، ثم يعرج بالحديث الى الوزارة وخيبتها وحزب الوفد وتقاعسه ورائحة المماينة البادية فى سلوكه واستجابته لغزل الاستعمار ، ويشير الى أننا لو بقينا على هذه الحال سنة أخرى فلابد أن تأكل الناس بعضها ولابد للمركوب أن يقلب راكبه على الأرض أو تتهاوى به قواه ·

حينئذ يرمقه عبد الفتاح الزيات بنظرة هادئة · وفى رصانة باردة يقول كأنه يقرر حقيقة دستورية :

ـ « آه ! اذن فقد جعلناك رئيســـا للوزراء يا عبد الودود افندى ! فماذا انت فاعل ؟ هه ! أرنى الآن ماذا ستفعل ؟ انت الآن رئيس لوزراء مصر ! والحالة كما ترى ! العالم يأكل في بعضـــه ، ومصر غارقة فى الوحل والعبوديـــة والديون والجهـــل والفقر والمرض ! والمتكئين فيها طائفة من أصحاب الأطيـان والأرصـــدة يستقوون علينا بالانجليز فى مقابل ان يكونوا خدما للانجليز وعونا لهم علينا بالحماية الأجنبية ! فماذا أنت فاعل لنا يا حضرة صاحب المعالى ؟ ! » .

وكان أبى قد تأهب بالفعل لاعتلاء كرسى الوزارة ، واعتراه حماس مفاجيء اعتدل فى جلسته عدة مرات ، وجعل ينصت لعبد الفتاح الزيات فى استعجال كانه يستمع الى بقية المرسوم القاضى بتعيينه . ولكن يبدو أنه وجد المهمة صعبة جدا بل مســـتحيلة . ولحظتها كان بجواره طرطور من الورق المقوى على شكل طرطور شكوكو اشتراه أحدنا فى العيد الفائت وانمحت زخارفـــه الورقيـــة الملونة وبقى مجرد قرطاس سميك رأى أبـــى أن يحتفظ به لكـــى يستخدمه كقمع نفرغ فيه الجـــاز أو الزيت من وعـــاء الى وعاء . لحظة ذاك اكتشف أبى وظيفة جديدة له ، فاستخدمه كنفير ، وامسكه قائلا لمن حوله :

ـ « تعرفوا حاعمل ايه بعد ما بقيت رئيس وزارة ؟ ! » .

قالوا جميعا فى شغف حقيقى :

ـ « تعمل ايه ؟ ! » .

وضع النفير على شفتيه قائلا :

ـ « كنت الم الشعب كله فى ميدان عابدين واهتف : تحيا الوزارة الزعلوكية ! قولوا ورايا : تحيا الوزارة الزعلوكية ! » .

ثم أزاح النفير وصاح فى الموجودين :

ـ « ما تردوا ورايا : تحيا الوزارة الزعلوكية ! » .

فلم يرد أحد . فاذا بأبى يرمى النفير فى وجوههم صائحا فى غضب حقيقى :

ـ « على الطلاق بالتلاتة انتوا بتكرهونى ! يلا قوموا روحوا ! انا ما أعاشرش ناس بتكرهنى وتكره لى الخير ! يلا اتفضوا مع السلامة !! » .

لحظتها فتشت فى وجه أبى عن ظل للمزاح فلم أجد ، لـــم أجد الا غضبا عميقا احمرت له عيناه وامتلأتا بالحزن والألم ، والجميع يتفجرون ضحكا عميقا تنهمر له الدموع من المآقى ، فاذا أبى قد ركس على ركبتيه مشوحا كأنه يذب حشرة :

ـ كل واحد يقوم يقهقه فى داره ! احنا مش فاتحينها مضحكة هنا ! يلا ! » .

فشوح محمد مصباح فى وجهه قائلا :

ـ على الطلاق ما احنــا قـــايمين ! هى الوزارة بالدراع واللا ايه ؟ ! » .

وقال محمود جميل :

ـ « أما دى تنكتب فى الجرايد بصحيح ! قدر يا أخى اننا لقيناك ما تصلحش للوزارة ! نسيبك ولا نرفدك ؟ احنـــا دلوقت ما نوافقش على تعيينك أصلا ! » .

وفى جدية بالغة قال الشيخ كعبلها كأنه يخطب على المنبــر فى المسلمين كافة :

ـ مصيبتنا يا اخوانا اننا لا ندقق فى اختيار من يحكمنا ! يضربنا الحكام بالنعال صبح مساء فلا نفكر فى محاكمتهم أو حتى نعمل على اسقاطهم ! فمن باب أولى يجب أن يـــكون لنا رأى فى اختيارهم قبل اختيارهم !! » ٠

وبتلقائية شديدة ـ أصله على نياته ـ قال رمضان ابن عمتى وهو يرحل القوالح المشتعلة فوق حجر الدخان بتأن :

ـ « أى والله صدقت يا عم الشيخ على ! » ٠

فسلقه أبى بنظرة أشد لسعا من القوالح المشتعلة ، وقال فى انكسار خاطر :

ـ « حتى أنت يا رمضان ؟ والله عال ! هزلت على آخـــر الزمن ! والله انكم جميعا نماردة تستأهلون ما يجرى لكم ! » ٠

واعتدل فى جلسته جاذبا الجوزة من يد رمضان بغيظ دفين ، وراح يشفط الأنفاس على مهل كأنه يطفىء نار التوتر فى صــدره ، وظهر على وجهه كأنه اكتشف خيانة الأصدقاء له بعد طول عشرة واخلاص ٠

ليلتها انتهت السهرة على غير ما يرام ، اذ انصرفوا وراء بعضهم فى هدوء وتكتم ، حتى محمود جميل مدد ساقيه وتـــرك قدميه تدوران كحدوة المغناطيس تحت الكنبة لاجتذاب بلغته الحمراء الكالحة من بين الكراكيب ، حتى اذا ما استقرت كل قدم فى فردتها تمطع فطقطقت كل مفاصله ، ونهض ملقيا السلام فيما هو يمضى غير منتظر أى رد ٠ فرد أبى من بين أسنانه ٠ وبقى الشيخ كعبلها وحده فترة لا بأس بها ، متنحا بوجهه المشدود كجلد الطبلة وعينيه المخزقتين المغلقتين ٠ أغلب الظن أنه كان يريد بمكثه تقديم شىء من

الاعتذار عما يكون قد أساء لأبى من حديثه الذى لم يكن يقصد بـه سوى المزاح · لكنه لم يقل شيئا وظل قائما فى قعدته كالصنم وضوء المصباح المعلق فى السقف يعكس ظل رأسه ورقبته وكتفيه على الحائط المجاور كشاهد المقبرة · فى حين تمدد أبى على الكنبة يتهيأ للنوم ويتنحنح بين لحظة وأخرى مجاملة للشيخ كمبلها كأنـه يجدد التحية بالنحنحة ، الى أن أخرج الشيخ كعبلها ساعته من جيب الصديرى ففتحها وتحسس أرقامها بأطراف أصابعه ثـم قال : « ياه ! المشى وجب ! » ، وأنزل ساقيه عن الكنبة فنزلت قدمه فى قلب الحذاء مباشرة ، ثم سحب عصاه ومضى يترنح كبندول الساعة يمنة ويسرة فى اتجاه الباب ·

***

العجيب أن العلاقة توترت بعد ذلك ، وكف معظمهم عن المجىء فيما عدا الشيخ زيدان زيدان وابن عمتى ، حيث يجلسون فى كثير من الصمت ، لا يتحدثون فى السياسة أبدا ، الا من قبيل التعليقات السريعة العابرة · ثم اختفى حديث السياسة تقريبا وحل محله الحديث فى مرضنا العضـال ، أنا وأخى ، حيث كان الهزال يدب فى أوصالنا على مهل ، حتى صرنا جلدا على عظم ، مع انتفاخ كبير فى البطن بدأ يظهر بصورة مقلقة كأننا حوامل فى الشهر التاسع · وراح الشيخ زيدان زيدان القاضى يفتى فى أصل مرضنا مقترحا الوانا من العلاج ، ويقرأ علينا ــ من دماغه ــ نصوصا من كتب الطب والحكمة ، وأقوالا من مأثورات المدعو أبو قراط والمدعو أبو بكر الرازى والمدعو ابن سينا · حينئذ كنت أمعن فى الانصات اليه بكل حواسى المنتبهة برغم الهزال والخواء ، فكان يدهشنى أنه يصف بعض الأوجاع التى ألاقيها فى البطن والدماغ والكتفين والظهـر

فكأنني حدثته عنها من قبل مع انني لم اكن قادرا فى الأصل على التحدث ٠٠

وكانت أمى هى الأخرى تنصت اليه وقد انتفخ وجهها وتشوش شعرها من فرط الانتباه والاستعداد لالتقاط كل كلمة قد يخفت بها صوته ، فيما هى جالسة بارشة على الأرض خلف الباب الفاصل بين المندرة والخزنة ، ويظهر شبحها من حين لحين فى تلصص اذ تقترب بأذنيها ، قاراها من موقعى على الكنبة المواجهة فى جلستى الأزلية وبجوارى أخى الصغير ، لاه عما حوله تماما ، مع انني أسبق منه فى المرض ٠ وكنت أعرف أن أمى التى لا تعرف القراءة ولا الكتابة وليس فى طوقها فهم حرف واحد من كلام الشيخ زيدان المعتق ، تحاول مع ذلك فهم كلامه بالفهلوة لكى تبادر بتنفيذ ما تفهمه من نصائحه أو على الأقل تعرف حقيقة أمر مرضنا هذا الذى حارت فى فهمه ، أو حتى تفهم الفرق بين الأسماء التى يرسلها فى الحديث فلا نعرف ان كانت أسماء عطارة تدخل فى الوصفة أم أنها أسماء ناس اخترعوها ٠ اما أبى فكان يستمع الى كلام الشيخ زيدان القاضى بكثير من عدم حماس الذى سمع هذا الكلام من قبل وقرأه وتأكد من عدم جدوى الأخذ والرد فيه ٠

لم تستفد أمى من كلام الشيخ زيدان القاضى أى شىء ، واذ احست أن كلامه جد خطير ٠ انما استفادت من كلمة عابرة قالها الشيخ على بقوش كعبلها الذى عاود المجىء ، اذ قال انه كان يعرف شخصا فى عزبة الطوال مرض ابنه بنفس المرض الذى عندنا ، وكان غنيا من الأعيان ، فلف به على حكماء البندر وصرف عليه الجلد والسقط بغير جدوى ، فرأى الرجل فى المنام الهاما يوجه نظره الى بيوت أولياء الله الصالحين لعلهم يتوسطون لدى الله فى

رفع البلاء عن ولده ، فما اصبح الصباح حتى صحب ولده ولف به على جميع الأضرحة واستوسطهم الى الله ، فلم تمض أيام حتى تماثل الولد للشفاء ·

وهكذا قررت أمى أن تفعل نفس الشىء ، فنادت الشيخ كعبلها فى السر ، وحدثته من وراء ضلفة الباب ، فوصف لها ما ينبغى علينا ان نفعله بالضبط · وفى الصباح كانت امى قد بيتت على حمارتين من حمير ابناء عمومتى ، وبيتت على ولدين ، وبعد صلاة الفجر لفت أمى كل واحد منا فى بطانية ، واركبتنا كل واحد على حمار ، يسنده ولد قوى ، وركبت هى خلف اخى · بدأنا باولياء بلدتنا وهم اربعة : سيدى سليمان العجمى وسيدى هارون وسيدى مطرف بن عبد الله وسيدى على ابو دبوس · نطرق باب الضريح فيرد علينـــا خادم الضريح من دار مجـــاورة . تطلب أمى مفتـــاح الضريح لتضع نذرا فى الصندوق · يجرى الخادم فيفتح ، يظـــل يتلكأ حتى يراها قد فكت عقدة فى عصبة راسها وانتزعت منه عشرين خردة ـ مليمين ونصف ـ ووضعتهما فى فتحة الصندوق · ثم تطلب من الخادم حـــلة ماء ، فيجىء بها ، فتدلقهـــا على باب الضريح فتنظفها جيدا حتى تصير رخامتها بيضاء · ثم تامرنى انا واخى بأن ننحنى على رخامة العتبة ، التى يدوس فوقها الناس باقدامهم ، ونلحسها بلساننا بقعة بقعة من اولها الى آخرها · هكذا نصحها الشيخ كعبلها · وقد فعلنا ، ورطوبة الرخامة الخشنة بطعم التراب والعفن ظلت ملتصقة بلسانى طول النهار من ضريح الى ضريح · وبعد يومين قمنا بجولة اخرى فى بلدة مجاورة · وبعدها بيومين قمنـــا بالسفر الى دســـوق فلحسنا عتبة ضريح الدســـوقى · وعدنا آخر النهار والغثيان ينفض امعائى كلها كل برهة فلا ينقذنى منه

سوى الاستغراق فى غيبوبة التعب ، فبمجرد أن أفيق يكون أول شىء أحس به هو العتب الذى انطبع فوق لسانى ٠

* * *

مكثنا بعدها شهورا طويلة ننتظر معجزة الشفاء ، والمرض لا يزداد الا تمكنا ، وقد خلف لحس العتب فى لسانى بصمة محفورة لا تريد أن تنمحى ، أحاول دائما ازالتها بحك لسانى فى سقف حلقى وأسنانى دون جدوى ، وطعم التراب والعفن يملأ خياشيمى ٠ ولقد بات منظرنا جميعا عجبا أى عجب : انا وأخى متكوران على الكنبة لا نقوى على الحركة أو الكلام ، نشرد فى فـــراغ المندرة بعيون صفراء ذابلة ، وعلى الباب تبرش أمى واضعة يدها على خدهـــا غارقة فى الحزن والشرود ، والدموع تسح من عينيها بلا انقطاع ، وهى تتمخط وتمسح الدموع فى ذيل جلبابها الأسود الكالح ، فى حين تربع أبى شاردا يبسبس بشفتيه أغلب الظن انه يختم صلاة طويلة ختاما لا ينتهى أبدا ، يقطعه بين الحين والحين بتنهيدة عميقة يتبعها بقوله : لا اله الا الله اللهم لا حول ولا قوة الا بالله ٠ صرنا مجموعة من المتهمين بعد أن كنا اثنين فقط ، نجلس كلنا فى انتظار الحكم باعدامنا ٠

امى لم تكن لتفقد ثقتها فى أولياء الله بسهولة ، لكنها حينما صرحت بهواجسها للشيخ بقوش كعبلها ، نبهها الى أن الأمر لابد ان يكون فيه ثمة خطأ ارتكبناه دون أن ندرى ٠ فانبرت أمى تحكى له ــ بالتفصيل ــ ما فعلناه ، ولا تنسى ان تذكر انها عند الولى الفلانى كانت تنوى وضع قرش كامل فى صندوق النذور لكنها لــم تجد معها سوى تعريفة واحدة فوضعته على أن تعود فى يـــوم

ما وتضع بقية القرش ، فلما جاءت عند ذكر القول بانها كنست العتب وغسلته قبل أن نلحسه انتفض قائلا :

ـ « بس هى دى الغلطة الكبيرة ! ازاى تغسلى عتبة مطهرة ، لازم تتلحس على وضعها ! والا فايه الفايدة يا ست هانم ؟ الولى لما يشوفك غسلتى عتبته يتغاظ منك طبعا ! انتى لازم تصلحى الغلطة وتخلى العيال يلحسوا العتب من غير ماتغسليه !! عشان الولى ما ينجرحش شعوره !! » ٠

وهكذا بات علينا أن نقوم بالعملية كلها من أول وجديد ، بأن نلحس العتب وهى على قذارتها ، بآثار الأقدام عليها ٠ كانت عملية مرعبة ، فوجدت فى نفسى قوة على الصراخ ، لكنهم حملونى قسرا فحاولت أن أضع فمى على العتبة موهما باننى الحس ، ولكن امى كانت واقفة لى ولأخى بالمرصاد ، تريد أن ترى منظر العتبة وقد خرجت من تحت لسانى نظيفة كالفل ٠ ولقد زعمـــت بعد العتبة الأولى أننى قد تماثلت للشفاء ، وبعد العتبة الثانية اعلنت اننـــى سأستأنف الذهاب الى المدرسة من غد ٠

رحبوا جميعا بهذه الفكرة ٠ ففى الصباح ارتديت ملابسى وانا أترنح وأتنقل بصعوبة ٠ حملت مخلاتى التى هجرتها طويـــلا بكتبها التى لم أعد أعرف فيها شيئا ٠ تكفلت أختى الكبرى بتوصيلى الى المدرسة ، فقطعنا الطريق اليها فى اكثر من نصف ســـاعة مع انها لا تبعد عن دارنا بأكثر من خمس دقائق ٠ وحين أتى ناظر المدرسة اشمأز من منظرى وتأفف واحتج بان مقعدى قد احتله آخر وأننى قد تخلفت عن الفصل ، وموعد الامتحان على الأبواب ، فخير لى أن استريح فى الدار حتى الشفاء ، لأستأنف الدراسة فى العام المقبل ٠ فعدنا الى الدار ، وطوال الطريق لم اكـف عن البكـــاء الصامت ٠

حين اقتربنا من دارنا جابهنا صراخ ملتاع وهيجان يتجمع امام باب دارنا ، فما كدنا نخترق الزحام وندخل حتى فوجئنا بأمى قد صبغت وجهها بالمنيلة من طين البرك ، وراحت تلطم خديهـــا ، وتأخذ من تراب الأرض وتضع فوق رأسها ، وتنتحب ، ونســـاء كثيرات يحاولن اثناءها عن ذلك دون جدوى ، ورجـــال يجعرون ويتكلمون ويصيحون فى آن واحد · كانت جثة اخى ممدودة على الكنبة كالعصا ملفوفة بالملاءة ، وابى متقرفص بجوارها مســـند رأسه على ركبتيه مندمجا فى بكاء مكتوم حارق · أفزعنى المنظر ، فاندفعت أبكى وقد تخلت اختى عنى متلهية بمنظر أمها ، فصرت اتخبط بين الأقدام فى الزحام تخنقنى العبرات وتنفض عن صدرى بعض ما تراكم فوقه من وساخة العتب ·

الى ان تهاويت ولم أعد أعى شيئا أى شىء ، واذ افقت بعد دهر طويل وجدتنى ممددا على الكنبة فى دارنا ، ولون السواد منتشر فى كل الارجاء ، حتى وجوه الضيوف كافة قد أسودت وكثـــرت وعراها كثير من الحزن والسأم ، وكثرت البسملة والحوقلة وغرقت الدار كلها فى القرآن الكريم يتلوه واحد بعد آخر · فان فرغ الجميع تولى ابى القراءة فى الليل حتى مطلع الفجر ·

وفى ذات يوم ميزت بين الضيوف رجلا غريبا ، فهمت انــه تاجر نحاس من البندر ، يزور بلدتنا يوم السوق من كل أسبوع ، ليلف الشارع والحوارى حاملا جوالا على كتفه معلقا فى عامود ميزان برمانة وجنزير ، لاينى يرفع عقيرته بالصياح مناديا : « نحاس قديم للبيع ، نحاس قديم للبــ ·· ى ·· يع ! » · كان يساوم أمى على بيع الطشت النحــاس ، ويحلف لها بأغلظ الايمــان أنه أكرمها فى السعر اكراما لخاطر المريض ــ يعنى انا ــ وتحلف له امـى أن الطشت ثقيل ونحاسه نادر وأنه الطشت الذى دخلت به على

ابى يوم عرسها . فيقول لها : انه اذن لقديم . فتقول له : انه اذن لعزيز وغال وما بعته الا للشديد القوى . فيقول لها ان هذه الأمور لا دخل لها فى البيع والشراء وانه يشترى النحاس القديم ويبيعه أيضا على أنه قديم حتى ولو كان جديدا . وحين انصرف من دارنا بطشت الغسيل كانت أمى تصر طرف منديل رأسها على بضعة برايز يتخللها أنصاف فرنكات كثيرة ، وكانت تحمد الله قائلة انها من غد ستسافر بى الى بندر دسوق لتعرضنى على الحكيم الشهير ألبير فهمى . وجعلت تداعب شعرى وتمسح عرقى باكية مبتسمة معا تقول اننى سأتفرج على البندر .

* * *

ذهبنا الى بندر دسوق ، دخلنا دارا قديمة ، صعدنا سلما متآكلا يسبح فى الظلام والرطوبة ، حتى دخلنا العيادة فأرقدنى الحكيم ذو النظارة الذهبية والشعر المفلوق اللامع والكرش الضخم والخدود الحمراء ، والسماعة المعلقة فى أذنيه .. فوق عارضة خشبية بيضاء عليها مخدة . ثم رفع ثيابى ، وصار يتحسس بطنى وضلوعى بأصابع طرية موجعة ، ويأمرنى باسما أن أتنفس بقوة ، وينقل السماعة بين أماكن متعددة من جسدى ، وينصت ، ثم غطانى واستدار كالماكينة ، وفتح الحقيبة المنبسطة على ترابيزة صغيرة ، فأخرج منها دفترا صار يكتب فيه بسرعة . وأمى واقفة أمامه تنتظر أن يبلغها نبأ الشفاء فى الحال . وعلى مقربة من باب الحجرة وقف بعض أبناء عمومتى فى خجل وخشية يتابعون ما يجرى . نزع الحكيم الورقة وصار يشير لأمى بالقلم على بعض السطور ويرشدها الى أن هذا بعد الأكل وهذا قبله ، وهذا للحقن فى العضل وذاك سفوف على ريق النوم . ثم تركها واتجه الى

باب الحجرة ناظرا فى ردهة الانتظار صائحا : اللى بعده · أمى لا تزال واقفة غارقة فى الحيرة والذهول والألم ، لكنها حين رأت المريض الآخر قد وقف بجوار العارضة الخشبية ينتظر نزولـــى ليصعد مكانى تقدمت منى وحملتنى على صدرها خارجة ·

كان أبى فى انتظارنا على مقهى تحت العيادة اذ أنه لا يقوى على صعود السلم · وكان يبدو عليه أنه يعرف كل ما جرى فى العيادة بحذافيره ، وأنه غير مقتنع به · فما أن رآنا حتى مد يده طالبا « الروشتة » · ثم فردها وبحلق فيها مع ثقته أنه لن يستطيع أن يفك منها حرفا واحدا منحروفها الافرنجية · ثم انه طواها فى سأم ومضى بنا فى نفس الشارع · وقف أمام دكان يلعط بأضواء المعروضات ، مليء بالفتارين الزجاجية المحتشدة بالعلب والزجاجات والبرطمانات الأنيقة ، وعلى باب داخلى فى المواجهة رسم جمجمة ، ولافتة مكتوب عليها : أجزاخانة الشفاء ·

استقبلنا أفندى شاب يلبس هو الآخر نظارة طبية ، لكنه رفيع متوسط القامة غليظ الشفتين رقيق الصوت ، يقف خلـــف بنـك زجاجى · قدم له أبى الورقة المسماة بالروشتة ، وشرع هو يستخرج بعض العلب من بعض الفتارين · فعاجله أبى قائلا :

ـ « من فضلك والله يا دكتور قبل ما تتعب ! أحب أعـــرف الدوا حيكلف كام ؟ ! » ·

فحدجه بشيء من التأفف ، وترك ما فى يده قائلا :

ـ « وماله ! » ·

ثم امسك بالقلم الكوبيا المربوط فى بكرة من الورق مكتوب عليه أجزاخانة الشفاء ، وقلب ورقة الروشتة وصار يكتب على ظهرها أرقاما ، جمعها فى النهاية قائلا :

ـ تلاته جنيه وستين قرش ! » ٠

فصاحت جوقة كبيرة مكونة من أبى وأمى وأبناء عمومتى صيحة استهوال عظيمة :

ـ « يا نهار أسود !! تلاته جنيه وستين قرش ؟ ! » ٠

وقال أبى مشيرا الى جسدى المكوم فوق صدر أمى :

« دانا اتجوزت أمه بتلاته جنيه بس ! » ٠

فضحك الشاب قائلا :

ـ « خلى عنك يا حاج ! » ٠

وقالت أمى وهى تلهث من حملها كأنها تعرف أنهـــا تلعب بورقة خاسرة :

ـ « ما تقدرش يا خويه تكرمنا فى البيعة دى ؟ الهى ربنـــا ما يغلب لك وليه ! الهى ربنا ما يوريك ! داحنا ناس غلابة وعلى قد حالنا ! والولد يا قلب أمه حيخلص بين أيدينا !! » ٠

وصمت الجميع ناظرين الى الطبيب الشاب كأنهم يترقبون وقع هذه الكلمات عليه ٠ غير أنه وسع ابتسامته ودهنهـــا بلون الحرج الأصفر قائلا :

ـ « مش بايدى والله يا حاجة ! دى أسعار الحكومة محدداها! وأنا موظف هنا ! ووالله لو كنت اقدر كنت اديكم ببلاش ! لكن ربنا يكرمنا جميعا ! » ٠

استدار أبى ليخرج مسرعا ، أغلب الظن ليهرب قبل أن يرى البائع دموعه ، بينما ظلت أمى واقفة فى مكانها لا تريم ، كأنها لم

تسمع شيئا ، كأنها تتعشم أن يراجع البائع نفسه · وبالفعل حدث شيء كهذا ، اذ يبدو أن الطبيب الشاب قد أشفق عليها ، فاذا هو يتبادل النظر مع رجل ضخم الجثة كان يجلس خلف مكتب على مقربة ، ثم تناول برطمانا كبيرا ، أفرغ منه مجموعة أقراص صغيرة من الكنين الأصفر الذى صرت أكرهه كره العمى ، وضعها فى كيس ورقى صغير ، وأطبقه ، وأعطاه لأمى قائلا :

ـ تقدرى تدى له قرص بعد الأكل تلات مرات كل يوم ! لحد ربنا ما يفرجها ! » ·

أحسست بصدمة أمى وخيبة أملهـــا وعـــدم ثقتها فى هذه الأقراص · مع ذلك ابتسمت وتناولت الكيس قائلة فى نبرة مرتعشة كذبذبة الكهرباء فى أعصاب العروق :

ـ « روح الهى ما تقف وقفتى ولا تحتار حيرتى ! الهى ربنا ما يوقعك فى ضيقة ! ولا يذلك لمخلوق !! » ·

وكنت أحس أن أمى تقصد العكس تماما ، وكان صوتها ملتاعا ورنانا يأخذ طريقه الى السماء مباشرة · وظل صوتها يكنس الشارع بما لم أفهمه حتى وصلنا الى محطة القطار ، وهـــى تعدلنى على صدرها كل برهة ، وقدماى يتخبطان فوق فخذيها ويعرقلانها فى كل خطوة ولا تقبل مع ذلك أن يحملنى عنها أحد ، وتقول لى :

ـ « المحطة اهه يا حبيبى ! مش حتتفرج على القطر ؟ » ·

وارضاء لها فحسب طلبت أن أمشى ، فتركتنى · وكان أبى قد سبقنا الى شباك التذاكر فقطع لنا تذاكر وقطع لى نصفا ، فلامته أمى على ذلك بحجة أننى صغير ومريض · فقال لها ان ذلك أفضل من أن يطوقنا الكمسارى بضعف الثمن · صعدنا السلم الذى نهبط

منه على رصيف الركوب • جلسنا على دكة خشبية خضراء وسط صخب وضجيج مبهج ، وأمى لاتكف عن التحدث مع من حولها من سيدات ، وفى كل دقيقة تعيد حكاية أمرى وأمر أخى المرحوم من طقطق لسلامو عليكم ، وتتلقى الدعاء لى بالشـــفاء ، وترد قائلة :

ـ « احنا وانتى ياختى ! ربنا ما يوريكى ولا يصهد قلـــب حد أبدا ! » •

وفى هذه المسافة وحدها اهرقت من الدمع ما يصنع أبحرا حتى تمنيت الشفاء اكراما لخاطرها قبل أن تفقد عينيها •

* * *

تكررت زيارة تاجر النحاس لدارنا عدة مرات ، حتى لم يعد فى دارنا شىء يمكن أن يباع • ومع ذلك لم نتمكن من صرف الروشتة كاملة • الى ان انقذنا الله بمجىء ستى « فله » ، أم أمى ، التى تزوجت فى البندر بعد موت جدى أبو أمى • هى امرأة جميـلة ، أجمل من أمى بكثير ، فطول عمرها تعيش فى البندر ، وتستحم على الدوام ، بعكس أمى التى يعلوها الصدأ باستمرار ، وتنتهكها الهموم • وستى لم تنجب سوى بنتين تزوجتا فى سن مبكرة ، فبقيت ستى مدة بلا زوج ، فخشيت على نفسها من الفتنة فتزوجت رجلا يقال انه تاجر كبير ، قمسيونجى معه فلوس على الدوام ، ويأكل اللحمـة والأرز كل يوم ، ويأكل الفاكهة التى توصف عندنا للمرضى فحسب من ذوى اليسار ، ويلبس كل يوم جلبابا نظيفا غير جلباب الأمس • أما ستى « فلة » فانها طويلة القامة نحيفة القوام واضحة الأنوثة لا تعترف بسنين العمر ، ولهذا فان زوجها يعشقها ويتمنى

رضاءها ، ولا يؤخر لها طلبا ، أى أن مرواحى معها لن يتسبب فى ضيقه بل على العكس سيرحب بى كل الترحيب شأن العاشق الذى يرحب بمن يحمل رائحة الأحباب · هكذا قالت لأبى بكل وضـوح وهى تبتسم عن سن ذهبية ، حينما راجعها فى أمر سفرى معها وبقائى عندها عدة أيام كما طلبت هى ·

* * *

ذهبت مع ستى « فلة » الى بندر مطوبس ، حيث كان زوجها المعلم « حميده الجارحى » فى انتظارنا على رصيف المحطة ، ليحمل عنا قفة الزيارة التى حملتها ستى من بلدتنا ، فيها أرز وبيض وجبن قديم وبعض فطير مشلتت وملوخية ناشفة · وفى الواقع فان ستى « فلة » هى التى اشترت هذه الأشياء من حر مالها ، لكى توهم زوجها أن ابنتها – أمى – هى التى حملتها هذه الزيارة من دارها ·

رجل ضخم الجثة كشجرة الجميز ، تخين الكتفين ، مكلبظ الوجه غليظ الملامح ، لكن ملامحه طفلية الى حد كبير · اذا ابتسم نبتت له غمازتان فى صدغيه ، وانفرجت شفتاه عن أسنان كلها من الفضة ، مصبوغة بلون الدخان والشاى · صوته أغلظ من جسمه ، لكنه منطلق بغير التواء كأنه الهـواء النقى . ما أن رآنى حتى حملنى وربت على ظهرى فى عطف وحنان قائلا :

– « ماله الولد ده صحته مدعبلة كـــده ليه ؟ ! يا ســـتار يا رب !' » ·

وقالت ستى فلة :

– « عاوزين نوديه المستشفى بكره ! » ·

قال على الفور :

ـ « ايوه بس أنا مش حافضى الأسبوع ده ! » ٠

قالت ستى :

ـ « أنا اللى حاروح بيه ! » ٠

قـال :

ـ « بالشفا ان شاء الله ! » ٠

ونادى حمالا على كتفه رقم نحاسى ويرتدى جلبابـا ازرق وضع القفـة على كتفه ، وتقدمنا فصعدنا السـلم وهبطنـا الى شوارع البلد المتلئة بالعربات الكارو وعربات الحنطور التى تخب على الأرض وتطلق الأجراس ٠ كان المساء قد هبـط فامتـلأت الشوارع بأضواء الفوانيس المعلقة فوق عواميد طويلة وعلى أصداغ البيوت العالية ذات الشرفات الخشبية والمشربيات وفوق المـآذن والقباب ، ورائحة أم الفلافل الساخنة تنتشر مختلطة برائحة مازوت القطارات وادخنة السيارات التى تعوى بمزامير كالجعير الخشن ٠

أبهجنى المنظر حتى نسيت وجع البطن والصداع ٠ توقفنـا أمام بيت قديم متهالك فى أعماق حارة سد ضـيقة ٠ دخلنا بابا ينفتح على دهليز مستطيل تطل عليه مجموعة أبواب لقاعات ، وثمة نساء يجلسن أمام الأبواب يغسلن الثياب فى طشوت ، واحداهن واضعة أوزة تحت فخذها الممدد العارى وراحت تزغطها بأصابع الكفتة ، وأخرى جالسة تخيط شرابات بالية ٠ صعدنا سلما ضيقا حلزونيا ، لنصل الى بسطة قادتنا الى ردهة اخرى ، مشينا فيهـا قليلا ، ثم توقفنا أمام باب بضلفتين مغلق بقفل كبير كتالح ٠ أخرج زوج ستى مفتاحا مربوطا فى كتينة ، ثم فتح القفل ودفع الباب

فانفتح . ازاح القفة ثم دفعها فدخلت . دخلنا فى ظلام دامس . مدت ستى يدها على رف صغير محندق فى أعلى الجدار ، ورفعت مسمار شريط المصباح نمرة خمسة . وأشعل زوجها عود كبريت ، على ضوئه رفع زجاجة المصباح وأشعل الشريط فارتفع الهبـــاب فوضع فوقه الزجاجة وضبطه لينتشـــر الضوء الأصـــفر ويغمر الحجرة .. هناك سرير بعمدان سوداء فوقها عساكر صفراء ، وله ناموسية مفرودة ومورورية الباب كالغرفة السرية . بجوار السرير دولاب للملابس بضلفتين . وفيما بينه وبين السرير وضعت كنبـة منجدة ولها مساند .

خلع زوج ستى جلبابه الصوف وطربوشه وارتدى جلبابـا منزليا رقيقا مقلما ، وطاقية من نفس قماشه ، ثم جلس فوق الكنبة بجوارى قائلا لى :

ـ « أهلا وسهلا شرفت ! » .

فلم أرد ، بل نكست رأسى فى خجل . وقالت ستى :

ـ « قول له كتر خيرك يا ولد ياحمار ! » .

فلم أرد ، فربت على ظهرى قائلا :

ـ « ربنا يشفيك ان شاء الله ! » .

تقرفصت ستى ودخلت تحت السرير ، فسمعت كركبـــة ، وخرجت بعد برهة حاملة وابور الجاز البريموس ، وحلة وطاسة . أعطت الوابور نفسا ثم أشعلته ، وفتحت القفة فأخرجت البطـــة المدبوحة ووضعتها فى الحلة وراحت تجهز العشـــاء . أما زوجها فقد تربع بجوارى على الكنبة وراح يلف السجائر بعد أن يفرك على

دخانها أوراقا خضراء جافة عرفت من مندرتنا أن اسمها البانجو ، ويجىء من السودان ٠

بعد ساعات طويلة تعشينا ٠ كان زوج ستى يطوح نسائر اللحم فى فمه بسرعة فائقة ويغمزنى كل حين بنسيره ولكن الطعام لم يكن له أى طعم فى فمى ٠ غسل يديه فى مكانه على الأرض بجوار الطبلية ، وشرب الشاى ثلاثة أدوار ، ودخن عشـرات اللفائف ، وقام فاخرج من الدولاب بطانية من بطاطين الجيش وقال لى :

ـ « ستنام على هذه الكنبة ! يلا ! » ٠

ومددنى ، وطرح البطانية فوقى وقال لستى :

ـ « يلا يا مره ! » ٠

فقامت ستى فازاحت الأوعية تحت السرير ، وخفضت شريط المصباح فاحكمت خيمة الليل علينا ، ثم لحقت بزوجها فوق السرير وفكت عقدة الناموسية فانغلقت تماما . بعد دقائق رحت فى النوم، لكننى تيقظت بعد فترة على صوت هزهزة ووشوشة وزيق خشب يصطك فى خشب ، ففتحت عينى ، فرأيت الناموسية تتماوج والسرير يهتز بقوة ، وصوت ستى يتأوه وكأنها تبكى وتنهنه تحت ضـغط شديد يثقل صدرها ٠ فخيل الى أن الرجل يضربها بعنف وأننى لابد أن اكون السبب ، فاذا بى أصيح من تحت البطانية :

ـ « ستى ! يا ستى ! » ٠

فكفت الأصوات كلها فى الحال ، وخيم على الحجرة صمت مريب ، فحاولت النوم فلم أستطع ، الأكلان راح يدب فى جميـع أنحاء جسدى كأن براغيث الدنيا كلها تهاجمنى فلا أملك لهـا دفعا . صمدت شخيرا استجلب به النوم ، فاذا بالأصوات تعود

من جديد ، تبدأ خافتة أول الأمر ثم تشتد وتشتد حتى خيل الى أن مذبحة تجرى خلف الناموسية فاذا بى أصيح من جديد :

ـ « ستى ‧‧ يا ستى ! » ‧

وكررت ندائى عدة مرات ، فاذا بصوتها يجىء من خلال نوم مصطنع ، ونبرة غيظ دفين :

ـ عايز ايه يا ولد ؟ ! » ‧

قلت :

ـ « عايز أروح الكنيف ! » ‧

سمعت تأتأة وحركة احتجاج وغيظ ‧ فجأة وجدتها تهبط عن السرير تلف جسدها بجلباب مفتوح كالعباءة ، رفعت شريط المصباح وحملته فى يدها قائلة بغيظ دفين :

ـ « يلا قوم ! » ‧

فقمت ، وخرجت وراءها ، فمشينا على ضوء المصباح فى الردهة حتى آخرها ‧ دخلنا بابا تتصاعد منه رائحة النتن والظلام الدامس ‧ قالت ستى وهى تقرب المصباح من الأرض لتكشف لى عن فتحة الكنيف قائلة : « اقعد ! » ‧ فجاهدت حتى تمكنت من التوازن فوق الملاقى ‧ ورغم اننى لم اكن راغبا فى التبرز فاننى ما ان جلست حتى تبرزت بالفعل ، وستى واقفة بالمصباح على الباب تصيح بى كل دقيقة : « يلا يا واد اخلص ! » ، فقمت رافعا سروالى تاركا جلبابى يهبط الى قدمى ‧ ومشيت خلف ستى الى الحجرة ، حيث مددتنى على الكنبة من جديد وأحكمت لفى بالبطانية وصعدت هى الى السرير ‧ وبعد دقائق صعدت شخيرى ، فبعد دقائق عادت الأصوات المريبة ، وسمعت زوج ستى يهمس لها

« كنت مرتاحة جبت لى حاجة ! مش حينفع الكلام ده ! » وترد ستى : « يومين تلاته وحيروح ! » ٠

ما صدقت ان طلع النهار فقمت جالسا ، وقام زوج ستى ، فتناول انطاره ، وسحب من تحت السرير خرجا كبيرا متخما ببضائع من اصناف الخردوات ، حمله على كتفه وتوكل على الله ٠ وارتدت ستى ثيابها ، ولفت نفسها بالملاءة السوداء ، ولبست « الشكربين » الأسود فى قدميها ، والبستنى ثوبى النظيف ، وانطلقت بى الى مستشفى البندر الكائنة خارج البلدة بين الغيطان ٠ قطعنا تذكرة من الشباك بقرشين ، وتلطعنا فى حوش المستشفى فترة تزيد على ساعة زمن ، نودى على بعدها ، فانتفضت ستى مهرولة تسحبنى من يدى فاحاول اللحاق بها وبطنى تتدحرج أمامى كالقربة ٠

قدمونى الى طبيب كالح الوجه مكشر الملامح دائم التأفف ، فعل بى نفس ما فعله البير فهمى فى دسوق ، ثم نحانى وكتب ورقة صغيرة ارفقها بالتذكرة الكبيرة الخضراء بعد أن كتب على الأخيرة شيئا سريعا ، أعطاها لستى . فسحبتنى وذهبنا الى شباك آخر فى بناية أخرى بعيدة ٠ ثم قفلنا عائدين نحمل زجاجة خل مليئة بمزيج الحديد ، وبعض اقراص صفراء ، وأخرى بيضاء ٠ وفى الطريق تذكرت ستى أن الطبيب قد أوصى بالامتناع عن قائمة طويلة من الطعام لم اسمع بها من قبل ، وعن مشروبات عمرى ما سمعت بها ، ولا اظن أن ستى قد فهمت منها شيئا وان ظلت تتابعه قائلة : حاضر يا بيه ! حاضر يا بيه ! ٠٠

تكرر الصخب الليلى خلف الناموسية ، وتكررت صيحاتى بطلب التصبير ، حتى ضاقت بى ستى « فلة » اشد الضيق فما صدقت أن انتهى الأسبوع ونفد الدواء وذهبت بى الى الاستشارة ، .

حتى بادرت فى اليوم التالى ، فالبستنى ثيابى النظيفة ، وغمزتنى بريزة فضية ، وسلمتنى الى زوجها ، الذى اصطحبنى الى محطة القطار فقطع لى تذكرة دفع ثمنها من محفظته الكبيرة التى تعج بالقروش الفضية ، ووصف لى كيف أغير القطار فى محطة دسوق ، وأوصانى بتفتيح العين والانتباه للمحطات والا سار بى القطار الى ما لا نهاية وتكون البهدلة ، ووصف لى كذلك كيف اركب من دسوق لأنزل فى محطة البكاتوش بعد ثلاث محطات ، وفى البكاتوش لابد اننى ساجد ناسا من بلدتنا معهم ركائب فاركب معهم الى بلدتنا مسافة ستة كيلو مترات ٠

* * *

وصلت الى دارنا قرب الظهر ، وكان التعب قد هدنى ، مع أن رجلا من بلدتنا صادفنى على المحطة فاركبنى خلفه على ظهر حماره ، فكانت بطنى المنتفخة تحك فى ظهره طول الطريق فتؤلمنى وتضايقه ٠

دخلت دارنا فرأيت ضوء الشارع يفرش المندرة قادما من الخزنة الخلفية ٠ ارتميت فى صدر أمى واندفعت فى البكاء فصارت هى الأخرى تبكى بكاء مرا ٠ حكيت لها كل ما جرى فاستمعت اليه بمزيد من البكاء ٠ ولم يكن ابى موجودا ، فسألتها عنه ، فقالت أنه ذهب يبحث عن سيد جودة البناء ليرمم لنا جدار الخزنة فتسللت من حضنها الى الخزنة ، فهالنى ما رأيت ٠ كان الجدار المجاور للترابيزة قد انهار فوقها بجزء كبير من السقف ، فغاصت اقدام الترابيزة فى الأرض فتهشم سطحها فهبط بما فوقه من احمال على ما تحته من مخزونات ، وعرق من الخشب منكسر وغائص فى

جوف الأحمال والأتربة ، وقضيب من حديد السقف منطرح فوقه وطرفه الأخير لايزال معلقا فى أعلى الجدار ٠

وقفت امام ذلك المنظر تأكلنى الحسرة ٠ وجاءت أمى فوقفت بجانبى تبكى وتصف لى كيف انهار الجدار بسقفه فجأة ، وكيف أن أبى قد هزمه الحادث وقطع قلبه أكثر من حزنه على موت أخى، ليس لوقوع الجدار بالطبع بل حزنا على الترابيزة التى لم يرض ببيعها لعلاجكما والتى كان يعزها معزته لماضيه وماضى عائلته ، والتى لم تكن لتذوب على مر الزمن لولا أنه ـ كما يقول ـ الحسد وقر الناس عليها ، لقد استخسروها فينا ونحن ابناء عز قديم ، فجاءوا بأجلها مثلما جىء بأجل اخى المسكين ٠ وصارت تحمد الله ان الجدار وقع فى النهار حيث لم يكن أحد ينام تحته ٠

فجأة دخل أبى ومعه سيد جودة البناء وبعض رجال ٠ فلم ينتبه أبى الى ، بل راح يشرح للبناء كيف يمكن معالجة الجدار ٠ وقد راح سيد يلف ويعاين ، ويقول ان مياه الكنيف المجاور للخزنة هى التى خلخلت الجدار ، اذ ان خزان الكنيف داخل تحته مباشرة ، ولابد من كسحه أولا قبل الفحت والبناء ، ويا حبـــذا لو ردم هذا الخزان وتم فحت خزان آخر فى مكان بعيد . كان أبى يستمع اليه والهم يكاد يقتله ٠ ثم ان سيدا أمر فى الحال برفع الأتربة ، فانبرى رجاله وبعض ابناء عمومتى بالفئوس والكريكات والغلقان يرفعون القضيب الحديدى والأتربة ، فامتـــلأت الدار كلها بالغبـــار ـ والدخان ٠

استمروا ساعات طويلة على ضوء المصابيح التى استعرناها من اقاربنا ٠ وكان ابناء عمومتى يشتغلون بهمة كبيرة حتى ينتهوا من تجهيز الوضع للبنـاء ، اذ انهم فى الصـباح وراءهم شغل فى

حقولهم . وأبى كان ملهوفا على الانتهاء من رفع الركام ليطمئن على الترابيزة ، فما ان بدأ سطحها يظهر ، ويتمكن الرجال من نزع ارجلها من الأرض حتى اندفع يجرى نحوها يعاينها ، فاذا هى أربع قطع : واذا العفن والسوس قد رتعا فى أركانها التحتانية ، واذا الأرض من تحتها مليئة بالسحالى والثعابين والعقارب والفئران والقروش الصدئة واشياء غريبة لا حصر لها . انشغل الرجال فى تصيد الحشرات والزواحف وقتلها قبل أن تجد لنفسها مأوى آخر داخل الدار . وانشغل أبى فى مراقبة الأتربة والكراكيب التى كانت تحت الترابيزة ، وراح يوصى بوضعها فى كومة أمام الدار حتى تأتى فى الصباح بمنخل وننخلها ليظهر ما قد يكون فيها من اشياء كثيرة وقعت ذات يوم تحت الترابيزة واختفت .

بعد صلاة العشاء بزمن طويل جلس أبى مسندا رأسه بين كفيه يفكر فى هذه المصيبة التى لا يملك من تكاليفها مليما واحدا . وكان سيد جودة البناء يعرف هذا جيدا ، فاذا به يفاجىء أبى قائلا :

ـ « صلى على النبى يا عم الحاج زعلوك ! انا عارف انك معذور اليومين دول ! بس أنا عندى حل يريحك ! » .

رفع أبى وجهه متنفسا كأنه أنقذ من الغرق ، قال :

ـ « خير يا سيد ؟ قول ! » .

قال سيد :

ـ أرجع لك الجدار والسقف زى ما كان ! وآخد الترابيزة دى أجرتى ! وأنا ونصيبى ! حاصلحها واحطها فى دارى ! ما تنساش انها حتكلفنى تصليح وجايز ما تنفعش !! » .

حدجه أبى طويلا فى شرود صامت ، انه يعرف أن سيد جودة البناء ولد شاطر ، فهو بناء ونجار ومقاول وحداد وفى يديه سبع صنايع ، ولسوف يتمكن من تصليح الترابيزة بلحم الواح سطحها واعادة تسميرها فى الأرجل ، وربما أعادها كما كانت ٠ ظل أبى يفكر طويلا ، الى أن استعجله سيد قائلا وهو يقف مستعدا للانصراف :

ـ « واللا بلاش ! أنا آخذ أجرتى صاحية أحسن ! أنا حتى عندى ترابيزة كويسه والمندرة مليانه عفش ! » ٠

فقال له أبى :

ـ « على كل حال أنا موافق ! اتكل على الله ! ربنا يملاها لك بركة ! » ٠

فصاح سيد فى رجاله :

ـ « شيلوها يا رجاله روحوها للدار ! » ٠

فرفعها الرجال ومضوا ، فاذا هى تبدو من باطنها الداخلى جديدة ناصعة رغم السوس فى الأركان ٠ كاد أبى يصرخ صائحا ان اتركوها لكنه حول وجهه عنها ٠ وحين اختفى بها الرجال وضع يديه على وجهه وانفجر فى بكاء شديد حارق ٠ وكانت هذه أول مرة أرى فيها أبى يبكى كالنساء ، فانزويت مع أمى واخوتى فى ركن قصى ورحنا نبكى لبكائه حتى مطلع الفجر ٠ فما كاد ضوء النهار يبص من فوق الجدران والنخيل البعيد حتى رأينا عبر الباب الموارب أشباحا تتسلل فى الخفاء ، لصبيان ونساء ورجال جاءوا من أماكن بعيدة ، وانكبوا فوق كوم الأتربة أمام دارنا وراحوا ينكشونه بحثا عن الأشياء التى كانوا يسمعون منذ وقت بعيد أنها

وقعت تحت ترابيزتنا . ولسنا ندرى كيف بلغهم نبأ سقوط الترابيزة بعد هـذا العمر الطويل . وكان ابى قد استسلم لسنة من النوم ، فخرجت امى حاملة بلاص الحمـام المملوء بماء نتن ، وصـارت تقذف بمائه الأشباح لاعنة صارخة ، فاندفعوا يجرون كسرب من العصافير المذعورة .

* * *

ثم ان الأيام قد مرت ، وارتفع الجدار من جديد دون أن ينتقل خزان الكنيف من مكانه ، ولكن الخرزنة اتسعت وصارت أرضـها ظليفة . الا اننا مع ذلك نقلنا مكان نومنا الى المندرة نفسها فى الصيف ، وفى الشتاء ننتقل الى قاعة فى الداخل كالعادة .

وكان موعد ابتداء الدراسة قد صار على الأبواب ، وكنت قد بدأت أضيق بالقعدة فوق الكنبة ، واجرؤ على المشى فى الخلاء بعض خطوات ، لاستريح على احـدى المصاطب فى الشارع العمومى لكن بطنى المنتفخ كان يثقل خطواتى ، فاقفل عائدا الى مصطبتنا امام دارنا .

وذات يوم كنت جالسا على هذه المصطبة مع شوشة ابـن عمى ، الذى كان يروح المدرسة معى وقد أصبح يسبقنى بسنة . كانت امى تغريه بقطعة حلوى وحفنة ترمس لكى يجلس معى وينقل لى أخبار ما تعلموه فى الفصل فى غيبتى ، حتى يشغلنى عن الوجع وفى نفس الوقت يجدد المدرسة فى دماغى .. واذا بامرأة غجرية عجوز تمر حاملة سفطا على رأسها تنادى :

— « أضرب الودع والرمل واشو .. و .. و .. ف ا » .

فنادتها أمى لتشوف بختها ، وهى فى الواقع تريد أن تعرف من هذه المرأة ما سوف يحدث لها من كــوارث مدخـــرة ، وهذه الأحداث تتعلق بى أنا . انحطت المرأة جالسة فى الحال ، وأخرجت حفنة رمل وقوقعة وبعض أوراق الكتشينة وطلبت اسم أمى واسم أمها .

فأجابتها أمى . وشرعت العجوز تقلب فى الرمل ، فاقتربت أنا منها لكى أرى ماذا تفعل وماذا تقول .

حدقت المرأة فى وجهى ومصمصت شفتيها فى أسف وقالت :

ـ « يا حبة عينى ! الولد ده عيان بالطحال !! » .

قالت أمى فى سرعة ولهفة :

ـ « بتقولى ايه يا اختى ؟ ! » .

قالت المرأة :

ـ « العارف هو الله ! لكن طحال هذا الولد منتفخ منذ وقت طويل ! يكاد والعياذ بالله ينفجر !! » .

فبكت أمى على الفور قائلة :

ـ « دخنا بيه على الحكما ! » .

قالت الغجرية فى ثقة مذهلة :

ـ « شفاؤه على الله وعلى ! » .

قالت أمى :

ـ « يبقى لك حلاوة كبيرة قوى ! قوى ! »

قالت الغجرية :

« ارمى بياضك ! »

فرمت أمى لها بقرش صاغ كامل ، وحفنة أرز ، وبيضتين وثلاثة أرغفة ٠

قالت المرأة :

ـ « شوفى يا بنت اخوى ! تجيبى قزازة خل ! وتجيبى حتة خميرة : تحطى الخميرة فى فنجال مليان خل ! وتحطى الفنجال بالخل والخميرة فوق سطح الدار يسمع التلات أدانات : المغرب والعشا والفجر ! وتخلى المحروس ده يشرب فنجال الخل بالخميرة على ريق الصبح ! تلات تيام ورا بعض أول كل شهر عربى ! لمدة تلات شهور والباقى على الله ! وفى الشهر التالت حافوت عليكى عشان آخد الحلاوة ! » ٠

قالت هذا فى ثقة شديدة ، ثم نهضت حاملة سفطها ومضت تنادى : أضرب الودع واشوف البخت واشو ٠٠ و ٠٠ و ٠٠ ف ٠

لم تكن أمى واثقة من كلام الغجريـة ، لكنهـا قالت : مش حنخسر حاجة ، وظلت تحسب لقدوم أول الشهر بفارغ الصبـر حتى اذا ما جاء اليوم الأول نفذت ما قالته الغجريـة بكل دقة ، ناولتنى الفنجان المرطب بالندى ، وقطعة حلوى ، ثم قسرتنى على تجرعه والقمتنى قطعة الحلوى وراءه فى الحال ٠

فى اليوم الثالث من الشـهر الأول شربت الفنجان وحدى بغير مدافعة ٠ وفى نهاية الشهر كانت بطنى قد هبطت قليلاً وزال عنها بعض الانتفاخ ٠ وفى اليوم الأول من الشهر الثانى كنت انا

الذى يملأ الفنجان ويضعه فوق السطح ، واقوم مبكرا لأدلقه فى جوفى سواء توفرت قطعة الحلوى أم لم تتوفر · وفى نهاية الشهر الثانى كنت قد تمكنت من الذهاب الى المدرسة وحـــدى وقد زال انتفاخ بطنى تماما · وفى الشهر الثالث كانت أمى تبحـــث عنى فتجدنى ألعب الكرة الشراب فى الجرن كالعفريت ·

واصطلح أبى مع صحابه فاستأنفوا السهر فى مندرتنا ، حيث يتكلمون فى الثورة التى قامت فجأة ، وعن الملك فاروق الذى أزيح عن عرشه ، وعن محمد نجيب الذى أعلن الجمهورية وترأسها · وحين كانت الذكريات تجرهم الى الحديث عن الترابيزة الشهيرة لكان أبى يبتسم قائلا : الملك فاروق نفسه انزاح عن عرشه ! سبحان من له الدوام ·

« تمـت »

الفهـــرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

رقم الايداع ١٩٩٥/٧٩٧٩

الترقيم الدولى I.S.B-N-977—01—4511—4

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

أتذكر الآن ما كنت أؤمن به وأورده: مصيبة هذا الشعب أنه لا يتحرك إلا إذا تقدم من يشعل الفتيل.. بغيره ينخفض منسوب الثورة فى النفوس كما ينخفض منسوب المياه فى النيل.. غير أنها نفوس لا تفقد الخصوبة أبدا. تراها فيخيل إليك أنها جفت ولم يعد فيها رمق.. فإذا بها فجأة وقد فاض بها الكيل تصبح طوفانا مخيفا. وقد علمونا فى المدرسة قول «هيرودوت» إن مصر هبة النيل فاذا كان يقصد أن خيرات مصر كلها اينعها النيل فقد فاته أن يصرح به تصريحا كاملا بأن مصر ابنة النيل ورثت عنه الغضب حين يفيض ويغرق البلاد بالطوفان كما ورثت عنه الهدوء والاستكانة فى مجرى الشعور ريثما تتفتح الورود وينضج الثمر.

من قصة :
جعفر والقضية



مطابع الهيئة المصرية ال...